

جون شتاينبك

# شترتي عدن

مكتبة  
سر من قرأ

ترجمة

فاطمة نعيمة

الكتاب كاملا



شُرُوتِي عَدْن

لزنسي تشرين .. 23

لزنسي غزة والشهداء

انضم ل مكتبة .. اصحح الكود

telegram @soramnqraa



إهداء ل.. سارة

شرقي عدن

جون شتاينبك

ترجمة: فاطمة نعيمة

تحرير: عبد المجيد سباطة

عنوان الرواية باللغة الإنكليزية:

*East of Eden*

*By John Steinbeck*

الطبعة الأولى: أغسطس - آب، 2022 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al – Rafidain 2022

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

مكتبة

t.me/soramnqraa



بغداد - العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

● www.daralrafidain.com

● info@daralrafidain.com

● daralrafidain@yahoo.com

● Dar ALRafidain دار الرافدين

● daralrafidain

● dar.alrafidain

● dar\_alrafidain

● daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعتبر عن رأي كاتبها، ولا تعتبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 42 - 0

جون شتاينبك

مكتبة | سر من قرأ

# شترتي عدن

الجزء الأول

ترجمة

فاطمة نعيمة



[www.daralrafidain.com](http://www.daralrafidain.com)



# الجزء الأول



# مكتبة الفصل 1

t.me/soramnqraa

## 1

يقع وادي ساليناس في شمال كاليفورنيا، مستنقع طويل وضيق غاف بين سلسلتين من الجبال ورياح نهر ساليناس، ويتلوّى حتى يهوي أخيراً في خليج مونتيري.

أتذكر الأسماء التي أطلقتها في طفولتي على الأعشاب والزهور السرية. أتذكر المكان الذي يمكن للضفدع العيش فيه والوقت الذي تستيقظ فيه الطيور في الصيف، أتذكر رائحة الأشجار والفصول، وكيف بدا الناس آنذاك وكيف كانوا يمشون ويلبسون، وروائحهم.. آه للروائح ذاكرة عميقة جداً.

أتذكر أن جبال غاييلان الواقعة شرق الوادي كانت جبلاً ناصعة تغمرها أشعة الشمس والجمال والدعوة إليها بحيث تغمرك بالرغبة في تسلق سفوحها الدافئة كما يتسلق الطفل حضان الأم الحنون. بينما انتصبت على الجانب الآخر سانتا لوسياس شامخة في مواجهة السماء في الغرب، محافظة على الوادي بعيداً عن البحر المفتوح، كانت مظلمة وغير ودودة. لطالما وجدت نفسي خائفاً من الغرب ومحبباً للشرق. لا أستطيع أن أفسر من أين خطرت لي فكرة كهذه، ربما يرتبط الأمر بيزوغ الصباح من فوق قمم جبال غاييلان وانجراف الليل عائداً من تلال سانتا لوسياس. ربما كان لولادة اليوم وموته جزء من شعوري تجاه سلسلتيّ الجبال.

كانت تسيل على جانبي الوادي تيارات صغيرة من أودية التلال وتصب في

قاع نهر ساليناس، ولذلك بحلول الشتاء كانت الجداول تمتلئ ومياه النهر تغمر الضفاف وتفيض، وبالنتيجة تدمر الأراضي الزراعية المحيطة وتجرف أفدنة كاملة، تهدم الحظائر والمنازل لتطفو وتتمايل بعيداً، وتحاصر المياه الأبقار والخنازير والأغنام وتغرقها في مياهها الموحلة ذات اللون البني وتجرفها إلى البحر. في أواخر الربيع تعود الضفاف الترابية للظهور، وبحلول الصيف لم يكن النهر يجري فوق سطح الأرض على الإطلاق.

تبقى هنا وهناك بعض البرك في البقع الغائرة، وتعود الحشائش والأعشاب للنمو مرة أخرى، بينما الصفصاف يستجمع هيئته وفروعه العليا بعد حطام الفيضان. كان نهر ساليناس مجرد نهر يعمل بدوام جزئي، تدفعه شمس الصيف إلى ما تحت الأرض. لم يكن نهراً بارزاً على الإطلاق، لكنه النهر الوحيد الذي نملكه ولذا تفاخرنا به دائماً - بمدى خطورته في الشتاء الرطب ومدى جفافه في الصيف الجاف. يمكنك التباهي بأي شيء إذا كان ذلك هو كل ما تملكه. ربما كلما قل ما لديك كلما كنت مطالباً بالتباهي أكثر.

أرضية وادي ساليناس الممتدة بين سلاسل الجبال والتلال مستوية، لأن هذا الوادي كان قاعاً لمائة ميل من مياه البحر. كان مصب النهر في موس لاندينغ منذ قرون هو المدخل إلى هذه المياه الداخلية. ذات مرة على بعد خمسين ميلاً أسفل الوادي حفر أبونا بئراً. بدأ الحفر أولاً في التربة السطحية ثم الحصى وصولاً إلى رمل البحر الأبيض المليء بالأصداف، والمتبوع بطبقة تحوي قطعاً من عظام الحيتان. كانت هناك عشرون قدماً من الرمل ثم الأرض السوداء مرة أخرى، وبعدها قطعة من الخشب الأحمر، ذلك النوع من الخشب الذي لا يفسد. لا بد أن هذا الوادي كان في السابق غابة. وهذه الأشياء هي آثار لأحداث وقعت تحت أقدامنا. كثيراً ما أحسست أنني عرفت ذلك البحر وغابة الخشب الأحمر من قبل.

على مدى المساحة الشاسعة من الوادي ترقد التربة متخمة وخصبة.

لم يتطلب الأمر سوى شتاء غزيراً من الأمطار حتى تعود لتغمره الأعشاب والزهور. كانت زهور الربيع في السنين الممطرة لا تصدق. أرضية الوادي بأكملها، وسفوحه أيضاً، تصبح مغطاة بسجاد من الترمس والخشخاش.

أخبرتني امرأة ذات مرة أن الزهور الملونة تبدو أكثر إشراقاً إذا تمت إضافة بعض الزهور البيضاء إليها حيث تبرز حينها ألوانها. كل بتلة من الترمس الأزرق لها حواف بيضاء بحيث تجعل الحقل يبدو أكثر زرقة مما يمكنك تخيله، واختلطت معها أزهار الخشخاش الكاليفورني ذات اللون السحري - ليست برتقالية ولا ذهبية، ولكن إذا كان الذهب الخالص سائلاً ومن الممكن استخراج رغوة كريمية منه، فقد يكون هذا الكريم الذهبي هو لون الخشخاش. عندما انتهى موسم هذه الورود ظهر الخردل الأصفر ونما إلى ارتفاع كبير. عندما وصل جدي إلى الوادي كان الخردل قد بلغ طولاً يجعل بالإمكان رؤية رأس الرجل الذي يمتطي سهوة جواده من بين الأزهار الصفراء. في المرتفعات كان العشب يتناثر مع الحوذان، الدجاج، وورود البنفسج الصفراء ذات المركز الأسود. كانت هذه الأزهار الأماكن المفتوحة أمام أشعة الشمس. تحت أشجار البلوط المظللة والقديمة، تزدهر كزبرة البئر وتفوح رائحتها الطيبة، وتحت ضفاف المياه تتدلى مجموعات هائلة من السرخس الخماسي. ثم هناك قناديل الجُرَيْس الصغيرة والفوانيس البيضاء الكريمية النادرة للغاية والساحرة، لدرجة أن الصغار عند العثور على واحدة كانوا يشعرون بأنهم مميزون طوال يومهم.

في شهر يونيو كانت الأعشاب قد تحولت إلى اللون البني، والتلال تكسوها ألوان تتراوح بين الذهبي والزعفراني والأحمر - لون باهر لا يمكن وصفه، ومنذ ذلك الحين وحتى هطول الأمطار التالية، من المتوقع أن تبقى الأرض جافة وتتوقف حركة الجداول وتظهر الشقوق على الأرض المستوية.

كان نهر ساليناس قد غرق تحت رماله. هبت الرياح على الوادي والتقطت الغبار والقش وازدادت قوة وقسوة وهي تتوجه جنوباً، ثم توقفت في المساء.

كانت ذات صرير مضطرب، وجزيئات الغبار فيها تؤذي جلد الفرد وتحرق عينيه، بحيث اضطر عمال الحقول لارتداء نظارات واقية وربط مناديل حول أنوفهم.

كانت أرض الوادي عميقة وغنية على عكس التلال المكسوة بطبقة من التربة السطحية التي لا تتجاوز عمق جذور العشب؛ وكلما ارتفعت إلى أعاليها زادت رقة التربة مع وجود الحجارة، وفي القمة لم يكن هناك سوى الحصى الصوان الجاف الذي يعكس أشعة الشمس الحارقة بشكل مذهل.

لقد تحدثتُ عن سنوات الرخاء عندما كان هطول الأمطار غزيراً. لكن كانت هناك سنوات جافة أيضاً، سنوات بثت الرعب في الوادي. كان المطر يهطل في دورة مدتها ثلاثون عاماً. هناك خمس أو ست سنوات ممطرة ورائعة تهطل فيها من تسع عشرة إلى خمس وعشرين بوصة من المطر، تجعل الأرض تضج بالعشب. تليها ست أو سبع سنوات جيدة باثني عشر إلى ست عشرة بوصة من المطر. ثم تأتي سنوات الجفاف، حيث لا تزيد عن سبع أو ثمان بوصات فقط من المطر.

في تلك السنوات كانت الأرض تجف والحشائش تخرج بشكل بائس على ارتفاع بضع بوصات، ومساحات كبيرة خالية مقفرة تظهر في الوادي. يصبح مظهر البلوط الحي قشرياً، والمريمية رمادية اللون. تتشقق الأرض وتجف الينابيع، والماشية تتغذى على الأغصان الجافة. عندها كان المزارعون ورعاة الماشية يشعرون بالحنق على وادي ساليناس. الماشية تصبح هزيلة وقد تموت جوعاً، ويضطر الناس لنقل المياه في براميل إلى مزارعهم لمجرد الشرب، بل كانت بعض العائلات تبيع كل شيء مقابل لا شيء تقريباً. مع ذلك نجح الناس دائماً في نسيان قسوة سنوات الجفاف وهم في غمرة التلذذ بسنوات الرخاء، تماماً كما فقدوا ذاكرتهم في سنوات الرخاء فيما يتعلق بمعاناة سنوات الجفاف؛ لطالما كان الأمر كذلك.

ذلك هو وادي ساليناس الشاسع، تاريخه لا يختلف كثيراً عن تاريخ باقي البلاد، في البداية كان السكان هنوداً، سلالة تفتقد الطاقة أو الابتكار أو الثقافة، شعب عاش على اليرقات والجنادب والمحار، كسالى جداً فيما يتعلق بالصيد. أكلوا ما تمكنوا من التقاطه ولم يزرعوا شيئاً. كانوا يدقون الجوز المر للحصول على الدقيق. حتى حروبهم كانت مضجرة.

ثم جاء الإسبان، سلالة جافة وجشعة، سواء كان الأمر يتعلق بالذهب أو الرب، فقد جمعوا النفوس كما جمعوا الجواهر، جمعوا الجبال والوديان والأنهار والآفاق كلها، بالطريقة التي قد يكتسب بها الرجل الآن حق بناء الكثير. انتشر هؤلاء الرجال القساة والجافون بلا كلل في الوادي. حصل بعضهم على منح كبيرة بمساحة إمارة كاملة، قدمها لهم ملوك إسبانيا الذين لم تكن لديهم أدنى فكرة عن طبيعة الهبة. عاش هؤلاء الملوك الأوائل في مستوطنات إقطاعية فقيرة وتكاثرت مواشيهم، وبشكل دوري كانوا يقتلون الماشية من أجل الجلود والشحوم ويتركون اللحوم للنسور وذئاب القيوط.

كان الإسبان يمنحون اسماً لكل ما يرونه وهذا هو الواجب الأول لأي مستكشف - واجب وامتياز. لا بد من تسمية أي شيء قبل أن تتمكن من تدوينه على خريطة المرسومة يدوياً. كانوا بالطبع أشخاصاً متدينين، والرجال الذين يستطيعون القراءة والكتابة ويحتفظون بالسجلات ويرسمون الخرائط كانوا هم الكهنة الأشداء الذين لا يكلون ويسافرون مع الجنود. وهكذا كانت الأسماء الأولى للأماكن هي أسماء القديسين أو الأعياد الدينية التي يتم الاحتفال بها في أماكن توقفهم. يوجد قديسون كثر لا ينضبون، وبذلك لا نجد التكرار في التسميات. لدينا سان ميغيل وسان مايكل وسان أردو وسان برناردو وسان بينيتو وسان لورينزو وسان كارلوس وسان فرانسيسكيو. ثم الأعياد - ناتيفيداد أي

مكان الميلاد، ناسيميتي بمعنى الميلاد، سوليداد أو الخلوة. كما تمت تسمية بعض الأماكن أيضًا على الطريقة التي شعرت بها البعثة عند استكشافها ذلك الوقت: بوينا إسبيرانزا أي أمل جميل، بوينا فيستا أي أفق جميل، وتشوالار لأنها كانت جميلة. وجاءت الأسماء الوصفية التالية: باسو دي لوس روبلز وتعني ممر أشجار البلوط بسبب كثرة تلك الأشجار في المنطقة، وساليناس وتعني الملح بسبب التربة القلوية التي كانت بيضاء كالمح.

أيضاً سُميت الأماكن نسبةً إلى الحيوانات والطيور التي شوهدت في المنطقة - غاييلانيس نسبة إلى الصقور التي كانت تحلق فوق تلك الجبال، لوس غاتوس نسبة إلى القطط البرية، وأحياناً كانت تأتي اقتراحات أسماء المناطق من طبيعة المكان نفسه: طاساجارا أي فنجان وصحن، لاغونا سيكا وتعني بحيرة جافة، وكورال دي تيرا أي سور الأرض؛ وبارايسو وتعني الفردوس لأنها كانت أشبه بالجنة.

ثم جاء الأمريكيون - كانوا الأكثر جشعاً لأن هناك عددًا أكبر منهم. أخذوا الأراضي وأعادوا صياغة القوانين، انتشرت المزارع على الأرض، أولاً في الوديان ثم أعلى منحدرات التلال، وتناثرت منازل خشبية صغيرة مسقوفة باللون الأحمر. حيثما خرج الماء من الأرض، نشأ منزل وبدأت أسرة في النمو والتكاثر. تم زرع نبات إبرة الراعي وشجيرات الورد الحمراء في الأبواب. حلت مسارات العجلات محل الممرات، وامتدت حقول الذرة والشعير والقمح المربعة محل الخردل الأصفر. كانت المتاجر ومحلات الحدادة تتوزع على كل عشرة أميال على طول الطرق وأصبحت هذه نوى المدن الصغيرة، برادلي، كينغ سيتي، وغرينفيلد.

كان لدى الأمريكيين ميل أكبر لتسمية الأماكن أكثر من الإسبان. بعد تسوية الوديان أصبحت أسماء الأماكن تشير إلى ما حدث فيها، وهذه بالنسبة لي أكثر الأسماء روعة لأن كل اسم يوحي بقصة تم نسيانها. أفكر في هذا وأنا أتأمل



في أسماء مثل بولسا نويفا والتي تعني بالاسبانية حقيبة جديدة، مورو كوجو أي الحالك الأعرج (من كان وكيف وصل إلى هناك؟)، ووادي ذيل القميص. تحمل أسماء الأماكن تهمة من أطلقوها عليها، موقرة كانت أو غير محترمة، و صافية، شعرية أو حتى مهينة. أن تسمي أي بقعة باسم قديس مثل سان لورينزو أمر، لكن وادي ذيل القميص والأعرج فهو أمر مختلف تمامًا.

الريح كانت تصفر فوق المستوطنات في فترات ما بعد الظهر، ولذلك بدأ المزارعون في وضع مصدات رياح على طول ميل من اليوكالبتوس للحفاظ على التربة السطحية المحروثة.

وهذه كانت نبذة عن الحالة التي كان عليها وادي ساليناس عندما أحضر جدي زوجته واستقر في سفوح التلال شرق كينغ سيتي.



## الفصل 2

### 1

لا بد لي من الاعتماد هنا على الحكايات والصور القديمة والقصص التي يتم سردها وعلى الذكريات الضبابية والمختلطة في محاولتي إخباركم عن عائلة هاملتون. فهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة، والسجلات المتعلقة بهم باستثناء الأوراق المعتادة المتعلقة بالولادة والزواج وملكية الأرض والوفاة قليلة.

وصل الشاب صموئيل هاملتون من شمال أيرلندا ترافقه زوجته. كان ابناً لأحد صغار المزارعين، لم يكونوا أغنياء ولا فقراء وعاشوا على أرض واحدة وفي منزل حجري واحد لمئات السنين. نجحت عائلة هاملتون في الحصول على تعليم جيد وكما هو الحال في كثير من الأحيان في ذلك البلد الأخضر، فقد كانوا مرتبطين بأشخاص عظاماً جداً وآخرين صغاراً جداً، لذلك ليس من المستغرب أن تجد أن أحد أقاربه بارون وآخر متسول. وبالطبع كانوا من نسل ملوك أيرلندا القدامى؛ كما كل إيرلندي.

لا أعرف لماذا ترك صموئيل البيت الحجري والأراضي الخضراء التابعة لأسلافه، فهو لم يكن رجلاً سياسياً، وعليه لم يكن من المنطقي أن تكون تهمة التمرد خلف هجرته، كما كان رجلاً نزيهاً وهذا يبعد عنه الشبهات. كان هناك شيء أشبه بالهمس - لم يكن حتى شائعة بل شعوراً لم يتم التحدث عنه - في عائلتي بأن الحب يكمن وراء هجرته، ولا أتحدث هنا عن حب الزوجة التي

تزوجها. لا أعرف حقيقة ما إذا كان حبًا ناجحًا أو كان قد غادر بسبب حب فاشل، لكن كنا نميل دائمًا للخيار الأول. فصموئيل كان وسيماً وجميل المظهر والأخلاق ومن الصعب تصوّر رفض أي فتاة إيرلندية له.

لقد جاء إلى وادي ساليناس مليئاً بالطاقة والأفكار والاختراعات. كانت عيناه زرقاوين للغاية وعندما يكون متعباً تنحرف إحداهما قليلاً إلى الخارج. لقد كان رجلاً شديداً ولكنه رقيق بطريقة ما. فيما يتعلق بتربية المواشي كان يبدو دائماً نظيفاً، كما امتلك يدين ذكيتين، إذ كان حداداً جيداً ونجاراً أيضاً، وبإمكانه ارتجال أي شيء بقطع من الخشب والمعدن. كان يخترع دائماً طرقاً جديدة لإنجاز المهام والقيام بها بشكل أفضل وأسرع، لكن مع كل ذلك لم يمتلك في حياته كلها أي موهبة فيما يتعلق بكسب المال. آخرون امتلكوا هذه الموهبة، أخذوا أفكار صموئيل وباعوها ومن خلالها وصلوا للثراء، بينما بقي صموئيل بالكاد يكسب أجرًا طوال حياته.

لا أعرف ما الذي وجه خطواته نحو وادي ساليناس بالتحديد، كان مكاناً من غير المحتمل أن يأتي إليه رجل من بلد بخضرة إيرلندا، لكنه على كل حال جاء قبل حوالي ثلاثين عامًا من نهاية القرن وأحضر معه زوجته الأيرلندية، وهي امرأة صغيرة جادة تفتقر لروح الدعابة، متزمتة وذات عقل صارم وقواعد أخلاقية تتربص تقريباً بكل ما قد يحمل شيئاً من المتعة.

لا أعرف أين التقى بها صموئيل وكيف استمالها وتزوجها. لا بد من وجود فتاة أخرى مطبوعة في مكان ما في قلبه، لأنه كان رجلاً محباً ومرهفاً، وزوجته لم تكن امرأة تظهر مشاعرها. على الرغم من ذلك، في كل تلك السنوات من شبابه إلى وفاته في وادي ساليناس، لم يكن هناك ما يشير إلى أن صموئيل ذهب إلى أي امرأة أخرى قط.

عندما وصل صموئيل وليزا إلى وادي ساليناس كان قد تم الاستيلاء على جميع الأراضي المستوية، القيعان الغنية، البقع الخصبة في التلال والغابات،

مع ذلك كانت لا تزال هناك أراضٍ هامشية وبعض التلال القاحلة في الشرق فيما يعرف الآن باسم كينغ سيتي. اتبع صموئيل الأعراف السائدة، حيث اشترى لنفسه ربع حقل وربعاً آخر لزوجته، وعندما حملت أخذ ربعاً للطفل. ثم على مر السنين ولد له تسعة أطفال، أربعة أولاد وخمس بنات، ومع كل ولادة تمت إضافة ربع آخر إلى المزرعة مما يجعل أرضه من أحد عشر قسماً، أو ما يعادل سبعمائة وستين فداناً.

لو كانت الأرض جيدة لكان آل هاملتون أغنياء. لكن الأفدنة كانت قاسية وجافة. لم تكن هناك ينابيع، وسطح التربة كان رقيقاً لدرجة أن الصخور كانت تبدو عالقة من خلالها. نبات الميرمية كان يكافح من أجل البقاء، وحتى أشجار السنديان كانت لا تطول بسبب قلة الرطوبة. حتى في السنوات الجيدة نوعاً ما، كان هناك القليل من العلف لدرجة أن الماشية كانت تهرب بحثاً عن الطعام. من تلك التلال القاحلة كان ينظر هاملتون إلى الأسفل، إلى الغرب حيث ثراء الأرض، النعيم والخضرة التي تحيط بنهر ساليانس.

شيد صموئيل منزله بيديه، كما بنى حظيرة وورشة للحداثة. لكنه سرعان ما اكتشف أنه حتى لو كان لديه عشرة آلاف فدان من هذه التلال القاسية فلن يستطيع أن يكسب رزقه دون ماء. شيدت يده الذكيتان عدة للماء من الآبار، وكان يملأ من الآبار الموجودة في أراضي الرجال الأكثر حظاً. اخترع آلة وانتقل بها عبر المزارع السفلية في وقت الحصاد، حيث يتعلم عن الحبوب التي لا يمكن زرعها في مزرعته. وفي ورشته كان يشحذ المحاريث ويصلحها ويلحم تلك المكسورة. كان الرجال من جميع أنحاء المنطقة يجلبون له أدواتهم التي تحتاج للإصلاح أو التحسين. علاوة على ذلك، فقد أحبوا سماع أفكار وأحاديث صموئيل عن العالم والشعر والفلسفة وما يحدث خارج وادي ساليانس. كانت نبرته عميقة ويجيد الغناء، وهناك صعود وإيقاع في حديثه يجعله شيقاً في آذان المزارعين. كانوا يحضرون معهم الويسكي أيضاً

لكن بعيداً عن أنظار نافذة المطبخ وعين السيدة هاملتون الراضة، ويقضون اليانسون البري الأخضر لتغطية رائحة الويسكي. كان يوماً سيئاً عندما لم يكن هناك ثلاثة أو أربعة رجال يقفون حوله ويستمعون إلى مطرقة وأحاديثه. كانوا يصفونه بالعقري الكوميدي وينقلون قصصه بعناية إلى منازلهم.

كان من المفترض أن يكون صموئيل ثرياً من الحفارة التي يمتلكها ومن ورشته لكن لم يكن لديه عائد كبير من العمل. لطالما كان زبائنه يضغطون عليه ويعدون بالدفء بعد الحصاد، ثم بعد عيد الميلاد، ثم فيما بعد - إلى أن ينسوا ذلك في النهاية. ولم تكن لدى صموئيل موهبة تذكيرهم بتلك الديون التي يجب عليهم سدادها أيضاً. وعليه بقي آل هاملتون فقراء.

جاء الأطفال بانتظام مثل السنوات. لم يكن العدد القليل من الأطباء في المقاطعة يذهبون إلى المزارع من أجل حالات الولادة إلا إذا تحول الأمر إلى كابوس أو استمر المخاض لعدة أيام. قام صمويل هاملتون بتوليد جميع أطفاله وقص حبالهم بدقة، وتنظيفهم. عندما ولد أصغرهم كانت هناك بعض التعقيدات الصحية وبدأ يتحول إلى اللون الأسود، وضع صموئيل فمه على فم الطفل ونفخ الهواء وامتنعه إلى أن تمكن الطفل من تولى زمام الأمور بنفسه. كانت يدا صموئيل جيدة ولطيفة لدرجة أن الجيران من مسافة عشرين ميلاً كانوا يطلبون منه المساعدة في حالات الولادة. كان جيداً ولطيفاً مع المرأة، والفرس والبقرة على حد سواء.

على رف في منزله كان يحتفظ صموئيل بكتاب أسود جميل مكتوب على غلافه بأحرف ذهبية - طب الأسرة/الدكتور غن. بعض الصفحات كانت مهترئة من الاستخدام، فيما بعضها الآخر لم ير الضوء أبداً. بالنظر خلال هذا الكتاب يمكنك معرفة التاريخ الطبي لآل هاملتون. هذه هي الأقسام المستخدمة - كسور العظام، الجروح، الكدمات، النكاف، الحصبة، آلام الظهر، الحمى القرمزية، الدفتيريا، الروماتيزم، شكاوى الإناث، الفتق،

وبالطبع كل ما يتعلق بالحمل والولادة. يمكننا القول إن عائلة هاملتون كانت محظوظة أو أخلاقية للغاية لأن الأقسام المتعلقة بمرض السيلان والزهري لم تفتح أبدًا.

لم تكن لدى صموئيل وصفة سحرية لتهدئة الهستيريا أو تسكين الأطفال. كان يملك حلاوة اللسان وحنان الروح، ومثلما كانت هناك طهارة في جسده، كذلك كانت طهارة تفكيره. حتى الرجال الذين يأتون إلى متجر الحدادة الخاص به للاستئناس بأحاديثه أصبحوا يتوقفون عن إطلاق الشتائم والكلمات النابية بينما هم برفقته، ليس من باب أي نوع من ضبط النفس ولكنه أمر يحدث تلقائيًا، وكأن هذا ليس المكان المناسب لذلك.

حرص صموئيل دائمًا على الاحتفاظ بعامل الغربة أو عدم انتمائه للمكان بحكم الولادة، ربما كان ذلك يظهر جليًا في إيقاع حديثه مما أضفى عليه تأثيرا جعل الرجال والنساء أيضًا يخبرونه بأشياء لا يمكنهم التحدث عنها للأقارب أو الأصدقاء المقربين. تلك الغرابة الطفيفة ميّزته وجعلته آمنًا كمستودع.

ليزا هاملتون على الجانب الآخر كانت إيرلندية مختلفة جدًا. كان رأسها صغيرًا ومستديرًا يتوسطه أنف بحجم زر وذقن صغير بارز، وفك متماسك وجميل على الرغم من أن ملائكة الله قد جادلوا ضده.

كانت ليزا طاهية جيدة وكان منزلها - دائمًا كان منزلها هي - نظيفًا ومرتبًا. حمل أطفالها لم يعقها كثيرًا - كان عليها فقط توخي الحذر لمدة أسبوعين على الأكثر. لا بد أن عظام حوضها مصنوعة من عظم الحوت، فقد أنجبت أطفالًا بأحجام كبيرة واحدًا تلو الآخر.

كان لديها حس متطور فيما يتعلق بمفهوم الخطيئة. فالكسل خطيئة، ولعب الورق على سبيل المثال هو نوع من الكسل بالنسبة لها. كما أنها ترتاب من المرح سواء كان ذلك بالرقص أو الغناء أو حتى مجرد الضحك. لطالما شعرت أن الناس الذين يقضون وقتًا ممتعًا هم أناس منفتحون على الشيطان، وهو أمر

بعيد عن الحقيقة، لأن صموئيل كان رجلاً يضحك، يبدو أن صموئيل كان منفتحاً على مصراعيه للشيطان، وزوجته تتولى حمايته كلما استطاعت.

شعرها كان دائماً مشدوداً للخلف ومربوطاً في عقدة صلبة. وبما أنني لا أتذكر كيف كانت ترتدي ملابسها، فلا بد أنها كانت ترتدي ملابس تلائم نفسيتها تماماً. لم يكن لديها شرارة من الفكاهة، وفي بعض الأحيان فقط تخرج منها شرارة من الذكاء. أحفادها شعروا دائماً بالرهبة منها بسبب صرامتها. لقد عانت طوال حياتها بشجاعة وبدون طلب أي تفسير، مقتنعة أن هذه هي الطريقة التي أراد الله أن يعيشها الجميع، مؤمنة ومقتنعة أن المكافآت ستأتي لاحقاً.

## 2

عندما وصل الناس إلى الغرب لأول مرة، خاصة أولئك القادمون من المزارع التي يمتلكونها ويتقاتلون عليها في أوروبا، ورأوا المساحات الشاسعة من الأراضي التي يمكنهم الحصول عليها، بدأت تظهر حالة من الجشع، لقد أرادوا المزيد والمزيد من الأراضي - أرض جيدة إن توفرت، وإن لم تكن جيدة فلا بأس أيضاً. أتوا وهم يحملون ذاكرة أوروبا الإقطاعية حيث تأسست العائلات العظيمة وظلت عظيمة بسبب الأملاك. استولوا على أراض لم يكونوا بحاجة لها ولا يمكنهم استخدامها؛ أخذوا الأراضي التي لا قيمة لها لمجرد امتلاكها وبذلك تغيرت كل النسب. كان الرجل الذي من الممكن اعتباره ميسور الحال بسبب عشرة أفدنة في أوروبا فقيراً على الرغم من امتلاكه لألفين في كاليفورنيا.

لم يمض وقت طويل حتى تم الاستيلاء على جميع الأراضي الموجودة في التلال القاحلة بالقرب من مدينة كينغ سيتي وسان ألدو، وتناثرت العائلات عبر تلك التلال وهي تبذل قصارى جهدها لكسب لقمة العيش من التربة الصخرية الرقيقة، كانوا يعيشون هم وذئاب القيوط حياة يائسة. لقد هبطوا بلا مال ولا



معدات ولا أدوات أو تأمين، هاجروا دون معرفة البلد الجديد ولا كيفية التعامل مع أرضه. لا أعرف ما إذا كان الغباء المستفحل أو الإيمان الراسخ هو ما جعلهم يقدمون على ذلك، لكن من المؤكد أن هذا المشروع قد اكتمل تقريباً، وقد نجت العائلات بالفعل ونمت. كان لديهم أداة أو سلاح أو شك على النفاذ أو ربما هو في سبات لفترة من الزمن. يقال إنهم بسبب إيمانهم التام بإله عادل وضعوا إيمانهم هناك وتركوا أنفسهم للعناية الالهية. لكنني أعتقد أنهم وثقوا بأنفسهم واحترموا أنفسهم كأفراد، لأنهم كانوا يعرفون بما لا يدع مجالاً للشك قيمتهم والتي من المحتمل أن تكون أخلاقية - ولهذا السبب يمكنهم نسب شجاعتهم وكرامتهم إلى الرب ومن ثم استعادتها. اختفت اليوم مثل هذه الأمور ربما لأن الرجال لم يعودوا يثقون في أنفسهم، وعندما يحدث هذا لا يتبقى سوى العثور على رجل قوي واثق، رغم أنه قد يكون مخطئاً.

بينما جاء الكثير من الناس إلى وادي ساليناس وهم مفلسون، كان هناك آخرون وصلوا ومعهم المال لبدء حياة جديدة بعد أن باعوا أملاكهم في مكان آخر. عادة ما كان هؤلاء يشترون الأراضي الجيدة، يبنون عليها منازلهم من الخشب المسطح ويفرشونها بسجاد فاخر ويزينون نوافذها بالزجاج الملون البراق. كان هناك عدد من هذه العائلات التي حصلت على الأراضي الجيدة في الوادي، فقاموا بإزالة الخردل الأصفر وزرعوا مكانه القمح.

أحد هؤلاء كان آدم تراسك.



## الفصل 3

### 1

ولد آدم تراسك في مزرعة على مشارف بلدة صغيرة ليست بعيدة في ولاية كونيتيكت. كان الإبن الوحيد لوالديه، ولد بعد ستة أشهر من انضمام والده لفوج كونيتيكت في عام 1862. والدة آدم كانت تدير المزرعة وأنجبت آدم وهي وحدها، ومع ذلك بقي لديها الوقت لاعتناق الشيوصوفيا البدائية. كانت تؤمن أن زوجها سيقتل على يد المتمردين الهمجيين، وأعدت نفسها للتواصل الروحي معه فيما بعد. عاد إلى المنزل بعد ستة أسابيع من ولادة آدم. كانت ساقه اليمنى مرفوعة قليلاً عند الركبة حيث كان قد تعثر على ساق خشبية خام نحتها بنفسه من خشب الزان، وفي جيبه كانت الرصاصة التي أعطوه إياها ليعضها بينما كانوا يبترون ساقه البالية.

والد آدم، سايروس، كان شيطاناً طائشاً، يقود عربة ذات عجلتين بسرعة كبيرة، وتمكن من جعل ساقه الخشبية تبدو مرحة وانسجم معها سريعاً. لقد استمتع بمسيرته العسكرية نظراً لكونه متوحشاً بطبيعته، فقد أحب فترة تدريبه القصيرة وشرب الخمر والمقامرة والعاهرة التي كانت ضمن ذلك. ثم سار جنوباً مع مجموعة من البدلاء، واستمتع برؤية البلد وسرقة الدجاج ومطاردة الفتيات ومضاجعتهن بين أكوام القش. لم يشعر كما الآخرين بالتعب اليأس من المناورات المطولة والقتال. الساعة الثامنة صباحاً من صباح أحد أيام الربيع كانت المرة الأولى التي رأى فيها العدو، وفي الساعة الثامنة والنصف كان قد

أصيب في ساقه اليمنى بحيث تهشمت العظمة بطريقة يستحيل معها إصلاحها. حتى في ذلك الوقت كان محظوظاً، لأن المتمردين تراجعوا وصعد الجراحون الميدانيون لعلاج المصابين على الفور. عاش سايروس تراسك خمس دقائق من الرعب بينما كانوا يقطعون الشظايا ويكون الجرح المفتوح. آثار الأسنان في تلك الرصاصة أثبتت ذلك.

عانى من ألم شديد أثناء التئام الجرح في ظل ظروف التعفن غير العادية في المستشفيات في تلك الأيام، لكن سايروس كان يتمتع بالحيوية والطيش بحيث حتى عندما كان ينحت ساقه البديلة ويتأرجح على عكاز، أصيب بالسيلان بسبب معاشرته لفتاة زنجية أغوته وكلفته عشرة سنتات. لم يكن سايروس بطبيعته يعرف الكثير عن الأطفال وعليه فقد أهمل إطعام آدم، لكن سرعان ما حل المشكلة بغمس خرقة في الويسكي وأعطاهما للطفل ليرضعها، وبعد ثلاث أو أربع مرات من ذات الإجراء غرق آدم في النوم، وكلما استيقظ أخذ قطعة القماش المغموسة ووضعها في فم الطفل الذي بقي مخموراً لمدة يومين ونصف. مهما كان ما حدث في دماغه النامي آنذاك فقد ثبت أنه مفيد لعملية التمثيل الغذائي: ففي هذين اليومين ونصف اليوم كانت صحته جيدة، وعندما خرج والده أخيراً في نهاية الثلاثة أيام واشترى عنزة، شرب آدم الحليب بلهفة وتقياً وشرب أكثر. لم يجدها والده ردة فعل مزعجة لأنه كان يفعل نفس الشيء.

في غضون شهر وقع اختيار سايروس تراسك على ابنة مزارع من جيرانه تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً. كان إعلان الخطوبة سريعاً وبسيطاً ولم يكن هناك شك في عقل أي شخص حول نواياه. كان لدى المزارع ابنتان وأليس هي الكبرى وكان هو أول من تقدم طالباً الزواج بها.

أراد سايروس امرأة تعني بآدم واحتاج إلى من يتكفل بتدبير المنزل والطبخ، وتوظيف خادم لذلك يكلف مالا. بالإضافة لذلك كان رجلاً قوياً ويحتاج إلى جسد امرأة، وهذا أيضاً يكلف مالا - إلا إذا كان متزوجاً منها. في غضون

أسبوعين نجح في استمالتها، الزواج بها، وجعلها حبلى بطفلها الأول. لم يجد جيرانه تصرفاته متسرعة. كان من الطبيعي جدًّا في تلك الأيام أن يتخذ الرجل ثلاث أو أربع زوجات في حياته الطبيعية.

كانت أليس تراسك تحمل عددا من الصفات الرائعة فيما يتعلق بالاعتناء بشؤون المنزل. لم تكن بالغة الجمال لذلك لم تكن هناك حاجة لمراقبتها. كانت عيناها شاحبتين، وبشرتها باهتة، وأسنانها ملتوية، لكنها بصحة جيدة ولم تشكو أبداً خلال فترة الحمل. لم يعلم أحد ما إذا كانت تحب الأطفال أم لا. لم تُسأل، ولم تكن لتقول شيئاً أبداً ما لم تُسأل. ربما كان هذا أعظم فضائلها كما كان سايروس يرى، فهي لم تقدم أبداً أي رأي أو بيان في أي موضوع، بل أعطته انطباعاً بأنها تستمع لأحاديثه أثناء قيامها بالأعمال المنزلية.

تبين أن شباب أليس وقلة خبرتها وكلامها يمثلون أصولاً لسايروس. بينما كان يواصل تشغيل مزرعته حيث كانت هذه المزارع تعمل في الحي، دخل في مهنة جديدة - وهي مهنة الجندي القديم. وهذه الطاقة التي جعلته جامعاً جعلته يفكر؛ لا أحد خارج وزارة الحرب يعرف جودة ومدة خدمته. كانت ساقه الخشبية بمثابة شهادة إثبات تجنيده وضمانه أنه لن يضطر إلى فعل ذلك مرة أخرى. بدأ بخجل يحكي لأليس عن حملاته، ولكن مع تطور أسلوبه في السرد زادت معاركه. معلوم أنه من البداية كان يكذب، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأ بالتأكد من صحة كل قصة من قصصه. قبل أن يدخل الخدمة لم يكن مهتماً كثيراً بالحرب لكنه الآن يشتري كل كتاب عن الحرب ويقرأ كل تقرير ويشارك في صحف نيويورك ويدرس الخرائط. كانت معرفته بالجغرافيا مهتزة ولم تكن معلوماته عن القتال تُذكر، لكنه الآن أصبح خبيراً في شؤون الحرب والحركات والحملات، وصولاً إلى الوحدات المشاركة والكتائب وأين نشأت. ومن خلال قصصه أصبح هو أيضاً مقتنعاً أنه كان هناك.

كل هذا التطور التدريجي حدث بينما كان آدم يخطو نحو الصبا ويخلفه

أخوه الصغير غير الشقيق. كان آدم وتشارلز الصغير يجلسان أمام والدهما صامتين باحترام بينما يشرح الأب كيف كان يفكر كجندي ويخطط وأين ارتكبوا أخطاءهم وما كان يجب عليهم فعله. عندما كان يخبر رفيقيه - غرانت ومكليان - أين كانا مخطئين ويطلب منهما العمل بنصيحته للتعامل مع الموقف، لكن كما دائماً، يثبت أنه كان على حق بعد رفضهم العمل بنصيحته.

كان هناك شيء واحد لم يفعله سايروس، وربما كان هذا ذكاء منه. لم يرق نفسه مرة واحدة إلى رتبة مفوض. بدأ بصفته الجندي تراسك، وبقي في كل القصص الجندي تراسك. في الرواية المثالية جعله في مرحلة ما الأكثر قدرة على الحركة وخصوصية في كل مكان من تاريخ الحرب، بحيث أصبح متواجداً فيما يصل إلى أربعة أماكن في وقت واحد. لكن ربما بشكل غريزي لم يرو تلك القصص بشكل متقارب أبداً كي لا ينكشف. كانت لدى أليس والأولاد صورة مكتملة عنه: جندي خاص وفخور بنفسه، يتواجد دائماً في المكان الذي ينجز فيه كل عمل مذهل ومهم، يتجول بحرية في اجتماعات الضباط ويعترض على قراراتهم ويقوم بتغييرها أيضاً.

أثر خبر وفاة لينكولن على سايروس بشكل عميق. كان يتذكر دائماً ما شعر به عندما سمع الخبر لأول مرة. ولا يمكنه أن يتذكر الأمر أو يسمع عنه دون أن يذرف الدموع. وعلى الرغم من أنه لم يقل ذلك مطلقاً، إلا أنه كان يترك انطبعا لا يمكن تغييره بأن الجندي سايروس تراسك كان أحد أقرب أصدقاء لينكولن وأكثرهم ثقة. عندما أراد السيد لينكولن أن يعرف عن الجيش، الجيش الحقيقي، وليس أولئك الشبهيين بالدمى الراقصة، كان يلتفت إلى الجندي تراسك. لا أحد يستطيع أن يدعوه كاذباً. وكان هذا بالأساس لأن الكذب كان معششا في رأسه، وأي حقيقة تخرج من فمه تحمل لون الكذب.

في وقت مبكر بدأ في كتابة الرسائل ثم المقالات حول سير الحرب، وكانت استنتاجاته ذكية ومقنعة، في الحقيقة كان سايروس يملك عقلاً عسكرياً ممتازاً.

كانت انتقاداته لشؤون الحرب وتنظيم الجيش ممتعة ولا تقاوم وبالنتيجة جذبت مقالاته في مختلف المجالات الانتباه. وأحدثت رسائله الموجهة إلى وزارة الحرب، والتي نُشرت في الصحف، تأثيراً جاداً في القرارات المتعلقة بالجيش. كما أنه من الصعب تجاهل متحدث باسم كتلة قوامها يقرب من مليون رجل، ومثل هذا الصوت في الأمور العسكرية أصبح سايروس تراسك. قيل إنه يستشار في شؤون تنظيم الجيش، وعلاقات الضباط والأفراد والمعدات. خبرته كانت واضحة لكل من سمعه وباختصار كان عبقرياً في شؤون الجيش. بالإضافة لذلك، كان أحد المسؤولين عن تنظيم منظمة جيش الجمهورية الأعظم كقوة متماسكة وفعالة في الحياة الوطنية. بعد العمل في عدة مناصب دون أجر في تلك المنظمة، تم تعيينه كسكرتير لها مع أجر، وهو منصب احتفظ به لبقية حياته، وسافر من خلاله من أحد أطراف البلاد إلى الطرف الآخر، لحضور المؤتمرات والاجتماعات والمعسكرات. الكثير من هذا كان يحدث في حياته العامة.

حياته الخاصة أيضاً كانت مرتبطة بمهنته. كان رجلاً مخلصاً قام بتنظيم منزله ومزرعته على أساس عسكري. طالب بالحصول على تقارير عن تسيير أموره المادية الخاصة. ربما أليس أيضاً فضلت ذلك بهذه الطريقة كونها لم تكن تحب الحديث ولذلك كان تقديم التقرير المقتضب أسهل بالنسبة لها. كانت منشغلة بالأولاد الذين يكبرون سريعاً والحفاظ على نظافة المنزل وغسل الملابس. كما كان عليها أن تحافظ على طاقتها، رغم أنها لم تذكر ذلك في أي من تقاريرها. دون سابق إنذار كانت تشعر بالإرهاك وتغادرها طاقتها وعليها أن تجلس وتنتظر حتى تعود. في الليل كانت تغرق في العرق. كانت تعلم جيداً أنها تعاني من مرض السل، وكان من الممكن أن تعرفه حتى لو لم يتم تذكيرها به من خلال السعال الشديد والمؤلّم. لم تعرف كم ستعيش؛ البعض يبقى لبضع سنوات. لم تكن هناك أي قاعدة حول هذا الموضوع. ربما لم تجرؤ على ذكر ذلك لزوجها. فهو كان قد ابتكر طريقة للتعامل مع المرض

تشبه العقوبة، كان يعالج آلام المعدة بعملية تطهير عنيفة لدرجة تجعل نجاة الشخص منها أمر أقرب للأعجوبة. إذا ذكرت له حالتها ربما يجبرها سايروس على أخذ علاج قد يقتلها قبل أن يتمكن السل من فعل فعلته. علاوة على ذلك، عندما أصبح سايروس أكثر عسكرية، تعلمت زوجته منه بشكل تلقائي الأسلوب الوحيد الذي يمكن للجندي من خلاله البقاء على قيد الحياة، لم تجعل نفسها ملحوظة أبدًا، ولم تتحدث مطلقاً ما لم يتم التحدث إليها، وأدت ما كان متوقعاً منها وليس أكثر ولم تحاول نيل أي ترقية. أصبحت في المرتبة الخلفية. كان الأمر أسهل بكثير بهذه الطريقة. تقاعدت أليس إلى الخلف حتى أصبحت بالكاد مرئية.

كان الأولاد الصغار هم من اعتنوا بها حقاً. قرر سايروس أنه على الرغم من أن الجيش لم يكن مثاليًا إلا أنه لا يزال المهنة المشرفة الوحيدة للرجل. أحزنه واقع أنه لا يمكن أن يكون جنديًا دائمًا بسبب ساقه الخشبية لكنه لم يتخيل أي مهنة لأبنائه باستثناء الجيش. شعر أن على الرجل إتقان التجنيد من التدريب العملي في الرتب كما فعل. بعد ذلك سيعرف ما يدور حوله من خلال التجربة العملية وليس من الرسوم البيانية والكتب المدرسية. علمهما دليل الأسلحة عندما كانا بالكاد يستطيعان المشي. بحلول الوقت الذي كانا فيه في المدرسة الابتدائية كان التدريب عن قرب أمرًا طبيعيًا مثل التنفس ومكروها مثل الجحيم. كان يقسو عليهما بالتمارين ويضرب الإيقاع بعصا على ساقه الخشبية. جعلهما يمشيان لأميال حاملين حقائب محملة بالحجارة لتقوية أكتافهما وبقي يتدرب باستمرار على الرماية في الغابة خلف المنزل.

## 2

عندما يكتشف الطفل لأول مرة - أي تبلور في رأسه الصغير فكرة أن البالغين ليسوا آلهة ذكاء، وأن أحكامهم ليست حكيمة دائمًا، وتفكيرهم ليس



بالضرورة صحيحاً، وأن جملهم ليست عادلة دوماً - يهوي عالمه ويدخل في حالة من الذعر، حالما تسقط الآلهة يذهب كل الأمان. وهناك شيء واحد مؤكد حول سقوط الآلهة: إنها لا تسقط بشكل عادي، بل تتحطم بقوة مهولة أو تغرق بعمق في الوحل. إن إعادة بنائها مرة أخرى عمل شاق، ولا يعود بعدها عالم الطفل كما كان مرة أخرى. إنه نوع مؤلم من النمو، وآدم اكتشف والده. لم يكن الأمر أن والده قد تغير ولكن آدم أصبح يدرك بعض الأمور الجديدة. لطالما كان يكره الانضباط كما قد يفعل أي مخلوق آخر، لكنه كان شعوراً قوياً وحقيقياً وحتماً مثل الحصبة. بالإضافة لذلك، بنقرة بقوة وسرعة الضوء في دماغه تيقن آدم أنه بالنسبة له على الأقل لم تكن أساليب والده تشير إلى أي شيء في العالم سوى نفسه. لم يكن يرغبه وأخيه على ممارسة التمارين الشاقة والتدريب لصالحهما على الإطلاق ولكن فقط لجعل سايروس نفسه يبدو رجلاً عظيماً. ونفس النقرة في الدماغ أخبرت آدم أن والده لم يكن رجلاً عظيماً، وأنه في الواقع كان رجلاً صغيراً قوي الإرادة يرتدي بذلة عسكرية ضخمة. من يعلم ما الذي يسبب هذه الصدمة - هل يكتشفها الطفل من نظرة في العين تكشف كذبه، أهي لحظة تردد؟ يتبعها انهيار تام للرب في عقل الطفل.

كان آدم الصغير دائماً طفلاً مطيعاً لكن شيئاً ما فيه كان ينكمش من العنف والخلافات، من التوترات الصامتة الصاخبة التي يمكن أن تمزق من في المنزل. لقد ساهم في خلق الهدوء الذي كان يتمناه من خلال عدم التعامل بأي عنف، ولكي يتمكن من تحقيق ذلك كان عليه أن يظل في الخفاء وغطى حياته بغطاء من الغموض، لكن خلف عيونه الهادئة استمرت حياة مليئة بالثراء. هذا لم يحمه من سوء المعاملة لكنه منحه حصانة.

أخوه غير الشقيق تشارلز والذي يصغره بحوالي عام كان على العكس يشبه والدهما. كان تشارلز رياضياً بالفطرة، ولديه هوس التوقيت والتنسيق بشكل غريزي ورغبة في المنافسة والفوز على الآخرين. كان تشارلز الصغير يفوز في

جميع المسابقات مع آدم سواء كانت تنطوي على مهارة أو قوة أو ذكاء سريع، فاز بها بسهولة شديدة لدرجة أنه فقد الاهتمام في وقت مبكر جدًا وكان عليه أن يجد منافساً له بين الأطفال الآخرين. وهكذا نشأ نوع من المودة بين الولدين لكنه كان أشبه بعلاقة بين أخ وأخته أكثر منه بين أخوين. قاتل تشارلز أي فتى يتحدى أو يهاجم آدم وعادة ما كان ينتصر عليه. دائماً ما حمى آدم من قسوة أبيه باللجوء للكذب أو حتى اللوم. بقي تشارلز يشعر تجاه أخيه بالعاطفة التي يشعر بها المرء تجاه الأشياء التي لا حول لها ولا قوة، كالجراء العمياء والأطفال حديثي الولادة.

كان آدم يبحث عن الحقيقة، حقيقة الأشياء والناس في عالمه، خارج عقله المغطى، خارج الأنفاق الطويلة لعينيه: والده، رجل قوي برجل واحدة تم تركيبها بشكل يجعل الأولاد الصغار يشعرون بأنهم أصغر، والأغبياء يدركون غباءهم بشكل أوضح؛ وبعد ذلك - بعد أن تحطم الإله - رأى والده كشرطي بليد منذ ولادته، الجندي الذي قد يتم الالتفاف حوله أو خداعه ولكن لا يتم تحديه أبداً. ومن بين الأنفاق الطويلة في عينيه، رأى آدم أخاه غير الشقيق تشارلز كائناً مشرقاً ومختلفاً، محظوظاً بالعضلات والعظام القوية، والسرعة واليقظة، باختصار كان مختلفاً تماماً. وما من مجال لمقارنته بنفسه. لا يخطر ببال آدم أن يثق بأخيه بشكل تام بحيث يخبره برغباته وأحلامه والخطط والملذات الصامتة التي تكمن فيما وراء عينيه. كان آدم سعيداً بتشارلز بالطريقة التي تسعد بها المرأة بامتلاك قطعة ماس كبيرة، وكان يعتمد على أخيه بالطريقة التي تعتمد بها تلك المرأة على لمعان الماس والأمان الذاتي المرتبط بقيمته؛ لكن مسألة الحب والعاطفة والتعاطف كانت أبعد من كل ذلك.

فيما يتعلق باليس تراسك، أخفى آدم شعوراً يشبه العار المكتوم. لم تكن والدته، وكان هو يعلم لأنه قيل له ذلك مرات عديدة، لم تكن الأمور التي قيلت ولكن النبوة التي قيلت بها، لقد علم أنه كانت لديه أم ذات يوم وأنها فعلت

شيئاً مخزياً، ونتيجة لخطئها ذاك لم تبق هنا. اعتقد آدم أحياناً أنه إذا استطاع فقط اكتشاف الخطيئة التي ارتكبتها والدته، يمكنه حينها ارتكابها أيضاً ويمكنه مغادرة هذا المنزل.

عاملت أليس الأولاد على قدم المساواة، اعتنت بهما وأطعمتهما، وتركت الأمور الأخرى لأبيهما الذي أعلن بوضوح وبشكل نهائي أن تدريب الأولاد جسدياً وذهنياً كانت مسؤوليته الحصرية. حتى الثناء والتوبيخ لم يسمح لها بهما، ولم تشتك أليس أبداً أو تتشاجر أو تضحك أو تبك. تم تدريب فمها على خط لا يخفي شيئاً ولا يقدم شيئاً أيضاً. ولكن ذات مرة عندما كان آدم صغيراً، كان يتجول بصمت في المطبخ وأليس لم تره. تسلل آدم سرّاً وخرج من المنزل إلى الغابة، إلى مكان محمي خلف جذع يعرفه جيداً. وصدّم وهو يلمح أليس عارية. أصبح لحظتها يتنفس باضطراب شديد، ذلك أنها كانت تبسم له. تساءل كيف تجرأت على مثل هذا التصرف، ثم شعر بنوع غريب من الشوق إليها، شوق حميمي. لم يكن يدرك ما يحدث، لكن كان هناك شعور غامر بالتوق والجوع إلى الثدي والحلمة، ورهافة الحضن، ونبرة الحنان والرحمة، كل هذه المشاعر كانت جزءاً مما أحس به وقتها، ولم يكن يعلم بوجود مثل هذه الأشياء قبل ذلك، فكيف يمكنه أن يفقدها؟

بقي يطاردها بعد ذلك وكأنهما في لعبة، يستلقي هناك يوماً بعد يوم كما حصاة صغيرة ويشاهد جرد الأرض العجوز وهو يجلب أطفاله إلى الشمس، وعندما تخرج يختبئ في زاوية غير متوقعة للنظر إليها. أحياناً عندما تكون بمفردها، وتعرف أنها وحدها، كانت تسمح لخيالها بالتحليق.. وتبتسم. وكان من المدهش رؤية مدى السرعة التي كانت تستطيع بها إعادة تلك الابتسامة إلى الأرض، كما كان جرد الأرض يعيد صغاره في حفرتهم. أخفى آدم كنزه في أعماق أنفاقه السرية، لكنه كان يميل إلى دفع ثمن سعادته بشيء ما. بدأت أليس في العثور على الهدايا في سلة الخياطة الخاصة بها، في حقيبتها البالية،

تحت وسادتها - ورود القرنفل، وريشة من ذيل العصفور الأزرق، ونصف عود من شمع الختم الأخضر، ومنديل مسروق. في البداية شعرت أليس بالدهشة ولكن بعد ذلك توقف الأمر. عندما وجدت بعض الهدايا غير المتوقعة اختفت ابتسامة الحديقة بالسرعة التي يومض بها جلد سمك السلمون المرقط عندما تسقط عليه أشعة الشمس. لم تطرح أي أسئلة ولم تدل بأي تعليق.

أصبح سعالها صاخبًا ومزعجًا للغاية في الليل لدرجة أن سايروس اضطرب أخيرًا إلى وضعها في غرفة أخرى لأنه لم يتمكن من النوم وهي بتلك الحالة. لكنه زارها كثيرًا - قافزًا على قدمه العارية، ومتكئًا بيده على الحائط. كان الأولاد يسمعون ويشعرون بتحركاته في المنزل وزياراته لسرير أليس.

كان أكثر ما يؤرق آدم ويخشاه هو اليوم الذي سيؤخذ فيه للالتحاق بالجيش. لم يدعه والده ينسى أبدًا أن مثل هذا الوقت سيأتي، وكرر دائمًا أن آدم هو من احتاج إلى الجيش ليصنع منه رجلاً. تشارلز كان تقريباً قد أصبح رجلاً بالفعل في عمر الخامسة عشرة، بل ورجلاً خطيراً.

### 3

بمرور السنين نمت المودة بين الصبيين. ربما كان يشوب شعور تشارلز شيء من الازدراء، لكنه كان ازدراءً واقئياً. حدث في إحدى الأمسيات أن الأولاد كانوا يلعبون لعبة جديدة في الباحة، حيث يتم وضع عصا صغيرة مدببة على الأرض، ثم يتم ضرب أحد طرفيها بمضرب بحيث تطير في الهواء ثم حينها تضرب بأكبر قوة ممكنة، تسمى هذه اللعبة بيوي.

لم يكن آدم جيداً في الألعاب البدنية بشكل عام، لكن في هذه اللعبة وسواء كان ذلك بسبب الحظ الجيد أو التوقيت المناسب، تمكن من التفوق على أخيه تشارلز وضرب عصا البيوي أبعد منه؛ لأربع مرات! كانت تجربة جديدة بالنسبة له، وغمره الفرح والاعتزاز بنفسه بحيث نسي تفقد حال ومزاج

أخيه كما يفعل عادة. في المرة الخامسة التي ضرب فيها البيوي طارت العصا في الهواء وابتعدت كما نحلة في حقل. استدار بسعادة نحو تشارلز وتجمد وهو يرى ملامح وجه أخيه قد تحولت الى كتلة من الغضب والكرهية، ابتسم بارتباك في وجهه قائلاً: «أعتقد أنه كان مجرد حادث». أراهن أنني لا أستطيع فعل ذلك مرة أخرى».

ثبت تشارلز العصا في الأرض وضربها، وبينما ارتفعت في الهواء تأرجحت وارتدت نحوه. تحرك تشارلز ببطء نحو آدم بعينين باردتين غاضبتين، بينما تراجع آدم في رعب دون امتلاك الجرأة على الركض لأن شقيقه سيسبقه دون شك. كان يتراجع ببطء بعينين خائفتين وحلق جاف، لكن تشارلز اقترب منه وضربه على وجهه بمضربه الخشبي، دون مقاومة اكتفى آدم بتغطية أنفه النازفة بيديه، لكن تشارلز لم يتوقف وواصل ضربه في ضلوعه ورأسه، بل وحتى عندما فقد آدم الوعي استمر تشارلز في ركله بشدة في بطنه إلى أن تعب وغادر المكان تاركاً شقيقه هناك على الأرض.

بعد فترة عاد آدم لوعيه لكنه كان يتنفس بصعوبة. ووجع عضلات بطنه جعله يقع مجدداً عندما حاول النهوض، رأى أليس تنظر إلى الخارج من خلف النافذة وكان هناك شيء في وجهها لم يره من قبل. لم يكن يعرف ما هو، لكنه لم يكن ليناً أو ضعفاً، بل شيئاً أقرب للكرهية. عندما لمحتة ينظر إليها، تركت الستائر مفتوحة واختفت. نهض آدم أخيراً عن الأرض وتحرك إلى المطبخ، هناك وجد حوضاً من الماء الساخن جاهزاً له ومنشفة نظيفة بجانبه، وزوجة أبيه تسعل في غرفتها.

كان لدى تشارلز ميزة واحدة رائعة؛ لم يكن أسفاً مطلقاً، ولم يذكر الضرب قط، بل وبدا أنه لم يفكر به مرة أخرى. لكن آدم حرص على عدم فوزه مرة أخرى - في أي شيء. لقد شعر دائماً بالخطر الكامن في أخيه، لكنه أدرك الآن أنه يجب ألا ينتصر عليه أبداً ما لم يكن مستعداً لقتل تشارلز.

لم يخبر تشارلز والده عن الضرب، وكذلك فعل آدم وبالتأكيد لم يخبر ليس، مع ذلك بدا أن والدهما يعلم. أصبح أكثر لطفاً وليونة في تعامله معه في الأشهر التي تلت تلك الحادثة، لم يعد يعاقبه. يلقي عليه محاضرة كل ليلة تقريباً لكن ليس بشدة؛ وآدم كان أكثر خوفاً من اللطف مما كان عليه من الشدة، لأنه بدا وكأنه يتدرب على أن يكون ضحية، كما لو كان يتعرض للرفق قبل الموت، أو كما كان الضحايا يُساقون للتضحية بهم للآلهة، يتم احتضانهم وغمرهم بالمحبة والاعتزاز حتى يذهبوا لمصيرهم بسعادة ولا يغضبوا الآلهة بتعاستهم.

شرح سايروس لآدم بهدوء طبيعة الجندي. وعلى الرغم من أن معرفته جاءت من البحث بدلاً من الخبرة إلا أنه كان يعلم التفاصيل وكان دقيقاً. أخبر ابنه عن كرامة الجندي، وكيف أنها ضرورية في ضوء كل إخفاقات الإنسان. ربما اكتشف سايروس هذه الأشياء في نفسه بينما كان يسرد حكاياته. مع الوقت كان أسلوبه في الحديث قد أصبح مختلفاً تماماً عن التلويح والصراخ الذي كان يمتاز به في أيام شبابه. وبما أن الشعور بالوهن أصبح يوماً بعد يوم يتراكم على الجندي، على حد قول سايروس، وحتى لا يكون تعيساً جداً عندما يحين الوقت وتنتهي رحلته بموت قذر وبلا معنى - تحدث مع آدم وحده ولم يسمح لتشارلز بالانضمام إليهما.

أخذ سايروس آدم للسير معه في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام، وانهمرت الاستنتاجات السوداوية لكل ما تعلمه في حياته ممزوجاً بالخوف الشديد على ابنه. قال له: «أريدك أن تعلم أن الجندي هو أقدس البشر لأنه الأكثر اختباراً - وأعني الأكثر اختباراً على الإطلاق. انظر - في التاريخ كله تم تعليم الرجال أن قتل رجل لآخر هو أمر شرير لا ينبغي فعله أو قبوله. يجب معاقبة أي رجل يقتل لأنها خطيئة عظيمة، بل أسوأ جريمة عرفتها البشرية. ثم نأخذ جندياً ونضع القتل بين يديه ونقول له: استخدمه جيداً، استخدمه بحكمة. نقول ذلك

دون أن نفكر فيما ندفعه لفعله. اخرج واقتل أكبر عدد ممكن من إخوتك من نوع أو تصنيف معين. وسنكافئك على ذلك لأنه يعد انتهاكاً لتدريبك المبكر». بلل آدم شفتيه وحاول طرح السؤال الذي لطالما بقي يؤرقه وفشل، ثم حاول مرة أخرى. «لماذا عليهم أن يفعلوا ذلك؟»

تأثر سايروس بشدة وتحدث كما لم يتحدث من قبل. قال: «لا أعرف». لقد درست وربما تعلمت كيف تسير الأمور، لكنني لست قريباً حتى من فهم سبب وجودها، لا تتوقع أن تجد الناس يفهمون ما يفعلونه، العديد من الأشياء يتم القيام بها بشكل غريزي، كما يصنع النحل العسل أو يغمس الثعلب كفوفه في مجرى مائي لخداع الكلاب. لا يستطيع الثعلب اخبارك عن سبب فعله لهذا، ثم أي نحلة تتذكر الشتاء أو تتوقع عودته مرة أخرى؟ عندما علمت أنه حان وقت ذهابك، فكرت في ترك احتمالات المستقبل هي من تتيح لك اكتشاف نتائج الخاصة، لكن بعد ذلك شعرت أنه من الأفضل أن أحملك بالقليل الذي أعرفه. ستذهب قريباً - لقد بلغت العمر المناسب لذلك».

أجابه آدم بسرعة: «لا أريد ذلك».

تابع والده دون الاصغاء له: «ستلتحق قريباً، وأريد أن أخبرك بهذا حتى لا تتفاجأ. سوف يجعلونك تتجرد من ملابسك أولاً، لكنهم سيتعمقون أكثر من ذلك. سوف يجردونك من أي قدر ضئيل من الكرامة تمتلكه، وستفقد ما تعتقد أنه حقك اللائق في العيش وأن تترك وشأنك في الحياة. سيجعلونك تعيش وتأكل وتنام وتتغوط بالقرب من الرجال الآخرين. وعندما يسمحون لك بارتداء ملابسك مجدداً لن تتمكن من تمييز نفسك عن الآخرين. لا يمكنك حتى ارتداء قضاصة أو تعليق ملاحظة على صدرك لتقول، «هذا أنا - منفصل عن البقية».

قال آدم: «لا أريد أن أفعل ذلك».

قال سايروس: «بعد فترة، ستظن أنه لا توجد فكرة في عقلك لا يفكر

بها الآخرون، لن تعرف كلمة لا يستطيع الآخرون قولها. وستقوم بأمور لأن الآخريين يقومون بها. ستشعر بالخطر في أي اختلاف مهما كان - خطر على حشد كامل من الرجال الذين يتشابهون في التفكير والتصرف».

«ماذا لو لم أفعل؟» سأل آدم.

«نعم، يحدث هذا أحياناً» أجابه سايروس: «بين الحين والآخر يخرج رجل لا يفعل ما هو مطلوب منه، هل تعلم ماذا يحدث له؟ المجموعة بأكملها ستكسر نفسها بيروء لتدمير اختلافه. سوف يضربون روحك وأعصابك وجسدك وعقلك بقضبان حديدية حتى يغادرك هذا الفارق الخطير. وإذا لم تستسلم، فسوف يتقيأونك ويتركونك تغرق في نانتك في الخارج - لن يعتبروك جزءاً منهم ولا حتى متحرراً منهم، وعليه من الأفضل الانسجام معهم. بكل حال هم يفعلون ذلك فقط لحماية أنفسهم. إنه أمر غير منطقي ورائع في ذات الوقت، باختصار لا يمكن للجيش أن يسمح لسؤال ما بإضعافه. هذا الجانب في حد ذاته - إذا لم تقارنه بأية جوانب أخرى بقصد السخرية - ستجده بعد فترة وبالتأكيد سبباً ومنطقاً ونوعاً من الجمال، والرجل الذي يمكنه تقبل هذا الأمر ليس بالضرورة رجلاً سيئاً، بل أحياناً يكون رجلاً أفضل بكثير من الرجال. انتبه جيداً لما أخبرك به لأنني مررت بهذا كله وفكرت كثيراً في الأمر. بعض الرجال يتراجعون عن طريق التجنيد الكئيب، يستسلمون، ويصبحون مجهولي الهوية. لكن هؤلاء لم يكونوا يمتلكون قاعدة بيدؤون منها، وربما أنت كذلك. لكن تذكر أن هناك آخرون يتزلون إلى المنحدرات ويغرقون ثم ينهضون وهم أقوى مما كانوا عليه، لأنهم فقدوا بعضاً من ذلك الغرور وكسبوا الفوج. إذا تمكنت من النزول إلى القاع، فستكون قادراً على الوصول لأعلى ارتفاع، أعلى مما يمكنك أن تتخيله، وستعرف فرحاً مختلفاً ومقدساً، رفقة أشبه بالرفقة السماوية للملائكة. عندها ستعرف نوع الرجال حتى إن لم يكونوا فصحاء، لكن إلى أن تهبط، لن تتمكن من معرفة ذلك أبداً».



وبينما كانا يمسيان عائدين نحو المنزل، استدار سايروس يساراً ودخل الغابة بين الأشجار، وكان الظلام قد حل. فجأة قال آدم، «أترى ذلك الجذع هناك؟ كنت أختبئ بين الجذور على ذلك الجانب البعيد. كنت أختبئ هناك عندما تعاقبني، وأحياناً كنت أذهب إلى هناك عندما أشعر بالسوء».

قال والده: «لنذهب ونرى المكان». قاده آدم إليه، نظر سايروس إلى الحفرة التي تشبه العش بين الجذور وقال: «كنت أعلم عن هذا المكان منذ فترة طويلة». ذات مرة عندما غبت لفترة طويلة فكرت أنه لا بد أن يكون لديك مكان كهذا، ووجدته لأنني شعرت بنوع المكان الذي تحتاجه. انظر كيف يتم ذلك الأرض والعشب الصغير ممزق؟ بينما كنت تجلس هناك قمت بتجريد قطع صغيرة من اللحاء إلى أشلاء. كنت أعرف أنه لا بد أن يكون المكان عندما صادفته». كان آدم يحدق في والده في دهشة. قال: «أنت لم تأت إلى هنا أبداً بحثاً عني».

أجاب سايروس «لا، لم أكن لأفعل ذلك. لا بد دائماً من ترك مساحة هرب للرجل قبل الموت. تذكر ذلك! كنت أدرك مدى صعوبة الضغط الذي أمارسه وأضعه عليك. لم أرغب في دفعك إلى الحافة».

بينما استمر في التوغل بين الأشجار قال سايروس: «أريد أن أخبرك بأشياء كثيرة أعلم أنني سوف أنسى معظمها. أريد أن أخبرك أن الجندي يتخلى عن الكثير للحصول على شيء وحيد. من اليوم الأول لولادة الطفل يتم تعليمه أنه في جميع الظروف وبموجب كل قانون وقاعدة وحق، لا بد له أن يضع الأولوية لحماية حياته. يجب أن يبدأ بهذه الغريزة العظيمة وكل شيء يؤكد هذا الأمر. ثم عندما يصبح جندياً يجب أن يتعلم انتهاك كل هذا - يجب أن يتعلم ببرود أن يضع نفسه في طريق يؤدي إلى فقدان حياته دون أن يصاب بالجنون. إذا كان بإمكانك تحقيق ذلك - ولا تنس أن البعض لا يستطيع - فستحصل على أعظم هدية على الإطلاق». أردف سايروس بجدية، «انظر يا بني، جميع الرجال

تقريبًا يخافون، ولا يعرفون حتى سبب خوفهم - الأشباح، الحيرة، الأخطار التي لا إسم ولا عدد لها، والخوف من الموت مجهول الهوية. ولكن إذا أصبح بإمكانك مواجهة الموت وليس الأشباح، أعني الموت الحقيقي، الموصوف والمميز، الموت الذي يأتي على هيئة رصاصة أو سيف، أو سهم أو رمح، إن واجهت هذا الموت فلن تخاف أبدًا مرة أخرى، على الأقل ليس بالطريقة نفسها التي كنت عليها من قبل. حينها ستكون رجلًا منفصلاً عن الرجال الآخرين، آمنًا ومطمئنًا حيث قد يبكي الرجال الآخرون في رعب. وهذه هي المكافأة العظيمة. بل ربما هذه هي المكافأة الوحيدة. ربما هذا هو النقاء النهائي الذي تحيط به كل القذارة. لقد حل الظلام بالفعل. فلتحدث مرة أخرى ليلة الغد عندما يفكر كلانا فيما قلته لك».

لكن آدم سأله هنا: «لماذا لا تتحدث مع أخي؟ تشارلز سينضم للجيش. سيكون جيدًا في ذلك، أفضل مني بكثير».

«تشارلز لن يذهب. لن يكون هناك جدوى من ذلك. سيبدو جنديًا أفضل من الخارج فقط. تشارلز ليس خائفًا لذا لا يمكنه تعلم أي شيء عن الشجاعة. إنه لا يعرف أي شيء خارج قلبه الجسدي، لذا لا يمكنه أبدًا اكتساب الأشياء التي حاولت أن أشرحها لك. إن وضعه في جيش سيكون بمثابة إطلاق سراح الصفات التي يجب أن يتم تقييدها فيه. لن أسمح له بالذهاب». اشتكى آدم: «أنت لم تعاقبه أبدًا، تركته يعيش حياته، امتدحته، لم تضغط عليه، والآن تركه يبقى خارج الجيش». توقف خائفًا مما قاله، خائفًا من الغضب أو الازدراء أو العنف الذي قد تطلقه كلماته.

لم يجبه والده، واصل مسيره خارجًا من الغابة ورأسه يتدلى إلى أسفل بحيث استقرت ذقنه على صدره، كان صوت صعود وسقوط وركه كلما اصطدمت ساقه الخشبية بالأرض رتيبًا. كانت الساق الخشبية ترسم نصف دائرة جانبية على الأرض كلما جاء دورها.

كان الظلام قد حل تمامًا عند وصولهما وأشرق الضوء الذهبي لمصباح باب المطبخ المفتوح. جاءت أليس إلى المدخل ونظرت باحثة عنهما، عندما سمعت الخطوات غير المستوية تقترب عادت إلى المطبخ.

مشى سايروس إلى المطبخ قبل أن يتوقف ويرفع رأسه: «أينك؟» سأل.  
«هنا - خلفك مباشرة».

«لقد سألت سؤالاً. أعتقد أنني سأضطر إلى الإجابة. ربما يكون من الجيد الإجابة عليه أو العكس. أنت لست ذكيًا. أنت لا تعرف ماذا تريد. لا تمتلك الشراسة الضرورية وتسمح للآخرين بالتطاول عليك، أحيانًا أعتقد أنك ضعيف لدرجة أنك لا تساوي غائط كلب. هل هذا الجواب كاف للرد على سؤالك؟ أريدك أن تكون أفضل من هذا، لطالما أردت أن تكون أفضل. قد يكون هذا أمرًا سيئًا لإخبارك به، لكنه صحيح. أرغب في أن أراك أفضل، وإلا فلماذا أتعب نفسي بعناء إيلاكم؟ الآن أغلق فمك واذهب لتناول عشاءك. مساء الغد سوف نكمل حديثنا. قدمي تؤلمني».

#### 4

لم يكن هناك حديث على العشاء. لم يزعج الهدوء سوى صوت احتساء الشوربة والمضغ، ولوح والده بيده في محاولة لإبعاد العث عن مدخنة مصباح الكيروسين. كان آدم يشعر أن شقيقه يراقبه، وحاول لفت نظر أليس للأمر عندما رفع رأسه للنظر إليه فجأة. ثم قام بعد أن انتهى من تناول الطعام بدفع كرسيه للخلف قائلاً «أعتقد أنني سأذهب في نزهة على الأقدام».  
وقف تشارلز. «سأذهب معك».

شاهدتهما أليس وسايروس وهما يخرجان من الباب، ثم طرحت إحدى أسئلتها النادرة. سألت بعصبية: «ماذا فعلت؟»

قال «لا شيء».

«هل ستجعله يذهب؟»

«نعم».

«هل يعلم؟»

حدق سايروس في الباب المفتوح في الظلام قائلاً: «نعم. يعلم. لا يعجبه الأمر لأنه لا يراه مناسباً له، ولا يهم».

كانت نبرته تقول: «اغلقي فمك. هذا ليس شأنك». بقي صامتاً للحظة، ثم قال بنبرة تشي بالاعتذار: «بكل حال ليس الأمر كما لو أنه ابنك».

لم ترد أليس.

سار الولدان على الطريق المظلم. في بداية الطريق كان بإمكانهما رؤية بعض الأضواء من القرية.

«هل تريد الذهاب ومعرفة ما يحدث في النزول؟» سأل تشارلز.

قال آدم: «لم أفكر في ذلك».

«إذن ما الذي يجعلك تخرج في الليل؟»

قال آدم: «لم يكن عليك أن تأتي».

اقترب تشارلز منه: «ماذا قال لك بعد ظهر هذا اليوم؟ رأيتك تمشي معه. ماذا قال؟»

«تحدث فقط عن الجيش - كما هو الحال دائماً».

قال تشارلز بريية: «لم يبد هكذا بالنسبة لي، رأيتة ينحني ويقترب منك، يتحدث إليك بالطريقة التي يتحدث بها إلى الرجال - يتحدث وليس يسرد».

قال آدم بصبر «لقد كان يقول». ولكن لأن خوفاً بسيطاً بدأ يضغط على معدته، حاول التحكم في أنفاسه المضطربة بأخذ جرعة عميقة من الهواء والاحتفاظ بها قدر استطاعته لردع الخوف.

«ماذا اخبرك؟» طالبه تشارلز مجدداً.

«بقي يتحدث عن الجيش وكيف يكون الأمر عندما تكون جندياً».

قال تشارلز: «أنا لا أصدقك. أعتقد أنك كاذب ماكر. ما الذي تحاول التهرب منه؟»

قال آدم: «لا شيء».

قال تشارلز بقسوة، «أمك المجنونة أغرقت نفسها. ربما ألقت نظرة عليك. هذا سيفي بالغرض».

أطلق آدم أنفاسه برفق محاولاً لجم خوفه الكئيب. بقي صامتا.

صرخ به تشارلز، «أنت تحاول الاستحواذ عليه! لا أعرف كيف ستفعل ذلك. ماذا تظن نفسك فاعلاً؟»

قال آدم: «لا شيء».

قفز تشارلز أمامه فاضطر آدم إلى التوقف، وكان صدره ملاصقاً لصدر أخيه تقريباً. تراجع آدم بحذر، كما يبتعد المرء عن ثعبان.

«هل تتذكر عيد ميلاده!» صاح تشارلز «اشتريت له سكين جيب بست قطع نقدية، سكين مصنوع في ألمانيا - يحوي شفرات ومفتاحا ومقبضاً لؤلؤياً. أين هذا السكين؟ هل سبق لك أن رأيته يستخدمه؟ هل أعطاه لك؟ لم أره حتى يشحذه. هل يحمله في جيبه؟ ماذا فعل به؟ اكتفى بقول «شكراً» ببرود هكذا. وكانت هذه هي الكلمة الوحيدة التي سمعتها منه عن سكين ألماني معالج باللؤلؤ اشتريته له بست قطع نقدية».

كان الغضب يغمر صوته، وشعر آدم بالخوف يزحف اليه. لكنه كان يعلم أيضاً أن لديه لحظة متبقية. لقد تأمل في كثير من الأحيان هذه الآلة المدمرة التي تحطم أي شيء يقف في طريقها. يأتي الغضب أولاً ثم البرودة، فابتسامة، فهمس أو صمت. عندما حدث ذلك، كان القتل يبدو في الطريق، لكنه قتل

لطيف، الأيادي تعمل بدقة. ابتلع آدم ريقه لتلطيف حلقة الجاف. لم يتمكن من التفكير في شيء يقوله يمكنه أن يجعل أخاه يصغي له، لأنه بمجرد دخوله في حالة الغضب لم يكن يستمع. وقف في مواجهة آدم، كتلة من الغضب، أقصر وبجسد أقوى منه لكنه لم ينقض عليه. كان آدم ينظر إليه في ضوء النجوم، لم تكن هناك ابتسامة بعد، وصوته لا يزال محتتماً.

«ماذا فعلت أنت في عيد ميلاده؟ هل تعتقد أنني لم أر؟ هل صرفت ست قطع أو حتى أربع؟ أحضرت له جرّواً هجيناً التقطته في الغابة. ضحكت مثل الأحمق وقلت إنه سيكون كلباً جيداً للطيور. هذا الكلب ينام ويلعب في غرفته بينما يقرأ. قام بتدريبه بشكل جيد لكل شيء. وأين السكين؟ قال: «شكراً»، فقط شكراً، كان تشارلز الآن يهمس بيأس.

قام آدم بقفزة يائسة للخلف ورفع يديه ليحرس وجهه، بينما تحرك شقيقه نحوه بدقة، كل قدم مغروسة بإحكام، وقبضة عصبية جاهزة، ثم بدأ بالفعل القاسي المر - ضربة قوية في المعدة، وسقطت يدا آدم، أربع لكلمات في الرأس، شعر آدم بأن عظام أنفه تهشمت فرفع يديه مرة أخرى ليعود تشارلز لتسديد اللكمات لقلبه. طوال هذا الوقت كان آدم ينظر إلى أخيه كما ينظر المحكوم بيأس وحيرة إلى جلاده.

وفجأة سدد آدم، لدهشته، ضربه عصبية في الهواء، غير مؤذية ولا قوة لها ولا اتجاه. انحنى تشارلز لحظتها لتفاديها، وهنا أحاط آدم رقبة أخيه بذراعه غير آبه بصراخه. كان يشعر بقبضته القوية تضرب بطنه وبدأ يشعر بالغثيان لكنه بقي ممسكاً به. تباطأ الوقت بالنسبة له. شعر أن شقيقه يتحرك بشكل جانبي لفصل ساقيه عن بعضهما. وشعر بركبته ترتفع بين رجله، تجاوز ركبته، فخذيه، وصولاً لخصيته، وهنا اخترق جسده ألم قوي ممزق، أجبره على ترك رقبة أخيه وانحنى يتقياً بينما استمر القتل البارد.

شعر آدم باللكمات تنهال على الصدغ والوجنتين والعينين. شعر بشفته

ممزقة، لكن جلده بدا سميكًا وباهتًا، كما لو كان مغطى بالمطاط الثقيل. تساءل بينه وبين نفسه أيضاً عن سبب عدم ثنيه لساقيه، لماذا لم يسقط، ولماذا لم يرغب عن الوعي. اللكم استمر إلى ما بدا أنه الأبد. كان يسمع شقيقه يلهث في خضم انفجاره المروع، وعلى الرغم من الظلام، إلا أن ضوء النجوم التي كانت ترصع السماء في تلك الليلة أتاحت له رؤية أخيه من خلال الدم والدموع التي تدفقت من عينيه. رأى العيون البريئة غير الملتزمة، الابتسامة المنتشية على الشفاه المبتلة. كان يرى هذه الأشياء كوميض من نور وظلام.

وقف تشارلز فوقه، وهو يتلعق الهواء مثل كلب جارح منهك. ثم استدار ومشى عائداً بسرعة نحو المنزل وهو يعجن أصابعه المرضوضة.

عاد الوعي سريعاً ومخيفاً لآدم. كان عقله يتدحرج في ضبابية مؤلمة، وجسده ثقيلًا وموجوعاً. لكنه نسي على الفور كل ذلك وهو يسمع وقع خطوات سريعة تقترب نحوه. جعله الخوف الغريزي يدفع بجسده بضرارة وسرعة على ركبتيه إلى خارج الطريق نحو الحفرة، كان العشب الطويل قد نما حولها ومقدار قدم من الماء يركد في قاعها. زحف آدم بهدوء في الماء، وكان حريصاً جداً على عدم إحداث أي صوت.

اقتربت الخطى، تباطأت، تحركت قليلاً، عادت. لم يستطع آدم أن يرى من مخبأه المظلم من كان. لكن بعد إشعال عود كبريت برقت شعلة زرقاء أضاءت وجه أخيه الذي كان يبدو بشعاً وغريباً من حيث كان يراه في الأسفل. رفع تشارلز الشعلة وهو ينظر حوله، واستطاع آدم رؤية فأس في يده اليمنى.

عندما انطفأ العود بدت الليلة أكثر سواداً من ذي قبل. تقدم تشارلز ببطء وأشعل آخر، فتش طويلاً في المكان عن علامات، لكنه يئس وألقى بالفأس بعيداً في الحقل ومشى باتجاه الأضواء الصغيرة المتلاثة للقريبة.

بقي آدم راقداً في الماء البارد لوقت طويل. تساءل عما يشعر به شقيقه، تساءل عما إذا كان الآن يشعر بالذعر أو الحزن أو بتأنيب ضمير أو أي شيء

بعد أن هدأ. هذه الأشياء شعر بها آدم. وصله ضميره بأخيه وشعر بالألم من أجله بالطريقة التي كان يساعده بها في واجباته في أوقات أخرى.

تسلل آدم من الماء وقام. كانت عضلاته قد تيبست وجف الدم على وجهه. قرر البقاء في الخارج حتى ينام والده وأليس. شعر أنه لا يستطيع الإجابة على أية أسئلة، لأنه لا يملك ببساطة أية إجابة، ومحاولة إيجاد إجابة كانت مهمة قاسية على عقله المنهك. شعر بأن دوخة مصحوبة بأضواء زرقاء تباغته، كان يعلم أنه سيغمى عليه قريباً.

تحرك ببطء على الطريق بخطوات مترنحة واسعة. عند المنحدر توقف ونظر إلى الداخل. المصباح المعلق بسلسلته من السقف يلقي بضوء أصفر قوي ويضيء وجه أليس وسلة الخياطة الخاصة بها على المنضدة أمامها. على الجانب الآخر، يمضغ والده قلمًا خشبيًا ويغمسه في زجاجة حبر مفتوحة ويكتب في دفتره الأسود.

نظرت أليس إلى وجه آدم الملطخ بالدماء. ارتفعت يدها إلى فمها وأحاطت أسنانها السفلية بأصابعها في خضم صدمتها.

بينما يجرد آدم جسده ويحاول دعم نفسه في المدخل.

رفع سايروس رأسه ونظر بفضول، تعرف على هوية الكائن المشوّه أمامه ببطء. وقف مصدوماً، متحيراً، ومتسائلاً. وضع القلم الخشبي في زجاجة الحبر ومسح أصابعه في سرواله، وسأل آدم بهدوء: «لماذا فعل بك هذا؟».

حاول آدم الإجابة، لكن فمه كان جافاً ومشقوقاً. لعق شفثيه وأخذ ينزف مرة أخرى. قال: «لا أعرف».

اقترب منه سايروس وأمسك بذراعه بشدة لدرجة أنه جفل وحاول الابتعاد: «لا تكذب علي! لماذا فعل هذا؟ هل لديك حجة؟»

«لا».



ألح سايروس بغضب: «أخبرني! أريد أن أعرف ما حدث، عليك اللعنة أخبرني! أنت تحميه دائماً! هل تعتقد أنني لا أعرف ذلك؟ هل تعتقد أنك كنت تخدعني؟ الآن أخبرني وإلا فأني أقسم بالله أنني سأبقيك واقفاً هناك طوال الليل!»

استجاب له آدم: «يعتقد أنك لا تحبه».

حرر سايروس ذراعه وعاد إلى كرسيه وجلس. هز القلم في زجاجة الحبر وبقي لفترة ينظر كما أعمى إلى دفتره. قال: «أليس، ساعدي آدم على النوم. أعتقد أنه سيتعين عليك تمزيق قميصه. ساعديه». قام مرة أخرى وذهب إلى ركن الغرفة حيث كانت المعاطف معلقة وأخرج بندقيته من خلف الملابس وتحقق من أنها معبأة وخرج.

رفعت أليس يدها كما لو كانت ستمنعه من الذهاب بحبل من الهواء. انقطع حبلها وأخفى وجهها أفكارها. قالت لآدم: «اذهب إلى غرفتك. سأحضر بعض الماء في حوض».

استلقى آدم على السرير وسحب الملاءة حتى خصره، ربت أليس على الجروح بمنديل من الكتان المغموس في ماء دافئ. ظلت صامتة لفترة طويلة ثم تحدثت كما لو لم يكن هناك فاصل بين آخر ما قاله وما تقوله هي اللحظة: «يعتقد أن والده لا يحبه. لكنك تحبه - لطالما أحببته».

لم يجيبها آدم.

قالت بهدوء، «إنه فتى غريب. عليك أن تعرفه - من الخارج يبدو خشناً، ويحمل كل هذا الغضب». أوقفتها نوبة من السعال وانحنت طويلاً وهي تسعل حتى احمرّ وجهها وبدت مرهقة عندما رفعت رأسها، كررت «عليك أن تعرفه، لفترة طويلة بقي يقدم لي بعض الهدايا، أشياء جميلة لن تتصور أنه قد يلاحظها حتى. لكنه لم يقدمها هكذا. بل بقي يخفيها حيث يعلم أنني سأجدها. يمكنك

أن تنظر إليه لساعات ولن يمنحك أدنى إشارة إلى أنه فعل ذلك. عليك أن تعرفه».

ابتسمت لأدم بينما يغرق في نوم عميق.

## الفصل 4

### 1

توقف تشارلز في حانة نزل القرية، جلس هناك يتسلى ويضحك على القصص المسلية التي كان يرويها الرجال ممن تقطعت بهم السبل ليلاً. أخرج علبة التبغ الفضية خاصته واشترى للرجال شراباً ليستمروا في الحديث. وقف وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه بينما يدلك مفاصل أصابعه المشقوقة، وعندما قبل الرجال شرابه رفعوا كؤوسهم وبصوت عال وقاموا بشكره: «نخبك»، أسعده ذلك فطلب شراباً آخر لأصدقائه الجدد، ثم انضم إليهم للذهاب للقيام بشيطة جديدة في مكان آخر.

خرج سايروس وهو يتعثر في تلك الليلة، ممتلئاً بالغضب من تشارلز. بحث في الطريق عن ابنه، وصل إلى النزل باحثاً عنه، لكن تشارلز كان قد غادر. من المحتمل أنه لو وجده في تلك الليلة لقتله أو أقدم على ذلك. كم كان سيئوه هكذا فعل عظيم اتجاه التاريخ، لكن ربما كل الأفعال حسب درجتها تفعل الشيء نفسه، وصولاً إلى حصاة تواجدت في طريق ما، أو شهيقاً تم أخذه على مرأى من فتاة جميلة، أو مسماراً منغرساً في تربة الحديقة.

بطبيعة الحال، لم يمض وقت طويل قبل أن يعلم تشارلز أن والده كان يبحث عنه وهو يحمل بندقيته. اختبأ لمدة أسبوعين وعندما عاد أخيراً، كانت الرغبة في قتله قد تراجعت بطبيعة الحال إلى استياء بسيط تم دفع جزائه بالقيام ببعض الأعمال المرهقة وشيء من الإذلال المسرحي المزيف. بقي آدم أربعة أيام في الفراش متيسساً ومتألماً لدرجة عدم تمكنه من الحركة بدون أنين. في اليوم

الثالث قدّم له والده دليلاً على سلطته مع الجيش؛ فعل ذلك كمادة لإرضاء كبريائه وأيضاً كنوع من المكافأة لآدم. في المنزل، إلى غرفة نوم آدم دخل قبطان سلاح الفرسان يتبعه اثنان من الرقباء وهم يرتدون الزي الأزرق. كانت خيولهم محتجزة في الباحة من قبل اثنين من الجنود. مستلقياً على سريره تم تجنيد آدم في الجيش كجندي في سلاح الفرسان. وقع على بنود الحرب وأدى اليمين بينما كان والده وأليس ينظران. لمعت عينا أبيه بالدموع عندما أتم ذلك. بعد رحيل الجنود جلس والده معه فترة طويلة. قال له: «لقد وضعتك في سلاح الفرسان لسبب ما، الحياة في الثكنة لفترة طويلة ليست جيدة. لكن سلاح الفرسان لديهم عمل مختلف يقومون به. لقد تأكدت من ذلك. ستحب الذهاب إلى الدولة الهندية<sup>(1)</sup>. هناك عمل قادم. لا أستطيع أن أخبرك كيف علمت بذلك. لكن القتال قادم في الطريق».

قال آدم: «نعم يا سيدي».

## 2

لطالما بدا لي غريباً أن رجلاً مثل آدم هم من يذهبون إلى التجنيد. لم يكن يحب القتال أساساً، بل كان بعيداً عن احتمال تقبله، كان يشعر بنفور من العنف. راقبه ضباطه عن كثب بسبب تكرر تمارضه لكن لم يتم توجيه أي تهمة إليه. خلال سنواته الخمس من التجنيد قام آدم بعمل أكثر تفصيلاً من أي رجل في سريرته، لكن إذا حدث وقتل أي عدو كان ذلك بمثابة حادث ارتداد. كونه

(1) تاريخياً: كانت الدولة الهندية هي المناطق أو الأقاليم الواقعة خارج حدود الاستيطان التي سكنها الأمريكيون الأصليون في المقام الأول. عقد المستعمرون معاهدات مع السكان الأصليين انتهت بالموافقة على تقديم الخدمات والحماية إلى أجل غير مسمى لهم مقابل النقل السلمي لأراضي الأمريكيين الأصليين. حالياً يستخدم ذات المصطلح من قبل الجنود والاستراتيجيين العسكريين والمراسلين للإشارة إلى المناطق غير الآمنة و/أو الخطيرة.

فناصًا، فقد كان مهياً بشكل غريب لإضاعة الهدف. بحلول هذا الوقت كان القتال الهندي قد أصبح أشبه بحملات الماشية الخطرة - أُجبرت القبائل على التمرد، دُفَعوا وأهلكوا، واستقرت البقية الحزينة الكثيبة على أراضي الجوع. لم يكن عملاً صالحاً ولكن نظراً لنمط تطور البلاد كان أمراً لا بد من القيام به. بالنسبة لآدم الذي كان آلة، والذي لم ير المزارع المستقبلية بل البطون المبقورة لأناس طبيين، كانت الحرب مقرزة وغير مجدوية. عندما يؤمر بالإطلاق يخطئ الهدف متعمداً. كان يرتكب الخيانة ضد وحدته، ولم يهتم. كانت عاطفة اللاعنف تتراكم فيه إلى أن أصبحت تحيزاً مثل أي تحيز آخر يسفّه فكرة ما. كان فعل الإيذاء بحد ذاته لأي غرض يؤدي مشاعره وأصبح مهووساً بهذه المشاعر وتمسكاً بها، ولأنها كانت كذلك ألغت أي تفكير في احتمال تغييرها أو زعزعتها. مع ذلك لم يكن هناك أي نوع من العجب أو الخنوع في سجل آدم. وبالفعل تم الشناء عليه ومنحة ثلاثة أوسمة لشجاعته.

وبينما كان يثور أكثر فأكثر ضد العنف، اتخذ من الاتجاه المعاكس دافعاً له. غامر بحياته عدة مرات لإنقاذ الجرحى. تطوع للعمل في المستشفيات الميدانية حتى عندما كان منهكاً من واجباته الاعتيادية. كان رفاقه ينظرون إليه بازدراء وخوف من دوافع لا يفهمونها.

ظل تشارلز يكتب إلى أخيه بانتظام - عن المزرعة والقرية، عن الأبقار المريضة والخيول والمراعي والحظيرة التي ضربتها الصواعق، عن موت أليس بسبب مرضها، وانتقال والده إلى وظيفة دائمة بأجر في منظمة جيش الجمهورية الأعظم في واشنطن. كما هو الحال مع كثير من الناس كتب تشارلز، الذي لم يكن جيداً في التحدث، باستفاضة. تحدث عن وحدته وحيرته، ودون على الورق أموراً كثيرة لم يكن يعرفها عن نفسه.

خلال الوقت الذي كان فيه آدم بعيداً أصبح يعرف أخاه أفضل من أي وقت مضى. تبادل الرسائل جعلهما يتقاربان بشكل لم يكن ليتخيله أي منهما.

احتفظ آدم برسالة واحدة من أخيه، ليس لأنه فهمها تمامًا ولكن بدا أن لها معنى مغلفاً لم يستطع الوصول إليه. قالت الرسالة «أخي العزيز آدم، أتمنى أن تكون بصحة جيدة» - لقد بدأ رسائله دائماً بهذا الأسلوب ثم تدريجياً يترسل «لم أتلق رداً منك على رسالتي الأخيرة ولكن أفترض أن لديك أموراً أخرى لتفعلها - ها! ها! انهمر المطر وأتلف أزهار التفاح. لن يكون هناك الكثير من الطعام في الشتاء المقبل لكنني سأوفر ما يمكنني توفيره. قمت بتنظيف المنزل الليلة، غسلت الأرضية بالماء والصابون لكنها لا تبدو نظيفة تماماً، كيف تعتقد أن والدتنا احتفظت بالبيت نظيفاً كما فعلت؟ فهو لا يبدو كما كان. شيء ما يلوث الأرض. لا أعرف ماذا، لكنه لا يزول مهما فعلت. يبدو أنني قمت بنشر الأوساخ بشكل متساوٍ على أي حال. ها! ها!

«هل كتب لك أبي شيء عن رحلته؟ لقد ذهب إلى سان فرانسيسكو في كاليفورنيا لمعسكر للجيش. وزير الحرب سيكون حاضراً. وأبي سيقدمه. لكن هذه ليست بصدمة كبيرة لأبي. لقد التقى بالرئيس ثلاث أو أربع مرات وحتى أنه تمت دعوته لتناول العشاء في البيت الأبيض. كم أود أن أرى البيت الأبيض. ربما يمكننا أن نذهب معاً عندما تعود إلى المنزل. يمكن لوالدي أن يسهل لنا الأمر لبضعة أيام وهو يرغب في رؤيتك على أي حال.

«أعتقد أنه من الأفضل أن أبحث عن زوجة. هذه مزرعة جيدة، وحتى لو لم أكن صفقة جيدة، هناك فتيات يمكن أن يقبلن بأسوأ من هذه المزرعة. ماذا تعتقد؟ لم تقل ما إذا كنت ستعود للعيش في المنزل عندما تنتهي من الجيش. أمل ذلك لأنني أشتاقك».

توقفت الكتابة عند هذا الحد. كان هناك خدش على الصفحة ورذاذ حبر، ثم أتت التكملة بالقلم الرصاص، لكن الكتابة كانت مختلفة.  
كتب بالقلم الرصاص «حسناً، ذلك القلم انتهى. سأضطر إلى شراء قلم حبر آخر في القرية».

بدأت الكلمات تتدفق بسلاسة أكبر «أعتقد أنني يجب أن أنتظر قلم حبر جديد وأتوقف عن مواصلة الكتابة بقلم الرصاص. كل ما في الأمر أنني كنت جالسًا هنا في المطبخ والمصباح أمامي مضاء ويبدو أنني غرقت في أفكارى وتأخر الوقت - أعتقد أنها تعدت الثانية عشرة، لم أنتبه للوقت. بدأ الديك العجوز بلاك جو بالصياح في بيت الدجاج. اهتز كرسي والدتي الهزاز كما لو كانت جالسة فيه. أنت تعلم أنني لا أهتم بهذه الأمور، لكن هذا جعلني أفكر فيما مضى، كما تفعل أنت في بعض الأحيان. أعتقد أنني سأمزق هذه الرسالة، لأن لا فائدة من كتابة أشياء كهذه».

بدأت الكلمات تنهمر الآن وكأنها لن تتمكن من الخروج بالسرعة الكافية. قالت الرسالة: «إذا كنت سأتخلص منها فلا أكملها أيضًا» «يبدو الأمر كما لو أن المنزل بأكمله كان على قيد الحياة ولديه عيون في كل مكان، وكأن هناك أشخاصا خلف الباب، مستعدون للدخول إذا نظرت بعيدًا. إنه شيء يجعل جسدي يقشعر. أريد أن أقول - أريد أن أقول - أعني، لم أفهم أبدًا - ، لماذا فعل والدنا ذلك. أعني، لماذا لم يعجبه السكين الذي اشتريته له في عيد ميلاده. لماذا؟ لقد كان سكينًا جيدًا وكان هو بحاجة إلى سكين جيد. لو أنه كان قد استخدمه أو حتى شحذه، أو أخرجه من جيبه ونظر إليه فقط - فهذا كل ما كان عليه فعله. إذا كان قد أحب ذلك لما كنت قد أفرغت غضبي بك. لقد اضطرني للإقدام على ذلك. يبدو لي أن كرسي أمي عاد للاهتزاز قليلاً. لا، إنه الضوء فحسب، أنا لا أؤمن بهذه الأمور. مع ذلك أشعر أن هناك أمراً لم ينته بعد. كما لو أنك أنهيت نصف المهمة الموكلة لك ولا يمكنك تذكر ما يجب عليك فعله لإتمامها. لا يجب أن أكون هنا. يجب أن أكون حول العالم أتجول بدلاً من الجلوس هنا في مزرعة جيدة أبحث عن زوجة. هذا خطأ. يجب أن أكون مكانك وأن تكون أنت هنا. لم أفكر بهذا الأمر من قبل. ربما لأن الوقت متأخر، متأخر للغاية. ها هو الفجر قد بزغ. لا أعتقد أن بإمكانني النوم. كيف يمكن أن

يمر الليل بأكمله بهذه السرعة؟ لا أستطيع الذهاب إلى الفراش الآن. لن أتمكن من النوم على أي حال».

لم يوقع الرسالة. ربما نسي أنه كان ينوي تدميرها وأرسلها بكل حال. لكن آدم احتفظ بها لبعض الوقت، وكلما قرأها أصابته قشعريرة لم يعرف سببها.



## الفصل 5

في المزرعة، بدأ صغار آل هاملتون ينمون، وفي كل عام كان هناك مولود جديد. كان جورج فتى طويلًا وسيماً ولطيفاً، كان يمتلك كياسة بالغة بحيث حتى عندما كان طفلاً صغيراً كان مهذباً جداً وكانوا يسمونه «لا مشكلة». ورث عن أبيه نظافة الملابس والجسد والشعر، ولم يبدأ أبداً قليل الأناقة حتى عندما كان كذلك. كان جورج فتى بلا أخطاء ونما ليصبح رجلاً بلا خطايا. لم تُنسب إليه قط أي جريمة، وكانت جرائم التقصير التي ارتكبها مجرد جنح. في منتصف حياته، في الوقت الذي عُرفت فيه مثل هذه الأمراض، تم اكتشاف إصابته بفقر الدم الخبيث.

بعد جورج، هناك ويل، البدين والبليد. امتلك ويل القليل من الخيال ولكن طاقته كانت هائلة. منذ طفولته كان عاملاً مجتهداً، إذا طُلب منه إنجاز أمر ما لا يكل إلى أن يكمله. كان محافظاً ليس فقط في السياسة بل في كل شيء. وجد الأفكار ثورية فتجنبها بارتياح ونفور. كان ويل يحب أن يعيش بطريقة لا يجد فيها أي شخص عيباً فيه، ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يعيش مثل الآخرين قدر الإمكان.

ربما كان لوالده علاقة بنفور ويل من التغيير أو التنوع. عندما كان ويل طفلاً، لم يكن والده قد قضى وقتاً طويلاً في وادي ساليناس ليتم اعتباره «من الأولين». كان ما يزال في الواقع أجنبياً وإيرلندياً. في ذلك الوقت كان الإيرلنديون مكروهين للغاية في أمريكا. كان ينظر إليهم بازدراء، لا سيما على الساحل الشرقي، ولا بد أن القليل من ذلك الازدراء قد تسرب إلى الغرب.

لم يكن صموئيل يمتلك التنوع فحسب، بل كان رجل أفكار وابتكارات. في المجتمعات الصغيرة المنعزلة يُنظر إلى رجل مثله دائماً بعين الريبة إلى أن يثبت أنه لا يمثل خطراً على الآخرين. يمكن لرجل لامع مثل صموئيل أن يسبب الكثير من المتاعب. قد يكون، على سبيل المثال، جذاباً للغاية بالنسبة لزوجات الرجال البليدين. ثم كان هناك علمه وقراءته والكتب التي كان يشتريها ويستعيرها، ومعرفته بالأشياء التي لا يمكن أكلها أو ارتداؤها أو التعايش معها، واهتمامه بالشعر واحترامه للكتابة الجيدة. لو كان صموئيل رجلاً ثرياً مثل آل ثورن أو دلمار، بمنازلتهم الكبيرة وأراضيهم المنبسطة الواسعة، لكان قد امتلك مكتبة رائعة.

كان لدى آل دلمار مكتبة مشحونة بالكتب ومغطاة بألواح من خشب البلوط. لقد قرأ صموئيل بالاقتراض عدداً أكبر بكثير مما قرأه آل دلمار. في ذلك اليوم كان الرجل الغني المتعلم مقبولاً. قد يرسل أبناءه إلى الكلية دون توصية، يرتدي سترة وقميصاً أبيض وربطة عنق في أيام الأسبوع، وقد يرتدي قفازات ويحافظ على أظافره نظيفة. وبما أن حياة وممارسات الأثرياء كانت غامضة، فمن يدرى ما الذي كان بإمكانهم استخدامه أو عدم استخدامه، أما بالنسبة للرجل الفقير فما حاجته إلى الشعر أو الرسم أو الموسيقى التي لا تصلح للغناء أو الرقص؟ مثل هذه الأشياء لم تكن لتساعده في جلب محصول أو الحصول على قطعة قماش نظيفة يغطي بها أجساد أطفاله. وإن أصر على ذلك على الرغم من كل شيء، فربما كانت لديه أسباب لا تحتتمل التدقيق.

خذ صموئيل على سبيل المثال. رسم رسومات للعمل الذي كان ينوي القيام به بالحديد أو الخشب. كان ذلك جيداً ومفهوماً بل كان أمراً يُحسد عليه. لكن على أطراف المخططات رسم رسومات أخرى، أحياناً أشجار، وأحياناً وجوه أو حيوانات أو حشرات، وأحياناً مجرد أشكال لا يمكن فهمها على الإطلاق. وهذا جعل الرجال يضحكون وهم ينظرون إليها باضطراب وخرج.

بالإضافة لذلك، لم يكن بالإمكان توقُّع ما يفكر فيه صموئيل أو قد يقوله أو يفعله - قد يكون أي شيء.

في السنوات القليلة الأولى بعد مجيء صموئيل إلى وادي ساليناس، أجمع السكان على عدم الثقة به. وربما سمع ويل وهو صبي صغير حديثاً عن هذا في متجر سان لوكاس. لا يحب الأولاد الصغار أن يكون آباؤهم مختلفين عن الرجال الآخرين. ربما يكون قد التقط نزعته المحافظة منذ ذلك الوقت. فيما بعد، عندما جاء الأطفال الآخرون وكبروا، كان صموئيل ينتمي إلى الوادي، وكان الجميع يفخر به بالطريقة التي يفتخر بها الرجل بامتلاكه طاووساً. لم يعودوا يخافون منه، لأنه لم يغزو زوجاتهم أو يغرم بتغيير حياتهم المتواضعة اللطيفة. أصبح وادي ساليناس مغرماً بصموئيل، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت شخصية ويل قد تشكلت.

بعض الأفراد، دون استحقاق بأي حال من الأحوال دائماً ما يكونون محظوظين. تأتيهم الأشياء دون جهد أو تخطيط. كان ويل هاملتون واحداً من هؤلاء. والهدايا التي حصل عليها كانت دائماً تلك التي كان يقدرها. كان محظوظاً وهو يكبر، مثلما لم يستطع والده كسب المال، لم يستطع ويل إيقاف تدفقه المستمر. عندما قام ويل هاملتون بتربية الدجاج وبدأ دجاجه في وضع البيض، ارتفع سعر البيض. عندما كان شاباً وصل اثنان من أصدقائه كانا يديران متجرًا صغيراً إلى نقطة الإفلاس، طلبا من ويل إقراضهما القليل من المال لدفع فواتيرهما، وعرضاً عليه فائدة بمقدار الثلث مقابل ذلك. أجر زهيد لكنه لم يكن بخيلاً. أعطاهما ما طلباه. عاد المتجر على قدميه في غضون عام واحد، وتوسع إلى فرعين في العام الثاني، وافتتح فروعاً في العام الثالث، وتوسع ليصبح منظومة تجارية ضخمة تسيطر الآن على جزء كبير من المنطقة.

كما أخذ أيضاً متجرًا للدراجات والأدوات مقابل ديون كانت قد تراكمت على صاحبه. ثم انهالت الطلبات على الميكانيكي للعمل على سيارات كان

عدد من أثرياء الوادي قد اشتروها. بعدها ألح عليه رجل حالم كانت أحلامه محصورة في النحاس، الحديد الزهر والمطاط. كان اسم هذا الرجل هنري فورد<sup>(1)</sup>، وكانت خططه سخيفة إن لم تكن غير قانونية. وافق ويل بتذمر على جعل النصف الجنوبي من الوادي منطقتة الخاصة، وفي غضون خمسة عشر عامًا كانت سيارات فورد تملأ الوادي وويل رجلًا ثريًا يقود سيارة مارمون فاخرة.

توم، الابن الثالث، كان يشبه والده. ولد في حالة من الغضب وعاش كما البرق. ولد توم متهورًا. عملاقًا في الفرح والحماس. لم يكتشف العالم والبشر من حوله، بل خلقهم. كان أول من قرأ كتب والده. عاش في عالم ساطع وطازج وخال من الملل كما جنة عدن في اليوم السادس<sup>(2)</sup>. غرق عقله كما عقل مهر صغير سعيد في مرعى، وعندما أقام العالم لاحقًا أسوارًا حوله، انغرس في الأسلاك، وعندما أحاط به الجدار الشائك الأخير اندفع من خلاله ثم إلى الخارج. ولأنه كان قادرًا على الفرح الكبير، فقد كان حزنه غامرًا أيضًا. لدرجة أنه عندما مات قلبه انتهى العالم بالنسبة له.

كان توم مبدعًا مثل والده لكنه كان أكثر جرأة. قام بتجربة أشياء لا يجروها والده عليها وامتلك الطموح والرغبة الدائمة في تطوير إمكانياته وهذا لم يكن لدى صموئيل. ربما كان نشاطه الجنسي هو سبب بقاءه أعزبًا. كانت العائلة التي ولد فيها محافظة للغاية، ربما كانت أحلامه وآماله المتعلقة بذلك هي ما جعلته يشعر بأنه لا يملك استحقاقًا، كان يدفعه ذلك الى إفراغ حزنه بالبكاء

(1) مؤسس شركة فورد لصناعة السيارات.

(2) نسبة إلى قصة الخلق في الاصحاح الأول من سفر التكوين والتي تقول إنه في اليوم السادس أمر الرب الياسة بإخراج البهائم والوحوش. ثم خلق الإنسان ذكرا وأنثى، وقال لهم: «أَثْمِرُوا وَاكْتَبِرُوا وَأَمَلُّوا الْأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ» (تك 1: 28).

في التلال البعيدة، كان توم مزيجًا لطيفًا من الهمجية والوداعة. لقد أجهد نفسه بشكل غير إنساني ليفرغ ذلك كله في العمل.

يتميز الأيرلنديون بنوع يائس من البهجة، لكن هناك أيضًا شبح قاس وثقيل فوق أكتافهم ويصاحب أفكارهم. إذا ما ضحكوا بصوت عالٍ، تراه يحشر إصبعاً طويلاً أسفل حناجرهم. إنهم أناس يدينون أنفسهم قبل توجيه الاتهام إليهم، وهذا يجعلهم دفاعيين دائماً.

عندما كان توم في التاسعة من عمره، كان دائم القلق على أخته الصغيرة موللي لأنها كانت تعاني من عائق في حديثها. طلب منها أن تفتح فمها على مصراعيه ورأى أن هناك غشاء موجوداً تحت لسانها هو ما يسبب المتاعب. قال «يمكنني إصلاح ذلك». قادها إلى مكان سري بعيداً عن المنزل، شحذ سكين جيبه على حجر، وقطع الرسن الذي يمنعها من الكلام. ثم هرب بسبب الغثيان. كبر منزل هاملتون مع نمو الأسرة. كان دائماً بتصميم غير مكتمل، بحيث يمكن إضافة هياكل جديدة إذا ما تطلب الأمر، وهكذا سرعان ما اختفت الغرفة والمطبخ الأصليان وسط الإضافات والتمديدات العديدة على مدى السنين.

في هذه الأثناء بقي صموئيل على حاله؛ بعيداً عن الثراء. اخترع جزءاً من آلة درس للحنطة قام بصنع نماذج منها بشكل سيء للغاية - مرض يعاني منه كثير من الرجال - وأرسلها إلى الشركة المصنعة لنيل براءة الاختراع، رفضت الشركة الخطط على الفور وتبنت الطريقة حيث كانت نماذجه أفضل وأرخص وأكثر كفاءة من أي جهاز موجود. وبالطبع استولى محامي البراءات على ربحه الصغير. ظلت السنوات القليلة التالية مستقرة بسبب الدعوى، ولم يتوقف الصرف إلا عندما خسرها. كانت تلك تجربته الحادة الأولى مع القاعدة القائلة بأنه دون مال لا يمكنك محاربة المال. لكنه أصيب بحمي براءات الاختراع، وعمامًا بعد عام حرص على خسارة الأموال التي يتم جنيها عن طريق درس الحنطة والحدادة في براءات الاختراع. كان أطفال هاملتون حفاة، يرتدون

ملابس مرقّعة، وكثيراً ما لا يملكون حتى ما يسد رمقهم، كل ذلك لدفع ثمن المخططات الهشة.

بعض الرجال يفكرون كثيراً والبعض الآخر على العكس. كان صموئيل وابناه توم وجو دائمي التفكير، بينما لم يفكر جورج وويل كثيراً. كان جوزيف هو الابن الرابع - وهو من النوع الحالم، محبوب للغاية من قبل جميع أفراد الأسرة. اكتشف في وقت مبكر أن الابتسامة الرقيقة أقوى حماية له من العمل. كان إخوته هم من يقومون بعمله؛ حيث كان القيام بعمل جو أسهل من دفعه ليقوم به بنفسه. اعتقدت والدته ووالده أنه شاعر لأنه لم يكن جيداً في أي شيء آخر. وقد أثاروا انتباهه لهذا الأمر مما حفّزه لدرجة أنه كتب عدداً من المقاطع الشعرية العابرة لتأكيد ذلك. كان جو كسولاً جسدياً، وربما كسولاً عقلياً أيضاً. قضى حياته غارقاً في أحلام اليقظة، أحبته أمه أكثر من الآخرين لأنها كانت تعتقد أنه ضعيف ومغلوب على أمره. في الواقع، كان هو الأقل ضعفاً، لأنه حصل بالضبط على ما يريد بأقل جهد. كان جو محبوب العائلة.

في الفترات الإقطاعية، كان عدم الكفاءة في استخدام السيف والحربة يدفع الشاب للخدمة في الكنيسة. في عائلة هاملتون، أدى عدم قدرة جو على العمل بشكل صحيح في المزرعة إلى إرساله للتعليم العالي. لم يكن مريضاً أو ضعيفاً لكنه كان كسولاً بدنياً؛ كان يركب الخيل بصعوبة ويكرهها. ضحك جميع أفراد الأسرة مراراً كلما تذكروا محاولات جو تعلّم الحرث؛ محاولته الأولى كانت متعرجة كما جدول على أرض مسطحة، وفي محاولته الثانية تعرّج الخط وتقاطع مع الأول ثم عبره وابتعد.

وهكذا انتزع جو نفسه تدريجياً من كل واجب يتعلق بالمزرعة. بقيت والدته تكرر أن عقله كان هائماً في السماء، وكأن هذه فضيلة فريدة.

بسبب فشله في غالب المهام، أوكل إليه والده اليائس مهمة رعي ستين خروفاً. كانت هذه هي الوظيفة الأقل صعوبة على الإطلاق والوظيفة الكلاسيكية التي

لا تتطلب أي مهارة. كل ما كان عليه فعله هو البقاء مع الخراف.. وفقدتها جو؛ فقد ستين خروفاً ولم يتمكن من العثور عليهم حيث كانوا محتشدين في وادٍ جاف. وفقاً لرواية العائلة جمع صموئيل أفراد الأسرة، فتياتاً وفتياناً، وجعلهم يعاهدونه على العناية بجو بعد رحيله، لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك، سيتضور جوعاً بالتأكيد.

كان يتخلل أولاد هاملتون خمس فتيات: أونا هي الكبرى، فتاة واعية ومجتهدة وداكنة البشرة. ثم هناك ليزي - اعتقدت أن ليزي كانت الأكبر سناً بسبب تسميتها على اسم والدتها - لا أعرف الكثير عنها. بدا في وقت مبكر أنها تشعر بنوع من العار فيما يتعلق بعائلتها. تزوجت في سن صغيرة وغادرت القرية وبعد ذلك لم يرها أحد سوى في الجنازات. كانت ليزي تتمتع بقدرة فريدة من نوعها على الكراهية والحقد. كان لديها ولد كبير وتزوج من فتاة لم تعجب ليزي، وبسبب ذلك لم تتحدث معه لسنوات عديدة.

ثم كانت هناك ديسي، كان ضحكها أمراً ثابتاً لدرجة أن كل من حولها كان يسعد بالتواجد بالقرب منها لأنه كان من الممتع أن تكون مع ديسي أكثر من أي شخص آخر.

الأخت التالية كانت أوليف، والدتي. وآخرهن كانت مولي، التي كانت تتمتع بجمال بسيط بشعر أشقر جميل وعيون بنفسجية.

كانت هذه عائلة هاملتون، وكان الأمر بمثابة معجزة عندما تتأمل أن ليزا، الصغيرة النحيفة، كانت تلدهم عامًا بعد عام وتطعمهم، وتخبز الخبز، وتخيظ ملابسهم، وتلبسهم الأخلاق الحميدة والحديدية أيضًا. إنه لأمر مدهش كيف ختمت ليزا أطفالها هكذا، فقد كانت هذه المرأة خالية تمامًا من أي خبرة في العالم، ولم تكن متعلمة، وباستثناء الرحلة الطويلة من أيرلندا، لم يسبق لها الذهاب إلى أي مكان. لم تكن لديها خبرة في التعامل مع الرجال باستثناء زوجها، والتي كانت تعتبرها واجباً مرهقاً ومؤلماً في بعض الأحيان. قضت

الجزء الأكبر من حياتها في الحمل والرفع، وكان ارتباطها الفكري الوحيد بالكتاب المقدس، باستثناء حديث صموئيل وأولادها، ولم تستمع إليهم أيضاً. في ذلك الكتاب كان تاريخها وشعرها ومعرفتها بالشعوب والأشياء وأخلاقها وخلصها. لم تدرس الكتاب المقدس بتمعن قط؛ كانت تقرأه فقط. المواقع العديدة التي يبدو أنه يدحض نفسه فيها لم تربكها على الإطلاق. في النهاية وصلت إلى نقطة تمضي فيها في القراءة مباشرة دون الاستماع.

حظيت ليزا باحترام الجميع لأنها كانت امرأة طيبة وتربي أطفالاً جيدين. يمكنها رفع رأسها في أي مكان. احترمتها زوجها وأولادها وأحفادها. كانت تمتاز بصلاية نادرة، عدم التنازل، والتزمت في التعامل مع الخطأ وما يتعارض معها، مما يجعل من حولها يحتفظ بعلاقة طيبة معها في نوع من الرهبة وليس الدفء.

دائماً ما كرهت ليزا المشروبات الكحولية وبشدة، وكانت تعتبر شرب الكحول بأي شكل بمثابة ارتكاب جريمة في حق الرب. لم تكن تمتنع عن لمسها فحسب، بل كانت تمنع تمتع أي شخص آخر في أسرتها بها. كانت النتيجة بطبيعة الحال أن زوجها صموئيل وجميع أطفالها كان لديهم حب قوي للمشروبات الكحولية.

سألها صموئيل ذات مرة وهو على فراش المرض: «ليزا، ألا يمكنني الحصول على كأس من الويسكي لتهدئتي؟»  
أراحت ذقنها الصغير الثابت على يدها قائلة: «وتذهب إلى عرش الله ورائحة الخمر في أنفاسك؟ لا، لن تفعل!».

انقلب صموئيل على جنبه واستمر في مرضه دون راحة.

عندما كانت ليزا في السبعين من عمرها، كان من الصعب تقليل أوجاعها البدنية، وعليه طلب منها طبيها أن تأخذ ملعقة كبيرة من نبيذ بورت كعلاج.



أجبرت نفسها على تجرّع الملعقة الأولى بحيث تعوّجت ملامحها، لكن الأمر لم يكن سيئاً للغاية. ومنذ تلك اللحظة لم تتنفس قط نفساً رصيناً تماماً. كانت ترتشف النيذ دائماً في ملعقة كبيرة، دائماً بمثابة دواء، ولكن بعد فترة كانت تحتسي أكثر من ربع جالون في اليوم وكانت امرأة أكثر استرخاءً وسعادة. استمر صموئيل وليزا هاملتون بتربية جميع أطفالهما إلى سن الرشد قبل نهاية القرن. كانت حينها مجموعة كاملة من آل هاملتون قد نشأت في مزرعة إلى الشرق من مدينة كينغ سيتي. وكانوا من الأطفال والشباب والنساء الأمريكيين. لم يعد صموئيل أبداً إلى إيرلندا ونسيها تماماً. كان رجلاً مشغولاً ولم يكن لديه وقت للحنين. كان وادي ساليناس هو العالم بالنسبة له. كانت الرحلة إلى ساليناس على بعد ستين ميلاً إلى الشمال على رأس الوادي حدثاً كافياً له لمدة عام، كما أن العمل المتواصل في المزرعة بالإضافة لرعاية أفراد أسرته الكبيرة وتوفير الملابس والمأكل لهم استغرق معظم وقته - ولكن ليس كله. كانت طاقته كبيرة. كبرت ابنته أونا وأصبحت طالبة متقلبة المزاج، متوترة وسوداوية، مع ذلك كان فخوراً بعقلها الجامح المستكشف. بينما كانت أوليف تستعد لامتحانات المقاطعة بعد فترة طويلة في المدرسة الثانوية في ساليناس. كانت أوليف تطمح لأن تصبح مدرّسة، وهو شرف يشبه وجود كاهن في العائلة في أيرلندا. كان من المقرر إرسال جو إلى الكلية لأنه لم يكن جيداً في أي شيء آخر. بينما ويل على طول الطريق كان متوجهاً إلى زيادة ثروته العرضية، توم يجرح نفسه ويلعق جروحه، ديسي تدرس الخياطة، مولي، مولي الجميلة، ستتزوج بالطبع رجلاً ثرياً.

لم يكن هناك نقاش حول مسألة الميراث. على الرغم من أن مزرعة التل كانت كبيرة، إلا أنها كانت قاحلة. حفر صموئيل بئراً بعد بئر ولم يتمكن من العثور على ماء في أرضه. كان من شأن الأمر أن يحدث الفرق وتجعلهم المياه ميسورين نسبياً. كان المصدر الوحيد هو أنبوب المياه الضعيف الذي ضخ

الماء من حفرة قريبة من المنزل. في بعض الأحيان كان ينخفض بشكل خطير، وجف بالفعل مرتين. كما كانت الماشية تأتي من أطراف المزرعة البعيدة لتشرب ثم تخرج مرة أخرى لتتغذى.

إجمالاً كانت عائلة جيدة وراسخة بنجاح في وادي ساليناس، ليست أفقر من كثيرين وليست أغنى من كثيرين. كانت عائلة متوازنة مع أفرادها المحافظين والراديكاليين والحالمين والواقعيين. كان صموئيل مسرورًا بذريته.

## الفصل 6

### 1

بعد أن انضم آدم إلى الجيش وانتقل سايروس إلى واشنطن، عاش تشارلز وحده في المزرعة. كان يتباهى بأنه سيجد لنفسه زوجة، لكنه لم يفعل ذلك من خلال العملية المعتادة التي تبدأ بلقاء الفتيات، اصطحابهن إلى الرقص، واختبار فضائلهن وما إلى ذلك، ثم أخيراً الانزلاق والوقوع في فخ الزواج. السبب وراء ذلك أن تشارلز كان خجولاً للغاية مع الفتيات. ومثل معظم الرجال الخجولين، أشبع احتياجاته العادية بإخفاء هويته عن البغايا. يحصل الرجل الخجول على أمان كبير مع عاهرة. ذلك أنه بمجرد أن يدفع لها مقدماً تصبح سلعته، يمكن للرجل الخجول حينها أن يكون شاذاً وحتى قاسياً معها. كما أنه لا يشعر وهو معها بأي قلق من أي انقلاب محتمل، الأمر الذي يجعل الرجال الخجولين يرففون اضطراباً.

كان الترتيب بسيطاً وسرياً بشكل معقول. احتفظ صاحب النزل بثلاث غرف في الطابق العلوي من أجل العابرين، وكان يؤجرها لفتيات لمدة أسبوعين، ثم في نهاية الأسبوعين تحل مجموعة جديدة من الفتيات مكانهن. السيد هالام، صاحب الحانة، لم يكن له دور في الترتيب. كان بإمكانه أن يقول بصدق أنه لا يعرف شيئاً عنها. لقد جمع ببساطة خمسة أضعاف الإيجار العادي لغرفه الثلاث. فيما يتعلق بتعيين الفتيات وقيادتهن ونقلهن وتأديبهن وسرقتهن كان الأمر يعود لمديرهن والذي يدعى إدواردز، وكان يعيش في بوسطن. كانت

فتياته يتنقلن في برنامج محدد بين البلدات الصغيرة، ولم يبقين في أي مكان أكثر من أسبوعين. كان نظامًا عمليًا للغاية.

لم تكن الفتاة تبقى في المدينة لفترة طويلة كي لا تثير انتباه السكان أو مسؤول المدينة. بقين غالب أوقاتهن في الغرف وتجنبن الأماكن العامة. كن ممنوعات من الشرب أو إحداث ضوضاء أو الوقوع في حب الزبائن. كانت وجبات الطعام تصلهن إلى غرفهن، ويتم فحص زبائنهن بعناية. لم يُسمح لأي رجل مخمور بالصعود إليهن، وكل ستة أشهر كانت الفتاة تُمنح إجازة شهر يمكنها خلاله أن تشرب وتفعل ما تريده. في حال كانت فتاة ما غير مطيعة للقواعد أثناء العمل، يقوم السيد إدواردز شخصيًا بتجريفها من ملابسها، تكميمها ثم جلدها لدرجة توشك فيها على الموت. إذا كررت ذلك مرة أخرى فستجد نفسها في السجن بتهمة التشرد والدعارة.

كانت الإقامات التي تبلغ مدتها أسبوعين تتمتع بميزة أخرى. العديد من الفتيات يصبن بالأمراض المنقولة جنسيًا، وكانت الفتاة دائمًا ما تذهب بعيدًا بعدما تترك هديتها مع أحد الزبائن. ولم يكن هناك من يفرغ الرجل غضبه فيه في هكذا حالات، فالسيد هالام لا يعرف شيئًا عن ذلك، والسيد إدواردز لم يظهر علنًا أبدًا بصفته التجارية.

كانت الفتيات متشابهات إلى حد كبير - سمينات، يتمتعن بصحة جيدة، كسولات، وبليدات. بالكاد يمكن للرجل أن يقول إنه لاحظ أي تغيير. اعتاد تشارلز تراسك على الذهاب إلى النزل مرة واحدة على الأقل كل أسبوعين، والتسلل إلى الطابق العلوي والقيام بعمله السريع، ثم العودة إلى البار ليشرب قليلًا.

لم يكن منزل تراسك مبهجًا، كان يعيش فيه تشارلز فقط، وقد تعرض لتحلل قائم. أصبحت ستائر الدانتيل رمادية، والأرضيات لزجة ورطبة رغم محاولته تنظيفها. كانت جدران ونوافذ وسقف المطبخ مطلية بدهون المقالي.

إن التنظيف المستمر من قبل الزوجات والأمهات والتنظيف نصف السنوي العميق هما ما أبقيا الأوساخ بعيدة. نادرًا ما كان تشارلز يفعل أكثر من الكنس. تخلى عن الملاءات على سريره ونام بين البطانيات. ما فائدة تنظيف المنزل إذا لم يكن هناك من يراه؟ كان يغتسل ويرتدي ملابس نظيفة فقط في الليالي التي ينوي فيها الذهاب إلى المنزل.

أصيب تشارلز بالقلق الذي كان يدفعه للخروج إلى العمل عند الفجر. كان يعمل في المزرعة بقوة لأنه كان وحيدًا، وفي نهاية يومه يعود إلى المنزل ليلتهم الطعام المقلي ويذهب إلى الفراش ليغرق في سبات عميق.

أصبحت ملامحه جادة وتشى بأنه رجل وحيد. افتقد أخاه أكثر مما افتقد أمه وأباه. كان يتذكر بشكل غير دقيق الفترة التي سبقت مغادرة آدم باعتبارها أوقاتًا سعيدة، وتمنى لو أنها تعود مرة أخرى.

لم يمرض خلال تلك السنوات أبدًا، باستثناء عسر الهضم المزمن الذي كان وما زال يعاني منه الرجال الذين يعيشون بمفردهم ويطبخون لأنفسهم ويأكلون في عزلة. لهذا قام بعملية تطهير قوية للأمعاء تسمى إكسير الحياة للأب جورج. حادث واحد تعرض له في السنة الثالثة من عزلته. كان يكسر الصخور ويدحرجها إلى الحائط الحجري. كان من الصعب عليه تحريك صخرة كبيرة يومها، وعليه قام بنقبها بقضيب حديدي طويل إلى أن تصدعت الصخرة وتدحرجت طويلاً، وفجأة فقد أعصابه، ظهرت تلك الابتسامة الصغيرة على وجهه، وبدأ بمحاربة الحجر كما لو كان رجلاً في غضب صامت. حاول تحريك الصخرة من الخلف بالقضيب الحديدي الذي ارتد وضره على جبهته بقوة جعلته يفقد وعيه وبقي ممدداً هناك في حقله لبعض من الوقت، عندما أفاق عاد مترنحاً ونصف أعمى إلى المنزل. كان هناك جرح طويل على جبهته ممتد من خط الشعر إلى نقطة بين حاجبيه، لبضعة أسابيع تم تضيده بسبب عدوى التزيف، لكن ذلك لم يقلقه لأن الجرح كان يلتئم بشكل جيد

على الرغم من تركه لندبة طويلة متعرجة، وبينما تكون معظم الأنسجة المتندبة أفتح من الجلد المحيط، ندبة تشارلز تحولت إلى اللون البني الداكن. ربما كان القضيب الحديدي قد ترك بعض الصدأ تحت الجلد وصنع نوعاً من الوشم.

لم يكن ما يقلق تشارلز هو الجرح بل الندبة. بدت وكأنها علامة أصابع طويلة على جبهته. كثيراً ما كان يتفقدُها أمام المرأة الصغيرة بجوار الموقد. بدأ بتمشيط شعره على جبهته لإخفاء أكبر قدر ممكن منه. كان يكره تلك الندبة ويضطرب عندما ينظر إليه أحد، ويزيد حنقه إذا سُئل عنها أي سؤال. في إحدى رسائله إلى أخيه تحدث عن مشاعره حيال ذلك فكتب: «يبدو كما لو أن شخصاً ما جعلني أشبه بقرة. فهذا الشيء اللعين يصبح أكثر قتامة. بحلول الوقت الذي تصل فيه إلى المنزل، قد يكون لونه تحول للأسود. كل ما أحججه هو الذهاب في الاتجاه الآخر وسأبدو مثل البابويين في يوم أربعاء الرماد<sup>(1)</sup>. لا أعرف لماذا يزعجني ذلك، فأنا لدي الكثير من الندوب الأخرى. يبدو وكأنني أصبحت مميزاً بسببه. ثم لماذا عندما أذهب إلى المدينة، إلى النزل مثلاً، ينظر الناس إليها دائماً. يمكنني سماعهم يتحدثون عنها عندما لا يعلمون أنني أستطيع سماعهم. لا أعرف لماذا هم فضوليون للغاية حيال ذلك. يحصل ذلك دائماً، لذا لم أعد أشعر بالرغبة في الذهاب إلى المدينة على الإطلاق».

## 2

تم تسريح آدم في عام 1885، وبدأ بالتجهيز لعودته إلى المنزل. كان مظهره قد تغير قليلاً. لم تكن هناك عربة عسكرية ثقله. لم يكن سلاح الفرسان يتعامل

---

(1) أربعاء الرماد أول يوم من زمن الصوم المسيحي الذي يستمر لخمسين يوماً ويرمز في التقاليد والعقيدة المسيحية إلى التوبة. في يوم أربعاء الرماد، يذهب المسيحيون لحضور القداس وتُرسَم على جباههم إشارة الصليب بالرماد. وهو تذكير في التقاليد المسيحية بأن الإنسان هو «رماد إلى رماد وتراب إلى تراب». وفي كثير من الكنائس، فإن الاحتفال بأربعاء الرماد يتركز حول الرماد المتبقي من أشجار النخيل التي استخدمت في أحد الشعانين.

مع منتسبيه بهذه الطريقة. في الواقع، كانت بعض الوحدات تفتخر بتعاملها القدر.

شعر آدم أنه كان يمشي في نومه. من الصعب ترك أي حياة روتينية حتى لو كنت تكرهها. في الصباح استيقظ في جزء من الثانية وانتظر بوق النداء الصباحي اليومي. كانت ساقاه تفتقدان عناق سروال الفروسية الضيق وشعر بحلقه عارياً دون طوقه الخانق. وصل إلى شيكاغو، وهناك، بدون سبب مفهوم استأجر غرفة مفروشة لمدة أسبوع ومكث فيها لمدة يومين، ذهب إلى بوفالو، ثم غير رأيه وانتقل إلى شلالات نياغرا. لم يكن يريد العودة إلى المنزل وأرجأ الأمر لأطول فترة ممكنة. لم يكن المنزل مكاناً لطيفاً في ذهنه. كان يعيد له نوعاً من المشاعر التي كان يراها ميتة بداخله، وكان متردداً في إعادتها إلى الحياة. كان يراقب الشلالات طوال الوقت، زئيرها القوي يذهله وينومه.

في إحدى الأمسيات شعر بالتوق الشديد للرجال الذين قضى معهم وقتاً طويلاً في الشكنات والخيم. كانت رغبته هي الاندفاع إلى مجموعة من أجل الدفء، أي مجموعة. كان أول مكان عام مزدحم وجدته هو حانة صغيرة مليئة بالدخان. تنهد بسرور وانحشر بينهم كما تنحشر قطة في كومة من الحطب. طلب الويسكي وشربه وشعر بالدفء والراحة. لم يتحدث مع أحد أو يسمع لأحد، اكتفى بامتصاص الشعور بالاتصال.

مع تأخر الوقت بدأ الرجال في المغادرة، فخشي الوقت الذي سيضطر فيه للعودة إلى المنزل. سرعان ما كان وحده من بقي مع النادل الذي كان يفرك خشب الماهوجني في الحانة لوقت طويل ويحاول بعينه إقناع آدم بأن وقت المغادرة قد حان.

قال له آدم: «سأخذ أخرى».

قدم له النادل الزجاجية. كانت تلك اللحظة هي المرة الأولى التي ينظر فيها آدم لوجه الرجل، لاحظ أن هناك علامة تشبه الفراولة على جبهته.

قال آدم: «أنا غريب في هذه الأرجاء».

قال النادل: «هذا ما نحصل عليه في الغالب في منطقة الشلالات».  
«لقد كنت في الجيش. سلاح الفرسان».  
«نعم!» قال النادل.

شعر آدم فجأة أنه كان عليه إثارة إعجاب هذا الرجل والاختباء تحت جلده بطريقة ما. قال «محاربة الهنود. كانت أوقاتاً رائعة».  
لم يجبه الرجل.

«أخي لديه علامة على رأسه».

قام النادل بلمس علامة الفراولة بأصابعه. قال «وحمة. تكبر كل عام. هل حصل شقيقك على واحدة؟»  
«بل هي ندبة من جرح. كتب لي عن ذلك».

«هل لاحظت أنني في هذه الصورة أشبه قطة؟ بالتأكيد تفعل».  
هذا هو اسم الشهرة الخاص بي، القط. طوال حياتي يقولون ربما أخافت قطة ما والدتي عندما كانت جبلى بي

أنا مضطر للعودة إلى منزلي، كنت هنا لوقت طويل. أئن تشرب؟»  
«شكراً لك».

«أين تقيم؟»

«في نزل السيدة ماي».

«نعم أعرفها. يقولون إنها تتخمك بالحساء حتى لا تأكل الكثير من اللحوم».  
قال آدم: «أعتقد أن هناك حياً في كل تجارة».  
«هذا صحيح. لدي الكثير».

قال آدم: «أراهن أن هذا صحيح».

«لكن الحيلة الوحيدة التي أحتاجها لم أحصل عليها بعد. أتمنى لو كنت أعرف ذلك».



«ما هي؟»

«كيف بحق الجحيم أجعلك تعود إلى منزلك وتدعني أغلق الحانة.»

نظر إليه آدم، وحدث فيه ولم يتكلم.

قال النادل ضاحكاً بقلق «إنها مزحة.»

قال آدم: «أعتقد أنني سأعود إلى المنزل في الصباح. أعني بيتي الحقيقي.»

قال النادل «حظاً سعيداً.»

سار آدم عبر المدينة المظلمة، وزاد من سرعته كما لو أن وحدته تلاحقه.

كانت الدرجات الأمامية المترهلة لمحل إقامته تطلق صريراً مزعجاً أشبه

بتحذير وهو يتسلقها. كانت القاعة مظلمة ولا يرى فيها إلا نقطة ضوء أصفر

منبعث من مصباح زيت منخفض جداً ومنتهي الصلاحية.

وقفت صاحبة النزول أمام بابها المفتوح وظل أنفها يصل إلى أسفل ذقنها.

تبعث عيناها الباردتان آدم ورائحة الويسكي تصلها.

قال آدم: «ليلة سعيدة». لم تجبه.

عند وصوله إلى الجزء العلوي من الدرج نظر إلى الورا. كان رأسها مرفوعاً

وتنظر إليه، الآن أصبح ذقنها يلقي بظلاله على حلقتها وعيناها تبدوان بلا بؤبؤ.

كانت تفوح في غرفته رائحة غبار تبلل وجف عدة مرات. التقط عود ثقاب

وأشعل شمعة في الشمعدان الياباني وتمدد على سريريه الهزيل كأرجوحة

شبيكية والمغطى بلحاف مرقع متسخ تخرج قطع القطن من حوافه.

سمع درجات الشرفة تنن مرة أخرى، وعرف آدم أن المرأة واقفة في بابها

تستعد لاستقبال ضيفها التالي بضيافتها المعتادة.

جلس آدم على كرسي مستقيم ووضع مرفقيه على ركبتيه ودعم ذقنه بيديه.

بدا أن أحد النزلاء أسفل القاعة كان مريضاً، استمر في السعال طوال الليل.

عرف أنه لا يستطيع العودة إلى المنزل. سمع جنوداً كبار السن يتحدثون عن

فعل ما كان ينوي فعله.

«لم أستطع تحمل ذلك. لم يكن لدي مكان أذهب إليه. لا أعرف أحداً. تجولت وسرعان ما أصبت بالذعر كطفل، وأول شيء تبادر إلى ذهني هو أن أتوسل إلى الرقيب للسماح لي بالعودة - كما لو كان يقدم لي معروفاً».

في شيكاغو، أعاد آدم طلب تجنيده وطلب أن يتم إلحاقه بفوجه القديم. في القطار المتجه غرباً شعر أن رجال سرите عزيزون جداً على قلبه وأنه يتوق للقائهم.

بينما كان ينتظر تغيير القطارات في مدينة كانساس، سمع نداء باسمه ودُفعت رسالة في يده - أمر استدعاء إلى واشنطن/ مكتب وزير الحرب. لقد استوعب آدم في سنواته الخمس - بدلاً من تعلمه - ألا يتساءل أبداً عن أي أمر. بالنسبة للرجل المجدد كان أولئك الكبار البعيدون في واشنطن مجانين، وإذا أراد جندي الحفاظ على سلامته العقلية، فإن أفضل ما يمكنه فعله هو عدم التفكير في الجزرالات.

في الوقت المحدد، أعطى آدم اسمه لموظف وذهب للجلوس في غرفة الانتظار ليجد والده هناك. استغرق الأمر من آدم لحظة للتعرف على سايروس، واستغرق وقتاً أطول للتعود عليه. فسايروس قد أصبح رجلاً عظيماً.

كان يرتدي زي الرجال العظماء - معطف من الصوف وسراويل سوداء، قبعة سوداء، معطف طويل بياقة من المخمل، وعصا من خشب الأبنوس جعلها تبدو كسيف. كان يتصرف أيضاً كرجل عظيم، يتحدث بهدوء ودون تشنج ولباقة. وأعطته أسنانه الجديدة ابتسامة مبتذلة لا تتناسب مع مشاعره.

بعد أن أدرك آدم أن هذا هو والده كان ما يزال في حيرة. فجأة نظر إلى الأسفل - لا توجد ساق خشبية. كانت الساق مستقيمة، مثنية عند الركبة، كان يرتدي حذاء كونغرس مصقول. كان يعرج عندما يتحرك، لكن ليس العرج الخشبي المتكثل السابق.

أدرك سايروس سبب نظراته. قال «ميكانيكية، تعمل على مفصلة، وفيها نابض. لا أعرج حتى عندما أضع تركيزي على ذلك. سأريها لك عندما أخلعها. تعال معي».

قال آدم، «أنا في مهمة، سيدي. تم نقلي للعمل تحت إدارة العقيد ويلز». «أعرف ذلك. أنا الذي طلبت من ويلز إصدار الأوامر. تعال».

قال آدم بانزعاج، «إذا كنت لا تمانع يا سيدي، أعتقد أنه من الأفضل أن أقدم تقريراً إلى العقيد ويلز».

التفت والده إليه بفخر: «كنت أختبرك. أردت أن أرى ما إذا كان لدى الجيش أي انضباط هذه الأيام. أنت ولد جيد. كنت أعلم أن هذا سيكون مفيداً لك. أنت رجل وجندي يا ولدي».

قال آدم: «أنا تحت أوامركم سيدي». كان هذا الرجل غريباً عنه. نشأ نفور خافت في داخله. شيء ما لم يكن صحيحاً. والسرعة التي فتحت بها الأبواب مباشرة للعقيد، الاحترام اللطيف لذلك الضابط، والكلمات، «سيرك السكرتير الآن يا سيدي»، كل ذلك لم يغير شعور آدم.

«هذا ابني، جندي خاص، سيدي الوزير - مثلما كنت أنا - جندي خاص في جيش الولايات المتحدة».

قال آدم: «لقد تم تسريحي برتبة عريف يا سيدي». بالكاد سمع تبادل المجاملات، كان عقله منشغلاً بأفكاره الخاصة؛ هذا وزير حرب، هل يعقل أنه لا يستطيع أن يكتشف أن هذه الصفات لا تنطبق على والدي؟ إنه يمثل، ماذا حدث له؟ من المضحك أن السكرتير لا يستطيع رؤية ذلك كله.

سارا إلى الفندق الصغير الذي كان يقيم فيه سايروس، وفي الطريق استمر سايروس في الإشارة إلى المعالم والمباني ومواقع التاريخ وكأنه يلقي محاضرة طويلة: «أقيم في فندق، فكرت في الحصول على منزل، لكنني شعرت أنها

فكرة غير نافعة لأنني أتنقل كثيراً لدرجة أنني لا أستخدمه إلا نادراً. فأنا أتنقل في جميع أنحاء البلاد معظم الوقت».

كاتب الفندق أيضاً لا يرى حقيقة سايروس، انحنى له ودعاه «سيناتور»، وأشار إلى أنه سيجد غرفة لآدم ولو اضطر إلى طرد أحدهم.

«أرسل زجاجة ويسكي إلى غرفتي من فضلك».

«يمكنني إرسال بعض قطع الثلج إذا أردت».

«ثلج!» قال سايروس. ابني هذا جندي، قام بضرب ساقه بعصاه فأصدرت صوتاً أجوف. أنا أيضاً كنت جندياً - جندياً خاصاً. ما حاجتنا للثلج؟»

اندهش آدم من مكان إقامة سايروس. لم تكن لديه غرفة نوم فحسب، بل غرفة جلوس، وكان الحمام في غرفة النوم.

جلس سايروس على كرسي عميق وتنهّد. رفع رجل بنطاله ورأى آدم قطعة من الحديد والجلد والخشب الصلب. فك سايروس الغمد الجلدي الذي كان يمسكه على جذعه وأسندته بجانب كرسيه قائلاً: «إنها قرص بشكل سيء للغاية».

بعدما نزع ساقه، عاد والده إلى نفسه كما يتذكره آدم. لقد اختبر الشعور ببداية الاحتقار، ولكن الآن عاد الخوف والاحترام المرتبط بطفولته إليه، حتى بدا وكأنه طفل صغير يختبر مزاج والده للهروب من المتاعب.

قام سايروس بتحضيراته، احتسى الويسكي، وفك ياقته، ثم التفت الى آدم: «إذا؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«سيدي؟»

«لماذا عدت للتجنيد؟»

«أنا - لا أعرف يا سيدي. أردت فقط أن».

«أنت لا تحب الجيش يا آدم».

«لا سيدي».

«لماذا عدت؟»

«لم أرغب في العودة إلى المنزل».

تهند سايروس وفرك أطراف أصابعه على ذراعي كرسيه. «هل ستبقى في الجيش؟» سأل.

«لا أعرف يا سيدي».

«يمكنني أن أدخلك إلى ويست بوينت (الأكاديمية العسكرية الأمريكية). لدي أناس هناك».

«لا أريد الذهاب إلى هناك».

«هل تتحداني؟» سأل سايروس بهدوء.

استغرق آدم وقتًا طويلاً للإجابة، وسعى عقله للهروب قبل أن يقول: «نعم يا سيدي».

قال سايروس «اسكب لي بعض الويسكي يا بني» وعندما تناول مشروبه تابع، «أتساءل إذا كنت تعرف مقدار التأثير الذي أملكه حقًا. يمكنني رمي الجيش الكبير على أي مرشح مثل الجورب. حتى الرئيس يحب أن يعرف ما أفكر به في الأمور العامة. يمكنني هزيمة أعضاء مجلس الشيوخ ويمكنني اختيار التعيينات مثلما يقطف التفاح. يمكنني بناء الرجال ويمكنني تدميرهم. هل تعرف ذلك؟»

عرف آدم أكثر من ذلك. كان يعلم أن سايروس كان يحمي نفسه عن طريق التهديدات «نعم سيدي. لقد سمعت».

«يمكنني أن أعيّنك في واشنطن - حتى معي - وأعلمك كيف تسلك هذا الطريق».

«أفضل العودة إلى سرّيتي يا سيدي». رأى ظلّ الفقد على وجه أبيه.

«ربما كنتُ مخطئاً. لقد تعلمتَ المقاومة الغبية». تنهد: «سأطلب منهم إعادتك لفوجك. سوف تتعفن في الثكنات».

«شكراً لك سيدي».

بعد وقفة سأله آدم، «لماذا لا تحضر تشارلز إلى هنا؟»

«لأنني - لا، تشارلز أفضل حيث يكون - مكانه هناك أفضل له».

تذكر آدم نبرة أبيه وكيف بدا. كان لديه متسع من الوقت ليتذكر ذلك لأنه تعفن بالفعل في الثكنات. لقد تذكر أن سايروس كان وحيداً ولوحده - وعلم ذلك.

### 3

كان تشارلز يتطلع إلى عودة آدم بعد خمس سنوات. كان قد طلى المنزل والحظيرة، ومع اقتراب الوقت استعان بامرأة لتنظيف المنزل بعمق.

كانت امرأة عجوزاً نظيفة ولئيمة. حالما رأت الستائر المتعفنة ذات الغبار الرمادي، ألقته وصنعت ستائر جديدة. قامت بإزالة الشحوم من الموقد والتي تراكمت منذ وفاة والدة تشارلز. غسلت ونظفت الجدران التي أصبحت بنية لامعة قذرة بسبب ترسب دهون الطبخ ومصاييح الكيروسين. عملت على تخليل الأرضيات بالغسل، ونقع البطانيات في الصودا، فعلت كل ذلك وهي تلعن الرجال: «الرجال - حيوانات قذرة. حتى الخنازير نظيفة مقارنة بهم. يتعفنون في سوائهم. لا يدركون لماذا لا تتزوجهم أي امرأة. نثانة كثنانة الحصبة. وفرن ملطخ بصلصة فطيرة عفا عليها الزمن».

انتقل تشارلز إلى السقيفة كي لا تتأثر أنفه بالروائح النقية ولكن القوية للغسل والصودا والأمونيا والصابون الأصفر. مع ذلك كان لديه انطباع بأنها كانت منزعة من تنظيف منزله ولن توافق على العودة للعمل فيه مجدداً،

وعليه بقي في السقيفة بعد مغادرتها المنزل النظيف. أراد أن يحافظ على المنزل نظيفاً لأدم. في السقيفة التي كان ينام فيها كانت توجد أدوات المزرعة وأدوات إصلاحها وصيانتها. اكتشف تشارلز أنه يستطيع طهي وجباته المقلية والمسلوقة بسرعة وكفاءة أكبر على كور الحدادة أكثر مما يمكنه على موقد المطبخ. كان المنفاخ ينتج حرارة سريعة، ولم يكن عليه انتظار الموقد حتى يسخن. تساءل لماذا لم يفكر في الأمر من قبل.

انتظر تشارلز عودة آدم طويلاً، لكنه لم يعد. يبدو أن آدم كان خجلاً من الكتابة له عن قراره عدم العودة. كان سايروس هو من أخبر تشارلز في رسالة غاضبة عن إعادة تجنيد آدم ضد رغبته. وأشار سايروس إلى أنه يرحب بزيارة تشارلز له، في المستقبل، في واشنطن، لكنه لم يأت على ذكر هذا الأمر مرة أخرى.

عاد تشارلز إلى المنزل وعاش في نوع من القذارة الوحشية وهو يشعر بالرضا عن تغلبه على حاجته لعمل المرأة المتدمرة.

لقد مر أكثر من عام قبل أن يكتب آدم إلى تشارلز - رسالة إخبارية محرجة تزيد من شجاعته ليقول، «لا أعرف لماذا طلبتُ العودة مرة أخرى. كان الأمر وكأن شخص آخر فعل ذلك وليس أنا. اكتب قريباً وأخبرني عن حالك».

لم يرد تشارلز حتى تلقى أربع رسائل قلقة ثم أجاب ببرود، «لم أتوقع عودتك على أي حال»، واستمر في سرد تفصيلي للمزرعة والحيوانات.

فعل الزمن فعله. بعد ذلك كتب تشارلز بعد رأس السنة الجديدة وتلقى رسالة من آدم مكتوبة بعد رأس السنة التالية. لقد تباعدا عن بعضهما لدرجة أنه لم يكن هناك سوى تواصل نادر وخال من الأسئلة.

بدأ تشارلز في جلب امرأة قادرة تلو الأخرى إلى المنزل. وكلما أثارت واحدة أعصابه طردها بالطريقة التي كان يبيع بها الخنزير. لم يرق له أو يهيمه إن

كانت معجبة به أم لا. ابتعد عن أهل القرية واقتصر تواصله على النزل ومدير مكتب البريد فقط. استنكر سكان القرية أسلوب حياته، لكن كان هناك شيء واحد امتاز به ووازن به حياته القبيحة حتى في أعينهم. لم تكن المزرعة تدار بشكل أفضل من اليوم. قام تشارلز بتطهير الأرض، وبناء جدرانها، وتحسين الصرف، وإضافة مائة فدان إلى المزرعة. بل أكثر من ذلك، بدأ بزراعة التبغ، وأصبحت لديه مزرعة تبغ جديدة وشاسعة بشكل مثير للإعجاب خلف المنزل. لهذه الأشياء احتفظ باحترام جيرانه. لا يمكن للمزارع أن يفكر بسوء في مزارع آخر جيد. كان تشارلز ينفق معظم أمواله وكل طاقته في المزرعة.



## الفصل 7

### 1

أمضى آدم سنواته الخمس التالية في القيام بالمهام التي يستخدمها الجيش لمنع رجاله من الجنون - كالتلميع الذي لا نهاية له للمعادن والجلود، الاستعراض والتدريب ومرافقة الشخصيات. ومراسم البوق والعلم. في عام 1886 اندلع الإضراب الكبير لمجمع التعبئة في شيكاغو وكان من المتوقع توغل فوج آدم فيه، لكن الإضراب تمت تسويته قبل الحاجة إليه. ثم في عام 1888 تحركت قبائل السيمينول<sup>(1)</sup>، ممن لم يوقعوا على معاهدة سلام، واندفع سلاح الفرسان مرة أخرى، لكن السيمينول تقاعدوا في مستنقعاتهم وظلوا هادئين، واستقروا الروتين الأشبه بالحلم على القوات مرة أخرى.

بقي أقل من 200 فرد من السيمينول في فلوريدا بعد حرب السيمينول

---

(1) سيمينول هي قبيلة أمريكية أصلية من ولاية فلوريدا وتضم ثلاث قبائل معترف بها فدراليا نشأت جميعها من قبائل كريك في شمال موسكو جي. كلمة سيمينول هو تحريف لكلمة سيمارون Cimarron، وهو مصطلح إسباني يعني «الهارب» أو «البري». قامت الولايات المتحدة بأخذ فلوريدا من إسبانيا في عام 1819، وزاد المستوطنون الضغط على أراضي السيمينول. خلال فترة حرب السيمينول (1818 - 1858)، كانت القبيلة محصورة على محمية كبيرة في وسط شبه جزيرة فلوريدا بموجب معاهدة مولتري كريك (1823)، ثم طُردوا من أراضيهم وفقا لمعاهدة باينز لاندينغ (1832). مجدداً بحلول عام 1842، أُجبر أكثر السيمينول على الانتقال إلى الأراضي الهندية إلى الغرب من نهر ميسيسيبي. تحالف أكثرية السيمينول في أوكلاهوما مع الكونفدرالية خلال الحرب الأهلية الأمريكية ونتج عن ذلك توقيع معاهدة جديدة مع الولايات المتحدة ينال فيها السيمينول حريتهم.

الثالثة (1855 - 1858)، هؤلاء حرصوا على تنمية روح الاستقلال والعودة الى العادات والتقاليد في انفسهم وذرياتهم. في عام 1930 أعاد السيمينول في فلوريدا إنشاء العلاقات بشكل محدود مع حكومة الولايات المتحدة وتلقوا 5000 فدان (20 كم مربع) من أراضي المحمية. انتقل عدد قليل من السيمينول إلى المحميات حتى الأربعينات؛ أعادوا بعدها تنظيم حكومتهم، وتلقوا اعترافا فدراليا عام 1957 بوصفهم قبيلة سيمينول من فلوريدا

الفاصل الزمني أمر غريب ومتناقض في العقل. من المنطقي أن نفترض أن الوقت الروتيني أو الوقت الفارغ من أي شيء يبدو بلا نهاية، من الطبيعي أن نشعر به بهذا الشكل، لكنه ليس كذلك. إنها الأوقات الباهتة التي لا نهاية لها والتي ليس لها مدة على الإطلاق. الوقت المليء بما هو مهم، النازف بالمأساة، المتخّم بالفرح - هذه الأوقات هي التي تبدو طويلة في الذاكرة. وهذا صحيح عندما تفكر فيه. الوقت الفارغ لا وظيفة فيه لملا مدّته. يبدأ من لا شيء ليصل إلى لا شيء؛ ليس هناك وقت على الإطلاق.

كانت السنوات الخمس الثانية لآدم قد انتهت قبل أن يشعر بها. كان ذلك في أواخر عام 1890، وتم تسريجه برتبة رقيب في بريسيديو في سان فرانسيسكو. كانت الرسائل بين تشارلز وآدم قد أصبحت نادرة جدًا، مع ذلك كتب آدم لأخيه قبل خروجه مباشرة: «هذه المرة سأعود إلى المنزل». كانت هذه آخر مرة يتلقى فيها تشارلز رسالة منه لأكثر من ثلاث سنوات.

قضى آدم الشتاء متسكعاً في النهر إلى سكرامنتو وصولاً إلى وادي سان خواكين، وعندما حل الربيع لم يكن لديه مال. التف ببطانية وبدأ ببطء بالتوجه نحو الشرق. كان يمشي أحياناً، وأحياناً أخرى يرافقه مجموعات من الرجال في عربات شحن بطيئة الحركة. في الليل كان يتسكع مع الرجال المتجولين في أماكن التخيم على أطراف المدن. وقد تعلم التسول.. ليس من أجل المال بل من أجل الطعام. وقبل أن يدرك ذلك كان قد أصبح متشرداً. إنهم قلة في الوقت الراهن،

لكن في التسعينيات كان هناك الكثير منهم. رجال متجولون ووحيدون، اختاروا الحياة بهذه الطريقة. هرب بعضهم من المسؤوليات وشعر البعض الآخر أنهم طُردوا من المجتمع بسبب الظلم. كانوا يعملون لكن ليس لفترة طويلة، ويسرقون ولكن فقط الطعام والملابس التي يحتاجونها في بعض الأحيان من خط الغسيل. كانوا من مختلف الفئات؛ أميين وجاهلين، طاهرين وقدرين - لكن جميعهم كانوا يشتركون في القلق. اتبعوا الدفاء حيث يكون وتجنبوا الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة. مع تقدم الربيع يقتفون أثره شرقاً، ويدفعهم الصقيع غرباً وجنوباً. كانوا بمثابة إخوة للذئب الذي يعيش بالقرب من الإنسان وساحات الدواجن الخاصة به.. بالقرب من المدن ولكن ليس فيها. يرافقون رجالاً آخرين لمدة أسبوع أو ليوم واحد ثم ينفصلون عنهم. حول تلك النيران التي كانوا يشعلونها للتدفئة وقدر الحساء الجماعي كانت تدور كل أنواع الأحاديث باستثناء الخاصة. سمع آدم عن تطور منظمة عمال العالم الصناعيين وأعضائها الغاضبين. استمع إلى المناقشات الفلسفية، إلى الميتافيزيقيا، إلى الجماليات، إلى الخبرات غير الشخصية. قد يكون رفيقه في الليل قاتلاً، أو كاهناً تم تجريده/ أو مجرد هو من ثوبه، أو أستاذاً أجبرته هيئة تدريس حاقدة على ترك مضجعه الدافئ، أو رجلاً وحيداً يهرب من ذاكرته، ملاك أو شيطان في مرحلة التدريب. كل فرد منهم كان يحرص على المساهمة ببعض الأفكار كما تتم إضافة الجزر والبطاطس والبصل واللحوم إلى الحساء. لقد تعلم تقنية الحلاقة بالزجاج المكسور، والحكم على المنزل قبل أن يطرق بابه طلباً للصدقة. لقد تعلم تجنب التفاوض مع أفراد الشرطة المعادين، وأن يحكم على المرأة حسب دفاء قلبها.

استمتع آدم بالحياة الجديدة. عندما لامس الخريف الأشجار وصل إلى أوماها، ودون أي تفكير أو سبب أسرع إلى الغرب والجنوب، واصل رحلته عبر الجبال إلى أن وصل بارتياح إلى جنوب كاليفورنيا. تجول على البحر من الحدود الشمالية حتى سان لويس أويسيبو، وتعلم صيد ثعابين وبلح البحر من

برك المد، وحفر الرمال من أجل المحار، وحبس الأرانب في الكثبان الرملية بواسطة أنشودة صيد السمك. واستلقى على الرمال تحت أشعة الشمس يحصي الأمواج. حثه الربيع على العودة الى الشرق مرة أخرى، ولكن بشكل أبطأ من ذي قبل. كان الصيف باردًا في الجبال، وكان سكان الجبال طيبين لأن الناس الوحيدين طيبون. حصل آدم على وظيفة في محل أرملة بالقرب من دنفر وتقاسم طاولتها وسريرها بتواضع حتى دفعه الصقيع للسفر إلى الجنوب مرة أخرى. تبع نهر ريو غراندي إلى ما وراء مدينة ألباكركي في نيو مكسيكو، وإل باسو، بيغ بيند، ثم لاريدو في تكساس، ومنها إلى براونسفيل. تعلم الكلمات الإسبانية الدالة على الأطعمة والتسلية، وتعلم أنه عندما يكون الناس فقراء جدًا، فإنه ما يزال لديهم ما يقدمونه بحماس. تبلور حبه للفقراء الأمر الذي لم يكن ليحدث لو لم يكن هو نفسه فقيرًا. والآن أصبح متشردًا خبيرًا، يستخدم مذلته كمبدأ عملي. كان قد أصبح نحيفًا وجعلته الشمس داكن البشرة، وكان بإمكانه تغيير شخصيته حتى لا يثير الغضب أو الاستياء. أصبح صوته رقيقًا، وقام بدمج العديد من اللهجات في حديثه بحيث لا يبدو حديثه غريبًا في أي مكان. كان هذا هو الأمان العظيم والحجاب الواقي للمتشردين. كان يركب القطارات بشكل غير متكرر بسبب الغضب المتزايد ضد المتشردين. تم القبض على آدم بسبب التشردين. كانت وحشية الشرطة والسجناء تخيفه وأبعدته عن تجمعات المتشردين. نتيجة لذلك بدأ بالسفر بعد ذلك بمفرده مع الحرص على الحلاقة ونظافة هندامه دائماً. عندما جاء الربيع مرة أخرى شعر أن وقت الراحة والسلام قد انتهى. كان يتجه شمالاً نحو تشارلز والذكريات الواهنة لطفولته.

كان تحركه سريعاً في شرق تكساس اللامتناهي، عبر لويزيانا ونهايات الميسيسيبي وألاباما، وصولاً إلى جانب فلوريدا. كان يشعر بضرورة التحرك بسرعة. كان الزوج فقراء بما يكفي ليكونوا طيبين، لكنهم لم يستطيعوا الوثوق بأي رجل أبيض مهما كان فقيراً، والرجال البيض الفقراء يخافون من الغرباء.

بالقرب من تالاهاسي تم القبض عليه من قبل رجال عمدة المنطقة، وحكم عليه كمتشرد ووضع مع مجموعة على الطريق. هكذا سُيدت الطرق. كانت عقوبته ستة أشهر وبعدها تم إطلاق سراحه، وتم القبض عليه على الفور مرة أخرى لمدة ستة أشهر أخرى. وهنا تعلم كيف يمكن للرجال اعتبار الرجال الآخرين وحوش وأن أسهل طريقة للتوافق مع هؤلاء الرجال هي أن تكون وحشاً. وجه نظيف ومفتوح، وعين لا تتهرب من الأعين - هذه الأشياء التي لفتت الانتباه، ولفت الانتباه جلب له العقاب.

كيف لرجل قام بعمل قبيح أو وحشي بإيذاء نفسه أن يعاقب شخصاً على هذا الأذى؟ كان يفكر في نفسه. أن تتم حراستهم في العمل من قبل رجال يحملون بنادق صيد، أن يتم تقييدهم من الكاحل ليلاً بسلسلة، كانت أموراً احترازية بسيطة. لكن الجلد الوحشي لأقل قدر من إيذاء الارادة، لأصغر ذرة من الكرامة أو المقاومة، دل على أن الحراس كانوا يخافون من الأسرى، ومن سنواته في الجيش أدرك آدم أن الرجل يخاف من الحيوانات الخطرة. وآدم، مثل أي شخص في العالم، يخشى ما يمكن أن يفعله الجلد بجسده وروحه. رسم ستارة حول نفسه، أزال التعابير عن وجهه، والنور من عينيه، وتوقف عن الكلام. في وقت لاحق، لم يكن مندهشاً كثيراً مما حدث له بل من قدرته على تحمّله وبألم بسيط. كان الأمر أكثر فظاعة بعد ذلك مما كان عليه عندما كان يحدث. إنه انتصار لضبط النفس أن ترى رجلاً يُجلد حتى تظهر عضلات ظهره بيضاء وتتألق من خلال الجروح ولا تظهر عليه أي علامات للأسى أو الغضب أو الاهتمام. وآدم تعلم هذا. بعد اللحظات الأولى القليلة، يتم الشعور بالناس بدلاً من رؤيتهم. خلال قضائه لفترة سجنه الثانية على طرق فلوريدا، انكشفت شخصية آدم لدرجة أنه لم يُسمع له صوت وأصبح تقريباً غير مرئي قدر الإمكان. وبما أن الحراس لم يشعروا به، لم يخافوا منه، بالنتيجة تم تكليفه بمهام كتنظيف المعسكرات، وتوزيع دلاء الفضلات للسجناء، وملء دلاء المياه.

انتظر آدم حتى ثلاثة أيام قبل إطلاق سراحه للمرة الثانية. بعد ظهر ذلك اليوم ملاً دلاء الماء وعاد إلى النهر الصغير للمزيد. ملاً دلاءه بالحجارة وأغرقتها، ثم سبح لمسافة طويلة في اتجاه مجرى النهر. ظل يتحرك في الماء حتى وقت الغسق، إلى أن وجد مكاناً تحت ضفة بها شجيرات للاختباء. لم يخرج من الماء. في وقت متأخر من الليل سمع كلاب الصيد وهي تمر على جانبي النهر، بدء بفرك شعره بأوراق خضراء بقوة لتغطية الرائحة البشرية. جلس في الماء بحيث لا يبدو منه سوى أنفه وعينه. في الصباح عادت كلاب الصيد غير مبالية، وكان الرجال أكثر تعباً من أن يمشطوا الجرف أكثر. عندما رحلوا، أخرج آدم قطعة من لحم الخنزير المقلي المملح والمغمورة بالماء من جيبه وأكلها. لقد درب نفسه على عدم التسرع، فمعظم الرجال تم القبض عليهم وهم يحاولون الهرب. ولذلك استغرق الأمر من آدم خمسة أيام لعبور المسافة القصيرة إلى جورجيا. لم يخاطر وتحكم في نفاد صبره من خلال ضبط نفس حديدي، واندش من قدرته على ذلك. على حدود فالدوستا في جورجيا، ظل مختبئاً حتى بعد منتصف الليل بوقت طويل، ودخل المدينة مثل الشبح متسللاً إلى الجزء الخلفي من متجر رخيص، دفع زجاج النافذة ببطء وثبات إلى أن سحب براغي القفل من الحواف الخشبية المتعفنة. ثم أعاد البراغي لكنه ترك النافذة مفتوحة. كان عليه أن يعمل مستعيناً بضوء القمر من خلال النوافذ القذرة. سرق بنطالاً رخيصاً وقميصاً أبيض وحذاء أسود وقبعة سوداء ومعطفًا واقيا من الجلد الزيتي، وارتدى كل قطعة على حدة للتأكد من ملائمة القياس. حرص على عدم إحداث أي إزعاج قبل أن يتسلق النافذة ولم يأخذ أي شيء لم يكن بحاجة له بشدة. لم يكن قد بحث حتى عن درج النقود. أنزل النافذة بعناية وانزلق من الظل إلى الظل في ضوء القمر. كان يبقى مختبئاً أثناء النهار ويذهب بحثاً عن الطعام في الليل؛ اللفت، أو بضع سنابل من الذرة أو التفاح، لا يمكن هدر أي شيء. أذهب حدائث الحذاء بفركه بالتراب، وعجن معطف

المطر ليجعله يبدو قديماً، بكل حال مرت ثلاثة أيام قبل أن يحصل على المطر الذي يحتاجه، أو شعر بسبب حذره الشديد أنه بحاجة إليه. بدأ المطر في وقت متأخر من بعد الظهر. جلس آدم محتمياً منه تحت معطفه الزيتي منتظراً حلول الظلام، وعندما حدث ذلك سار خلال الليل الممطر إلى بلدة فالدوستا. أنزل قبعته السوداء على عينيه ومعطفه الزيتي الأصفر مربوط بإحكام. شق طريقه إلى المحطة ونظر من خلال نافذة ضبابية بسبب المطر. كان موظف المحطة بواقى عينيه الأخضر وأكمامه السوداء منشغلاً بالتحدث إلى صديق له عبر نافذة التذاكر. مرت عشرون دقيقة قبل أن يغادر هذا الصديق. شاهده آدم خارجاً أخيراً وأخذ نفساً عميقاً لتهدئة نفسه ودخل.

## 2

كان تشارلز يتلقى عددًا قليلاً جدًا من الرسائل لدرجة أنه كان يبقى لأسابيع دون الذهاب إلى مكتب البريد. في فبراير 1894، عندما وصلت رسالة سميكة من مكتب محاماة في واشنطن، شعر مدير مكتب البريد أنها قد تكون مهمة. ذهب إلى مزرعة تراسك، ووجد تشارلز يقطع الخشب وسلّمه الرسالة. وبما أنه تعب للوصول إليه فقد انتظر لسماع ما جاء في الرسالة. تركه تشارلز ينتظر. كان يقرأ الصفحات الخمس ببطء شديد، ويعود ويقرأها مرة أخرى، ويحرك شفّتيه دون صوت فوق الكلمات. ثم طواها واستدار ذاهباً نحو المنزل دون كلمة.

نادى مدير مكتب البريد: «هل حدث شيء سيد تراسك؟»  
أجابه تشارلز: «أبي مات»، ودخل المنزل وأغلق الباب.  
قال مدير مكتب البريد في المدينة: «كان الأمر صعباً عليه، تلقاه بصعوبة شديدة. لكنه رجل هادئ لا يتحدث كثيراً».

في المنزل، أضاء تشارلز المصباح على الرغم من أن الظلام لم يحل بعد. وضع الرسالة على المنضدة وغسل يديه قبل أن يجلس ليقراها مرة أخرى. لم يكن هناك من يرسلون له برقية عند وفاته. عندما وجد المحامون عنوانه بين أوراق والده أرسلوا له يقدمون تعازيهم. كانوا متحمسين للغاية أيضًا لأنهم صنعوا وصية لتراسك، اعتقدوا أنه قد يكون لديه بضع مئات من الدولارات يتركها لأبنائه، هذا ما بدا عليه. لكن عندما فتشوا دفاتره المصرفية وجدوا أن لديه أكثر من ثلاثة وتسعين ألف دولار في البنك وعشرة آلاف دولار سندات ضمان. لقد شعروا باختلاف كبير تجاه السيد تراسك حينها. الناس الذين لديهم هذا القدر من المال كانوا من الأغنياء ولن يضطروا للقلق أبدًا لأن ذلك يكفي لبدء سلالة. هنا المحامون تشارلز وأخاه آدم.

كان مذكوراً في الوثائق أن هذه الأموال يجب تقاسمها على قدم المساواة بين الأخوين. بعد الأموال أدرجوا المتعلقة الشخصية التي تركها المتوفى: خمسة سيوف احتفالية قُدمت إلى سايروس في مختلف مؤتمرات منظمة الجيش، مطرقة من خشب الزيتون عليها لوحة ذهبية، وساعة ماسونية مرصعة بالألماس، أسنان من الذهب كان قد استبدلها بالأسنان التي خلعها، وساعته (فضة)، وعصا ذهبية، وما إلى ذلك.

قرأ تشارلز الرسالة مرتين وضم جبهته في يديه. تساءل عن مكان آدم. احتاج لوجود آدم في المنزل.

شعر تشارلز بالحيرة والבלادة. أشعل النار ووضع المقلاة لتسخينها ووضع قطع سمكة من لحم الخنزير المملح بداخلها. ثم عاد ليحرق في الرسالة. فجأة قرر وضعها في درج طاولة المطبخ، وعدم التفكير في الأمر على الإطلاق لفترة من الوقت.

بالطبع لم يفكر في شيء آخر، لكنه كان تفكيرًا دائريًا مملًا يعود به إلى نقطة البداية مرارًا وتكرارًا: من أين حصل على هذا كله؟



عندما يشترك حدثان في شيء ما، في طبيعتهما أو في الزمان أو المكان، فإننا نقفز بسعادة إلى الاستنتاج القائل بأنهما متشابهان ومن هذا الاتجاه نبتكر السحر ونخزنه لإعادة سردهما. لم يكن تشارلز قد تلقى خطابًا من قبل في المزرعة في حياته. بعد بضعة أسابيع من وصول تلك الرسالة، ركض صبي إلى المزرعة ببرقية. كان تشارلز دائمًا ما يربط الخطاب والبرقية بالطريقة التي نجمع بها حالتنا وفتاة ونتوقع وفاة ثالثة. سارع إلى محطة سكة حديد القرية حاملاً البرقية في يده.

«استمع إلى هذا» قال للعامل.

«لقد قرأتها».

«قرأتها؟»

قال عامل الهاتف: «البرقيات تصل عبر السلك، أنا الذي دونتها».

«أوه! نعم بالطبع. أنا بحاجة إلى إرسال تلغراف بمائة دولار. آدم سيعود

للبيت».

قال عامل الهاتف «تعال معي، أنت مدين لي بستين سنتًا. إلى فالدوستا،

جورجيا؟ لم أسمع عن هذا المكان من قبل».

«ولا أنا، لكنه موجود. أخبرني يا كارلتون، كيف يمكنك تحويل الأموال

عن طريق التلغراف؟»

«حسنًا، أنت تحضر لي مائة واثنين دولار وستين سنتًا، وأنا أرسل برقية

تخبر عامل فالدوستا أن يدفع لآدم مائة دولار. أنت مدين لي بستين سنتًا أيضًا».

«سأدفع نعم - لكن أخبرني، كيف أعرف أنه آدم؟ ما الذي يمنع أي شخص

من استلام المال؟»

العامل سمح لنفسه بابتسامة «بالطريقة التي نتبعها هنا، تعطيني سؤالاً لا

يمكن لأي شخص آخر أن يعرف إجابته. أرسل أنا كلا من السؤال والجواب،

عامل الهاتف يسأل المستلم السؤال، وإذا لم يستطع الإجابة فلن يحصل على المال».

«هذا لطيف جداً. من المهم أن أفكر في سؤال جيد».

«من الأفضل أن تحضر المائة دولار قبل أن يغلق برين العجوز نافذته».

كان تشارلز سعيداً باللعبة. عاد والمال في يده. قال: «وجدت السؤال».

«أمل ألا يكون الاسم الأوسط لوالدتك. الكثير من الناس لا يتذكرون».

«لا، لا شيء من هذا القبيل. إنه هذا». ماذا أهديتَ أبي في عيد ميلاده قبل

أن تدخل الجيش؟»

«إنه سؤال جيد ولكنه طويل للغاية. ألا يمكنك اختصاره إلى عشر كلمات؟»

«من الذي يدفع ثمنه؟ الجواب هو «جرو»».

قال كارلتون: «لن يخمن أحد ذلك. حسناً، أنت الذي تدفع، وليس أنا».

قال تشارلز: «سيكون الأمر مضحكاً إذا لم يتذكر، فهو لن يعود إلى المنزل

أبداً».

### 3

أتى آدم قادماً من القرية. كان قميصه متسخاً وملابسه التي سرقها مجمدة

ومتسخة لأنه كان يرتديها منذ أسبوع. بين المنزل والحظيرة توقف لسمع

صوت أخيه، وفي لحظة سمعه يطرق على شيء ما في حقل التبغ الكبير

«تشارلز!» صاح آدم.

توقف الطّرق، وساد الصمت. شعر آدم كما لو أن شقيقه كان يبحث عنه في

شقوق الحقل. هرع تشارلز إلى آدم وصافحه.

«كيف حالك؟»

قال آدم: «بخير».

«يا إلهي، أنت نحيف!»

«أعتقد أنني كذلك. وأكبر أيضًا بسنوات».

قام تشارلز بتفحصه من رأسه إلى قدمه «أنت لا تبدو ثرياً».

«أنا لست كذلك»

«أين حقبتك؟»

«ليست لدي واحدة».

«يا إلهي! اين كنت؟»

«أتجول في كل الأماكن».

«مثل المتشرد؟»

«مثل المتشرد».

بعد كل السنوات والحياة التي جعلت جلد تشارلز مجعدًا وعينيه الداكنتين محمرّين، عرف آدم أن تشارلز كان يفكر في شيئين - الأسئلة وشيء آخر.

«لماذا لم تعد إلى المنزل؟»

«كنت أتجول فحسب، ولم أستطع التوقف، إنه أمر غامر. ندبة سيئة بحق هذه التي في وجهك».

«هذا هو الذي كتبت لك عنه. يزداد سوءا مع الوقت. لماذا لم تكتب لي؟ هل أنت جائع؟» كانت يدا تشارلز في جيوبه للحظة، وفي التالية كانت تلمس ذقنه ثم تحك رأسه.

«قد تختفي مع الوقت. رأيت رجلاً ذات مرة - نادل - كانت لديه ندبة تشبه القطة. لقد كانت وحة. كان لقبه كات».

«هل أنت جائع؟»

«بالتأكيد، أعتقد أنني كذلك».

«هل قررت البقاء؟»

«أعتقد ذلك. هل تود إخباري الآن؟»

أجاب تشارلز: «أعتقد ذلك. والدنامات.»

«أعرف.»

«كيف بحق الجحيم تعرف؟»

«أخبرني وكيل المحطة. متى مات؟»

«تقريباً شهر.»

«ماذا كان السبب؟»

«التهاب رئوي.»

«دُفن هنا؟»

«لا. في واشنطن. وصلتنى رسالة، وصحف تحدثت عن ذلك. حملوه على غواصة فوقها علم. كان نائب الرئيس هناك وأرسل الرئيس إكليلاً من الزهور. كل ذلك في الصحف. الصور أيضاً - سأريك اياها. لقد حصلت على كل شيء.»

تأمل آدم وجه أخيه طويلاً إلى أن أشاح تشارلز بنظره للبعيد. سأله: «هل أنت غاضب من شيء ما؟»

«ما الذي يمكن أن أكون غاضباً بشأنه؟»

«بدا الأمر للتو -»

«ليس لدي ما أغضب منه. تعال، سأحضر لك شيئاً لتأكله.»

«حسناً. هل تعذب بسبب المرض طويلاً؟»

«لا. كان التهاباً رئوياً سريعاً. ذهب على الفور.»

كان تشارلز يتستر على شيء ما، بدا أنه أراد أن يرويّه لكنه لم يعرف كيف

يفعل ذلك. ظل يخبئ بين الكلمات. صمت آدم. قد يكون من الجيد التزام الصمت وترك تشارلز يماطل ويدور حتى يخرج ما بجعبته.

قال تشارلز: «لا أؤمن كثيراً بالرسائل القادمة من الجانب الآخر، ومع ذلك، من يعلم؟ يدعي بعض الناس أنهم يتلقون رسائل من الموتى - العجوز سارة ويتبورن تقسم بذلك. لا يعلم الفرد كيف يفكر بهكذا أمر، هل تصلك رسائل أيضاً؟ تحدث، مَنْ عض لسانك بحق الجحيم؟»

قال آدم «كنت أفكر فقط». وكان يفكر بذهول بأمر محدد: لماذا لم أعد أخاف من أخي! اعتدت أن أخاف منه حتى الموت، ولم أعد أشعر بالخوف. أتساءل لماذا؟ أيعقل أن هذا فعل الجيش؟ أو العصابة؟ هل يمكن أن يكون موت الأب؟ ربما - لكنني لا أفهم ذلك. مع عدم وجود الخوف، علم أنه يستطيع قول أي شيء يريده، بينما كان قبل ذلك يختار كلماته بعناية لتجنب المتاعب. لقد كان شعوراً جيداً، أحس كما لو كان هو نفسه قد مات وقام من بين الأموات.

دخلا المطبخ الذي يتذكره ولم يتذكره. بدا أصغر حجماً وأكثر قذارة. قال آدم بمرح تقريباً: «تشارلز، أنا مصغ لك. تريد أن تخبرني بشيء وتحوم حوله مثلما يحوم جرو تريير حول شجرة. من الأفضل أن تخبرني قبل أن يعضك».

اشتعلت عيون تشارلز بغضب بينما يرفع رأسه. خارت قوته، بدا وكأنه كان يقول لنفسه، يبدو أنني لن أستطيع إخفاء الأمر أكثر من ذلك.. لا أستطيع.

ضحك آدم «ربما يكون من الخطأ أن أشعر بالرضا بسبب رحيل والدنا للتو، لكن كما تعلم، تشارلز، أنا لم أشعر أبداً أنني بخير طوال حياتي. لم أشعر أبداً بأني بحالة جيدة. يمكنك إخباري تشارلز. لا تدع الأمر ينهشك».

سأل تشارلز، «هل أحببت والدنا؟»

«لن أرد عليك حتى أعرف ما الذي يحدث».

«هل فعلت أم لا؟»

«ما علاقة هذا بك؟»

«أخبرني».

الجرأة الحرة كانت تتخلل عظام وعقل آدم». حسنًا، سأخبرك. لا لم أفعل. في بعض الأحيان كان يخيفني. نعم، في بعض الأحيان كنت أعجب به، لكنني كرهته في معظم الأوقات. والآن أخبرني لماذا تريد أن تعرف».

كان تشارلز ينظر إلى يديه. قال: «أنا لا أفهم. لا أستطيع استيعاب الأمر في رأسي. لقد أحبك أكثر من أي شيء آخر في العالم».

«لا أصدق ذلك».

«ليس عليك ذلك. لقد أحب كل شيء أحضرته أنت له. بينما لم يعجبه أي شيء قدمته له. هل تتذكر الهدية التي قدمتها له، سكين الجيب؟ لقد قمت بقطع وبيع شحنة من الخشب للحصول على ذلك السكين. حسنًا، لم يأخذه معه إلى واشنطن. هذا صحيح، ما زال في درج مكتبه هنا. وقد أعطيته أنت يومها جروًا لم يكلفك شيئًا. حسنًا، دعني أريك صورة لذلك الجرو. كان في جنازته. كان العقيد يحمله لأنه أصبح أعمى ولا يستطيع المشي. أطلقوا النار عليه بعد الجنازة».

تحرير آدم من شراسة نبرة أخيه. قال: «لا أفهم ما تريد الوصول إليه»

قال تشارلز: «لقد أحببته». ولأول مرة أمام آدم، بدأ تشارلز في البكاء. وضع رأسه بين ذراعيه وبكى.

كان آدم على وشك الذهاب إليه عندما عاوده شيء من الخوف القديم. قال لنفسه: لا، إذا لمستته سيقتلني. ذهب إلى الباب المفتوح ووقف ينظر خارجًا، بينما يسمع أخاه يشهق من خلفه.

لم تكن المزرعة القريبة من المنزل جميلة - ولم تكن كذلك من قبل. كانت

هناك نفايات حولها، إهمال وفوضى؛ لا أزهار، أوراق وبقايا خشب متناثرة في كل مكان. المنزل لم يكن جميلاً أيضاً. كان كوخاً مبنياً جيداً للمأوى والطهي. كانت مزرعة كثيفة ومنزلاً كثيباً، غير محب وغير محبوب. لم يكن منزلاً، ولا مكاناً تتوق أن تعود إليه. فجأة تذكر آدم زوجة أبيه - كونها غير محبوبة كما المزرعة، مقبولة ونظيفة بأسلوبها الخاص بها، لكنها لم تكن زوجة أكثر مما كانت المزرعة بيتاً.

توقف بكاء أخيه. استدار آدم. كان تشارلز ينظر بثبات إلى الأمام. قال آدم، «حدثني عن أمي».

«لقد ماتت. كتبت لك».

«أخبرني عنها».

«أخبرتك. لقد ماتت. منذ زمن بعيد. لم تكن والدتك».

تذكر آدم تلك الابتسامة التي رسمها ذات مرة على وجهها في ذهنه. كان وجهها بارزاً أمامه.

اخترق صوت تشارلز تلك الصورة الذهنية: «هل ستخبرني بشيء واحد - ليس بسرعة - فكر قبل أن تخبرني، لا تجبني إلا إذا كان هذا صحيحاً».

حرك تشارلز شفثيه لتشكيل السؤال مقدماً «هل تعتقد أنه من الممكن أن يكون والدنا - غير أمين؟»

«ماذا تقصد؟»

«أليس هذا واضحاً بما فيه الكفاية؟ قلت ذلك بشكل مباشر. هناك معنى واحد فقط للخداع».

قال آدم: «لا أعرف. لم يقل هذا أحد من قبل. انظر إلى ما كان عليه، قضاء ليال في البيت الأبيض. حضور نائب الرئيس جنازته. هل هذا يبدو وكأنه رجل غير أمين؟ بربك يا تشارلز، أخبرني ما كنت تريد أن تخبرني به منذ اللحظة التي وصلت فيها إلى هنا».

بلل تشارلز شفثيه. بدا أن الدم قد هرب منه حاملاً معه كل الطاقة والضراوة. أصبح صوته خافتاً. ترك أبي وصية. ترك كل شيء لنا بشكل مساو». «ضحك آدم». «حسناً، يمكننا دائماً العيش في المزرعة. أعتقد أننا لن نجوع». استمر الصوت الخافت: «إنها أكثر من مائة ألف دولار». «انت مجنون. ربما هي مائة دولار. من أين سيحصل على مبلغ كهذا؟» «ليس خطأ. كان راتبه مع الجيش مائة وخمسة وثلاثين دولاراً في الشهر. كان يدفع ثمن غرفته والمأكل. وكان يحصل على خمسة سنتات للميل ونفقات الفندق عندما يسافر».

«ربما كان لديه ذلك طوال الوقت ولم نكن نعرفه أبداً».

«لا، لم يكن يملك كل هذا طوال الوقت».

«حسناً، لماذا لا نكتب إليهم ونسأل؟ شخص ما هناك قد يعرف».

قال تشارلز: «لن أجرؤ».

«اسمع! لا تفعل. هناك أمور مثل التكهّنات. كثير من الرجال أصبحوا فجأة أثرياء. هو كان يعرف الرجال الكبار. ربما حصل على شيء جيد. فكر في الرجال الذين ذهبوا إلى رحلة البحث عن الذهب في كاليفورنيا وعادوا أغنياء».

كان وجه تشارلز منكمشاً. انخفض صوته حتى اضطر آدم إلى الاقتراب من السماع: «ذهب والدنا إلى جيش الاتحاد في يونيو 1862. وتلقى تدريباً لمدة ثلاثة أشهر هنا في هذه الولاية. هذا يجعله في سبتمبر. ذهب جنوباً. في الثاني عشر من أكتوبر أصيب في ساقه ونقل إلى المستشفى. عاد إلى المنزل في يناير».

«لا أرى ما تريد الوصول له».

كانت كلمات تشارلز دقيقة وباهتة. لم يكن في أي من المدن التي كان



يذكرها في حكاياته.. لم يكن في جيتيسبيرغ أو ويلدرنس أو ريتشموند أو أبو ماتوكس».

«كيف علمت بذلك؟»

«أوراق تسريحه. وصلت مع أوراقه الأخرى».

تنهد آدم بعمق. كان صدره يقرع وكأن قبضة تضربه، كان يشعر باندفاع الفرع فيه. هز رأسه وكأنه لا يصدق تقريباً.

قال تشارلز، «كيف أفلت من العقاب؟ كيف بحق الجحيم أفلت من العقاب؟ لماذا لم يستجوبه أحد من قبل. هل فعلت أنت؟ هل فعلت أنا؟ هل فعلت أمي؟ لم يفعل أحد. ولا حتى في واشنطن».

قام آدم. «ماذا يوجد في المنزل من طعام؟ سأقوم بتسخين شيء ما».

«لقد ذبحت دجاجة الليلة الماضية. سأقلها إذا كان بإمكانك الانتظار».

«أي شيء أسرع؟»

«بعض لحم الخنزير المملح والكثير من البيض».

قال آدم: «سأتناول ذلك».

تركا السؤال ملقى هناك، حاماً حوله ذهنياً، تخطياً. تجاهلته الكلمات لكن العقول لم تتركه أبداً. أرادا التحدث عن ذلك ولم يقدر. قلى تشارلز لحم الخنزير المملح، وسخن في المقلاة الفاصوليا، وحضر البيض المقلي. قال: «لقد حرثت المرعى».

«ضعه في خبز الجاودار. كيف سار الأمر؟»

«حسناً، بمجرد أن أزلت الصخور». لمس جبهته «حصلت على هذا الشيء

اللعين وأنا أحاول إخراج الحجر».

قال آدم: «نعم لقد كتبت لي عن ذلك، لا أعرف ما إذا كنت أخبرتك أن

رسائلك تعني الكثير بالنسبة لي».

قال تشارلز: «لم تكتب كثيرًا عما كنت تفعله».

«أعتقد أنني لم أرغب في التفكير في الأمر. كان الأمر سيئًا للغاية، معظمه».

قرأت عن الحملات في الصحف. هل شاركت فيها؟»

«نعم. لم أرغب في التفكير بهم. وما زلت».

«هل قتلت منهم؟»

«نعم، لقد قتلنا».

«أعتقد أنهم متزمتون بحق».

«أعتقد ذلك».

«لست مضطرًا للتحدث عن ذلك إذا كنت لا تريد».

«لا أريد».

تناولا عشاءهما تحت ضوء مصباح الكيروسين «كنا سنحصل على مزيد من الضوء لو كنت أغسل غطاء هذا المصباح فقط».

قال آدم: «سأفعل أنا ذلك، من الصعب التفكير في كل شيء».

«من الجيد أنك عدت. هل تود الذهاب إلى الحانة بعد العشاء؟»

«حسنًا، سنرى. ربما أبقى هنا لبعض الوقت».

«لم أكتب لك عن ذلك، لكن لديهم فتيات في النزول. لم أكن أعلم لو كنت

ترغب في الدخول معي. إنهن يتغيرن كل أسبوعين. لم أكن أعرف إن كنت ربما

ترغب في إلقاء نظرة».

«فتيات؟»

«نعم، إنهن في الطابق العلوي. هذا يجعل الأمر أسهل. واعتقدت بما أنك

عائد إلى المنزل للتو -»

«ليس الليلة. ربما في وقت لاحق. ما هو سعرهن؟»

«دولار. الفتيات الجميلات اللطيفات في الغالب».

قال آدم: «ربما لاحقًا، أنا مندهش أنهم سمحوا لهن بالدخول».

«كنت كذلك في البداية أيضًا. لكنهم وضعوا نظامًا».

«هل تذهب في كثير من الأحيان؟»

«كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. المكان معزول هنا، وأنا أعيش لوحدي».

«كتبت ذات مرة أنك كنت تفكر في الزواج».

«كنت. أعتقد أنني لم أجد الفتاة المناسبة».

دارا في جميع أنحاء الموضوع الرئيسي. بين الحين والآخر كادا أن يعودا للخوض فيه مجددًا، لكنهما انسحبا بسرعة وعادا إلى المحاصيل والقبيل والقال المحلي والسياسة والصحة. كانا يعلمان أنهما سيعودان إليه عاجلاً أم آجلاً. كان تشارلز أكثر حرصًا على الدخول في عمقه من آدم، ولكن لا يجب أن ننسى أن تشارلز كان لديه الوقت الكافي للتفكير في الأمر، بالنسبة لآدم كان مجالاً جديدًا من التفكير والشعور. كان يفضل تأجيله ليوم آخر، وفي الوقت نفسه كان يعلم أن شقيقه لن يسمح له بذلك.

بعد فترة قال «دعنا نؤجل اتخاذ القرار في ذلك الأمر الآخر».

قال تشارلز: «بالتأكيد، إذا كنت تريد ذلك».

لكن تدريجيًا نفذت الأحاديث التي يتم من خلالها الهروب من مواجهة الأمر. تمت تغطية كل المواضيع وكل حدث محلي. الكلام انتهى والوقت مضى.

«هل ستنام؟» سأل آدم.

«بعد قليل».

كانا صامتين، وكان الليل يتحرك بقلق حول المنزل، يحثهما ويحثهما.

قال تشارلز: «أنا متأكد من أنني أود أن أرى مراسيم تلك الجنازة، لا بد أنها كانت فخمة. هل تود رؤية قصاصات الأوراق؟ إنها في غرفتي».

«لا. ليس الليلة».

جلس تشارلز قبالة واضعاً مرفقيه على المنضدة وقال بتوتر: «علينا أن نفهم أنه يمكننا التأجيل بقدر ما نريد، ولكن علينا أن نفكر جيداً فيما سنفعله».

قال آدم: «أعرف ذلك. أعتقد أنني أحتاج فقط بعض الوقت للتفكير في الأمر».

«هل هذا يفيدك بشيء؟ لقد كنت أملك الوقت، الكثير من الوقت، تهت في الأفكار، حاولت ألا أفكر في الأمر، ومع ذلك بقيت أسبح فيه. هل تعتقد أن الوقت سيساعدك؟»

«لا أعتقد ذلك. ما الذي تريد التحدث عنه أولاً؟ بكل حال نحن لا نفكر في أي شيء آخر».

قال تشارلز: «هناك المال. أكثر من مائة ألف دولار - إنها ثروة».

«ماذا بشأن المال؟»

«حسناً، من أين أتى؟»

«كيف لي أن أعرف؟ أخبرتك أنه ربما يكون شخص ما أشركه في شيء جيد هناك في واشنطن».

«هل تصدق ذلك؟»

قال آدم: «لا أصدق أي شيء. لا أعرف ما يمكنني تصديقه»

«إنها أموال كثيرة، ثروة تركت لنا. يمكننا أن نعيش بقية حياتنا بها، أو يمكننا شراء الكثير من الأراضي ونكسب من استثمارها. ربما لم تدرك الأمر بعد، لكننا أغنياء. نحن أغنى من أي شخص هنا».

ضحك آدم «أنت تقول الأمر كما لو كان حكماً بالسجن».

«من أين أتى هذا المال؟» كرر تشارلز بقلق

«فيم يهملك هذا؟ يجب علينا فقط الاسترخاء والاستمتاع به».

«لم يكن في غيتيسبيرغ. لم يشارك في أي معركة في الحرب بأكملها. أصيب في مناوشة. كل ما قاله كان أكاذيب».

«ما الذي تريد الوصول إليه؟» قال آدم.

قال تشارلز بياس: «أعتقد أنه سرق المال، لقد سألتني وهذا ما أعتقده».

«هل تعرف أين سرقه؟»

«لا».

«إذن لماذا تعتقد أنه سرقه؟»

«لأنه قال أكاذيب عن الحرب. أعني، إذا تمكن من الكذب بشأن الحرب،

فلماذا لا يمكنه أن يسرق».

«كيف؟»

«لقد شغل مناصب في جيش الجمهورية الأعظم - مناصب كبيرة. ربما

تمكن من دخول الخزانة، وتزوير الوثائق».

تنهد آدم «حسناً، إذا كان هذا ما تعتقده، فلماذا لا تكتب إليهم وتخبرهم؟

اطلب منهم مراجعة وثائقهم. إذا كان هذا صحيحاً يمكننا إعادة المال».

كان وجه تشارلز منكمشاً وأصبحت الندبة على جبهته داكنة: «جاء نائب

الرئيس إلى جنازته. أرسل الرئيس إكليلا من الزهور. كان هناك صف من

العربات يبلغ طوله نصف ميل ومئات الأشخاص على الأقدام. وهل تعرف

من هم حاملو النعش؟»

«ما الذي تريد قوله؟»

«افترض أننا اكتشفنا أنه لص بالفعل. ثم ينكشف للجميع كيف أنه لم يكن في غيتيسبيرغ أو أي مكان آخر. ثم يعرف الجميع أنه كان كاذبًا أيضًا، وكانت حياته كلها كذبة ملعونة. حينها حتى لو قال الحقيقة في بعض الأحيان، فلن يعتقد أحد أنها كانت الحقيقة».

جلس آدم ساكنًا جدًا. لم تكن عيناه مضطربتين لكنه كان يقظًا. قال بهدوء: «اعتقدت أنك تحبه». كان يشعر بالتححرر والانعتاق.

«أحببته. ما زلت أحبه. لهذا السبب أكره هذا، لقد انتهت حياته، ذهب كل شيء. حتى أنهم قد يحفرون قبره حينها ويخرجونه». كانت كلماته مليئة بالعاطفة «ألم تحبه على الإطلاق؟» بكى.

قال آدم: «لم أكن متأكدًا حتى الآن. لقد اختلطت مشاعري بما كان من المفترض أن أشعر به. لا، أنا لم أحبه».

«إذن أنت لا تهتم إذا كانت حياته فاسدة وجسده المسكين قد اقتلع و - آه يا إلهي العظيم!»

تسابقت الأفكار في رأس آدم، محاولًا إيجاد كلمات تعبر عن شعوره «ليس علي أن أهتم».

قال تشارلز بمرارة: «لا، أنت لا تهتم ما دمت لا تحبه. يمكنك المساعدة بركله في وجهه».

عرف آدم أن أخاه لم يعد خطيرًا. لم يكن هناك شعور بالغيرة يدفعه. كان ثقل والده كله عليه، لكنه كان والده ولا يمكن لأحد أن يأخذ والده منه.

«كيف سيكون شعورك وأنت تسير في المدينة بعد أن يعلم الجميع؟ كيف ستواجه أي شخص؟» سأله تشارلز.

«قلت لك إنني لا أهتم. لست مضطرًا للاهتمام لأنني لا أصدق ذلك».

«لا تصدق ماذا؟»

«لا أعتقد أنه سرق أي أموال. أنا أو من بالحرب التي خدم فيها، أصدق بالضبط ما قال إنه فعله، وكان بالضبط حيث قال إنه كان موجوداً».

«ولكن البرهان.. ماذا عن وثيقة تسريحه؟»

«ليس لديك أي دليل على أنه سرق. لقد افترضت ذلك لأنك لا تعرف من أين أتت الأموال».

«لكن أوراق الجيش».

قال آدم: «يمكن أن يكونوا مخطئين. أعتقد أنهم مخطئون. أنا أو من بأبي».

«لا أرى كيف يمكنك ذلك».

قال آدم «دعني أخبرك. البراهين على عدم وجود الله قوية جداً، لكن لدى كثير من الناس ليست بنفس قوة الشعور بوجوده».

«لكنك قلت إنك لا تحب والدنا. كيف يمكنك أن تؤمن به إذا لم تحبه؟»

«ربما هذا هو السبب» قال آدم ببطء مستشعراً طريقه. «ربما لو كنت قد أحببته لكنت شعرت بالغيرة منه كما فعلت أنت. ربما يجعلك الحب مريباً ومتشككاً. هل صحيح أنك عندما تحب امرأة فأنت لا تعود متأكدًا أبدًا - لا تتأكد منها أبدًا لأنك لست متأكدًا من نفسك؟ أستطيع أن أرى ذلك بشكل واضح. أستطيع أن أرى كيف أحببته وماذا فعل بك. أنا لم أحبه. ربما كان يحبني. لقد اختبرني وأذاني وعاقبني وأخيراً أرسلني كما شاة، ربما للتعويض عن شيء ما. لكنه لم يحبك ولذلك آمن بك. ربما هو أمر عكسي».

حذق به تشارلز. قال: «أنا لا أفهم».

قال آدم: «أنا أيضاً أحاول أن أفعل، إنها فكرة جديدة بالنسبة لي. أشعر أنني بحالة جيدة. ربما أشعر بتحسن أكثر مما شعرت به في حياتي كلها. لقد تخلصت من شيء ما. ربما في وقت ما سأحصل على ما لديك، لكنني لم أحصل عليه بعد».

قال تشارلز مرة أخرى: «أنا لا أفهم».

«هل ترى أنني لا أعتقد أن والدنا كان لصًا؟ لا أعتقد أنه كان كاذبًا».  
«لكن الأوراق».

«لن أنظر إلى الأوراق. الأوراق لا تضاهي إطلاقاً إيماني بوالدي».  
كان تشارلز يتنفس بصعوبة. «إذن ستأخذ المال؟»  
«بالطبع».

«حتى لو كان قد سرقه؟»

«لم يسرقه. لا يمكن أن يسرقه».

قال تشارلز: «أنا لا أفهم».

«لا؟ حسنًا، يبدو أنه ربما يكون هذا هو سر الأمر برمته. انظر، لم أذكر هذا مطلقًا - هل تتذكر عندما ضربتني قبل أن أرحل؟»  
«نعم».

«هل تتذكر لاحقًا؟ لقد عدت مع فأس لقتلي».

«لا أتذكر جيدًا. لا بد أنني كنت مجنوناً».

«لم أكن أعرف حينها، لكنني أعرف الآن - كنت تقاتل من أجل حبك».  
«حب؟»

قال آدم: «نعم» «سنستخدم المال بشكل جيد. ربما سنبقى هنا. ربما سنذهب بعيدًا - ربما إلى كاليفورنيا. علينا أن نرى ما سنفعله. وبالطبع يجب علينا إقامة نصب تذكاري لوالدنا - نصب تذكاري كبير».

قال تشارلز: «لم أستطع الابتعاد عن هنا على الإطلاق».

«حسنًا، دعنا نرى كيف ستسير الأمور، لا عجلة».



## الفصل 8

### 1

أعتقد أن هناك مسوخاً ولدت في العالم لأبوين بشريين. يمكن رؤية البعض منهم، مشوهين ومخيفين، برؤوس ضخمة أو أجسام صغيرة. يولد البعض بلا أذرع ولا أرجل، بثلاثة أذرع، البعض الآخر بذيول أو أفواه في أماكن غريبة. إنها حوادث خارجة عن سيطرتنا ولا ذنب لأحد فيها كما كان يعتقد. في السابق كان يتم اعتبارهم العقوبة المرئية للخطايا المستترة.

لكن مثلما توجد مسوخ جسدية، ألا يمكن أن تولد مسوخ عقلية أو نفسية؟ قد يبدو الوجه والجسد مثاليين، ولكن إذا كانت الجينة المنحرفة أو البيضة المشوهة بإمكانها إنتاج مسوخ جسدية، ألا يمكن لنفس العملية أن تنتج روحاً مشوهة أيضاً؟

المسخ يحمل اختلافات عن الطبيعي إلى درجة أكبر أو أقل قبولاً أو استيعاباً. كما قد يولد طفل بلا ذراع، يمكن أن يولد المرء بلا رحمة أو ضمير. الرجل الذي فقد ذراعيه في حادث يواجه كفاً كبيراً للتكيف مع ذلك النقص، لكن الشخص المولود بلا ذراعين لا يعاني إلا مع من يجده غريباً. فهو لم يملك ذراعين في الأساس، وعليه لا يمكنه أن يشعر بأنه يفتقدهما. في طفولتنا نتخيل أحياناً كيف يمكن أن تكون الحياة إذا ما امتلكتنا أجنحة، ولكن لا يوجد سبب لافتراض أن هذا هو نفس الشعور الذي تشعر به الطيور. لا، بالنسبة للمسخ، لا بد أن يكون العادي متوحشاً ومخيفاً، لأن كل شخص طبيعي مع نفسه. مع

هذا لا بد أن يكون الأمر مختلفاً وأكثر غموضاً فيما يتعلق بالتشوه الداخلي، ذلك أنه لا يجد ما يمكن مقارنته مع الآخرين. بالنسبة للإنسان المولود بلا ضمير يبدو أخوه المنكوب سخيفاً. بالنسبة للمجرم يبدو الصادق أحماً. يجب ألا تنسى أن المسخ كائن مختلف، وأن الطبيعي أمر غريب ومخيف بالنسبة له. في اعتقادي أن كاثي أميس ولدت بميول مختلفة أو نقص ما، كان هو الدافع الرئيس لها طوال حياتها. لم تكن متوازنة تماماً، ومنذ ولادتها لم تكن مثل الآخرين. ومثلما يتعلم المُقعد الاستفادة من نقصه حتى يصبح أكثر فاعلية في مجال محدود، كذلك فعلت كاثي، مستخدمة اختلافها، أحدثت ضجة موجعة ومربكة في عالمها. في وقت ما في السابق كان يقال عن فتاة مثل كاثي أن الشيطان يتلبسها، وتقام لها جلسات لطرد الروح الشريرة منها، والتي في حال لم تنجح بعد عدد من التجارب، لكانت قد أُحرقت بصفقتها ساحرة وذلك من أجل خير المجتمع. الشيء الوحيد الذي قد لا يُغفر للساحرة هو قدرتها على إزعاج الناس وجعلهم قلقين وغير مرتاحين وحتى حسودين.

وكما لو أن الطبيعة أخفت فخاً، كان لدى كاثي وجه بريء، شعرها ذهبي جميل، عيونها عسلية واسعة، وجفونها العلوية متدلّية بحيث جعلتها تبدو ناعسة بشكل غامض. كان أنفها رقيقاً، وعظام وجنتيها عالية وذقتها صغيرة بحيث بدا وجهها على شكل قلب. كان فمها مرسوماً بشكل جميل لكنه صغير جداً - ما يُسمى ببرعم الورد. أذناها أيضاً صغيرتان جداً ودون شحومات، وكانا ملتصقين برأسها لدرجة أنه حتى مع تمشيط شعرها لم يكن لهما ظل. كانا وكأنهما لوحتان رقيقتان معلقتان على جانبي رأسها.

لطالما كانت كاثي تحمل شخصية طفلة حتى بعد أن كبرت، ذراعاها بالغة النحافة، ويدها رقيقتان وصغيرتان. لم يبرز ثدياها كثيراً. تحولت حللماتها إلى الداخل في بداية بلوغها، وكان على والدتها أن تقرصهما عندما بلغت العاشرة وكانت تشكو من الألم فيهما. كان جسدها أقرب لجسد صبي، ضيق

الوركين بسيقان مستقيمة، لكن كاحليها كانا نحيفين ومستقيمين دون أن يبدوا ضامرين. قدماها كانتا صغيرتين ومستديرتين وقويتين كما حوافر صغيرة. كانت طفلة جميلة وأصبحت امرأة جميلة. كان صوتها رقيقاً للغاية ويمكن أن يكون عذباً لدرجة لا تُقاوم. لكن لا بد أنه كان هناك سلك فولاذي في حلقتها لأن صوت كاثي كان قادراً على القطع مثل النصل الحاد عندما ترغب بذلك. حتى في طفولتها كانت تحمل بعض الصفات التي تجعل الناس ينظرون إليها ثم يشيخون سريعاً، فيعودون للنظر إليها، أمر ما غريب وغير مفهوم يجعلهم يفعلون ذلك. بدا أن هناك شيء ما في عينيها، ولم يتمكن أحد من رؤيته عند العودة للنظر إليها. كانت تتحرك بهدوء وقليلة الكلام، مع ذلك كان من النادر أن تدخل في غرفة دون أن تتحول كل الأنظار إليها مباشرة.

كانت تشعر الناس بعدم الراحة ولكن ليس لدرجة دفعهم إلى المغادرة أو الابتعاد عنها. رغب الجميع رجالاً ونساءً في فهمها والتقرب منها ومعرفة سبب الاضطراب الذي تزرعه فيهم بمهارة. وبما أن الأمر كان دائماً على هذا النحو لم تجد كاثي الأمر غريباً. كانت مختلفة عن الأطفال الآخرين من نواحٍ عديدة، لكن شيئاً واحداً على وجه الخصوص كان يميزها عن غيرها. يمقت معظم الأطفال الاختلاف، فهم يريدون أن ينظروا ويتحدثوا ويلبسوا ويتصرفوا تماماً مثل كل الآخرين. إذا كان أسلوب اللباس عبثياً، كان الطفل يستاء إذا لم يرتد هذا العبث. إذا بدأ الناس بارتداء عقود مصنوعة من شرائح لحم الخنزير، سترى الطفل حزيناً إذا لم يُسمح له بارتداء عقد لحم الخنزير. ويمتد استعباد هذه الفئة إلى كل لعبة وكل ممارسة اجتماعية كانت أو غير ذلك. إنه تلوين وقائي يستخدمه الأطفال من أجل سلامتهم.

كاثي لم يكن لديها أي من هذا، لم تتوافق منذ صغرها مع الآخرين في اللباس أو السلوك. كانت ترتدي ما يروق لها، وكانت النتيجة أن الأطفال الآخرين كانوا هم من يقلدونها في كثير من الأحيان. مع تقدمها في السن بدأت

المجموعة، مجموعة الأطفال، تشعر بما يشعر به الكبار؛ أن هناك شيئاً غريباً في كاثي. بعد فترة من الوقت تجنبها الفتيان والفتيات كما لو كانت تحمل خطراً مجهولاً. كانت كاثي كاذبة، لكنها لم تكذب كما يفعل معظم الأطفال، كانت تسرد أحلام يقظتها. عندما يكون الحديث عن شيء متخيل ولجعله يبدو أكثر واقعية، يُحكى على أنه حقيقي. هذا مجرد انحراف عفوي عن الواقع الخارجي. أعتقد أن الفرق بين الكذبة والقصة هو أن القصة تستخدم زخارف الحقيقة وتظهرها لمصلحة ومتعة المستمع والراوي. القصة ليس فيها ربح ولا خسارة. لكن الكذب أداة للربح أو الهروب. عليه يمكن الافتراض أنه إذا تم التقييد بهذا التعريف بدقة فإن كاتب القصص هو شخص كاذب - إذا كان محظوظاً من الناحية المالية.

أكاذيب «كاثي» لم تكن بريئة أبداً. كان غرضها الهروب من العقاب أو العمل أو المسؤولية، وكانت تستخدمها من أجل الربح. يتعثر معظم الكذابين إما لأنهم نسوا ما قالوه أو لأن الكذبة تصطدم فجأة بحقيقة لا جدال فيها. لكن كاثي لم تنس أكاذيبها وطوّرت أذكي طريقة للكذب؛ بقيت قريبة بما فيه الكفاية من الحقيقة بحيث لا يمكن للمرء التأكد أبداً من حقيقة الأمر. لقد تعلمت أيضاً حيلتين إضافيتين - إما أن تمزج أكاذيبها مع الحقيقة أو أن تقول الحقيقة كما لو كانت هي الكذبة. إذا تم اتهام أحدهم بالكذب واتضح أنه كان يقول الحقيقة، سيكون هناك تراكم سيستمر لفترة طويلة ويحمي العديد من أكاذيبه المستقبلية.

بما أن كاثي كانت طفلة وحيدة، لم تكن بالنسبة لأمها مثلاً مختلفاً في الأسرة. اعتقدت أن جميع الأطفال مثل طفلتها. وبما أن جميع الآباء يقلقون، فقد كانت مقتنعة بأن جميع أصدقائها يعانون من نفس المشاكل. والد كاثي على الجانب الآخر لم يكن متأكداً. كان يدير مذبغة صغيرة في بلدة بولاية ماساتشوستس، مما جعله يعيش حياة مريحة ودقيقة إذ كان يعمل بجد. تعامل

السيد أميس مع أطفال آخرين بعيدًا عن منزله وشعر أن كاثي ليست مثل الأطفال الآخرين. لقد كانت مسألة محسوسة أكثر مما هي مفهومة. كان غير مرتاح بشأن ابنته لكنه لم يستطع أن يفهم السبب.

تقريبًا كل شخص في العالم لديه شهية ورغبات، محفزات عاطفية، الكثير من الأنانية، شهوات دفينية سرّية. ومعظم الناس إما يقومون بمراقبة مثل هذه الأشياء أو ينغمسون فيها سرًا. لم تكن كاثي تعرف هذه الدوافع في الآخرين فحسب، بل كانت تعرف أيضًا كيفية استخدامها لتحقيق مكاسبها الخاصة. من المحتمل جدًا أنها لم تؤمن بأي ميول أخرى لدى البشر، فبينما كانت متيقظة بشكل خارق للطبيعة في بعض الاتجاهات كانت عمياء تمامًا في اتجاهات أخرى.

علمت «كاثي» عندما كانت صغيرة جدًا أن النشاط الجنسي بكل ما يصاحبه من توك وآلام وغيره ومحرمات، هو الدافع الأكثر إثارة للقلق لدى البشر. وفي ذلك الوقت كان الأمر أكثر إزعاجًا مما هو عليه الآن، لأن الموضوع كان لا يُذكر ولا يتم التطرق له. أخفى الجميع ذلك الجحيم الصغير في نفسه، وتظاهروا علنًا بأنه غير موجود - وعندما وقعوا فيه كانوا عاجزين تمامًا. تعلمت «كاثي» أنه من خلال التلاعب بهذا الجانب من الأشخاص واستخدامه، يمكنها اكتساب السلطة والحفاظ عليها من الجميع تقريبًا. لقد كان في الحال سلاحًا وتهديدًا لا يقاوم بالنسبة لها. ونظرًا لأنها لم تستشعر يوماً العجز اليائس، لم تتعاطف مع أي من أولئك الذين فعلوا ذلك، بل شعرت بالازدراء منهم. وعندما تفكر في الأمر جيداً... سترى أنها كانت على حق. ما هي الحرية التي يمكن أن يتمتع بها الرجال والنساء؟ ألم يتم خداعهم باستمرار وحصرهم واستعبادهم وتعذيبهم من خلال حياتهم الجنسية! العيب الوحيد في هذه الحرية هو أنه بدونها لن يكون المرء إنسانًا. سيكون المرء وحشًا.

في العاشرة من عمرها، عرفت كاثي شيئًا عن قوة الدافع الجنسي وبدأت تجربته ببرود. خططت كل شيء ببرود، وتوقعت الصعوبات وتهيات لها.

لطالما استمرت لعبة الجنس للأطفال عبر الزمن. أعتقد أن كل شخص قد مر بوحدة من تلك المواقف في طفولته مع فتيات صغيرات في مكان ما معتم بالأشجار، في مَعْلَف، تحت صفصافة، في بئر تحت طريق - أو على الأقل حلموا بفعل ذلك. يواجه جميع الآباء تقريبًا هذه المشكلة عاجلاً أم آجلاً، ويكون الطفل محظوظاً إذا تذكر الوالد طفولته وقتها. لكن في وقت طفولة كاثي كان الأمر أكثر صعوبة. كان الآباء الذين ينكرون ذلك في أنفسهم، يرونه مرعباً إن وجدوه في أطفالهم.

## 2

في صباح ربيعي وبينما كانت بقايا الندى تغمر الأعشاب اليانعة تحت أشعة الشمس ويتسلل الدفء إلى الأرض ويرفع ورود الهندباء الصفراء، انتهت والدة كاثي من تعليق الملابس المغسولة على الحبل. عاشت عائلة أميس على أطراف المدينة، وخلف منزلهم كان مخزن الحبوب وبيت العربات، وحديقة واسطبل مسيح لحصانين.

تذكرت السيدة أميس رؤية كاثي تتجول في اتجاه المخزن. نادتها، وعندما لم تسمع أي جواب اعتقدت أنها قد تكون مخطئة. كانت على وشك الوصول إلى المنزل عندما سمعت ضحكة صادرة من بيت العربات. نادت بصوت عال: «كاثي!». لم يكن هناك جواب. شعرت بعدم ارتياح. استعادت في عقلها صوت الضحكة. لم يكن صوت كاثي. لم تكن كاثي ضاحكة.

ليس هناك تفسير عن كيف ولماذا يباغت الفرع أحد الوالدين. بالطبع ينشأ القلق في كثير من الأحيان عندما لا يكون هناك سبب لذلك على الإطلاق. وغالبًا ما يتعلق الأمر بآباء الأطفال الوحيدين، والآباء الذين انغمسوا في الافكار السوداوية عن الفقد.

وقفت السيدة أميس مستمعة. سمعت أصواتًا خافتة وتوجهت بهدوء نحو بيت

العربات. كانت الأبواب المزدوجة مغلقة. جاءت نفخة الأصوات من الداخل، لكنها لم تستطع تمييز صوت كاثي. خطت خطوة سريعة وفتحت الأبواب وأدخلت معها أشعة الشمس الساطعة. تجمدت وفمها مفتوح لما رأت. كانت كاثي مستلقية على الأرض وتنورتها مرفوعة. كانت عارية حتى الخصر، وبقربها اثنان من الصبية في حوالي الرابعة عشرة. صدمة الضوء المفاجئ جمدهم أيضاً. كانت عيون كاثي فارغة من شدة الرعب. السيدة أميس تعرف الأولاد، وتعرف آباءهم. فجأة قفز أحد الصبية واندفع متجاوزاً السيدة أميس وركض هارباً. بينما ابتعد الصبي الآخر عن المرأة واندفع صارخاً عبر المدخل. حاولت السيدة أميس التمسك به بيأس، لكن أصابعها انزلقت من سترته وتمكن من الهرب أيضاً. كانت تسمع خطاه وهو يجري في الخارج بأقصى سرعة ممكنة.

حاولت السيدة أميس التحدث وكان صوتها هامساً مزعجاً «انهضي!» حدقت كاثي في وجهها بهدوء ولم تتحرك. رأت السيدة أميس أن معصمي كاثي كانا مربوطين بحبل ثقيل. صرخت وألقت بنفسها وبدأت في حل العُقد، ثم حملت كاثي إلى المنزل ووضعتها في الفراش.

لم يتمكن طيبب الأسرة، بعد أن فحص كاثي، من العثور على أي دليل على تعرضها لسوء المعاملة. قال مراراً وتكراراً للسيدة أميس: «يمكنك فقط أن تشكري الله أنك وصلتِ إلى هناك في الوقت المناسب».

لم تتحدث كاثي لفترة طويلة. قال الطيبب أنها صدمة. وعندما خرجت من الصدمة رفضت كاثي التحدث. عندما تم استجوابها اتسعت عيونها حتى ظهر بياضها حول حدقاتها، توقفت تنفسها، وأصبح جسدها متشنجاً، واحمرَّ وجهها بسبب حبس أنفاسها.

وحضر الاجتماع مع والدي الأولاد د. ويليامز. كان السيد أميس صامتاً معظم الوقت. جلب معه الحبل الذي كان حول معصمي كاثي. كانت عيناه في حيرة. كانت هناك أشياء لم يفهمها، لكنه لم يذكرها.

كانت السيدة أميس في حالة هستيرية مستمرة. فقد كانت هناك. لقد رأيت كل شيء. كانت تمتلك السلطة النهائية. ومن حالتها تلك أطل شيطان سادي. أرادت الدم. كانت تشعر بنوع من المتعة في مطالبتها بالعقاب. لا بد من حماية المدينة والبلد؛ وضعت الأمر على هذا الأساس. لقد وصلت في الوقت المناسب والحمد لله. لكن ماذا إن لم تفعل في المرة القادمة؛ وكيف ستشعر الأمهات الأخريات؟ كانت كاثي آنذاك تبلغ من العمر عشر سنوات فقط.

كانت العقوبات أكثر وحشية مما هي عليه الآن. اعتقد الناس وقتها أن السوط كان أداة للفضيلة بحق. منفردين أولاً، ثم سوياً، تم جلد الأولاد بقسوة. كانت جريمتها سيئة بما فيه الكفاية، لكن الأكاذيب اللاحقة أثبتت وجود شر لا يستطيع حتى السوط إزالته. كان دفاعهما منذ البداية سخيلاً. قالوا إن كاثي بدأت الأمر برمته، وقد أعطاها كل منهما خمسة سنتات. لم يقيدا يديها. قالوا إنها كانت تلعب بحبل.

قالت السيدة أميس ذلك أولاً ورددته البلدة بأكملها. هل يقصدون القول بأنها قيدت يديها؟ طفل في العاشرة من عمره؟

إذا كان الصبيان قد تحملا التهمة لكانا قد أفلتتا من بعض العقوبة. رفضهما تسبب في بلورة الغضب ليس فقط على آبائهما الذين قاموا بالجلد، ولكن على المجتمع بأسره. تم إرسالهما إلى دار الإصلاح بموافقة والديهما.

قالت السيدة أميس للجيران: «أصبحت مسكونة بما حدث. لو أنها فقط تتحدث عن ذلك، ربما تتحسن حالتها. ولكن عندما أسألها عن ذلك - يبدو الأمر كما لو أنها عادت هناك مباشرة وتعرضت للصدمة مجدداً».

لم يتحدث آل أميس عن هذه الحادثة مرة أخرى وتم إغلاق الموضوع. سرعان ما نسي السيد أميس تحفظاته المؤلمة. كان سيشعر بالضيق إذا تم إيداع ولدين في دار الإصلاح لشيء لم يفعلاه.



بعد أن تعافت كاثي تمامًا من صدمتها، راقبها الأولاد والبنات من بعيد ثم تدريجياً اقتربوا منها وهم مفتونون بها. لم تكن هناك فتيات مفتونات بها كما هو معتاد في الثانية عشرة والثالثة عشرة. ولم يرغب الأولاد في التعرض للاستفزاز من قبل أصدقائهم لعودتهم الى المنزل من المدرسة برفقتها. لكنها ألفت تأثيراً قوياً على كل من الأولاد والبنات. وإذا استطاع أي فتى الاقتراب منها، فإنه يجد نفسه منجذباً إليها بقوة لا يستطيع أن يفهمها أو يتغلب عليها.

كانت رقيقة ولطيفة للغاية وكان صوتها خافتاً. تذهب في نزعات طويلة بمفردها، وكانت نزهة نادرة إذا لم تصادف صبياً أضاع طريق الخروج من الغابة ويأتي عليها بالصدفة. لا يُعلم ما كانت تفعله كاثي بينما كانت الهمسات تتسارع. كانت همسات خافتة وغامضة فقط، وهذا بحد ذاته كان غير معتاد في عصر تكثر فيه الأسرار ولا يتم الاحتفاظ بأي منها.

في ذهن والدها كان هناك سؤال آخر يلح عليه ويؤنبه عليه ضميره بسبب التفكير فيه على الإطلاق. كان لدى كاثي حظ رائع في العثور على أشياء قيّمة، ذهب، مال، محفظة صغيرة حريرية، و صليب فضي مرصع بأحجار حمراء يُقال إنها من الياقوت. كانت قد عثرت على الكثير من الأشياء، عندما أعلن والدها في الجريدة الأسبوعية عن الصليب، لم يطالب أحد به.

كان السيد وليام أميس، والد كاثي، رجلاً كتوماً. نادراً ما تحدث عن الأفكار التي تدور في ذهنه. لم يكن ليجرؤ حتى الآن على تعريض نفسه لنظرات جيرانه. احتفظ بلهب الشك الصغير لنفسه. كان من الأفضل ألا يعرف شيئاً، هكذا يكون أكثر أماناً وحكمة وراحة. أما بالنسبة لوالدة كاثي، فقد كانت مقيدة للغاية وملتوية في شرنقة من أنصاف الأكاذيب الشائكة، والحقائق المشوهة، والاقتراحات التي زرعتها كاثي، لدرجة أنها لم تكن لتعرف شيئاً حقيقياً لو كان قد وصل إليها.

تبلور جمال كاثي مع مرور الوقت؛ بشرتها الناعمة الرقيقة، شعرها الذهبي، عيونها الواسعة والواعدة، وفمها الصغير المتخم بالحلاوة، كانت تلفت الانتباه وتحتفظ به. أنهت الصفوف الثمانية من مدرسة القواعد بدرجات جيدة لدرجة أن والديها أدخلوها المدرسة الثانوية. على الرغم من أنه في ذلك الوقت لم يكن من المعتاد أن تستمر الفتاة في دراستها، لكن كاثي أرادت أن تصبح معلمة، وهو ما أسعد والديها وأبيها، لأن هذه المهنة كانت مهنة الكرامة المتاحة لفتاة من عائلة جيدة ولكنها ليست ميسورة الحال. كان للأبوين فرصة للتمتع بهذا الشرف من خلال ابنة تعمل كمعلمة. كانت كاثي في الرابعة عشرة من عمرها عندما دخلت المدرسة الثانوية. لطالما كانت عزيزة على والديها، ولكن مع دخولها إلى دروس الجبر واللاتينية، صعدت إلى السماء ولم يتمكن والداها من اللحاق بها. شعرا أنها انتقلت إلى رتبة أعلى. كان مدرس اللغة اللاتينية شاباً شاحباً فشل في المدرسة اللاهوتية ومع ذلك كان لديه ما يكفي من التعليم لتدريس القواعد، وقيصر، وشيرون. لقد كان شاباً هادئاً يحتفظ بإحساسه بالفشل لنفسه، ويشعر في أعماق نفسه أن الرب رفضه لسبب ما. لوحظ لبعض الوقت أن شعلة توهجت في عيني وشخصية جيمس غرو. لم يسبق لأحد أن رآه مع كاثي ولم يتم الاشتباه في أي علاقة بينهما. أصبح فجأة جيمس غرو رجلاً يمشى على أصابع قدميه ويغني لنفسه. كتب مقالات مقنعة للغاية لدرجة أن إدارة مدرسة اللاهوت الخاصة به فكرت بشكل جاد في إعادة قبوله.

ثم انطفأت الشعلة. أكتافه العالية العريضة أصبحت منكماشة باكتئاب. عيونه حمراء وكأنه مصاب بالحمى ويداه مرتعشتان. شوهد في الكنيسة ليلاً راکعاً على ركبتيه، يحرك شفتيه بتلاوة الصلوات. لقد فاتته المدرسة وأرسل رسالة تفيد بأنه مريض بينما قيل إنه شوهد وهو يسير بمفرده في التلال خارج المدينة.

ذات ليلة، في وقت متأخر، طرق باب منزل آل أميس. تدمر السيد أميس وهو في طريقه للخروج من السرير، أشعل شمعة، وارتدى معطفاً فوق ثوب النوم الخاص به وفتح الباب. لقد كان جيمس غرو واقفاً أمامه، مظهره متوحش وعيناه تلمعان وجسده يرتجف بشدة.

قال بصوت أجش للسيد أميس: «يجب أن نتحدث».

قال السيد أميس بصرامة: «الوقت الآن بعد منتصف الليل».

«أحتاج أن أتحدث اليك. ارتد بعض الملابس واخرج. يجب أن أتحدث إليك».

«أيها الشاب، أعتقد أنك ثمل أو مريض. اذهب للمنزل واحصل على قسط من النوم. نحن في منتصف الليل».

«لا أستطيع الانتظار. يجب أن أتحدث إليك».

«تعال إلى المدبغة في الصباح» قال له السيد أميس، وأغلق الباب بإحكام في وجه الزائر المترنح ووقف في الداخل مستمعاً. سمع صوت النحيب: «لكنني لا أطيع الانتظار. لا أستطيع»، ثم جر قدميه ببطء على الدرج.

قام السيد أميس بحماية ضوء الشموع بعيداً عن عينيه بيده المقوسة وعاد إلى الفراش. شعر وهو في طريقه أنه رأى باب كاثي يغلق بحذر شديد، لكن ربما يكون ضوء الشموع المتحرك قد خدع عينيه، إذ بدا أن الستارة تتحرك أيضاً.

«ماذا؟» سأله زوجته عندما عاد إلى السرير.

لم يعرف السيد أميس سبب إجابته تلك - ربما لتجنب المناقشة قال: «رجل مخمور، طرق باب المنزل الخطأ».

قالت السيدة أميس: «لا أعرف إلى أين يمضي هذا العالم».

بينما كان مستلقياً في الظلام بعد أن انطفأ الضوء، رأى الدائرة الخضراء التي

تركها لهب الشمعة في عينيه، وفي إطارها الدائر والنابض رأى عيون جيمس غرو المحمومة والمتوسلة. لم يتمكن من العودة إلى النوم إلا بعد فترة طويلة. في الصباح، انتشرت شائعة في البلدة، وبالطبع تمت إضافة بعض التفاصيل من هنا وهناك إليها، لكن مع حلول فترة الظهيرة، اتضحت القصة. وجد خادم الكنيسة جيمس غرو ممدودًا على الأرض أمام المذبح. تم إطلاق النار على رأسه. وبجانبه بنديقة ومعها قطعة العصا التي دفع بها الزناد. بالقرب منه على الأرض كان هناك شمعدان من المذبح. كانت إحدى الشموع الثلاثة لا تزال مشتعلة. الاثنان الآخريان لم يضيئا. وعلى الأرض كتابان؛ التراويل وكتاب الصلاة المشتركة، أحدهما فوق الآخر. حسب السيناريو الذي تصوره الخادم، كان جيمس غرو قد قام بدعم ماسورة البندقية فوق الكتب لجعلها موازية لصدغه. أدى ارتداد التفريغ إلى سقوط البندقية من فوق الكتب.

تذكر عدد من الناس أنهم سمعوا دويًا في الصباح الباكر، قبل حلول النهار. جيمس غرو لم يترك أي رسالة. لا أحد يستطيع معرفة سبب قيامه بذلك.

السيد أميس كان ينوي الذهاب إلى الطبيب الشرعي لإخباره عن زيارة جيمس منتصف الليل. ثم فكر، ما فائدة ذلك؟ إذا كنت أعرف أي شيء لكان الأمر مختلفًا. لكنني لا أعرف شيئًا. كان لديه شعور بالمرض في معدته. قال لنفسه مرارًا وتكرارًا أن ذلك لم يكن ذنبه. كيف كان لي أن أساعده؟ أنا لم أعرف حتى ماذا يريد. شعر بالذنب والبؤس.

أثناء العشاء تحدثت زوجته عن الانتحار ولم يستطع تناول الطعام. جلست كاثي صامتة، لكنها لم تكن صامتة أكثر من المعتاد. كانت تأكل بتلذذ لقيمات صغيرة من الطعام وتمسح فمها بعد كل لقمة بمنديلها.

استعرضت السيدة أميس مسألة الجسد والمسدس بالتفصيل. قالت: «هناك شيء واحد أود التحدث عنه. ذلك الرجل المخمور الذي جاء إلى الباب الليلية الماضية - هل كان من الممكن أن يكون الشاب غرو؟»

قال بسرعة «لا».

«هل أنت متأكد؟ هل تمكنت من رؤيته في الظلام؟»

قال بحدة: «كنت أحمل شمعة، لم يكن يشبهه بأي حال، كانت له لحية كبيرة».

قالت: «لا داعي لكل هذا الانفعال. أنا فقط أتساءل».

مسحت كاثيري فمها وتبسمت وهي تضع المنديل على حجرها.

تحولت السيدة أميس إلى ابتها. «كنت ترينه كل يوم في المدرسة، كاثيري. هل بدا حزيناً مؤخراً؟ هل لاحظت أي شيء قد يعني -»

نظرت كاثيري إلى طبقها ثم إلى أعلى. قالت: «كنت أشعر أنه مريض. نعم، لقد بدا بحالة سيئة. كان الجميع يتحدثون في المدرسة اليوم. وشخص ما - لا أتذكر من - قال إن السيد غرو كان قد تورط في مشكلة ما في بوسطن. لم أسمع ما هي هذه المشكلة. لقد أحببنا جميعاً السيد غرو». مسحت مجدداً شفيتها بلطف.

كانت تلك طريقة كاثيري. قبل حلول اليوم التالي كان كل شخص في البلدة في الخارج يعلم أن جيمس غرو كان متورطاً في مشكلة في بوسطن، ولا يمكن لأحد أن يتخيل أن كاثيري هي من غرس القصة. حتى السيدة أميس نسيت المكان الذي سمعتها فيه.

#### 4

بعد فترة وجيزة من عيد ميلادها السادس عشر طرأ تغيير على كاثيري. ذات صباح لم تنهض للذهاب إلى المدرسة. دخلت والدتها غرفتها ووجدتها في السرير، محدقة في السقف «أسرعني، سوف تتأخرين. إنها التاسعة تقريباً».

«لن أذهب». لم يكن هناك تركيز في صوتها.

«هل انت مريضة؟»

«لا».

«هيا إذاً، انهضي».

«لن أذهب».

«لابد أنك مريضة. أنتِ لم تتغيبي يوماً».

قالت كاثي بهدوء: «لن أذهب. لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى».

كانت والدتها مصدومة: «ماذا تقصدين؟»

قالت كاثي «لن أذهب أبداً» واستمرت في التحديق في السقف.

«حسناً، سنرى ما سيقوله والدك عن ذلك! بعد كل عملنا ونفقاتنا وقبل

عامين من حصولك على شهادتك!» ثم اقتربت منها وقالت بهدوء، «هل

تفكرين في الزواج؟»

«لا».

«ما هذا الكتاب الذي تخفينه؟»

«هاك، أنا لا أخفيه».

«أوه! أليس في بلاد العجائب. ألسنت كبيرة على هذا».

قالت كاثي، «يمكنني أن أصبح صغيرة جداً لدرجة أنك لن تستطيعين حتى

رؤيتي».

«عم تتحدثين بحق السماء؟»

«لا أحد يستطيع أن يجدني».

قالت والدتها بغضب: «توقفي عن إلقاء النكات. لا أعرف ما الذي تفكرين

فيه. ماذا تعتقد الأنسة الخيالية أنها فاعلة؟»

قالت كاثي: «لا أعرف بعد، أعتقد أنني سأذهب بعيداً».

«حسنًا، إبقى فقط مستلقية هناك في الخيال، وعندما يعود والدك إلى المنزل، سيكون لديه ما يقوله لك بهذا الشأن».

أدارت كاثيري رأسها ببطء شديد ونظرت إلى والدتها. كانت عيناها بلا تعابير وباردتين. للحظة شعرت السيدة أميس بنوع من الخوف من ابنتها. خرجت بهدوء وأغلقت الباب. جلست في مطبخها وهي تضم يديها في حجرها وتحقق من النافذة في بيت العربات.

أصبحت ابنتها غريبة عنها. شعرت، كما يفعل معظم الآباء في وقت أو آخر، أنها تفقد السيطرة عليها، وأن اللجام الذي وضعت في يديها للاعتناء بكاثي كان ينزلق من بين أصابعها. لم تكن تعلم أنه لم يكن لديها أي سلطة على كاثيري بالفعل. بل استخدمتها كاثيري دائماً لخدمة أهدافها. بعد مرور بعض الوقت، ارتدت السيدة أميس غطاء رأسها وذهبت إلى المدبغة، كانت تشعر بحاجة للتحدث مع زوجها بعيداً عن المنزل.

في فترة ما بعد الظهر، نهضت كاثيري من فراشها وأمضت وقتاً طويلاً أمام المرأة.

في ذلك المساء، ألقى السيد أميس محاضرة على ابنته على مضض، حدثها عن واجبها والتزامها وضرورة احترامها لوالديها. وبينما كان يقترب من إنهاء خطبته أدرك أنها لم تكن تستمع إليه. أغضبه هذا وبدأ في استبدال النصائح بالتهديدات. تحدث عن السلطة التي أعطها الرب له على أبناءه وكيف تم تسليح هذه السلطة الطبيعية من قبل الدولة. تمكن من جذب انتباهها الآن. نظرت إليه مبتسمة دون أن ترمش مرة. اضطرب وأشاح بنظره وهذا أغضبه أكثر. أمرها بالتوقف عن هرائها، ولمح لها بالجلد إذا لم تطعه.

انتهى بملاحظة وشت بضغفه: «أريدك أن تعديني بأنك ستذهبين إلى المدرسة في الصباح وتكفين عن هذه الحمافة».

كان وجهها خالياً من التعبيرات. كان الفم الصغير مستقيماً. قالت: «حسناً». في وقت لاحق من تلك الليلة، قال السيد أميس لزوجته بتوكيد لم يشعر به هو: «كما ترين، يحتاج الأمر إلى القليل من الصرامة. ربما كنا متساهلين للغاية. لكنها طفلة جيدة. أعتقد أنها نسيت من هو الزعيم هنا. القليل من الصرامة لا يؤذي أحداً». قال وهو يتمنى لو كان يؤمن بكلماته.

في الصباح كانت قد رحلت. اختفت سلة سفرها المصنوعة من القش وأفضل ملابسها. قامت بترتيب سريرها بدقة. كانت الغرفة تبدو غير شخصية - ليس هناك ما يشير إلى أن فتاة نشأت فيها. لم تكن هناك صور، ولا تذكارات، ولا أي من فوضى النمو العادية. لم تلعب كاثي بالدمى قط. الغرفة لم تكن فيها بصمة لكاثي.

كان السيد أميس رجلاً ذكياً. هرع إلى محطة السكة الحديدية، أخبره وكيل المحطة بيقين تام أن «كاثي» استقلت قطار الصباح الباكر. اشترت تذكرة لبوسطن. ساعد السيد أميس في كتابة برقية لشرطة بوسطن. اشترى السيد أميس تذكرة ذهاباً وإياباً واستقل القطار رقم تسعة وخمسين متجهاً إلى بوسطن. كان رجلاً طيباً جداً في أزمة.

في تلك الليلة جلست السيدة أميس في المطبخ والباب مغلق. كانت شاحبة وتتكئ على الطاولة بيديها للتحكم في ارتجاعها. جاءت صوت الضربات في البداية ثم الصراخ بوضوح من الأبواب المغلقة.

لم يكن السيد أميس جيداً في الجلد لأنه لم يفعل ذلك أبداً. ضرب ساقَي كاثي بسوط العربات التي تجرها الدواب، وعندما وقفت تحديق فيه بهدوء بعيون باردة هادئة فقد أعصابه. كانت الضربات الأولى مترددة وخجولة لكن عندما لم تبك جرح جانبيها وكتفيها. في غمرة غيظه افتقدتها عدة مرات وفي مرات أخرى اقترب منها بشدة وهو يضربها حتى يلتف السوط حول جسدها.



تعلمت كاثي بسرعة. اكتشفته وفهمت كيف يفكر، علمت أنها إذا صرخت، تلوّت، بكت، وتوسلت، سيشعر بالرضا وبالنتيجة يخفف الفور الضربات. كان السيد أميس خائفاً من الضوضاء والأذى الذي كان يخلقه فتوقف. هوت كاثي على السرير وهي تبكي، ولو كان قد نظر عن قرب، لاكتشف أنه لم تكن هناك دموع في عينيها بل كانت عضلات رقبتها مشدودة، وكانت هناك كتل أسفل صدغها حيث تتشنج عضلات الفك.

قال «والآن، هل ستفعلين ذلك مرة أخرى؟»

«لا، أوه، لا! قالت كاثي. انقلبت على السرير حتى لا يرى والدها برود ملامحها.

«من الأفضل لك أن تتذكري من تكوينين. ولا تنسي ما أنا عليه».

اشتعل صوت كاثي: «لن أنسى».

في المطبخ كانت السيدة أميس تعجن يديها غارقة في القلق، وضع زوجها يده على كتفها وهو يحاول طمأنتها: «كرهت أن أفعل ذلك، لكنني اضطررت. وأعتقد أن ذلك أفادها. أشعر أنها تغيرت كثيراً، ربما لم نشن الغصين بما فيه الكفاية. ربما كنا مخطئين». وكان يعلم أنه على الرغم من إصرار زوجته على الجلد، رغم أنها أجبرته على جلد كاثي، إلا أنها كرهته لقيامه بذلك. غمره اليأس.

## 5

يبدو أنه ليس هناك شك في أن هذا هو ما تحتاجه كاثي. كما قال السيد أميس، «لقد جعلها الأمر منفتحة نوعاً ما». كانت دائماً مطيعة ولكنها الآن أصبحت أيضاً مراعية لمشاعر من حولها. في الأسابيع التي تلت ذلك ساعدت والدتها في المطبخ وعرضت عليها المساعدة أكثر مما هو مطلوب. بدأت في حياكة

بطانية لوالدتها، وهو مشروع كبير قد يستغرق شهورًا. أخبرت السيدة أميس الجيران عن ذلك». لديها إحساس رائع بالألوان - البرتقالي البني والأصفر. لقد أنهت ثلاث مربعات بالفعل».

لوالدها احتفظت كاثي بابتسامة جاهزة. تعلق قبعته عندما يصل المنزل وتدير كرسيه بشكل صحيح تحت الضوء لتسهيل عليه القراءة.

حتى في المدرسة تغيرت. لطالما كانت طالبة جيدة، لكنها بدأت الآن في وضع خطط للمستقبل. تحدثت إلى المدير عن إمكانية التقدم لامتحانات شهادة التدريس قبل عام من ذلك. وأطلع المدير على سجلها ولم ير ما يمنعها من المحاولة على أمل النجاح. دعا السيد أميس للحضور ومناقشة الأمر.

قال السيد أميس بفخر: «هي لم تخبرنا بأي من هذا».

«حسنًا، ربما لم يكن من المفترض أن أخبرك. أمل ألا أكون قد دمرت مفاجأة».

شعر السيد والسيدة أميس أنهما فعلا شيئًا كالسحر الذي حل جميع مشاكلهما. آمنًا أنها ليست سوى الحكمة اللاواعية التي تأتي فقط للوالدين. قال السيد أميس: «لم أر مثل هذا التغيير في أي شخص في حياتي».

قالت زوجته: «لكنها كانت دائماً طفلة جيدة. ثم هل لاحظت كم هي جميلة؟ لكن، لماذا رغم هذا الجمال تبدو وجنتاها خاليتين من أي لون».

قال السيد أميس: «لا أعتقد أنها ستدرّس في المدرسة لفترة طويلة وهي بهذا المظهر».

كان صحيحًا أن كاثي بدت متألقة. كانت الابتسامة الطفولية على شفيتها طوال الوقت أثناء قيامها باستعداداتها. كان لديها كل وقت العالم. قامت بتنظيف القبو وحشت الحواف بالأوراق لمنع التيار الهوائي. عندما انتبهت لصرير باب المطبخ، قامت بتزييت المفصلات ثم القفل، وبما أنها كانت قد

أخرجت علبة الزيت قامت بتزييت مفصلات الباب الأمامي أيضًا. جعلت من واجبها الحفاظ على المصاييح مملوءة والمداخن نظيفة. ابتكرت طريقة لغمس المداخن في علبة كبيرة من الكيروسين كانت في القبو.

قال والدها: «عليك أن ترى لتصدق». ولم يكن في المنزل فقط. تحدثت عدم تحملها لرائحة المدبغة وقامت بزيارة والدها. كانت قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها، وبالطبع كان يعتبرها طفلة. لكنه اندهش من أسئلتها حول الأعمال.

قال لرئيس العمال: «إنها أذكى من بعض الرجال الذين يمكنني تسميتهم. ربما تدير العمل يومًا ما».

كانت مهتمة ليس فقط بعمليات الدباغة ولكن بالنتيجة النهائية للمنتوج أيضًا. شرح لها والدها القروض، والمدفوعات، والفواتير، والرواتب. أوضح لها كيفية فتح الخزنة وكان سعيدًا لأنها بعد المحاولة الأولى تذكرت الرقم السري.

قال لزوجته: «الطريقة التي أنظر إليها هي هذه؛ نحمل جميعًا القليل من الشيطنة فينا. لا أريد طفلًا لا يحمل بعض النكهة. بالطريقة التي أراها بها، هي نوع من الطاقة التي ما دمت تحتفظ بها تحت السيطرة، ستسير في الاتجاه الصحيح».

كانت كاثي تقوم بإصلاح جميع ملابسها وترتيب أغراضها. في أحد أيام مايو، عادت إلى المنزل من المدرسة وذهبت مباشرة إلى حيث إبر الحياكة. كانت والدتها ترتدي ملابس الخروج. قالت «يجب أن أذهب إلى نقابة المذبح، الأمر يتعلق ببيع الكعك الأسبوع المقبل. أنا رئيسة مجلس الإدارة. يتساءل والدك إن كان بإمكانك الذهاب إلى البنك وسحب النقود من أجل كشف المرتبات وأخذها إلى المدبغة. أخبرته عن اجتماع بيع الكعك لذا لا يمكنني القيام بذلك».

قالت كاثي: «يسرني ذلك».

قالت السيدة أميس «سيكون المال في حقيبة جاهزة لك» وهرعت مغادرة. عملت كاثي بسرعة ولكن دون عجلة. لبست مئزرًا قديمًا لتغطية ملابسها. عثرت في الطابق السفلي على جرة مربى فارغة بغطاء وأخذتها إلى بيت العربات حيث يتم حفظ الأدوات. في فناء الدواجن أمسكت بدجاجة صغيرة، قطعت رأسها ووضعت عنقها المتلوى فوق جرة الهلام حتى امتلأت بالدماء. ثم حملت الدجاجة المرتجفة إلى كومة السماد ودفنتها. مرة أخرى عادت إلى المطبخ، خلعت المئزر ووضعت في الموقد حتى اندلع اللهب فيه. غسلت يديها وأحضرت حذائها وجواربها ومسحت بقعة داكنة كانت على حذائها الأيمن. نظرت إلى وجهها في المرآة. كان خذاها لامعين وعيناها تبرقان وفمها يرتفع بابتسامته الصغيرة الطفولية. في طريقها إلى الخارج، أخفت الوعاء تحت الجزء السفلي من درجات المطبخ. لم تكن قد انقضت حتى عشر دقائق على مغادرة والدتها.

سارت كاثي بخفة، وهي ترقص تقريبًا حول المنزل وفي الشارع. كانت أوراق الأشجار تتساقط وعدد قليل من أزهار الهمدباء الصفراء الصغيرة يظهر على المروج. سارت كاثي بمرح نحو وسط المدينة حيث كان البنك. كانت نضرة وجميلة لدرجة أن الناس كانوا يستديرون ويحدقون فيها عندما تمر بالقرب منهم.

## 6

اندلع الحريق في حوالي الساعة الثالثة صباحاً. ارتفعت النيران، واشتعلت، وزارت، وحطمت، وانهارت على نفسها تقريبًا قبل أن يلاحظها أحد. عندما هرع المتطوعون ساهبين عربة الخرطوم، لم يكن هناك ما يفعلونه سوى تبليل أسطح المنازل المجاورة لمنعها من الاشتعال.

كان منزل آل أميس مشتعلًا بالكامل. كان المتطوعون والمتجمعون ينظرون حولهم إلى الوجوه المضيئة محاولين رؤية السيد والسيدة أميس وابتتهما. تأكد الجميع أنهم لم يكونوا هناك. حرق الناس في السرير العريض وارتفعت القلوب إلى الحناجر. بدأ المتطوعون في إلقاء المياه على النار كما لو أنهم قد يتمكنون من إنقاذ جزء من العائلة. دار الحديث المرعب في جميع أنحاء المدينة بشأن احتراق عائلة أميس بأكملها.

مع شروق الشمس كان كل شخص في المدينة منخرطًا في إخماد الكومة السوداء. كان على أولئك الذين في المقدمة حماية وجوههم من الحرارة. واصل المتطوعون ضخ المياه لتهدئة الفوضى المتفحمة. بحلول الظهر كان الطبيب الشرعي قادرًا على إبعاد الألواح الخشبية المبللة والتفتيش بين أكوام الفحم الرطبة. بقي ما يكفي من السيد والسيدة أميس للتأكد من وجود جثتين. أشار الجيران القريبون إلى المكان التقريبي الذي كانت توجد فيه غرفة كاثي، ولكن على الرغم من أن الطبيب الشرعي وعددا من المساعدين فتشوا في الحطام باستخدام مجرفة من الحديدية، إلا أنهم لم يتمكنوا من العثور على أي سن أو عظم.

في غضون ذلك عثر رئيس المتطوعين على مقابض الأبواب وقفل باب المطبخ. نظر إلى المعدن الأسود محتارًا، لكنه لا يعرف تمامًا ما سبب حيرته. استعار مجرفة الطبيب الشرعي وعمل بضراوة. ذهب إلى المكان الذي كان فيه الباب الأمامي وشق حتى وجد ذلك القفل ملتويًا ونصفه ذائب. حتى الآن كان لديه جمهوره الصغير الذي سأله «ما الذي تبحث عنه يا جورج؟، وماذا وجدت يا جورج؟»

أخيرًا جاء الطبيب الشرعي إليه. «ما الذي يدور في ذهنك يا جورج؟» قال الرئيس بانزعاج «لا مفاتيح في الأقفال». «ربما سقطت».

«كيف؟»

«ربما ذابت.»

«الأقفال لم تذب.»

«ربما أخرجها بيل أميس.»

«من الداخل؟» حمل ما عثر عليه.

منذ احتراق صاحب العمل ومنزله لم يذهب موظفو المدبغة إلى العمل احترامًا. توافدوا إلى المنزل المحترق، وعرضوا المساعدة بأي طريقة ممكنة. لم يذهب جويل روبنسون، رئيس العمال، إلى المدبغة إلا بعد الظهر في ذلك اليوم. وجد الخزانة مفتوحة والأوراق مبعثرة على الأرض. وشت النافذة المكسورة بكيفية دخول اللص.

امتقع لونه بالكامل. إذا لم يكن الأمر حادثًا. حل الخوف مكان الحزن، وتسلسل الغضب - شقيق الخوف اليه. وبدأ الحشد بالانتشار.

لم يكن لديهم الكثير. في منزل العربات كان هناك ما يسمى «علامات صراع» - في هذه الحالة كان هناك صندوق مكسور ومصباح عربية محطم وعلامات كشط في الغبار وقش على الأرض. ربما لم يعرف المتفرجون أن هذه علامات على صراع ما لم تكن هناك كمية من الدم على الأرض.

تولى الشرطي السيطرة. كان هذا اختصاصه. لقد دفع بالجميع إلى خارج منزل العربات «هل تريدون التلاعب بالأدلة؟» صرخ عليهم «ابقوا في الخارج». فتش المكان والتقط شيئًا، وفي الزاوية وجد شيئًا آخر. جاء إلى الباب حاملًا اكتشافاته في يديه - شريط شعر أزرق ملطخ بالدماء و صليب من حجارة حمراء «هل يتعرف أي شخص على هذه؟» سأل الحشد.

في بلدة صغيرة حيث يعرف الجميع بعضهم البعض، يكاد يكون من المستحيل تصديق أن أحد معارفك يمكن أن يقتل أي شخص. لهذا السبب،

إن لم تكن العلامات قوية جداً في اتجاه معين، فلا بد أن هناك بعض الغرابة والغموض، هناك البعض القادم متجولاً من العالم الخارجي حيث تحدث مثل هذه الأشياء. لابد من إحضار المتشردين وفحص سجلات الفنادق. كل رجل غير معروف أصبح مشتبهاً به تلقائياً. كان ذلك في شهر مايو، لا ننسى أن المتشردين أصبحوا يسلكون الطرق مؤخراً فقط، خاصة في هذا الوقت حيث تسمح لهم الأشهر الدافئة بنشر بطانياتهم قرب أي مسار مائي. ثم إن العجر كانوا في الخارج أيضاً - قافلة كاملة كانت تتواجد على بعد أقل من خمسة أميال. وبإله من تحول حصل لهؤلاء العجر المساكين!

تم البحث لأميال حول الأرض عن جثة كاثي. كرر الجميع: «لقد كانت جميلة جداً» وكانوا يقصدون أنهم يرون في ذلك سبباً لأخذ كاثي.

تم إحضار رجل متلعثم كثيف الشعر للاستجواب. كان مرشحاً جيداً للشنق ليس لأنه لم يمتلك حجة غياب فحسب، بل لم يتذكر ما فعله في أي وقت في حياته. أحس عقله الضعيف أن هؤلاء المستجوبين يريدون شيئاً منه، وكونه مخلوقاً ودوداً حاول أن يمنحه لهم. عندما عُرض عليه سؤال محدد وبه طعم، سار دون تفكير إلى الفخ وشعر بالسعادة عندما بدا له الشرطي سعيداً. لقد حاول إرضاء هذه الكائنات المتفوقة. كان هناك شيء لطيف جداً عنه، المشكلة الوحيدة في اعترافه أنه تشعب في اتجاهات كثيرة. أيضاً، كان لابد من تذكيره باستمرار بما كان من المفترض أن يفعله. لقد كان سعيداً حقاً عندما وجهت إليه لائحة اتهام من قبل هيئة محلفين صارمة وخائفة. لقد شعر أنه وصل أخيراً إلى شيء ما.

كان هناك، ولا يزال، بعض الرجال الذين يصبحون قضاة، يكون حبهم للقانون وتعزيز العدالة شبيهاً بحبهم للمرأة. كان مثل هذا الرجل نقياً وصالحاً لدرجة أنه يلغي الكثير من الشر، ودون إجراء التحقيق الدقيق مع المتهم كان يعتبر اعترافه هراء.

استجوبه القاضي ووجد أنه على الرغم من أن المشتبه به كان يحاول اتباع

التعليمات إلا أنه ببساطة لا يتذكر ما فعله، ومن قتل، وكيف ولماذا. تنهد القاضي بضجر وأمره بالخروج من قاعة المحكمة ووجه أصابعه نحو الشرطي. قال «والآن انظر هنا يا مايك، لا يجب أن تفعل شيئاً كهذا. لو كان هذا الرجل المسكين أكثر ذكاءً قليلاً، لربما تم شنقه الآن».

«يقول إنه فعلها». تأذت مشاعر الشرطي لأنه كان رجلاً ضميرياً.

قال القاضي: «وبإمكانه الاعتراف بصعود السلالم الذهبية وقطع حلق القديس بطرس بكرة البولينغ. كن أكثر حذراً يا مايك. لقد صُمم القانون لحفظ الأرواح وليس لتدميرها».

في خضم كل هذه المآسي، يعمل الوقت مثل فرشاة رطبة على لون مائي. شيئاً فشيء تتلاشى الحواف الحادة ويختفي الألم، تختلط الألوان معاً، ومن الخطوط العديدة المنفصلة يظهر لون رمادي صلب. في غضون شهر لم يعد من الضروري شنق أحد، وفي غضون شهرين اكتشف الجميع تقريباً أنه لا يوجد أي دليل حقيقي ضد أي شخص. لولا مقتل كاثي لتم اعتبار الحريق والسرقة حادثاً. ثم توصل الجميع لخاتمة تفيد أنه بدون وجود جثة لكاثي لا يمكن إثبات أي شيء حتى لو كان يُعتقد أنها ماتت. رحلت كاثي تاركة خلفها شيئاً من عذوبتها.



## الفصل 9

### 1

كان السيد إدواردز يقوم بعمله في مجال إدارة الأعمال بطريقة منظمة وغير عاطفية. كان يقيم مع زوجته وطفليه المهذبين في منزل جيد في حي جميل في بوسطن. الأطفال، ولدان، تم تسجيلهما كمواليد في غروتون.

حافظت السيدة إدواردز على منزل خالٍ من الغبار وسيطرة كاملة على خدمها. كانت هناك عدد من المرات التي اضطر فيها السيد إدواردز أن يكون بعيداً عن المنزل للعمل، لكنه في المجمل كان يعطي حياته الأسرية حقها بشكل رائع ويقضي أمسيات في المنزل أكثر مما يمكننا تخيله. أدار عمله بدقة محاسب، كان رجلاً كبيراً وقوياً، كان يميل إلى السمنة قليلاً وفي أواخر الأربعينيات من عمره، مع ذلك كان في حالة جيدة وبشكل مدهش بالنسبة لفترة زمنية كانت سمنة الرجل فيها دليلاً على نجاحه.

لقد اخترع عمله وبرع فيه - شبكة دعارة عبر البلديات الصغيرة، إقامة قصيرة لكل فتاة، ضرورة الانضباط، ونسب مئوية. قام بدراسة طريقته جيداً في ذلك الوقت وعليه ارتكب القليل من الأخطاء. لم يرسل فتياته إلى المدن قط. كان بإمكانه التعامل مع أفراد الشرطة الجائعين في القرى، لكنه كان حريصاً على تفادي شرطة المدينة الكبيرة ذات الخبرة والنهم. كان موقعه المثالي عبارة عن بلدة صغيرة بها فندق مرهون ولا توجد به وسائل تسلية، حيث كانت منافسته الوحيدة تأتي من الزوجات والفتيات الضالات في بعض الأحيان. قبل وفاته في السابعة والستين

مختنقاً بعظمة دجاج، كانت لديه مجموعات من أربع فتيات في كل من ثلاث وثلاثين مدينة صغيرة في نيو إنغلاند. لقد كان في حال أفضل من الاستقرار - كان ثرياً؛ وكانت حتى طريقة وفاته في حد ذاتها رمزا للنجاح والرفاهية.

في الوقت الحاضر يبدو أن مؤسسة الدعارة بدأت تتلاشى إلى حد ما. لدى العلماء أسباب مختلفة لتقديمها. يقول البعض إن انحلال أخلاق الفتيات تسبب في ضربة قاضية لبيوت الدعارة. ويرى آخرون، ربما يكونون أكثر مثالية، أن إشراف الشرطة على نطاق متزايد يؤدي إلى إنهاء وجود هذه البيوت. في أواخر القرن الماضي والجزء الأول من هذا القرن كانت بيوت الدعارة مقبولة إن لم تكن مؤسسة تمت مناقشتها علناً. كان يقال إن وجودها يحمي المرأة المحترمة. يمكن للرجل غير المتزوج أن يذهب إلى أحد هذه المنازل ويفرغ طاقته الجنسية التي كانت تجعله يشعر بالضيق وفي نفس الوقت يحافظ على الأعراف العامة حول نقاوة النساء وجمالهن. لقد كان لغزا غريباً، لكنها واحدة من العديد من الأشياء الغامضة في تفكيرنا الاجتماعي.

تراوحت هذه المنازل بين القصور المليئة بالذهب والمخمل وبين أسرة الأطفال الأكثر خشونة حيث الرائحة الكريهة التي تدفع الخنزير بعيداً. بين الحين والآخر كانت تخرج قصة جديدة عن سرقة فتيات صغيرات واستعبادهن من قبل أسياد هذه الصناعة، ربما كانت العديد من القصص حقيقية. لكن الغالبية العظمى من العاهرات انجرفن إلى مهنتهن من خلال الكسل والغباء. لم يتحملن في منازلهن أية مسؤولية. تم إطعامهن وكسوتهن ورعايتهن حتى تقدمن في السن، ثم تم طردهن. هذه النهاية لم تكن رادعاً.

بين الحين والآخر كانت فتاة ذكية تدخل إلى المهنة، لكنها عادة ما كانت ترتقي إلى أشياء أفضل. تحصل على منزل خاص بها أو تعمل بنجاح في ابتزاز أحد الرجال أو الزواج من ثري منهم. حتى أنه كان هناك اسم خاص بهن؛ المحظيات. لم يكن لدى السيد إدواردز مشكلة في تجنيد فتياته أو التحكم فيهن. إذا لم

تكن الفتاة غبية بشكل واضح كان يطردها. لم يكن يريد فتيات جميلات أيضاً فقد يقع بعض الشباب المحلي في حب عاهرة جميلة وستكون هناك مشاكل هو في غنى عنها. عندما تحمل أي من فتياته، كان يترك لهن خيار المغادرة أو الإجهاض بوحشية لدرجة أن نسبة غير قليلة منهن فارقت الحياة. على الرغم من ذلك غالباً ما كانت الفتيات يملن لخيار الإجهاض.

لم يكن عمل السيد إدواردز دائماً سلساً مع ذلك. كانت لديه مشاكله أيضاً. في وقت سردي لكم كان قد تعرض لسلسلة من المصائب.

قتل حطام قطار وحدتين من أربع فتيات لكل منهما. خسر وحدة أخرى من وحداته بسبب توبتهن عندما اشتعلت النار فجأة في بلدة صغيرة وبدأ الواعظ في إشعال السكان بخطبه. كان على عدد المصلين المتضخم الانتقال من الكنيسة إلى الحقول. ثم، كما يحدث في كثير من الأحيان، قام الواعظ بإشهار بطاقته الأخيرة، بطاقة نار الجحيم المؤكدة. تنبأ بتاريخ نهاية العالم ولحقه الخلق كلهم وهم ينشقون خلفه. ذهب السيد إدواردز إلى المدينة، وأخرج السوط القصير الثقيل من حقيبته وجلد الفتيات بلا رحمة؛ وبدلاً من رؤية الأمر على ما هو عليه، توسلت الفتيات لمزيد من الجلد للقضاء على خطاياهن الخيالية. استسلم في اشمزاز، وأخذ ملابسهن وعاد إلى بوسطن. حققت الفتيات مكانة بارزة عندما ذهبن عاريات إلى اجتماع الكنيسة للاعتراف والشهادة. هذه هي الطريقة التي قام بها السيد إدواردز بإجراء مقابلات وتجنيد أعداد من الفتيات بدلاً من اختيار واحدة هنا وهناك. كان لديه ثلاث وحدات لإعادة البناء من الصفر. لا أعرف كيف سمعت كاثيري أميس عن السيد إدواردز. ربما قال لها السائق شيئاً عن ذلك. حدث ذلك عندما أرادت الفتاة حقاً أن تعرف. لم يكن السيد إدواردز قد قضى صباحاً جيداً عندما جاءت إلى مكتبه. عزا ألم بطنه المفاجئ إلى حساء سمك الهلبوت الذي قدمته له زوجته على مائدة العشاء في الليلة السابقة. فقد أبقاه مستيقظاً طوال الليل.

كان ما يزال يشعر بالمرض والتشنج بسبب الحساء. لهذا السبب لم يقبل بتلك الفتاة التي أطلقت على نفسها اسم كاثرين أميسبوري. كانت تبدو بعيدة جداً جداً عن مجال عمله. كان صوتها منخفضاً ومبحوحاً، تبدو مرهقة وحساسة، بشرتها جميلة. في كلمة واحدة لم تكن من الفتيات اللواتي يختارهن السيد إدواردز على الإطلاق. إذا لم يكن يشعر بالتعب يوماً لكان قد رفضها على الفور. ولكن في حين أنه لم يكن ينظر إليها عن كثب خلال استجوابه الروتيني، الذي كان يدور في معظمه حول الأقارب الذين قد يسببون المتاعب، بدأ يشعر السيد إدواردز بشيء في جسمه. لم يكن السيد إدواردز رجلاً حسياً بطبعه، وإلى جانب ذلك فهو لم يكن يخلط حياته المهنية مع متعه الخاصة، لكنه اندهش من ردة فعله، نظر إلى الفتاة في حيرة، انخفضت جفونها بشكل حلو وغامض، كانت انحناءة وركيها مبطنه بشكل ناعم. وفمها الصغير يتسم ابتسامة هادئة. انحنى السيد إدواردز إلى الأمام في مكتبه وهو يتنفس بصعوبة. قال لنفسه أنه يريد هذا الكائن لنفسه.

«لا أستطيع أن أفهم لماذا فتاة مثلك -» بدأ كلامه ووقع مباشرة في أقدم قناعة في العالم - أن الفتاة التي تقع في حبها لا يمكن أن تكون سوى حقيقة وصادقة.

«مات أبي» قالت كاثرين بانكسار «قبل أن يموت، ترك الأمور تتمزق. لم نكن نعلم أنه رهن المزرعة. ولا يمكنني السماح للبنك بأخذها من والدتي. الصدمة ستقتلها». كانت عيون كاثرين غارقة بالدموع «اعتقدت أنه ربما يمكنني جني ما يكفي للحفاظ على الفائدة».

إذا كان لدى السيد إدواردز فرصة فقد كانت تلك اللحظة، وحينها بالفعل سمع صوت طنين تحذيري صغير في دماغه، لكنه لم يكن مرتفعاً بدرجة كافية. حوالي ثمانين في المائة من الفتيات اللاتي أتين إليه كن بحاجة إلى المال لسداد رهن عقاري. وكان السيد إدوارد قد جعل لنفسه قاعدة ثابتة وهي عدم تصديق

أي شيء تقولهُ فتياته في أي وقت، بخلاف ما تناولنه على الإفطار، وحتى هذا كن يكذبن بشأنهُ في بعض الأحيان. وها هو، رجل بالغ، عاقل، قواد سمين يميل بطنهُ على مكتبهُ بينما يمتلئ خدُّهُ بالدم وتصدع قشعريرة الإثارة في ساقيه وبين فخذيه. سمع نفسه يقول لها: «حسناً يا عزيزتي، لتتحدث عن هذا الأمر. ربما يمكننا إيجاد طريقة ما لكِ للحصول على أموال الفوائد». قال هذا لفتاة كانت قد طلبت ببساطة وظيفة عاهرة - أم هل تراها كانت ترغب بذلك فعلاً؟

## 2

كانت السيدة إدواردز متدينة بإصرار إن لم تكن متدينة بشدة. أمضت جزءاً كبيراً من وقتها مع آليات كنيستها التي لم تترك لها وقتاً للانتباه لنشاط زوجها. بالنسبة لها، كان السيد إدواردز يعمل في مجال الاستيراد، وحتى لو كانت تعرف طبيعة عمله - وهو ما قد يكون عليه الحال على الأرجح - فلم تكن لتصدقهُ، وهو لغز آخر. لطالما كان زوجها بالنسبة لها رجلاً واعياً وبارداً. لم يطلب منها سوى القليل من المطالب الجسدية. لم يكن دافئاً أبداً لكنه لم يكن قاسياً أيضاً. كانت عواطفها متعلقة بالأولاد والثياب والطعام. كانت ممتنة وراضية عن حياتها. عندما بدأت تصرفات زوجها تتغير مما جعله يبدو منشغل البال دائماً، يجلس محديقاً في الفراغ ثم يندفع خارج المنزل في حالة من الغضب العصبي، أرجعت ذلك أولاً إلى مشاكل معدته ثم إلى انعكاسات العمل. عندما انتبعت له بالصدفة في الحمام جالساً يبكي بهدوء، علمت أنه رجل مريض. حاول بسرعة تغطية عينيه الحمراءوين اللامعتين من تمحيصها. كانت تشعر بالعجز عندما لا يفلح شاي الأعشاب في معالجته.

لو سمع السيد إدواردز طوال السنوات الماضية عن أي شخص في حالته لضحك عليه. لقد وقع في حب كاثرين أمسبري بشكل ميؤوس منه. استأجر لها منزلاً صغيراً ثم منحه لها. اشترى لها كل رفاهية يمكنها تخيلها، وأثت لها

المنزل بشكل مفرط وأبقاه دافئاً. كان السجاد شديد العمق والجدران مزدحمة بصور مؤطرة ثقيلة.

لم يشهد السيد إدواردز مثل هذا البؤس من قبل. كمسألة تجارية، كان قد تعلم الكثير عن النساء لدرجة أنه لم يثق بإحداهن لثانية واحدة. ولأنه أحب كاثرين بعمق والحب يتطلب الثقة، فقد كانت مشاعره تمزقه. كان عليه أن يثق بها وفي نفس الوقت لم يكن يثق بها. حاول شراء ولائها بالهدايا وبالمال. عذبتة فكرة تسلل رجال آخرين إلى منزلها عندما كان بعيداً عنها. كان يكره مغادرة بوسطن لفحص وحداته لأن هذا سيترك كاثرين لوحدها. إلى حد ما بدأ في إهمال عمله. كانت هذه تجربته الأولى مع هذا النوع من الحب وكاد الأمر يقتله.

الشيء الوحيد الذي لم يكن السيد إدواردز يعرفه، ولم يفعل لأن كاثرين لم تسمح له بذلك، هو أنها كانت مخلصه له بمعنى أنها لم تستقبل أو تزور رجالاً آخرين. بالنسبة لكاثرين كان السيد إدواردز صفقة تجارية كما كانت وحداته بالنسبة له. ولأنه كان يمتلك تقنياته، فقد امتلكت تقنياتها أيضاً. بمجرد أن حصلت عليه، الأمر الذي لم يكن صعباً عليها، تمكنت دائماً من أن تبدو غير راضية قليلاً. أعطته انطباعاً بعدم الراحة، كأنها قد تطير في أي لحظة. عندما كانت تعرف أنه قادم لزيارتها، تحرص على أن تكون في الخارج وأن تبدو متوهجة عند دخولها للمنزل بحيث تبدو وكأنها عائدة من تجربة لا تصدق. اشتكت كثيراً من صعوبة تجنب النظرات الفاسقة ولمسات الرجال الذين لا يستطيعون الابتعاد عنها في الشارع. ركضت عدة مرات خائفة إلى المنزل، بعد أن نجت بصعوبة من رجل تبعها. عندما كانت تعود في وقت متأخر بعد الظهر وتجده ينتظرها، كانت تشرح له: «ماذا؟ كنت أتسوق. أحتاج أن أذهب للتسوق كما تعلم». كانت تحرص على جعل الأمر يبدو ككذبة.

فيما يتعلق بالجنس، أقنعتة أنها لم تكن راضية تماماً. وأنه إذا كان أداءه

أفضل لكان بإمكانه إطلاق فيضان. كانت طريقتها هي الحفاظ على اختلال توازنه باستمرار. ببرود كانت ترى فقدانه لأعصابه، ارتجاف يديه، فقدانه للوزن، والنظرة الوحشية في عينيه. وعندما تشعر باقترابه من الجنون والغضب تجلس في حجره وتقوم بتهدئته وجعله يؤمن ببراءتها. كانت تعرف كيف تقنعه. أرادت كاثارين المال، وشرعت في الحصول عليه بأسرع وأسهل ما يمكن. عندما نجحت في تحويله إلى عجيبة وعرفت بالضبط متى كان الوقت المناسب، بدأت في السرقة منه. بحثت في جيوبه وأخذت أي فواتير كبيرة وجدتها. لم يجرؤ على اتهامها خوفاً من رحيلها. اختفت المجوهرات التي قدمها لها، وعلى الرغم من أنها قالت إنها فقدتها، كان يعلم أنها باعها. لم يستطع أن يوقفها. لم تبع المنزل لكنها رهنته مقابل كل قرش تحصل عليه.

في إحدى الأمسيات، تفاجأ أن مفتاحه لم يكن يفتح الباب الأمامي. لم تجب على استفساره إلا بعد وقت طويل، نعم، لقد غيرت الأقفال لأنها فقدت مفتاحها. كانت خائفة من العيش بمفردها. يمكن لأي شخص الدخول. كانت ستجلب له مفتاحاً آخر - لكنها لم تفعل ذلك مطلقاً. كان عليه دائماً أن يقرع الجرس بعد ذلك، وأحياناً كان ينقضي وقت طويل إلى أن تجيب، وفي أوقات أخرى لم تكن تجيب على الإطلاق. لم تكن هناك طريقة لمعرفة ما إذا كانت في المنزل أم لا. كان السيد إدواردز قد عين من يلاحقها - ولم تكن تعرف.

كان السيد إدواردز رجلاً بسيطاً في الأساس، ولكن حتى الرجل البسيط لديه تعقيدات مظلمة وملتوية. كانت كاثارين ذكية، ولكن حتى المرأة الذكية لا تنتبه لوجود بعض الأروقة الغريبة في رأس الرجل.

لقد ارتكبت زلة واحدة سيئة وحاولت تجنبها. كل فترة كان السيد إدواردز يقوم بجلب الشمبانيا إلى عشهما الصغير الجميل. رفضت كاثارين حتى لمسها منذ البداية:

«يجعلني أشعر بالمرض. لقد تجربته بالفعل ولا يمكنني شربه».

قال: «هراء، هيا فقط كأس واحدة. لا يمكن أن يؤذيك».

«لا، شكراً. لا أستطيع أن أشربه».

اعتبر السيد إدواردز أن ترددتها سببه الرهافة والتهديب. لم يصر قط حتى ذات مساء عندما خطر له أنه لا يعرف عنها شيئاً. قد يخفف النيذ لسانها. كلما فكر في الأمر كانت الفكرة تبدو أفضل بالنسبة له.

«ليس من اللطيف ألا تتناولي كأساً معي»

«أخبرتك، لا يناسبني».

«كلام فارغ».

«أقول لك لا أريد ذلك».

قال «هذا سخيف، هل تريد أن أغضب منك؟»

«لا».

«إذاً تناولي كأساً معي».

«لا أريد ذلك».

«اشربي». قدم لها كأساً فتراجعت: «أنت لا تدرك. هذا ليس جيداً بالنسبة

لي».

«اشربي».

أخذت الكأس وتجرعته ووقفت مرتجفة وكأنها تستمع. تدفق الدم إلى خديها. سكب كأساً أخرى لنفسها وأخرى. أصبحت عيناها باردتين. شعر السيد إدواردز بالخوف منها. حدث معها شيء لم تستطيع هي أو هو السيطرة عليه.

«لم أرغب في فعل ذلك. تذكر ذلك. ربما من الأفضل ألا يكون لديك

المزيد». قالت بهدوء.



ضحكت وهي تسكب لنفسها كأساً أخرى: «لم يعد يهم الآن. المزيد لن يحدث فرقاً كبيراً».

قال بقلق: «من الجيد تناول كأس أو نحو ذلك».

تحدثت معه بهدوء. قالت: «ماذا تعرف عني أيها البزاق السمين؟ هل تعتقد أنني لا أستطيع قراءة كل فكرة فاسدة راودتك؟ تريدني أن أخبرك؟ تتساءل من أين تعلمت فتاة لطيفة مثلي هذه الحيل. سأخبرك. تعلمتها في الأسرة - هل تسمعني؟ في الأسرة. لقد عملت في أماكن لم تسمع بها من قبل - أربع سنوات. جلب لي البحارة بعض الحيل من بورسعيد. أعرف كل عصب في جسدك الرديء ويمكنني استخدامه».

احتج قائلاً: «كاثرين، أنتِ لا تعرفين ما تقولينه».

«بل أعرف ما تحاول فعله. كنت تعتقد أنني سأتحدث إذا شربت. حسناً، ها أنا أتحدث».

تقدمت ببطء نحوه، وتغلب السيد إدواردز على دافعه للابتعاد. كان يخاف منها لكنه بقي جالساً. شربت كأس الشامبانيا مباشرة أمامه، ضربت برفق حافة الكأس على الطاولة، ثم مررت الشظية الحادة على خده، أما هو فقد ولى هارباً من المنزل بينما صوت ضحكاتها يلاحقه.

### 3

الحب بالنسبة لرجل مثل السيد إدواردز هو عاطفة مدمرة. أفسدت حكمته، أبطلت علمه وأضعفته. أخبر نفسه أنها كانت في حالة هستيرية وحاول تصديق ذلك وقد سهلت هي عليه هذا، فقد أزعجها ما أقدمت عليه، ولفترة من الوقت بذلت قصارى جهدها لاستعادة صورتها الجميلة لديه.

الرجل الواقع في الحب بشكل مؤلم قادر على تعذيب نفسه بشكل لا

يصدق. أراد السيد إدواردز من كل قلبه أن يؤمن بصلاحتها، لكنه اضطر إلى عدم القيام بذلك، مدفوعاً من قبل شيطانه الخاص بقدر ما أجبره الموقف. بشكل غريزي كان يتعرف على حقيقة الأمر وفي نفس الوقت يكذبها. كان يعلم، على سبيل المثال، أنها لا تضع أموالها في أي من البنوك. اكتشف أحد موظفيه المكان، باستخدام مجموعة معقدة من المرايا، كانت تحتفظ بها في قبو المنزل الصغير.

في أحد الأيام، وصلته قصاصة من وكالة تعمل لصالحه، كان مقالا في صحيفة قديمة عن حريق في بلدة صغيرة. قرأها السيد إدواردز وتحول صدره وبطنه إلى معدن منصهر وتوهج وجهه وبياض عينيه باحمرار شديد.

كان هناك خوف حقيقي مختلط بحبه، والمترسب من اختلاط هذين الأمرين هو القسوة. ترنح بسبب الدوار إلى أن وصل إلى أريكة مكتبه واستلقى على وجهه وجبهته على الجلد الأسود البارد. وظل على هذا الوضع لبعض الوقت، يتنفس بصعوبة، وتدرجياً بدأ التشوش ينقشع عن عقله. شعر بطعم مالح في فمه وكان يشعر بوجع في كتفيه بسبب الغضب الشديد. لكنه كان هادئاً وقطع عقله حبل أفكاره مثل شعاع حاد من كشاف يعبر غرفة مظلمة. كان يتحرك ببطء ويتفحص حقييته تماماً كما يفعل دائماً عندما يتهياً لجولة لتفقد وحداته - قمصان وملابس داخلية نظيفة، وثوب نوم ونعال، وسوط ثقيل في قاع الحقيبة.

بقي يحوم لوقت طويل في الحديقة الصغيرة أمام المنزل الصغير ودق الجرس. أجابت كاثارين على الفور. كانت ترتدي معطفها وقبعتها.

«أوه!» قالت. «يا للعار! يجب أن أخرج لبعض الوقت».

وضع السيد إدواردز حقييته. قال «لا».

تأملته. فيه شيء مختلف. مرّ من أمامها ونزل إلى القبو.

«إلى أين تذهب؟» كان صوتها حاداً.

لم يرد. بعد لحظات، ظهر مرة أخرى حاملاً صندوقاً صغيراً من خشب البلوط. فتح حقيبته ووضع الصندوق بالداخل.

قالت بهدوء: «هذا ملكي».

«أعرف».

«ما الذي تنوي فعله؟»

«أعتقد أننا سنذهب في رحلة صغيرة».

«أين؟ لا أستطيع الذهاب».

«بلدة صغيرة في ولاية كونيتيكت. لدي بعض الأعمال هناك. لقد أخبرني

ذات مرة أنك تريد العمل. أنتِ ذاهبة إلى العمل».

«لا أريد الآن. لا يمكنك أن تجبرني. لماذا تفعل هذا، سأتصل بالشرطة!»

ابتسم بشكل فظيع لدرجة امتلاء صدغيه بالدماء، أما هي فتراجعت عنه.

قال: «ربما تفضلين الذهاب إلى مسقط رأسك، كان لديهم حريق كبير هناك

منذ عدة سنوات. هل تتذكرين تلك النار؟»

فتشت عيناها بحثاً عن زاوية رقيقة فيه، لكن عيونه كانت مسطحة وقاسية».

ماذا تريدني أن أفعل؟» سألت بهدوء.

«تعالى معي في رحلة صغيرة فحسب. قلبتِ أنكِ تريد العمل».

يمكنها التفكير في خطة واحدة فقط. يجب أن تتماشى معه وتنتظر فرصة.

سيكون من الخطر معارضته الآن - من الأفضل أن تتماشى معه وتنتظر. نفعها

هذا الخيار دائماً. مع ذلك زرعت كلماته في قلبها خوفاً حقيقياً.

في البلدة الصغيرة نزلا من القطار قبل الغسق، سارا في أحد شوارعها

المظلمة، وخرجا رأساً إلى الريف. كانت كاثرين حذرة ويقظة. لم تتوصل بعد

إلى خطته. كانت تحمل في حقيبتها سكيناً رفيع النصل.

كان السيد إدواردز يعرف ما ينوي القيام به. كان سيجلدها ويضعها في إحدى الغرف في النزول، يجلدها وينقلها إلى مدينة أخرى، وهكذا حتى لا تعود لها فائدة. ثم يطردها. والشرطي المحلي سيحرص على عدم هروبها. وجود السكين معها لم يكن يزعجه. كان يعرف ذلك.

كان أول شيء فعله عندما توقف في مكان خاص بين جدار حجري وحافة من خشب الأرز هو تحريك حقيبتها من يدها ورميها على الحائط، وهكذا اعتنى بأمر السكين، لكن ماذا عن أمره هو؟ لأنه لم يحجب امرأة طوال حياته، كان يعتقد أنه سيعاقبها فقط، لكنه بعد ضربتين بالسوط شعر بأن ذلك لم يكن كافياً، رماه وبدأ باستخدام قبضتيه. تحول تنفسه إلى أنين.

بذلت كاثرين قصارى جهدها حتى لا تصاب بالذعر. حاولت تفادي قبضتيه أو على الأقل جعلهما غير فعالين، لكن في النهاية تغلب عليها الخوف وحاولت الهرب، لكنه قفز عليها وأنزلها، وبحلول ذلك الوقت لم تكن قبضته كافية. عثرت يده المحمومة على حجر على الأرض وفقد سيطرته عليها...

فيما بعد نظر إلى الأسفل حيث وجهها الذي تعرض للضرب الشديد. حاول الاستماع إلى دقات قلبها لكن النبض كان قد غادره.

كانت هناك فكرتان كاملتان ومنفصلتان تتسابقان في ذهنه. أحدهما يقول: «يجب أن تدفنها؛ تحفر حفرة وتضعها فيه». بينما يصرخ به الآخر مثل طفل، «لا أستطيع تحمل هذا. لا يمكنني تحمل لمسها». غمره الإعياء الذي يعقب الغضب. ركض من المكان، تاركًا حقيبتها، السوط، صندوق النقود المصنوع من خشب البلوط. هام بعيدًا متسائلًا أين يمكنه إخفاء اضطرابه لبعض الوقت.

لم يسأله أحد أي سؤال. بعد فترة مرضه كانت زوجته تخدمه بحنان، عاد إلى عمله ولم يدع جنون الحب يقترب منه مرة أخرى. قال إن الرجل الذي لا يستطيع التعلم من تجاربه هو أحمق. بعد ذلك كان دائمًا لديه نوع من الاحترام

المخيف لنفسه. لم يكن يعرف أبدًا أن الدافع للقتل كان مغروساً فيه، أن قتل  
كاثرين لم يكن حادثاً، وأن كل ضربة كانت تهدف إلى سحقها.  
بقيت فاقدة للوعي لفترة طويلة ولفترة طويلة أخرى نصف واعية. عندما  
عاد لها وعيها أدركت أن ذراعها مكسورة وأنه يجب عليها إيجاد المساعدة إذا  
أرادت أن تعيش. أجبرتها رغبتها في العيش على جر نفسها على طول الطريق  
المظلم بحثاً عن المساعدة. استدارت عند بوابة وكادت تقطع درجات المنزل  
قبل أن تفقد وعيها. كانت الديوك تصيح في بيت الدجاج وكانت حافة الفجر  
الرمادية تسطع من الشرق.



## الفصل 10

### 1

عندما يعيش رجلان معاً، ويجمعهما تاريخ قديم فيه غضب، يلتزمان بنوع من النظافة المتهالكة، تراهما على وشك القتال باستمرار، وهما يعرفان ذلك. لم يكن آدم تراسك قد عاد إلى المنزل قبل فترة طويلة من بدء التوترات، رأى الأخوان بعضهما أكثر من أي شخص آخر.

لبضعة أشهر بقيا منشغليْن في مسألة الحصول على أموال سايروس. سافرا معاً إلى واشنطن لرؤية القبر والشاهد المزيّن بنجمة حديدية وختم في الأعلى وثقب لإدخال عصا العلم. وقفوا أمام القبر مدة طويلة، ثم ذهبوا دون ذكر سايروس.

إن كان سايروس غير أميناً فقد تمكن من فعل ذلك بمهارة. لم يسأل أحد أسئلة حول المال الذي تركه. لكن الموضوع كان ما زال يعتمل في ذهن تشارلز. سأله آدم مرة أخرى في المزرعة «لماذا لا تشتري بعض الملابس الجديدة؟ أنت الآن رجل ثري، ومع ذلك تتصرف وكأنك تخشى أن تنفق فلساً واحداً».

قال تشارلز: «أنا كذلك».

«لماذا؟»

«قد أضطر إلى إعادتها».

«ما زلت تعزف على ذلك الموضوع؟ إذا كان هناك أي خطأ، ألا تعتقد أننا

كنا سمعنا عنه الآن؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

قال تشارلز: «لا أعرف. أفضل ألا أتحدث عن هذا الموضوع».

لكن في تلك الليلة أعاد طرح الموضوع مرة أخرى. بدأ بـ«هناك شيء واحد يزعجني».

«حول النقود؟»

«نعم، بخصوص المال. إذا كسبت هذا القدر من المال، فلا بد أن هناك فوضى».

«ماذا تعني؟»

«حسنًا أين الأوراق، دفاتر الحسابات، سندات البيع، والملاحظات؟ عند التفكير في الأمر؛ لقد راجعنا ما تركه أبي ولم يكن هناك شيء من ذلك».

«ربما أحرقها».

قال تشارلز: «ربما فعل».

عاش الأخوان وفقًا لروتين وضعه تشارلز ولم يغيره أبدًا. كان يستيقظ عند الساعة الرابعة والنصف كما لو كان بندول الساعة النحاسي يدفعه. كان في الواقع يستيقظ يوميًا بجزء من الثانية قبل الرابعة والنصف. كانت عيناه تفتحان ويرمش مرة واحدة قبل أن يقرع الجرس. يبقى في مكانه ساكنًا للحظة، ينظر إلى الأعلى في الظلام ويفرك بطنه. ثم تصل يده لعلبة أعواد الثقاب الموضوعة على الطاولة الجانبية بقربه، تحرر أصابعه عود ثقاب وتشخظه على جانب العلبة، فيحرق الكبريت كُرَيْتَه الزرقاء الصغيرة قبل أن يلتهم الخشب.

أشعل تشارلز الشمعة بجانب سريره. ألقى بطانيته ونهض. كان يرتدي ملابس داخلية رمادية طويلة تغطي ركبتيه وتدلّ على حول كاحليه. تائب وفتح باب غرفته ونادى: «انها الرابعة والنصف آدم. حان وقت الاستيقاظ. هيا استيقظ».

خرج صوت آدم مكتومًا. «ألا تنسى أبدًا؟»



«إنه وقت الاستيقاظ». وضع تشارلز ساقيه في سرواله وثبته على وركيه قائلاً: «ليس عليك النهوض، أنت رجل ثري. يمكنك الاستلقاء في السرير طوال اليوم».

«أنت أيضاً. مع ذلك ما زلنا نستيقظ قبل ضوء النهار لسبب ما».

كرر تشارلز: «ليس عليك النهوض. لكن إذا كنت ستزرع أرضك، فمن الأفضل أن تفعل بهذا الوقت».

قال آدم بحزن: «وبالنتيجة سنشتري المزيد من الأراضي حتى نتمكن من القيام بمزيد من العمل».

قال تشارلز: «كف عن ذلك. عد إلى السرير إذا كنت تريد».

قال آدم، «أراهن أنك لا تستطيع النوم إذا بقيت في السرير، وأراهن أنك تنهض لأنك تريد ذلك، ثم بعد ذلك تنسب الفضل لنفسك - كما ينسب الفضل لشخص ولد بستة أصابع».

ذهب تشارلز إلى المطبخ وأضاء المصباح: «لا يمكنك الاستلقاء على السرير وتشغيل مزرعة». طرق الرماد عبر شبكة الموقد ومزق بعض الأوراق ورماها فوق الفحم المكشوف حتى اشتعلت النيران.

كان آدم يراقبه من خلال الباب: «ألا تستخدم عود ثقاب».

استدار تشارلز بغضب: «اهتم بشؤونك اللعينة. توقف عن مضايقي».

قال آدم: «حسناً. سأفعل. وربما شؤوني ليست هنا».

«الأمر متروك لك. في أي وقت تريد الخروج يمكنك المضي قدماً».

كان الشجار سخيفاً لكن آدم لم يستطع إيقافه. استمر بالتحدث بغير رغبته مما جعل الكلمات تخرج غاضبة ومزعجة: «أنت محق، سأذهب عندما أريد. هذا مكاني بقدر ما هو مكانك».

«إذن لماذا لا تقوم ببعض العمل فيه؟»

«يا إلهي!» قال آدم. «ما الذي نتشاجر بشأنه الآن؟ دعنا لا نشير ضجة».

قال تشارلز: «لا أريد مشاكل». قام بغرف الهريسة الدافئة في وعاءين ووضعهما على الطاولة.

جلس الاخوة. قام تشارلز بدهن قطعة خبز بالزبدة وأضاف القليل من المربي، بينما يأخذ قطعة أخرى من الزبدة لشريحته الثانية ترك السكين قليلا من المربي على قالب الزبدة.

«يا إلهي، ألا يمكنك مسح سكينك؟ انظر إلى الزبدة!»

وضع تشارلز سكينه والخبز على الطاولة وضرب يديه على الجانبين: «من الأفضل أن تغادر المكان».

نهض آدم قائلاً: «أفضل العيش مع الخنازير» وخرج من المنزل.

## 2

مرت ثمانية أشهر قبل أن يراه تشارلز مرة أخرى. جاء تشارلز من العمل ووجد آدم يرش الماء على شعره ووجهه من دلو المطبخ.

قال تشارلز: «مرحبا. كيف حالك؟»

قال آدم: «بخير»

«إين ذهبت؟»

«بوسطن».

«لا مكان آخر؟»

«لا. تجولت في المدينة فحسب».

عادا إلى حياتهما القديمة لكن اتخذ كل منهما احتياطاته من نوبات الغضب، بطريقة ما حمى كل منهما الآخر وأنقذ نفسه. كان تشارلز دائما ما يستيقظ مبكراً ويستعد للفتور قبل أن يوقظ آدم. كما حافظ آدم على المنزل نظيفاً وأنشأ دفاتر

حسابات للمزرعة. بهذه الطريقة الحذرة عاشا معاً لمدة عامين قبل أن ينمو غضبهما مجدداً خارج نطاق السيطرة.

في إحدى الأمسيات الشتوية نظر آدم في دفتر حساباته. قال «الجورائع في كاليفورنيا. إنه لطيف في الشتاء بحيث يمكنك زراعة أي شيء هناك».

«بالتأكيد يمكنك فعل ذلك. ولكن عندما تحصل عليه ماذا ستفعل به؟»

«ماذا عن القمح؟ إنهم يزرعون الكثير من القمح في كاليفورنيا».

قال تشارلز: «سيفسد».

«ما الذي يجعلك على يقين من ذلك؟ انظر، تشارلز، كل شيء ينمو بسرعة كبيرة في كاليفورنيا لدرجة أنهم يقولون إنه عليك أن تزرع وتوقف وإلا ستنهار».

قال تشارلز «لماذا بحق الجحيم لا تذهب إلى هناك؟ سأشتري حصتك في أي وقت تريده».

بقي آدم هادئاً حينها ولكن في الصباح بينما كان يمشط شعره ويحلق في المرأة الصغيرة بدأ بالتطرق للموضوع مرة أخرى.

قال: «ليس لديهم شتاء في كاليفورنيا. الجو لديهم ربيعي طوال الوقت».

قال تشارلز: «أحب الشتاء».

اقترب آدم من الموقد: «لا تغضب».

«إذاً توقف عن مضايقتي. كم بيضة؟»

قال آدم: «أربعة».

وضع تشارلز سبع بيضات فوق فرن التسخين، وأشعل ناره بعناية حتى اضطرمت بشدة. وضع المقلاة بجانب اللهب وخف ضيقه وهو يقلبي لحم الخنزير المقدد.

قال «آدم، لا أعرف ما إذا كنت قد لاحظت ذلك، ولكن بين كل كلمة وأخرى تقولها هي كاليفورنيا. هل تريد حقًا الذهاب؟»

ضحك آدم قائلاً: «هذا ما أحاول اكتشافه. لا أعرف. الأمر يشبه الاستيقاظ في الصباح. لا أريد الاستيقاظ ولكني لا أريد البقاء في السرير أيضًا.»  
«أنت بالتأكيد تثير ضجة حول هذا الموضوع». قال تشارلز.

تابع آدم «كل صباح في الجيش كان صوت البوق اللعين يفرعنا. هناك أقسمت بالله انني إذا خرجت سأنام حتى الظهر كل يوم. وها أنا هنا أستيقظ قبل نصف ساعة من المنبه. هلا أخبرتني ما الذي نعمل من أجله بحق الجحيم يا تشارلز؟»

«لا يمكنك البقاء في السرير وإدارة مزرعة» قال تشارلز بينما يقلب شرائح لحم الخنزير المقدد بشوكة.

قال آدم بجدية: «ألتِ نظرة على حالنا. لا أحد منا لديه فتاة أو طفل، ناهيك عن زوجة. وبالطريقة التي نعيش بها لا نبدو كما لو كنا سنحقق هكذا أمر. ليس لدينا وقت للبحث عن زوجة. وها نحن نفكر في إضافة أرض إلى أرضنا إذا كان السعر مناسبًا. لأي غرض؟»

قال تشارلز: «إنها قطعة أرض رائعة. سيشكل الاثنان معًا واحدة من أفضل المزارع في المنطقة. قل لي! هل تفكر في الزواج؟»

«لا. وهذا ما أتحدث عنه. عُدد بعد بضع سنوات وستكون لدينا أفضل مزرعة في المنطقة. عجوزان بائسان استهلكا نفسيهما في العمل في هذه الأرض، سيموت أحدهما وستتني المزرعة الجميلة لبائس وحيد، سيموت أيضًا..»

«ماذا تقول بحق الجحيم؟ تجعلني أشعر بالانزعاج. تحدث وأفصح عما تفكر به - ما الذي يدور في ذهنك؟»

قال آدم: «أنا لست مستمتعاً بهذه الحياة. أو على الأقل ليس لدي ما يكفي،

أعمل بجهد كبير من أجل ما أحصل عليه، بينما لست مضطراً للعمل على الإطلاق».

«حسناً، لماذا لا تستقيل؟» صرخ تشارلز في وجهه». لماذا لا تخرج من هذا الجحيم؟ لا أرى أي حراس يمنعونك. انزل إلى البحار الجنوبية واستلق على أرجوحة شبكية إذا كان هذا ما تريده».

قال آدم بهدوء: «لا تغضب مني، كما قلت لك، إنه كما الاستيقاظ. لا أريد أن أستيقظ ولا أريد أن أبقى في الفراش. لا أريد البقاء هنا ولا أريد الذهاب بعيداً».

قال تشارلز: «أنت تحيرني».

«فكر في الأمر يا تشارلز. هل يعجبك الحال هنا؟»

«نعم».

«وتريد أن تعيش هنا طوال حياتك؟»

«نعم».

«يا إلهي، كنت أتمنى لو كان الأمر بهذه السهولة. ما هي مشكلتي باعتقادك إذا؟»

«أعتقد أنك مصاب بحمى الشبق. تعال إلى النزل الليلة وعالجها».

قال آدم: «ربما الأمر كذلك. لكنني لم أشعر يوماً بالراحة مع عاهرة».

قال تشارلز: «كلهن متشابهات، أغمض عينيك ولن يمكنك معرفة الفرق».

«بعض الجنود في الفوج كانوا يحتفظون لأنفسهم بفتيات من الهنود. كانت لي واحدة لفترة من الوقت».

التفت إليه تشارلز باهتمام «سيتقلب أبي في قبره إذا علم أنك كنت تمارس

هذا الانحراف. كيف كان؟»

«كانت لطيفة جداً، تغسل ملابسها وتصلحها وكانت تطهولي أحياناً».

«أعني الشيء ذاك، كيف كان؟»

«كان جيداً. بل لذيذاً - كان ليناً وحلواً. نوع لطيف وناعم».

«أنت محظوظ لأنها لم تغرس سكيناً في داخلك بينما كنت نائماً».

«لم تكن لتفعلها. كانت لطيفة».

«لديك نظرة مرحة في عينيك. أعتقد أنك كنت نوعاً ما غارقاً في حب تلك

الفتاة».

قال آدم: «أعتقد أنني كنت كذلك».

«ماذا حدث لها؟»

«جدري».

«ألم تحصل لنفسك على واحدة أخرى؟»

بان الحزن في عيون آدم «قمنا بتكديسهم كما لو كانوا جذوع أشجار، أكثر

من مائتين، كانت الأذرع والسيقان بارزة. قمنا بتكويم الأجمة فوقهم وسكبنا

زيت الفحم عليهم».

«سمعت أنهم لا يتحملون الجدري».

قال آدم: «إنها تقتلهم. وأنت تحرق لحم الخنزير».

عاد تشارلز بسرعة إلى الموقد قائلاً: «سوف يصبح مقرمشاً فقط، أنا أحبها

مقرمشة. نقل شرائح اللحم المقدد إلى طبق وكسر البيض في الشحوم الساخنة

ورفرت حوافها التي أصبحت تشبه الدانتيل البني وهي تصدر أصوات القرقرة».

«كانت هناك مدرّسة» قال تشارلز «أجمل ما رأيت من أي وقت مضى».

قدمها صغيران للغاية. تشتري كل ملابسها من نيويورك. شقراء، لم أر مثل

قدميها، كانت تغني في جوقة الكنيسة أيضاً. أصبح الجميع يحرص على ارتياد

الكنيسة بفضلها، كان ذلك منذ فترة طويلة».

«هل كان ذلك في تلك الفترة التي كنت تفكر فيها بالزواج؟»

ابتسم تشارلز». أظن ذلك. أعتقد أنه لم يكن هناك شاب صغير في المقاطعة لم يصب بحمى الزواج». «ماذا حدث لها؟»

«كما تعلم، تفشى القلق في النساء. اجتمعن. وأول ما فعلته هو إخراجها من الجوقة. سمعت أنها كانت ترتدي ملابس داخلية حريرية مثيرة. كما طردها مجلس المدرسة في منتصف الفصل الدراسي. كانت تظهر كاحليها أيضاً وكأنه كان حادثاً. كانت تظهر كاحليها دائماً».

«هل تمكنت من التعرف عليها؟» سأله آدم.

«لا. كنت أذهب إلى الكنيسة للنظر إليها فقط، ولم أستطع الدخول. فتاة جميلة كهذه لا مكان لها في بلدة صغيرة. وجودها يخلق المتاعب ويجعل الناس يشعرون بعدم الراحة».

قال آدم: «هل تذكر تلك الفتاة ابنة صموئيل؟ كانت جميلة حقاً. ماذا حدث لها؟»

«نفس الشيء، تتسبب في خلق المتاعب فحسب. ذهبت بعيداً. سمعت أنها تعيش في فيلادلفيا. وتعمل في الخياطة. سمعت أنها تحصل على عشرة دولارات لصنع فستان واحد فقط».

قال آدم: «ربما يجب أن نبتعد أيضاً عن هنا».

قال تشارلز، «هل ما زلت تفكر في كاليفورنيا؟» «أظن ذلك».

مزق أعصاب تشارلز إلى قسمين: «أريدك أن تخرج من هنا! أريدك أن تغادر، سأشتري منك أو أبيعك أو أي شيء. فقط اخرج من هنا، يا ابن العاهرة.» توقف قليلاً ثم قال: «أعتقد أنني لا أعني تلك الكلمة الأخيرة... لكن اللعنة عليك، أنت تجعلني متوتراً».

قال آدم: «سأذهب».

في غضون ثلاثة أشهر، استلم تشارلز بطاقة بريدية مصورة ملونة للخليج في ريو، كان آدم قد كتب على ظهرها بقلم حبر: «إنه فصل الصيف هنا عندما يكون هناك الشتاء. ألا تأتي؟»

بعد ستة أشهر وصلته بطاقة أخرى من بوينس آيرس. «عزيزي تشارلز - يا لها من مدينة كبيرة. يتحدثون الفرنسية والإسبانية على حد سواء. سأرسل لك تذكرة».

لكن التذكرة لم تصل. انتظرها تشارلز طوال الشتاء التالي وفي الربيع التالي. لكن بدلا من التذكرة وصل آدم. كان مظهره يبدو غريبا.

«كيف حالك؟» سأله تشارلز.

«بخير. هل وصلتك التذكرة

«لا».

«أتساءل ما حدث لها؟».

«هل ستبقى؟»

«أظن ذلك. سأخبرك عن هذا البلد».

قال تشارلز: «لا أريد أن أسمع عنه».

قال آدم: «يا إلهي كم أنت حقير».

«يمكنني فقط رؤية الأمر يحدث من جديد. ستبقى حوالي عام أو نحو ذلك وبعد ذلك ستشعر بالقلق وتنقل قلقك إليّ. سنغضب من بعضنا البعض ثم نتعامل بأدب مزيف مع بعضنا البعض - وهذا أسوأ. ثم سننفجر وستذهب بعيدا مرة أخرى، لتعود بعد فترة ونقوم بذات الأمر مجددا».

سأله آدم «ألا تريدني أن أبقى؟»

قال تشارلز «اللعة! نعم! أفقدك عندما لا تكون هنا. لكن يمكنني أن أرى أن الأمر سيكون على حاله».



وكان الأمر بالفعل كما قال. لفترة من الوقت استذكرا الأوقات الماضية، وسردا لبعض الوقت ما حدث في الأوقات التي كانا فيها منفصلين، وأخيراً عادا إلى الصمت القبيح الطويل، وساعات العمل الصامت، واللياقة الحذرة، ونوبات الغضب. لم تعد هناك حدود للوقت بالنسبة لهما، بحيث بدا أنه يمر بلا نهاية.

في إحدى الأمسيات قال آدم «أتعلم؟ سأبلغ السابعة والثلاثين من عمري. هذا نصف عمر».

قال تشارلز: «ها هي خطبة إضاعة حياتك هباء قادمة. اسمعني يا آدم، هل يمكننا ألا نتشاجر هذه المرة؟»  
«كيف تعني هذا؟»

«حسناً، سنتقاتل لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع مما يجعلك جاهزاً للرحيل. إذا كنت بدأت بالشعور بالقلق لم لا تغادر وهكذا نوفر على نفسينا كل المشاكل؟» ضحك آدم وخرج التوتر من الغرفة. «لدي أخ ذكي جداً. بالتأكيد عندما أصاب بالقلق سأذهب دون عراك. نعم يروق لي ذلك. أنت تزداد ثراءً، أليس كذلك تشارلز؟»

«أنا بخير. لن أقول إنني ثري».

«لن تقول إنك اشتريت أربعة مبانٍ ونزل القرية؟»

«لا، لن أقول ذلك».

«لكنك فعلت. تشارلز، لقد صببت كل تركيزك على امتلاك أجمل مزرعة. لماذا لا تبني منزلاً جديداً - به حوض استحمام ومياه جارية وخزان مياه؟ لم نعد فقراء. لماذا لا نفعل؟ الكل يعلم أنك أصبحت أغنى رجل في هذا الجانب».

قال تشارلز بفضفاضة: «لسنا بحاجة إلى منزل جديد. خذ أفكارك الخيالية بعيداً».

«سيكون من الرائع الذهاب إلى المرحاض دون الخروج من المنزل»

«أبعد أفكارك الخيالية عن هنا»

كان آدم مستمتعاً: «ربما سأبني منزلاً صغيراً جميلاً بالقرب من الغابة. ما رأيك بهذا؟ هكذا لن نشير أعصاب بعضنا البعض».

«لا أريده في هذا المكان».

«نصف المكان ملكي».

«سأشتريه منك».

«لكنني لا أريد بيعه».

اشتعلت النيران في عيون تشارلز «سوف أحرق منزلك الملعون».

«أعتقد أنك سوف تفعل. أعتقد أنك حقاً سوف تفعل. لماذا تنظر إليّ بهذا

الشكل؟»

قال تشارلز ببطء «لقد فكرت في الأمر كثيراً. وانتظرت منك طرحه. اعتقدت

أنك لن تفعل أبداً».

«ماذا تقصد؟»

«هل تتذكر عندما أرسلت لي بريقة تطلب فيها مني إرسال مائة دولار؟»

«دون شك. لقد أنقذت حياتي يومها. لماذا؟»

«أنت لم تسددها أبداً».

«كان ينبغي أن أفعل».

«لكنك لم تفعل».

نظر آدم إلى الطاولة القديمة حيث جلس سايروس وهو يطرق على ساقه

الخشبية بعضاً. وكان مصباح الزيت القديم معلقاً فوق منتصف الطاولة، يلقي

بضوء أصفر غير مستقر من فتيل روتشستر المستدير.

قال آدم بهدوء «سأدفع لك في الصباح».

«لقد منحتك الكثير من الوقت لإعادته».

«بالتأكيد فعلت تشارلز. كان يجب أن أتذكر». توقف لبرهة مفكرًا، وأخيرًا قال: «أنت لم تعرف لماذا احتجت إلى المال».

«لم أسألك قط».

«ولم أخبرك قط. ربما شعرت بالخجل. كنت سجينًا يا تشارلز. كنت قد هربت من السجن».

كان فم تشارلز مفتوحًا من الدهشة: «عم تحدث؟»

«سوف أخبرك. كنت متشردًا وتم القبض عليّ ووضعت للعمل على الطريق. عندما خرجت في غضون ستة أشهر تم القبض عليّ مجددًا، هكذا يبنون طرقهم. لقد خدمت إلى ثلاثة أيام من انتهاء الستة أشهر الثانية ثم هربت - تجاوزت خط جورجيا وسرقت متجرًا لبيع الملابس وأرسلت لك البرقية».

قال تشارلز: «أنا لا أصدقك. لا بل أصدقك فأنت لا تكذب، بالطبع أصدقك، لماذا بريك لم تخبرني؟»

«ربما شعرت بالخجل. لكنني أشعر بخجل أكبر لأنني لم أدفع لك». قال تشارلز: «أوه انس الأمر. لا أعرف لماذا ذكرت ذلك».

«يا إلهي. لا. سأدفع لك في الصباح».

قال تشارلز: «سأكون ملعونًا يا أخي، أيها الطير السجين!»

«ليس عليك أن تبدو سعيدًا لهذا الحد».

قال تشارلز: «لا أعرف لماذا، لكن هذا يجعلني أشعر بالفخر نوعًا ما!». أخبرني بشيء يا آدم - لماذا انتظرت ولم تهرب إلا قبل ثلاثة أيام من إطلاق سراحك؟»

ابتسم آدم: «سببان أو ثلاثة؛ كنت خائفًا، سيعيدونني إن لم أكمل فترة

عقوبتي، أما إذا أتممت غالبه، فلماذا قد يعيدوني مرة أخرى. بالإضافة لذلك اعتقدت أنني إذا انتظرت حتى النهاية فلن يتوقعوا مني الهروب».

قال تشارلز: «هذا منطقي، لكنك قلت إن هناك سبباً آخر».

قال آدم: «أعتقد أن الآخر كان هو الأهم، ومن الصعب شرحه. كنت أشعر أنني مدين للدولة لمدة ستة أشهر. كانت تلك هي عقوبتي الرسمية. لم أشعر بالراحة حيال الغش. لقد غششت لثلاثة أيام فقط».

انفجر تشارلز من الضحك: «أنت مجنون يا ابن العاهرة. ألا تقول إنك سرقت متجرًا؟»

قال آدم: «لقد أعدت المال بفائدة قدرها عشرة بالمائة».

انحنى تشارلز إلى الأمام «أخبرني عن عصابة الطريق آدم».

«بالتأكيد سأفعل تشارلز. بالتأكيد سأفعل».

## الفصل 11

### 1

أصبح تشارلز أكثر احترامًا لآدم بعد أن علم عن مسألة السجن. لقد شعر بالدفء تجاه أخيه، ذلك الدفء الذي لا يمكنك أن تشعر به إلا تجاه شخص غير مثالي وبالتالي ليس هدفًا لكراهيتك. استفاد آدم من ذلك أيضًا.

«هل فكرت يومًا يا تشارلز، أننا لدينا ما يكفي من المال لفعل أي شيء نريد القيام به؟»

«حسنًا، ماذا نريد؟»

«يمكننا الذهاب إلى أوروبا، التجول في باريس.»

«ماذا كان ذلك؟»

«ماذا كان ماذا؟»

«اعتقدت أنني سمعت شخصًا ما على المنحدر.»

«ربما قطة.»

«ربما. يجب أن أقتل بعضها قريبًا.»

«تشارلز، يمكننا الذهاب إلى مصر والتجول حول أبو الهول.»

«يمكننا البقاء هنا والاستفادة من أموالنا. ويمكننا الخروج إلى العمل

والاستفادة من يومنا. تبًا لتلك القطط اللعينة!» قفز تشارلز إلى الباب وفتحه وهو يصرخ «اذهبي!» ثم سكت. رآه آدم يحدق في الدرجات. تحرك ليقترّب منه.

كانت كومة قدرة من الخرق والوحل تحاول شق طريقها صعودًا إلى الدرج. يد واحدة نحيفة تخذش الدرج ببطء للصعود. والآخرى تُجَرِّبُ بلا حول ولا قوة. كان أمامهما وجه متيسر بشفاه متشققة وعينان تطلان من جفون متورمة مسودة. كان الجبين مفتوحًا وينز دماً يسيل إلى الشعر المتعقد.

نزل آدم السلم وركع بجانبها قائلاً: «ساعدني، هيا، دعنا ندخلها. هنا - ابحث عن تلك الذراع. تبدو مكسورة».

أغمي عليها عندما حملوها إلى الداخل.

قال آدم: «فلنمددها في سريري، أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب لإحضار طبيب».

«ألا تعتقد أنه من الأفضل لنا أن نأخذها نحن لطبيب؟»

«نحركها؟ لا، هل أنت مجنون؟»

«ربما لست بجنونك أنت. فكر في الأمر دقيقة».

«بحق الله بماذا أفكر؟»

«رجلان يعيشان بمفردهما ولديهما هذا في منزلهما».

صُدم آدم «بالتأكيد أنت لا تعني ذلك».

«نيتي حسنة فيما أحاول قوله. أعتقد أنه من الأفضل أن نقوم بتسليمها. سينتشر الأمر في جميع أنحاء المقاطعة في غضون ساعتين. كيف تعرف من تكون؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ماذا حدث لها؟ آدم أنت تغامر بأمر مروع».

قال آدم ببرود، «إذا لم تذهب الآن، سأذهب وأتركك هنا معنا».

«أعتقد أنك ترتكب خطأ. سأذهب، لكنني أخبرك أننا سوف نعاني بسبب ذلك».

قال آدم: «سأتحمل المعاناة. اذهب».

بعد أن غادر تشارلز، ذهب آدم إلى المطبخ وسكب الماء من غلاية الشاي في دلو. في غرفة نومه قام بتبليل منديل في الماء وأزال الدم المتكتل والأوساخ من وجه الفتاة. ترنحت وهي تستعيد وعيها ولمعت عيناها الزرقاوان. عاد عقله للوراء - كان في هذه الغرفة، وعلى هذا السرير. كانت زوجة أبيه تضع فوق رأسه قطعة قماش مبللة في يدها وكان يشعر بألم بسيط أثناء تدفق الماء. كانت تكرر قولاً سمعه لكنه لم يتذكر ما كان.

قال للفتاة: «ستكونين بخير، سنأتي بطبيب. سيكون هنا حالاً».

تحركت شفتاها قليلاً.

قال: «لا تحاولي التحدث، لا تحاولي قول أي شيء». وبينما كان يعمل بلطف بقطعة القماش، غمره دفء شديد، قال لها «يمكنك البقاء هنا. يمكنك البقاء هنا قدر ما تريدين. سأعتني بك». قام بعصر القماش ورفع شعرها المتلبّد عن الجروح في فروة رأسها.

كان يسمع نفسه يتحدث أثناء عمله كما لو كان شخصاً غريباً يستمع إليه. هل هذا مؤلم؟ يا لهذه العيون المسكينة - ستكونين بخير لا تقلقي. هذا الجرح على جبهتك يبدو سيئاً، أخشى أنه سترك ندبة هناك. هل لك أن تقولي لي اسمك؟ لا، لا تحاولي. لدينا الكثير من الوقت. آها، هل تسمعين هذا؟ إنه الطبيب. ألم يكن ذلك سريعاً؟ يبدو أنه دخل من باب المطبخ؛ هنا دكتور. إنها هنا».

## 2

كانت مصابة بجروح بالغة. إذا كانت هناك أشعة سينية في ذلك الوقت لربما اكتشف الطبيب إصابات أكثر مما وجد. لأنه وجد العديد منها. تم كسر ذراعها اليسرى وثلاثة من ضلوعها وتشقق فكها. كما كان هناك تصدع في جمجمتها، فقدت أسنانها اليسرى وكانت فروة رأسها ممزقة وجبينها مفتوحا بحيث بانث الجمجمة. كان هناك الكثير مما كان على الطبيب رؤيته ومعالجته. قام بتثبيت

ذراعها، وربط ضلوعها بشريط، خاط فروة رأسها، وباستخدام ماصة وشعلة كحولية قام بثني أنبوب زجاجي للمرور عبر الفتحة حيث كان أحد الأسنان مفقودًا، حتى تتمكن من الشرب وتناول الطعام السائل دون تحريك فكها المكسور. أعطاهما جرعة كبيرة من المورفين، وترك لها زجاجة من حبوب الأفيون، ثم غسل يديه وارتدى معطفه. كانت مريضته نائمة قبل أن يغادر الغرفة. في المطبخ جلس على الطاولة وشرب القهوة الساخنة التي قدمها له تشارلز. «حسنًا، ماذا حدث لها؟» سأل.

«كيف لنا أن نعرف؟» قال تشارلز بصدق «وجدناها على المدخل. إذا كنت تريد أن ترى فانتقل إلى العلامات الموجودة على الطريق حيث جرّت نفسها». «هل تعرف من هي؟» «لا».

«أنت ترتاد الطابق العلوي في النزل - هل هي من هناك؟»

«لم أذهب إلى هناك مؤخرًا. لم أكن لأتعرّف عليها وهي في هذه الحالة على أية حال».

أدار الطبيب رأسه نحو آدم «هل رأيتها أنت من قبل؟» هز آدم رأسه ببطء.

قال تشارلز بقسوة: «تحدث، ما الذي تفكر فيه؟»

«سأخبرك، بما أنك مهتم. تلك الفتاة لم تقع تحت الجرافة حتى لو بدت كذلك. شخص ما فعل ذلك بها، شخص لم يعجبها على الإطلاق. إذا كنت تريد الحقيقة، حاول شخص ما قتلها».

«لماذا لا تسألها؟» قال تشارلز.

«لن نتحدث لفترة طويلة. إلى جانب ذلك فإن مجتمعتها متصدعة والله وحده يعلم ماذا سيفعل ذلك بها. ما أقصده هو، هل من الأفضل أن أبلغ العمدة وأطلب منه الحضور؟»



«لا!» تحدث آدم بانفعال شديد لدرجة أن الاثنين تفاجأ: «دعها الآن ترتاح».

«من الذي سيهتم بها؟»

قال آدم: «أنا سأفعل».

بدأ تشارلز «اسمعني الآن -»

«لا تتدخل!»

«هذا منزلي بقدر ما هو منزلك».

«هل تريد مني أن أغادر؟»

«لم أقصد ذلك».

«حسنًا، سأغادر إذا كان عليها أن تغادر».

قال الطبيب «اهدأ. ما الذي يجعلك مهتمًا بها لهذه الدرجة؟»

«لن أترك حتى كلبًا مصابًا بهذا الشكل في الخارج».

«ولن تغضب لهذا الحد أيضًا. هل تعرف شيئًا ما؟ هل خرجت ليلة أمس؟»

هل أنت من فعلت هذا؟»

قال تشارلز: «لقد كان هنا طوال الليل. إنه يشخر مثل قطار ملعون».

قال آدم، «لماذا لا تدعها تبقى فحسب؟ دعها تتعافى».

وقف الطبيب ونفض الغبار عن يديه: «آدم، كان والدك من أقدم أصدقائي».

أنا أعرفك أنت وعائلتك، وأنت لست بغبي. لا أعرف لماذا لا تنظر للحقائق

أمامك، لكن يبدو أنك لا تعرف ذلك، عليّ أن أتحدث معك كطفل. لقد تم

الاعتداء على تلك الفتاة وأعتقد أن من فعل ذلك كان يحاول قتلها. إذا لم أخبر

العمدة بذلك فأنا أخالف القانون. أعترف أنني فعلت القليل بالفعل، لكن ليس

في هكذا قضية».

«حسنًا، أخبره. لكن لا تدعه يزعجها حتى تتحسن».

قال الطبيب: «ليس من عادتي أن أترك مرضاي ينزعجون. هل ما زلت تريد الاحتفاظ بها هنا؟»  
«نعم».

«الأمر عائد لك. سأعود في الغد. ستكون نائمة لوقت طويل. أعطها الماء والحساء الدافئ من خلال الأنبوب إذا أرادت». قال ذلك وهو يغادر.  
انقلب تشارلز على أخيه «آدم، بحق الرب، ما هذا؟»  
«دعني وحدي».

«ما الذي حدث لك؟»

«دعني وحدي - ألا تسمع؟ فقط دعني وشأني».

«يا إلهي!» قال تشارلز وبصق على الأرض وذهب إلى العمل بقلق وعدم ارتياح.

كان آدم سعيداً لأنه رحل. انتقل إلى المطبخ وغسل أطباق الإفطار وكنس الأرض. عندما كان قد انتهى من تنظيف المطبخ، دخل إلى الغرفة ووجه كرسيًا نحو السرير. كانت الفتاة تشخر بغزارة بفضل المورفين. كان انتفاخ وجهها قد بدأ بالتناقص، لكن جفونها ظلت سوداء ومنتفخة. جلس آدم ساكنًا ينظر إليها. تم وضع ذراعها المكسورة على بطنها، بينما ذراعها اليمنى كانت موضوعة فوق الغطاء، والأصابع ملتفة مثل العشب. كانت يدها صغيرة بحيث تبدو كما يد طفل. لمس آدم معصمها بإصبعه وتحركت أصابعها قليلاً. كان معصمها دافئًا. ثم سرًا، كما لو كان يخشى أن يُقبض عليه، قام بتصويب يدها ولمس علامات أطراف أصابعها على الغطاء. كانت أصابعها وردية وناعمة، لكن جلد ظهر يدها بدا وكأنه لؤلؤ. كان آدم يضحك فرحاً بها، وعندما توقف تنفسها للحظة، أصبح كمن صعقته الكهرباء من شدة هلعه - لكن خلال لحظة عاد الشخير المستمر. أخيراً وضع يدها وذراعها برفق تحت الغطاء قبل أن يخرج من الغرفة على أطراف أصابعه.

رقدت كاثي لعدة أيام في كهف من الصدمة والأفيون. شعرت أن جلدها يشبه الرصاص، لم تستطع التحرك إلا قليلاً بسبب الألم. بدأت تدريجياً تدرك ما يدور حولها. كان معها شابان، ترى أحدهما من حين لآخر، والآخر أكثر منه بكثير. عرفت أن رجلاً آخر جاء هو الطيب، وكان هناك أيضًا رجل نحيف طويل القامة، كان مهتمًا بها أكثر من أي شخص آخر، ونما هذا الاهتمام من الخوف. ربما في نومها المخدر التقط عقلها شيئًا بشأنه وخزنه.

ببطء شديد عاد عقلها لشيء من توازنه في الأيام الأخيرة وأعدت ترتيب أفكارها. رأت وجه السيد إدواردز، وكيف تجرد من هدوئه وتحول إلى قاتل. لم تكن تخاف من قبل في حياتها، لكنها تعلمت الخوف الآن. كان عقلها يركض مثل الجرذ يبحث عن خطة للهروب. علم السيد إدواردز بشأن الحريق. هل علم غيره عن ذلك؟ كيف عرف؟ ولد رعب أعمى مقزز في عقلها عندما فكرت في ذلك.

علمت من الأحاديث التي سمعتها أن الرجل الطويل هو العمدة وأراد استجوابها، وأن الشاب المسمى آدم كان يحميها من الاستجواب. ربما علم العمدة عن الحريق. ساعدتها الأصوات المرتفعة على معرفة ما يجب عليها فعله، سمعت العمدة يقول: «لا بد أن يكون لها اسم. لا بد أن هناك من يعرفها». «كيف تجيبك؟ فكها مكسور». صوت آدم.

«يمكنها تهجئة الإجابات. انظر يا آدم؛ إذا حاول شخص ما قتلها، فمن الأفضل أن أمسك به بينما أستطيع ذلك. فقط أعطني قلم رصاص ودعني أتحدث معها».

قال آدم، «سمعت الطيب يقول إن مجتمعتها مكسورة. كيف تعرف أنها تستطيع أن تتذكر؟»

«حسنًا، أعطني ورقة وقلم رصاص وسنرى».

«لا أريدك أن تزعجها».

«تباً لك يا آدم، لا يهم ما تريده. أخبرك أنني أريد ورقة وقلم رصاص».  
ثم يأتي صوت الشاب الآخر: «ما خطبك؟ أنت تجعل الأمر يبدو كما لو كنت أنت من فعل ذلك. أعطه قلم رصاص».

كانت قد أغلقت عينيها عندما دخل الرجال الثلاثة بهدوء إلى غرفتها. همس آدم: «إنها نائمة».

فتحت عينيها ونظرت إليهما.

جاء الرجل الطويل إلى جانب السرير «لا أريد أن أزعجك يا آنسة. أنا عمدة البلدة. أعلم أنه لا يمكنك التحدث، ولكن هل يمكنك كتابة بعض الأشياء عما حدث؟»

حاولت أن تهز رأسها وجفلت من الألم. تراجعت عيناها بسرعة للإشارة إلى الموافقة.

قال العمدة: «هل ترى؟ إنها تريد ذلك». وضع اللوح على السرير بجانبها ولف أصابعها حول القلم الرصاص «ها نحن ذا.. ما اسمك؟»

تأمل الرجال الثلاثة وجهها، فمها الرقيق وعينيها المغمضتين. وبدأ قلم الرصاص في التحرك. كتبت بأحرف ضخمة «لا أعرف».

«الآن هاك صفحة جديدة. ماذا تتذكرين؟»

«كل شيء أسود. لا أستطيع التفكير» كتبت بالقلم الرصاص قبل أن تتخطى حافة الورقة.

«ألا تتذكرين من تكونين؟ من أين أتيت؟!»

بدت وكأنها مرت بصراع كبير ثم استسلم وجهها وأصبح مأساويًا: «لا. مشوشة. ساعدوني».

قال العمدة: «طفلة مسكينة، أشكركِ على المحاولة على أي حال. عندما تحسنين سنحاول مرة أخرى. ليس عليك الكتابة بعد الآن».

كتب القلم «شكرًا لك» وسقط من بين أصابعها.

لقد فازت بالعمدة الذي كان يتواصل بشأنها مع آدم. تشارلز كان الوحيد الذي يقف ضدها. عندما كان الأخوان في غرفتها لحملها ووضعها على السرير دون أن تتأذى، انتبهت لكآبة تشارلز وسوداويته. كان لديه شيء في وجهه تعرفت عليه، جعلها غير مرتاحة. رأت أنه يلمس الندبة على جبهته في كثير من الأحيان ويفركها، ويرسم محيطها بأصابعه. بمجرد أن قبض عليها وهي تراقبه قال بقسوة: «لا تقلقي. سيكون لديك واحدة مثلها، وربما أفضل منها».

ابتسمت له ونظر بعيداً. عندما جاء آدم مع حسائنها الدافئ قال تشارلز «أنا ذاهب إلى المدينة لأشرب بعض الجعة».

### 3

لم يتذكر آدم أبداً أنه كان سعيداً لهذا الحد. لم يزعجه أنه لا يعرف اسمها. لقد طلبت منه أن يناديها بكائي، وكان ذلك كافياً بالنسبة له. كان يطبخ لكائي مستعيناً بالوصفات التي تركتها والدته وزوجة أبيه.

حيوية كائي كانت رائعة. بدأت في التعافي سريعاً. انكمش تورم خديها وبدأت آثار النقاهة والعافية تظهر على وجهها. في وقت قصير بدأت بالجلوس بالاستعانة ببعض المساعدة، كما أصبحت تفتح وتغلق فمها ببطء فائق، وبدأت في تناول الأطعمة اللينة التي تتطلب مضغاً قليلاً. كانت الضمادة ما زالت على جبينها ولكن بقية وجهها كان متحسناً بشكل ملحوظ، باستثناء التجويف في جانب الخد حيث فقدت أسنانها.

كانت «كائي» في مأزق وعقلها يراوح مكانه لإيجاد مخرج. كانت قليلة الكلام حتى عندما لم يكن الأمر صعباً.

بعد ظهر أحد الأيام سمعت شخصاً يتحرك في المطبخ. نادى: «آدم، هل هذا أنت؟»

أجاب صوت تشارلز، «لا، هذا أنا».

«هلا أتيت إلى هنا لدقيقة من فضلك؟» وقف في المدخل. كانت عيناه متجهمتين. قالت «أنت لا تأتي إلى هنا كثيراً».

«هذا صحيح».

«أنت لا تحبني».

«أعتقد أن هذا صحيح أيضاً».

«هل ستخبرني لماذا؟»

كافح للعثور على إجابة. «أنا لا أثق بك».

«لماذا؟»

«لا أعرف. ولا أعتقد أنك فقدت ذاكرتك».

«ولكن لماذا علي أن أكذب؟»

«لا أعرف. لهذا لا أثق بك. هناك شيء - أشعر أنني تقريباً أعرفك».

«لم ترني في حياتك قط».

«ربما لا. ولكن هناك شيء يزعجني - يجب أن أعرفه. ثم كيف تعرفين أنني

لم أرك قط؟»

كانت صامتة، وانتقل للمغادرة. قالت: «لا تذهب. ماذا تنوي أن تفعل؟»

«عم؟»

«عني».

نظر إليها باهتمام جديد: «تريدين الحقيقة؟»

«وإلا لماذا أسأل؟»

«لا أعرف، لكنني سأخبرك. سأحرص على إخراجك من هنا بأسرع ما يمكن. لقد تحول أخي إلى أحرق، لكنني سأجعله يستيقظ حتى إذا اضطرت إلى جلده».

«هل يمكنك أن تفعل ذلك؟ إنه رجل كبير».

«يمكنني فعل ذلك».

نظرت إليه: «أين آدم؟»

«ذهب إلى المدينة للحصول على المزيد من أدويةك اللعينة».

«أنت رجل لئيم».

«هل تعرفين ماذا أعتقد؟ لا أعتقد أنني أحمل نصف لؤمك المخفي تحت تلك البشرة اللطيفة. أعتقد أنك شيطانة».

ضحكت بهدوء. قالت «هذا يجعل منا اثنين. أخبرني يا تشارلز، كم من الوقت لدي؟»

«لماذا؟»

«كم من الوقت لدي قبل أن تطردني؟ قل لي بصدق».

«حسنًا. حوالي أسبوع أو عشرة أيام. حالما تكونين بحال أفضل».

«لنفترض أنني لم أغادر».

كان ينظر إليها بانتشاء وسرور وهو يفكر في القتال: «حسنًا، سأخبرك. عندما كنت تتناولين كل هذا الأدوية كنت تتحدثين كثيراً، أعني في نومك».

«لا أصدق ذلك».

ضحك لأنه رأى مدى الارتباك في فمها. «حسنًا لا تفعلني. وإذا أسرع في الخروج من هنا فلن يعلم أحد عن ذلك. لكن إذا لم تفعلني، فستعرفين ما يحدث به، وكذلك العمدة».

«لا أعتقد أنني قلت شيئاً سيئاً. ماذا يمكن أن أقول؟»

«لن أجادلك. لدي عمل لأقوم به. أنتِ سألتني وأنا أجبتك». قال ذلك وخرج مباشرة.

ذهب إلى الجزء الخلفي من بيت الدجاج وانحنى ضاحكاً وهو يصفع ساقه قائلاً لنفسه: «تبا، اعتقدت أنها أكثر ذكاء» شعر براحة أكثر مما كان عليه في الأيام السابقة.

#### 4

أخافها تشارلز بشدة. وإذا كان قد تعرف عليها، فقد تعرفت عليه بدورها. كان الشخص الوحيد الذي قابلته ولعب لعبتها بطريقتها. اتبعت كاثي أسلوب تفكيره ولم يطمئنها الأمر. كانت تعلم أن حيلها لن تنجح معه، وأنها بحاجة إلى الحماية والراحة. لقد خسرت مالها. ولا بد لها من الحصول على مأوى لفترة طويلة. كانت متعبة ومريضة لكن عقلها كان يتخطى الاحتمالات.

جاء آدم عائداً من المدينة يحمل زجاجة من مسكن الألم. سكب ملعقة كبيرة قائلاً: «طعمه رهيب لكنه دواء جيد» تناولته دون اعتراض، حتى أنها لم تتذمر منه. قالت: «أنت طيب معي للغاية، أتساءل لماذا؟ لقد جلبت لك المتاعب».

«لم تفعلني. لقد أنرتِ المنزل كله. لم تشتك أبداً على الرغم من كل هذه الأوجاع التي تعانين منها».

«أنت طيب وحنون للغاية»

«أريد أن أكون كذلك».

«هل عليك أن تخرج؟ ألا يمكنك البقاء والتحدث معي؟»

«بالتأكيد أستطيع. ليس لدي شيء مهم لفعله».



«قرب كرسيًا واجلس معي إذا».

عندما جلس مدت يدها اليمنى نحوه فضمها بين يديه. كررت: «حنون جداً ولطيف. آدم؛ أنت تفي بوعدك، أليس كذلك؟»

«أحاول أن أفعل، بم تفكرين؟»

بكت: «أنا وحيدة وخائفة.. خائفة جداً».

«ألا يمكنني مساعدتك؟»

«لا أعتقد أن أي شخص يمكنه مساعدتي».

«أخبريني واسمحي لي أن أحاول».

«هذا أسوأ جزء. لا أستطيع حتى إخبارك».

«لم لا؟ إذا كان سرّاً فلن أبوح به لأحد».

«إنه ليس سرّي، ألا ترى؟»

«لا أفهم».

تشبّثت أصابعها بيده بقوة: «آدم، أنا لم أفقد ذاكرتي أبداً».

«إذن لماذا قلت -»

«هذا ما أحاول إخبارك به. هل أحببت والدك، آدم؟»

«أعتقد أنني كنت أحترمه أكثر مما أحبه».

«حسناً، إذا كان شخص ما تبجله في مشكلة، ألا تفعل أي شيء لإنقاذه من

الدمار؟»

«بالتأكيد».

«حسناً، هذا ما حدث معي».

«ولكن كيف تأذيت؟»

«هذا جزء من الأمر. لهذا السبب لا أستطيع أن أقول».

«هل كان والدك؟»

«أوه لا. لكن كل التفاصيل مرتبطة ببعضها البعض.»

«تقصدين أنك إذا أخبرتني من جرحك فإن والدك سيكون في ورطة؟»

تههدت. سيخترق القصة بنفسه: «آدم، هل يمكنك أن تثق بي؟»

«بالطبع.»

«ما أطلبه منك أمر مروع»

«لا، ليس كذلك، ليس إذا كنتِ تحمين والدك.»

«أنت تفهم موقفي، هذا ليس سرّي. لو كان الأمر كذلك لكنت أخبرتك

خلال دقيقة.»

«بالطبع أفهم. كنت سأفعل نفس الشيء.»

«أوه، أنت تفهم الكثير.» اغرورقت عيناها بالدموع. انحنى نحوها فقبلته

على خده.

قال «لا تقلقي. سأعتني بك.»

استلقت على الوسادة: «أنا لا أعتقد أنك تستطيع.»

«ماذا تقصدين؟»

«شقيقك لا يستلظني. يريدني أن أخرج من هنا.»

«هل قال لك ذلك؟»

«أوه لا. يمكنني أن أشعر بذلك. هو لا يمتلك تفهمك.»

«لكن قلبه طيب.»

«أعلم ذلك، لكنه لا يحظى بلطفك. عندما يتعين علي الذهاب - سيبدأ

العمدة في طرح الأسئلة وسأكون بمفردي.»

حدق في الفضاء: «لن يستطيع إجبارك على المغادرة. أنا أملك نصف هذه

المزرعة. لدي أموال خاصة.»

«إذا كان يريدني أن أذهب فسيستعين علي ذلك. لا أريد إفساد حياتك».

خرج من الغرفة، ذهب إلى الباب الخلفي ونظر إلى الخارج. بعيداً في الحقل كان شقيقه يرفع الحجارة من زلاجة ويضعها على الحائط الحجري. نظر آدم إلى السماء. كانت هناك كتلة من الغيوم تندرج من الشرق. تنهد بعمق وأثارت أنفاسه إحساس دغدغة مثيرة في صدره. بدا سمعه صافياً فجأة، حتى أنه كان يسمع صوت الدجاج والريح الشرقية وهي تهب على الأرض. سمع حوافر الخيول على الطريق وعلى الخشب في إسطنبول أحد الجيران. وكل هذه الأصوات ارتبطت في أذنيه بنوع من الموسيقى. كانت عيناه صافيتين أيضاً. الأسوار والجدران والمظلات تبدو واضحة في فترة الظهيرة الصفراء. كان هناك تغيير في كل شيء. هوت مجموعة من طيور الدوري في النفايات وخربشت بحثاً عن قطع من الطعام ثم طارت مثل وشاح رمادي يلتف في الضوء. نظر آدم إلى أخيه. لقد ضاع الوقت ولم يعرف لكم من الوقت بقي واقفاً عند المدخل.

لم يمر وقت طويل، كان تشارلز منهمكا في التعامل مع الحجر الكبير ذاته، وآدم أطلق أنفاسه الكاملة التي أخذها عندما توقف الوقت.

لحظتها أدرك أن الفرح والحزن إحساسان من نسيج واحد. كانت الشجاعة والخوف شيئاً واحداً أيضاً. استدار وعاد إلى المطبخ، وقف في المدخل ينظر إلى كاثي. ابتسمت له بوهن، وفكر. يا لها من طفلة! يا لها من طفلة عاجزة! وغمرته موجة من الحب.

«هل تتزوجيني؟» سألها.

تشنج وجهها وأغلقت قبضتها بقوة.

«ليس عليك أن تجيبيني الآن» «أريدك أن تفكري في الأمر. لكن إذا أصبحت زوجتي يمكنني حينها حمايتك. ولا أحد يمكنه أن يؤذيك مرة أخرى».

استرخت كاثي بعد لحظة «تعال هنا يا آدم، اجلس هنا، أعطني يدك. هذا

جيد». رفعت يده ووضعت ظهرها على خدها. قالت بانكسار: «عزيزي، آه يا عزيزي. اسمعني يا آدم، لقد منحنتني ثقتك. الآن هلا وعدتني بشيء؟ هل تعدني بالأخبار أخاك أنك طلبت مني الزواج؟»  
«لماذا لا أفعل؟»

«أحتاج أن أفكر بالأمر هذه الليلة، ربما أحتاج لأكثر من هذه الليلة. هل يمكنك أن تسمح لي بذلك؟» رفعت يدها إلى رأسها: «أنت تعرف أنني لست متأكدة من أنني أستطيع التفكير بشكل صحيح. وأنا أريد أن أفعل ذلك.»  
«هل تعتقدين أنك قد تقبلين بي؟»

«أرجوك يا آدم. دعني أفكر لوحدي. أرجوك يا عزيزي.»

ابتسم وقال بتوتر: «لا تتأخري عليّ. فأنا كالكقط العالق فوق شجرة دون القدرة على النزول.»

«دعني أفكر. آدم - أنت رجل طيب.»

خرج وسار باتجاه شقيقه الذي كان يحمل الحجارة.

عندما غادر قامت كاثيري من سريرها وانتقلت بثبات إلى المكتب. انحنى إلى الأمام ونظرت إلى وجهها. كانت الضمادة لا تزال على جبهتها. رفعت الحافة بما يكفي لرؤية اللون الأحمر الغاضب. لم تكن قد فكرت في قبول الزواج من آدم بل قررت ذلك قبل أن يطلب منها. لقد كانت خائفة وبحاجة إلى الحماية والمال. وبإمكان آدم توفير الاثنين. كما ويمكنها السيطرة عليه - كانت تعلم ذلك. لم يكن الزواج رغبتها، لكنها كانت بحاجة لملجأ في الوقت الحالي. شيء واحد فقط كان يزعجها. كان آدم يشعر بدفء تجاهها لم تفهمه لأنها لم تشعر بدورها بأي دفء تجاهه، بل لم تختبر ذلك أبدًا تجاه أي شخص. كان السيد إدواردز قد أخافها حقًا، وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتها التي فقدت فيها السيطرة على الوضع، ونتيجة لذلك عقدت العزم على عدم السماح

بحدوث ذلك مرة أخرى. ابتسمت لنفسها عندما فكرت فيما سيقوله شقيقه عندما يعلم بالأمر. كانت تشعر بقربها من تشارلز، ولم تعترض على شكوكه عنها.

## 5

استقام تشارلز عندما اقترب آدم. وضع راحتيه على أسفل ظهره وذلك عضلاته المتعبة: «يا إلهي، هناك الكثير من الصخور».

«أخبرني زميل في الجيش أن هناك أودية في كاليفورنيا - أميال وأميال - حيث لا يمكنك العثور فيها على صخرة واحدة، ولا حتى حجر صغير».

قال تشارلز: «سيكون هناك شيء آخر. لا أعتقد أن هناك مزرعة بدون وجود خطأ بها. في الغرب الأوسط، هناك الجراد، الأعاصير في مكان آخر. ما ضير بعض الحجارة؟»

«أظن أنك محق. أتيت لتقديم يد المساعدة».

«هذا لطف منك. ظننت أنك ستقضي بقية حياتك ممسكًا بيد تلك المستلقية هناك. إلى متى ستبقى؟»

كان آدم على وشك إخباره بطلب الزواج لكن نبرة صوت تشارلز جعلته يغير رأيه.

قال تشارلز: «أتعلم؟ عاد أليكس بلات منذ فترة. لن تتصور أبدًا ما حدث له، لقد وجد ثروة».

«كيف هذا؟»

«حسنًا، هل تعرف أين تقع أرضه؟ حيث مجموعة من أشجار الأرز - تعرفها، على طريق المقاطعة؟»

«أعرف. ماذا عنها؟»

«دخل أليكس بين تلك الأشجار القريبة من جداره الحجري حيث كان يصطاد الأرانب. وجد هناك حقيبة وثيابا رجالية كلها معبأة بشكل جميل، ويبدو أنها كانت غارقة بسبب المطر هناك لبعض الوقت. وكان بقربها أيضاً صندوق خشبي بقل، وعندما فتحه وجد فيه ما يقارب أربعة آلاف دولار، ووجد محفظة أيضاً، لم يكن هناك أي شيء فيها».

«لا اسم أو أي شيء؟»

«هذا هو الجزء الغريب - بلا اسم؛ لا اسم على الملابس ولا تسميات على البدلات. يبدو الأمر كما لو أن الرجل لا يريد أن يُقتفى أثره».

«وهل سيحتفظ بها أليكس؟»

«لقد أخذها إلى العمدة، وسيقوم بالإعلان عنها، وإذا لم يرد أحد، يمكن لأليكس الاحتفاظ بها»

«من المؤكد أن أحدهم سيطلبها».

«أظن ذلك. لم أخبر أليكس بذلك لأنه يمتلكه شعور جيد حيال الأمر».

قال آدم: «إنه مبلغ كبير من المال. شخص ما لابد أن يطلب به».

«سيبقى أليكس في الجوار لبعض الوقت. كما تعلم، زوجته فضولية جداً».

بقي تشارلز صامتاً إلى أن قال أخيراً «آدم، يجب أن نتحدث. البلدة بأكملها تتحدث».

«عمّ؟ ماذا تقصد؟»

«اللعنة! حول تلك - تلك الفتاة. لا يمكن لفتاة غريبة أن تعيش في منزل يسكنه رجلان. يقول أليكس إن النساء غاضبات جداً من هذا الأمر. آدم لا يمكننا فعل هذا. نحن نعيش هنا. لدينا سمعة حسنة».

«هل تريد مني أن أطردها قبل أن تكون بخير؟»

«أريدك أن تتخلص منها - أخرجها من هنا. أنا لا أستلطفها».

«لم تفعل منذ البداية».

«نعم. أنا لا أثق بها. هناك شيء - شيء - لا أعرف ما هو، لكنني لا أحبه. متى

ستخرجها من هنا؟»

قال آدم ببطء: «اسمع. فلنمنحها أسبوعًا إضافيًا ثم سأفعل شيئًا حيالها».

«هل تعدني؟»

«بالتأكيد أعدك».

«حسنًا هذا جيد. سأبلغ زوجة أليكس، وهي ستتعامل مع الأخبار. شكرا

لك يا إلهي، سأكون سعيدًا بعودة المنزل لنا مجددًا. لا أعتقد أن ذاكرتها قد

عادت؟»

قال آدم: «لا».

## 6

بعد خمسة أيام عندما ذهب تشارلز لشراء بعض العلف، قاد آدم العربة إلى قرب درج المطبخ. ساعد كاثيري ووضع بطانية حول ركبتيها وأخرى حول كتفيها. أخذها إلى مقر المقاطعة وتزوجها أمام القاضي.

كان تشارلز في المنزل عندما عاد. نظر إليهما بتوتر عندما دخلا المطبخ».

اعتقدت أنك ستأخذها لتضعها في القطار».

قال آدم ببساطة: «لقد تزوجنا».

ابتسمت كاثيري لتشارلز.

«لماذا؟ لماذا فعلت أمرًا كهذا؟»

«لم لا؟ ألا يمكن للرجل أن يتزوج؟»

دخلت كاثي بسرعة إلى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفها.

بدأ تشارلز في الهديان «إنها ليست امرأة جيدة، أقول لك إنها عاهرة».  
«تشارلز!»

«أقول لك إنها مجرد عاهرة حقيرة. لا أتق بها بمقدار ذرة - لماذا، تلك العاهرة، الفاسقة!»

«تشارلز، توقف! توقف أقول لك! أبق فمك القذر مغلقاً فيما يتعلق بزوجتي!»

«إنها ليست زوجة، هذه ليست أكثر من قطة زقاق».

قال آدم بصوت خافت: «أعتقد أنك تشعر بالغيرة يا تشارلز. أعتقد أنك أردت الزواج منها بدورك».

«أيها الأحمق اللعين! أغار؟ أنا لا أقبل العيش معها في نفس المنزل!»

قال آدم متحدياً: «لن تضطر إلى ذلك. أنا ذاهب بعيداً. يمكنك شراء حصتي إذا كنت تريد. يمكنك الحصول على المزرعة. كنت دائماً تريد ذلك. يمكنك البقاء هنا والتعفن».

انخفض صوت تشارلز «ألن تتخلص منها؟ أرجوك يا آدم. ارمها للخارج. سوف تمزقك إرباً. سوف تدمرك يا آدم، سوف تدمرك!»

«كيف تعرف كل هذا عنها؟»

«لا أفعل» وأجابه تشارلز وصمت.

لم يسأل آدم كاثي حتى عما إذا كانت تود الخروج لتناول العشاء. حمل صحنين إلى غرفة النوم وجلس بجانبها.

قال: «سنذهب بعيداً»

«اسمح لي أن أغادر أنا. أرجوك. لا أريدك تكره أخاك. أتساءل لماذا يكرهني؟»



«أعتقد أنه يشعر بالغيرة».

ضاقت عينها «يشعر بالغيرة؟»

«هذا ما يبدو لي. لا داعي للقلق. سنغادر. سنذهب إلى كاليفورنيا».

قالت بهدوء «لا أريد الذهاب إلى كاليفورنيا».

«كلام فارغ. لماذا؟ المكان جميل هناك، الشمس مشرقة طوال الوقت».

«لا أريد الذهاب إلى كاليفورنيا».

قال بهدوء: «أنت زوجتي، وأريدك أن تذهبي معي».

صمتت ولم تتحدث عن الأمر مرة أخرى.

سمعا تشارلز يغلق الباب بقوة وهو خارج فقال آدم: «سيكون ذلك جيداً

بالنسبة له. سيثمل قليلاً ويشعر بتحسن».

نظرت كاثي إلى أصابعها «آدم، لا يمكنني أن أكون زوجة لك حتى أكون

بصحة جيدة».

قال: «أعلم، أتفهم الأمر، سأنتظر».

«لكني أريدك أن تبقى معي. أنا خائفة من تشارلز. إنه يكرهني للغاية».

«سأحضر سريري هنا. حينها يمكنك إخباري إذا كنتِ خائفة وتنبهني

باللمس».

قالت: «أنت طيب جداً، هل يمكننا تناول بعض الشاي؟»

«بالتأكيد، أنا أيضاً أود بعضاً منه». أحضر الفناجين وذهب لجلب وعاء

السكر. جلس على كرسي بالقرب من سريرها. إنه مركز جداً. هل هو قوي

بالنسبة لك؟»

«أنا أحبه هكذا».

أنهى فنجانها. هل تشعرين أن طعام الشاي غريب بالنسبة لك؟ مذاقه غريب».

طارت يدها إلى فمها: «أوه، دعني أتذوقه». رشفته وصرخت: «آدم، لقد

شربت من الفنجان الخطأ - كان هذا فنجانني، وكان يحتوي على دوائي».

لعل شفتيه». لا أعتقد أنه يمكن أن يؤذيني».

«لا، لا يمكن ذلك». ضحكت». «أمل ألا أحتاج لإيقاظك في الليل».

«ماذا تقصدين؟»

«حسنًا، لقد شربت دواء النوم الخاص بي. ربما لن تستيقظ بسهولة».

وبالفعل، غرق آدم في نوم عميق بسبب الأفيون رغم أنه كافح ليبقى مستيقظًا. هل قال لك الطبيب أن تأخذي هذا القدر؟» سأل وهو يشعر بثقل.

قالت: «أنت فقط لست معتادًا على ذلك».

عاد تشارلز في الساعة الحادية عشرة. سمعت «كاثي» خطاه المترهلة. دخل غرفته ونزع عنه ملابسه ودخل فراشه، نخر واستدار، كانت كاثي تقف بجانب سريره.

«ماذا تريدين؟»

«ماذا تعتقد؟ تحرك قليلا».

«أين آدم؟»

«لقد شرب دوائي المنوم عن طريق الخطأ. تحرك قليلا».

تنفس بصعوبة. «لقد كنت بالفعل قبل قليل مع عاهرة».

«أنت فتى قوي. تحرك قليلا».

«ماذا عن ذراعك المكسورة؟»

«سأعتني بذلك. هذه ليست مشكلتك».

انتشى تشارلز ضاحكًا: «يا للقيط المسكين» ورفع البطانية لاستقبالها.

## الجزء الثاني



## الفصل 12

يمكنك أن ترى كيف وصل هذا الكتاب إلى زمن عظيم يطلق عليه القرن التاسع عشر. تمت إضافة مائة عام أخرى على الأرض وتقليبها، وكل ما حدث فيها كان مشوشًا بالطريقة التي أراد لها الناس أن تكون - أكثر ثراءً وذات مغزى. في بعض المذكرات قيل إن هذه الفترة كانت أفضل زمن مر به العالم على الإطلاق - إنه الزمن القديم، الغريب، الممتع والبسيط، بدا كما لو أن الوقت شاب لا يعرف الخوف. كان كبار السن الذين لم يعرفوا ما إذا كانوا سيتأرجحون فوق حدود القرن يتطلعون إلى القادم بنفور. لأن العالم كان يتغير وكانوا يرون أن الفضيلة تغادر برفقة المتعة. تسلل القلق إلى العالم المتآكل، وماذا الذي فُقد في خضم ذلك - الأخلاق الحميدة، الراحة والجمال.. لم تعد السيدات سيدات، ولم يعد بالإمكان الوثوق بكلمة رجل نبيل.

كان هناك وقت حرص فيه الناس على الأخلاق وقد تبخرت الآن حرية الإنسان. حتى الطفولة لم تعد جيدة - ليس على النحو الذي كانت عليه. كان الصغار يقلقون في السابق بشأن إيجاد حجر جيد، ليس بالضرورة أن يكون دائريًا تمامًا، ولكنه حجر مائي مسطح لاستخدامه في مقلاع مصنوع من حبل مقطوع من حذاء مهمل. أين ذهبَت الحجارة.. وكل تلك البساطة؟

عقل الانسان غامض نوعاً ما، وإلا كيف لنا أن نتذكر إحساس اللذة أو الألم أو الانفعال الخائق؟ يمكنك أن تتذكر فقط أنك مررت به».

بينما الرجال أبقوا أنفسهم مسترخين كالديجاج الجالس في عش.  
تم إفراز التاريخ في غدد مليون مؤرخ. بعضهم قال إنه علينا الاسراع

بالخروج من هذا القرن السيء، من هذا القرن المليء بالغش والقتل والموت السري ونهب الأراضي العامة والحصول عليها بأي وسيلة على الإطلاق. فكر فيما مضى، وتذكر أمتنا الصغيرة التي كانت مهدبة بالمحيطات، وممزقة بالتعقيدات، وأكبر من أن تستوعب أعوانها. عادت مجدداً عندما أخذنا البريطانيون، لقد تغلبنا عليهم، لكن ذلك لم يفدنا كثيراً. كل ما بقي لنا هو بيت أبيض محترق وعشرة آلاف أرملة على قائمة المعاشات العامة.

بعدها ذهب الجنود إلى المكسيك، وكانت تلك نزهة مؤلمة. لا أحد يفهم سبب ذهابك في نزهة غير مريحة عندما يكون بإمكانك تناول الطعام في منزلك براحة واستمتاع. مع ذلك حققت الحرب المكسيكية شيئين جيدين. لقد حصلنا على الكثير من الأراضي الغربية وضاعفنا مساحتنا تقريباً، بالإضافة إلى أنها كانت ساحة تدريب للجنرالات، لذلك عندما اضطررنا لقتل النفس، أتقن قادتنا تقنيات جعلت الأمر بأقصى فظاعة ممكنة.

ثم هناك الحجج:

هل يمكنك الاحتفاظ بعبء؟

إذا اشتريته بحسن نية، لم لا؟

سيقولون قريباً أن المرء لا يمكنه حتى امتلاك حصان. من هذا الذي يستولي

على ممتلكاتي؟

وها نحن، حالنا حال رجل يخدش وجهه ويخضب لحيته بدمه.

على كل حال انتهى ذلك ونهضنا ببطء عن الأرض المملوطة بالدماء وبدأنا

بالسير غرباً.

جاء الازدهار، ومن بعده الكساد، ثم الإفلاس، فالكساد.

جاء لصوص عظماء ونهبوا جيوب كل من لديه جيب.

فليذهب ذلك القرن الفاسد إلى الجحيم!

دعنا ننتهي منه ونغلق الباب خلفه! دعنا نغلق كتابه ونواصل القراءة! فصل

جديد؛ حياة جديدة. ستعود أيادي المرء نظيفة بمجرد إغلاق غطاء ذلك القرن التتن. إنه أمر منصف. لا عفن في هذه المائة عام الجديدة النظيفة. هي ليست متخمة بعد، وأي شخص يتعامل بشكل غير أخلاقي مع هذه السنوات، سنصلبه رأساً على عقب.

لكن آه، لن يعود طعم الفراولة أبداً كما كان، وأفخاذ النساء، آه أفخاذ النساء فقدت قوابضها!

## 1

أحياناً ما يشع عقل المرء بوميض من المجد، يحدث هذا للجميع تقريباً. يمكنك أن تشعر به ينمو أو يستعد كالفتيل المتجه نحو الديناميت. إنه ذلك الشعور الذي يتبلور في المعدة، ذلك الانتعاش في الأعصاب والأذرع. يتذوق الجلد الهواء، ويلتذ بكل نفس عميق يأخذه. بدايته كما متعة تثار عظيم يومض في الدماغ ويضيء العالم كله خارج عينيك. ربما عاش المرء كل حياته باللون الرمادي، وكانت أرضه وأشجاره مظلمة وكثيبة. ربما كانت الأحداث، حتى المهمة منها، شاحبة ومجهولة. وبعدهذ - أتى المجد - بحيث أصبح بإمكان أغنية كريكيث تلطيف سمعه، وأصبحت رائحة الأرض ترتفع لتلامس أنفه، والضوء الخافت تحت الشجرة يبارك عينيه. ثم يسكب الرجل إلى الخارج سيلا منه، ومع ذلك لا يتضاءل. أعتقد أن أهمية المرء في العالم تقاس بنوعية وعدد أمجاده. إنه شيء وحيد، لكنه يربطنا بالعالم. إنه أساس كل الإبداع، وهو ما يميز كل إنسان عن سائر البشر.

لا أعرف كيف سيكون الحال في السنوات القادمة. هناك تغيرات رهيبة تحدث في العالم، قوى تشكل المستقبل الذي لا نعرف وجهه. بعض هذه القوى تبدو شريرة بالنسبة لنا، ربما ليست كذلك ولكننا نعتقد هذا لأنها تميل للتخلص مما نتقنه. صحيح أن رجلين يستطيعان رفع حجر أفضل من رجل

واحد. يمكن للمجموعة أن تصنع سيارات أسرع وأفضل من رجل واحد، والخبز المصنوع في مصنع ضخّم أرخص وأكثر اتساقًا. عندما يولد طعامنا وملبسنا ومسكننا في تعقيد الإنتاج الضخم، فإن الأسلوب الجماعي لا بد أن يدخل في تفكيرنا ويمحو طريقة تفكيرنا السابقة. في عصرنا، دخل الإنتاج الجماعي إلى اقتصادنا وسياستنا وحتى ديننا، بحيث استبدلت بعض الدول فكرة الرب بفكرة الجماعة. في زمني هذا يُعتبر ناقوس خطر. هناك توتر كبير في العالم، توتر يتجه نحو نقطة الانهيار، والناس غير سعداء ومشوشون.

في مثل هذا الوقت، يبدو من الطبيعي والجيد أن أسأل نفسي هذه الأسئلة. بماذا أو من؟ ما الذي يجب أن أقاتل من أجله، وما الذي يجب أن أقاتل ضده؟ جنسنا هو النوع الخلاق الوحيد ولديه أداة إبداعية واحدة فقط، العقل والروح البشرية. لم يُخلق أي شيء من قبل رجلين. لا يوجد تعاون جيد سواء في الموسيقى أو في الفن أو في الشعر أو في الرياضيات أو في الفلسفة. بمجرد حدوث معجزة الخلق، يمكن للمجموعة السعي لبنائها وتوسيعها، لكن المجموعة لا تبتدع أي شيء أبدًا. التميز يكمن في عقل الرجل الوحيد.

والآن أعلنت القوات المنتشرة حول مفهوم الجماعة حرب إبادة على ذلك التميز، عقل الإنسان، عن طريق الاحتقار، التجويع، القمع، والتوجيه القسري، ومطرقة التكييف المذهلة، تتم ملاحقة العقل الحر، تقييده، وتثيظه، وتخديره. إنه مسار انتحاري حزين يبدو أن جنسنا قد سلكه. وهذا ما أو من به: أن العقل البشري الحر والمستكشف هو أئمن شيء في العالم. وما سأقاتل من أجله هو هذا: حرية العقل في اتخاذ أي اتجاه يشاء دون توجيه. وسألتزم بمحاربة هذا: أي فكرة أو دين أو حكومة تحدّ أو تدمر الفرد. هذا ما أنا عليه وهذه مبادئتي. يمكنني أن أفهم لماذا يحاول نظام مبني على نمط معين تدمير العقل الحر، لأن العقل الحر هو الوحيد الذي بإمكانه من خلال التحري تدمير مثل هذا النظام. بالتأكيد أستطيع أن أفهم هذا، وأكرهه، وسأقاتل ضده للحفاظ على



الشيء الوحيد الذي يميزنا عن الوحوش غير الخلاقة. إذا أصبح بالإمكان قتل  
المجد، سنكون عندئذ عرضة للضياع.

## 2

نشأ آدم تراسك في الظلمة، كانت ستائر حياته مثل خيوط العنكبوت  
المغبرة، وأيامه سلسلة بطيئة من أنصاف الحزن والخيبة المرصية، وبعدئذ، عبر  
كاثي، وصل إليه الشعور بالمجد.

لا يهم إن كنتُ قد أسميت كاثي بالوحش في السابق، ربما لا يمكننا فهم  
كاثي، لكننا أيضاً على الجانب الآخر قادرون على القيام بأمر كثيرة وعظيمة  
ومن جميع النواحي، سواء كانت فضائل أو خطايا.. ثم من منا لم يقلب في  
ذهنه بعض الأفكار القذرة؟

ربما لدينا جميعاً برك سرية في عقولنا حيث تنبت الأفكار الشريرة والقييحة  
وتنمو بقوة. لكنها تبقى مسيجة، وتسلق جدار البركة فقط لتراجع. لكن، ألا  
يمكن للشئ النابت في بعض الأحواض المظلمة لبعض البشر أن يكون قويا بما  
يكفي للتلوي فوق السياج والتحرر؟

أفلا يكون هذا هو الوحش الخاص بنا، ألا ينتمي لبركنا الخفية؟ سيكون من  
العبث ألا نفهم الملائكة والشياطين على حد سواء؛ بما أننا قمنا باختراعهم.  
مهما كانت كاثي، فقد أطلقت نشوة المجد في آدم. ارتفعت روحه وانعتقت  
من الخوف والمرارة والذكريات الفاسدة. يضيء الشعور بالمجد العالم من  
حول المرء ويغيره بالطريقة التي تغير بها القذيفة النجمية ساحة المعركة. ربما  
لم ير آدم حقيقة كاثي على الإطلاق بسبب ضوئها الساطع. كانت الصورة  
المطبوعة في ذهنه هي صورة للجمال والحنان، فتاة حلوة ومقدسة، ثمينة فوق  
الوصف، نظيفة ومحبة، وكانت تلك صورة كاثي بالنسبة لزوجها، ولا شيء  
تفعله كاثي أو تقوله يمكن أن يشوه تلك الصورة في عينيه.

قالت إنها لا تريد الذهاب إلى كاليفورنيا ولم يستمع لها، ولأن كاثيري تأبطت ذراعه كان يشعر أن مجده سطع لدرجة أنه لم يلاحظ الألم الذي كان يغمر أخاه، ولم ينتبه أن بريق عينيه اختفى. باع نصيبه من المزرعة لتشارلز بأقل مما كان يقدر به، وبهذا وبنصف أموال والده كان حرًا وغنيًا. أصبح الإخوة غرباء. تصافحا في المحطة وشاهد تشارلز القطار وهو يتعد وتحسس نديته. ذهب إلى النزول، شرب أربعة أنواع من الويسكي، وصعد إلى الطابق العلوي. دفع للفتاة ولم يستطع الممارسة. بكى بين ذراعيها حتى طردته. أفرغ غضبه في مزرعته، عمل فيها، وأضاف إليها، وحفرها، وتوسعت حدود أرضه. لم يأخذ راحة ولا ترفيها، وأصبح ثريًا دون متع وحظي بالاحترام دون أصدقاء.

توقف آدم في نيويورك لفترة كافية لشراء ملابس له ولكاثيري قبل أن يصعدا القطار الذي سيحملهما عبر القارة. من السهل جدًا فهم كيفية وصولهما إلى وادي ساليناس. في ذلك اليوم كانت السكك الحديدية - التي كانت تكثر وتتقاتل فيما بينها وتسعى جاهدة للتوسع والسيطرة - تستخدم كل الوسائل لزيادة حركة المرور. لم يتم الاكتفاء بالإعلان في الصحف فقط، بل انتشرت كتيبات ونشرات تصف جمال وثراء الغرب. لم يكن هناك ما هو باهظ للغاية - فالثروة كانت غير محدودة. بدأ خط جنوب المحيط الهادئ، بقيادة ليلاند ستانفورد، في السيطرة على ساحل المحيط الهادئ ليس فقط في مجال النقل ولكن في السياسة أيضاً. امتدت قضبانها إلى أسفل الوديان حيث نشأت مدن جديدة، ذلك أنه لا بد للشركة من اجتذاب زبائن للحصول على الأرباح.

كان وادي ساليناس الطويل جزءًا من خطة الاستثمار. كان آدم قد رأى وقرأ عن جانب رائع للوادي باعتباره تلك المنطقة التي قلدها السماء دون جدوى. بعد قراءة ما كتب عنه، كان أي شخص لا يحلم بالاستقرار في وادي ساليناس مجنونًا.

لم يتسرع آدم في الشراء. اشترى معدات الحفر وتجول في الأنحاء، التقى

بالقادمين الأوائل، وتحدث معهم عن التربة والمياه، والمناخ والمحاصيل، والأسعار والتسهيلات. لم تكن مسألة تكهنات بالنسبة له. لقد كان هنا ليستقر، ليؤسس منزلاً وعائلة وربما سلالة.

كان آدم يقود عربته من مزرعة إلى أخرى، يلتقط التراب ويفتته في أصابعه، يتحدث ويخطط ويحلم. أحبه أهل الوادي وكانوا سعداء لأنه جاء ليعيش هناك لأنهم عرفوا أنه رجل ذو جوهر.

كان لديه قلق واحد فقط ويتعلق بكاثي، فهي لم تكن على ما يرام. تجولت برفقته في جميع أنحاء البلاد لكنها كانت فاترة. اشتكت ذات صباح من الشعور بالإعياء وبقيت في غرفتها في فندق كينغ سيتي بينما خرج آدم إلى البلدة. عاد حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر ليجدها على وشك الموت بسبب فقدانها للدم. لحسن الحظ وجد آدم الدكتور تيلسون يتناول العشاء وسحبه من أمام طبق لحم البقر المشوي. أجرى الطبيب فحصاً سريعاً، والتفت إلى آدم: «لماذا لا تنتظر في الطابق السفلي؟».

«هل هي بخير؟»

«نعم. سأستدعيك بعد قليل.»

ربت آدم على كتف كاثي، وابتسمت له.

أغلق الدكتور تيلسون الباب من ورائه وعاد إلى السرير. كان وجهه أحمر من الغضب «لماذا قمت بذلك؟»

كان فم كاثي عبارة عن خط رفيع ضيق.

«هل يعرف زوجك أنك حامل؟» تحرك رأسها ببطء من جانب إلى آخر.

«بماذا فعلت ذلك؟»

حدقت به.

بدأ بالبحث في جميع أنحاء الغرفة. فتش المكتب والتقط إبرة حياكة. هزها

في وجهها. قال: «ها هو الجاني - المجرم» «ايتها الحمقاء. لقد كدت تقتلين نفسك ولم تفقدي طفلك. أفترض أنك أخذت أشياء أخرى أيضًا، سممت نفسك، تناولت الكافور، والكبروسين، والفلفل الأحمر. يا إلهي! الأشياء التي تفعلها النساء!»

كانت عيناها باردتين مثل الزجاج.

سحب كرسيًا بجانب سريرها «لماذا لا تريدان إنجاب الطفل؟» سألتها بهدوء. «لديك زوج صالح. ألا تحبينه؟ ألا تنوين التحدث معي على الإطلاق؟ تحدثي معي، اللعنة! لا تستديري»

لم تتحرك شفاتها ولم تومض عيناها.

قال: «عزيزتي، ألا تدركين؟ لا يجب إزهاق الروح. هذا الأمر يصيبني بالجنون، يعلم الرب أنني أفقد مرضي لأنني لا أعرف ما يكفي، لكنني أحاول - أحاول دائمًا، ثم أرى أمامي قتلاً متعمداً هكذا!». كان يتحدث بسرعة وكأنه يخشى الصمت بين جملة وأخرى. لقد حيرته هذه المرأة. كان هناك شيء غير إنساني فيها. هل قابلت السيدة لوريل؟ إنها تبذل كل نفيس وتبكي من أجل طفل. مستعدة لأن تهب كل ما تملكه أو يمكنها الحصول عليه لتنجب طفلاً، وأنت - تحاولين طعن نفسك بإبرة حياكة. حسناً، لن تتكلمي - لست مضطرة إلى ذلك. لكن دعيني أخبرك بهذا؛ الطفل بخير. كان هدفك سيئاً لكن ها أنذا أخبرك بهذا - ستنجين هذا الطفل. هل تعلمين ماذا يقول القانون في هذه الدولة عن الإجهاض؟ ليس عليك الإجابة، لكن فلتسمعيني جيداً! إذا حدث هذا مرة أخرى، إذا فقدت هذا الطفل وكان لدي أي سبب للاشتباه في حماقات أخرى فسادينك، وأشهد ضدك، وسأراك تعاقبين. والآن أتمنى أن يكون لديك شعور كافٍ لتصدقيني، لأنني أعني ما قلته».

قامت كاثيري بترطيب شفيتها بلسان مدبب قليلاً. غادر البرد عينيها وحل مكانه حزن واهن. قالت: «أنا آسفة.. لكنك لا تفهم».

«إذن لماذا لا تخبريني؟» اختفى غضبه كالضباب «قولي يا عزيزتي».  
«من الصعب أن أخبرك. آدم رجل جيد جدًا وقوي. أنا، أنا مريضة بالصرع».  
«أنت!»

«لا، ولكن جدي وأبي - وأخي». غطت عينيها بيديها «لم أستطع تحمل  
جلب ذلك إلى زوجي».

قال: «أوه! أيتها الطفلة المسكينة، لا يمكنك التأكد من هذا. من المحتمل  
أن يكون طفلك بصحة جيدة. هل ستعديني بعدم تجربة المزيد من الحيل؟»  
«نعم».

«حسنًا إذا. لن أخبر زوجك بما فعلت. استلقي الآن ودعيني أرى ما إذا كان  
النزيف قد توقف».

في غضون بضع دقائق أغلق حقيبته ووضع إبرة الحياكة في جيبه. قال:  
«سأعود للاطمئنان عليك في صباح الغد».

اندفع آدم نحوه عندما نزل من الدرج الضيق إلى الردهة. تجنب الدكتور  
تيلسون موجة أسئلته القلقة والمضطربة «كيف حالها؟ هل هي بخير؟ ما سبب  
ذلك؟ هل يمكنني الصعود؟»

«توقف، توقف - توقف». واستخدم حيلته المعتادة في حالات كهذه:  
«زوجتك مريضة».

«دكتور -»

«مصابة بالمرض الوحيد الجيد»

«دكتور»

«زوجتك حبلى وستنجب طفلاً». قالها وتجاوز آدم تاركاً إياه محققاً في  
الفراغ. مما دفع ثلاثة رجال جالسين حول الموقد للضحك على حالته. ألقى

أحدهم بملاحظة جافة: «لو كنت مكانك الآن لقمتم بدعوة عدد من الأصدقاء لتناول مشروب» لكن تلميحته تبخر في الهواء واندفع آدم بشكل أحرق إلى أعلى الدرج الضيق.

تركز انتباه آدم في مزرعة بوردوني على بعد أميال قليلة جنوب كينغ سيتي، في الواقع على مسافة متساوية بين سان لو كاس وكينغ سيتي. كان لدى آل بوردوني تسعمائة فدان متبقية من منحة قدرها عشرة آلاف فدان منحت للجد الأكبر، للسيدة بوردوني من قبل الملكية الإسبانية. كانت عائلة بوردوني سويسرية، لكن السيدة بوردوني كانت ابنة ووريثة عائلة إسبانية استقرت في وادي ساليناس في أوقات مبكرة جداً. وكما حدث مع معظم العائلات القديمة، خسروا الأراضي. البعض أضعافها في القمار، والبعض الآخر ذهب للضرائب، وبعض الأفدنة مُزقت كالقسائم لشراء الكماليات - حصان، ماسة، أو امرأة جميلة.

كانت التسعمائة فدان المتبقية هي جوهر منحة سانشيز الأصلية وأفضلها أيضاً. لقد امتدت عبر النهر واندست في سفوح التلال على كلا الجانبين، لأن الوادي عند هذه النقطة يضيق ثم يفتح مرة أخرى. كان منزل سانشيز الأصلي لا يزال قابلاً للسكن. بني من الطوب في بداية سفوح التلال حيث واد صغير يغذيه نبع جميل من المياه العذبة. وهذا بالطبع هو السبب الرئيس لاختيار سانشيز هذا المكان للسكن. كانت أشجار السنديان الحية الضخمة تظلل الوادي، وكانت الأرض غنية وخضراء ومختلفة عن هذا الجزء من البلاد. كانت جدران المنزل منخفضة بسمك أربعة أقدام، والعوارض الخشبية المستديرة قد قيّدت بحبال من الجلد الخام الذي كان آنذاك مبللاً، وبعد أن تقلص الجلد سحب الرافعة والعوارض الخشبية بإحكام، وبذلك أصبحت الحبال الجلدية صلبة مثل الحديد وغير قابلة للتلف تقريباً.

هناك عيب واحد فقط في طريقة البناء هذه. ستقرض الفئران الجلود إذا وصلت إليها.

بدا المنزل القديم وكأنه قد نما من الأرض، كان جميلاً، استخدمه بوردوني كحظيرة للبقر. كان مهاجراً سويسرياً يحمل شغفا وطيناً بالنظافة. لم يثق في الجدران الطينية السميقة وعليه قام ببناء منزل على بعد مسافة، بحيث ترفع أبقاره رؤوسها من النوافذ العميقة لمنزل سانشيز القديم.

كانت عائلة بوردوني بلا أطفال، وعندما ماتت الزوجة في سنوات نضجها، هبط على زوجها شوق للماضي الجميل في جبال الألب، وعليه قرر بيع المزرعة والعودة إلى وطنه. رفض آدم ترأسك الشراء على عجل، وكان بوردوني يطلب سعراً باهظاً ويستخدم أسلوب التظاهر بعدم الاهتمام بما إذا كان قد باع أم لا. كان بوردوني متأكداً من أن آدم سيشتري أرضه قبل وقت طويل من تأكيد آدم نفسه من ذلك.

كان آدم ينوي البقاء وإنجاب أطفاله الذين لم يولدوا بعد في المكان الذي استقر فيه. كان يخشى أن يشتري مكاناً ثم يكتشف آخر قد يروق له بشكل أفضل، وطوال الوقت كان يميل لمنزل سانشيز. مجيء كاثي جعل حياته تمتد أمامه ببهجة لفترة طويلة. لكنه مر بكل درجات وحالات الحذر، قاد عربته ومشى على كل قدم من الأرض. وضع مثقباً في باطن الأرض ليختبرها ويستشعرها ويشمها. استفسر عن النباتات البرية الصغيرة في الحقول وعلى ضفاف النهر والتل. في الأماكن الرطبة جثا على ركبتيه وفحص مسارات الطرائد وأسود الجبال والغزلان، والذئب والقطط البرية، والظربان والراكون، وابن عرس والأرانب. تجول بين أشجار الصفصاف والجميز وكروم العليق البري في مجرى النهر، وربت على جذوع البلوط الحي، والغار.

كان بوردوني ينظر إليه بعينين شبه مغمضتين بينما يسكب لنفسه كؤوساً من النبيذ الأحمر بعد عصره من عنب كرمه الصغير على جانب التل، دائماً ما راق له أن يشرب قليلاً بعد ظهر كل يوم. وبدأ آدم، الذي لم يذق الخمر من قبل، في إبداء إعجابه به.

سأل كاثي مرارًا وتكرارًا عن رأيها في المكان: هل أعجبها؟ هل ستكون سعيدة فيه؟ ولم يستمع لإجاباتها غير الواضحة. كان يعتقد أنها تأبقت حماسه. تحدث في بهو الفندق إلى الرجال الذين تجمعوا حول الموقد قرأوا الأوراق المرسلة من سان فرانسيسكو.

قال ذات مساء: «الماء هو ما يقلقني. أتساءل إلى أي مدى يجب أن تحفر لبئر».

قال مربي الماشية الذي كان جالساً: «يجب أن تذهب لرؤية سام هاملتون. إنه يعرف عن المياه أكثر من أي شخص آخر هنا. إنه ساحر ماء وحفر آبار أيضاً. سيخبرك بما تحتاج لمعرفة بهذا الشأن. لقد حفر نصف الآبار في هذا الجزء من الوادي».

ثم لطفه آخر قائلاً: «لدى سام سبب وجيه حقيقي للاهتمام بالمياه. فهو لم يحصل على قطرة منها في مكانه».

«كيف أجده؟» سأل آدم.

«اسمع، أنا ذاهب إليه ليصنع لي قطعة حديد زاوي، سأخذك معي إذا أردت. ستحب السيد هاملتون. إنه رجل جيد».

قال رفيقه «إنه عبقرى كوميدي».

### 3

ذهب لويس ليبو و آدم تراسك إلى مزرعة هاملتون يحملون ساقاً من لحم الغزال ملفوفة في خيش مبلل لإبقائها باردة. كان من المعتاد في ذلك الوقت أن تأخذ شيئاً من الطعام كهدية عندما تذهب لرجل تحتاج لخدمته، لأن عدم بقائك لتناول العشاء سيكون بمثابة إهانة له، بذات الوقت القليل من الضيوف قد يؤخرون خطط الإطعام لأسبوع كامل إذا لم تقم بتعويض ذلك مقدماً.



ربع خنزير أو كفل بقرة سيفي بالعرض. قدم لويس لحم الغزال وآدم زجاجة ويسكي.

قال لويس «يجب أن أخبرك، سوف يعجب هاملتون بها، بعكس السيدة هاملتون. لو كنت مكانك لكنت تركتها تحت المقعد وعندما نذهب إلى ورشته يمكنك إخراجها، هذا ما نفعله دائماً».

«ألا تدع زوجها يشرب؟»

قال لويس «ليس أكثر من طائر، لديها آراء متزمتة. فقط اترك الزجاجة تحت المقعد».

غادرا طريق الوادي متجهين نحو التلال المهترئة والمتهالكة على مسارات العجلات التي تغرقها أمطار الشتاء. توترت الخيول في أطواقها وكانت العربية تهتز وتتأرجح. لم يكن هذا العام لطيفاً مع التلال، وفي يونيو كانت جافة بالفعل والحجارة بانث من خلال الأعلاف القصيرة المحترقة. كان الشوفان البري قد طال بالكاد ست بوصات فوق سطح الأرض، كما لو كان يعلم أنه إذا لم ينتج البذور بسرعة فلن يحصلوا على البذور على الإطلاق.

قال آدم: «لا تبدو بلدة محتملة».

«محتملة؟ يا سيد تراسك، هذه البلدة تكسر قلب الرجل وتأكله. هه، محتملة! السيد هاملتون لديه قطعة أرض كبيرة وقد جاع حتى وصل للموت مع كل أولئك الأطفال. المزرعة لا تطعمهم. إنه يقوم بجميع أنواع الأعمال، وبدأ أولاده في معاونته نوعاً ما. إنها عائلة رائعة».

حدق آدم في خط من نبات المسكيت على الطريق: «لماذا بحق السماء يستقر في مكان مثل هذا؟»

لويس لبيو، كما يفعل كل رجل، يحب أن يقوم بالشرح والترجمة لشخص غريب بشكل خاص، قال: «سأخبرك، أنظر إلي - كان والدي إيطالياً. جاء إلى

هنا بعد حدوث متاعب هناك لكنه جلب معه القليل من المال. منزلي ليس كبيراً جداً ولكنه لطيف. اشتراه والدي. اختاره شخصياً. وانظر إليك - لا أعرف مصدر ثرائك ولن أسأل، لكن يقال إنك تحاول شراء منزل سانشيز القديم ولم يُقدم بوردوني على بيع أي من أملاكه من قبل. أنت ثري جداً، وإلا لم تكن لتحاول شراء ذلك المنزل».

قال آدم بتواضع: «أنا في وضع مريح».

قال لويس: «أتحدث عن الأمر بشكل عام. عندما جاء السيد والسيدة هاملتون إلى الوادي لم يكن لديهما دلو يتبولان فيه. كان عليهما أخذ ما تم تركه، أرض لا يريدونها أحد. خمسة وعشرون فدائناً لم تكن لتُبقي بقرة على قيد الحياة حتى في السنوات الجيدة، يقال إن ذئب القيوط تبتعد في السنوات السيئة. هناك أشخاص يقولون إنهم لا يعرفون كيف عاش هاملتون كل هذه السنين هنا. لكن ما هو مؤكد هو أن السيد هاملتون عمل بشكل صحيح - وهكذا حافظ على معيشة أسرته. عمل بأجر حتى تمكن من صنع آلة البيدر الخاصة به».

«لا بد أن يكون قد نجح في ذلك. فأنا أسمع عنه في كل مكان».

«لقد نجح في ذلك بشكل جيد وربى تسعة أطفال. أراهن أنه لم يتمكن من توفير حتى أربع قطع نقدية. كيف يمكنه ذلك بكل حال؟»

تأرجحت بقوة إحدى جوانب العربة وهي تظأ على حجر دائري كبير، كانت الخيول منهكة وغارقة بالعرق. قال آدم: «سأكون سعيداً بالتحدث معه».

«حسناً يا سيدي، لقد قام هذا الرجل بتربية ذرية جيدة، لديه أبناء طيبون وقام بتربيتهم بشكل جيد. جميعهم على ما يرام - ربما باستثناء جو. جو - وهو الأصغر - يتحدثون عن احتمال إرساله إلى الكلية، لكن البقية جميعهم بخير هنا. يمكن للسيد هاملتون أن يكون فخوراً. المنزل على الجانب الآخر من الارتفاع القادم. لا تنسى إحضار هذا الويسكي. ستقتلك»

كانت الأرض الجافة تُتكتك تحت أشعة الشمس والصراصير تملأ المكان.  
قال لويس «إنها بلدة مهجورة بحق».

قال آدم: «يجعلني هذا أشعر بأنني لثيم».

«كيف ذلك؟»

«لأنني مكتفٍ ولست مضطراً للعيش في مكان مثل هذا».  
أنا أيضاً، ولا أشعر أنني لثيم. أنا سعيد للغاية».

عندما أصبحت العربة على ارتفاع، كان بإمكان آدم أن يرى مجموعة المباني الصغيرة التي يتكون منها منزل هاملتون - منزل وحوله عدد من الأكواخ، حظيرة للأبقار، ورشة حدادة، وسقيفة للعربات. كان منظرًا جافًا التهمته الشمس، لا أشجار كبيرة، وحديقة صغيرة تُروى باليد.

التفت لويس إلى آدم وقال بنبرة تشي بنوع من العداء: «أود أن أوضح لك أمراً أو أمرين بشكل مباشر سيد تراسك. هناك أشخاص عندما يلتقون بصموئيل هاملتون في المرة الأولى يتكون لديهم انطباع أنه مليء بالهراء. لا يتحدث مثل الآخرين. هو إيرلندي، مليء بالخطط - يخلق مائة خطة في اليوم، ورجل متختم بالأمل؛ يا إلهي، لا بد أن يكون كذلك وهو يعيش على هذه الأرض القاحلة! لكن تذكر هذا - إنه عامل جيد، حداد جيد، وبعض خططه تنجح. كما سمعته يتحدث عن أشياء كانت ستحدث وحدثت».

انزعج آدم من تلميح التهديد: «لست رجلاً يريد هزيمة آخر» قالها وهو يشعر فجأة أن لويس فكر فيه على أنه غريب وعدو.

«أردت فقط أن تفهم الأمر بشكل صحيح. هناك بعض الناس يأتون من الشرق ويعتقدون أنه إذا لم يكن لدى الرجل الكثير من المال، فلن يكون جيداً».

«لا أفكر بـ..»

«ربما لم ينجح السيد هاملتون في توفير حتى القليل من المال لكنه منا وهو

رجل طيب. وقد قام بتربية ألطف عائلة يمكنك أن تلتقي بها. أريدك فقط أن تتذكر ذلك».

كان آدم على وشك الدفاع عن نفسه لكنه تراجع قائلاً: «سأفعل. شكراً لإخباري».

التفت لويس للأمام مرة أخرى: «ها هو - انظر إليه، إنه الواقف خارج الورشة؟ لا بد أنه سمعنا».

«هل له لحية؟» سأل آدم وهو يحدق.

«نعم، لديه لحية جميلة. إنها تتحول إلى اللون الأبيض بسرعة وتترمد».

مرا من أمام المنزل ولمحا السيدة هاملتون تنظر من النافذة إليهما، وتوقفا أمام الورشة حيث وقف صموئيل في انتظارهما.

رأى آدم رجلاً كبيراً، ملتجياً كما بطيرك، شعره الرمادي يتحرك في الهواء كما زغب الشوك. كانت خدوده الظاهرة فوق لحيته وردية اللون حيث حرقت الشمس جلده الأيرلندي. كان يرتدي قميصاً أزرق نظيفاً ومئزراً جلدياً. أكمامه ملفوفة، وذراعه العضليتان نظيفتان أيضاً. فقط كانت يديه مسودتين. بعد نظرة سريعة عاد آدم إلى عيونه الزرقاء الفاتحة والملينة بالبهجة. كانت التجاعيد حولهما قد رسمت خطوطاً تمتد إلى الداخل عبر الضحك.

«لويس! أنا سعيد برؤيتك. حتى في حلاوة جنتنا الصغيرة هنا نحب أن نستقبل أصدقاءنا» قال وهو يتسم لأدم. قال لويس، «لقد أحضرت السيد آدم تراسك لرؤيتك. إنه غريب من الشرق».

قال صموئيل: «سعيد باستقبالك، سنتصافح في وقت آخر، لا أريد تلويث يديك».

«أحضرت بعض الحديد سيد هاملتون. هل يمكنك صنع بعض قطع الزوايا من أجلي؟ لقد سقط هيكل السرير الرأسي بالكامل».

«بالتأكيد سأفعل لويس. انزل، انزل. فلنضع الخيول في الظل.»

«هناك قطعة من لحم الغزال في الخلف، وقد أحضر السيد تراسك شيئاً صغيراً.»

نظر صموئيل نحو المنزل: «ربما سنخرج «الشيء الصغير» عندما نترك الحفارة خلف السقيفة.»

استطاع آدم سماع نبرة الموسيقى في كلامه، ومع ذلك لم يستطع اكتشاف أي كلمة تُنطق بطريقة غريبة باستثناء ربما لفظ حرف الياء الشديد الوضوح والحاد على لسانه.

«لويس، ارتاحا واستقرا، سأخذ اللحم الى الداخل. ستكون ليزا سعيدة بها، إنها تحب يخنة لحم الغزال.»

«أي من الشباب في المنزل؟»

«لا، لا أحد منهم. عاد جورج وويل إلى المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، وذهبوا جميعاً الليلة الماضية لحضور رقصة وايلد هورس كانيون في قاعة مدرسة بيتش تري. سيعودون عند حلول الظلام. نحن نفتقر إلى أريكة بسبب ذلك. سأخبرك لاحقاً عن الأمر - ليزا ستنتقم منهم - كان توم هو من فعل ذلك.» ضحك وهو يتجه الى المنزل حاملاً ورك الغزال الملفوف.» ربما ترغب في إحضار ذلك «الشيء الصغير» إلى الورشة، حتى لا تلوحه الشمس.»

سمعاه ينادي عندما اقترب من المنزل: «ليزا، لن تخمني أبداً. لقد جلب لويس ليبو قطعة من لحم الغزال أكبر منك.»

قاد لويس عربته إلى الجزء الخلفي من السقيفة وساعده آدم في إخراج الخيول وربط القاطرات في الظل. قال لويس: «لقد عنى ذلك بخصوص شروق الشمس على الزجاجاة.»

«لابد أنها امرأة مرعبة.»

«ليست أكبر حجماً من طائر لكنها مترممة».

عاد صموئيل إليهما. قال «ليزا ستكون سعيدة إذا بقيتما لتناول العشاء».

احتج آدم قائلاً: «لكنها لم تتوقع مجيئنا».

«اصمت يا رجل. ستصنع بعض الزلاوية الإضافية للحساء ويسعدنا

استضافتكمما. أعطني قطع الحديد خاصتك يا لويس، فلنر كيف تريدها».

قام بإشعال نار في المصهر الأسود وسحب منفاخا عليها ثم وضع فيه الفحم إلى أن توهج. قال: «خذ يا لويس، لوح على النار ببطء، ببطء وثبات يا رجل». ووضع شرائط الحديد على الفحم المتوهج «سيدي، السيد تراسك، اعتادت ليزا الطبخ لتسعة أطفال يتضورون جوعاً. لا شيء يمكن أن يجفلها». ألقى بقطع الحديد إلى زاوية فيها حرارة أكثر وضحك قائلاً: «سأسحب آخر عبارة كونها كذبة عظيمة؛ زوجتي تفرقر مثل الحجارة المستديرة في الأمواج. وأحذر كلاكما من ذكر كلمة «أريكة». إنها كلمة تثير غضب وحزن ليزا في هذه الفترة».

قال آدم: «لقد قلت أنت شيئاً عنها».

«إذا كنت تعرف ابني توم لفهمت الأمر بشكل أفضل سيد تراسك. لويس

يعرفه».

قال لويس: «بالتأكيد أعرفه».

تابع صموئيل «توم فتى ذو عزم وعنيد. دائماً يأخذ في طبقه أكثر مما يستطيع

أن يأكل. دائماً يزرع أكثر مما يستطيع أن يحصد. يفرح بشدة ويحزن بشدة.

بعض الناس خلقوا هكذا.

تعتقد ليزا أنني كذلك. لا أعلم ماذا سيحدث لتوم، ربما ينال العظمة وربما

جبل المشنقة - حسناً، تم شنق هاملتون من قبل، وسأخبرك عن ذلك في وقت

ما».

ذكره آدم بأدب «الأريكة».

«أنت على حق. تقول ليزا إنني أقوم بذلك، أرعى كلماتي التي تشبه الخراف المتمردة. حسناً، هناك حفلة رقص في مدرسة بيش تري، والأولاد؛ جورج وتوم وويل وجو، قرروا جميعاً الذهاب. وطبعاً تمت دعوة الفتيات للذهاب. دعا كل من جورج وويل وجو البسطاء كل صديقة لمرافقته، لكن توم - أخذ مساعدة كبيرة جداً كالمعتاد. دعا الشقيقتين جيني وبيبل وويليامز. كم عدد فتحات المسامير التي تريدها يا لويس؟»  
قال لويس «خمسة».

«حسناً. يجب أن أخبرك سيد تراسك، أن توم لديه كل حب الذات والأنانية الضرورية بالنسبة لصبي يعتقد أنه قبيح. بمجرد الإعلان عن حفلة ما تراه يضع إكليلاً فوق رأسه ويمجد نفسه ويتألق مثل زهور الربيع، وهذا كله يأخذ منه وقتاً طويلاً. هل لاحظت أن منزل العربية كان فارغاً؟ حسناً، ذهب كل من جورج وويل وجو الى الحفلة مبكرين لكن ليس بشكل جميل مثل توم. أخذ جورج الحفارة، وكانت لدى ويل العربية، بينما حصل جو على العربية الصغيرة ذات العجلتين». أضاءت عيون صموئيل الزرقاء بسرور وواصل: «حسناً، كان توم خجولاً ومتأنقاً كإمبراطور روماني والشيء الوحيد المتبقي بعجلات هو مجرفة القش، ولا يمكنك حتى أن تأخذ واحدة من بنات وويليامز في تلك، وسواء كان ذلك أمراً جيداً أو سيئاً آنذاك، كانت ليزا تأخذ قيلولة».

جلس توم على الدرج وفكر في الأمر. ثم رأته يذهب إلى السقيفة ويخرج بحصانين ليحرقا مجرفة القش، ثم أخرج الأريكة من المنزل - الكنية المصنوعة من شعر الخيل والتي تحبها ليزا أكثر من أي شيء آخر. كنت قد جلبتها لها لتستريح عليها قبل ولادة جورج. آخر مرة رأيتها كانت تتحرك فوق التل وتوم مسترخ فوقها، متوجه نحو منزل الفتاتين لاصطحابهما للرقص. أه رحماك ربي، ستكون كما رقاقة عندما يعيدها». وضع صموئيل ملقطه ووضع يديه

على وركيه غارقاً في الضحك». هناك دخان يخرج إلى الآن من أنفها. يا لتوم المسكين».

قال آدم مبتسماً: «أتود أن تتناول قليلاً من ذلك الشيء؟»

قال صموئيل: «أود هذا نعم»، تناول الزجاجاة وابتلع جرعة سريعة من الويسكي وأعادها.

«يقول الإيرلنديون أن الويسكي هو ماء الحياة - وهو كذلك بالفعل».

أخذ أشرطة الحديد الحمراء إلى سندانه وثقب ثقباً بها وقام بثني الزوايا بمطرقته بينما الشرارات المتشعبة تتطاير منها. ثم غمس الحديد في برميل الماء الأسود. قال: «ها أنت ذا» وألقى بها على الأرض.

قال لويس «أشكرك. كم سيكون ثمن ذلك؟»

«التمتع بصحبتك».

قال لويس بلا حول ولا قوة: «إنه هكذا دائماً».

«لا، عندما حفرت بترك الجديد في الأسفل دفعت الثمن».

«أوه هذا يذكرني بالأمر الآخر الذي أتينا من أجله. يفكر السيد تراسك في

شراء منزل بوردوني - منحة سانشيز القديمة - هل تذكره؟»

قال صموئيل: «أعرفه جيداً. إنها قطعة أرض رائعة».

«كان يتساءل عن الماء، وأخبرته أنك تعرف عن هذا أكثر من أي شخص

هنا».

مرر آدم الزجاجاة، وأخذ صموئيل رشفة خفيفة ومسح فمه بساعده المسخّم.

قال آدم: «لم أحسم أمري بعد، مازلت فقط أطرح بعض الأسئلة».

«أوه. يا رجل لقد وضعت قدمك فيه الآن. يقال إن استجواب رجل إيرلندي

أمر خطير لأنه سيخبرك بما تريد معرفته. أتمنى أن تعرف ما تفعله عندما



تمنحني ترخيصاً للتحدث. لقد سمعت عن نوعين من الحكماء. أحدهما يفيد أن الرجل الصامت هو الرجل الحكيم والآخر يقول إن رجلاً بدون كلام هو رجل بلا فكر. بطبيعتي أميل للخيار الثاني - تقول ليزا أنني أميل له أكثر مما هو ضروري. حسناً، ماذا تريد أن تعرف؟»

«حسناً بالنسبة لمنزل بوردونى. ما هو العمق الذي يجب أن تصل إليه للحصول على الماء؟»

«يمكنني أن أرى البقعة في بعض الأماكن على عمق ثلاثين قدماً، وفي بعض الأماكن على عمق مائة وخمسين».

«ولكن هل من الممكن استخراج المياه هناك؟»

«تقريباً في كل مكان باستثناء مكاني هذا».

«سمعت أن لديك نقصاً هنا».

«سمعت؟ لا بد أن الإله الذي في الجنة أيضاً قد سمع! لقد صرخت بصوت عالٍ بما فيه الكفاية».

«هناك قطعة مساحتها أربعمائة فدان بجانب النهر. هل هناك ماء تحتها؟»

«علي أن أنظر. يبدو لي أنه واد غريب. إذا كان بإمكانك المحافظة على صبرك، فربما يمكنني أن أخبرك عن ذلك، لأنني نظرت إليه وغرزت شوكتي فيه. الرجل الجائع يلتهم بعقله - إنه يفعل ذلك بحق».

قال لويس ليبو، «السيد تراسك من نيوانغلاند ويخطط للاستقرار هنا. لقد كان في الغرب من قبل، وخدم في الجيش وقاتل الهنود».

«حقاً؟ إذاً عليك أنت التحدث والسماح لي بالتعلم».

«لا أريد التكلم عن ذلك».

«لم لا؟ فليساعد الله أسرتي وجيراني إذا كنت قد اضطررت لقتال الهنود!»

«لم أرغب في قتالهم سيدي». خرجت «سيدي» دون وعي منه.  
«نعم، يمكنني تفهم ذلك. لا بد أن قتل رجل لا تعرفه ولا تكرهه أمر صعب».  
قال لويس «وربما هذا يجعل الأمر أسهل».

«لديك وجهة نظر لويس. لكن بعض الرجال يعتبرون العالم كله أصدقاء في قلوبهم، وهناك آخرون يكرهون أنفسهم وينشرون الكراهية كما تمسح الزبدة على الخبز الساخن».

قال آدم بانزعاج «أفضل أن تخبرني عن الأرض» لأن صورة مزعجة للأجساد المكسدة خطرت في ذهنه.

«ما هو الوقت الآن؟»

خرج لويس ونظر إلى الشمس: «لم تتعد العاشرة بعد».

«إذا بدأتُ بالتحدث فأنا لا أتحكم في نفسي، يقول ابني ويل إنني أتحدث إلى الأشجار عندما لا يمكنني العثور على بشر». تنهد وجلس على برمبل المسامير «أعلم أنني قلت إنه واد غريب، لكن ربما لأنني ولدت في مكان دائم الخضرة. هل تجده غريباً يا لويس؟»  
«لا، فأنا لم أخرج منه أبداً».

قال صموئيل: «لقد حفرت فيها كثيراً. حدث شيء ما تحتها - ربما ما يزال يحدث. هناك قاع محيط تحتها، هناك عالم آخر. لكن هذا لن يزعج المزارع. في الأعلى توجد تربة جيدة، خاصة على الأراضي المستوية. في الوادي الأعلى الأرض خفيفة ورملية لكنها ممزوجة بحلاوة التلال التي كانت تنهمر عليها الأمطار في الشتاء. لكن كلما تقدمت إلى الشمال يتسع الوادي، وتصبح التربة أكثر سواداً وأثقل وربما أكثر ثراءً. في اعتقادي أن هناك مستنقعات كانت موجودة في وقت ما، وأن جذور القرون الماضية تعفنت في التربة وجعلتها سوداء وخصبتها. وعند قلبها يختلط القليل من الطين الدهني بها ويثبتها».

هذا من غونزاليس شمالاً حتى مصب النهر على الجانبين، أما حول ساليناس وبلانكو وكاستروفيل وموس لاندينغ لا تزال الأهوار موجودة. وعندما يتم تجفيف تلك المستنقعات ذات يوم ستكون هي الأغنى من بين كل الأراضي في هذا العالم».

«دائمًا ما - سيكون عليه الأمر - يومًا ما» قال لويس

«حسنًا، لا يمكن لعقل الرجل أن يلتزم بالوقت بالطريقة التي يفعلها بها جسده».

قال آدم: «إذا كنت سأستقر هنا، فأنا بحاجة لمعرفة كيف وماذا سيكون. أطفال الذين سأنجبهم سيقومون على هذه الأرض»

«عليك أن تعرف أنه تحت جزء كبير من هذا الوادي هناك بعض الأماكن العميقة والبعض الآخر قريبة من السطح، هناك طبقة تشبه المقلاة الصلبة. طين معبأ ومتماسك بشدة ودهني أيضًا. في بعض الأماكن يبلغ سمكها قدمًا فقط وتكون أكثر في أماكن أخرى. هذه المقلاة الصلبة تقاوم الماء، وإذا لم تكن موجودة لكانت أمطار الشتاء أغرقت الأرض وفي الصيف تصل إلى الجذور مرة أخرى. ولكن عندما تنقع الأرض الواقعة فوق المقلاة الصلبة، فإن المياه تتحول إلى فيضانات أو تتعفن هناك في الأعلى. وهذه واحدة من اللعنات الرئيسية لوادينا».

«حسنًا، لكنه مكان جيد للعيش فيه، أليس كذلك؟»

«نعم، إنه كذلك، لكن المرء لا يستطيع أن يرتاح تمامًا عندما يعلم أن بإمكانه أن يصبح أكثر ثراءً. اعتقدت أنه إذا كان بإمكانني عمل آلاف الثقوب للسماح للماء بالعبور من خلالها فقد أحل المشكلة. بعد ذلك جربت شيئًا بوضع أصابع من الديناميت. لقد خرقت فتحة في المقلاة الصلبة وفجرتها، أحدث ذلك فجوة وبدأ الماء بالنزول، لكن يا إلهي، فكر في كمية الديناميت! لقد قرأت

أن السويدي - الرجل نفسه الذي اخترع الديناميت - لديه مادة متفجرة جديدة أقوى وأكثر أماناً، ربما يكون هذا هو الحل».

قال لويس بمزيج من السخرية والاعجاب «إنه يفكر دائماً في كيفية تغيير الأشياء. لا يشعر بالرضا أبداً عما هي عليه».

ابتسم له صموئيل: «يقال إن الرجال كانوا يعيشون في الأشجار في وقت ما. لا بد أن شخصاً ما كان غير راضٍ عن غصن ما، وإلا فلم تكن قدماء لتطأ الأرض المسطحة الآن»، ضحك مجدداً وواصل: «أستطيع بالتأكيد رؤية نفسي جالساً على كومة الغبار الخاصة بي وأخلق عالماً في ذهني كما خلق الرب هذا العالم، لكن الرب رأى هذا العالم وخلقه، وأنا لا يمكنني رؤية عالمي إلا بهذه الطريقة. سيكون هذا الوادي في ثراء عظيم يوماً ما، يمكنه أن يغذي العالم بأكمله، وربما سيفعل. وسيعيش الآلاف والآلاف من الناس السعداء هنا»، بدا أن سحابة حزن حلقت فوق عينيه ووجهه وجعلته يصمت.

قال آدم: «أنت تجعله يبدو وكأنه مكان جيد للاستقرار. في أي مكان آخر يمكنني تربية أطفالي؟»

عاد صموئيل للحديث: «هناك شيء واحد لا أفهمه؛ هناك سواد في هذا الوادي، لا أعرف ما هو لكن يمكنني أن أشعر به. أحياناً أشعر به يباغت الشمس في يوم مشرق فيعصرها ويخرج الضوء منها مثل الإسفنج». ارتفع صوته فجأة، هناك عنف أسود في هذا الوادي، لا أعرف - لا أعرف. يبدو الأمر كما لو أن بعض الأشباح القديمة من المحيط الميت في الأسفل تطارده وتمزج الهواء بالتعاسة، إنه غامض مثل الحزن الخفي، لا أعرف كنهه لكنني أراه وأشعر به في الناس هنا».

شعر آدم برجفة في جسده: «لقد تذكرت للتو أنني وعدت زوجتي بالعودة مبكراً. كاثي، زوجتي، ستنجب طفلاً».

«لكن ليزا تعد الطعام».

«ستفهم عندما تخبرها عن الطفل. زوجتي تشعر بالضييق. أشكرك كثيراً على إخباري عن الماء».

«هل هذياني أشعرك بالإحباط؟»

«لا على الإطلاق. إنه طفلنا الأول، وهي في حالة بائسة».

بقي آدم طوال الليل مع أفكاره وفي اليوم التالي خرج إلى بوردونى وأصبح منزل سانشيز ملكه.



## الفصل 14

### 1

هناك الكثير لنقله عن الدولة الغربية في ذلك اليوم بحيث يصعب معرفة من أين نبدأ. يمكن لأمر واحد أن يطلق مائة أمر آخر. تكمن المشكلة في تحديد ما نود التحدث عنه أولاً.

لابد أنك تتذكر أن صموئيل هاملتون قال إن أولاده ذهبوا للرقص في مدرسة بيتش تري، حيث المدارس كانت آنذاك مراكز ثقافية. كانت الكنائس البروتستانتية في المدن تقاتل من أجل بقائها في بلد كانوا فيه من الوافدين الجدد. بينما كانت الكنيسة الكاثوليكية التي ظهرت أولاً على الساحة وترسخت بعمق تتربع براحة هناك. تم التخلي عن الإرساليات تدريجياً وتهدمت أسقفها واحتل الحمام مذابح الكنائس المجردة. تم إلقاء مكتبة بعثة سان أنطونيو (باللغتين اللاتينية والإسبانية) في مخزن للحبوب حيث التهمت الفئران الأغلفة المصنوعة من جلود الغنم. أما في البلدة فقد كان مستودع الفن والعلوم هو المدرسة وكان المعلم يحمي ويحمل شعلة التعلم والجمال.

كانت المدرسة مكان التقاء الموسيقى والنقاشات. تم تخصيص صناديق الاقتراع في المدرسة للانتخابات. النشاطات الاجتماعية، سواء كانت تنويع ملكة جمال، أو تأبين رئيس ميت، أو حفلة راقصة تمتد طوال الليل، لا يمكن أن تقام في أي مكان آخر. ولم يكن المعلم فقط نموذجاً فكرياً وقائداً اجتماعياً، بل كان أيضاً صيداً ثميناً للزواج في الريف. كان يحق للعائلة التي يتزوج أحد

أبنائها من معلّمة أن تمشي بفخر، لأنه كان من المتوقع أن أطفالهما سيتمتعون بمزايا فكرية موروثة ومشروطة.

لم يكن مقدّرًا لبنات صموئيل هاملتون أن يصبحن زوجات مزارعين منهكات في العمل، كن فتيات جميلات وحملن معهن وهج أسلافهن من ملوك أيرلندا، كن يحملن كبرياء يتجاوز فقرهن. لم يشعر أحد أنهن مستحقات للشفقة، فقد قام صموئيل بتربية سلالة متفوقة بشكل واضح. لقد كن متفوقات في القراءة وأفضل من معظم معاصريهن. لقد نقل صموئيل إليهن حب التعلم وقام بتمييزهن عن الجهلاء المتبجحين في عصرهم. أصبحت أوليف هاملتون معلمة. هذا يعني أنها غادرت المنزل في سن الخامسة عشرة وذهبت للعيش في ساليناس حيث يمكنها ارتياد المدرسة الثانوية. في السابعة عشرة تقدمت لامتحانات مجلس المقاطعة والتي شملت جميع الفنون والعلوم، وفي الثامنة عشرة تم تعيينها في مدرسة في بيش تري.

في مدرستها كان هناك تلاميذ أكبر منها سنًا. تطلب الأمر منها براعة كبيرة لتكون معلمة جيدة. كان الحفاظ على النظام بين الأولاد الكبار غير المنضبطين بدون سوط الثور عملاً صعباً وخطيراً، في مدرسة أخرى في الجبال اغتصب التلاميذ معلمة.

لم يكن على أوليف هاملتون تعليم كل شيء فحسب، بل كان عليها فعل ذلك لجميع الأعمار. قلة قليلة من الشباب كانوا يتجاوزون الصف الثامن في تلك الأيام، ومع التزامهم بأعمالهم في المزارع استغرق بعضهم أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا لإتمام ذلك. كان على أوليف أيضًا ممارسة الطبابة الأساسية حيث كانت هناك حوادث مستمرة. قامت بخياطة جروح سكين بعد شجار في باحة المدرسة، وعندما تعرض صبي صغير حافي القدمين للدغة أفعى كان عليها أن تمتص إصبع قدمه لسحب السم منه.

كانت تعلّم القراءة للصف الأول والجبر للثامن، وتقود فرقة الغناء، وتعمل



ناقدة للأدب، وترسل مقالات اجتماعية أسبوعياً إلى صحيفة ساليانس. بالإضافة إلى ذلك كانت الحياة الاجتماعية بأكملها في المنطقة بين يديها، ليس فقط تمارين التخرج، ولكن الحفلات الراقصة، والاجتماعات، والمناظرات، والكورال، ومهرجانات عيد الميلاد وعيد العمال، وذكرى يوم الزخرفة والرابع من يوليو<sup>(1)</sup>. كانت عضواً في مجلس الانتخابات وترأست المؤسسات الخيرية وجمعتها معاً. لم يكن عملاً سهلاً، وكان مسؤوله عن واجبات والتزامات لا تصدق. لم تكن للمعلمة حياة خاصة، كانت تتم مراقبتها للعثور على أي عيب في شخصيتها. لم تستطع الإقامة مع عائلة واحدة لأكثر من فصل دراسي، لأن ذلك من شأنه أن يخلق الغيرة، حيث كانت الأسرة تكتسب الصدارة الاجتماعية من خلال إقامة المعلمة معها. إذا كان الابن القابل للزواج ينتمي إلى الأسرة التي كانت تقيم فيها، فإن طلب الزواج كان تلقائياً؛ وإذا كان هناك أكثر من خاطب مرشح، تقع معارك شرسة للحصول عليها. كاد أولاد أسرة آغيتا، ثلاثة أخوة، أن يصلوا للموت وهم يتعاركون على أوليف هاملتون. بالإضافة لهذا كله نادراً ما استمرت المعلمات لفترة طويلة للعمل في مدارس البلدة، فقد كان العمل شاقاً للغاية وطلبات الزواج مستمرة لدرجة أنهن كن يتزوجن في فترة زمنية قصيرة جداً.

كانت هذه دورة قررت أوليف هاملتون أنها لن تأخذها. لم تكن تشارك والدها حماسه الفكري، لكن الوقت الذي أمضته في ساليانس جعلها تطمح لأن تكون أكثر من مجرد زوجة ريفية. أرادت أن تعيش في مدينة، ربما ليست

---

(1) يوم الزخرفة (أصبح يسمى يوم التأيين) هو يوم عطلة يتم الاحتفال به في الولايات المتحدة في الاثنين الأخير من شهر مايو بهدف تكريم وإحياء ذكرى الرجال والنساء الذين لقوا حتفهم أثناء خدمتهم في الجيش الأمريكي و/أو دفاعهم عن بلادهم. في الاحتفال الأول لهذه الذكرى قام 5000 مشارك بتزيين قبور 20 ألف جندي من قتلى الحرب الأهلية المدفونين هناك. الرابع من يوليو هو ذكرى الاستقلال الأمريكي حيث تم اعتماد وثيقة إعلان الاستقلال في 4 يوليو من عام 1776، مُعلنة استقلالها عن بريطانيا العظمى.

كبيرة مثل ساليناس ولكن على الأقل ليس في مفترق طرق. في ساليناس  
اختبرت أوليف تفاصيل الحياة، الجوقة والملابس، ونقابة المذبح في الكنيسة.  
لقد شاركت في الفنون - الفرق المسرحية وحتى الأوبرا بسحرها ووعدتها  
بعالم مختلف بالخارج. ارتادت الحفلات، وتبارت في الأغاز، وتنافست في  
قراءات الشعر، وانضمت إلى جوقة وأوركسترا. لقد أغرتها ساليناس. هناك  
بإمكانها أن تذهب إلى حفلة مرتدية ملابس حفلات وتعود إلى المنزل في نفس  
الفستان، بدلاً من لف ملابسها في حقيبة وركوب عربة لعشرة أميال ثم فتحها  
وكويها.

على الرغم من أنها كانت مشغولة بعملها في التدريس، إلا أن أوليف كانت  
تتوق إلى الحياة المتحضرة، وعندما تقدم الشاب الذي بنى مطحنة الدقيق في  
مدينة كينغ سيتي لطلب الزواج منها، قبلته بشرط البقاء مخطوبين لفترة طويلة  
وبشكل سري. كانت السرية مطلوبة لأنه لو كان الأمر معروفاً، فستحدث  
مشاكل بين الشباب في الحي.

لم تكن أوليف تتمتع بذكاء والدها لكن كان لديها جانب المرح إلى جانب  
إرادة والدتها القوية والثابتة. كانت تغرس الكثير من الجمال والقوة في حناجر  
تلاميذها المترددين.

كان هناك جدار سميك ضد التعلم، فالآباء أرادوا أن يتعلم أبنائهم القراءة  
فحسب، وكان ذلك كافياً، لأن المزيد قد يجعلهم غير راضين عن واقعهم وقد  
يدفعهم للهجرة. كان هناك الكثير من الأمثلة التي أثبتت لهم أن التعليم يجعل  
الأبناء يغادرون الحقل ليعيشوا في المدينة - لأنهم يشعرون أنهم أصبحوا  
أفضل من آبائهم. لكن تعلم ما يكفي من العمليات الحسابية والاستفادة منها  
في قياس الأرض والأخشاب والاحتفاظ بالحسابات، تعلم الكتابة بشكل  
تممكن لطلب البضائع والكتابة إلى الأقارب وقراءة الصحف والتقويمات  
والمجلات الزراعية، تعلم الموسيقى بشكل محترف للمشاركة في العروض

الدينية والوطنية - هذه الأمور تساعد الأبناء لا تضلّهم. كان التعلم مقتصرًا على الأطباء والمحامين والمعلمين ولم يتم اعتباره مرتبطًا بالآخرين. على الرغم من ذلك كانت هناك بعض الأمثلة الشاذة بالطبع، صموئيل هاملتون مثلاً، كان محبوبًا من الجميع، لكن إذا لم يكن قادرًا على حفر بئر، أو إصلاح حدوة حصان، أو تشغيل آلة دراسة الحنطة، فالرب يعلم ما الذي كان يمكن أن تتركه هذه الأسرة من انطباع.

تزوجت أوليف من خطيبها الشاب وانتقلت معه أولاً إلى باسو روبلز، ثم إلى كينغ سيتي، وأخيراً إلى ساليناس. كانت تمتلك حدس قطة، وأفعالها مبنية على المشاعر وليس الأفكار. لديها ذقن أمها وأنفها الثابت وعينا والدها الجميلتان. كانت الأكثر وضوحاً وثباتاً من بين أي من أفراد عائلتها باستثناء والدتها. كان لاهوتها مزيجاً غريباً من الجنّيات الإيرلندية ويهوه في العهد القديم الذي ظنته والدها في حياتها لاحقاً. كانت الجنة بالنسبة لها مزرعة منزلية جميلة يسكنها أقاربها الموتى، وقامت بمحو الحقائق الخارجية ذات الطبيعة المحبطة ورفضت الإيمان بها، وعندما تقاوم فكرة ما عدم تصديقها لها تصب جام غضبها فيها. قيل إنها بكت بمرارة لأنها لم تستطع الذهاب إلى حفلتين راقصتين في ليلة سبت واحدة. كانت إحداهما في غرينفيلد والأخرى في سان لو كاس - على بعد عشرين ميلاً. إن الذهاب إلى الحفّتين معا ومن ثم العودة إلى المنزل يستلزم ركوب الخيل لمسافة ستين ميلاً. كانت هذه حقيقة لم تستطع أن تغضب منها بسبب عدم الإيمان بها، بالنتيجة بكت بغضب ولم تذهب.

مع تقدمها في السن طورت طريقة عشوائية للتعامل مع الحقائق غير السارة. عندما كنتُ، ابنها الوحيد، في السادسة عشرة من عمري أصبت بالالتهاب الرئوي، في ذلك الزمن كان هذا مرضاً قاتلاً. زاد المرض حتى غطت أطراف أجنحة الملائكة عيني. استخدمت أوليف طريقتها في علاج الالتهاب الرئوي

ونجحت. صلى القس معي ومن أجلي، رفعتني راهبات الدير المجاور لمنزلنا نحو السماء مستغيثات لنيل الشفاء مرتين في اليوم، وكان أحد أقاربنا البعيدين، وهو قارئ للعلوم المسيحية، من أتى بالفكرة لعلاجي. تم إحضار كل تعويذة وسحر وصيغة عشبية معروفة، وأحضرت لي ممرضتين جيدتين وأفضل أطباء المدينة، وكانت طريقتهما ناجحة فأصبحت بخير. كانت امرأة محبة وحازمة مع عائلتها، ثلاث فتيات وأنا، دربتنا على الأعمال المنزلية وغسل الأطباق والملابس، وربتنا على التحلي بالأخلاق الحسنة. كانت عندما تغضب تجعل بنظرة منها أي طفل يصبح شاحباً كما لو كان لوزاً مسلوفاً.

عندما تعافيت من الالتهاب الرئوي كان الوقت قد حان للعودة للمشي، ذلك أنني كنت قد أمضيت تسعة أسابيع في سريري وقد ضمرت عضلاتي والخمول قد تمكن مني. عندما بدأت بذلك بالاستعانة بالمساعدة كان كل عصب في جسدي يبكي من الوجع، والجرح الذي تم فتحه لتصريف القيح من التجويف الجنبي يؤلمني بشكل رهيب. عدت إلى الفراش وأنا أبكي: «لا يمكنني فعل ذلك! لا أستطيع النهوض!»

عالجتني أوليف بنظرتها تلك: «انهض!» قالت. «لقد عمل والدك طوال اليوم وبقي مستيقظاً طوال الليل. لقد أصبح غارقاً في الديون من أجلك. والآن انهض!»

ونهضت.

كان الدين كلمة قبيحة ومفهوماً قبيحاً لأوليف. الفاتورة غير المسددة بعد اليوم الخامس عشر من الشهر كانت ديناً. كانت للكلمة دلالات على القذارة والعار. أوليف التي كانت تؤمن بقوة أن عائلتها كانت الأفضل في العالم، لم تسمح لها أن تتورط بالديون. لقد زرعت الرعب من الديون بعمق في أطفالها لدرجة أنه حتى الآن، مع النمط الاقتصادي المتغير حيث المديونية أصبحت جزءاً من الحياة، مازالت تقلق عندما تتأخر عن دفع الفاتورة ليومين. لم تقبل

أوليف أبداً خطط الدفع عندما أصبحت شائعة. كانت تؤمن بأن ما يتم شراؤه بهذه الطريقة لا يصبح ملكك بل تصبح مدينًا به. بالنتيجة بقيت تدخر من أجل الأشياء التي أرادتها، وهذا يعني أن الجيران كانوا يحصلون على الأشياء جديدة قبل عامين منا.

## 2

كانت أوليف تمتلك شجاعة عظيمة، ربما لأن تربية الأطفال تتطلب شجاعة. يجب أن أخبركم بما فعلته بشأن الحرب العالمية الأولى. لم يكن تفكيرها دوليًا. كانت حدودها الأولى هي جغرافية عائلتها، تليها بلدتها ساليناس، وفي النهاية كان هناك خط منقط غير محدد بوضوح، وهو خط المقاطعة، وبالتالي هي لم تكن تؤمن بالحرب تمامًا، حتى عندما تم استدعاء قوات سلاح الفرسان التابع لنا، وحملوا خيولهم في قطار وانطلقوا إلى العالم المفتوح.

عاش مارتن هوبس بالقرب منا. رجل عريض وقصير وأحمر الشعر. كان فمه واسعًا وعينه حمراوين. كان تقريباً الفتى الأكثر خجلاً في ساليناس. إن قول صباح الخير له كان بمثابة جعله يشعر بالحكة في الوعي. انضم إلى قوات سي، لأن مستودع الأسلحة كان به ملعب كرة سلة. لو كان الألمان يعرفون أوليف وكانوا عاقلين لبذلوا قصارى جهدهم كي لا يغضبوها. لكنهم لم يعرفوها أو كانوا أغبياء. عندما قتلوا مارتن هوبس خسروا الحرب لأن ذلك جعل والدتي غاضبة واهتمت بأمرهم لأنها كانت تحب مارتن هوبس، فهو لم يؤذ أحداً قط، وعندما قتلوه أعلنت أوليف الحرب على الإمبراطورية الألمانية.

بحثت عن سلاح لأن حياكة الخوذات والجوارب لم تكن مميّزة بما يكفي بالنسبة لها. ارتدت لبعض الوقت زي الصليب الأحمر وقابلت سيدات أخريات يرتدين ملابس مماثلة في مستودع الأسلحة حيث تم لف الضمادات وتفكيك السمعات، كل ذلك لا بأس به لكنه لم يكن ليخترق قلب القيصر،

وأوليف أرادت الثأر من أجل حياة مارتن هوبس. ثم وجدت سلاحها في ليبرتي بوندز<sup>(1)</sup>. لم تكن آنذاك قد باعت أبدًا أي شيء في حياتها بخلاف الكعك في قبو الكنيسة، لكنها بدأت في بيع السندات بالحزم. لقد أضافت الشراسة إلى عملها وجعلت الناس يقبلون على شرائها، كانت أوليف تمنحهم إحساساً بالمشاركة في القتال بشرائهم السندات وغرس حربة في قلب ألمانيا.

مع ارتفاع مبيعاتها واستمرارها بدأت وزارة الخزانة في ملاحظة هذه المحاربة الجديدة. في البداية بدأت تتسلم خطابات الشناء المطبوعة، ثم الرسائل الحقيقية الموقعة من قبل وزير الخزانة، وليس بختم مطاطي. كنا فخورين ولكن هذا الفخر قلّ عندما بدأت المكافآت تصل، خوذة ألمانية (صغيرة جدًا على أي منا)، حربة، قطعة خشنة من شظايا مثبتة على قاعدة من خشب الأبنوس. ونظرًا لأننا لم نكن مؤهلين للقتال بخلاف السير بالبنادق الخشبية بدا أن حرب أمنا كان يفى بالعرض. ثم تفوقت على نفسها وتفوقت على الجميع في منطقتنا من البلاد. ضاعفت رقمها القياسي الرائع أربع مرات وحصلت على أرفع جائزة على الإطلاق - رحلة في طائرة عسكرية.

أوه كم كنا فخورين! حتى بشكل غير مباشر كانت هذه مكانة مرموقة لم تتمكن من استيعابها. لكن أمي المسكينة - يجب أن أخبركم أن هناك أشياء معينة لم تكن أمي تؤمن بها حتى بوجود أي دليل على عكس ذلك. كان أحدها

---

(1) تم إطلاق برنامج Liberty Bonds أو سندات الحرية، بموجب قانون صادر عن الكونجرس حيث بموجه يقرض الأمريكيون الأموال للحكومة بشكل أساسي بهدف المساعدة في دفع تكاليف العمليات العسكرية في زمن الحرب، وبعد عدد معين من السنوات، يستعيد أولئك الذين استثمروا في هذه السندات أموالهم إضافة إلى الفائدة. أنشأت الحكومة هذه السندات كجزء مما عُرف ببرنامج «قرض الحرية»، وهو جهد مشترك بين وزارة الخزانة الأمريكية ونظام الاحتياطي الفيدرالي الذي تم إنشاؤه في عام 1914، وروجت الحكومة الفيدرالية لهذه الأوراق المالية كطريقة للمواطنين الأمريكيين لإظهار روحهم الوطنية ودعم الأمة وجيشها.

أن يكون هناك فرد من آل هاملتون سيئاً، والآخر كان الطائرة، وحقيقة رؤيتها للطائرات لم تجعلها تؤمن بها حتى قليلاً.

في ضوء ذلك كنت أحاول تخيل شعورها. لا بد أن روحها كانت تزحف رعباً، كيف تطير في شيء غير موجود؟ كعقوبة كان من الممكن أن تكون الرحلة قاسية وغير عادية، لكنها كانت جائزة وهدية وشرفاً وتقديراً. لا بد أنها نظرت في أعيننا ورأت ذلك البريق وأدركت أنها محاصرة وأن عدم ذهابها كان سيخذل عائلتها. كانت محاصرة ولم يكن هناك مخرج مشرف سوى الموت. بمجرد أن قررت الصعود في الشيء غير الموجود بدا أنها لم تكن واثقة من أنها كانت ستنجو.

كتبت أوليف وصيتها - استغرق ذلك الكثير من الوقت وفحصتها للتأكد من أنها قانونية. ثم فتحت صندوقها المصنوع من خشب الورد حيث كانت تحتفظ بالرسائل التي كتبها لها زوجها في فترة الخطوبة. لم نكن نعلم أنه كان يكتب لها الشعر، لكنه فعل. أشعلت ناراً في الموقد وأحرقت كل رسالة كانت مرسلة لها ولم ترغب في أن يراها أي إنسان آخر. اشترت ملابس داخلية جديدة. كانت تشعر بالرعب من العثور عليها ميتة بملابس داخلية مرتقة، أو الأسوأ من ذلك؛ غير مرتقة.

أعتقد أنها ربما تذكرت الفم العريض الملتوي والعينين المُحرجتين لمارتن هويس وهما تنظران لها وشعرت أنها كانت تعوضه بطريقة ما عن حياته المسروقة. أصبحت لطيفة للغاية معنا لدرجة أنها لم تلاحظ بقعة دهنية على منشفة الأطباق تركها صحن مغسول بشكل سيء.

كان من المقرر أن يتم هذا المجد في حلبة ساليناس. تم قيادتنا إلى الحلبة في سيارة عسكرية، وشعرنا بقدر من الجدية والتقدير تفوق جنازة جيدة. كان والدنا يعمل في مصنع سكر على بعد خمسة أميال من المدينة ولم يستطع الحضور، أو ربما لم يرغب في ذلك، خوفاً من عدم قدرته على تحمل الضغط.

لكن أوليف أجرت الترتيبات وأوصت أن تطير بها الطائرة بعيداً عن مصنع السكر قبل تحطمها.

أدرك الآن أن عدة مئات من الأشخاص الذين تجمعوا جاءوا ببساطة لرؤية الطائرة ولكن في ذلك الوقت اعتقدنا أنهم كانوا هناك لتكريم والدتي. لم تكن أوليف امرأة طويلة وفي ذلك العمر كانت قد بدأت في اكتساب الوزن. كان علينا مساعدتها للخروج من السيارة. ربما كانت متييسة من الخوف لكن ذقتها الصغير كان ثابتاً.

وقفت الطائرة في الميدان الذي تم وضع مضمار السباق حوله. كانت صغيرة بشكل مخيف - قمرة القيادة المفتوحة والدعامات الخشبية والمربوطة بأسلاك البيانو، والأجنحة المغطاة بالقماش.

صعدت أوليف، مشت إلى جانب الطائرة كما يمشي ثور نحو سكين. كانت مقتنعة أن الملابس التي كانت ترتديها هي ملابس الدفن، ألبسها الرقيبان معطفين، معطف مبطن ومعطف طيران، وأصبحت أكثر استدارة مع كل طبقة. ثم ارتدت خوذة ونظارات واقية من الجلد ليظهر أنفها الصغير وخداها الورديان، بدت وكأنها كرة ترتدي النظارات الواقية. قام الرقيب برفع جسدها في قمرة القيادة ووثقوها في الداخل. ملأت الفتحة بالكامل. عندما ربطوها بداخلها عادت للحياة فجأة وبدأت تلوح بجنون. صعد أحد الجنود واستمع إليها، وتقدم إلى أختي ماري وقادها إلى جانب الطائرة. كانت أوليف تسحب قفاز الطيران السميك المبطن على يدها اليسرى. حررت يديها، وخلعت خاتم خطوبتها المصنوع من الماس الصغير وسلمته إلى ماري. ارتدت خاتم زواجها الذهبي بحزم ولبست القفازات مرة أخرى وواجهت الجبهة. صعد الطيار إلى قمرة القيادة الأمامية وألقى أحد الرقباء بثقله على المروحة الخشبية. تحركت السفينة الصغيرة بعيداً واستدارت ثم زمجرت وحلقت في الهواء. كانت أوليف تبدو وكأنها تنظر إلى الأمام مباشرة، ربما كانت عيناها مغمضتين.



تبعناها بأعيننا وهي تنجرف مبتعدة، تاركة وراءها صمتًا وحيدًا. لجنة السندات والأصدقاء والأقارب والمتفرجون البسطاء غير المشهورين ممن لم يفكروا في مغادرة الميدان. أصبحت الطائرة بقعة في السماء واختفت. مرت خمس عشرة دقيقة قبل أن نراها مرة أخرى وهي تحلق بهدوء. ثم بدا لرعبنا أنه يترنح ويسقط إلى ما لا نهاية، تماسك، تعلو، تدور في حلقة، كان هذا يحدث بينما أحد الرقباء يضحك. استقرت الطائرة للحظة ثم بدت وكأنها جنت، تدرجت وقامت بمناورات إميلمان الحربية، وحلقات داخلية وخارجية، وحلقت فوق الحقل رأسًا على عقب. كان بإمكاننا رؤية النقطة السوداء التي كانت خوذة أمانا. قال أحد الجنود بهدوء: «أعتقد أنه أصيب بالجنون، إنها ليست شابة».

هبطت الطائرة بثبات وسارت نحو المجموعة. انطفأ المحرك وقفز الطيار للخارج وهو يهز رأسه في حيرة. قال: «أقوى امرأة رأيتها في حياتي». مد يده وصافح يد أوليف المتوترة ومشى بعيدًا على عجل.

استغرق الأمر أربعة رجال ووقتًا طويلًا لإخراج أوليف من قمرة القيادة. كانت جامدة لدرجة أنهم لم يتمكنوا من ثنيها. أخذناها إلى المنزل ووضعناها في الفراش ولم تنهض لمدة يومين.

ما حدث وصل إلينا ببطء، تحدث الطيار عن بعض التفاصيل وتحدثت أوليف عن البعض الآخر، وكان يجب وضع القصتين معًا قبل أن تكونا منطقيتين. لقد طار بالطائرة ودار حول مصنع السكر كما طلب منه - دار حوله ثلاث مرات حتى يتأكد من رؤية والدنا لها، ثم فكر الطيار في مزحة دون قصد أي ضرر. صرخ قائلاً شيئاً وبدا وجهه ملتويًا. لم تعد أوليف تسمع ضجيج المحرك. حد الطيار من السرعة وصرخ: «ألعاب بهلوانية؟» كانت نوعا من المزاح. نظرت أوليف إلى وجهه ويبدو أن التيار شوّه الكلمة وظنت أنه يقول

إنهما أصبحا «عالقين».<sup>(1)</sup> هنا تيقنت أن الأمر كما ظنت تمامًا؛ هنا كان موتها. ومض عقلها ليرى ما إذا كانت قد نسيت أي شيء - تم حرق الرسائل، ملابس داخلية جديدة، الكثير من الطعام في المنزل لتناول العشاء. تساءلت عما إذا كانت قد أطفأت الضوء في الغرفة الخلفية. مرّ كل شيء في ذهنها في ثانية. ثم اعتقدت أنه قد تكون هناك فرصة للبقاء على قيد الحياة. من الواضح أن الجندي الشاب كان خائفًا، وقد يكون الخوف أسوأ ما يمكن أن يحدث له في التعامل مع الموقف. لو كانت أفسحت المجال للذعر الذي أصاب قلبها بالظهور ل زاد ذلك من اضطرابه، وعليه قررت تشجيعه. ابتسمت وأومأت برأسها لتمنحه الشجاعة، وخلال ثوانٍ كان قاع العالم يسقط فوقهما. عندما انتهى من استعراض حلقة البهلوانية نظر الطيار إلى الورا مرة أخرى وصرخ «المزيد؟». كانت أوليف بعيدة عن سماع أي شيء ولكن ذقنها بقي ثابتًا وكانت مصممة على مساعدة الطيار حتى لا يغلبه الهلع قبل الاصطدام بالأرض. ابتسمت وأومأت له مجددًا. في نهاية كل حيلة كان يعود للنظر إلى الورا وفي كل مرة كانت بابتسامتها تدفعه للمزيد. بعد ذلك قال مرارًا وتكرارًا: «إنها أقوى امرأة رأيتها في حياتي. لقد كسرت كل القوانين وأرادت المزيد. يا إلهي، لربما كان بإمكانها أن تصبح طيارة استثنائية!

(1) بسبب تشابه نطق الكلمتين Stunt وتعني الألعاب البهلوانية، و Stuck وتعني عالق.

## الفصل 15

### 1

جلس آدم على أرضه مثل قط مسترخ. من المدخل إلى حيث شجرة البلوط العملاقة والتي غمرت جذورها المياه الجوفية، كان بإمكانه النظر إلى الأفدنة الممتدة إلى حيث النهر وعبر المسطح ثم صعوداً إلى التلال المستديرة على الجانب الغربي. كان مكاناً رائعاً حتى في الصيف عندما كانت الشمس تغمره. سلسلة من الصفصاف والجميز تطوّقانه في الوسط، وكانت التلال الغربية صفراء بنية. لسبب ما تغطي الجبال الواقعة في الغرب من وادي ساليناس قشرة أرضية أكثر سمكاً من تلك الموجودة في السفوح الشرقية، بحيث يكون العشب أكثر ثراءً هناك. ربما تخزن القمم المطر وتوزعه بالتساوي، وربما بسبب وجود غابات أكثر فيها فإنها تجتذب المزيد من الأمطار.

كان القليل جداً من أراضي سانشيز - التي أصبحت أراضي تراسك - مزروعة، لكن آدم كان ينوي رؤية القمح ومربعات البرسيم الأخضر تنمو بالقرب من النهر. كان يسمع من خلفه ضجيج آلات النجارين الذين جلبهم من ساليناس لإعادة بناء منزل سانشيز القديم. لقد قرر آدم العيش في المنزل القديم، اختار هذا المكان لزراع سلالته فيه. تم كشط السماد، وتمزيق الأرضيات القديمة وإطارات النوافذ واستبدالها بخشب جديد جميل، خشب الصنوبر الحاد مع الراتنج والخشب الأحمر المخملي وسقف جديد من قطع الخشب الطويلة والمقسمة. تم طلاء الجدران السميكة القديمة بطبقة تلو الأخرى من الطلاء

الأبيض المصنوع من الجير والماء المالح، والتي عندما تجف، يظهر لها لمعان خاص بها.

خطط لإقامة دائمة على هذه البقعة. قام البستاني بقص الورود القديمة ووزع نباتات إبرة الراعي، خصص منطقة لزراعة الخضار، وأحيا الربيع في قنوات صغيرة تناسب ذهاباً وإياباً عبر الحديقة. تنبأ آدم بالراحة لنفسه وذريته. في سقيفة مغطاة بالقماش المشمع وضع الأثاث الثقيل المعبأ في الصناديق المرسلة من سان فرانسيسكو وتم نقله من كينغ سيتي.

كان يحظى بحياة جيدة. قام لي - طباخه الصيني ذو الصفائر - برحلة خاصة إلى باجارو لشراء الأواني والغلايات والمقالي والبراميل والجرار والنحاس والزجاج لمطبخه. كان يبني حظيرة خنازير جديدة بعيداً عن المنزل وفي اتجاه الريح، وأبقى الدجاج والبط بالقرب من المنزل ومأوى للكلاب لإبعاد الذئب. لم يكن أمراً سريعاً فكر فيه آدم وأنهاه على عجل، عمل رجاله بشكل مدروس وببطء. كانت مهمة طويلة. أراد آدم عملاً متقناً وكان يقوم بتفقد كل مفصل خشبي، ويتوقف لرؤية عينات الطلاء على لوح خشبي. في زاوية غرفته تراكتت الكتالوجات - كتالوجات للآلات، الأثاث، البذور وأشجار الفاكهة. في هذا الوقت كان يشعر بالسعادة لأن والده تركه رجلاً ثرياً. كانت الأفكار السوداوية تتسلل إلى ذهنه أحياناً وتأخذه إلى ذكريات ولاية كونيتيكت. ربما الضوء الساطع للغرب بدأ بطمس مسقط رأسه. عندما عاد بذهنه إلى منزل والده، إلى المزرعة، البلدة، وجه أخيه، كان هناك سواد يغطيها كلها.. وهكذا نفص كل الذكريات.

قام مؤقتاً بنقل كاثي إلى منزل بوردوني الاحتياطي النظيف والمطلي باللون الأبيض لانتظار الانتهاء من ترتيب المنزل الرئيس وولادة الطفل. لم يكن هناك شك في أن الطفل سيولد قبل أن يصبح المنزل جاهزاً. مع ذلك لم يتسرع.

كان يكرر: «أريده أن يُبنى بقوة، أريده أن يدوم - مسامير نحاسية وخشب صلب - لا يصدأ ويتعفن».

لم يكن وحده منشغلاً بالمستقبل، كان الوادي كله، بل الغرب كله، هكذا. لقد كان الوقت الذي فقد فيه الماضي حلاوته. كنت تقطع طريقاً طويلاً جيداً قبل أن تتعثر برجل يرغب في استعادة الماضي الذهبي وسيكون هذا الرجل طاعناً في السن. كان الرجال منسجمين ومرتاحين مع الحاضر الذي كان قاسياً وغير مثمر كما كان، ولكنه فقط بوابة من أبواب المستقبل الرائع. نادراً ما التقى رجلاً، أو وقف ثلاثة في حانة، أو دزينة منهم لقضم لحم الغزال القاسي في المخيم. المستقبل المشلول للوادي لم يأت، ليس على سبيل التخمين ولكن على سبيل اليقين.

«سيأتي - من يدري؟ ربما في حياتنا» هكذا كانوا يقولون.

وجد الناس السعادة في آمال المستقبل حسب افتقارهم الحالي. وهكذا كان من الممكن للرجل أن يأتي بأسرته من مزرعة فوق التل في صندوق كبير مسمر على إطارين من خشب البلوط، ويجرها عبر التلال المتعرجة. في الصندوق كانت زوجته تمسك بالأطفال لحمايتهم عند اصطدام الاطارات بالحجارة والأرض مما يؤدي إلى احتمال تحطم أسنانهم وعض ألسنتهم. كان الأب حينها يفكر: «عندما يتم تشييد الطرق سنجلس سعداء في عربة مريحة ونذهب إلى كينغ سيتي في غضون ثلاث ساعات - ما الذي نحتاجه أكثر من ذلك في العالم؟»

أو تأمل آخر يتفقد بستانه المليء بأشجار البلوط الحية والقاسية كما الفحم والأكثر سخونة، أفضل حطب للنار في العالم. قد تكون في جيبه صحيفة بها عبارة سخريّة: «خشب البلوط يحقق عشرة دولارات للحزمة في لوس أنجلوس» «بحق الجحيم، عندما تفتح شركة سكة الحديد فرعاً هنا يمكنني عرضها بشكل أنيق، ومكسور ومرتب، بجوار المسار مباشرةً ومقابل دولار ونصف للحزمة فقط، فلنقل إن شركة النقل ستقاضى ثلاثة وخمسين لحمله، هذا يعني أن الحزمة الواحدة تكلف خمسة دولارات، وهناك ثلاثة آلاف حزمة في ذلك البستان الصغير وحده. هذه خمسة عشر ألف دولار.

كان هناك آخرون - جباههم تبارق بأشعة نورانية - ممن تنبأوا عن الخنادق التي قد تحمل الماء إلى جميع أنحاء الوادي - من يدري؟ ربما في حياتنا - أو في الآبار العميقة ذات المحركات البخارية لضخ المياه من أحشاء العالم. هل يمكنك أن تتخيل؟ فقط فكر فيما ستفعله هذه الأرض بالكثير من الماء! ستكون حديقة هائلة!

قال آخر، وكان مجنوناً، إنه يوماً ما ستكون هناك طريقة، ربما بالثلج أو بطريقة أخرى، للحصول على خوخ مثل هذا الذي في يدي في فيلادلفيا. في البلدات كان الحديث يدور حول شبكات المجاري والمراحيض الداخلية، وبعضهم كان قد امتلكها بالفعل، والأنوار القوسية على زوايا الشوارع - وكانت موجودة في ساليانس - ثم الهواتف. لم تكن هناك أية حدود على الإطلاق للمستقبل. وذلك لكيلا يجد الرجل مساحة لتخزين سعادته.

نظروا إلى الوادي الترابي المسطح الجاف وبلدات الفطر القبيحة ورأوا جمالاً محتملاً - من يدري؟ ربما يكون في حياتنا. هذا أحد الأسباب التي تجعلك لا تضحك كثيراً على صامويل هاملتون. لقد سمح لعقله أن يسافر ويسرح بشكل لذيذ أكثر من أي إنسان آخر، ولم يبد الأمر سخيفاً جداً عندما سمعنا ما كانوا يفعلونه في سان هوزيه. فقد صموئيل عقله عندما كان يتساءل عما إذا كان الناس سيكونون سعداء عندما يأتي كل ذلك.

سعداء؟ دعنا نحصل عليه فقط، وسنظهر لك السعادة.

تذكر صموئيل سماعه عن ابن عم والدته في إيرلندا، وهو فارس وثري ووسيم، أطلق النار على نفسه بينما هو جالس على أريكة حريرية بجانب أجمل امرأة في العالم تحبه.

قال صموئيل: «هناك شهية لا يمكن للأرض والسماء أن تشبعها»

وضع آدم تراسك بعضاً من سعادته في المستقبل، ولكنه كان يشعر بالرضا

عن حاضره أيضًا. كان يشعر بقلبه ينبض في حلقه عندما يرى كاثي جالسة في الشمس هادئة وهي حبلى بطفلهما الذي بدأ يكبر، وشفافية بشرتها تذكره بالملائكة المرسومين على بطاقات مدرسة الأحد<sup>(1)</sup>. ثم يحرك النسيم شعرها اللامع أو ترفع عينيها، وتمتلئ معدة آدم بنشوة أقرب الى الحزن.

لم يكن آدم وحده القط المسترخي على أرضه، كاثي أيضاً كانت تشبه القط. كانت تحمل السمة اللإنسانية للتخلي عما لم تستطع الحصول عليه وانتظار ما يمكن أن تحصل عليه. هاتان الهديتان منحتهما مزايا عظيمة. كان حملها دون رغبة منها، وعندما فشلت محاولتها في إجهاض نفسها وهددها الطيب، تخلت عن هذه الطريقة. لكن هذا لا يعني أنها تصالحت مع واقع الحمل. لقد انتظرت الانتهاء من الأمر برمته وكأنها تكمل علاجاً. كان زواجها من آدم غير بعيد عن ذلك أيضاً، كانت محاصرة في موقف صعب واتخذت أفضل طريقة ممكنة للخروج. لم تكن ترغب في الذهاب إلى كاليفورنيا أيضاً، لكن لم يكن بالإمكان اختيار أي خطط أخرى في الوقت الحالي.

عندما كانت طفلة صغيرة تعلمت الفوز باستخدام زخم خصمها. كان من السهل توجيه قوة الرجل حيث كان من المستحيل المقاومة. قلة قليلة من الناس في العالم كان بإمكانهم أن يشعروا أن كاثي لا تريد أن تكون في مكانها أو حالتها التي كانت عليها. بقيت مسترخية وانتظرت التغيير الذي كانت تعلم أنه لا بد أن يأتي في وقت ما. كانت كاثي تتمتع بالصفة الوحيدة المطلوبة لمجرم عظيم وناجح: لم تكن تثق بأحد مطلقاً، كانت أشبه بجزيرة. ربما لم تنظر حتى

---

(1) كانت المدرسة غير اليومية ابتكاراً في التعليم المسيحي اقترحه روبرت راكس في إنجلترا في ثمانينيات القرن الثامن عشر كوسيلة لتوفير التعليم العام للأطفال من الخلفيات الفقيرة. لم يكن التعليم آنذاك عالمياً أو مجانياً لذلك فكر راكس بتعليم القراءة والكتابة الأساسية باستخدام الكتاب المقدس ككتاب مدرسي في أيام الأحد، حيث كان العديد من الأطفال يعملون خلال الفترة المتبقية من الأسبوع. نمت الحركة بسرعة وانتشرت في الولايات المتحدة بحلول عام 1790.

إلى أرض آدم الجديدة أو منزل المبني الجديد، أو تحوّل خططه الشاهقة إلى واقع في ذهنها، لأنها لم تكن تنوي الاستمرار بالعيش هنا بعد انتهاء مرضها. لكنها نجحت في إعطائه إجابات مناسبة لأسئلته؛ كان القيام بما يعاكس ذلك تصرفاً أحق، وطاقة مشتتة، وأمرًا غريباً بالنسبة لقطعة جيدة.

«انظري يا حبيبتي كيف يبدو المنزل - النوافذ تطل على الوادي»  
«جميل».

«أتعلمين، قد يبدو الأمر أحق، لكنني أجد نفسي أحاول التفكير بالطريقة التي فعلها بها سانشيز العجوز قبل مائة عام. كيف كان الوادي آنذاك؟ لا بد أنه قد خطط بعناية. هل تعرفين أنه كانت لديه أنابيب؟ - كانت مصنوعة من الخشب الأحمر المثقوب لنقل المياه من النبع إلى الأسفل. لقد أخرجنا بعض القطع منها عند الحفر».

قالت «هذا رائع، لا بد أنه كان ذكيًا».

«أود أن أعرف المزيد عنه. عن طريقته في بناء المنزل، والأشجار التي تركها، شكل المنزل وتقسيمه، لا بد أنه كان فنانًا من نوع ما».

«لقد كان إسبانيًا، أليس كذلك؟ لقد سمعت أنهم فنانون. أتذكر في المدرسة عن رسام - لا، كان يونانيًا».

«أتساءل أين يمكنني التعرف على سانشيز العجوز».

«شخص ما لا بد أن يعرف».

«مع كل هذا العمل والتخطيط، كان بوردونى يحتفظ بالأبقار في المنزل. هل تعرفين أكثر ما أتساءل عنه؟»

«ماذا يا آدم؟»

«أتساءل عما إذا كانت لديه كاثي خاصة به، ومن تكون».

ابتسمت ونظرت إلى أسفل وابتعدت عنه «يا لهذه الأشياء التي تتفوه بها».



«لابد أن تكون لديه واحدة! يجب أن تكون هناك امرأة وراء ذلك. لم تكن لدي أبداً طاقة أو خطة أو - حسناً، حتى رغبة في العيش قبل مجيئك».

«آدم، أنت تحرجني. انتبه لا تهزني هذا مؤلم».

«أنا آسف، أنا أخرق جداً».

«لا لست كذلك. أنت فقط لا تفكر. هل تعتقد أن عليّ البدء بالحياكة أو الخياطة؟ أنا مرتاحة جداً لمجرد الجلوس».

«سنشتري كل ما نحتاجه. أنت اجلسي وكوني مرتاحة فحسب. أعتقد أنك بطريقة ما تعملين بجد أكثر من أي شخص هنا. لكن الأجر - الأجر رائع».

«آدم، أخشى أن الندبة الموجودة على جبهتي لن تختفي».

«قال الطبيب إنها ستلاشى في الوقت المناسب».

«يبدو أحياناً أنها تتلاشى، ثم تعود مرة أخرى. ألا تعتقد أنها تبدو أكثر قتامة

اليوم؟»

«لا أعتقد».

«ولكنها كذلك. تبدو وكأنها بصمة إبهام ضخمة». وأبعدت رأسها عندما

قرب إصبعه منها.

قالت: «لا تفعل، إنها حساسة للغاية وتتحول إلى اللون الأحمر بمجرد

لمسها».

«سوف تختفي. الأمر فقط يستغرق بعض الوقت، هذا كل شيء».

ابتسمت وهو يستدير نحوها، لكن عندما ابتعدت عيناها تنظران للفراغ.

كان جسدها يتحرك بقلق لأن الطفل أصبح ير كل. انتظرت بعض الوقت إلى أن

استرخت كل عضلاتها.

اقترب لي من حيث وُضع كرسيها تحت أكبر شجرة بلوط «الشاي الأنسة

تريد؟»

«نعم، أود ذلك».

تفحصته بعينها ولم ينجح تفحصها حتى في اختراق لون عينيه البنية الغامقة. كان لي يربكها. لطالما كانت كاثي قادرة على التنقيب في ذهن أي رجل ومعرفة دوافعه ورغباته. لكن دماغ لي كان محصناً. كان وجهه رشيقيًا ولطيفًا، جبهته عريضة وثابتة، وشفاته مرسومتان بابتسامة دائمة. ظفirate طويلة سوداء ولامعة ومربوطة في الأسفل بقطعة من الحرير الأسود، مستلقية على كتفه وتتحرك بشكل متناغم على صدره. كان يلقها فوق رأسه عندما يقوم بعمل عنيف. يرتدي سروالًا قطنيًا ضيقًا وحذاء أسود بدون كعب ورداء صينيًا ممثلًا برسومات الضفادع. كلما استطاع إخفاء يديه في أكمامه فعل كما لو كان خائفًا عليهما، كما كان يفعل معظم الصينيين في ذلك الزمن.

قال، «أنا أحضر طاولة صغيرة» وانحنى قليلًا، وذهب مبتعدًا.

نظرت إليه كاثي وهو يتعد وانخفض حاجبها في عبوس. لم تكن خائفة من لي، لكنها لم تكن مطمئنة له أيضًا. لكنه كان خادمًا جيدًا ومحترمًا - بل هو الأفضل. فيم يمكنه أن يضرها؟

## 2

تقدم الصيف وأنكمش نهر ساليناس إلى تحت الأرض في بقع معينة وبقي في بقع أخرى في برك خضراء تحت الضفاف العالية. كانت الماشية تنام طوال اليوم تحت أشجار الصفصاف ولا تتحرك إلا في المساء لتتغذى على العشب الذي أصبح بلون قريب من العنبر، ورياح الظهرية التي هبت على الوادي أطلقت غبارًا يشبه الضباب ورفعته إلى السماء، كانت تقريبًا بارتفاع قمم الجبال. كانت جذور الشوفان البرية تقف مثل رؤوس الزوج، وعلى طول الأرض المصقولة كانت قطع من القش والأغصان تعدو مع الريح إلى أن تصطدم بشيء ثابت في الأرض فيوقفها، حتى الحجارة الصغيرة كانت تندرج بفعل الرياح.

أصبح من الواضح أكثر من أي وقت مضى لماذا بنى سانثيز العجوز منزله في ذلك المكان، لأن الرياح والغبار لم يخترقانه، وبينما كان الربيع يغادر، كان ما يزال يتدفق لديه الماء الصافي البارد. لكن آدم شعر بالذعر وهو ينظر إلى أرضه الجافة المغطاة بالغبار، شعر بالذعر الذي يشعر به الرجل الشرقي دائماً في البداية في كاليفورنيا. في صيف ولاية كونيتيكت يعتبر مرور أسبوعين بدون مطر فترة جفاف. إذا لم يكن الريف أخضر فهو يعتبر ميتاً. لكن في ولاية كاليفورنيا لا تمطر عادة على الإطلاق بين نهاية مايو والأول من نوفمبر. يشعر الرجل الشرقي، على الرغم من علمه بذلك، بأن الأرض مريضة في الأشهر غير الممطرة.

أرسل آدم لي مع رسالة إلى منزل هاملتون ليطلب من صموئيل زيارته ومناقشة إمكانية حفر بعض الآبار في منزله الجديد.

كان صموئيل جالساً في الظل، يشاهد ابنه توم يصمم ويصنع فخاً مبتكراً، عندما اقترب لي وهو يقود عربة آدم تراسك. طوى لي أكمامه وانتظر. قرأ صموئيل المذكرة. قال: «توم، هل تعتقد أنه يمكنك البقاء في الورشة بينما أذهب سريعاً وأتحدث مع رجل بحاجة لحفر بئر؟»  
«لماذا لا أذهب معك؟ قد تحتاج إلى بعض المساعدة».

«تساعدني في الحديث؟ لا أحتاج مساعدتك في ذلك. أما العمل فسيستغرق البدء فيه بعض الوقت حسب خبرتي. فيما يتعلق بالآبار لا بد أن يكون هناك قدر كبير من الحديث - خمسمائة أو ستمائة كلمة لكل معجزة من التراب».  
«أود أن أذهب معك - إنه السيد تراسك، أليس كذلك؟ لم ألتق به عندما جاء إلى هنا».

«ستفعل عندما يبدأ الحفر. أنا أكبر منك وقد حصلت على المطالبة الأولى في الحديث. توم، يمكن للراكون إدخال يده الصغيرة الجميلة الى هذا الفخ وإخراجها بكل راحة. أنت تعرف كم هي ذكية».

«انظر هذه القطعة هنا؟ لقد قمت بثبيتها هنا لتعود لتنعطف هنا. حتى أنت لا يمكنك الخروج من هذا الفخ».

«أنا لست ذكيًا جدًا كما الراكون. لكن أعتقد أنك نجحت في حل المشكلة على الرغم من ذلك. توم يا فتاي، هل يمكنك وضع السرج بينما أذهب لإخبار والدتك إلى أين أنا ذاهب؟»

قال لي «سأتولى أنا الأمر».

«حسنًا، لكن لا بد لي من العودة بعد الانتهاء»  
«أنا أعيد».

قال صموئيل: «هراء. سوف آتي بحصاني وأعود به».

جلس صموئيل في العربة بجانب لي وكان حصانه ذو السرج المتعرج يتمايل خلفه بشكل أخرق.

«ما اسمك؟» سأل صموئيل بسرور.

«لي. هناك مزيد من اسم. لي لقب عائلة أب أنا. نادني لي».

«لقد قرأت الكثير عن الصين. هل ولدت في الصين؟»

«لا. أنا ولد هنا».

ظل صموئيل صامتًا لفترة طويلة بينما كانت العربة تسير على مسار العجلة باتجاه الوادي الترابي، ثم قال أخيرًا: «لي، لا أقصد عدم الاحترام، لكنني لم أتمكن أبدًا من معرفة سبب استمرار حديثكم بلغة هجينة، عندما يتعلم قرد بابون أمي مثلي آت من المستنقعات السوداء في أيرلندا، التحدث بمستوى ضعيف من الإنجليزية في غضون عشر سنوات».

ابتسم لي: «أنا يتحدث صينية».

«حسنًا، أعتقد أن لديك أسبابك، وهذا ليس شأني. أتمنى أن تسامحني إذا

لم أصدق ذلك يا لي».

نظر لي إليه وبدأ أن عيونه البنية الغافية تحت الجفن العلوي المدوّر تفتح وتعمق حتى لم تعد غريبة بعد الآن، أصبحت عيون الرجل دافئة مع الفهم. ضحك لي وقال بإنجليزية صحيحة: «اللغة الهجينة أكثر من مجرد راحة، أكثر من مجرد حماية ذاتية، في الغالب يتعين علينا استخدامها حتى يتم فهمنا بشكل صحيح».

لم يظهر صموئيل أي ردة فعل على التغيير الذي حدث، قال بتمعن: «أستطيع أن أفهم الأول والثاني، لكن الثالث أفلت مني».

قال لي، «أعلم أنه من الصعب تصديق ذلك، لكنه حدث كثيرًا لي ولأصدقائي لدرجة أننا نعتبره أمرًا مفروغًا منه. إذا كان يجب أن أتحدث إلى سيدة أو رجل نبيل على سبيل المثال، كما أفعل الآن فلن يتم فهمي».

«ولم لا؟»

«لأنهم يتوقعون منا التحدث بلغة هجينة، وسيستمعون إلى اللغة الهجينة منا فقط. لكن اللغة الإنجليزية السليمة لن يستمعوا إليها منا، ولذا فهم لا يفهمونها».

«هل يمكن أن يكون ذلك ممكنًا؟ كيف أفهمك؟»

«لهذا السبب أتحدث إليك كما أفعل الآن. أنت من الأشخاص النادرين الذين يمكنهم فصل ملاحظتهم عن إدراكهم المسبق. أنت ترى الأمر على ما هو عليه، في حين يرى معظم الناس ما يتوقعونه».

«لم أفكر في ذلك ولم أختبر الأمر مثلك، لكن ما تقوله فيه من الحقيقة الكثير. أتعلم يا لي؟ أنا سعيد جدًا بالتحدث معك. بودي أن أطرح عليك الكثير من الأسئلة».

«تسرني مساعدتك».

«الكثير من الأسئلة. على سبيل المثال، أنت تحلق شعرك على طريقة كيو<sup>(1)</sup>. لقد قرأت أنها شارة عبودية فرضها غزو المانشو على الصينيين الجنوبيين». «هذا صحيح».

«إذن لماذا بحق الرب تحلق شعرك بهذا الشكل هنا، حيث لا يستطيع المانشو الوصول إليك؟»

«أنا تكلمت كلام الصين. كيو موضحة الصين - أنت لا تفهم؟» قال لي بتلك اللغة الهجين.

ضحك صموئيل بصوت عالٍ قائلاً: «ياه، هذا بالفعل أشبه بمساحة خضراء تلجأ إليها للراحة، أتمنى لو كان لدي مخبأ من هذا القبيل».

قال لي: «أتساءل عما إذا كان بإمكانني الشرح، عندما لا يوجد هناك تقبّل يصبح الأمر صعباً للغاية. أفهم أنك لم تولد في أمريكا». «لا، وُلدت في أيرلندا».

«وفي غضون سنوات قليلة ستختفي هذه الحقيقة تقريباً؛ بينما أنا الذي وُلدت في غراس فالي، وارتدتُ المدرسة، وعدة سنوات في جامعة كاليفورنيا، ليست لدي فرصة للاختلاط».

«ربما تفعل إذا قصصت جديلتك هذه وارتدت ملابس مختلفة وتحديث مثل الآخرين؟»

«لا. لقد حاولت ذلك. بالنسبة لمن يسمون البيض كنت ما زلتُ صينياً

---

(1) كيو هي قصة شعر للرجال حيث يتم حلاقة مقدمة الرأس وعمل جديلة للشعر من الخلف. كانت هذه القصة منتشرة بين قومية المانشو وبعض مجموعات الهنود الحمر. حتى عام 1910 في الصين كان الإعدام عقوبة من لا يحلق شعرة على هيئة الكيو ويعتبر خائناً لبلاده وكانت هناك مقولة دارجة مفادها: «احتفظ بشعرك وافقد رأسك أو احتفظ برأسك وأفقد شعرك».

لست جديرًا بالثقة؛ وفي الوقت نفسه ابتعد أصدقائي الصينيون عني وكان علي التخلي عنهم».

توقف لي تحت شجرة قائلاً: «حان وقت الغداء. لقد أحضرت معي صرة. هل تود تناول بعض الطعام؟»

«بالتأكيد. اسمح لي أن أنزل في الظل هناك. أنسى أن أكل أحياناً، وهذا غريب لأنني دائماً جائع. أنا مهتم بما تقوله لأن به نبرة الشعور بالمسؤولية. والآن بت أشعر أنه كان عليك العودة إلى الصين».

ابتسم لي بسخرية «في غضون بضع دقائق لا أعتقد أنك ستجد أن شيئاً قد فاتني في عملية البحث طوال حياتي. لقد عدت إلى الصين. نجح والدي، لكن الأمر لم ينجح معي. قالوا إنني أبدو وأتحدث مثل شيطان أجنبي. لقد ارتكبت أخطاء في بعض العادات الاجتماعية ولم يتقبلوني بسبب ذلك. يمكنك أن تصدق أو لا - لكنني هنا أقل اغتراباً مما كنت عليه في الصين».

«يجب أن أصدقك لأنه أمر منطقي. لقد أعطيتني أشياء لأفكر فيها حتى السابع والعشرين من فبراير على الأقل. هل أزعجك بأسئلتني؟»  
«في واقع الأمر، لا. مشكلة لغة الهجين هي أنك تفكر بها أيضاً. أنا أكتب الكثير للحفاظ على مستوى لغتي الإنجليزية. الاستماع والقراءة ليسا مثل التحدث والكتابة».

«ألا ترتكب أي خطأ؟ أعني عند التحدث باللغة الإنجليزية؟»

«لا، لا أفعل. أعتقد أن الأمر يتعلق بما هو متوقع. أنت تنظر إلى عيني الرجل وترى أنه يتوقع لغة مبسطة وهجينة لذلك تتحدث بلغة مبسطة وهجينة».

قال صموئيل: «أعتقد أن هذا صحيح، بطريقتي الخاصة ألقى النكات لأن الناس يأتون إلى ورشتي ليضحكوا. أحاول أن أكون مضحكاً بالنسبة لهم حتى عندما يغمرني الحزن».

«لكن يقال إن الإيرلنديين شعب سعيد ومليء بالنكات».

«ليسوا كذلك. إنهم شعب سوداوي وموهوبون بالمعانة التي تتجاوز استحقاقهم. يقال إنهم لولا الويسكي الذي يمتص بعضاً من إحباطاتهم لقتلوا أنفسهم. لكنهم يلقون النكات لأنه أمر متوقع منهم».

فتح لي زجاجة صغيرة: «هل ترغب في بعض من هذا؟ إنه مشروب صيني؛ نج كابي».

«ما هو؟»

«إنه براندي، مشروب قوي، بجرعة من الشَّيخ. قوي جداً ويلطّف العالم حولك».

ارتشف صموئيل من الزجاجة وقال: «طعمها يشبه إلى حد ما التفاح الفاسد».

«نعم، لكن التفاح الفاسد لطيف. تذوقه مرة أخرى على طول لسانك».

«تناول صموئيل جرعة كبيرة وأمال رأسه إلى الوراء: «أرى ما تعنيه الآن. إنه جيد».

«هذه بعض الشطائر والمخللات والجبن وعلبة من اللبن».

«أحسنت».

تناول صموئيل شطيرة: «في رأسي هناك أكثر من مائة سؤال. ما قلته يجتذب ألمع واحد منها؛ ألا تمانع؟»

«مطلقاً. الشيء الوحيد الذي أريد أن أطلبه منك هو عدم التحدث بهذه الطريقة عندما يكون هناك آخرون. سوف يربكهم فقط ولن يصدقوا ذلك على أية حال».

قال صموئيل: «سأحاول. إذا غفلت وأخطأت فقط تذكر أنني عبقرى وكوميدي. من الصعب تقسيم رجل من المنتصف والتعثر دائماً بنفس النصف».



«أعتقد أنه يمكنني تخمين سؤالك التالي».

«ماذا؟»

«لماذا أنا راض بأن أكون خادماً؟»

«كيف عرفت هذا بربك؟»

«بدا أنه سيتبع».

«هل تستاء من السؤال؟»

«ليس منك. لا توجد أسئلة قبيحة إلا تلك التي يتم إلbasها نبرة التعالي. في الواقع لا أفهم كيف يسيء عملي كخادم إلى سمعتي. إنه ملجأ الفيلسوف، وطعام الكسالى، وإذا ما تم إنجازه بشكل صحيح، فهو مركز قوة وحب. لا أستطيع أن أفهم لماذا لا يعتبره الأشخاص الأكثر ذكاءً مهنة - يتعلمون كيفية القيام بها بشكل جيد وجني ثمارها. يتمتع الخادم الجيد بالأمان المطلق، ليس بسبب لطف سيده، ولكن بسبب التعود والتراخي. من الصعب على الرجل تغيير التوابل أو تعليق جواربه وسيفضل الاحتفاظ بخادم حتى لو كان سيئاً عوضاً عن القيام بالأعمال. لكن الخادم الجيد، وأنا خادم ممتاز، يمكنه السيطرة تماماً على سيده، إخباره بما يجدر به التفكير فيه، وكيف يتصرف، ومن يتزوج، ومتى يتزوج، ويحوّله إلى كتلة رعب، أو يزرع فيه السعادة، وأخيراً يذكره في وصيته. لو أردت يوماً سرقة وتجريد وضرب أي شخص كنت أعمل لديه لكنك فعلت وخرجت وهم يشكروني».

أخيراً، في وضعي هذا أنا غير محمي. سيدي سيدافع عني ويحميني. أنت عليك أن تعمل وتقلق. أما أنا فأعمل أقل وأقلق أقل، وأنا خادم جيد. الخادم السيئ لا يعمل ولا يقلق، ومع ذلك يأكل ويلبس وتم حمايته. لا أعرف أي مهنة أخرى يكون المجال فيها مليئاً بالفوضى بسبب غير الأكفاء والتميز نادراً فيه هكذا».

انحنى صموئيل نحوه مستمعاً باهتمام وتابع لي: «سيكون من المريح بعد كل هذا العودة إلى اللغة الهجين».

«بقيت مسافة قصيرة إلى منزل سانشيز. لماذا توقفنا قريباً جداً؟» سأل صموئيل.

«قليل وقت للكلام. أنا صيني جيد. تريد ذهاب الآن؟»

«ماذا؟ أوه، نعم بالطبع. مع ذلك يا لي، لا بد أنك تشعر بالوحدة».

قال لي: «هذا هو الخلل الوحيد في الأمر. كنت أفكر في الذهاب إلى سان فرانسيسكو وبدء عمل صغير».

«مغسلة مثلاً؟ أم محل بقالة؟»

«لا. هناك عدد كبير جداً من المغاسل والمطاعم الصينية. فكرت في مكتبة، ولن تكون المنافسة كبيرة جداً. وربما لن أفعل بالرغم من ذلك».

### 3

فيما بعد الظهر كان صموئيل يسير مع آدم في أرضه، كانت الرياح تهب كما كل يوم والغبار الأصفر يتطاير في السماء.

صاح صموئيل: «أوه، إنها قطعة جيدة، قطعة أرض نادرة».

«تبدو لي وكأنها تتقهقر شيئاً فشيء»

«لا، إنها تتحرك قليلاً. يذهب جزء من هذا الجانب وتستعيده من الجانب الآخر».

«لا أحب الرياح. إنها توترني».

«لا أحد يحب الريح لفترة طويلة. كما أنه يجعل الحيوانات متوترة وقلقة أيضاً. لا أعرف ما إذا كنت قد لاحظت ذلك، ولكن في مكان أبعد قليلاً في الوادي يزرعون مصدات رياح من أشجار الصمغ. شجرة اليوكالبتوس - تأتي

من أستراليا. يقولون إنها تنمو عشرة أقدام في السنة. لماذا لا تجرب زراعة بعضها وترى ماذا يحدث؟ لا بد أنها ستصد الرياح في هكذا أوقات، كما أن حطبها جيد».

«فكرة جيدة. ما أريده حقًا هو الماء. ستضخ هذه الرياح كل المياه التي يمكنني إيجادها. اعتقد أنه إذا كان بإمكانني حفر عدد من الآبار والري، فلن أخسر التربة السطحية، ربما أجرب زراعة بعض الفاصوليا». قال آدم بحماس. حذق صموئيل في الريح: «سأحاول أن أجد لك الماء إذا أردت. ولدي مضخة صغيرة صنعتها ستعمل على ضخها بسرعة. إنه اختراعي الخاص. طاحونة الهواء شيء مكلف للغاية، لكن ربما يمكنني أن أبنها لك وأوفر لك بعض المال».

قال آدم: «هذا جيد، لن أمانع الريح إذا عملت لصالحني. وإذا كان بإمكانني الحصول على الماء، فقد أزرع البرسيم».

«لا يجلب الكثير من الريح».

«لم أكن أفكر في ذلك. قبل أسابيع قليلة قمت بجولة بالسيارة حول غرينفيلد وغونزاليس. انتقل بعض السويسريين إلى هناك. لديهم قطعان ألبان لطيفة ويستهلكون أربعة محاصيل من البرسيم سنويًا».

«سمعت عنهم. لقد جلبوا أبقارًا سويسرية».

أشرق وجه آدم: «هذا ما أريد أن أفعله. بيع الزبدة والجبن وإطعام الخنازير الحليب».

قال صامويل: «ستجلب الصيت والفخر للوادي، ستكون فرحة حقيقية للمستقبل».

«إن كان بإمكانني الحصول على الماء».

«سأجد لك الماء إذا كان هناك شيء منه، سأجده. أحضرت عصاي السحرية». ربت على غصن متشعب مقيد بسرجه.

أشار آدم إلى اليسار حيث بقعة مسطحة مغطاة بنبات المريمية: «حسناً، هنا ستة وثلاثون فداناً تقريباً مستوية، ويمكننا أن نثقب هنا. متوسط التربة السطحية ثلاثة أقدام ونصف، والرمل في الأعلى والطيني في متناول المحراث. هل تعتقد أنه يمكنك الحصول على الماء هنا؟»

قال صموئيل: «لا أعرف، سأرى». ترجل وفك عصاه المتشعبة ومشى ببطء وذراعيه ممدودتان أمامه وهو قابض على العصا. اتخذت خطواته مساراً متعرجاً. عبس فجأة ثم تراجع بضع خطوات، هز رأسه واستمر. بقي آدم على حصانه يمشي خلفه ببطء ويقود الحصان الآخر.

ركز آدم عينيه على العصا. رآها ترتجف ثم تتذبذب كما لو كانت سمكة غير مرئية تتحرك أسفلها. كان وجه صموئيل مشدوداً بالانتباه. واصل السير حتى بدا أن نقطة العصا قد تم سحبها بقوة إلى الأسفل. قام برسم دائرة وانتزع قطعة من المريمية من الأرض، حرك عصاه خارج حدود الدائرة ورفعها مرة أخرى، وحركها داخل حدودها وانزلت العصا مرة أخرى. تنهد صموئيل واسترخى وألقى عصاه على الأرض. قال: «يمكنني الحصول لك على الماء هنا، وهو ليس عميقاً جداً. السحب قوي وهناك الكثير من الماء.»

قال آدم: «جيد. أريد أن أريك بضعة أماكن أخرى.»

قطع صموئيل قطعة قوية من خشب المريمية ودفعها إلى التربة. قام بعمل شق في الأعلى وركب صليباً للعلامة. ثم ركل الفرشاة الهشة حتى يتمكن من العثور على عصاه مرة أخرى.

في محاولة ثانية على بعد ثلاثمائة ياردة بدت العصا وكأنها تتكسر أسفل يديه: «أما هنا فيوجد عالم كامل من المياه.»

المحاولة الثالثة لم تكن مثمرة للغاية. بعد نصف ساعة لم يجد أبسط علامة. عاد الرجلان نحو منزل تراسك. كانت ظهيرة ذلك اليوم ذهبية بسبب الغبار

الأصفر. كما هو الحال دائماً، بدأت الرياح في الانخفاض مع تلاشي النهار ولكن الأمر كان يستغرق أحياناً حتى نصف الليل إلى أن يستقر الغبار. قال صموئيل: «علمت أنه مكان جيد، يمكن لأي شخص أن يرى ذلك. لكنني لم أكن أعلم أنه كان جيداً لهذا الحد، سيكون لديك نظام صرف رائع تحت أرضك من الجبال. أنت تعرف كيف تختار أرضك سيد تراسك».

ابتسم آدم. قال: «كانت لدينا مزرعة في ولاية كونيتيكت. على مدى ستة أجيال حفرنا الحجارة. من أولى الأشياء التي أتذكرها هي نقل الحجارة للجدران. اعتقدت أن هذا هو الحال في جميع المزارع. الأمر غريب بالنسبة لي هنا ويكاد يكون خطيئة. إذا كنت تريد حجراً فعليك أن تقطع شوطاً طويلاً من أجله».

قال صموئيل: «طرق الخطيئة غريبة، أعتقد أنه إذا اضطر الرجل إلى التخلص من كل ما لديه من الداخل والخارج، فسيحرص على إخفاء بعض الخطايا الصغيرة في مكان ما بسبب عدم ارتياحه. إنها آخر الأشياء التي نتخلى عنها».

«ربما يكون هذا أمراً جيداً لإبقائنا متواضعين».

قال صموئيل: «أعتقد ذلك، وأعتقد أن التواضع أمر جيد، لأنه من النادر أن تجد من لا يحمل شيئاً منه، ولكن من الصعب أن ترى أين تكمن قيمته ما لم تمنحه ألماً ممتعاً واثميناً جداً. المعاناة - أتساءل هل تم النظر إليها بشكل صحيح».

قال آدم: «أخبرني عن عصاك، كيف تعمل؟»

قام صموئيل بإعادة ربط عصاه بحبال سرجه: «أنا لا أؤمن بهذا حقاً، إلا أنها تقوم بعمل جيد». ابتسم لآدم. «ربما يكون الأمر هكذا، أعرف مكان الماء وأشعر به في بشرتي. بعض الناس لديهم موهبة في هذا الاتجاه أو ذاك. يمكنك

تسميته تواضعاً، أو عدم الإيمان بنفسه، لكنه أجبرني على القيام بعمل سحري لإبراز الشيء الذي أعرفه على أي حال. هل يعني هذا أي شيء بالنسبة لك؟»  
قال آدم: «لا».

اختارت الخيول طريقها الخاص برؤوسها منخفضة، وأزمتها المفكوكة.  
«هل يمكنك البقاء هذه الليلة؟» سأل آدم.

«يمكنني ولكن الأفضل ألا أفعل. لم أخبر ليزا بأنني سأبقى خارج المنزل في الليل. لا أريد أن تشعر بالقلق».  
«لكنها تعرف أين أنت».

«بالتأكيد هي تعرف. لكنني سأعود إلى المنزل الليلة. لا يهم الوقت. إذا كنت ترغب في أن تدعوني لتناول العشاء سيسعدني أن أبقى. متى تريد مني أن أبدأ في حفر الآبار؟»  
«في أقرب وقت ممكن».

«أنت تعلم أنه ليس بالشيء الرخيص أن تنغمس في الماء. سيكلف الأمر خمسين سنتاً أو أكثر للقدم، اعتماداً على ما نجده في الأسفل».  
«لدي المال. أريد الآبار. انظر سيد هاملتون».  
«سيكون صموئيل أسهل».

«انظر يا صموئيل، أفكر في إنشاء حديقة. تذكر أن اسمي هو آدم، لكن لم تكن لدي جنة عدن قط، ناهيك عن أن أطردها منها».  
صاح صموئيل وهو يقهقه: «إنه أفضل سبب سمعته لإنشاء حديقة، أين سيكون هذا البستان؟»

قال آدم «لن أزرع تفاعاً. هذا من شأنه أن يخلق الحوادث».  
«وماذا تقول حواء عن ذلك؟ لا بد أن يكون لها رأي في ذلك؟ كما أن التفاح يفرحها».

«ليس هذه». كانت عيون آدم تلمع «أنت لا تعرف هذه الحواء. سوف تحتفي باختياري. لا أعتقد أن أي شخص يمكنه أن يعرف مدى طبيتها».

«لديك امرأة نادرة إذاً. في الوقت الحالي لا يمكنني التفكير في هدية أعظم» كانوا يقتربون من مدخل الوادي الجانبي الصغير حيث كان منزل سانشيز وحيث يمكنهم رؤية القمم الخضراء لأشجار البلوط الضخمة.

قال آدم بهدوء: «ويا لها من هدية، لا يمكنك أن تتخيلها، لا أحد يستطيع أن يفعل. كانت حياتي رمادية سيد هاملتون - صموئيل. لا يعني ذلك أنها كانت سيئة مقارنة بحياة أخرى لكنها لم تكن شيئاً. لا أعرف لماذا أخبرك بهذا».

«ربما لأنني أحب الإصغاء».

«أمي ماتت قبل تكون ذاكرتي. كانت زوجة أبي امرأة طيبة لكنها مضطربة ومريضة، ووالدي كان رجلاً صارماً وجيداً - ربما كان رجلاً عظيماً».

«لم تتمكن من أن تحبه؟»

«كان لدي نوع من الشعور الذي يتناوبك في الكنيسة، لم يكن خوفاً».

أوما صموئيل برأسه: «أعرف - وبعض الرجال يريدون ذلك». ابتسم بحزن

«لطالما أردت الآخر. تقول ليزا إنه الشيء الضعيف بداخلي».

«والدي وضعني في الجيش، في الغرب ضد الهنود».

«نعم أخبرتني. لكنك لا تفكر كرجل عسكري».

«لم أكن جيداً. يبدو أنني أخبرك بكل شيء».

«لا بد أنك ترغب في ذلك. هناك دائماً سبب».

«يجب أن يرغب الجندي في القيام بالأشياء التي كان علينا القيام بها - أو على الأقل أن نكون راضين عنها. لم أتمكن من العثور على أسباب وجيهة كافية لقتل الرجال والنساء، ولا أفهم إلى الآن الأسباب التي تم شرحها لنا».

واصلا المشي في صمت لبعض الوقت ثم تابع آدم قائلاً: «لقد خرجت من الجيش كأنني أسحب جسدي الملوث بالطين من مستنقع. تجولت لفترة طويلة قبل أن أعود إلى المنزل، إلى مكان لم أكن أحبه في الذاكرة». «والدك؟»

«مات، وكان المنزل مكاناً للجلوس أو العمل في انتظار الموت بالطريقة التي قد تنتظر بها نزهة مروعة». «وحدك؟»

«لا، لدي أخ».

«أين هو - ينتظر النزهة؟»

«نعم - بالضبط. ثم جاءت كاثي. ربما يمكنني أن أخبرك في وقت ما عندما تود أن تسمع».

قال صموئيل: «أريد أن أسمع، أنا ألتهم القصص مثل العنب».

«كان ينبعث منها شيء كما الضوء، فجأة كل شيء تغير لونه وانفتح العالم أمامي. أصبح الاستيقاظ كل يوم أمراً ممتعاً، ولم تكن هناك حدود لأي شيء، أهل العالم أصبحوا طيبين. ولم أعد خائفاً».

قال صموئيل: «أدرك ذلك، إنه صديق قديم لي، لا يموت أبداً ولكن في بعض الأحيان يتعد قليلاً، أو تفعل أنت. نعم، أدرك ذلك تماماً - العيون والأنف والفم والشعر».

«كل هذا يصدر من فتاة صغيرة مجروحة».

«ألا يصدر منك؟»

«أوه لا، وإلا كان قد صدر من قبل. لا، لقد أحضرته «كاثي» معها، إنه يدور حولها. والآن تعرف لماذا أريد الآبار، لا بد لي من السداد بطريقة ما للتقدير الذي تلقيته. سأقوم بإنشاء حديقة جيدة جداً، وجميلة جداً، بحيث تكون مكاناً مناسباً لها لتعيش فيه ويليق بنورها».



ابتلع صموئيل ريقه عدة مرات، وتحدث بصوت جاف: «يمكنني بوضوح أن أرى واجبي تجاهك إذا كنتُ رجلاً بحق، أو أي نوع من الأصدقاء». «ماذا تقصد؟»

قال صموئيل ساخراً: «من واجبي أن آخذ هذا الشيء خاصتك وأركله في وجهه، ثم أرفعه وأغطيه بطبقة كثيفة من الوحل تكفي لطمس ضوئه الخطير». ثم نما صوته بقوة: «يجب أن أرفعها إليك وهي مغطاة بالوحل وأريك وسخها وخطرها. لا بد أن أنبهك للنظر عن كثب حتى ترى مدى قبح الأمر حقاً. عليّ أن أطلب منك التفكير في التناقضات وأعطيك أمثلة على ذلك. يجب أن أعطيك مندبل عطليل، أوه، مؤكد يجب أن أفعل هذا وأقوم بتصويب أفكارك المتشابكة، وأظهر لك أن الدافع رمادي كما الرصاص وفاسد كما بقرة ميتة في طقس رطب. إذا قمتُ بواجبي تجاهك بشكل جيد، بإمكانني أن أعيد لك حياتك القديمة السيئة وأشعر بالرضا حيال ذلك، وأرحب بك مرة أخرى في العضوية المتعفنة في النزل».

«هل تمزح؟ ربما لم يكن عليّ أن أخبرك -»

«إنه واجب الصديق. كان لدي صديق قام بهذا الواجب مرة من أجلي. لكن أنا صديق مزيف ولن أحصل على أي فضل في ذلك مقارنة بأصدقائي. إنها صفة جميلة، احتفظ وأعتز بها. وأنا سأحفر آبارك إذا اضطررت لقيادة حفارتي إلى القاع الأسود للأرض، وسأقوم باستخراج الماء منها مثل العصير من برتقالة».

عندما اقتربا من المنزل وبينما هما يمشيان تحت أشجار البلوط قال آدم: «ها هي جالسة في الخارج». صرخ: «كاثي، يقول إن هناك ماء - والكثير منه». ثم قال بحماس لصموئيل: «هل تعلم أنها ستنجب طفلاً؟» قال صموئيل: «حتى من هذه المسافة تبدو جميلة».

نظرًا لأن النهار كان حارًا، وضع لي طاولة في الخارج تحت شجرة بلوط، وعندما اقتربت الشمس من الجبال الغربية كان يخرج من المطبخ ذهابًا وإيابًا حاملًا أطباق العشاء الذي كان توليفة من اللحوم الباردة والمخللات وسلطة البطاطس وكعكة جوز الهند وفطيرة الخوخ، ووضع في وسط الطاولة إبريقًا ضخماً من الخبز مملوءًا بالحليب.

خرج آدم وصموئيل من غرفة الغسيل وقطرات الماء تلمع على وجهيهما. كانت لحية صموئيل مزغبة بعد غسلها بالصابون. وقفا حول المنضدة منتظرين مجيء كاثي.

سارت ببطء تشق طريقها وكأنها تخشى السقوط. كانت تنورتها الطويلة والمريلة تخفي إلى حد ما انتفاخ بطنها، ووجهها مسترخ وشبه طفولي، وشبكت يديها أمامها. وصلت إلى الطاولة قبل أن تنظر إلى الأعلى ونقلت نظرها بين الرجلين.

حمل آدم كرسيها لها وقال «أنتِ لم تقابلي السيد هاملتون عزيزتي». «كيف حالك».

كان صموئيل يتفحصها: «يا له من وجه جميل، أنا سعيد بلقائك. أمل أنك بخير؟»

«نعم بالتأكيد. أنا بخير».

بعد أن جلسا قال آدم: «إنها تجعل الأمر مناسبة رسمية سواء أرادت ذلك أم لا. كل وجبة هي نوع من المناسبات».

قالت: «لا تتحدث هكذا، هذا ليس صحيحاً».

«ألا تشعر وكأنها حفلة بالنسبة لك يا صموئيل؟» سألت.

«إنها كذلك، ودعني أخبرك أنه لم يكن هناك قط مرشح مثلي لحفلة كهذه. وأولادي أسوأ مني. ابني توم أراد أن يأتي اليوم، بقي يبتزني للنزول من المزرعة».

أدرك صموئيل فجأة أنه كان يقول عبارته الأخيرة تفادياً لهبوط الصمت على الطاولة. توقف وهبط الصمت بكل حال. كانت كاثيري محدقة في طبقها بينما كانت تأكل قطعة من لحم الضأن المشوي. نظرت إلى الأعلى وهي تضعه بين أسنانها الحادة الصغيرة. عيناها الواسعتان كانتا فارغتين من كل شيء. ارتجف صموئيل.

«الجو ليس باردًا، أليس كذلك؟» سأل آدم.

«برد؟ لا، لقد مرت قشعريرة في جسدي».

«أوه، نعم، أعرف هذا الشعور».

سقط الصمت مرة أخرى. انتظر صموئيل بدء حديث ما، وهو يعلم مقدمًا أنه لن يبدأ.

«هل يعجبك وادينا سيدة تراسك؟»

«ماذا؟ نعم بالتأكيد».

«إذا لم تكن وقاحة أن أسأل، متى موعد ولادة الطفل؟»

قال آدم «خلال ستة أسابيع. زوجتي واحدة من تلك النساء اللواتي لا يتحدثن كثيرًا».

قال صموئيل: «أحيانًا يكون الصمت أكثر وضوحًا ولمح عيون كاثيري تقفز لأعلى وتعود للأسفل مرة أخرى، وبدًا له أن الندبة على جبينها أصبحت أعمق. كان هناك شيء ما قد حركها بالطريقة التي ينتفض بها الحصان بسبب ضربة سوط. لم يستطع صموئيل أن يتذكر ما قاله والذي جعلها تنتفض. شعر بتوتر مقبل نحوه يشبه إلى حد ما الشعور الذي يعتريه قبل أن يجذب الماء عصاه إلى

الأسفل، وإدراكًا لشيء غريب ومتوتر. نظر إلى آدم ورأى أنه كان ينظر بحنان إلى زوجته. كل ما كان غريباً لم يكن غريباً على آدم. كانت السعادة تغمر وجهه. كانت كاثيري تمضغ قطعة من اللحم بأسنانها الأمامية، لم ير صموئيل أي شخص يمضغ بهذه الطريقة من قبل، وعندما ابتلعها مررت لسانها الصغير حول شفيتها. كرر عقل صموئيل: «هناك شيء ما - شيء ما لا يمكنه العثور عليه. شيء خاطئ» وبقي الصمت جاثماً على الطاولة.

سمع صوت حركة خلفه، التفت ليري أنه لي، جاء ووضع إبريق شاي على المنضدة وابتعد.

بدأ صموئيل يتحدث لإنهاء الصمت. أخبرهما كيف وصل لأول مرة إلى الوادي من أيرلندا، ولكن بعد بضع كلمات لم يكن آدم ولا كاثيري يستمعان إليه. للتأكد من ذلك استخدم خدعة كان قد ابتكرها ليكتشف ما إذا كان أطفاله يستمعون فعلاً عندما كانوا يتوسلون إليه ليقرأ لهم ولم يتركوه يتوقف. ألقى جملتين كانتا عبارة عن هراء، لم يكن هناك رد من آدم أو كاثيري. استسلم. أنهى عشاءه وشرب الشاي وهو ساخن وطوى منديله: «سيدتي، استأذنيك للمغادرة إلى المنزل، وأشكرك على حسن ضيافتك». قالت: «طابت ليلتك».

قفز آدم على قدميه، بدا وكأنه تم انتزاعه من خيال: «لا تذهب الآن. كنت أتمنى إقناعك بالبقاء الليلة». «شكراً لك، لكن لا يمكنني ذلك. ثم إنها ليست رحلة طويلة. أعتقد، بل أعلم - سيكون هناك قمر». «متى ستبدأ؟»

«يجب أن أجمع جهاز الحفر، وأقوم بشيء من الشحذ والترتيب. في غضون أيام قليلة سأرسل المعدات مع توم».

كانت الحياة تتدفق عائدة إلى آدم. قال «اجعلها بأقرب وقت، أريد ذلك قريباً. كاثي، سننشئ أجمل مكان في العالم. لن يكون هناك شيء مثله في أي مكان».

حول صموئيل نظره إلى وجه كاثي. لم يتغير. كانت العيون فارغة والفم منحوتاً مع منحنياته الصغيرة في الزوايا. قالت «سيكون ذلك لطيفاً».

للحظة شعر صموئيل برغبة في فعل أو قول شيء يصددها، لكنه ارتجف مرة أخرى.

«قشعيرة أخرى؟» سأل آدم.

«قشعيرة أخرى». كان الغسق يهبط وبالفعل كانت أشكال الأشجار مظلمة. «إذاً تصبح على خير».

«سوف أسير معك».

«لا، ابق مع زوجتك. لم تنته من تناول العشاء».

«لكن أنا -»

«اجلس يا رجل. يمكنني العثور على حصاني، وإذا لم أتمكن سأسرق واحداً منك» أعاد صموئيل آدم برفق إلى كرسيه: «طاب مساؤك. طاب مساؤك. ليلة سعيدة سيدتي». مشى بسرعة نحو السقيفة.

رفع صموئيل سرجه عن المسمار الكبير حيث كان معلقاً وبينما كان يربت على ظهر حصانه سمع ضجة صغيرة خلفه. استدار ورأى لي.

«متى تعود؟» سأل الصيني بهدوء.

«لا أعرف. في غضون أيام قليلة أو أسبوع. لي، ما هذا؟»

«ما هو ماذا؟»

«والله، لقد شعرت بالرعب! هل هناك شيء خاطئ هنا؟»

«ماذا تقصد؟»

«أنت تعرف جيداً ما أعنيه».

«عامل صيني، لا يسمع، لا يتحدث».

«نعم. أظن أنك محق. بالتأكيد أنت على حق. أعتذر لأنني سألتك، لم يكن هذا من حسن الخلق». استدار للخلف ووضع حديد اللجام الصغير في فم حصانه دو كس، وربط الأذنين المتخبطتين بدعامة الرأس، ووضع الرسن ثم قال «تصبح على خير يا لي».

«سيد هاملتون -»

«نعم؟»

«هل تحتاج إلى طباخ؟»

«في منزلي لا أستطيع تحمل تكلفة طباخ؟»

«سأعمل بسعر رخيص».

«ليزا ستقتلك. لماذا - تريد ترك العمل هنا؟»

قال لي: «فكرت أن أسألك فحسب. طاب مساءك».

## 5

ظل آدم وكاثي جالسين تحت الشجرة.

قال آدم: «إنه رجل صالح. أنا أحبه. أتمنى إقناعه بتولي المسؤولية هنا وإدارة هذا المكان - أن يكون مشرفاً مثلاً».

قالت كاثي «لديه منزله الخاص وعائلته».

«نعم أعلم. وهي أفقر أرض رأيتها على الإطلاق. يمكنه أن يكسب مني أجراً أكثر. سوف أسأله. يستغرق التعود على بلد جديد بعض الوقت، وكأنك

تولد من جديد وتضطر إلى التعلم في كل مكان. كنت أعرف من أي ربيع تأتي الأمطار. لكن الأمر مختلف هنا. كنت في السابق استشعر ببشرتي ما إذا كانت الرياح ستهب، ومتى سيكون الجو باردًا. لكنني سأتعلم. الأمر فقط يستغرق بعض الوقت. هل أنت مرتاحة يا كاثي؟»  
«نعم».

«ذات يوم، وليس بعيدًا جدًا سترين الوادي كله أخضر بالبرسيم - ستمكنين من رؤيته من النوافذ الكبيرة الجميلة للمنزل النهائي. سأزرع صفوفًا من أشجار الصمغ، وسأرسل بعيدًا للحصول على البذور والنباتات - وأضعها في نوع من المزرعة التجريبية. قد أحاول زراعة الليتشي من الصين. أتساءل عما إذا كانت ستنمو هنا. حسنًا يمكنني المحاولة. ربما يمكن لـ لي أن يخبرني. بمجرد أن يولد الطفل يمكنك التجول في المكان كله معي. أنت لم تربه حقًا. هل أخبرتك؟ سيبنى لنا السيد هاملتون طواحين هواء، وسنكون قادرين على رؤيتها تدور من هنا». مد ساقه بشكل مريح تحت الطاولة: «ذهب لي لإحضار الشموع، أتساءل ما الذي يؤخره».

تحدثت كاثي بهدوء شديد. «آدم، لم أرغب في المجيء إلى هنا. لن أبقى هنا. في أقرب وقت يمكنني فيه المغادرة سأغادر».

«أوه هذا هراء». ضحك وواصل: «أنتِ كما طفل يتعد عن المنزل لأول مرة. ستحبينها بمجرد أن تعتادي عليها ويولد الطفل. أتعلمين، عندما ذهبت إلى الجيش لأول مرة اعتقدت أنني سأموت من الحنين إلى الوطن. لكنني تجاوزت الأمر، كلنا نتجاوزها، لذلك لا تقولي أموراً سخيفة من هذا القبيل». «هذا ليس شيئًا سخيفًا».

«لا تتحدثي عن ذلك يا عزيزتي. كل شيء سوف يتغير بعد ولادة الطفل. سترين».

شبك يديه خلف رأسه وتأمل النجوم الباهتة من خلال أغصان الشجرة.





## الفصل 16

### 1

عاد صموئيل هاملتون إلى المنزل في ليلة غمرها ضوء القمر لدرجة أن التلال استحوذت على نوره الأبيض والمغبر. كانت الأشجار والأرض صامتة وخالية من الهواء وميتة. كانت الظلال سوداء بدون تظليل والأماكن المفتوحة بيضاء بلا لون. هنا وهناك كان صموئيل يرى حركة سرية، لأن مغذي القمر كانوا يعملون - الغزال الذي يتجول طوال الليل عندما يكون القمر صافياً وينام تحت الأدغال في النهار. تتسلل الأرانب وفئران الحقول وجميع الفئران الصغيرة الأخرى التي يتم اصطيادها والتي تشعر بالأمان في ضوء الإخفاء وتتقافز وتزحف، ثم تتجمد لتشبه الحجارة أو الشجيرات الصغيرة عندما تشبه أذناها أو أنوفها في وجود خطر. كانت الحيوانات المفترسة تعمل أيضاً؛ ابن عرس الطويل مثل موجة من الضوء البني، القطط البرية الصغيرة التي تقبع بالقرب من الأرض، غير مرئية تقريباً إلا عندما تلامس عيونها الصفراء الضوء وتومض لثانية؛ الثعالب التي تتحسس بأنوفها المرتفعة للحصول على عشاء من ذوات الدم الحار؛ الراكون القابع بالقرب من المياه الساكنة، الضفادع الثرثارة. كانت الذئب تتمايل على طول المنحدرات، ممزقة بفرح حزين، ترفع رؤوسها وتفرغ بالصراخ مشاعرها نحو القمر، مزيج من الضحك والعيول. وفوق الجميع كان البوم يبصر في السماء بصراخه الغامض الذي لطخ بالخوف اولئك الذين في الأسفل. اختفت رياح العصر ولم يتحرك سوى نسيم خفيف أشبه بالتهيدة بفعل الحرارة المضطربة للتلال الدافئة والجافة.

أدى صوت خطوات حوافر دوكسولوجي العالية إلى إسكات سكان الليل حتى بعد ابتعاده. كانت لحية صموئيل البيضاء وشعره يلتمعان في ضوء القمر بعد أن علق قبعته السوداء على قرن السرج. كان يزعجه وجع في أعلى بطنه، شيء مرتبط بفكرة مريضة، يسمى هذا الشعور «ويلتشميرز» - واعتدنا أن نطلق عليه «ويلشراتس»، إنه ذلك الحزن الذي يرتفع إلى الروح مثل الغاز وينشر اليأس الذي تبدأ في البحث عن سببه ولا تجد شيئاً في خضم حيرتك.

عاد صموئيل إلى ذهنه فيما يتعلق بالمزرعة الرائعة ودلالات المياه - لا ويلشراتس يمكنه أن يخرج هذا الموضوع من ذهن صموئيل إلا إذا كان يحمل حسداً مغموراً. بحث في نفسه عن الحسد ولم يجد شيئاً. تذكر حلم آدم بجنة مثل عدن وهيامه بكاثي. لا شيء هناك ما لم يكن عقله الباطن يذكره بخسارته التي شُفي منها. لكن ذلك كان منذ زمن بعيد وقد نسي الألم وأصبحت تلك الذكرى هادئة ودافئة ومريحة، بعد أن انتهى كل شيء نسي فخذاه الجوع.

وبينما كان يتمشى عابراً نور وظلام ظلال الأشجار تسللت الأفكار إلى عقله: متى بدأ ويلشراست بالزحف إلى صدره؟ وجدها - كانت كاثي، إنها جميلة، صغيرة، ومرهفة، لكن ماذا عنها؟ لقد كانت صامتة؛ لكن العديد من النساء بطبيعتهن صامتات.

ما الأمر إذاً؟ من أين أتى؟ تذكر أنه شعر بقرب حدوث ذلك عندما كان يمسك بعض الماء. ثم تذكر الشعريرة التي انتابته. قام بتثبيتها مع الزمان والمكان والشخوص. حدثت جميعها على العشاء، كانت كاثي مصدرها.

قام باسترجاع وجهها أمامه ودرس عينيها الواسعتين، وفتحات أنفها الرقيقة، فمها أصغر مما يحبه ولكنه جميل، وذقن صغير وصلب. بالعودة إلى عينيها. هل كانتا باردتين؟ هل كانت عينيها؟ كان يدور حول هذه النقطة. لم تكن في عيون كاثي أية رسالة أو تواصل من أي نوع. لم يكن هناك شيء يمكن التعرف

عليه فيهما. لم تكن عيوناً بشرية، لقد ذكرته ببعض الذكريات والصور. سعى للعثور عليها ثم جاءت من تلقاء نفسها إليه.

ظهرت له من قاع السنين بألوانها وصرخاتها ومشاعرها المزدحمة. رأى نفسه ولدًا صغيرًا، صغيرًا جدًا لدرجة أنه كان عليه أن يرفع يده ليصل إلى يد والده. شعر بحجارة لندنديري تحت قدميه والمدينة الكبيرة الوحيدة التي رآها. كان سوقاً، عروض الدمى وأكشاك المنتجات والخيول والأغنام مباشرة في الشارع للبيع أو التجارة أو المزاد، وغيرها من الأكشاك ذات الألوان الزاهية، ولأن والده كان مرحاً وبشوشاً كان من السهل الاستحواذ عليه.

فجأة انجرف الناس مثل نهر قوي على طول شارع ضيق كما لو كانوا رقايات في فيضان، كان الشارع الضيق مفتوحاً على بقعة مربعة، ومقابل الجدار الرمادي للمبنى كان هناك هيكل مرتفع من الأخشاب وحبل مشنقة معلق.

تم دفع صموئيل ووالده من قبل الناس الذين كانوا يتدافعون أكثر فأكثر. كان يسمع في ذاكرته صوت والده وهو يقول: «هذا غير مناسب لطفل. إنه ليس مناسباً لأي شخص، ولكنه أكثر ترويعاً بالنسبة لطفل». كافح والده للعودة، ليجد نفسه في مواجهة موجة جديدة من المتدافعين: «دعونا نخرج. من فضلكم دعونا نخرج. لدي طفل هنا».

كانت الموجة تندفع بلا عاطفة. رفع صموئيل رأسه لينظر إلى الهيكل. صعدت مجموعة من الرجال الذين يرتدون ملابس داكنة وقبعات سوداء على المنصة العالية. كان في وسطهم رجل بشعر أشقر يرتدي بنطالاً داكناً وقميصاً أزرق فاتحاً، مفتوحاً عند الحلق. كان صموئيل ووالده قريبين جداً لدرجة أن الصبي اضطر لرفع رأسه عالياً ليرى.

يبدو أن الرجل الأشقر ليست له أذرع. نظر إلى الحشد ثم نظر إلى الأسفل ونظر إلى صموئيل مباشرة. كانت الصورة واضحة ومثالية. لم يكن في عيون الرجل أي عمق - لم تكن مثل العيون الأخرى، لم تكن كعيون البشر.

فجأة كانت هناك حركة سريعة على المنصة ووضع والد صموئيل كلتا يديه على رأس الصبي بحيث أصبحت راحته مقوستين فوق أذنيه والتقت أصابعه خلف رأسه. دفع بيديه رأس صموئيل للأسفل وحشر وجهه بقوة في معطف والده الأسود. كافح للتحرر منه لكنه لم يستطع تحريك رأسه. لم يستطع سوى رؤية شريط من الضوء حول حواف عينيه ولم يصل إلى أذنيه إلا زئير مكتوم من يدي والده. كان حينها يسمع دقات قلبه في أذنه، ثم شعر أن يدي والده وذراعيه تتصلبان، وأحس بوالده وهو يأخذ نفساً عميقاً ويحبس أنفاسه، ويداه ترتجفان. كانت هناك المزيد من الذكريات التي خرجت وارتسمت أمام عينيه في الهواء أمام رأس الحصان - طاولة مهترئة ومهملة في حانة، كلام صاحب وضحك. كان كوب من القصدير موضوعاً أمام والده، وقبلة كوب لبن ساخن حلو مع السكر والقرفة. كانت شفتا والده مزرقتين بشكل غريب وعيونه دامعة. «لم أكن لأخذك أبداً لو كنت أعرف. ليس من المناسب أن يرى ذلك أي رجل، فما بالك بصبي صغير».

قال صموئيل: «لم أرَ أي شيء، لقد أحسيت رأسي للأسفل. أنا سعيد لذلك، لكن ماذا كان؟»

«يجب أن أخبرك، كانوا يقتلون رجلاً سيئاً».

«هل كان الرجل الأشقر؟»

«نعم كان هو، لا تحزن عليه كان لا بد من قتله. لم يفعل مرة واحدة بل مرات عديدة أشياء مروعة - أشياء لم يكن يفكر فيها سوى شخص سيء. ليس شنفه هو ما يحزنني لكنهم يجعلون من الأمر يوم احتفالياً. هذا أمر يجب أن يتم سرّاً».

«رأيت الرجل الأشقر. لقد نظر إليّ مباشرة».

«لذلك أشكر الله أنه رحل».

«ماذا فعل؟»

«لن أخبرك أبدًا بأشياء مروعة».

«كانت عيون الرجل الأشقر أغرب عيون رأيتها قط، ذكرتني بعيون الماعز».

«اشرب حليبك الحلو وستحصل على عصا بها شرائط وصفارة طويلة

فضية».

«والصندوق اللامع مع صورة فيه؟»

«هذا أيضًا، اشرب حليبك ولا تتوسل أكثر».

كان تلك بعض الذكريات التي خرجت من الماضي المترب.

كان دوكسولوجي يتسلق الارتفاع الأخير قبل الوصول الى مزرعة المنزل

وتعثرت أقدامه الكبيرة ببعض الحجارة في الطريق.

«بالطبع الأمر مرتبط بالعيون» قال لنفسه: «رأيت عيوننا كهذه مرتين فقط في

حياتي، وهي ليست مثل العين البشرية، لا، لا بد أن هذا تأثير الليل والقمر، ماذا

بحق السماء قد يربط بين الرجل الأشقر الذي تم شنقه منذ فترة طويلة وشابة

جميلة على وشك أن تنجب طفلًا؟ ليزا على حق، مخيلتي هذه ستحصل لي

على جواز سفر إلى جهنم في أحد الأيام. فلنحلل هذا الهراء، وإلا سيتمكن

الشيطان مني، إنها الطريقة التي يحاصرنا بها، من خلال الأفكار. فلنفكر بالأمر

بجدية ومن ثم نتركه وننتهي منه، موقف حدث عن شكل العين ولون العين

لا أكثر. لكن لا، هذا ليس كل شيء. إنها نظرة، وليست لها علاقة بالشكل أو

اللون. حسنًا، لماذا النظرة توحى بالشر إذا؟ ربما هي نظرة كانت في وقت

ما على وجه صالح. والآن، توقف عن هذه المبالغة ولا تسمح لهذه الأفكار

بالعودة مرة أخرى على الإطلاق. قرر صموئيل هاملتون أن يساعد بشكل كبير

في خلق جنة عدن وادي ساليناس، دفعة سرية كتعويض بسبب شعوره بالذنب

بسبب أفكاره القبيحة.

انتفضت ليزا هاملتون، بخديها الحمر اوين كما التفاح مثل نمر محبوس أمام الموقد عندما دخل صموئيل المطبخ في الصباح. اندلع خشب البلوط لتسخين الفرن للخبز الذي كان ناصع اللون ويرتاح منتفخاً في الأواني. كانت ليزا تستيقظ قبل الفجر، لطالما فعلت، كان من الخطيئة بالنسبة لها أن تستلقي بعد طلوع الفجر، تماماً كما لو كانت في الخارج بعد حلول الظلام، لم تكن هناك فضيلة ممكنة في أي منهما. شخص واحد فقط في العالم يمكنه الإفلات من العقاب وبدون ارتكاب جريمة الكذب وبنام بين ملاءاتها بعد شروق الشمس، بل وحتى في أقاصي النهار، وكان هذا هو أصغر وآخر موالدها، جو.

فقط توم وجو كانا يعيشان في المزرعة الآن. جلس توم الأحمر الضخم والذي كان قد نبت له شارب خفيف على طاولة المطبخ. سكت ليزا خليط البان كيك الغليظ على صينية الحجر الأملس. وارتفعت الكعكات الساخنة، ثم تشكلت تلك البراكين الصغيرة واندلعت حتى أصبحت جاهزة لقلبها. كانت مبهجة بتلك الآثار الداكنة وملأت المطبخ برائحة طيبة.

جاء صموئيل من الباحة حيث كان يغتسل، بوجهه ولحيته اللامعة بقطرات الماء، وأنزل أكمام قميصه الأزرق عندما دخل المطبخ. الأكمام المطوية على الطاولة لم تكن مقبولة لدى السيدة هاملتون. كان ذلك يشير إما إلى الجهل أو إهانة اللطف.

قال صموئيل: «لقد تأخرت يا أمي»

لم تنظر في وجهه، كانت تحرك ملعقتها مثل ثعبان وتقلب الكعك الساخن، «متى وصلت؟» سألته.

«أوه، كان الوقت قد تأخر. لا بد أنها كانت قريبة من الحادية عشرة. لم أنظر خوفاً من إيقاظك».

قالت ليزا بتجاهل: «لم أستيقظ. وربما تعتقد أنه من الصحي أن تتجول طوال الليل، لكن الرب سيفعل ما يراه مناسبًا حيال ذلك». كان معروفًا أن ليزا هاملتون والرب لديهما قناعات مماثلة في كل موضوع تقريبًا. استدارت ووضعت طبق من الكعك الساخن بين يدي توم: «كيف يبدو منزل سانشيز؟». ذهب صموئيل إلى زوجته وانحنى من علوه وقبل خدها الأحمر المكتنز. «صباح الخير يا أمي. امنحيني بركتك».

قالت ليزا تلقائيًا: «فليباركك الرب»

جلس صموئيل على الطاولة وقال «باركك الرب يا توم. حسنًا، يريد السيد تراسك إجراء تغييرات كبيرة. إنه يعد المنزل القديم للعيش فيه». استدارت ليزا بحدة من الموقد «المنزل الذي نامت فيه الأبقار والخنازير طوال هذه السنين؟»

«أوه، لقد أزال الأرضيات والنوافذ. كلها أصبحت مطلية وجديدة».

قالت ليزا بحزم: «رائحة الخنازير لا تنفذ أبدًا، إنها تترك خلفها رائحة نفاذة لا يمكن لأي شيء أن يغسلها أو يغطيها». «حسنًا، لكن عندما دخلت ونظرت حولي لم أستطع أن أشم شيئًا سوى رائحة الطلاء».

قالت: «عندما يجف الطلاء ستعود رائحة خنزير».

«لقد صنع حديقة منزلية تمر عبرها مياه الينابيع، وقد خصص مكانًا بعيدًا للزهور والورود وما شابه، وبعض الشجيرات ستصل له من بوسطن».

قالت بتجاهل: «لا أعلم كيف يتحمل الرب مثل هذا الهدر، ليس لأنني لا أحب الورد».

قال صموئيل: «قال إنه سيقتنص بعض القطع لي».

أنهى توم كعكاته الساخنة وحرّك قهوته: «أي نوع من الرجال هو يا أبي؟»  
«أعتقد أنه رجل طيب، يفكر ويتحدث بشكل جيد، لكنه مأخوذ بالأحلام -»  
قاطعته ليزا: «استمع للقدر الأسود الذي ينتقد سواد الإبريق»  
«أعرف، أعرف. لكن هل فكرت يوماً أن حلمي يحل محل شيء لم أتمكن  
من فعله؟ لدى السيد تراسك أحلام عملية ودولارات تكفي لجعلها تتحقق.  
يريد أن ينشئ حديقة من أرضه، وسوف يفعل ذلك».

«كيف تبدو زوجته؟» سألت ليزا.

«يا فعة جداً وجميلة جداً. هادئة وبالكاد تتكلم، وحبلى بطفلها الأول».

قالت ليزا: «أعرف ذلك، ماذا كان اسمها قبل الزواج؟»  
«لا أعرف».

«حسنًا، من أين هي؟»

«لا اعرف».

وضعت طبق الكعك الساخن أمامه وصبّت القهوة في فنجانه وأعدت ملء  
فنجان توم: «ماذا عرفت إذا؟ كيف يبدو ملبسها؟»

«جميل جداً، فستان أزرق ومعطف صغير وردي ضيق حول الخصر».

«لديك عين شديدة التركيز على ذلك. هل يمكنك القول إنها مخيطة أو تم  
شراؤها جاهزة من متجر؟»  
«أوه، أعتقد أنها جاهزة».

قالت ليزا بحزم: «لم تكن لتعرف. كنت تعتقد أن بدلة السفر التي خاقتها  
ديسي للذهاب إلى سان خوسيه قد تم شراؤها من المتجر».

«ديسي بارعة يا حبي، والإبرة تغني بين يديها». أجابها صاموئيل

قال توم: «تفكر ديسي في فتح محل خياطة في ساليناس».



«لقد أخبرتني بذلك، لقد حققت نجاحًا كبيرًا في هذا المجال». قال صاموئيل

«ساليناس؟» وضعت ليزا يديها على وركيها «ديسي لم تخبرني». قال صموئيل: «أخشى أننا أفسدنا مفاجأتها! أرادت إبقائها سرًا لمفاجأة والدتها وقد سربناها».

قالت ليزا: «ليتها أخبرتني، أنا لا أحب المفاجآت. حسنًا أكمل - ماذا كانت تفعل؟»  
«من؟»  
«السيدة تراسك طبعًا».

«ماذا تفعل؟ كانت جالسة على كرسي تحت شجرة بلوط. موعد ولادتها ليس بعيدًا».

«يذاها يا صموئيل، يذاها، ماذا كانت تفعل بيديها؟»  
فتش صموئيل في ذاكرته «لا شيء. ها تذكرت - كانت تضم يديها الصغيرتين في حجرها».

قالت ليزا بازدراء: «ألم تكن تخطط، تحيك، ترتق ثياباً؟»  
«لا يا أمي»

«لا أعرف إن كانت فكرة ذهابك إلى هناك جيدة. الغنى والكسل أدوات الشيطان، وأنت لست مقاوماً قوياً للغاية».

رفع صموئيل رأسه وضحك، كانت زوجته تسره أحياناً لكنه لا يعلم كيف يصف لها كيف تفعل ذلك». أذهب هناك فقط لجني بعض المال يا ليزا، كنت أنوي إخبارك بعد فراغك من تجهيز وجبة الإفطار حتى يمكنك الجلوس للاستماع. إنه يريد مني أن أحفر أربعة أو خمسة آبار له، وربما تشييد طواحين هواء وصهاريج تخزين».

«هل كل هذا كلام فحسب؟ هل هي طاحونة هوائية يديرها الماء؟ هل سيدفع لك أم ستعود وأنت تحمل أعدارك كالمعتاد؟ لقد قال إنه سيدفع عندما يبيع محصوله، سيدفع عندما يموت عمه الثري». هذا ما تجرعناه يا صموئيل، إذا لم يدفعوا في الوقت الحالي فلن يدفعوا على الإطلاق. يمكننا شراء مزرعة في هذا الوادي بكل الوعود التي لدينا».

قال صموئيل: «آدم تراسك سيدفع. إنه رجل جيد وغني. ترك له والده ثروة. إنه شتاء كامل من العمل. سننجز شيئاً رائعاً وسيكون لدينا عيد ميلاد لم نقض أجمل منه. سيدفع خمسين سنتاً للقدم وطواحين الهواء، ويمكنني صنع كل شيء ما عدا أغذية الآبار هنا. سأحتاج الأولاد للمساعدة، سأخذ توم وجو». قالت «جو لا يمكنه الذهاب، تعلم أنه رقيق».

«اعتقدت ربما هذا يساعده في التخلص قليلاً من هذه الرهافة، سيتضور جوعاً إن بقي هكذا».

«لن يذهب جو، ثم من سيدير المزرعة بينما تذهبان أنت وتوم؟»  
«فكرت أن أطلب من جورج العودة للمنزل. إنه لا يحب وظيفة الكاتب حتى لو كانت في كينغ سيتي».  
«ربما لا يعجبه ذلك، لكن يمكنه تحمل قدر من عدم الراحة مقابل ثمانية دولارات في الأسبوع».

صاح صموئيل: «هذه فرصتنا لنقش أسمائنا في المصرف الوطني! أرجوك لا تلقي بثقل لسانك في طريق الثروة!»

بقيت تتذمر لنفسها طوال فترة الصباح بسبب عملها بينما كان توم و صموئيل يتفقدان المعدات ويشحذان القطع الصغيرة ويرسمان رسومات تخطيطية لطواحين الهواء الجديدة، وقيسان الأخشاب وخزانات المياه. في منتصف الصباح خرج جو للانضمام إليهما، وأصبح مفتوناً جداً بما رآه لدرجة أنه طلب من صموئيل السماح له بمرافقتهما.

قال صموئيل: «دون تفكير أقول إنني أرفض ذلك يا جو. والدتك بحاجة إليك هنا».

«لكنني أريد أن أذهب معكما يا أبي. ولا تنس أنني في العام القادم سأذهب إلى الكلية في بالو ألتو. وهذا سوف ينتهي أليس كذلك؟ من فضلك دعني أرافقكما. سأعمل بجد».

«أنا متأكد من أنك ستفعل لكنني أرفض الأمر. وعندما تتحدث مع والدتك حول هذا الموضوع سأكون ممتناً إن أخبرتها أنني ضد هذا الأمر، وربما يمكنك توضيح أنني رفضت مجيئك».

ابتسم جو، وضحك توم بصوت عالٍ.

«هل تسمح لها بإقناعك؟» سأل توم.

عبس صموئيل وقال: «أنا رجل متشدد، بمجرد أن أتخذ قراراً في عقلي، لا تستطيع حتى الثيران أن تجعلني أغيره. لقد نظرت إلى الأمر من جميع الزوايا وكلمتي هي - لا يمكن لجو الذهاب. لن ترغب في جعلي كاذباً، أليس كذلك؟» قال جو: «سأدخل وأتحدث معها الآن».

نادى صموئيل: «تعامل مع الأمور بسهولة يا بني، استخدم عقلك ودعها هي تنجز الأمر. في هذه الأثناء سوف أقوم بالعمل على تعتي».

بعد يومين كانت العربة الكبيرة محملة بالأخشاب والمعدات. قاد توم أربعة جحافل، وبجانبه جلس صموئيل وجو بأقدامهما المتأرجحة.



## الفصل 17

### 1

عندما قلت إن كاثيري كانت وحشًا بدالي أنها كانت كذلك. أعدت الآن قراءة ما كتبته والهوامش، وأتساءل عما إذا كان رأيي صحيحًا. المشكلة هي أنه بما أننا لا نستطيع معرفة ما تريده فلن نعرف أبدًا ما إذا كانت قد حصلت عليه أم لا. إذا كانت بدلاً من الركض نحو شيء ما، كانت تهرب من شيء ما، ولا يمكننا معرفة ما إذا كانت نجحت في الهرب. من يدري، ربما حاولت أن تخبر شخصًا ما أو كل شخص بما كانت عليه وما لم تستطع ذلك بسبب عدم وجود لغة مشتركة. ربما كانت حياتها ولغتها متطورة أو غير قابلة للفهم. من السهل القول إنها كانت سيئة، لكن لا معنى لذلك إلا إذا عرفنا السبب.

لقد تخيلت صورة كاثيري في ذهني، جالسة بهدوء في انتظار انتهاء حملها، شابة تعيش في مزرعة لا تعجبها، مع رجل لا تحبه.

جلست على كرسيها تحت شجرة البلوط ويدها متشابكتان في الحب والمأوى. لقد أصبح بطنها كبيراً - انتفخ بشكل غير طبيعي، حتى في الوقت الذي كانت فيه النساء تتفاخر بالأطفال الكبار وتحسب الوزن الزائد بكل فخر. كانت تبدو مشوهة. كان بطنها مشدودًا وثقيلًا ومنتفخًا بحيث جعل من المستحيل عليها الوقوف دون دعم نفسها بيديها. لكن الكتلة الكبيرة كانت موضعية، فالأكتاف والرقبة والذراعان واليدان والوجه لم تتأثر وبقيت نحيلة. ثديها لم يكبرا ولم يغمق لون حلمتها. لم يكن هناك إفراز في غدد الحليب،

ولا أي إشارة للتهيئة الجسدية لتغذية المولود القادم. كانت عندما تجلس خلف طاولة لا تبدو حبلى على الإطلاق.

في تلك الأيام لم يكن هناك إجراء لقياس قوس الحوض، ولا فحص للدم، ولا تقوية بالكالسيوم. كان من المحتمل أن تصبح للمرأة رغبات وأذواق غريبة، وكما ذكر البعض تتعلق بالقدارة، وقد تم إرجاع ذلك إلى طبيعة حواء التي لا تزال تحت تأثير الحكم عليها بسبب الخطيئة الأولى.

كانت شهية كاثي الغريبة بسيطة مقارنة بالأخريات، اشتكى النجارون وهم يقومون بإصلاح المنزل القديم من عدم قدرتهم على الاحتفاظ بكتل الطباشير. كانت تختفي مراراً، حيث تسرقها كاثي وتكسرها إلى قطع صغيرة تحملها في جيب المئزر، وعندما لم يكن أحد بقربها تطحن الجير الناعم بين أسنانها. كانت قليلة الكلام وعيناها بعيدتان. بدا الأمر وكأنها غادرت تاركة دمية تتنفس لإخفاء غيابها.

تساعد النشاط من حولها. انخرط آدم سعيداً في بناء جتته الخاصة والتخطيط لها. حفر صموئيل وأولاده بئراً بعمق أربعين قدماً ووضعوا فوقها غطاء معدنياً جديداً وباهظ الثمن لأن آدم أراد الأفضل. قام هاملتون بتحريك جهاز الحفر الخاص بهم وفتحوا حفرة أخرى. كانوا ينامون في خيمة بجانب منطقة العمل ويطبخون فوق نار مخيم. ولكن كان هناك دائماً أحد منهم يتجه إلى المنزل برسالة ما أو بحثاً عن شيء. كان آدم كما نحلة مرتبكة بسبب كثرة الزهور، جلس بجانب كاثي وتحدث عن جذور النباتات التي ظهرت للتو. ورسوم لها شفرة المروحة الجديدة التي اخترعها صموئيل لطاحونة الهواء. كانت ذات ميل متغير وهذا شيء لم يُسمع به من قبل. كان ينطلق إلى منصة البئر ويبطئ العمل باستفساراته واهتمامه. وبطبيعة الحال عندما ناقش الآبار مع كاثي كان حديثه كله يتحول إلى ما يتعلق بالولادة ورعاية الأطفال. كان وقتاً رائعاً في حياة آدم، بل كان أفضل وقت. كان مَلِك حياته الواسعة. وانتقل الصيف إلى خريف حار وعطر.

أنهى صامويل وولده غداءهم المكون من خبز ليزا وجبن الفئران والقهوة السامة المطبوخة في علبة فوق نار المخيم. كانت عيون جو ثقيلة ويفكر في كيفية الابتعاد بطريقة ما لينال قسطاً من النوم لفترة من الوقت.

ركع صموئيل في التربة الرملية ناظرًا إلى حواف مثقابه المكسورة. قبل أن يتوقفوا عن العمل لتناول طعام الغداء كان قد وجد المثقاب شيئاً على عمق 30 قدماً أدى إلى إتلاف الفولاذ كما لو كان رصاصاً. كشط صموئيل حافة النصل بسكين جيبه وتفقد الكشط في راحة يده. مديده وصب الكشط في يد توم.

«ألق نظرة عليه يا بني. برأيك ما هذا؟»

تحرك جو من مكانه أمام الخيمة، فيما تأمل توم الشظايا في يده وقال: «مهما كان فهو قوي، لا يمكن أن يكون الماس بهذا الحجم. هذا يشبه المعدن. أيعقل أننا أثقنا قاطرة مدفونة؟»

ضحك والده وقال بإعجاب: «ثلاثون قدماً إلى الأسفل.»

قال توم: «يبدو وكأنه فولاذ، ليس لدينا ما يمكن أن يلمسه.»

ثم رأى النظرة البعيدة المبتهجة على وجه والده، فشرع بقشعريرة من البهجة المشتركة. كان أبناء هاملتون يحبون عندما يسافر والدهم بأفكاره بعيداً، كانوا يعلمون أن العالم حينها سيصبح مليئاً بالعجائب.

قال صموئيل: «تقول إنه معدن. هل تعتقد أنه فولاذ يا توم؟ سأقوم بتخمين ثم سنجري فحصاً، أصغ إلى تخميني - وتذكره. أعتقد أننا سنجد فيه النيكل، وربما الفضة، الكربون، المنغنيز. أه كم أرغب في حفرها! إنها رمال بحر.»

قال توم «ما رأيك - بالنيكل والفضة -»

قال صموئيل: «لابد أن الأمر حدث منذ آلاف السنين» وكان أبناؤه يعلمون

أنه كان يرى الأمر في مخيلته». ربما كانت المياه هنا - بحر تحلق فوقه الطيور البحرية، لا بد أنه كان جميلاً جداً إذا كان قد حدث في الليل. خط من الضوء الأبيض، ثم شجرة من نور ساطع في قوس طويل ممدود من السماء. ثم يحدث انبجاس عظيم للماء يتبعه فطر ضخيم من بخار الماء. الصوت يصم الأذان لأن دوي مجيئه يصل في نفس الوقت الذي ينفجر فيه الماء.

وبعد ذلك تعود الليلة سوداء مرة أخرى. تدريجياً سترى السمك الميت يطفو، وتظهر كما رقائق من الفضة في ضوء النجوم، وتعود الطيور لتأكلها. إنه شيء جميل ومتوحد عندما تفكر فيه أليس كذلك؟»

جعلهم يرون الأمر كما كان يفعل دائماً.

قال توم بهدوء: «تعتقد أنه نيزك، أليس كذلك؟»

«نعم أعتقد ذلك، ويمكننا إثبات ذلك بالفحص».

قال جو بلهفة «فلنحفر»

«أنت احفر هنا يا جو بينما نحفر نحن البئر».

قال توم بجدية «إذا أظهر الفحص ما يكفي من النيكل والفضة، ألا يُدفع لنا مقابل استخراجها؟»

قال صموئيل: «لا نعرف ما إذا كانت الكمية بحجم منزل أو صغيرة بحجم قبة».

«ولكن يمكننا أن نحفر ونرى».

«يمكننا ذلك إذا فعلنا ذلك سرّاً وأخفينا تفكيرنا تحت قدر». قال صموئيل

«لماذا؟ ماذا تعني؟»

«توم، أليس لديك أي تعاطف مع والدتك؟ نحن بالفعل نتعبها بما يكفي يا بني. لقد أخبرتني بوضوح أنني إذا أنفقت المزيد من الأموال للحصول على براءات اختراع لأشياء فسوف تمنحنا مصائب لتذكرها. إنني أشفق عليها!



ألا يمكنك رؤية شعورها بالحرج عندما يسألونها عما فعله؟ والدتك امرأة صادقة، تجيبهم: «إنهم يحفرون بحثاً عن نجم». قهقهه وهو يكمل: «لم تكن أبداً لتغفر لنا إن فعلناها، ولا فطائر لنا لمدة ثلاثة أشهر».

قال توم: «لا يمكننا الحفر هنا، سيتعين علينا الانتقال إلى مكان آخر».

قال والده: «دعني أضع بعض مسحوق التفجير، وإذا لم تتمكن من تكسيه نحفر في مكان آخر. سأضطر للعودة إلى المنزل لإحضار المسحوق وشحن المثقاب. لماذا لا تعودان معي يا أولاد وسفاجي أمكما وستطبخ طوال الليل وتشكو، وهكذا تخفي سعادتها». مكتبة سُر من قرأ

قال جو: «شخص ما قادم بسرعة». وبالفعل استطاعوا أن يروا فارساً مقبلاً يتخبط على حصانه مثل دجاجة مربوطة. عندما اقترب قليلاً اكتشفوا أنه لي، مرفقاه يلوحان مثل جناحين، وجديلته تتحرك كما ثعبان، كان من المدهش أنه بقي على ظهر الحصان وقاده على الرغم من ميل جسده بالكامل. أخيراً توقف وهو يتنفس بصعوبة: «أنسة سيد آدم تقول تعال! أنسة كاثي سيئة. تعال بسرعة. أنسة تصرخ».

قال صموئيل: «اهدأ يا لي. متى بدأ مخاضها؟»

«وقت إفطار ربما».

«حسناً اهدأ. كيف حال آدم؟»

«أنسة آدم مجنون. تبكي - تضحك - تتقيأ».

قال صموئيل: «بالتأكيد، إنهم آباء جدد. كنت مثلهم يوماً. توم، هلا وضعت

السرّج»

قال جو: «ما الذي حدث؟»

«السيدة تراسك على وشك إنجاب طفلها. أخبرت آدم أنني سأساعدتها».

«أنت؟» سأل جو.

نظر صموئيل لابنه الأصغر: «لقد جلبت كليهما إلى العالم، ولم تقدا أي دليل يثبت أنني قدمت خدمة سيئة للعالم. توم، اجمع كل الأدوات وعد إلى المزرعة واشحذ المثقاب. واجلب معك علبة البودرة الموجودة على الرف في سقيفة الأدوات، وكن حذراً ومتنبهاً وحافظ عليها كما تفعل مع ذراعيك ورجليك. جو، أريدك أن تبقى هنا وتعتني بالأمر».

قال جو بتذمر: «لكن ماذا سأفعل هنا بمفردي؟»

صمت صموئيل لحظة. ثم قال، «جو، هل تحبني؟»

«بالتأكيد».

«إذا سمعت أنني ارتكبت جريمة كبيرة، فهل ستسلمني إلى الشرطة؟»

«عن ماذا تتحدث؟»

«هل ستفعل؟»

«لا».

«حسناً إذاً. في سلتي، تحت ملابسي، ستجد كتابين جديدين، لذا كن لطيفاً معهما. إنهما مجلدان لرجل سيستمع العالم إليه. يمكنك البدء في القراءة إذا وددت وسيرفع الغطاء عن عقلك بعض الشيء. عنوانه مبادئ علم النفس وهو من قبل رجل شرقي يدعى وليم جيمس - لا ليس قريباً لسارق القطار. وجو، إذا تحدثت عن الكتب سأطردك من المزرعة. إذا اكتشفت والدتك أنني أنفقت المال عليها، فستطردني أنا من المزرعة».

قاد توم حصاناً مثقلاً إليه: «هل يمكنني قراءته بعد ذلك؟»

قال صموئيل «نعم، هيا يا لي».

أراد الصيني الإسراع بالحصان لكن صموئيل منعه: «تمهل يا لي، تستغرق الولادة في الغالب وقتاً أطول مما تعتقد».

بقيا صامتين لبعض الوقت ثم قال لي: «يؤسفني أنك اشتريت تلك الكتب،

لدي الكتاب في مجلد واحد. كان من الممكن أن تستعيرها».

«حقاً؟ هل لديك كتب كثيرة؟»

«هنا ليس لدي الكثير - ثلاثون أو أربعون. يمكنك بكل محبة الاطلاع على أي منها.»

«شكراً لي. كن متأكداً من أنني سأفعل في أول فرصة تتاح لي. أتعلم؟ يمكنك التحدث إلى أولادي، جو طائش قليلاً ولكن توم جيد وسيفيده ذلك.»

«إنه جسر صعب العبور بالنسبة لي سيد هاملتون. يجعلني أشعر بالخجل من التحدث إلى شخص جديد، لكنني سأحاول إذا كنت تريد ذلك.»

قال صاموئيل بينما يقتربان بسرعة من منزل تراسك: «قل لي كيف حال الأم؟»

قال لي: «أفضل أن ترى وتفكر بنفسك، أنت تعرف أنه عندما يعيش رجل بمفرده لوقت طويل مثلي، يمكن لعقله أن ينفجر بشكل غير عقلائي لمجرد أن عالمه الاجتماعي خارج عن السيطرة.»

«نعم أعرف. لكنني لست وحيداً وأنا أيضاً مشوّش، ربما ليس نفس الشيء.»

«ألا تعتقد أنني أتوهم هذا كله؟»

«لا أعرف، لكنني أؤكد لك لطمأنتك بأن لدي إحساس بالغرابة.»

قال لي: «أعتقد أن هذا ما يحدث معي أيضاً، مع ذلك لن تتصور إلى أي مدى وصل الأمر معي. منذ أن جئت إلى هنا أجد نفسي أفكر في القصص الخيالية الصينية التي أخبرني بها والدي. نحن الصينيون لدينا علم الشياطين متطور.»

«هل تعتقد أنها شيطان؟»

قال لي «بالطبع لا، أمل ألا أكون بهذا السخف. لا أعلم ما الأمر. كما تعلم سيد هاملتون، يعمل الخادم على تطوير القدرة على استشعار ما يحدث والحكم على مناخ المنزل الذي يعمل فيه، وهناك غرابة هنا. ربما هذا ما يجعلني أتذكر شياطين والدي.»

«هل كان والدك يؤمن بهم؟»

«أوه، لا. كان يعتقد أنني يجب أن أعرف خلفية الأمر. أنتم الغربيون تخلّدون العديد من الأساطير أيضًا».

قال صموئيل: «فلنبدأ بإخباري بما حدث اليوم، أعني هذا الصباح».

قال لي: «إذا لم تكن قادمًا كنت سأتيك بنفسي، ربما تعتقدني مجنوناً لكنك ستري بنفسك، طبعاً السيد آدم مشدود الأعصاب لدرجة أنه قد ينقطع فجأة مثل وتر آلة بانجو».

«أعطني القليل من التلميح. قد يوفر هذا عليّ بعض الوقت. ماذا فعلت السيدة؟»

«لا شيء مطلقاً. هذا ما في الأمر سيد هاملتون، لقد كنت حاضراً في ولادات من قبل، والعديد منها جيدة، لكن هذا شيء جديد بالنسبة لي».

«كيف؟»

«إنه - حسناً - سأخبرك بشيء واحد يمكنني التفكير فيه. الأمر يشبه إلى حد كبير معركة مريرة وقاتلة أكثر من ولادة».

وبينما كانا يسيران تحت أشجار البلوط قال صموئيل: «أتمنى ألا أضطرب يالي. إنه يوم غريب، لا أعرف لماذا».

قال لي «لا رباح. إنه اليوم الأول في الشهر عندما لا تكون هناك رياح في فترة ما بعد الظهر».

«صحيح. هل تعلم أنني كنت مركزاً جداً على التفاصيل لدرجة أنني نسيت الاهتمام بهندام اليوم. في بدايته نجد نجماً مدفوناً والآن نذهب لاستخراج بذرة جديدة للبشرية». ثم أردف وهو يتطلع من خلال فروع البلوط إلى التلال المتألقة بالنور الأصفر: «يا له من يوم جميل لتولد فيه! إذا كانت الأبراج تمتلك أي تحكّم على الحياة فهذا يعني أن هناك حياة حلوة مقبلة. لي، فلتبق على

مقربة، في حال احتجتُ لشيء. انظر، إن العمّال والنجارين يجلسون تحت تلك الشجرة».

«السيد آدم أوقف العمل. شعر أن الطرق قد يزعج زوجته».

قال صموئيل: «ابقَ قريبًا. يبدو أن آدم لا فكرة لديه عما يفعله، إنه لا يعرف أن زوجته ربما لا تستطيع في هذا الوقت حتى سماع الرب نفسه ينفخ بوقاً في السماء».

لوح له العمال الجالسون تحت الشجرة. كيف حالك سيد هاملتون. كيف حال عائلتك؟

«بخير. أليس هذا رابيت هولمان؟ أين كنت يا رابيت؟»

«ذهبت للبحث سيد هاملتون».

«هل وجدت أي شيء؟»

«تبا، لم أتمكن حتى من العثور على البغل الذي خرجت به».

اقتربا من المنزل وقال لي بسرعة، «إذا حصلت على دقيقة في أي وقت، أود أن أريك شيئاً».

«ما هو يا لي؟»

«حسنًا، كنت أحاول ترجمة بعض الشعر الصيني القديم إلى الإنجليزية».

لست متأكدًا من إمكانية قيامي بذلك. هلا ألقيت نظرة؟»

«بكل سرور يا لي، بل ستكون متعة بالنسبة لي».

### 3

كان منزل بوردوني الأبيض هادئًا للغاية، هادئًا بشكل كئيب تقريبًا، وتم إنزال الستائر. نزل صموئيل عند المنحدر وفك سرجه وسلّم حصانه إلى لي. طرق الباب وعندما لم يتلق أي رد سمح لنفسه بالدخول. كانت غرفة المعيشة

معتمة. نظر في المطبخ الذي قام لي بتنظيفه جيداً. إبريق من الفخار الرمادي على ظهر الموقد. نقر صموئيل برفق على باب غرفة النوم ودخل.

كان من الداخل شبه أسود قاتم، فلم تكن الستائر مظلمة فحسب بل تم لصق البطانيات فوق النوافذ. كانت كاثي مستلقية على السرير الكبير المغطى بأربعة أعمدة وآدم جالس بجانبها ووجهه مدفون في الغطاء. رفع رأسه ونظر إلى حيث الباب.

قال صموئيل بلطف: «لماذا تجلس في الظلام؟»

كان صوت آدم أجش: «إنها لا تريد الضوء، يؤلم عينيها».

دخل صموئيل الغرفة ونمت فيه السلطة مع كل خطوة. قال: «يجب أن يكون هناك بعض الضوء». «يمكنها أن تغمض عينيها، سأربط قطعة قماش سوداء عليهما إذا أرادت ذلك». انتقل إلى النافذة وأمسك بالبطانية ليسحبها لأسفل، لكن آدم انقض عليه قبل أن يتمكن من شدتها.

«اتركه». قال بشراسة: «الضوء يزعجها».

انقلب عليه صموئيل: «آدم، أعرف ما تشعر به. لقد وعدتكم بأنني سأعتني بالأمور وسأفعل. أتمنى ألا تكون أنت أحد هذه الأمور». سحب البطانية لأسفل ورفع الستارة للسماح بدخول ضوء الظهيرة الذهبي.

أصدرت كاثي صوتاً بسيطاً من السرير وذهب إليها آدم: «أغمضي عيني يا عزيزتي. سأضع قطعة قماش على عينيك».

وقف صاموئيل بجانب السرير وقال بحزم: «آدم، سأطلب منك الخروج من الغرفة والبقاء بالخارج».

«لا، لا أستطيع. لماذا؟»

«لأنني لا أريدك في الطريق. يمكنك أن تشمل».

«لا أستطيع».

قال صموئيل: «الغضب شيء بطيء في داخلي والاشمئزاز أبطأ منه، لكن يمكنني استشعار بدايتهما. ستخرج من الغرفة ولن تسب لي أي مشكلة وإلا سأرحل وستواجه مجموعة من المشاكل».

ذهب آدم أخيرًا، ونادى صموئيل من المدخل: «ولا أريد للهلح أن يتتابك إذا سمعت شيئًا. انتظرنى إلى أن أخرج». أغلق الباب ولاحظ وجود مفتاح في القفل فأقفله وقال: «إنه رجل مستاء وعنيد، إنه يحبك».

لم ينظر إليها عن كثب قبل تلك اللحظة. ورأى في عينيها كراهية حقيقية، كراهية قاتلة لا ترحم.

«سينتهي الأمر قريبًا يا عزيزتي. أخبريني الآن، هل نزل الماء؟»

حدقت بعينيها العدوانيتين في وجهه ورفعت شفيتها زمجرة من أسنانها الصغيرة. لم تجبه.

«ما جئت باختياري بل بصفتي صديقًا، وهذا ليس من دواعي سروري أيتها الشابة. لا أعرف مشكلتك ولا تهمني. ربما يمكنني أن أنقذك من بعض الألم - من يدري؟ سأطرح عليك سؤالًا آخر. إذا لم تجيبي، أو نظرت لي مجددًا بتلك النظرة، فسأخرج وأتركك تتخبطين».

اخترقت الكلمات وعيها مثل رصاصة تخترق الماء. بذلت مجهودًا عظيمًا وجعلته يرتجف لرؤية وجهها يتغير والفولاذ يترك عينيها، والشفاه تتكور بعد أن كانت خط مستقيم. لاحظ حركة في يديها، أرخت قبضتها وعاد اللون الوردي إليهما. عاد وجهها شابًا وبريثًا وشجاعًا. كانت مثل شريحة فانوس سحرية تحل محل الأخرى.

قالت بهدوء: «الماء نزل فجراً».

«هذا أفضل. هل أتت انقباضات قوية؟»

«نعم».

«ما مدى تباعد النوبات؟»

«لا أعرف».

«حسنًا، أنا في هذه الغرفة منذ خمس عشرة دقيقة».

«مررت بنوبتين خفيفتين - لم تأتني نوبات قوية مذ جئت».

«حسنًا. الآن أين أغطية الكتان؟»

«في تلك السلة هناك».

قال بلطف: «ستكونين بخير يا عزيزتي».

فتح كيس السرج خاصته وأخرج حبلًا سميكًا مغطى بالمخمل الأزرق وملفوفًا من كلا الطرفين. تم تطريز المئات من الزهور الوردية الصغيرة على المخمل. قال: «لقد أرسلت لك ليزا حبلها لتستخدميه. لقد ساعدنا عندما كان مولودنا الأول قادمًا، ثم لأطفالنا وأصدقائنا، جلب هذا الحبل عددًا كبيرًا من الناس إلى العالم». وضع حلقة حول كل قدم من أقدام السرير.

فجأة لمعت عيناها وتقوس ظهرها كالنبع وتجمع الدم في خديها. انتظر صراخها أو استغاثتها ونظر بقلق إلى الباب المغلق. لكن لم يكن هناك صراخ - فقط أنين مكتوم طويل. بعد ثوانٍ استرخى جسدها وعادت الكراهية إلى وجهها.

باغتها نوبة أخرى فقال بهدوء: «عمل جيد، هل كانت واحدة أم اثنتين؟»

«لا أعرف».

«كلما انتبهت أكثر تعلمت أنه لا توجد نوبتان متشابهتان. من الأفضل أن

أغسل يدي».

كان رأسها ينتقل من جانب إلى آخر. قال لها بحنان: «جيد، جيد يا عزيزتي،

أعتقد أنه لن ينقضي وقت طويل حتى يكون طفلك هنا». وضع يده على جبهتها

حيث كانت نذبتها تبدو داكنة وغازبية. كيف حدث هذا لرأسك؟» سأل.



قفز رأسها لأعلى وانقضت بأسنانها الحادة على ظهر يده وبقيت مثبتة على جانب راحة يده بالقرب من الخنصر. صرخ من الألم وحاول سحب يده بعيداً، لكن فكها كان مثبتاً بشدة بحيث التوى رأسها واستدار مع اليد بالطريقة التي يهجم بها الكلب على كيس. خرجت زمجرة صاخبة من بين أسنانها. صفعها على خدها ولم يكن له أي تأثير. في النهاية فعل تلقائياً ما كان سيفعله لو وقف هجوم كلب عليه، ذهبت يده اليسرى إلى حلقها وقطع عنها التنفس. كافحت ومزقت يده قبل أن يفتح فكها ويتمكن من سحب يده. كانت يده مجروحة وتنزف. تراجع عن السرير ونظر إلى الضرر الذي أحدثته أسنانها. تطلع في وجهها بخوف، كان وجهها هادئاً وبريئاً مرة أخرى.

قالت بسرعة: «أنا آسفة، أنا آسفة بحق». ارتجف صموئيل.

قالت: «لقد كان الألم».

ضحك صموئيل بعد قليل: «سأضطر إلى تكميم صوتك على ما أعتقد، في إحدى المرات فعلت بي كلبة كولي نفس الشيء» رأى الكراهية تنضح من عينيها للحظة ثم تراجع.

قال صموئيل «هل لديك ما يمكنني تغطية الجرح به؟ البشر أكثر سمية من الشعابين».

«لا أعرف».

«حسناً، هل لديك أي ويسكي؟ سوف أسكب بعض الويسكي عليه».

«في الدرج الثاني».

كان يرش الويسكي على يده التي تنزف ويضغط على اللحم لتخفيف لسعة الكحول. كان يشعر باضطراب قوي في معدته واعياء. ارتشف جرعة من الويسكي ليثبت نفسه. كان يخشى النظر نحو السرير، قال: «لن تتعافى يدي بسرعة».

قال صموئيل لآدم بعد ذلك: «لابد أنها مخلوقة من عظم الحوت. حدثت الولادة قبل أن أكون جاهزاً. تفرقت. لم أكن قد جهزت الماء لغسله. لم تلمس حتى حبل الشد. إنها مخلوقة من عظام حوت نقية». اندفع نحو الباب ودعا لي لإحضار الماء الدافئ فوراً. جاء آدم راكضاً إلى الغرفة «صبي!» صاح صموئيل «أصبح لديك ولد!» ثم أردف بسرعة: «الولادة كانت سهلة» لأنه انتبه أن آدم كان مذهولاً وهو ينظر إلى الفوضى في السرير.

قال صموئيل «أرسل لي إلى هنا. وأنت يا آدم، إذا كنت ما زلت تملك السلطة لإخبار يديك وقدميك بما يجب عليك فعله، اذهب إلى المطبخ واصنع لي بعض القهوة. وانظر إن كانت المصابيح ممتلئة والمداخن نظيفة».

تحرك آدم مثل الزومبي وغادر الغرفة وخلال لحظة كان لي هناك. أشار صموئيل إلى حزمة في سلة الغسيل «امسحه بإسفنجة بالماء الدافئ يا لي. لا تدع بقعة عليه. يا إلهي! أتمنى لو كانت ليزا هنا. لا أستطيع أن أفعل كل شيء مرة واحدة».

عاد إلى السرير: «والآن يا عزيزتي، سأقوم بتنظيفك».

انحنت كاثي مرة أخرى نحوه، مزمجرة من الألم. قال لها بهدوء «سيتتهي الأمر بعد قليل، الرواسب تستغرق بعض الوقت. أنتِ سريعة جداً، لم تحتاجي حتى لحبل ليزا». بعد لحظة رأى شيئاً وحدق بذهول وانتقل فوراً إلى العمل مجدداً: «يا رب السماوات، إنه طفل آخر!»

كان يعمل بسرعة، وكما هو الحال مع الولادة الأولى كانت الولادة سريعة بشكل لا يصدق. ومرة أخرى ربط صموئيل الحبل. أخذ لي الطفل الثاني وغسله ولفه ووضع في السلة.

قام صموئيل بتنظيف الأم ونقلها برفق بينما كان يقوم بتغيير ملاءات السرير. أثر عدم النظر في وجهها وعمل بأسرع ما يمكن لأن يده التي تعرضت للعض

كانت متيبسة. سحب ملاءة بيضاء نظيفة حتى ذقنها ورفعها لوضع وسادة جديدة تحت رأسها. في النهاية كان عليه أن ينظر إليها.

كان شعرها الذهبي مبللاً بالعرق لكن وجهها تغير. كان صخورياً بلا تعبير. في عنقها كان النبض يرفرف بشكل واضح.

قال صموئيل: «أصبح لديك ولدان، ولدان جميلان. إنهما ليسا متشابهين. كل واحد ولد منفصلاً في كيسه».

نظرت إليه ببرود وبدون أدنى اهتمام.

قال صموئيل: «سأريك أولادك».

قالت دون اهتمام «لا».

«هيا الآن يا عزيزتي، أيعقل ألا تريدي رؤية ابنيك؟»

«لا. لا أريدهما».

«أوه، سوف تتغيرين. أنت متعبة الآن، لكنك ستتغيرين. دعيني أخبرك -

كانت هذه الولادة أسرع وأسهل ولادة رأيتها في حياتي».

«لا أريدهما. أريدك أن تغطي النوافذ وتقطع هذا الضوء».

«إنه الإنهاك. في غضون أيام قليلة ستشعرين أنك مختلفة تماماً ولن

تتذكرني».

«سأتذكر هذا. أخرج. وأخرجهم من الغرفة. أرسل آدم».

تأثر صموئيل بنبرة صوتها. لم يكن هناك مرض ولا تعب ولا رقة. خرجت

كلماته رغماً عنه: «أنا لا أحبك». وتمنى لو كان بإمكانه إعادة الكلمات إلى

حلقة وفي ذهنه. لكن كلماته لم يكن لها أدنى تأثير على كاثيري.

قالت: «أرسل آدم إلى هنا»

في غرفة المعيشة الصغيرة نظر آدم بشكل مبهم إلى الطفلين ودخل بسرعة

إلى غرفة النوم وأغلق الباب. في لحظة جاء صوت الخبط. كان آدم يسمر البطانيات على النوافذ مرة أخرى.

أحضر لي القهوة إلى صموئيل: «لديك يد مروّعة».

«أعرف. أخشى أن يتسبب ذلك في مشاكل لي».

«لماذا فعلت بك هذا؟»

«لا أعرف. إنها كائن غريب».

«اسمح لي أن أعتني بها سيد هاملتون، قد تفقد ذراعك إن أهملتها».

وكان الحياة كانت قد غادرت صموئيل: «افعل ما تريد يا لي. لقد حل حزن مخيف على قلبي. أتمنى لو كنت طفلاً حتى أبكي. أنا أكبر من أن أخاف بهذا الشكل، ولم أشعر بمثل هذا اليأس منذ أن مات طائر بيدي بسبب فيضان المياه منذ فترة طويلة».

غادر لي الغرفة وعاد بعد قليل حاملاً صندوقاً صغيراً من خشب الأبنوس منحوتاً بالتنانين الملتوية. جلس بجانب صموئيل وأخذ من صندوقه ماكينة حلاقة صينية إسفينية الشكل. قال بهدوء: «سيؤلمك».

«سأحاول أن أتحمّل يا لي».

عَضّ الصيني شفتيه وهو يشعر بالألم في نفسه بينما كان يجرح بعمق يد صموئيل، فتح اللحم حول علامات الأسنان الأمامية والخلفية، وقص اللحم الممزق بعيداً حتى يتدفق الدم الأحمر الجيد من كل جرح. قام بهز زجاجة من مستحلب أصفر وسكبها في الجروح العميقة ثم أشبع منديلاً بالمرهم ولف اليد. جفل صموئيل خلال كل ذلك وبقي قابضاً على ذراع الكرسي بيده الجيدة.

قال لي: «إنه حمض الكربوليك في الغالب، يمكنك شمه».

«شكراً لي. لقد تدمرت كما الأطفال».

قال لي: «لم أعتقد أنه كان بإمكانني أن أكون هادئًا هكذا. سأحضر لك فنجانًا آخر من القهوة».

رجع بكوبين وجلس بجانب صموئيل. قال: «أعتقد أنني سأرحل بعيدًا عن هذا المكان، لم أذهب يوماً بمحض إرادتي إلى مسلخ».

ارتبك صموئيل: «ماذا تقصد؟»

«لا أعرف. خرجت الكلمات دون إرادة مني»

ارتجف صموئيل: «لي، الرجال حمقى. أعتقد أنني لم أفكر في الأمر، لكن يبدو أن الرجال الصينيين حمقى أيضًا».

«ما الذي جعلك تشك في ذلك؟»

«أوه، ربما لأننا نعتقد أن الغرباء أقوى وأفضل منا».

«ماذا تريد أن تقول؟»

قال صموئيل: «ربما الحماقة ضرورية، قتال التنين، التباهي، الشجاعة المؤسفة في الاستمرار بمحاولة هزيمة الرب، والجبن الطفولي الذي يخلق شبحاً من شجرة ميتة بجانب طريق مظلم. ربما هذا كله جيد وضروري، لكن -»  
«ماذا تريد أن تقول؟» كرر لي بصبر.

قال صموئيل: «أشعر وكأن رياحاً ما أثارت جمر ذهني الأحمق، والآن يمكنني القول من ملاحظة صوتك أنك تشعر بهذا أيضاً. أشعر بشيء يخيم فوق هذا المنزل. أشعر بفرع قادم».

«أشعر به أيضاً».

«أعلم أنك تفعل ذلك، وهذا يجعلني أتعامل براحة أقل مع حماقتي. كانت هذه الولادة سريعة جداً وسهلة للغاية - كما قطة تلد قطعاً صغيرة. أخشى على هذه القطط، أفكار مروعة تقضم عقلي».

«ماذا تريد أن تقول؟» سأل لي مرة ثالثة.

صرخ صموئيل: «أريد زوجتي. لا أحلام ولا أشباح ولا حماقات. أريدها هنا. يقولون إن عمال المناجم يأخذون طيور الكناري إلى مناجمهم لاختبار الهواء. ليزا لا تنسجم مطلقاً مع الحماقات، ثم إنها إذا رأت شبحاً فهو شبح وليس جزءاً من حلم. إذا ما شعرت ليزا بأن هناك متاعب قادمة نحن نغلق الأبواب فوراً».

نهض لي وذهب إلى سلة الغسيل واقترب ينظر إلى الطفلين: «إنهما نائمان». «سوف يصرخان قريباً. لي، هل يمكنك الذهاب إلى ليزا في المنزل من أجلي؟ أخبرها أنني بحاجة إليها هنا. إذا كان توم لا يزال هناك، أخبره أن يهتم بالمكان. إذا لم يكن سأرسله في الصباح. وإذا كانت ليزا لا تريد المجيء أخبرها أننا بحاجة إلى يد امرأة هنا وعينين صافيتين. ستعرف ما تقصده».

قال لي: «سأفعل ذلك، ربما نخيف بعضنا مثل طفلين في الظلام».

قال صموئيل: «لقد فكرت في ذلك. لي، أخبرها أنني جرحت يدي في العمل عند البئر. لا تخبرها بحق الرب كيف حدث هذا».

قال لي: «سأضيء بعض المصابيح وأذهب. سيكون وجودها هنا من دواعي الارتياح».

«هذا ما سيحدث، لي. سيكون كذلك، ستسمح لبعض الضوء بالدخول إلى فتحة هذا القبو».

بعد أن اختفى لي في الظلام التقط صموئيل مصباحاً بيده اليسرى، كان عليه أن يضعه على الأرض ليدير مقبض باب غرفة النوم. كانت الغرفة مظلمة للغاية وكان ضوء المصباح الأصفر يتدفق إلى أعلى ولم يلقي النور على السرير.

جاء صوت كاثي قوياً وحاد من السرير «أغلق الباب. لا أريد النور. آدم، اخرج! أريد أن أكون وحدي».

قال آدم بصوت خشن، «أريد أن أبقى معك».

«أنا لا أريدك».

«سوف أبقى».

«فلتبق إذاً. لكن لا تتحدث بعد الآن. أغلق الباب وأبعد هذا المصباح».

عاد صموئيل إلى غرفة المعيشة. وضع المصباح على المنضدة بجانب سلة الغسيل ونظر إلى الصغيرين النائمين. كانت عيونهما مغمضة وتلملماً قليلاً بسبب مباغطة الضوء، مسح صموئيل سبابته على جبهتهما الدافئتين، فتح أحد التوأمين فمه وتثأب بشكل مذهل وغرق مرة أخرى في النوم. حرك صموئيل المصباح ثم توجه إلى الباب الأمامي وفتحه وخرج. كان نجم المساء ساطعاً لدرجة أنه بدا وكأنه يتوهج ويتغضن وهو يغرق باتجاه الجبال الغربية. كان الهواء ساكناً، ورائحة المريمية الدافئة تملأ المكان. الليلة مظلمة جداً. جفل صموئيل عندما سمع صوتاً صادراً من الحلقة.

«كيف حالها؟»

«من هذا؟» سأل صموئيل.

«هذا أنا، رابيت». خرج الرجل وتشكل في ضوء المدخل.

«الأم؟ أوه، إنها بخير».

«قال لي أنهما توأم».

«هذا صحيح - توأم من الذكور. لا يمكنك أن تطلب أفضل من هذا. أعتقد أن السيد تراسك سوف يشق النهر من جذوره الآن. سيحضر محصولاً من قصب الحلوى».

لم يعرف صموئيل سبب تغيير الموضوع: «رابيت، هل تعرف ما الذي استخرجناه من التربة ونحن نثقب الأرض اليوم؟ نيزك».

«ما هو النيزك سيد هاملتون؟»

«شهاب سقط قبل مليون سنة».

«ووجدته أنت؟ يا لك من محظوظ! كيف جرحت يدك؟»

«كدت أن أقول بسبب ذلك الشهاب» ضحك صموئيل. «لكنه ليس بأمر

مهم. حادث في العمل».

«أهو جرح سيء؟»

«لا، ليس سيئاً».

«ولدان، زوجتي العجوز سوف تغار».

«هل تود الدخول والجلوس قليلاً رايت؟»

«لا، لا شكراً لك. سأخرج للنوم. يبدو أن الصباح يأتي مبكراً أكثر في كل

عام أعيشه».

«صدقت في هذا. إذاً تصبح على خير».

وصلت ليزا هاملتون حوالي الرابعة صباحاً. كان صموئيل نائماً في مقعده،

يحلم بأنه قابض على قضيب ملتهب من الحديد ولا يمكنه إفلاته من يديه.

أيقظته ونظرت إلى يده حتى قبل أن تنظر إلى الرضيعين. بينما ربت ما قام

به من عمل بتناقل وذكورية، أمرته بالنهوض في هذه اللحظة والذهاب فوراً

إلى كينغ سيتي. لا يهم الوقت، عليه أن يذهب إلى ذلك الطبيب الذي لا فائدة

منه والحصول على علاج ليد. إذا كان يبدو بخير يمكنه العودة إلى المنزل

والانتظار. ثم إنها جريمة أن يترك أصغر أبناءه والذي ما زال طفلاً ليجلس هناك

بالقرب من حفرة في الأرض مع عدم وجود من يعتني به. كان أمراً لا يُغفر.

إذا كان صموئيل يتوق إلى الواقعية والنشاط، فقد حصل عليهما. لقد أبعده

عن المكان بحلول الفجر. ضُمدت يده في الحادية عشرة، وكان جالساً على

كرسيه أمام طاولته الخاصة بحلول الخامسة بعد الظهر، يتر من الحمى، بينما

توم يسلق دجاجة ليصنع له حساء الدجاج.



لمدة ثلاثة أيام بقي صموئيل مستلقياً على سريريه وهو يقاوم أشباح الحمى ويطلق عليها أسماء أيضاً، قبل أن تقضي قوته العظيمة على العدو.

نظر صموئيل إلى توم بعيون صافية وقال: «عليّ أن أنهض». حاول ذلك وتراجع إلى الورا ضعيماً وضاحكاً - الصوت الذي يصدره عندما تهزمه أي قوة في العالم. كانت لديه فكرة أنه حتى عندما يُهزَم يمكنه أن يسرق نصراً بسيطاً من خلال الضحك على الهزيمة. حَضَرَ له توم حساء الدجاج بشكل مستمر إلى أن رغب في قتله. لم تمت هذه التقاليد في العالم وستظل تجد أشخاصاً يؤمنون أن الحساء يعالج أي جرح أو مرض وليس طعاماً سيئاً حتى بالنسبة للجنائز.

#### 4

بقيت ليزا بعيدة عن المنزل لمدة أسبوع. قامت بتنظيف منزل تراسك من سقفه إلى حبيبات الأرضيات الخشبية. غسلت كل شيء يمكن وضعه في حوض الاستحمام وقامت بمسح الباقي. وضعت الرضيعين في مقدمة المهام ولاحظت بارتياح أن وزنهما بدء في الازدياد. عاملت لي مثل العبد لأنها لم تكن تثق به تماماً، وتجاهلت آدم لأنها لم تستطع الاستفادة منه في أي شيء، لقد جعلته يغسل النوافذ ثم فعل ذلك مرة أخرى بعد أن انتهى.

جلست ليزا مع كاثي بما يكفي للتوصل إلى استنتاج مفاده أنها كانت فتاة عاقلة لا تتحدث كثيراً ولا تحب تلقي النصائح من أحد. كما قامت بفحصها ووجدت أنها كانت بصحة جيدة، ليست مريضة، ولن ترضع التوأم أبداً. قالت: «فليكن، يمكن لهذه المخلوقات مضغ شيء ضئيل مثلك حتى العظم». ناسية أنها كانت أصغر حجماً من كاثي وقد أرضعت كل طفل من أطفالها.

بعد ظهر يوم السبت قامت ليزا بفحص عملها وتركت قائمة بطول ذراعها بالتعليمات لتغطية جميع الاحتمالات بدءاً من المغص ووصولاً إلى غزو النمل الدهني، وحزمت سلة سفرها وطلبت من لي توصيلها إلى منزلها.

وجدت منزلها قد أصبح إسطبلاً من القذارة، وشرعت في تنظيفه بعنف واشمئزاز يعادل عنف هرقل. سألتها صموئيل عن رحلتها.

كيف التوأم؟ هل هما بخير؟ كبرا؟ كيف كان آدم؟

حسناً، إنه يتحرك كما لو كان على قيد الحياة لكنه لا يترك أي دليل على ذلك. أعطى الرب بحكمته المال لأناس غرباء الطباع للغاية، ربما لأنهم كانوا سيتضورون جوعاً بدونه.

كيف هي السيدة تراسك؟

هادئة، مفتقرة للحبوية مثل معظم النساء الشقيقات الثريات (لم تعرف ليزا أبداً امرأة شرقية غنية)، لكنها من ناحية أخرى مطيعة ومحترمة. قالت ليزا: «إنه شيء غريب. لا أجد أي خطأ حقيقي بها باستثناء ربما لمسة من الكسل، ومع ذلك لا أحبها كثيراً. ربما السبب تلك الندبة. كيف اكتسبتها؟»

قال صموئيل: «لا أعرف».

وضعت ليزا سبابتها بين عينيه كما مسدس: «سأخبرك شيئاً. لقد ألقيت تعويذة على زوجها دون علمه. إنه يتأرجح حولها مثل البطة المريضة. لا أعتقد أنه حتى نظر إلى التوأم جيداً بعد».

انتظر صموئيل حتى عادت مرة أخرى: «حسناً، إذا كانت هي كسولة وكان هو حالماً، فمن سيعتني بالرضيعين الجميلين؟ إنهما بحاجة لبعض الاهتمام». توقفت ليزا في منتصف عملها ووجهت كرسيًا بالقرب منه وجلست واضعة يديها على ركبتيها: «إن كنت لا تصدقني، فلتتذكر أنني لم أستخف يوماً بالحقيقة».

قال «لا أعتقد أنه يمكنك الكذب يا عزيزتي». ابتسمت وهي تعتقد أن تلك مجاملة.

«حسناً، ما سأخبرك به قد يثقل كاهل إيمانك إذا لم تكن تعلم ذلك».

«أخبريني».

«صموئيل، هل تعرف ذلك الصيني بعيونه المائلة وحديثه الغريب وتلك  
الجديلة؟»

«لي؟ بالتأكيد أعرفه».

«حسنًا، ألا تشعر أنه وثني؟»

«لا أعرف».

«هيا الآن يا صموئيل، أي شخص يمكنه أن يعتقد ذلك. لكنه ليس كذلك»  
«ماذا يكون؟»

نقرت على ذراعه بإصبع حديدي: «مشيخي<sup>(1)</sup>، وستكتشف هذا من حديث  
هذا المجنون، ما رأيك في ذلك؟»

كان صوت صموئيل متذبذبًا وهو يحاول كتم ضحكته «لا!» هو قال.

«أنا أقول نعم. والآن، من برأيك سيعتني بالتوأم؟ لم أكن لأثق في وثني  
مطلقاً - لكن المشيخي - لقد تعلم كل ما قلته له».

---

(1) النظام المشيخي أو البريسبيترية تشير إلى عدة كنائس مسيحية تتبع تعاليم العالم اللاهوتي  
البروتستانتي جون كالفن وتنظم تحت حكم مجالس شيوخ بشكل ديمقراطي. يوجد في  
كل مجمع دورة مكونة من شيوخ حاكمين وشيوخ معلمين. الشيوخ الحاكمون مسؤولون  
عن حكم وانضباط الكنيسة، والشيوخ المعلمون مسؤولون عن الوعظ الكتابي وتدبير  
الأسرار المقدسة (يوجد منها اثنان فقط في الكنائس البروتستانتية وهي المعمودية  
والعشاء الرباني). وبالإضافة إلى الشيوخ، يوجد في كل مجمع شمامسة مسؤولون عن  
الأموال المادية.

يهتم المشيخون بشكل كبير بالتربية والتعلم على مدى الحياة، تعدله معرفتهم ألا يؤثر في  
الخلاص أي فعل إنساني.

تتضمن أحكام اللاهوت والتعاليم التي تبناها فروع متعددة من الكنيسة الدراسة المستمرة  
للكتب والكتابات اللاهوتية وفهم العقيدة الكنسية وترجمتها، وهو ما يشار إليه بـ«الأصول  
الثانوية». يعتبر عمومًا أن الهدف من هذا التعلم هو تمكين الإنسان من تطبيق إيمانه في  
الواقع، يظهر كثير من المشيخين إيمانهم بالأفعال كما يظهره بالكلمات، بالكرم وحسن  
الضيافة كما بنشر إنجيل المسيح.

قال صموئيل: «لا عجب أنهما يكتسبان وزناً».

«إنها مسألة تسبيح وصلاة».

قال صموئيل: «سنفعل ذلك أيضًا».

«كلاهما».

## 5

استراحت كاثيري لمدة أسبوع واستجمعت قوتها. في يوم السبت من الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر مكثت في غرفة نومها طوال الصباح. قرع آدم الباب ووجده مغلقًا.

صاحت «أنا مشغولة» فذهب.

لا بد أنها تقوم بترتيب خزانها، قال لنفسه، لأنه كان يسمع أدراجها تُفتح وتُغلق.

في وقت متأخر من بعد الظهر، جاء لي إلى آدم حيث جلس على المنحدر. قال بنبرة مرتبكة: «آنسة تقول أنا أذهب إلى كينغ سيتي لشراء زجاجة حليب» قال آدم: «حسنًا، افعل إذن، إنها سيدتك».

«آنسة تقول لا أعود، ربما يوم الإثنين. آخذ -»

قاطعته كاثيري بهدوء من المدخل: «لم يحصل الرجل على يوم إجازة لفترة طويلة. بعض الراحة ستفيده».

قال آدم: «بالطبع، أنا فقط لم أفكر في ذلك. وقتاً ممتعاً يا لي. إذا احتجتُ إلى أي شيء سأستدعي أحد النجارين».

«الرجال الأحد يذهب إلى منزل».

«سأحضر الهندي لوبيز ليساعد»

شعر لي بعيون كاثيري مثبتة عليه: «لوبيز ثمل. عشر زجاجة ويسكي».

قال آدم بفضاظة: «أنا لست عاجزاً يا لي. توقف عن الجدل».

نظر لي إلى كاثيري الواقفة في المدخل. أنزل جفنيه وقال: «ربما أعود متأخر»، شعر أنه رأى خطين داكنين يظهران بين عينيهما ثم يختفيان. استدار وهو يقول «وداعاً».

عادت كاثيري إلى غرفتها مع حلول المساء. في الساعة والنصف طرق آدم الباب: «أحضرت بعض العشاء لك يا عزيزتي. ليس كثيراً». فُتح الباب كأنها كانت تنتظر خلفه. كانت ترتدي فستان السفر الأنيق، والسترة ذات الحواف السوداء، والمعطف الأسود المخملي ذا الأزرار الكبيرة. كانت على رأسها قبعة عريضة من القش مطرزة بالخرز، وقف آدم فاعراً فمه.

لم تعطه فرصة للتحدث. «أنا راحلة الآن».

«كاثيري، ماذا تقصدين؟»

«أخبرتك من قبل».

«لم تفعلين»

«لم تستمع. لم يعد بهم».

«لا أصدقك».

كان صوتها ميتاً ومعدنياً: «ليس لدي أدنى اهتمام بما تصدقه. أنا راحلة».

«الطفلان -»

«ألق بهما في إحدى آبارك».

صرخ في ذعر: «كاثيري، أنت مريضة. لا يمكنكِ المغادرة - لا يمكنكِ تركي».

«يمكنني أن أفعل بك أي شيء. يمكن لأي امرأة أن تفعل أي شيء بك».

«أنت أحمق».

وصلت الكلمة إليه وهو غارق في ضبابية ما يحدث. دون سابق إنذار مد

يديه إلى كتفيها ودفعها إلى الخلف، وبينما كانت تترنح أخذ المفتاح من داخل الباب، وأقفل الباب عليها.

وقف يلهث وأذنه على الباب ويشعر بإعياء هستيري. كان يسمعها وهي تتحرك بهدوء. ثم تفتح درجاً، وسرعان ما قفزت فكرة تراجعها عن الأمر في رأسه - ستبقى. بعد ذلك كانت هناك نقرة صغيرة. كانت أذنه تلامس الباب تقريباً.

جاء صوتها من مكان قريب جداً لدرجة أنه دفع رأسه للخلف، سمع حناناً في صوتها، قالت بهدوء: «عزيزي، لم أكن أعلم أنك ستأخذ الأمر على هذا النحو. أنا آسفة يا آدم».

انفجرت أنفاسه بصوت عالٍ، كانت يده ترتجف بقوة وهو يحاول إدارة المفتاح فسقط على الأرض بعد أن أداره. فُتح الباب، كانت واقفة على بعد ثلاثة أقدام وهي تمسك في يدها اليمنى مسدساً من نوع كولت 44، وكان ثقبه الأسود موجهاً نحوه. تقدم خطوة تجاهها، ورأى أن زناد المسدس كان مسحوباً للخلف.

أطلقت عليه النار. أصابته في كتفه ومزقت قطعة منه، فترنح إلى الورا وسقط على الأرض وسط ذهوله. تحركت نحوه ببطء وحذر كما تفعل تجاه حيوان جريح. حدق في عينيها اللتين كانتا تنظران إليه وكأنه شخص غريب. ألقت المسدس على الأرض بجانبه وخرجت من المنزل.

سمع خطواتها على الشرفة، على أوراق البلوط الجافة الهشة في الخارج، ثم لم يعد يسمعها. الصوت الرتيب الوحيد الذي بقي هناك طوال الوقت كان صرخات التوأم وهما يطلبان الطعام. لقد نسي إطعامهما.

## الفصل 18

### 1

كان هوراس كوين نائب عمدة جديدة تم تعيينه في منطقة كينغ سيتي. لطالما اشتكى من أن وظيفته الجديدة أبعده عن مزرعته كثيراً. وزوجته كانت تشكو أكثر منه، لكن حقيقة الأمر هي أنه لم يحدث أي شيء بطريقة إجرامية منذ أن تم تنصيب هوراس نائباً. لقد رأى أنه بذلك يصنع لنفسه اسمًا يرشحه لمنصب العمدة. كان منصب العمدة منصباً مهماً، ووظيفته أقل تقلباً من وظيفة المدعي العام، إنها تقريباً وظيفة دائمة ومبجّلة كما قاضي المحكمة العليا. لم يرغب هوراس في البقاء في المزرعة طوال حياته، كما أن زوجته كانت تلح عليه للانتقال للعيش في ساليناس حيث لديها أقارب هناك.

عندما وصلت الشائعات التي تحدث عنها الهندي والنجارون عن إصابة آدم تراسك إلى هوراس، ذهب على الفور وترك زوجته لتنتهي تقطيع الخنزير الذي ذبحه في ذلك الصباح.

إلى الشمال مباشرة من شجرة الجميز الكبيرة حيث ينعطف طريق هيستر إلى اليسار، التقى هوراس مع يوليوس أوسكادي. كان يوليوس يحاول أن يقرر ما إذا كان سيذهب لصيد السمّان أو إلى كينغ سيتي ويلحق بالقطار إلى ساليناس. كان آل أوسكادي من الأثرياء والوسيمين من أصل باسكي<sup>(1)</sup>.

---

(1)الباسك مجموعة من أقدم الأقوام البشرية التي قدمت إلى أوروبا من مناطق الحوض الشرقي للبحر المتوسط أو البحر الأسود منذ العصر البرونزي. تربطها ثقافة ونسب جيني

قال يوليوس: «رافقني، أنا ذاهب إلى ساليانس. يقال إنه بجوار مبغى جيني، على بُعد بابين من لونغ غرين، هناك مبغى جديد يسمى حانة في. سمعت أنه لطيف جداً، ويشبه حانات سان فرانسيسكو. كما أن لديهم عازف بيانو».

أراح هوراس كوعه على قرن السرج وأبعد ذبابة من كتف حصانه: «في وقت آخر، عليّ أن أحقق في أمر ما».

«ذاهب إلى منزل تراسك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح. هل سمعت أي شيء عن الأمر؟»

«القصة لا معنى لها. سمعت أن السيد تراسك أطلق النار على كتفه بمسدس 44 ثم أطلق النار على الجميع في المزرعة. كيف تشرع في إطلاق النار على كتفك بنوع 44 يا هوراس؟»

«لا أعرف. الشريون ماكرون جداً. فضّلت أن أذهب بنفسني وأرى ما الأمر. ألم تنجب زوجته طفلاً منذ فترة قريبة؟»

قال يوليوس «توأم، ربما هما من أطلقا النار عليه».

«أحدهما حمل البندقية والآخر سحب الزناد؟ هل سمعت أي شيء آخر؟»

«كل شيء مختلط يا هوراس. هل تود أن أرافقك؟»

«لن أقوم بتفويضك يا يوليوس. يقول العمدة إن المشرفين يثرون الجحيم بشأن الرواتب. قام هورنبي في أليزال بتفويض عمته العجوز وتعيينها قبل ثلاثة أسابيع من عيد الفصح».

«هل تمزح!»

---

مشترك مع الفاسكونيين والأقطنيين القدماء وعليه يُعد من الشعوب الأصلية. سكن الباسك بشكل أساسي منطقة تُعرف تقليدياً ببلاد الباسك أو بلاد البشكنش وهي منطقة تقع حول الطرف الغربي من جبال البرانس على ساحل خليج غاسكونيا وتمتد على أجزاء من شمال وسط إسبانيا وجنوب غرب فرنسا.



«لا أفعل. ولن تحصل على شارة».

«تباً لذلك، لا أريد أن أصبح نائباً. فكرت فقط في مرافقتك في الطريق. كما أنني أشعر بالفضول».

«أنا أيضاً. سعيد برفقتك يا يوليوس. يمكنني دائماً الاستفادة من مساعدتك إذا كانت هناك أية مشكلة. ماذا قلت عن اسم المكان الجديد؟»

«حانة في. امرأة من سكرامنتو. ينجزون أموراً رائعة في سكرامنتو»، وبدأ في إخبار هوراس عن بعض الأمور في سكرامنتو أثناء سيرهما.

كان يوماً جميلاً لركوب الخيل. عندما اقتربا من أرض سانشيز كانا يشتمان الصيد السيئ في السنوات الأخيرة. هناك ثلاثة أشياء لم تعد جيدة أبداً مقارنة بالسنوات الأخرى؛ الزراعة وصيد الأسماك والصيد.

كان يوليوس يقول: «يا إلهي، أتمنى لو أنهم لم يقتلوا كل تلك الدببة الرمادية. سنة 1880 قتل جدي واحداً بالقرب من بليتو وكان وزنه ثمانمائة رطل».

ساد صمت عليهما وهما يسيران تحت أشجار البلوط، صمت أخذه من المكان نفسه، حيث لم يكن هناك صوت ولا حركة.

قال هوراس: «أتساءل عما إذا كان قد انتهى من إصلاح المنزل القديم».

«قطعاً لا. رايت هولمان كان يعمل على ذلك، وأخبرني أن تراسك اتصل بهم جميعاً وأطلق عليهم النار ثم أخبرهم ألا يعودوا».

«يقولون إن تراسك ثري».

قال يوليوس: «أعتقد أنه مستقر وبحالة جيدة جداً. كان من المفترض أن يحفر له سام هاملتون أربعة آبار - هذا إذا لم يُطرد أيضاً».

«كيف هو السيد هاملتون؟ يجب أن أذهب لرؤيته».

«إنه على ما يرام. مليء بالسوداوية أكثر من أي وقت مضى».

قال هوراس: «عليّ أن أقوم بزيارة له». هنا خرج لي للقائهما.

قال هوراس: «مرحبا يا تشينغ تشونغ. هل الرئيس هنا؟»

قال لي «هو مريض».

«أود أن أراه».

«لا ترى. هو مريض».

قال هوراس «كفى. أخبره أن نائب العمدة كوين يريد رؤيته».

اختفى لي وعاد بعد لحظات: «تعال، أنا أخذ الحصان».

كان آدم مستلقيا على السرير ذي الأربعة أعمدة حيث وُلد التوأم. كان مسنّداً بالوسائد وتغطي كومة من الضمادات المصنوعة منزلياً صدره وكتفه الأيسر. كانت الغرفة تفوح منها رائحة مرهم هال الكريهة.

قال هوراس لاحقاً لزوجته عن ذلك: «وإذا رأيت يوماً الموت ما زال يتنفس، فقد كان هناك».

احتضنت حدود آدم عظام وجهه وشدّت جلد أنفه بشدة. بدت عيناه وكأنهما سيخرجان من رأسه ويحتلان الجزء العلوي من وجهه بالكامل، كانت عيونه تلمع من المرض وشدة قصر النظر. كانت يده اليمنى النحيلة تعجن حفنة من الغطاء.

قال هوراس: «مرحبا سيد تراسك. سمعت أنك جرحت». توقف منتظراً الرد، ثم تابع: «فكرت في أن آتي وأرى كيف حالك. كيف حدث ذلك؟»

ظهرت نظرة شغوفة شفافة على وجه آدم، تحرك قليلاً في السرير.

أضاف هوراس ليشجعه على التحدث: «إذا كان الكلام يؤلمك، يمكنك أن تهمس».

قال آدم بهدوء: «عندما أتنفس بعمق فقط. كنت أنظف مسدسي وانفجر».

نظر هوراس إلى يوليوس ثم عاد للنظر اليه، رأى آدم ذلك وبان عليه الحرج.  
قال هوراس: «يحدث هذا طوال الوقت. هل لديك المسدس؟»  
«أعتقد أن لي وضعه بعيداً».

صعد هوراس إلى الباب: «تشيونغ تشونغ، مرحبا، أحضر المسدس».  
خلال لحظات أحضر لي المسدس. نظر إليه هوراس، أخرج الأسطوانة،  
تفقد الخراطيش، الأسطوانة النحاسية الفارغة: «يبدو أن هذه الأشياء اللعينة  
تعمل أفضل عند تنظيفها بدلاً من وقت توجيهها. سأرسل تقريراً إلى المقاطعة  
سيد تراسك. لن أضيع الكثير من وقتك. كنت تنظف السلاح، ربما بقضيب،  
وانفجرت البندقية وأصابتك في كتفك؟»

قال آدم بسرعة «هذا صحيح يا سيدي».

«وعند تنظيفها، لم تتأكد من وجود ذخيرة في الأسطوانة؟»

«هذا صحيح».

«وكنت تضغط على القضيب بينما تقوم بتنظيف السلاح مع توجيه الفوهة  
نحوك والزناد مرفوع؟»

اضطربت أنفاس آدم وتلاحقت بينما واصل هوراس: «لابد أنه أيضاً ضغط  
على القضيب ومزق كتفك الأيسر». لم تفارق عيني هوراس الباردين وجه آدم  
للحظة. ثم قال بلطف: «ماذا حدث سيد تراسك؟ أخبرني بما حدث فعلاً».  
«أقول لك حقاً إنها كانت حادثة يا سيدي».

«هيا الآن، لن تجعلني أكتب تقريراً يشبه ما قلته للتو. المأمور سيعتقد أنني  
مجنون. ماذا حدث؟»

«حسناً، أنا لست معتاداً جداً على الأسلحة. ربما لم يكن الأمر كذلك،  
لكنني كنت أنظفه وانفجر».

كان يصدر من أنف هوراس صوت صفير وهو ينفث بعدم صبر، فكان عليه أن يتنفس من خلال فمه لإيقافه. تحرك ببطء من أسفل السرير، أقترب إلى رأس آدم وعيناه تحدقان فيه: «لقد أتيت من الشرق منذ وقت ليس ببعيد، أليس كذلك يا سيد تراسك؟»

«هذا صحيح. من كونيتيكت.»

«أعتقد أن الناس هناك لم يعودوا يستخدمون البنادق كثيرًا.»

«ليس كثيرًا.»

«للصيد ربما؟»

«البعض.»

«إذن أنت معتاد أكثر على بنادق الصيد؟»

«هذا صحيح. لكنني لم أصطد كثيرًا.»

«أعتقد أنك لم تستخدم مسدسًا على الإطلاق، لذلك لم تكن تعرف كيفية التعامل معه.»

قال آدم بلهفة «هذا صحيح، بالكاد يوجد هناك أي شخص لديه مسدس.»

«لذلك عندما أتيت إلى هنا اشتريت ذلك المسدس لأن كل شخص هنا لديه مسدس وستتعلم كيفية استخدامه.»

«حسنًا، اعتقدت أنه قد يكون من الجيد التعلم.»

وقف يوليوس أوسكادي متوترًا، يرى ويستمع لكن بتحفظ وصمت.

تنهد هوراس ونظر بعيدًا عن آدم. تحركت عيناه فوق يوليوس وعاد إلى يديه. وضع المسدس على المكتب بعناية وبجانبه الخراطيش النحاسية والرصاصية. قال: «هل تعرف، لقد أصبحت نائبًا منذ فترة قصيرة فقط. اعتقدت أنني سأحصل على بعض المتعة في هذه الوظيفة وربما في غضون

سنوات قليلة أترشح لمنصب العمدة. لكن ليست لدي الشجاعة لذلك. ولا متعة لي في هذا».

راقبه آدم بتوتر.

«لا أعتقد أن أي شخص قد شعر بالخوف مني من قبل - قد يغضب مني أحدهم، نعم - لكنه لا يخاف. إنه أمر لئيم، يجعلني أشعر بأنني لئيم. حسناً! سيد تراسك، لقد خدمت في سلاح الفرسان الأمريكي. أسلحة سلاح الفرسان بنادق قصيرة ومسدسات. أنت -» توقف لحظة ثم قال: «ماذا حدث يا سيد تراسك؟»

بدا أن عيون آدم تكبر وحوافها أصبحت مبللة وحمراء. همس «لقد كان حادثاً».

«هل رأى ذلك أحد؟ هل كانت زوجتك معك عندما حدث ذلك؟»

لم يرد آدم، ورأى هوراس أنه أغمض عينيه: «سيد تراسك، أعلم أنك مريض. أحاول أن أجعل الأمر أسهل عليك قدر استطاعتي. لماذا لا ترتاح الآن وتدعني أتحدث مع زوجتك؟» انتظر لحظة ثم استدار إلى المدخل حيث كان لي ما زال واقفاً: «تشيغ تشونغ، أخبر السيدة أنني أريد التحدث معها لبضع دقائق».

لم يرد لي.

تحدث آدم دون أن يفتح عينيه «زوجتي مسافرة في زيارة».

«ألم تكن هنا عندما حدث هذا؟» نظر هوراس إلى يوليوس ورأى تعبيراً فضولياً على شفتيه، كان قد رفع زوايا فمه قليلاً في ابتسامة ساخرة. فكر هوراس بسرعة، إنه يتقدمني، بإمكانه أن يكون عمدة جيداً. قال: «هذا أمر غريب. أنجبت زوجتك توأمًا منذ أسبوعين فقط، وهي الآن في زيارة. هل أخذت الطفلين معها؟ ظننت أنني سمعتهما منذ قليل». انحنى هوراس على

السريير ولمس ظهر يد آدم اليمنى المشدودة. أنا أكره هذا، لكن لا يمكنني التوقف الآن. تراسك!» قال بصوت عالٍ: «أريدك أن تخبرني فوراً بما حدث. هذا ليس فضولاً بل تطبيقاً للقانون. الآن ستفتح عينيك وتخبرني وإلا، أقسم بالمسيح، سأخذك إلى العمدة حتى وأنت بهذه الحالة».

فتح آدم عينيه، كانتا فارغتين مثل عيني سائر أثناء نومه. وخرج صوته بلا ارتفاع ولا هبوط ولا تشديد ولا عاطفة. كان الأمر كما لو أنه كان ينطق الكلمات بشكل مثالي بلغة لا يفهمها.

قال: «زوجتي رحلت»

«إلى أين ذهبت؟»

«لا أعرف».

«ماذا تقصد؟»

«لا أعرف إلى أين ذهبت».

اقتحم يوليوس الحديث لأول مرة.

«لماذا رحلت؟»

«لا أعرف».

قال هوراس بغضب: «انتبه لما تفعله يا تراسك. أنت تتلاعب بأعصابي ولا يعجبني ما أفكر فيه. لا بد أن تعرف سبب رحيلها».

«لا أعرف لماذا رحلت».

«هل كانت مريضة؟ هل كانت تتصرف بغرابة؟»

«لا».

استدار هوراس: «تشينغ تشونغ، هل تعرف أي شيء عن هذا؟»

«أذهب إلى كينغ سيتي. أعود ربما ثانية عشر ليلاً. أجد سيد تراسك على

الأرض».

«إذن لم تكن هنا عندما حدث ذلك؟»

«لا سيدتي.»

«حسنًا، تراسك، سأعود إليك. افتح هذه الستائر قليلاً يا تشينغ تشونغ حتى أستطيع أن أرى. هذا أفضل. والآن دعنا نعمل بطريقتك، زوجتك هجرتك. هل أطلقت عليك النار؟»

«لقد كانت حادثة.»

«حسنًا، حادث، لكن هل كان السلاح في يدها؟»

«لقد كانت حادثة.»

«أنت لا تجعل الأمر سهلاً. ولكن لنفترض أنها رحلت بعيدًا وعلينا أن نجدها - أترى؟ - كما لعبة أطفال. أنت تفعل ذلك بهذه الطريقة. كم مضى على زواجك؟»

«ما يقرب العام.»

«ما اسمها قبل أن تتزوجها؟»

ساد صمت طويل، ثم قال آدم بهدوء: «لن أقول. لقد وعدتها.»

«انتبه، من أين هي؟»

«لا أعرف.»

«سيد تراسك، أنت تقود نفسك مباشرة إلى سجن المقاطعة. دعنا نحصل على وصف. كم كان طولها؟»

لمعت عيون آدم: «ليست طويلة - قصيرة ورقيقة.»

«هذا جيد. ما لون الشعر؟ العيون؟»

«كانت جميلة.»

«كانت؟»

«هي كذلك».

«آية ندوب؟»

«أوه، لا. نعم، هناك ندبة على جبينها».

«أنت لا تعرف اسمها، من أين أتت، إلى أين ذهبت، ولا يمكنك وصفها بشكل واضح. وتعتقد أنني أحمق».

قال آدم، «قالت لي إنه سر، وطلبت مني ألا أسألها ووعدتها بذلك. كانت خائفة على شخص ما». ودون سابق إنذار بدأ آدم في البكاء، كان جسده يرتجف، وأنفاسه تصدر أصواتاً مرتفعة. كان بكاءً يائساً.

شعر هوراس ببؤس متزايد: «تعال إلى الغرفة الأخرى يوليوس» قال وهو يمضي إلى غرفة المعيشة. «حسنًا يوليوس أخبرني برأيك. هل هو مجنون؟»  
«لا أعرف».

«هل قتلها؟»

«هذا ما قفز إلى ذهني».

قال هوراس: «أنا أيضًا. يا إلهي!» هرع إلى غرفة النوم وعاد ومعه المسدس والذخيرة: «لقد نسيته. لن أستمر طويلاً في هذه الوظيفة».

سأل يوليوس: «ماذا ستفعل؟»

«حسنًا، أعتقد أن الأمر أكبر مني. أخبرتك أنني لن أضعك في جدول الرواتب لكن ارفع يدك اليمنى».

«لا أريد أن أقسم اليمين هوراس. أريد أن أذهب إلى ساليانس».

«لم يعد لديك أي خيار يوليوس. سأضطر إلى إلقاء القبض عليك إذا لم أحصل على يدك اللعينة».

رفع يوليوس يده على مضمض وكرر القسم باشمئزاز: «وهذا ما أحصل عليه من أجل الحفاظ على صحبتك، سيسلخني أبي حياً. حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟»



وقال هوراس: «عليّ الذهاب الى بابا، أنا بحاجة إلى العمدة. كان يمكنني أخذ تراسك لكنني لا أريد نقله. ستضطر للبقاء هنا يوليوس. أنا آسف. هل معك بندقية؟»  
«قطعاً لا».

«حسناً خذ هذا، وخذ شارتي». فكها من قميصه وشدها على قميص يوليوس.

«كم من الوقت تعتقد أنك ستغيب؟»  
«ليس أكثر مما أستطيع المساعدة. هل رأيت السيدة تراسك من قبل يوليوس؟»  
«لا، لم أفعل».

«لم أرها أنا أيضاً ويجب أن أخبر العمدة أن تراسك لا يعرف اسمها أو أي شيء. وأنها ليست كبيرة جدّاً وهي جميلة. هذا وصف رائع! أعتقد أنني سأستقيل قبل أن أخبر العمدة، لأنه متأكد من أنه حتى الجحيم سيطرمني بعد ذلك. هل تعتقد أنه قتلها؟»

«كيف يمكنني معرفة ذلك بحق الجحيم؟»  
«لا تغضب».

حمل يوليوس البندقية وأعاد الخراطيش إلى الأسطوانة وقام بالتأكد من توازنها في يده: «هل تريد فكرة يا هوراس؟»  
«ألا يبدو أنني بحاجة إلى واحدة؟»

«حسناً، سام هاملتون رآها - لقد أشرف على توليد الأطفال كما يقول رايبنت. وقد اعتنت بها السيدة هاملتون. لماذا لا تذهب إلى هناك في طريقك وتعرف كيف كانت تبدو حقاً».

قال هوراس: «أعتقد أنه من الأفضل لك الاحتفاظ بهذه الشارة. هذا جيد. سأذهب».

«هل تريدني أن أبحث حولي؟»

«أريدك فقط أن تتأكد من أنه لن يفلت منك أو يضر نفسه. هل تفهم؟ اعتن بنفسك».

## 2

حوالي منتصف الليل ركب هوراس قطار شحن في كينغ سيتي. جلس في الكابينة مع المهندس، ووصل إلى ساليناس في ساعات الصباح الأولى. كانت ساليناس هي مقر المقاطعة، وكانت مدينة سريعة النمو. كان من المقرر أن يتجاوز عدد سكانها 2000 نسمة في أي وقت. كانت أكبر مدينة بين سان خوسيه وسان لويس أوبيسبو، وشعر الجميع أن هناك مستقبلًا باهرًا في انتظارها.

سار هوراس من مستودع جنوب المحيط الهادئ وتوقف في تشوب هاوس لتناول الإفطار. لم يكن يريد إخراج العمدة مبكرًا وإثارة سوء النية عندما لم يكن ذلك ضروريًا. في تشوب هاوس التقى الشاب ويل هاملتون، الذي بدا متأنقًا جدًا في بدلة رسمية بالأبيض والأسود.

جلس هوراس معه على الطاولة: «كيف حالك يا ويل؟»  
«جيد جدًا».

«هل أنت هنا في عمل؟»

«نعم، لدي صفقة صغيرة».

«ربما يمكنك إخباري في وقت ما» شعر هوراس بالغرابة وهو يتحدث بهذا الشكل إلى الشاب، لكن ويل هاملتون كان يمتلك هالة من النجاح. كان الجميع يعلم أنه سيكون رجلًا مؤثرًا للغاية في المقاطعة. ينضح بعض الناس بمستقبلهم، سواء أكان جيدًا أم سيئًا.

«سأفعل ذلك هوراس. ظننت أن المزرعة أخذت كل وقتك».

«يمكن إقناعي بتأجيله إذا ظهر أي شيء».

اتكأ ويل على الطاولة: «كما تعلم يا هوراس، لقد تم استبعاد الجزء الخاص بنا من المقاطعة إلى حد كبير. هل فكرت يومًا في الترشح لمنصب؟»  
«ماذا تقصد؟»

«حسنًا، أنت النائب - هل فكرت يومًا في الترشح لمنصب العمدة؟»  
«لا، لم أفعل».

«حسنًا، فكر في الأمر وادرسه بعناية. سأبحث عنك في غضون أسبوعين ونتحدث عن ذلك. لكن احتفظ بالفكرة».

«بالتأكيد سأفعل ذلك يا ويل. لكن لدينا عمدة رائع».

«أعرف؛ الأمر لا علاقة له به، اسمعني، في كينغ سيتي ليس هناك مسؤول مقاطعة واحد - هل تفهمني؟»

«أفهمك. سأفكر بالأمر. أوه، بالمناسبة لقد مررت بمنزلك ورأيت والدك وأمك بالأمس».

استبشر وجه ويل: «حقًا؟ كيف كانا؟»

«بخير. كما تعلم، والدك عبقرى كوميدي حقيقي».

ضحك ويل: «لقد جعلنا نضحك طوال الوقت الذي كنا نكبر فيه».

«لكنه رجل ذكي أيضًا يا ويل. أراني نوعًا جديدًا من طواحين الهواء التي اخترعها - أجمل شيء رأيته على الإطلاق».

قال ويل، «أوه يا إلهي، ها قد عدنا لمحامي البراءات مرة أخرى!»

أجابه هوراس: «لكن هذا جيد».

«كلهم جيدون. والأشخاص الوحيدون الذين يكسبون أية أموال من ذلك هم محامو براءات الاختراع. إنه يقود أمي إلى الجنون».

«أعتقد أنك حصلت على نقطة هناك».

قال ويل: «الطريقة الوحيدة لكسب أية أموال هي بيع شيء يصنعه شخص آخر».

«معك حق في هذا يا ويل، ولكن هذه الطاحونة هي الأكثر براعة على الإطلاق».

«لقد أقنعتك أليس كذلك يا هوراس؟»

«أعتقد أنه فعل. لكنك لا تريده أن يتغير أليس كذلك؟»

«أوه، حتماً لا! فكر فيما قلته لك».

«حسناً».

ولم تكن مهمة العمدة سهلة، كانت المقاطعة التي تتمكن من الحصول على عمدة جيد في خضم الانتخابات الشعبية تعتبر محظوظة. كان منصباً معقداً، الحفاظ على السلام وفرض القانون كانت أموراً بعيدة عن الأمور المهمة. صحيح أن العمدة يمثل القوة المسلحة في البلاد، ولكن في مجتمع يشتعل فيه الأفراد غضباً لا يدوم العمدة القاسي أو الغبي طويلاً. كانت هناك حقوق المياه، النزاعات الحدودية، الحجج الضالة، العلاقات الأسرية، وجميعها يجب أن تُحل بدون قوة السلاح. كان العمدة يلجأ للاعتقال فقط في حال فشلت جميع الطرق الأخرى في التعامل مع قضية ما. وكان أفضل عمدة ليس أفضلهم قتالاً بل دبلوماسياً. وكان لدى مقاطعة مونثيري عمدة جيد، وكانت لديه موهبة رائعة في الاهتمام بشؤونه الخاصة.

ذهب هوراس إلى مكتب العمدة في سجن المقاطعة القديم بعد حوالي عشر دقائق من الساعة التاسعة. صافح العمدة وناقش الطقس والمحاصيل حتى أصبح هوراس مستعداً للتحدث في الأمر.

قال هوراس أخيراً: «حسناً يا سيدي، كان علي أن آتي لأطلب نصيحتك».

وروى قصته بتفصيل كبير - ما قاله الجميع وما رأوه والوقت - كل شيء.

بعد لحظات أغلق العمدة عينيه وشبك أصابعه. كان يقطع حبل الصمت من حين لآخر بفتح عينيه، لكنه لم يعلق.

قال هوراس: «حسناً، كنت هناك، لكنني لم أتمكن من معرفة ما حدث. لم أستطع حتى معرفة شكل المرأة. كانت فكرة يوليوس أوسكادي هي أنني يجب أن أذهب لرؤية سام هاملتون».

قام العمدة بتعديل جلسته: «تعتقد أنه قتلها».

«أنا فعلت. لكن السيد هاملتون تحدث معي. يقول إن تراسك لا يمكنه قتل أي شخص».

قال العمدة: «الكل يمكنه أن يفعل. عليه فقط إيجاد زناده الخاص».

«أخبرني هاملتون ببعض الأشياء المضحكة عنها. عندما كان يساعدها وقت مخاضها عضته في يده. يجب عليك رؤية تلك اليد، وكأن ذئباً قد انقض عليه».

«هل قدم لك سام وصفاً؟»

«نعم، وكذلك فعلت زوجته». أخرج هوراس قطعة من الورق من جيبه وقرأ وصفاً مفصلاً لكاثي.

مقارنة بالآخرين، عرف سام هاملتون وزوجته تقريباً كل شيء مادي يجب معرفته عن كاثي.

عندما انتهى هوراس تنهد العمدة. كلاهما اتفقا على الندبة؟»

«نعم. وكلاهما لاحظ كيف أنه في بعض الأحيان كانت تصبح أعمق من الأوقات الأخرى».

أغمض العمدة عينيه مرة أخرى وانحنى إلى الخلف في كرسيه. فجأة استقام وفتح درج مكتبه وأخرج نصف لتر من الويسكي وقال لهوراس: «اشرب».

مسح هوراس فمه بعد أن شرب جرعة وأعاد القنينة: «هل لديك أية أفكار؟».

أخذ العمدة ثلاث جرعات كبيرة من الويسكي وأعاد القنينة إلى الدرج قبل أن يجيب: «لدينا مقاطعة تدار بشكل جيد، لدينا تفاهم مع الشرطة، نمد لهم يد العون عندما يحتاجون اليئا، وهم يساعدونني عندما أحتاج إليهم. بلدة نامية مثل ساليناس، يدخل ويخرج منها الغرباء طوال الوقت - قد نواجه المشاكل إذا لم نراقب الوضع عن كثب. مكتبي يتماشى بشكل جيد مع السكان المحليين». نظر في عين هوراس. «لا تشعر بالاستياء. أنا لا ألقى عليك خطابا. أريد فقط أن أخبرك كيف هو الأمر. نحن لا نقود الناس. علينا أن نعيش معهم».

«هل فعلت شيئا خطأ؟»

«لا، لم تفعل يا هوراس. لقد تصرفت بشكل صحيح. إذا لم تكن قد أتيت إلى المدينة أو إذا كنت أحضرت السيد تراسك لكننا الآن في جحيم من الفوضى. دعني أخبرك -»

قال هوراس: «أنا مصغ»

«على طول دروب الحي الصيني، هناك صف من بيوت الدعارة».

«أعلم ذلك».

«الجميع يعرف ذلك. إذا أغلقناها سيثورون. الناس تريد تلك البيوت. نحن نراقبهم حتى لا يحدث الكثير من سوء فحسب. والأشخاص الذين يديرون تلك البيوت يتواصلون معنا. لقد ألقينا القبض على بعض المطلوبين من خلال المعلومات التي حصلت عليها هناك».

قال هوراس: «نعم أخبرني يوليوس -»

«اسمح لي أن أخبرك بكل هذا حتى لا نضطر إلى العودة إليه مرة أخرى. منذ حوالي ثلاثة أشهر جاءت امرأة جميلة لرؤيتي. أرادت فتح بيت هنا وأرادت أن تفعل ذلك بشكل قانوني. جاءت من سكرامنتو. كانت تمتلك بيتاً هناك وتحمل توصيات من بعض الأشخاص المهمين جداً - لم تواجه أي مشكلة، وهي مواطنة جيدة».

«قال لي يوليوس. اسمها في».

«هذا صحيح. حسناً، لقد فتحت مكاناً لطيفاً، هادئاً، جيد التشغيل. كان قد حان الوقت لمجيء منافسة لجيني والزنجية. لقد كانتا غاضبتين للغاية من وجودها، لكنني أخبرتتهما بما قلته لك للتو. لقد حان الوقت لخوض بعض المنافسة».

«لديها عازف بيانو».

«نعم. شخص جيد أيضاً - أعمى. هل ستدعني أكمل؟»

قال هوراس: «أنا آسف».

«لا بأس. أعلم أنني بطيء لكنني دقيق. على أي حال، تبين أن في كانت تماماً كما تبدو، مواطنة صلبة وصالحة. هناك شيء واحد يخافه المبعي الهادي أكثر من أي شيء آخر. فتاة هاربة من المنزل تلجأ إلى هذا البيت. ليجدها لاحقاً والدها العجوز ويبدأ الجحيم. ثم تتدخل الكنائس والنساء في الأمر، وسرعان ما يصبح المبعي هذا سيئاً وعلينا إغلاقه. هل تفهمني؟»

«بلى!» قال هوراس بهدوء.

«الآن لا تسبقني. أنا أكره أن أقول شيئاً تكون قد فكرت به بالفعل. أرسلت لي في رسالة ليلة الأحد أن لديها فتاة لا تستطيع الاستفادة منها كثيراً. ما حير في هو أن هذه الشابة الصغيرة كانت تبدو وكأنها هاربة، باستثناء أنها كانت عاهرة جيدة. تعرف كل الإجابات وكل الحيل. ذهبت لرؤيتها، حديثها كان الهراء المعتاد، لكنني لم أجد أي خلل فيها، شابة بالغة ولم يتقدم أحد بشكوى عنها. حسناً، ها هو ذا. ماذا نفعل حيال ذلك؟»

«هل أنت متأكد من أنها السيدة تراسك؟»

قال العمدة: «عيون واسعة، وشعر أشقر، وندبة على جبهتها، وجاءت إلى البيت بعد ظهر الأحد».

برز وجه آدم المنكسر في ذهن هوراس». يا إلهي! أيها العمدة، عليك أن تطلب من شخص آخر أن يخبره. أفضل أن أستقيل قبل أن أفعل هذا».

حدق العمدة في الفضاء «أنت تقول إنه لا يعرف حتى اسمها قبل الزواج، من أين أتت. لقد خدعته بحق، أليس كذلك؟»

قال هوراس: «يا للمسكين، إنه مغرم بها. لا، شخص آخر يجب أن يخبره. لن أفعل».

وقف العمدة «دعنا نذهب إلى تشوب هاوس ونشرب فنجانا من القهوة». سارا على طول الشارع في صمت لبعض الوقت. ثم قال العمدة: «هوراس، إذا تحدثت عن بعض الأمور التي أعرفها فإن هذه المقاطعة الملعونة بأكملها ستنهار».

«أعتقد أن هذا صحيح».

«قلت إن لديها توأم؟»

«نعم، ولدان».

«اسمعي هوراس. لا يوجد سوى ثلاثة أشخاص في العالم يعرفون عن هذا - هي وأنت وأنا. سأحذرها من أنها إذا تحدثت لأحد عن الأمر فأني سأطردها من هذه المقاطعة شر طردة. وهوراس، إذا أصبت بحكمة في لسانك يوماً، أنصحك بأن تفكر - قبل أن تخبر أي شخص، حتى زوجتك - في الصغيرين إذا ما اكتشفا أن والدتهما عاهرة».

### 3

جلس آدم على كرسيه تحت شجرة البلوط الكبيرة وقد تم تضميد ذراع اليسرى بشكل محترف بحيث لا يحرك كتفه. جاء لي وهو يحمل سلة الغسيل ووضعها على الأرض بجانب آدم وذهب الى الداخل. كان التوأم مستيقظين،



وكلاهما يتطلعان بجديّة في أوراق الشجرة وهي تتحرك بفعل الرياح. سقطت ورقة بلوط جافة في السلة فانحنى آدم والتقطها.

لم ينتبه لمجيء صموئيل حتى اقترب منه لكن لي كان قد رآه قادمًا فأحضر كرسيًا وقاد حصانه دوكسولوجي بعيدًا نحو السقيفة.

جلس صموئيل بهدوء ولم يزعج آدم بالنظر إليه كثيرًا، ولم يزعجه بعدم النظر إليه أيضًا. انتعشت الريح في رؤوس الأشجار وجزء منها كشكش شعر صموئيل. قال بهدوء: «كنت أفكر أنه من الأفضل أن أعود إلى العمل في الآبار». كان صوت آدم يبدو وكأنه صداد من قلة الاستخدام: «لا، لا أريد أية آبار. سأدفع لك مقابل العمل الذي قمت به».

انحنى صموئيل على السلة ووضع إصبعه في راحة أحد الرضيعين وانغلقت أصابعه الصغيرة عليه «أعتقد أن آخر عادة سيئة يتخلى عنها الرجل هي النصح». «لا أريد نصيحة».

«لا أحد يفعل. إنها هدية المانع. حاول الانسجام مع الأمر يا آدم. تصرف وكأنك على قيد الحياة، كأنك تمثل في مسرحية. وبعد فترة، فترة طويلة سيكون هذا حقيقياً».

«لماذا علي أن أفعل هذا؟» سأل آدم.

كان صموئيل ينظر إلى التوأم: «ستمّر شيئًا ما بغض النظر عما تفعله أو لا تفعله. حتى لو تركت نفسك كما أرض مستريحة، فإن الحشائش ستنمو. شيء ما سينمو».

لم يجب آدم فقام صموئيل: «سأعود. سأعود مراراً وتكراراً. انسجم مع الأمر يا آدم».



## الفصل 19

### 1

يبدو أن الدولة الجديدة تتبع نمطاً معيناً. أولاً يأتي الفاتحون الأقوياء الشجعان الذين يمكنهم الاعتناء بأنفسهم في البرية، لكنهم سذج وعاجزون عند مواجهة الرجال، وربما هذا هو سبب خروجهم في المقام الأول. عندما يتم التخلص من الحواف الخشنة للأرض الجديدة، يصل رجال الأعمال والمحامون للمساعدة في التنمية - لحل مشاكل الملكية، عادة عن طريق إزالة الإغراءات ونقلها لأنفسهم. وأخيراً تأتي الثقافة، وهي الترفيه، والاسترخاء، والانتقال من آلام الحياة. يمكن للثقافة أن تكون على أي مستوى، وهي كذلك. وصلت الكنيسة وبيت الدعارة إلى الغرب الأقصى في وقت واحد. وكل واحد منهما كان سيشعر بالرعب إذا ما اعتقد أنه وجه مختلف لنفس الشيء. لكن من المؤكد أنهما كانا يهدفان إلى تحقيق الشيء نفسه: الغناء، التفاني، وتراتيل الكنائس أبعثت الرجل عن اكتئابه لفترة من الوقت، وكذلك فعلت بيوت الدعارة.

جاءت الكنائس الطائفية وهي تتأرجح بغرور وبصوت عال وواثق. بتجاهل فح لقوانين الديون والسداد قامت ببناء كنائس لا يمكن دفع ثمنها في مائة عام. لقد حاربت الطوائف الشر وهذا أمر مفروغ منه، لكنها أيضاً قاتلت بعضها البعض بشهوة مخيفة. قاتلت بعضها في دور العبادة. آمنت كل طائفة بفرح أن الآخرين كانوا متجهين إلى الجحيم في سلة واحدة. وجميعها جلبت معها

الشيء نفسه: الكتاب المقدس الذي بُنيت عليه أخلاقياتنا، وفنوننا وأشعارنا، وعلاقاتنا. تطلب الأمر فرداً ذكياً لمعرفة أين يكمن الاختلاف بين الطوائف، حيث يمكن لأي شخص أن يرى ما هو مشترك بينها. لقد جلبوا معهم بعض الموسيقى - ربما ليست الأفضل، ولكنها تحمل شيئاً من الشكل والإحساس. كما جلبوا الضمير، أو بالأحرى أيقظوا الضمير الغافي. لم يكونوا أنقياء، لكن كانت لديهم القدرة على الوصول للنقاء، مثل قميص أبيض متسخ، كان يمكن لأي امرئ أن يصنع شيئاً جيداً منه.

صحيح أنه عندما تم القبض على القس بيلينغ تبين أنه كان لصاً، وزانياً، ومتحرراً، ومحباً للحيوانات، لكن هذا لم يغير حقيقة أنه نقل بعض الأشياء الجيدة إلى عدد كبير من الناس. دخل بيلينغ السجن، لكن لم يوقف أحد الأشياء الجيدة التي أطلقها. ولا يهم كثيراً إن كانت دوافعه نجسة. لقد استخدم مواد جيدة تعلق في المجتمع. أنا أستخدم الفوترة فقط كمثال شائن. كان الدعاة الصادقون يتمتعون بالطاقة ويحاربون الشيطان والشورور ولا حدود لهم بحيث يمكنهم اقتلاع الأعين والأحذية. قد تكون عنهم فكرة أنهم شوهوا الحقيقة والجمال كما يفعل غناء فقمة للنشيد الوطني بمرافقة صف من أبواق السيرك. لكن في الواقع أن بعضاً من الحقيقة والجمال بقي، وكان النشيد قابلاً للتمييز. الطوائف في واقع الأمر فعلت أكثر من ذلك، لقد قامت ببناء هيكل الحياة الاجتماعية في وادي ساليناس. كان عشاء الكنيسة يعتبر على رأس فعاليات النادي الريفي، تمامًا كما أن قراءة الشعر يوم الخميس في الطابق السفلي تحت خزانة الكنيسة أدت إلى افتتاح المسرح الصغير.

بينما أتت الكنائس التي تحمل رائحة التقوى اللطيفة للروح، وهي تتقافز وتطلق الريح مثل خيول مصانع الجعة، تسللت بهدوء حركات التبشير بالإنجيل وهي تطلق سراح الفرح والجسد، زحفت هذه الحركات في صمت وخوف، برأس منحني ووجه مغطى.

ربما تكون قد شاهدت قصور الخطيئة المتلاثلة والرقص الرائع في أفلام الغرب الزائف، وربما كان بعضها موجودًا - ولكن ليس في وادي ساليناس. كانت بيوت الدعارة هادئة ومنظمة وحادرة. في الواقع، إذا صادف وكنت بعد سماع صرخات النشوة ذات الإيقاع الهائل قد وقفت تحت نافذة مبغى هناك واستمعت إلى الأصوات الخافتة، فمن المحتمل أن تخلط بين الهويتين، كان بيت الدعارة مقبولاً، بينما لم يتم الاعتراف به. دعني أخبرك عن أزقة الحب الجليلة في ساليناس. لقد كانت مشابهة تقريبًا للمدن الأخرى، لكن زقاق ساليناس له صلة بهذه الرواية.

إن مشيت غربًا في الشارع الرئيسي حتى ينحني، ستكون في تقاطع شارع كاستروفيل. يسمى شارع كاستروفيل الآن شارع السوق، والرب وحده يعلم لماذا. لطالما كانت تسمية الشوارع حسب اسم المكان الذي تستهدفه. وهكذا فإن شارع كاستروفيل، إذا اتبعته على بعد تسعة أميال أوصلك إلى كاستروفيل، وشارع أليزال إلى أليزال، وهكذا.

على أية حال، عندما أتيت إلى شارع كاستروفيل استدرت يمينًا. على بعد مجمعين من الأبنية، كان خط سكة جنوب المحيط الهادئ يتقاطع مع مسارات الشارع في طريقه إلى الجنوب، وشارع آخر كان يتقاطع مع شارع كاستروفيل من الشرق إلى الغرب. وطوال حياتي لم أستطع تذكر اسم ذلك الشارع. إذا استدرت يسارًا في ذلك الشارع وعبرت دروب الحي الصيني وبعدها استدرت يمينًا فأنت وصلت إلى الزقاق.

كان شارعًا طينياً مظلماً لامعاً في الشتاء وقاسياً مثل الحديد المحفر في الصيف. في الربيع كانت الأعشاب الطويلة تنمو على جوانبه - حيث تختلط الأعشاب والشوفان البري والخردل الأصفر. في الصباحات الباكرا كانت زقزقة العصافير فوق روث الخيل في الشارع تملأ المكان.

هل تتذكرون سماع ذلك أيها المسنون؟ هل تتذكرون كيف كان النسيم

الشرقي يجلب الروائح من الحي الصيني، رائحة شواء لحم الخنزير والتبغ الأسود والسيدّين تشي؟ وهل تتذكرون صوت دق الصنجة العظيمة في جوس هاوس، وكيف كانت نغمتها تعلق في الهواء لفترة طويلة؟

هل تتذكرون أيضا المنازل الصغيرة التي لم يتم إصلاحها أو صبغها؟ بدت صغيرة جدًا، وحاولت طمس أنفسها في الإهمال الخارجي، وحاولت الساحات الأمامية المتضخمة إخفائها عن الشارع. هل تتذكرون كيف كانت الظلال دائمة ترسم بخطوط صغيرة من الضوء الأصفر حول حوافها؟ لم يكن بالإمكان سماع شيء سوى الأصوات الخافتة من الداخل. ثم يفتح الباب الأمامي مرحباً بالشباب الريفي، وتسمع ضحكًا وربما نغمة عاطفية رقيقة لبيانو مفتوح بقطعة من سلسلة المرحاض عبر الأوتار، ثم يغلق الباب مرة أخرى.

ثم قد تسمع حوافر الخيول في الشارع الترابي، وبيت بوليني يقود حصان أجرته، وربما يخرج أربعة أو خمسة رجال بدنيين - رجال عظماء، أثرياء أو مسؤولون، وربما مصرفيون، أو عصابة المحكمة، وسيكون بيت في انتظارهم على مقربة، حيث تموج القطط الكبيرة عبر الشارع لتختفي في العشب الطويل.

هل تتذكرون صافرة القطار والضوء الممل والشحن من مدينة كينغ سيتي عبر شارع كاستروفيل إلى ساليناس وكان بإمكانك سماع تنهيدته في المحطة؟ لكل مدينة سيداتها المشهورات، النساء الخالدات اللواتي يتم تبجيلهن على مر السنين. هناك شيء جذاب للغاية بالنسبة للرجال حول هذا النوع من السيدات. فهي تجمع بين عقل رجل أعمال، وقسوة مقاتل للحصول على مكافأة، تمتلك دفء الرفيق، وروح دعابة ممثل تراجيدي. تتجمع الأساطير حولها، والغريب أنها ليست أساطير شهوانية. القصص المتناقلة والمذكورة عن السيدات العظيمات تغطي كل مجال ما عدا غرفة النوم. يصورونها على أنها فاعلة خير، معالجة، وشاعرة تصف العواطف الجسدية دون التورط فيها.

لعدد من السنوات، كانت ساليناس تؤوي اثنتين من هذه الكنوز: جيني، التي تسمى أحياناً جيني الشروط، ثم الزنجية التي كانت تمتلك وتدير لونغ غرين. كانت جيني رفيقة جيدة، حافظة للأسرار، ومانحة قروض سرية. هناك قصص كثيرة عن جيني في ساليناس.

الزنجية امرأة جميلة قاسية بشعر ناصع البياض وكرامة قاتمة ومخيفة. كانت عيونها البنية الغارقة في عمق مجتمعتها تنظر إلى العالم القبيح حولها بحزن فلسفي. أدارت مبعها مثل الكاتدرائية المكرسة لبريابوس الحزين ولكن المتصبب دائماً<sup>(1)</sup>. إذا كنت تبحث عن الاستمتاع بوقتك وضحكة جيدة ووكزة في الأضلاع تتوجه إلى مبعى جيني وهناك دون شك تحصل على قيمة أموالك؛ ولكن إذا تسلل حزن العالم الجميل والقريب من الدموع إلى قلبك، فإن لونغ غرين ستكون وجهتك الأمثل. عندما تخرج من هناك تشعر أن شيئاً صارماً ومهماً قد حدث. كانت عيون الزنجية الجميلة تبقى معك لأيام.

عندما جاءت في من سكرامنتو وفتحت بيتها اندلعت موجة من العداء من الاثنتين. تعاونتا للتخلص من في، لكنهما اكتشفتا أنها ليست في منافسة.

كانت في من النوع الأمومي، كبيرة الصدر والوركين ودافئة. كانت حصناً تبكي عليه. الجنس الجامح في مبعى الزنجية، والعريضة في مبعى جيني احتفظا بأتباعهما الذين بقوا أوفياء لهما. بينما أصبح مبعى في ملاذاً للشباب الذين يطرقون سن البلوغ ويحزنون على الفضيلة الضائعة، ويتألمون بسبب فقدانها. كانت في هي الملجأ للأزواج الفاسدين حيث كان مبعها يعرضهم عن الزوجات الباردات. كان مطبخها برائحة القرفة ويذكرك بمطابخ الجدات،

---

(1) بريابوس هو أحد الآلهة الرومانية القديمة، والذي تم وصفه في علم الأساطير أنه كان حارس حقول الخضار وكان أيضاً حامياً لخلايا النحل والقطعان وكروم العنب، وتميز بضخامة عضوه الذكري، ومنه اشتق اسم مرض الانتصاب المرضي المؤلم الذي يحدث بدون تحفيز أو رغبة جنسية ويستمر لوقت طويل.

وإذا حدث لك أي شيء في مبعي في، فأنت تشعر أنه كان حادثاً يمكن التسامح معه. قاد مبعها شباب ساليناس إلى درب الجنس الشائك بأكثر طريقة وردية وسلسة. كانت في امرأة لطيفة ولكن ليست ذكية، وذات أخلاق جميلة للغاية ومن السهل أن تُصدم. وثق الناس بها وهي وثقت بالجميع. لا أحد استطاع أن يؤذي في بمجرد أن يعرفها لأنها لم تكن منافسة للآخرين.

تماماً كما هو الحال في متجر أو مزرعة، حيث يمثل الموظفون رئيسهم، كذلك هو الحال في بيت الدعارة. الفتيات تمثلن سيدتهن، لأنها توظف هذا النوع، ولأن السيدة الجيدة تطبع شخصيتها في العمل. يمكنك البقاء لفترة طويلة جداً في بيت في قبل أن تسمع كلمة قبيحة. قضاء الوقت في غرف النوم والأسعار كانت معقولة جداً وغير رسمية. بشكل عام كانت تدير بيتاً رائعاً، عرف عنه الشرطي والعمدة. ساهمت في بشكل كبير في كل مؤسسة خيرية. وبسبب خوفها من الأمراض دفعت بشكل منتظم مقابل فحص فتياتها. كانت احتمالات التعامل مع صعوبات في بيت في أقل مقارنة بمعلم في مدرسة الأحد. سرعان ما أصبحت في مواطنة قوية ومحبوبة في بلدة ساليناس المتنامية.

## 2

الفتاة كيت حيرت في، كانت شابة فاتنة جداً وشبيهة بسيدات المجتمع ومتعلمة جيداً. أخذتها في إلى غرفة نومها المصونة واستجوبتها أكثر بكثير مما لو كانت كيت فتاة من نوع آخر. كانت هناك دائماً نساء يترقن باب بيت الدعارة، وقد تعرفت في على معظمهن على الفور. يمكنها التعرف على طبائعهن - كسولة، انتقامية، شهوانية، غير نافعة، جشعة، طموحة. لكن كيت لم تقع في أي من هذه الفئات.

قالت: «أتمنى ألا تمانعي سؤالي كل هذه الأسئلة، يبدو الأمر غريباً جداً أن تأتي إلى هنا. من مثلك يمكنها الحصول على زوج وعربة بمقعدين ومنزل في



الزاوية في المدينة دون أي مشكلة على الإطلاق». كانت تتحدث وهي تدير خاتم زفافها حول إصبعها الصغير السمين طوال الوقت.

ابتسمت كيت بخجل: «من الصعب شرح الأمر، أمل ألا تصرّي على معرفة ذلك، لأنه يتعلق بسعادة شخص قريب وعزيز جداً بالنسبة لي. من فضلك لا تسأليني».

أومأت في برأسها». لقد عرفت أشياء من هذا القبيل. كانت لدي فتاة تعول طفلها، ولم يعرف أحد بذلك منذ زمن طويل. تلك الفتاة لديها منزل جميل وزوج - كدت أخبرك أين. كنت لأقطع لساني قبل أن أقول. هل لديك طفل يا عزيزتي؟»

نظرت كيت إلى الأسفل في محاولة لإخفاء بريق الدموع في عينيها. عندما تمكنت من التحكم في حلقها همست، «أنا آسفة، لا يمكنني التحدث عن ذلك».

«لا بأس. لا بأس. خذي وقتك».

لم تكن في ذكية، لكنها كانت بعيدة كل البعد عن الغباء أيضاً. ذهبت إلى العمدة وحصلت على براءتها من الموضوع من البداية. لم يكن هناك أي معنى للمجازفة. كانت تعلم أن هناك شيئاً خاطئاً بشأن كيت، لكنه إذا لم يؤذ بيتها وعملها، فليس ذلك حقاً من شأن في.

ربما كانت كيت محتالة، لكنها لم تكن كذلك. بدأت بالعمل على الفور وعندما يعود العملاء مراراً وتكراراً ويطلبون فتاة بالاسم، فأنت تعلم أنه بات لديك شيء مميز. الوجه الجميل فحسب لن يفعل ذلك. كان من الواضح تماماً لفي أن كيت لم تكن تتعلم مهنة جديدة.

هناك شيان من الجيد أن تعرفهما عن الفتاة الجديدة: أولاً: هل ستكون مفيدة؟ وثانياً: هل ستسجّم مع الأخريات؟ فلا شيء يربك أجواء المنزل مثل فتاة سيئة المزاج.

لم يكن لدى فَي وقت طويل لتنتقل إلى السؤال الثاني. قدمت كيت نفسها بشخصية لطيفة. ساعدت الفتيات الأخريات في الحفاظ على نظافة غرفهن. كانت تخدمهن عندما يمرضن، وتستمع إلى مشاكلهن، وتساعدهن في مسائل الحب، وبمجرد أن تحصل على بعض المال ترحب بإقراضهن. لا يمكنك أن تطلب فتاة أفضل من هذه. أصبحت أفضل صديقة لكل فرد في المنزل.

لم تكن هناك مشكلة لا تواجهها كيت، ولم تكن تخاف من الكدح، فبالإضافة إلى أنها أنعشت العمل، سرعان ما أصبحت لديها مجموعتها الخاصة من العملاء المنتظمين. كانت كيت حسنة الانتباه أيضًا. كانت تتذكر أعياد الميلاد ودائمًا تحرص على تقديم هدية وكعكة بالشموع. أدركت فَي أن لديها كنزاً.

يعتقد الأشخاص الذين لا يعرفون أنه من السهل أن تكون المرأة صاحبة مبعي - ما عليك سوى الجلوس على كرسي كبير وشرب الجعة وأخذ نصف الأموال التي تجنيها الفتيات، هكذا يعتقدون. لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق. عليك أن تطعمي الفتيات - هذا يعني بقالة وطبخ الوجبات. مشكلة الغسيل الخاصة بك أكثر تعقيداً من مشكلة الفنادق. عليك إبقاء الفتيات في حالة جيدة وسعيدات قدر الإمكان، ويمكن لبعضهن أن يكن مشاكسات وسيئات الطباع. عليك المحافظة على إبعاد فكرة الانتحار قدر المستطاع، فالعاهرات، ولا سيما أولئك اللاتي يتقدمن في العمر، طائشات عند استخدام شفرة الحلاقة؛ وهذا يجعل البيت سيئ السمعة.

عندما عرضت كيت المساعدة في التسويق والتخطيط للوجبات شعرت فَي بالسعادة رغم أنها لم تكن تعلم كيف يمكن للفتاة إيجاد الوقت لذلك. حسناً، لم يتحسن الطعام فحسب، بل انخفضت فواتير البقالة بمقدار الثلث في الشهر الأول الذي تولت فيه كيت المسؤولية. والغسيل - لم تكن فَي تعرف ما قالته كيت للرجل، لكن الفاتورة انخفضت فجأة بنسبة 25 في المائة. لم تر فَي كيف كانت تتعايش مع الأمور بدون كيت.

في وقت متأخر من بعد الظهر قبل بدء العمل جلستا معًا في غرفة في تحتسيان الشاي. كانت غرفتها تبدو أجمل بكثير لأن كيت قامت بطلاء الخشب وعلقت فيها ستائر من الدانتيل. بدأت الفتيات تدركن وجود رئيسيتين، وليس واحدة، وكنَّ سعيدات لأن كيت كانت لطيفة في التعامل. دفعتهن للجوء إلى المزيد من الحيل لكنها لم تكن تعاملهم بلؤم بسبب ذلك. فمن المحتمل ألا يضحكن طويلًا.

بحلول الوقت الذي مر فيه عام على وجودها في البيت، أصبحت علاقة في وكيت مثل الأم وابنتها. كانت الفتيات يقلن: «شاهدي - ستمتلك هذا المنزل يومًا ما».

كانت يدا كيت مشغولتان دائمًا، ومعظم الوقت تحيك المناديل. كانت تنقش الأحرف الأولى بشكل جميل، حملت جميع الفتيات تقريبًا مناديلها واعتززن بها.

تدرجيا حدث شيء طبيعي تمامًا. بدأت في، بعاطفتها الأمومية الغامرة، في التفكير في كيت على أنها ابنتها. شعرت بهذا في صدرها وفي عواطفها وترسخت في روحها. ولم تكن تريد أن تكون ابنتها عاهرة، لقد كان تسلسلاً منطقيًا تمامًا.

فكرت في بجدية في كيفية طرحها للموضوع. كان من طبيعة في الاقتراب من أي موضوع بشكل جانبي. لم تستطع أن تقول لكيت: «أريدك أن تتوقفي عن العمل».

قالت: «إذا كان الأمر سرًا فلا تجيبي، لكنني كنت أريد دائمًا أن أسألك. ماذا قال لك العمدة - يا رب هل كان ذلك قبل سنة؟ كيف يمضي الوقت! أعتقد أنه يمضي بشكل أسرع كلما تقدمت في السن. كان معك ما يقرب من ساعة. لم يمارس - لا بالطبع لا. إنه رجل عائلة. يرتاد مبغي جيني. لكنني لا أريد التطفل على شؤونك».

قالت كيت: «ليس هناك سر على الإطلاق في ذلك. كنت لأخبركِ. قال لي أن علي العودة إلى المنزل. كان لطيفاً جداً حول هذا الموضوع، وعندما أوضحت أنني لا أستطيع، كان لطيفاً للغاية ومتفهماً».

«هل أخبرته عن السبب؟» سألت في بغيرة.

«بالطبع لا. هل تعتقدين أن أقول له ولا أقول لك؟ لا تكوني سخيفة يا عزيزتي، يا لك من طفلة مضحكة».

ابتسمت في وهي تتأرجح باقتناع على كرسيها.

كان وجه كيت هادئاً، لكنها كانت تتذكر كل كلمة في تلك المقابلة. في واقع الأمر راق لها أسلوب العمدة؛ كان مباشراً.

### 3

كان قد أغلق باب غرفتها ونظر في الأنحاء سريعاً بعين شرطي محترف - لا توجد صور فوتوغرافية، ولا أي متعلقات شخصية تحدد هويتها، لا شيء سوى الملابس والأحذية.

جلس على كرسيها الهزاز الصغير بينما أجزاء أردافه الخارجية معلقة على كل جانب. شبك أصابعه المضطربة وكأنها في مؤتمر نمل. تحدث بنبرة غير عاطفية كما لو أنه لم يكن مهتماً كثيراً بما كان يقوله. ربما كان هذا ما أثار إعجابها.

في البداية اختارت مظهرها الغبي قليلاً، لكن بعد بضع كلمات تخلت عن ذلك وغربلته بعينيها محاولة قراءة أفكاره. لم ينظر في عينيها ولم يتجنبها. لكنها كانت تعلم أنه كان يتفقدها وهي تتفقده. شعرت بنظرته على الندبة على جبهتها كما لو كان قد لمسها.

قال بهدوء: «لست هنا لتسجيل أي سبق، فقد شغلت المنصب لفترة طويلة

بالفعل. كما تعلمين أيتها الشابة، لو كان هذا قبل خمسة عشر عامًا كنت سأقوم ببعض التحقيقات، وأعتقد أنني كنت سأجد شيئًا سيئًا للغاية». انتظر رد فعل منها لكنها لم تعترض. أو ما برأسه ببطء.

قال: «لا أريد أن أعرف شيئًا. أريد السلام في هذه المقاطعة، وأعني كل أنواع السلام، وهذا يعني أن ينام الناس ليلاً. لم أذهب لمقابلة زوجك» وعرفت كيت أنه لاحظ الحركة الطفيفة لعضلاتها المشدودة». سمعتُ أنه رجل لطيف للغاية. سمعت أيضًا أنه أصيب بشدة». نظر في عينيها للحظة». ألا تريدان أن تعرفي مدى الإصابة؟»  
قالت «نعم».

«حسنًا، سوف يتحسن - لقد تحطم كتفه، لكنه سيتعافى. تشينغ يعتني به جيدًا. بالطبع لا أعتقد أنه سيرفع أي شيء بذراعه اليسرى لفترة طويلة. إذا لم يكن تشينغ قد عاد في تلك الليلة لكان المسكين قد نزف حتى الموت، وبقيت أنتِ لديّ في السجن».

كانت كيت تحبس أنفاسها وتستمع إلى أي تلميح لما سيأتي، ولم تسمع.  
قالت بهدوء: «أنا آسفة»

أصبحت عيون العمدة يقظة، قال: «هذه هي المرة الأولى التي ترتكبين فيها خطأ. أنتِ لستِ آسفة. لقد عرفت شخصًا مثلكِ ذات مرة - لقد شنقته قبل اثني عشر عامًا أمام سجن المقاطعة. اعتدنا أن نفعل ذلك هنا».

كانت الغرفة صغيرة ومظلمة، يتوسطها سرير ماهوجني، ثم هناك مغسلة من الرخام مع وعاء وجرة. وورق الحائط عبارة عن زهور صغيرة لا نهاية لها. كانت الغرفة صامتة، وتمتص كل صوت يصدر بين جدرانها.

كان العمدة يحدق في لوحة للملائكة المقربين، مجرد رؤوس، شعر مجعد، عيون ناصعة، وأجنحة بحجم أجنحة الحمام نابثة من أعناقهم. عبس قائلاً: «هذه لوحة مضحكة لمبغى».

قالت كيت: «لقد كانت هنا من قبل».

بدا حينها أن التمهيدات قد انتهت، استقام العمدة وفك أصابعه وقام من كرسيه، حتى أردافه انكمشت قليلاً: «لقد تركتِ رضيعين خلفك، اهدئي، لا أحاول حملك على العودة، في الواقع أعتقد أنني أشجعك على عدم العودة. أظن أنني أعرف صنفك، يمكنني نقلك من محطة إلى أخرى على خط المقاطعة، ويستلمك عمدة بعد آخر إلى أن تُرمى بقاياك في نهاية الأمر في المحيط الأطلسي. لكنني لا أريد فعل ذلك. لا يهمني كيف تعيشين طالما أنك لا تتسبين بأي مشكلة. العاهرة تبقى عاهرة».

سألت كيت بنفس نبرته: «ما الذي تريده؟»

«إليك ما أريد. ألاحظ أنك غيرت اسمك. أريدك أن تبقي اسمك الجديد. أعتقد أنك اختلقتِ أيضاً مكاناً جئت منه، وهذا سيكون هو المكان الذي جئت منه. أما سبب مغادرتك لذلك المكان، فيمكنك الاحتفاظ به نحو ألفي ميل بعيداً عن كينغ سيتي».

كانت تبتسم قليلاً، ولم تكن ابتسامة قسرية. لقد بدأت تثق في هذا الرجل وتجه.

قال «شيء واحد أفكر فيه. هل تعرفين الكثير من الناس في كينغ سيتي؟»  
«لا».

قال عابراً: «سمعت عن إبرة الحياكة. حسناً، من الممكن أن يأتي شخص ما كنتِ تعرفينه إلى هنا. هل هذا هو لون شعرك الحقيقي؟»  
«نعم».

«اصبغيه باللون الأسود لفترة من الوقت. الكثير من الناس يشبهون أشخاصاً آخرين».

«وماذا عن هذا؟» لمست نديتها بإصبعها النحيف.

«حسناً، هذا مجرد - ما هي تلك الكلمة؟ ما هي تلك الكلمة اللعينة؟ قلتها هذا الصباح».

«مصادفة؟»

«هذه هي - مصادفة». بدا أنه قد انتهى. أخرج التبغ وبعض الأوراق المتجمدة ولف سيجارة لنفسه. أطلق عود ثقاب وأشعل سيجارته التي كانت معوجة من الجانب.

قالت كيت: «ألا يوجد تهديد؟ أعني، ماذا ستفعل إذا -»

«لا، لا يوجد. أعتقد أنه يمكنني التفكير في شيء جميل ومرتب، مع ذلك فيما يتعلق بهذا الأمر لا أريد - ما أنتِ عليه، أو ما تفعلينه، أو ما تقولينه - أن يؤذي السيد تراسك أو أولاده. يمكنك التعامل مع الأمر على أنكِ قد مُتِّ، والآن أنتِ شخص آخر، هكذا سيكون كل شيء بخير».

وقف وذهب إلى الباب، ثم استدار: «لدي ابن، سيبلغ العشرين هذا العام. ضخم القامة، لطيف المظهر، مكسور الأنف، والجميع يحبه. لا أريده أن يأتي إلى هنا. سأقول هذا لفي أيضاً. فليذهب إلى مبغى جيني. إن أتى إلى هنا اطلبي منه الذهاب إلى مبغى جيني». غادر وأغلق الباب خلفه بينما ابتسمت كيت وهي محدقة بأصابعها.

#### 4

استدارت في في كرسيها لتصل إلى قطعة من فطيرة البانوتشا المرصعة بالجوز. كان محيط فمها مليئاً بالحلوى عندما تتحدث. تساءلت كيت بصعوبة عما إذا كانت جيدة في قراءة الأفكار، لأن في قالت: «ما زلت لا أحب شعركِ هكذا. قلت في ذلك الوقت وأقولها مجدداً: أحب شعركِ باللون الأشقر أكثر. لا أعرف ما دفعك لتغييره، بشرتكِ فاتحة».

سحبت كيت شعرة واحدة بين أظفر الإبهام والسبابة وسحبته برفق، كانت ذكية جداً. قالت أفضل كذبة على الإطلاق - الحقيقة. قالت: «لم أرغب في إخبارك، كنت أخشى أن يتم التعرف عليّ وقد يؤدي ذلك أحداً».

نهضت في من كرسيها واقتربت منها وقبلتها قائلة: «يا لك من طفلة جيدة، يا لك من عزيزة مراعية».

قالت كيت: «فلنشرب بعض الشاي. سأحضره». خرجت من الغرفة وفي الصالة في طريقها إلى المطبخ كانت تفرك قبلة خدها بأطراف أصابعها.

عند عودتها إلى كرسيها، التقطت في قطعة من البانوتشا تظهر من خلالها حبة جوز كاملة، وضعتها في فمها دون الانتباه لقطعة من قشرة الجوز كانت فيها. اصطدم الجزء الحاد والمذبذب بسن مجوف واندر في العصب، مصدراً ومضات شديدة وغير مُحتملة من الألم بحيث تبللت جبهتها. عندما عادت كيت ويدها إبريق الشاي والأكواب كانت في تخدش في فمها بإصبع ملتوية وتنشج من الألم.

«ما الذي حدث؟» صاحت كيت.

«قشر الجوز - الأسنان».

«دعيني أرى. افتحي وأشيرى». نظرت كيت إلى الفم المفتوح، ثم ذهب إلى وعاء الجوز على الطاولة وأخذت عود ثقب المكسرات المعدني وفي جزء من الثانية كانت قد أخرجت القشرة ووضعتها في راحة يدها «ها هو».

توقف العصب عن الصراخ وخف الألم «بهذا الحجم فحسب؟ شعرت وكأنه منزل محشور في فمي. عزيزتي افتحي ذلك الدرج الثاني حيث يوجد دوائي. احضري صبغة الأفيون وقطعة من القطن. هلا ساعدتني في حشو هذا السن؟»

أحضرت كيت الزجاجاة وحشت السن بكرة صغيرة من القطن المشبع بالأفيون بعود ثقب الجوز: «يجب عليك إخراجها لاحقاً»



«أعرف. سأفعل».

«لدي ثلاثة أسنان مفقودة في هذا الجانب».

«حسنًا، لن يُعرف ذلك أبدًا، لقد جعلني هذا أشعر بالدوار. أحضري لي مشروب بينكهام»<sup>(1)</sup> سكبت لنفسها القليل وتنهدت بارتياح: «هذا دواء رائع. المرأة التي اخترعته قديسة».

مكتبة

t.me/soramnqraa

---

(1) ليديا إستس بينكهام مخترعة أمريكية ومسوقة لمنشط كحولي لحل مشاكل الدورة الشهرية وانقطاع الطمث عند النساء وصفه الخبراء الطبيون بأنه علاج زائف، إلا أنه لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا بشكل معدّل.



## الفصل 20

### 1

كانت فترة ما بعد ظهيرة ممتعة، حيث الشمس الغاربة تغمر قمة فريمونت بنور وردي، وكان بإمكان في التمتع بهذا المنظر من نافذتها. من شارع كاستروفيل كان يصلها الصوت الجميل لأجراس الأحصنة التي تحمل الحبوب من التلال، وصوت الطباخ وهو يحارب القدور في المطبخ، ثم صوت فرك خفيف على الحائط تلاه نقر على الباب. صاحت في: «أدخل يا كوتون آي»<sup>(1)</sup> فُتح الباب ووقف عازف البيانو الصغير ذو العين القطنية عند المدخل منتظراً صوتاً يخبره بمكانها.

«ما الذي تريده؟» سألته في.

التفت إليها. «لا أشعر أنني بحالة جيدة آنسة في. أريد أن أزحف إلى سريري، لا يمكنني أن أعزف الليلة».

«لقد كنت مريضاً ليلتين من الأسبوع الماضي يا كوتون آي. ألا تحب عملك؟»

---

(1) كانت هناك في الماضي عدد من المعاني لمصطلح «كوتون آي أو صاحب العين القطنية». كانت تقال للإشارة إلى فاقد البصر المبيضة عينونه (وهو ما ينطبق على هذه الشخصية)، الشخص الأسود بعين فاتحة جداً، عمال المناجم الذين يغطيهم الغبار الأسود باستثناء عيونهم البيضاء، الشخص الذي تصبح عيناه فاتحة بسبب عدوى بكتيرية من التراخوما أو إعتام عدسة العين أو الجلوكوما، خضوع الشخص لعملية جراحية تم فيها استبدال مقلة العين بكرة قطنية بسبب نقص المعدات الطبية و/ أو المتخصصين في الجراحة، بالإضافة طبعاً لكون الشخص أعمى.

«لا أشعر أنني بحالة جيدة».

«حسنًا، فليكن. لكنني أتمنى أن تعتني بنفسك بشكل أفضل».

قالت كيت بهدوء: «أترك التدخين لأسبوعين يا كوتون آي».

«أوه، آنسة كيت. لم أكن أعلم أنك هنا. لم أكن أدخن».

قالت كيت: «لقد كنت تدخن».

«نعم، آنسة كيت، أؤكد لك أنني سأترك التدخين. لا أشعر أنني بحالة

جيدة». أغلق الباب وسمعتا يده وهي تمسح على طول الحائط لتوجيهه.

قالت في: «أخبرني أنه توقف عن التدخين».

«لم يتوقف».

قالت في «المسكين، ليس لديه الكثير ليعيش من أجله».

وقفت كيت أمامها وقالت: «أنت لطيفة للغاية وتؤمنين بالجميع. في يوم من

الأيام إذا لم تنتهي أو أنتبه لأمرك فسيسرق شخص ما هذا السقف».

«من قد يريد أن يسرق مني؟» سألتها في.

وضعت كيت يدها على أكتاف في الممتلئة. ليس الكل بلطفك».

لمعت عيون في بالدموع. التقطت منديلًا من الكرسي بجانبها ومسحت

عينها وأنفها: «أنت بمثابة ابنة لي يا كيت».

«بدأت أو من أنني كذلك. فأنا لم أعرف والدتي قط. لقد ماتت عندما كنت

صغيرة».

استنشقت في نفسًا عميقًا ودخلت في الموضوع: «كيت، لا أحب أن عملي

هنا».

«ولم لا؟»

هزت في رأسها وهي تحاول أن تجد الكلمات. أنا لا أخجل من عملي، أنا

أدير بيتاً جميلاً وإذا لم أفعل سيديره آخر بشكل سيء. أنا لا أؤذي أحداً بهذا.  
ولا أخجل».

«ما الداعي لأن تخجلي؟» سألتها كيت.

«لكني لا أحب أن عملي في هذا المجال، لا أحب ذلك فحسب. أنت  
بشكل ما ابنتي، ولا أحب أن تعمل ابنتي في هذا العمل».

قالت كيت: «لا تكوني سخيقة يا حبيبتني، لا بد لي من ذلك - هنا أو في  
مكان آخر. أخبرتك، لا بد لي من كسب المال».  
«لا، لن تفعلي».

«بالطبع سأفعل. من أين يمكنني الحصول عليه؟»

«يمكنك أن تكوني ابنتي. يمكنك إدارة المنزل. يمكنك الاعتناء بأموري  
دون الصعود إلى الطابق العلوي. أنا لست بخير دائماً كما ترين».

«أعلم أنك لست كذلك عزيزتي المسكينة. لكن يجب أن أكسب لنفسي  
بعض المال».

«هناك الكثير لكينا يا كيت. يمكنني أن أعطيك بقدر ما تكسبينه وأكثر».

هزت كيت رأسها بحزن: «أنا أحبكِ، وأتمنى أن أفعل ما تريدين. لكنك  
بحاجة إلى احتياطك الصغير، وأنا - حسناً، افترضني أن شيئاً حدث لك؟ لا،  
يجب أن أواصل العمل. هل تعلمين يا عزيزتي أن لدي خمسة من المنتظمين  
هذه الليلة؟»

حدّقت فيها في وهي مصدومة: «لا، لا أريدك أن عملي».

«لا بد لي من ذلك يا أمي».

الكلمة فعلت فعلها، انفجرت في بالبكاء، وجلست كيت على ذراع كرسيها  
ومسحت خدها وعينيها المتدفقتين.

كان الغسق يستقر بعمق في الوادي، ووجه كيت متوهج تحت شعرها الداكن: «أنتِ الآن بخير. سأذهب وألقي نظرة على المطبخ ثم أرتدي ثيابي».

«كيت، ألا يمكنك إخبار زبائنك لهذه الليلة بأنك مريضة؟»  
«بالطبع لا يا أُمي».

«كيت إنه الأربعاء. ربما لن يكون هنا أي شخص بعد الساعة الواحدة».  
«أعضاء أخوية حطابي العالم لديهم عمل في المنطقة».  
«نعم بالتأكيد لكن يوم الأربعاء لا يأتي أحد هنا بعد الساعة الثانية».  
«ما الذي تريدين قوله؟»

«كيت، عندما تنتهين انقري على بابي. ستكون هناك مفاجأة صغيرة بانتظارك».

«أي نوع من المفاجآت؟»

«أوه، انها مفاجأة سرية! هلا تطليين من الطباخ أن يأتي عندما تذهبن إلى المطبخ؟»

«تبدو وكأنها مفاجأة على شكل كعكة».

«توقفي عن طرح الأسئلة يا عزيزتي. انها مفاجئة».

قبلتها كيت: «يا لك من أم حنونة».

عندما أغلقت الباب خلفها، وقفت كيت للحظة في القاعة. كانت أصابعها تداعب ذقنها الصغير المدب وعيناها هادئتان. ثم مدت ذراعيها فوق رأسها ومددت جسدها في ثناؤب مترف، ومسحت يديها ببطء على جانبيها من أسفل ثديها إلى وركها، اتجهت زوايا فمها إلى الأعلى قليلاً واتجهت نحو المطبخ.

جاء عدد من الزبائن الثابتين ولكن لم يأت يومها أحد من منتسبي أخوية الحطابين. جلست الفتيات في الصالون ينتظرن ويتشاءبن حتى الساعة الثانية. ما منع شباب الأخوية من المجيء كان حادثاً مؤسفاً. أصيب كلارنس مونتيث بنوبة قلبية قبل العشاء، مددوه على السجادة وبللوا جبهته إلى أن جاء الطيب. لم يشعر أحد برغبة في الجلوس لتناول العشاء. بعد أن وصل دوايلد وألقى نظرة على كلارنس، صنع الشباب نقالة بوضع صواري العلم من خلال أكمام معطفين. في طريق العودة إلى المنزل مات كلارنس، وكان عليهم الرجوع إلى دكتور وايلد مرة أخرى. وبحلول الوقت الذي وضعوا فيه خططاً للجنائز وكتبوا النعي لمجلة ساليناس لم يكن لدى أي شخص رغبة في مضاجعة عاهرة.

في اليوم التالي عندما اكتشفوا ما حدث، تذكرت الفتيات جميعاً ما قالت إثيل عشر دقائق قبل حلول الساعة الثانية.

«يا إلهي!» قالت إثيل «لم يكن هذا المكان يوماً بهذا الهدوء ودون موسيقى، والقطعة أكلت لسان كيت، الحال أشبه بالجلوس بقرب جثة».

لاحقاً تأثرت إثيل بقولها ذاك - كان الأمر كما لو كانت تعرف ذلك تقريباً.

قالت غريس: «أتساءل أي قطعة سرقت لسان كيت. ألسيتِ على ما يرام؟ كيت - سألتكِ ألسيتِ على ما يرام؟»

أجابت كيت: «أوه! أعتقد أنني كنت أفكر في شيء ما».

قالت غريس: «حسناً، أنا لست كذلك ويغلبني النعاس. لماذا لا نغلق؟ دعنا نسأل في، لن يأتي أحد الليلة. سأسأل في».

قطع صوت كيت عليها «دعها. إنها ليست على ما يرام. سنغلق الساعة الثانية».

قال إثيل: «هذه الساعة متأخرة بكثير، ما بها في؟»

قالت كيت: «ربما هذا ما يشغل فكري. في ليست على ما يرام. أنا قلقة للغاية عليها. لم تكن لتدع ذلك يظهر عليها إن استطاعت».

قالت غريس: «اعتقدت أنها بخير».

فازت إثيل بالجائزة الكبرى مرة أخرى: «حسناً هي لا تبدو بخير بالنسبة لي. تبدو بشرتها مُحمرّة نوعاً ما. لقد لاحظت ذلك».

تحدثت كيت بهدوء شديد: «لا تخبرنها أبداً أنني أخبرتك يا فتيات، هي لا تريدكن أن تقلقن. يا لحنانها!»

قالت غريس: «هذا أفضل بيت ملعون عملت فيه على الإطلاق».

قالت أليس «من الأفضل ألا تدعيها تسمعك تقولين كلمات مثل هذه».

«هراء! إنها تعرف كل الكلمات».

«لكنها لا تحب أن تسمعها - ليس منا».

قالت كيت بصبر: «أريد أن أخبركن بما حدث. كنت أتناول الشاي معها في وقت متأخر من بعد ظهر هذا اليوم وأغمي عليها، أصبحت كالميتة. أتمنى لو أنها ترى طبيباً».

كررت إثيل: «لقد لاحظت أن وجهها متورّد ولامع بشكل غريب. تلك الساعة خاطئة لكنني نسيت من أي جانب».

قالت كيت: «اذهبن أنتن إلى الفراش. أنا سأغلق».

عندما غادرن ذهبت كيت إلى غرفتها وارتدت فستانها الجديد الجميل المطبوع الذي جعلها تبدو وكأنها فتاة صغيرة. قامت بتمشيط شعرها وتركته يتدلى في ضفيرة واحدة سميقة مربوطة. ربتت على خديها ببولونيا ماء فلوريدا. ترددت للحظة، ثم من درج المكتب العلوي أخرجت ساعة ذهبية



صغيرة معلقة من دبوس فلور دي لي<sup>(1)</sup>. قامت بلفها في أحد مناديلها الجميلة وخرجت من الغرفة.

كانت القاعة مظلمة للغاية، ولكن ظهرت حافة من الضوء تحت باب في. نقرت كيت بهدوء.

دعت في: «من هذا؟»

«كيت».

«لا تدخلني بعد. انتظري في الخارج. سأخبرك متى تدخلين». سمعت كيت حفيفاً وحدثاً في الغرفة ثم نادتها في: «حسنًا. ادخلي».

تم تزيين الغرفة بفوانيس يابانية بها شموع معلقة على أعواد من الخيزران في الزوايا، وورق كريب أحمر ملفوف من الأعلى في المركز إلى الزوايا لإضفاء تأثير الخيمة. على المنضدة؛ كانت هناك كعكة بيضاء وعلبة من الشوكولا محاطة بشمعدانات وبجانبها سلة بها قنينة من الشمبانيا وسطل من الثلج المجروش. ارتدت في أفضل فستان لديها من الدانتيل وكانت عينها تبرقان بالعاطفة.

«ما الذي يحدث هنا؟» صاحت كيت بدهشة وهي تغلق الباب خلفها: «تبدو وكأنها حفلة!»

«إنها بالفعل حفلة. حفلة لابنتي العزيزة».

«اليوم ليس عيد ميلادي».

---

(1) lis - de - fleur، (بالفرنسية: «زهرة الزنبق»)، وهو شعار يُستخدم في الكثير من المواقع باعتباره رمزاً للنبالة المرتبطة منذ فترة طويلة بالملكية الفرنسية. تاريخياً وخلال العصور الوسطى تداخلت زهرة الزنبق مع الفن المسيحي وارتبطت تدريجياً مع نشيد ديني للملك سليمان «زنبقة بين الأشواك»، وأشير بها إلى السيدة العذراء حيث ترمز الزنبقة في الأدب الديني إلى النقاء والعفة. وكان يعتقد أيضاً أن زهرة الزنبق تمثل الثالوث المقدس. وفي مواضع أخرى أن الزنبق نبت من دموع حواء عندما غادرت عدن.

قالت في: «ربما يكون كذلك».

«لا أعرف ماذا تقصدين. لكنني أحضرت لك هدية» قالت وهي تضع المنديل المطوي في حجر في: «افتحها بعناية».

رفعت في الساعة: «أوه يا عزيزتي، يا عزيزتي! أنت طفلة مجنونة! لا، لا يمكنني قبولها» فتحت ظهرها بظفر، كان منقوشاً فيها: «إلى ك. من كل قلبي أ». قالت كيت بهدوء: «كانت ساعة أُمي. وأود أن تحصل عليها والدتي الجديدة».

«آه يا طفلتي الحبيبة! طفلتي الحبيبة!»

«أُمي ستكون سعيدة».

«لكنها ما زالت حفلتي ولدي هدية لابنتي العزيزة - لكن علي أن أفعل هذا بطريقة الخاصة. الآن يا كيت افتحي زجاجة النبيذ واسكبي لنا كأسين بينما أقوم بتقطيع الكعكة. أريد أن يكون كل شيء خيالياً».

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، جلست في على مقعدها خلف الطاولة ورفعت كأسها «إلى ابنتي الجديدة - أتمنى لك حياة طويلة وسعيدة». وبعد أن شربت رفعت كيت نخباً: «في صحة أُمي». قالت في: «ستجعليني أبكي - لا تجعليني أبكي. هلا أحضرت ذلك الصندوق الماهوغني الموضوع هناك على المكتب عزيزتي. أحضره وضعه على الطاولة هنا وافتحيه».

في الصندوق المصقول كانت قد وضعت ورقة بيضاء ملفوفة بشرط أحمر «ما هذا؟» سألت كيت.

«إنها هديتي لك. افتحها».

فتحت كيت الشريط الأحمر بحرص شديد وفتحت الأنوب. تمت كتابة الأحرف المظلمة بأناقة وبشكل جيد وحذر، كان مكتوباً بعناية ومذنباً بتوقيع الشاهد الذي لم يكن سوى الطاهي.

«كل ممتلكاتي الدنيوية بدون استثناء لكيت ألبى لأنني أعتبرها ابنتي».  
كان الأمر بسيطاً ومباشراً ولا يمكن تعديله من الناحية القانونية. قرأتها كيت  
ثلاث مرات، ونظرت إلى الوراء في التاريخ، ودرست توقيع الطاهي. راقبتها  
فِي وفمها انفتح ببطء وترقّب. تحركت شفاه كيت وفِي في نفس اللحظة،  
لكن كيت لفت الورقة وربطت الشريط مجدداً حولها وأعادتها في الصندوق  
وأغلقت الغطاء وأخيراً جلست على كرسيها.

قالت فَي: «هل أنت مسرورة؟»

بدت عينا كيت وكأنهما تحدقان في عيني فَي وما وراءهما لاخترق عقلها.  
قالت بهدوء، «أنا أحاول التماسك يا أمي. لم أعرف أحداً بهذه الطيبة. وأخشى  
أنني إذا تسرّعت في قول أي شيء أو اقتربت منك كثيراً، فسوف أتحطم».  
كانت دراماتيكية أكثر مما توقعته فَي. بهدوء قالت: «إنها هدية مضحكة،  
أليس كذلك؟»

«مضحكة؟ لا، ليست مضحكة».

«أعني، الوصية هدية غريبة. ولكنها تعني أكثر من ذلك. يمكنني القول أنكِ  
الآن ابنتي الحقيقية. أنا، أقصد نحن لدينا حالياً ما يتجاوز ستين ألف دولار. في  
مكتبي توجد الترميزات للحسابات وصناديق ودائع آمنة، كما أنني بعث بيتي  
في سكرامنتو بسعر جيد جداً. لماذا أنت صامتة هكذا يا ابنتي؟ هل هناك ما  
يزعجك؟»

«الوصية تذكّرنا بالموت. وهذا ما يلقي بظلال كثيفة من الحزن على قلبي»

«لكن جميعنا يجب أن يترك وصية».

«أعرف يا أمي». ابتسمت كيت بأسى وأردفت: «طراً في بالي أن كل أقاربك  
سيأتون بغضب لإبطال مثل هذه الوصية. لا يمكنك فعل هذا».  
«فتاتي الصغيرة المسكينة، هل هذا ما يزعجك؟ ليس لدي أقارب على حد

علمي. وإذا كان لدي البعض - من يعرف؟ هل تعتقدين أنك الوحيدة التي لديها أسرار؟ هل تعتقدين أنني أستخدم الاسم الذي ولدت به؟ كيت، إنها حفلة. لا تحزني! لا تبقي هكذا متييسة!»

قامت كيت من مقعدها وأبعدت الطاولة بلطف وجلست على الأرض. وضعت خدها على ركبتيّ في. تتبعت أصابعها النحيلة الخيوط الذهبية على تنورتها، بينما داعبت فيّ خد كيت وشعرها وأذنيها الغريبتين، ثم تلمست بخجل حدود الندبة.

قالت كيت: «أعتقد أنني لم أكن سعيدة بهذا القدر من قبل».

«يا عزيزتي. أنت تجعليني سعيدة أكثر من أي وقت مضى. لم أعد أشعر بالوحدة. أصبحت أشعر بالأمان».

جلستا في الدفء لفترة طويلة قبل أن تتحرك في. قالت «كيت نحن ننسى أنها حفلة. لقد نسينا النيذ. هيا صبي لنا، ودعينا نقيم حفلة صغيرة».

قالت كيت: «هل نحتاج للنيذ يا أمي؟»

«إنه أمر جميل. لم لا؟ أود أن أحتمي القليل. إنه يخرج السموم. ألا تحبين

الشمبانيا يا كيت؟»

«حسنًا، لم أشرب كثيرًا من قبل، إنه ليس جيدًا بالنسبة لي».

«كلام فارغ. هيا صبي يا حبيبتني».

نهضت كيت من الأرض وملأت الكؤوس.

«والآن اشربيه. أنا أراقبك. لن تسمحى لامرأة عجوز أن تشمل بمفردها».

«أنت لستِ امرأة عجوز يا أمي».

«لا تتحدثي - اشربي. لن ألمس شرابي حتى تفرغي كأسك» وظلت ممسكة

بكأسها حتى أفرغت كيت كأسها، ثم احتست شرابها. قالت «جيد، هذا رائع،

قومي بملئهما مجددًا يا عزيزتي ولشمل. بعد جرعتين أو ثلاث تختفي كل

الأشياء السيئة».

كانت كيمياء كيت تحارب النيذ. كانت تتذكر، وكانت خائفة.

قالت في: «هل ترين كم هو جيد؟ املئي الكؤوس مرة أخرى».

بدأت كيت تشعر بالثمالة تتسلل إليها بعد الكأس الثانية تقريباً. تبخر واختفى خوفها من أي شيء، وهذا ما كانت تخشاه، والآن فات الأوان. أجبرها النيذ على العبور بلا مبالاة من خلال جميع الحواجز والدفاعات والخداعات التي بنتها بعناية. كل ما حرصت على إخفائه والسيطرة عليه فقد. أصبح صوتها قارس البرودة وعيونها الواسعة بدت متيقظة وساخرة.

قالت: «والآن أنتِ اشربي - أمي - بينما أشاهدك. أراهن أنك لا تستطيعين شرب كأسين دون توقف».

«لا تراهني لأنك ستخسرين. يمكنني شرب ستة دون توقف».

«دعيني أراكِ تفعلين».

«إذا فعلتُ، فهل ستشربين أنتِ كذلك؟»

«بالطبع».

بدأت المسابقة وانتشرت بركة من النيذ على سطح الطاولة. قالت في ضاحكة: «عندما كنت فتاة - بإمكانني أن أحكي لك قصصاً ربما لن تصدقها».

قالت كيت: «يمكنني أيضاً سرد قصص لن يصدقها أحد».

«أنت؟ لا تكوني سخيفة. أنت طفلة».

ضحكت كيت: «لم تري مثل هذه الطفلة من قبل. هذه طفلة - نعم - طفلة!»  
ضحكت بصوت رقيق غريب.

اخترق الصوت سمع في من خلال النيذ الذي كان في يديها. ركزت عينيها على كيت: «أنت تبدين غريبة جداً، ربما هو ضوء المصباح. تبدين مختلفة».

«أنا مختلفة بالفعل».

«ناديني أمي يا عزيزتي».

«أمي العزيزة».

«كيت، سنحظى بحياة جيدة».

«دون شك سنفعل. لا يمكنك تصورها حتى».

«كنت أرغب دائماً في الذهاب إلى أوروبا. يمكننا أن نسافر على متن سفينة ونرتدي ملابس جميلة - فساتين من باريس».

«ربما نفعل ذلك - لكن ليس الآن».

«لم لا يا كيت؟ لدي الكثير من المال».

«سيكون لدينا المزيد».

«قلت في بتضرع: «لماذا لا نذهب الآن؟ يمكننا بيع المنزل ومن العمل الحالي يمكننا الحصول على عشرة آلاف دولار تقريباً مقابل ذلك».

«لا».

«ماذا تعنين ب لا؟ إنه منزلي. يمكنني بيعه».

«هل نسيت أنني ابنتك؟»

«لا أحب نبرتك هذه يا كيت. ما خطبك؟ هل هناك المزيد من النيذ؟»

«بالتأكيد، هناك القليل. انظري من خلال الزجاجاة. هاك اشربي من الزجاجاة. نعم هكذا - أمي - اسكبيه على عنقك ودعيه يتسلل إلى مشدك، يا أمي، إلى بطنك السمين».

«صرخت في: «لا تكوني لئيمة هكذا يا كيت! كنا نستمتع بوقتنا. لماذا تفسدين علينا هذا؟»

«سحبت كيت الزجاجاة من يدها: «هات، أعطني هذه» وأسقطتها على الأرض وهي تترنج. كانت ملامحها حادة، وعندما افتقرت شفتاها قليلاً

بانث أسنان حادة صغيرة، كانت أنيابها أطول وأكثر تحديدا من بقية الأسنان. ضحكت بهدوء». أمي العزيزة - دعيني أعلمكِ طريقة تشغيل مبعي، سنقوم بإمتاع كل الحلازين الذين يأتون إلينا، سنمنحهم اللذة ونفرغ حملتهم القدرة بدولار».

قالت في بحدة: «كيت، أنتِ في حالة سكر. لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه».

«ألا تعرفين يا أمي العزيزة؟ هل تريدني أن أخبرك؟»

«أريدكِ أن تكوني لطيفة. أريدك أن تعودي كما كنت عليه».

«حسناً، لقد فات الأوان. لم أكن أريد أن أشرب الخمر. لكنكِ أجبرتني، أيتها الدودة السمينة السيئة. أنا ابنتك العزيزة، ابنتك الحلوة - ألا تتذكرين؟ حسناً، أتذكر كم كنتِ مندهشة من وجود زبائن منتظمين. هل تعتقدين أنني سأتخلى عنهم؟ هل تعتقدين أنهم يعطونني الدولار في أرباع؟ لا، إنهم يدفعون لي عشرة دولارات، والسعر يرتفع طوال الوقت. لا يمكنهم الذهاب إلى أي امرأة أخرى. لا توجد أي فتاة أخرى تروق لهم».

بكت في مثل طفل: «كيت، لا تتحدثي بهذه الطريقة. أنتِ لستِ كذلك. أنتِ لستِ كذلك».

«أمي العزيزة، أيتها الحلوة السمينة، انزعي بنطال أحد زبائني المنتظمين، سترين آثار كعب حذائي على أفخاذهم - آثار جميلة جداً. ثم هناك الجروح الصغيرة التي تنزف لفترة طويلة. أوه يا أمي العزيزة، لدي مجموعة من أفضل أنواع الأمواس الحادة في علبة - حادة جداً».

كافحت في للنهوض من كرسيها. دفعت كيت ظهرها: «ستكون هذه هي الطريقة التي يدار بها هذا المنزل بأكمله يا أمي العزيزة. سيرتفع السعر إلى عشرين دولارًا، وسوف نجعل الأوغاد يستحمون، ونمسح دماءهم بمناديل حريرية بيضاء يا أمي - الدم النازف من السياط الصغيرة المعقودة».

بدأت في بالصراخ بصوت أجش، انقضت كيت عليها على الفور ووضعت يدها الصلبة المقوسة على فمها: «لا تحدثي ضجة، نعم هكذا. ضعي مخاطك في يد ابنتك - لكن بدون ضوضاء». أبعدت يدها ومسحتها على تنورة في. همست في: «أريدك أن تخرجي من هنا. أريدك أن تغادري. أدير بيتاً جيداً بدون شر».

«لا يمكنني الذهاب يا أمي. لا أستطيع تركك وحدك أيتها المسكينة. أوه، لقد سئمت منك». أخذت كأساً وصبت فيه من النبيذ حتى امتلأ نصفه: «هاك يا أمي، اشربه. سيكون مفيداً لك». «لا أريد».

«هاك عزيزتي، نعم هكذا. هيا اشربي. والآن واحد آخر - واحد فقط». قالت وهي ترغم في على تجرع الشراب، تمتمت في لبعض الوقت ثم استرخت على كرسيها ونامت وهي تشخر بغزارة.

### 3

بدأ الفرع يتجمع في زوايا عقل كيت، والفرع جذب الذعر. تذكرت تلك المرة مجدداً واجتاحها الغثيان. شبكت يديها وتفاقم ذعرها. أشعلت شمعة وذهبت بثبات إلى القاعة المظلمة ومنها إلى المطبخ. سكبت الخردل الجاف في كوب، وصبت عليه الماء وقلبتة حتى أصبح سائلاً جزئياً وشربته. تمسكت بحافة الحوض بينما كان المعجون يتسلل إلى معدتها مسبباً حرقة مؤلمة. تقيأت مراراً. في نهاية الأمر، كان قلبها يقرع بقوة وهي تشعر بوهن - ولكنها نجحت في التغلب على حالة الشماله وأصبح ذهنها صافياً.

استرجعت كل ما حدث في تلك الأمسية في ذهنها وهي تنتقل من مشهد إلى آخر مثل حيوان يتشمم. غسلت وجهها ونظفت الحوض وأعدت الخردل إلى الرف. ثم عادت إلى غرفة في.



كان الفجر قريباً ويضيء الجزء الخلفي من قمة فريمونت بحيث تبدو سوداء في مواجهة السماء. كانت في لا تزال تشخر على كرسيتها. راقبتها كيت لبضع لحظات ثم أصلحت سريرها. قامت كيت بسحب ورفع الوزن الهائل للمرأة النائمة بجهد كبير إلى أن أوصلتها إلى السرير وقامت بخلع ملابسها وغسل وجهها.

كان اليوم التالي قادماً بسرعة. جلست كيت بجانب السرير وشاهدت الوجه المسترخي والقمم المفتوح والشفاه المتأرجحة للداخل والخارج. تحركت في فجأة باضطراب وتفوهت بكلمات مبهمه وثقيلة وتنهدت وغرقت في النوم مرة أخرى.

أصبحت عيون كيت متيقظة. فتحت درج المكتب العلوي وفحصت الزجاجات التي كانت تشكل خزانة الأدوية الخاصة بالمبغى - مسكنات ألم، مراهم، علاجات فقر الدم، أملاح إيسوم، زيت الخروع، والأمونيا. حملت زجاجة الأمونيا إلى السرير، وملأت به منديلاً، ووقفت بعيداً وهي تضعه على أنف وفم في.

تنشقت في الأبخرة الخانقة والصادمة وبدأت تشخر وتقاتل من أجل حياتها وهي عالقة في الشباك السوداء، كانت عيناها واسعتين ومرتعبتين.

قالت كيت: «لا بأس يا أمي. كل شيء على ما يرام. كان هذا كابوساً. كان حلماً سيئاً فحسب».

«نعم، حلم»، ثم تغلب عليها النوم مرة أخرى وبدأت تشخر، لكن صدمة الأمونيا أعادت شيئاً من وعيها وأصبحت مضطربة أكثر. أعادت كيت الزجاجات إلى مكانها في الدرج. قامت بتنظيف الطاولة، ومسح النيذ المسكوب وإعادة الكؤوس إلى المطبخ.

كان المنزل معتماً وضوء الفجر يتسلل حول حواف الستائر. كان الطاهي قد

استيقظ وبدأ في ارتداء ملابسه وخذاه. تحركت كيت بهدوء. شربت كأسين من الماء وملأت الكوب مرة أخرى وحملته إلى غرفة في وأغلقت الباب. رفعت جفن في الأيمن، كانت حدقتها تنظر نحوها وهي غير متدحرجة إلى الخلف. تصرفت كيت ببطء وبدقة. التقطت المنديل وشمته، كانت بعض الأمونيا قد تبخرت لكن الرائحة ما تزال قوية. وضعت القماش برفق على وجه في وعندما تحركت في واستدارت واقتربت من الاستيقاظ أبعدت كيت المنديل وتركت في تعود للنوم. فعلت هذا ثلاث مرات. ثم وضعت المنديل بعيداً والتقطت خطاف كروشيهِ عاجياً من على السطح الرخامي للمكتب.

قلبت الغطاء وضغطت بالطرف غير الحاد من الخطاف على صدر في المترهل بضغط ثابت ومتزايد حتى تنن المرأة النائمة وتتلقى. ثم بدأت كيت باستكشاف الأماكن الحساسة في جسد في باستخدام الخطاف - تحت الذراع، الفخذ، الأذن، البظر، ودائماً ما كانت تزيل الضغط قبل أن تستيقظ في تماماً.

كانت في قريبة جداً من الاستيقاظ الآن. كانت تنن وتشهق. ضغطت كيت على جبهتها وربت بلطف بالغ على ذراعها وتحدثت معها بهدوء: «عزيزتي.. عزيزتي إنه حلم سيء. اخرجي من الحلم السيئ يا أمي».

أصبح تنفس في أكثر انتظاماً، تنهدت بعمق واستدارت على جانبها واستقرت وهي تهمهم براحة.

وقفت كيت بقرب السرير وارتفعت موجة من الدوار في رأسها. ثبتت نفسها ثم توجهت إلى الباب واسمعت ثم خرجت متوجهة بحذر إلى غرفتها. خلعت ملابسها بسرعة وارتدت ثوب النوم والرداء والنعال. مشطت شعرها ورفعته وغطته بقبعة النوم، ونظفت وجهها بإسفنجة مبللة بماء فلوريدا ثم عادت بهدوء إلى غرفة في.

كانت في لا تزال تنام بسلام على جانبها. فتحت كيت باب القاعة. حملت كأساً من الماء إلى السرير وسكبت الماء البارد في أذن في.

صرخت في لأكثر من مرة. ظهر وجه إثيل الخائفة من غرفتها في الوقت المناسب لرؤية كيت المرتدية رداءها ونعالها عند باب في. كان الطاهي خلف كيت مباشرة، ومد يده لإيقافها.

«لا تدخل يا آنسة كيت. أنت لا تعرفين ما يحدث هناك».

«هراء، قد تكون في ورطة». اقتحمت كيت الغرفة وركضت إلى السرير. كانت عيون في جامحة وهي تبكي وتئن.

«ماذا حدث؟ ما الأمر يا عزيزتي؟»

كان الطاهي يقف في منتصف الغرفة، وثلاث فتيات في ثياب النوم في المدخل.

«قولي ما الأمر؟» سألتها كيت.

«أوه يا عزيزتي - إنها الأحلام، الأحلام! لا أستطيع تحملها!»

التفتت كيت إلى الباب: «يبدو أنه كابوس، ستكون بخير. عدن أنتن إلى السرير، سوف أبقى معها بعض الوقت. أليكس، اجلب بعض الشاي».

كانت كيت لا تعرف الكلل. وعلقت الفتيات الأخريات على ذلك، تضع مناشف باردة على رأس في وتدلّك كتفيها وتساعدها في شرب الشاي وتدلّلها، لكن نظرة الرعب لم تفارق عيني في. في الساعة العاشرة أحضر أليكس علبة بيرة ودون أن ينبس ببنت شفة وضعها على سطح المكتب. حملت كيت كوبًا منه إلى في.

«سوف يساعدك عزيزتي. اشربي».

«لا أريد شرابًا آخر أبدًا».

«كلام فارغ! اشربيه مثل الدواء، ها هي فتاتي، والآن فقط استلقي واخلمي إلى النوم».

«أنا خائفة من النوم».

«هل كانت الأحلام سيئة لهذه الدرجة؟»

«مروعة، كانت مروعة»

«أخبريني يا أمي. ربما سيساعدك ذلك».

انكمشت في: «لن أخبر أحداً. كيف كان بإمكانني حتى أن أحلم بها! لم تكن كأحلامي».

«أوه يا أمي المسكينة! نامي وأنا سوف أحرص على أن تبقى تلك الأحلام بعيدة عنك».

تدريجياً غرقت في النوم، بينما جلست كيت بجانب السرير تتأملها.

## الفصل 21

### 1

في الشؤون الإنسانية المرتبطة بالخطر والحساسية، فإن التسرع يحد بشدّة الاستنتاج الناجح. غالبًا ما يتعثر الرجال بسبب اندفاعهم. إذا أراد المرء القيام بعمل صعب ودقيق بشكل صحيح، عليه أولاً تفقد النهاية المراد تحقيقها، وبعد ذلك بمجرد قبول النهاية المرغوبة، يجب أن ينساها تمامًا ويركز فقط على الوسيلة. وبهذه الطريقة لن ينتقل إلى الفعل الخاطئ بسبب القلق أو التسرع أو الخوف. قلة قليلة من الناس يتعلمون هذا.

ما جعل كيت ماهرة للغاية هو حقيقة أنها إما تعلمت المعرفة أو ولدت وهي تحملها. لم تتسرع كيت أبدًا. إذا نشأ حاجز ما، تنتظر حتى يختفي قبل أن تواصل. كانت قادرة على الاسترخاء التام بين أوقات العمل. أيضًا، كانت عشيقة تتبع تقنية تُعتبر أساس المصارعة الجيدة - وهو ترك خصمك يقوم بالعمل الشاق الذي سيوصله الى هزيمته، أو توجيه قوته نحو نقاط ضعفه.

لم تكن كيت في عجلة من أمرها. كانت تفكر في النهاية بسرعة كبيرة ثم تخرجها من عقلها. برمجت نفسها للعمل حسب طريقة معينة. تقوم ببناء مبنى وتهاجمه، وإذا أظهر أدنى اهتزاز تمزقه وتبدأ بتشييد بناء آخر. كانت تفعل هذا فقط في وقت متأخر من الليل أو عندما تكون بمفردها تمامًا، حتى لا يبدو عليها أي انشغال أو تغيير ملحوظ في أسلوبها. شيدت مبناها من الشخصيات والمواد والمعرفة والوقت. كان بإمكانها الوصول إلى الأول والأخير، وشرعت

في الحصول على المعرفة والمواد، ولكن أثناء قيامها بذلك أطلقت سلسلة من  
الينابيع والبندولات غير المحسوسة وتركبتها لتلتقط زخمها الخاص.

أولاً أفشى الطاهي بموضوع الوصية؛ لا بد أنه من فعل ذلك. سمعت كيت  
عن الأمر من إثيل، وواجهته في المطبخ حيث كان يعجن الخبز: «هل تعتقد  
أنه من اللائق التحدث عن كونك شاهداً؟» قالت بهدوء «ماذا بظنك سيكون  
شعور الأنسة في؟»

بدا مرتبكاً «لكنني لم أفعل»

«لم تفعل ماذا - إخبار الفتيات عن ذلك؟ أو التفكير في أنه سيكون جارحاً؟»  
«لا أعتقد أنني -»

«ألا تعتقد أنك تحدثت عن الأمر؟ ثلاثة أشخاص فقط يعلمون عن هذا.  
هل تعتقد أنني تحدثت عنه؟ أو تعتقد أن الأنسة في فعلت؟» رأت النظرة  
المحيرة في عينيه وعرفت أنه حتى الآن لم يكن متأكداً من أنه لم يتحدث،  
خلال لحظات أصبح على يقين من أنه فعل ذلك.

قامت ثلاث فتيات بسؤال كيت عن الوصية، قالت كيت: «لا أعتقد أن في  
تود مني مناقشتها. كان يجب على أليكس أن يخلق فمه». تذبذبت إرادتهن،  
فقالت لهن: «لماذا لا تسألن في نفسها؟»

«أوه، لن نفعل ذلك!»

«مع ذلك تملكن الجرأة على التحدث وراء ظهرها! هيا الآن، فلنذهب إليها  
ويمكنك طرح الأسئلة عليها.»

«لا، كيت، لا.»

«بكل حال، أنا مضطرة لأن أخبرها أنك سألتن عن ذلك. ألا تفضلن أن  
تكن موجودات؟ ألا تعتقدن أنها ستشعر بتحسن إذا علمت أنك لا تتحدثن  
من وراء ظهرها؟»

«نحن -»

«أعلم أنني سأفعل. أحب دائماً الشخص الصريح المباشر». بهدوء أحاطت بهن ودفعتهن حتى وصلن جميعهن في غرفة في. قالت كيت «إنهن يسألن عن أمر أنتِ تعرفينه. يعترف أليكس أنه من أخبرهن بالأمر».

كانت في حيرة من أمرها «حسناً يا عزيزتي، لا أرى أنه سر». قالت كيت: «أوه، أنا سعيدة لأن هذا ما تشعرين به. لكنك تعلمين أنني لا أستطيع ذكر ذلك حتى تقومي أنتِ بالمهمة». «هل تعتقدين أنه من السيئ أن يشاع خبر كهذا يا كيت؟» «أوه لا على الإطلاق. أنا سعيدة، ولكن بدا لي أنه لن يكون من اللائق أن أذكر ذلك قبل أن تفعلني أنت».

«أنت لطيفة للغاية يا كيت. لا أرى أي ضرر. كما تعلمن أيتها الفتيات، أنا وحيدة في العالم وقد اتخذت كيت لتكون ابنتي. هي تهتم بي. احضري الصندوق كيت».

وأخذت كل فتاة الوصية بين يديها وقرأتها. كان الأمر بسيطاً جداً لدرجة أنه كان بإمكانهن تكرارها كلمة بكلمة للفتيات الأخريات. راقبن كيت لرؤية ردة فعلها، ربما ستصبح طاغية، لكن إذا كان هناك أي تغيير فقد كان للأفضل، فقد أصبحت ألطف معهن.

بعد أسبوع عندما مرضت كيت، واصلت إشرافها على المنزل بشكل مباشر، ولم يكن أحد ليعرف عن ذلك ما لم يروها وهي واقفة متبسة في القاعة مع التعب الواضح على وجهها. توسلت الفتيات ألا يخبرن في، لكنهن غضبن، وكانت في هي التي أجبرتها على ملازمة الفراش واتصلت بالدكتور وايلد.

كان رجلاً لطيفاً وطيباً جيداً. نظر إلى لسانها، وراقب نبضها، وسألها بعض الأسئلة الخاصة، ثم نقر على شفته السفلى.

«هنا؟» سأل ومارس القليل من الضغط على جزء صغير من ظهرها. «لا؟ هنا؟ هل هذا يؤلم؟ حسناً، أعتقد أنك بحاجة فقط إلى تنظيف الكلى». ترك أقراباً صفراء وخضراء وحمراء ل يتم تناولها بالتسلسل. عملت الحبوب بشكل جيد.

ثم باعته نوبة ألم مفاجأة وقالت لـ في: «سأذهب إلى عيادة الطبيب». «سأطلب منه المجيء إلى هنا».

«وإحضار المزيد من الحبوب؟ هراء. سأذهب في الصباح».

## 2

كان الدكتور وايلد رجلاً صالحاً وأميناً. اعتاد أن يقول عن مهنته أن كل ما كان متأكدًا منه هو أن الكبريت يعالج الحكمة. لم يكن سطحياً في تعامله مع مهنته كحال العديد من أطباء الريف، كان طبيباً وكاهناً وطبيباً نفسياً لمدينته. يعرف معظم أسرار ونقاط ضعف وشجاعة ساليناس. لم يستهن قط بالموت. في الواقع، كان موت المريض يمنحه دائماً إحساساً بالفشل والجهل اليأس. لم يكن رجلاً جريئاً، ولم يستخدم الجراحة إلا كملاذ أخير ومخيف. كانت الصيدلية هناك لمساعدة الأطباء، لكن الدكتور وايلد كان من القلائل الذين حافظوا على مستوصفهم الخاص وصنعوا الوصفات الطبية الخاصة بهم. لقد جعلته سنوات الإرهاق والنوم المتقطع يشعر ببعض الالتباس والانهماك.

في الثامنة والنصف من صباح يوم الأربعاء وصلت كيت إلى الشارع الرئيسي وصعدت سلالم مبنى بنك مقاطعة مونتييري وسارت على طول الممر حتى وجدت الباب الذي كُتب عليه: «د. وايلد - ساعات العمل 11 - 2».

في التاسعة والنصف، أوقف الدكتور وايلد عربته في الاسطبل ورفع حقيبته السوداء بضجر. كان في أليزال لرؤية سيدة عجوز ألمانية تحتضر. تساءل الدكتور وايلد عما إذا كانت الحياة القاسية والجافة قد غادرتها تماماً، حيث



كانت في السابعة والتسعين من عمرها وشهادة الوفاة لا تعني شيئاً لها. كان سر الموت في مواجهته في كثير من الأحيان. بالأمس كان ألين داي البالغ 37 سنة، وستة أقدام وبوصة، القوي كما الثور والمالك لأربعمائة فدان وعائلة كبيرة، قد سلم حياته بخنوع للالتهاب الرئوي بعد القليل من المعاناة وثلاثة أيام من الحمى. لطالما آمن الدكتور وايلد أن الموت كان لغزاً. فكر بالذهاب إلى العيادة مبكراً لأخذ حمام وشراب قبل وصول مرضاه الذين يعانون من آلام في المعدة.

وصل إلى عيادته ووضع مفتاحه البالي في قفل باب مكتبه، المفتاح لم يدر. وضع حقيبته على الأرض وكرر الضغط لكن المفتاح رفض التزحزح. أمسك بمقبض الباب وسحب المفتاح للخارج، وفتح الباب من الداخل وكانت كيت واقفة أمامه.

«أوه صباح الخير. كان القفل عالقاً. كيف تمكنت من الدخول؟»

«لم يكن مغلقاً. وصلت في وقت مبكر ودخلت لأنتظر.»

«ألم يكن مقفولاً؟» أدار المفتاح في الاتجاه الآخر ورأى أن الشريط الصغير انزلق بسهولة.

قال: «أنا أتقدم في السن على ما أعتقد، صرت أنسى». تنهد: «لا أعرف لماذا أقفله على أي حال. يمكن لأي أحد الدخول بواسطة قطعة سلك. ومن يريد الدخول على أي حال؟» بدا وكأنه يراها للمرة الأولى: «يبدأ عملي في الحادية عشرة.»

قالت كيت: «كنت فقط بحاجة للمزيد من تلك الحبوب ولم أستطع القدوم لاحقاً.»

«حبوب؟ نعم بالطبع. أنت تلك الفتاة من بيت في.»

«هذا صحيح.»

«هل تشعرين بتحسن؟»

«نعم، الحبوب تساعد».

قال «حسنًا، لا يمكنها أن تؤذيك»

«هل تركتُ باب المستوصف مفتوحًا أيضًا؟»

«ما هو المستوصف؟»

«هناك - ذلك الباب».

«أعتقد أنك فعلت».

«أنا أشيخ. كيف حال في؟»

«حسنًا، أنا قلقة عليها. مرضت بشدة منذ فترة. كان تعاني من تقلصات وأصبحت تتصرف بطريقة غير معقولة».

قال الدكتور وايلد: «كانت تعاني من اضطراب في المعدة من قبل. لا يمكنك العيش على هذا النحو وتناول الطعام في جميع الأوقات والبقاء بصحة جيدة. شخصياً لا أستطيع على أي حال. نحن نسميها مشكلة في المعدة. تأتي بسبب الإفراط في تناول الطعام والسهر طوال الليل. الآن - الحبوب. هل تتذكرين بأي لون كانت؟»

«كان هناك ثلاثة أنواع، أصفر، أحمر، وأخضر».

«نعم. نعم تذكرت».

بينما كان يسكب الحبوب في علبة دائرية من الورق المقوى، وقفت عند الباب. «ما أكثرها من أدوية!»

قال الدكتور وايلد: «نعم - وكلما تقدمت في السن، قل استخدامي لها. حصلت على بعضها عندما بدأت في ممارسة الطب. لم أستخدمها قط. هذا مخزون مبتدئ. كنت سأستخدمه في الكيمياء».

«لا شيء. هالك، أخبرني في أنه من الضروري أن تحصل على نوم كاف وتناول الخضار. لقد كنت مستيقظًا طوال الليل، تعرفين طريق الخروج، ليس كذلك؟» قال ذلك وعاد مضطرباً إلى غرفة العلاج.

نظرت كيت وراءه ثم تحركت عيناها فوق صفوف الزجاجات والحاويات. أغلقت باب المستوصف ونظرت نحو المكتبة، كتاب واحد كان خارج المجموعة. دفعته للوراء حتى أصبحت كتفاً بكتف مع الكتب الأخرى. التقطت حقيبتها الكبيرة من الأريكة الجلدية وغادرت.

في غرفتها، أخرجت كيت خمس زجاجات صغيرة وشريطاً من الورق المخربش من حقيبتها. وضعت كل ذلك في جوب ودفعت الحشوة إلى داخل حذاء واق مطايطي أوقفته بالقرب من آخر في الجزء الخلفي من خزانة ملابسها.

### 3

خلال الأشهر التالية حدث تغيير تدريجي في مبعي في. كانت الفتيات مهملات وسيئات الخلق، إذا طُلب منهن تنظيف أنفسهن وغرفهن يملأن البيت باستياء عميق ومزاج سيء. لكن هذا لم يكن جيداً.

قالت كيت على المائدة ذات مساء أنها بالصدفة مرّت بغرفة إثيل وكانت أنيقة وجميلة للغاية لدرجة أنها لم تستطع لجم نفسها عن شراء هدية لها. عندما قامت إثيل بفتح العلبة على الطاولة مباشرة، كانت زجاجة كبيرة من كولونيا هويت الألمانية، كافية للحفاظ على رائحتها حلوة لفترة طويلة. كانت إثيل سعيدة وتأمل ألا ترى كيت الملابس المتسخة تحت السرير. بعد العشاء، لم تكتفِ بإخراج الملابس بل قامت أيضاً بتنظيف الأرضيات وإزالة خيوط العنكبوت من الزوايا.

ثم بدت غريس جميلة بعد ظهر أحد الأيام لدرجة أن كيت تحمست وأهدتها دبوس فراشة حجر الراين الذي كانت ترتديه. وكان على غريس أن تسرع وتلبس قميصاً نظيفاً لاستعراضه.

أليكس المتواجد في المطبخ، والذي، إذا كان قد صدّق ما يُقال عنه عادة لا اعتبر نفسه قاتلاً، وجد أن لديه يداً سحرية مع البسكويت. اكتشف أن الطبخ شيء لا يمكنك تعلمه. كان عليك أن تشعر به.

ذو العيون القطنية عرف أن لا أحد يكرهه، وعليه تغير عزفه على البيانو بشكل تدريجي.

قال لكيت: «مضحك ما يمكنك أن تتذكره عندما تفكر في الماضي». «مثل ماذا؟» سألته.

«حسنًا، هكذا».. عزف لها.

قالت: «لحن جميل. لمن هو؟»

«لا أعرف. أعتقد أنه شوبان. لو كان بإمكانني رؤية الموسيقى فقط!»

أخبرها كيف فقد بصره ولم يكن قد أخبر أحداً آخر. كانت قصة سيئة، في ليلة السبت تلك نزع السلسلة من أوتار البيانو وعزف شيئاً كان يتذكره ويتمرن عليه في الصباح، لحناً يُدعى «ضوء القمر»، مقطوعة لبيتهوفن، كما قال.

قالت إثيل إنه يبدو مثل ضوء القمر وسألته إن كان يعرف الكلمات. قال كوتون آي: «لا كلمات فيها».

قال أوسكار تريب القادم من غونزاليس ليلة السبت: «كان يجب أن تكون لها كلمات. إنها مقطوعة رائعة»

ثم ذات ليلة قدّمت هدايا للجميع لأن المبعي كان أفضل وأنظف وأجمل منزل في المقاطعة بأكملها - ومن المسؤول عن ذلك؟ الفتيات - ومن غيرهن؟ وهل تذوق أحد يخنة بهذه اللذة من قبل؟

عاد أليكس إلى المطبخ وهو يمسح عينيه بخجل بظهر معصمه، وراهن أن بإمكانه صنع حلوى برقوق من شأنها أن تجعل أعينهن تخرج من محاجرهما. جورجيا كانت تستيقظ في الساعة العاشرة من كل صباح وتتلقى دروس العزف على البيانو من كوتون آي، أصبحت أظافرها نظيفة ومرتبة.

بعد عودتها من قداس الساعة الحادية عشر صباح يوم الأحد، قالت غريس لتريكسي: «كنت على وشك الزواج والتخلي عن البغاء. هل يمكنك أن تتخيلي؟»

قالت تريكسي: «إنه بالتأكيد أمر جميل، دعونا فتيات جيني للاحتفال بعيد ميلاد في ولم يصدقن أعينهن. إنهن لا يتحدثن عن أي شيء آخر سوى الحال في مبغى في. وجيني غاضبة».

«هل رأيت النتيجة على السبورة هذا الصباح؟»

«بالتأكيد - 78 زبونا في أسبوع واحد. هل ستحقق جيني أو الزنجية ذلك عندما لا تكون هناك عطلة!»

«لا عطلات. هل نسيت أنه الصوم الكبير؟ إنهن لا يعملن في مبغى جيني». بعد مرضها وأحلامها الشريرة، أصبحت في هادئة ومكتئبة. عرفت كيت أنها تخضع للمراقبة، لكنه أمر كان لا مفر منه. تأكدت من أن الورقة الملفوفة ما زالت في الصندوق وأن جميع الفتيات قد شاهدنه أو سمعن به.

بعد ظهر أحد الأيام، رفعت في نظرها من لعبة السوليتير عندما طرقت كيت الباب ودخلت الغرفة.

«كيف تشعرين يا أمي؟»

«بخير». كانت نظراتها خفية. لكن في لم تكن ذكية جداً، «أتعلمين يا كيت، أود الذهاب إلى أوروبا».

«هذا رائع! وأنت تستحقين ذلك ويمكنك تحمل تكلفته».

«لا أريد الذهب وحدي. أريدك أن تذهبي معي.»

نظرت إليها كيت بدهشة. «أنا؟ تريدان أن تأخذيني؟»

«طبعاً، لم لا؟»

«أوه، كم أنت رائعة عزيزي! متى يمكننا الذهاب؟»

«هل ترغبين بذلك؟»

«لطالما حلمت بهذا. متى يمكننا أن نذهب؟ دعينا نذهب قريباً.»

فقدت عينا في شكهما واسترخت ملامحها. قالت: «ربما في الصيف

المقبل. يمكننا التخطيط للصيف المقبل كيت»

«نعم امي.»

«أنت توقفتِ عن استقبال الرجال، أليس كذلك؟»

«لماذا علي استقبالهم؟ أنت تعتنين بي جيداً.»

جمعت في البطاقات ببطء ووضعتها في درج الطاولة.

سحبت كيت كرسيًا: «أريد أن أطلب نصيحتك بشأن أمر ما.»

«ما هو؟»

«حسنًا، أنت تعلمين أنني أحاول مساعدتك.»

«أنت تهتمين بكل شيء يا عزيزتي.»

«أنت تعلمين أن أكبر نفقاتنا هي الطعام، وهي تزداد في الشتاء.»

«نعم.»

«حسنًا، يمكننا الآن شراء الفاكهة وجميع أنواع الخضروات بقطعيتين

نقديتين للسلة. وفي الشتاء أنت تعرفين ما ندفعه مقابل الخوخ المعلب

والفاصوليا المعلبة.»

«أنت لا تخططين للبدء بحفظ الفواكه والخضار؟»

«ولماذا لا نفعل ذلك؟»

«ماذا سيقول أليكس عن ذلك؟»

«أمي، صدقي أو لا تصدقي، أو يمكنك أن تسألني. هذا اقتراح أليكس نفسه.»

«مستحيل!»

«أقسم لك.»

«غير معقول على الإطلاق»

تحول المطبخ إلى مخزن معلبات وجميع الفتيات قمن بالمساعدة. اعتقد أليكس حقًا أنها كانت فكرته. في نهاية الموسم كانت لديه ساعة فضية منقوش على ظهرها اسمه لإثبات ذلك.

في العادة كانت في وكيث تتناولان العشاء على الطاولة الطويلة في غرفة الطعام، ولكن في ليالي الأحد عندما كان أليكس في الخارج والفتيات يتناولن الشطائر السميكة على العشاء، كانت كيت تحضر عشاء لشخصين في غرفة في. كان وقتًا ممتعًا ولاثقًا بسيدتين.

كانت هناك دائمًا الأطباق والأطعمة الشهية والخاصة جدًا - فطائر كبد الإوز الدسمة أو السلطة المخلوطة، معجنات تم شراؤها من المخبز الواقع على الجانب الآخر من الشارع الرئيسي. وبدلاً من القماش المشمع والمناديل الورقية في غرفة الطعام، كانت طاولة في مغطاة بقطعة قماش بيضاء وكانت المناديل من الكتان. كان لهذا شعور بالاحتفال أيضًا، وإشعال الشموع - وهو أمر نادر في ساليناس - ووعاء من الزهور. كانت كيت تقوم بعمل تنسيقات زهور جميلة باستخدام أزهار الأعشاب التي تقطفها في الحديقة.

كانت في تقول للفتيات «يا لها من فتاة ذكية». يمكنها فعل أي شيء ويمكنها الاكتفاء بأي شيء. نحن ذاهبتان إلى أوروبا. وهل تعلمن أن كيت تتحدث الفرنسية؟ نعم يمكنها ذلك. عندما تكونن معها اطلبن منها أن تقول شيئًا

بالفرنسية. إنها تعلمني. هل تعرفن اسم الخبز بالفرنسية؟» كانت في تقضي وقتاً رائعاً. منحتها كيت الإثارة والرغبة في التخطيط الدائم.

#### 4

في يوم السبت، الرابع عشر من أكتوبر، مرت أول مجموعة من البط البري فوق ساليانس. رأتها في من نافذتها، مجموعة ضخمة تطير جنوباً. عندما جاءت كيت قبل موعد العشاء كما فعلت دائماً أخبرتها في عن ذلك. قالت: «أعتقد أن الشتاء يقترب، علينا أن نطلب من أليكس تجهيز المواعد».

«هل أنت مستعدة لمنشطك يا أمي العزيزة؟»

«نعم. أنت تجعليني كسولة بالسهر هكذا على خدمتي».

«أحب أن أخدمك» قالت كيت وهي تأخذ قنينة بينكهام من الدرج وترفعه إلى الضوء. قالت «لم يتبق فيها الكثير، علينا شراء المزيد».

«أوه، أعتقد أن لدي في خزانة ملابسني ثلاث زجاجات متبقية من العشرات التي أخذتها».

التقطت كيت كأساً وقالت «هناك ذبابة في هذه، سأذهب وأغسلها».

في المطبخ شطفت الكأس. أخرجت قطارة عيون من جيبها. تم سد نهايتها بقطعة صغيرة من البطاطس، بالطريقة التي تُسد بها فوهة علبة الكيروسين. قطرت بعناية بضع قطرات من السائل الصافي في الكأس، كان مستخلص نوكس فوميكا<sup>(1)</sup>.

---

(1) نوكس فوميكا (Strychnos Nux Vomica)، أو جوز القيء هو عبارة عن بذور سامة لشجرة تنمو بالأصل في مناطق جنوب شرق آسيا والهند، وترزح تجارياً في بعض أجزاء من الولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والصين، وجميع أنحاء آسيا الاستوائية. اشتهر استخدام جوز القيء في الطب البيطري قديماً، حيث تم استخدامه في انكلترا في القرن السابع عشر كوسيلة لقتل الحيوانات مثل القوارض، وفي العصور اللاحقة كان جوز القيء جزءاً من الطب الشعبي وخصوصاً الطب الصيني والهندي.



في غرفة في، سكبت ثلاث ملاعق كبيرة من مركب الخضار في الكأس وقلبتة. شربت في منشطها ولحست شفتيها. قالت: «طعمه مر». «حقاً؟ دعيني أذوق طعمه». تذوقت كيت ملعقة من القينة وقالت: «بالفعل، أعتقد أنه بقي لفترة طويلة جداً. سأرميه، هذا مر. دعيني أحضر لك كوب من الماء».

خلال العشاء كان وجه في محمرا. توقفت عن الأكل وبدت وكأنها تستمع. «ما الأمر؟» سألتها كيت. «أمي، ما الأمر؟» بدا انتباه في متشتتاً: «ماذا هناك، لا أعرف. أعتقد أنه ارتعاش في القلب. فجأة شعرت بالخوف وأصبح قلبي ينبض بقوة».

«هل تودين أن آخذك الى غرفتك؟»

«لا يا عزيزتي، أشعر أنني بخير الآن».

وضعت غريس شوكتها على الطاولة: «يبدو وجهك محمراً للغاية يا في»

قالت كيت: «يقلقني هذا. أتمنى أن تري دكتور وايلد».

«لا، أنا على ما يرام الآن».

قالت كيت: «لقد أخفتني، هل سبق أن حدث لك هذا من قبل؟»

«حسناً، أشعر بضيق في التنفس أحياناً. أعتقد أنني أصبحت سميئة جداً».

لم تشعر في بالارتياح في ليلة السبت تلك، وفي حوالي الساعة العاشرة أقنعتها كيت بالذهاب إلى الفراش. نظرت كيت عدة مرات حتى تأكدت من أن في كانت نائمة.

في اليوم التالي شعرت في أنها على ما يرام. قالت: «أظن أنني أعاني من ضيق في التنفس».

قالت كيت: «حسناً، سنحضّر طعام المرضى لغاليتي، لقد أعددت لك بعض

حساء الدجاج، وسلطة فاصوليا - بالطريقة التي تحبينها، فقط الزيت والخل، وكوب من الشاي».

«أقسم لك يا كيت. أشعر أنني بحالة جيدة».

«لن يضر أي منا تناول الأكل الخفيف. لقد أخفتني الليلة الماضية. لقد توفيت عمتي بسبب مشاكل في القلب وهذا الأمر يترك ذكرى مؤلمة كما تعلمين».

«لم أواجه أي مشكلة في قلبي. مجرد ضيق بسيط في التنفس عندما أصعد السلالم».

في المطبخ وضعت كيت العشاء على صينيتين. قامت بقياس الصلصة الفرنسية في كوب وصبتها على سلطة الفاصوليا. على صينية في وضعت فنجانها المفضل والحساء على الموقد لتسخينه. أخيرًا أخرجت قطارة العين من جيبتها وعصرت قطرتين من زيت كروتون المسهل على السلطة وقلبته. ذهبت إلى غرفتها وابتلعت محتويات زجاجة صغيرة من كاسكارا ساغرادا<sup>(1)</sup> وهرعت إلى المطبخ. سكبت الحساء الساخن، وملأت الإبريق بالماء المغلي، وحملت الصواني إلى غرفة في.

قالت في: «لم أكن أعتقد أنني جائعة، لكن رائحة هذا الحساء طيبة».

«لقد صنعت لك تبيلة خاصة للسلطة، إنها وصفة قديمة، إكليل الجبل والزعتر. جربها إن أحببت».

قالت في «إنه لذيذ، هل هناك ما لا يمكنك القيام به يا عزيزتي؟»

---

(1) الكاسكارا دواء عشبي يستخرج من لحاء نبتة القشرة المقدسة، (بالإنجليزية: Anthragly-cosides).

تزيد الكاسكارا من إفراز الماء داخل تجويف الأمعاء الدقيقة، وتثبط امتصاصها من الأمعاء الغليظة، مما يؤدي إلى زيادة حجم محتوى الأمعاء، وتعزيز ضغط التوسع المعوي لتحفيز التمدد والإخلاء.

ظهرت الأعراض على كيت أولاً. تصببت جبهتها بالعرق ثم تضاعفت الآلام وبدأت تبكي من الألم. كانت عيونها محدقة واللعب يسيل من فمها. ركضت في إلى الرواق وهي تصرخ طلباً للمساعدة. احتشدت الفتيات وعدد قليل من زبائن الأحد في الغرفة. كانت كيت تتلوى على الأرض. حملها اثنان من الرجال ووضعها على سرير في وحاولا تعديل جسدها لكنها صرخت وهي تنكمش على نفسها مرة أخرى. كان العرق ينضح من جسدها بكثافة بحيث تبللت كل ملابسها.

كانت في تمسح جبين كيت بمنشفة عندما يتزايد الألم.

مرت ساعة قبل أن يتم العثور على دكتور وايلد وهو يلعب الورق مع صديق. تم جره إلى المنزل من قبل اثنتين من العاهرات المسعورات، في وكيت كانتا واهنتين من القيء والإسهال واستمرت التشنجات في العودة على فترات. قال الدكتور وايلد، «ماذا أكلتما؟» ثم لاحظ الصواني. هل هذه الفاصولياء معلبة في المنزل؟» سأل.

قالت غريس «بالتأكيد، لقد صنعناها هنا».

«هل تناولها أحدكم؟»

«لا، في الواقع -»

قال الدكتور وايلد: «اخرجي واكسري كل البرطمانات اللعينة» وأخرج مضخة المعدة. يوم الثلاثاء جلس مع السيدتين الضعيفتين الشاحبتين، كان قد تم نقل سرير كيت إلى غرفة في، قال لهما: «أستطيع أن أخبركما الآن، لم أكن أعتقد أن لديكما فرصة للنجاة. أنتما محظوظتين جداً. اتركا الفاصولياء المصنوعة في المنزل. واشتريا المعلبات».

«ماذا حدث؟» سألت كيت.

«تسمم وشيقي. لا نعرف الكثير عنه، لكن القلة يمكنهم تجاوزه. أعتقد أن السبب في ذلك هو أنك شابة وقوية». سأل في: «أما زالت أمعاؤك تنزف؟»

«نعم قليلاً».

«حسناً، إليك بعض حبوب المورفين، ستفيدك. ربما تكونين قد مزقت شيئاً فحسب. لكنهم يقولون لا يمكنك قتل عاهرة. والآن خذا الأمور بسهولة، كلاكما».

كان ذلك يوم 17 أكتوبر.

لم تتحسن حالة في بعد ذلك اليوم. كانت تتحسن قليلاً ثم تعود فتتكسر مجدداً. مرت بنوبة سيئة في 3 ديسمبر واستغرق الأمر وقتاً أطول حتى تستعيد عافيتها. في 12 فبراير أصبح النزيف عنيقاً وبدأ أن التوتر المتكرر قد أضعف قلب في. أصغى الدكتور وايلد إلى نبضها لوقت طويل من خلال سماعته.

كانت كيت قد أصبحت هزيلة وجسدها النحيف قد تقلص إلى عظام. حاولت الفتيات فصلها قليلاً عن في، لكن كيت لم تغادر.

قالت غريس: «الرب يعلم متى نامت آخر مرة. إذا ماتت في أعتقد أن الأمر سيقتل هذه الفتاة».

أخذ دكتور وايلد كيت إلى الصالون المظلم في النهار ووضع حقيبته السوداء على الكرسي: «ربما يجب عليّ إخبارك، قلبها لا يستطيع تحمل الضغط، أخشى أنها ممزقة من الداخل. هذا التسمم الغذائي اللعين أسوأ من الأفعى الجرسية». نظر بعيداً عن وجه كيت المتهالك. قال بلجاجة ووضع يده على كتفها العظمي: «اعتقدت أنه من الأفضل إخبارك حتى تتمكني من تهيئة نفسك. لا يتمتع الكثير من الناس بهذا الولاء. قدمي لها القليل من الحليب الدافئ إذا كان بإمكانها تناوله».

حملت كيت حوضاً من الماء الدافئ إلى الطاولة بجانب السرير. عندما نظرت تريكسي إلى داخل الغرفة، كانت كيت تحمم في وتستخدم مناديل الكتان الرقيقة وهي تفعل، ثم قامت بتمشيط شعرها الأشقر الخفيف.

تقلص جلد في، متشبثاً بالفك والجمجمة، كانت عيناها ضخمتين  
وشاغرتين.

حاولت التحدث لكن كيت قالت لها: «شششش! احفظي طاقتك. وفري  
طاقتك».

ذهبت إلى المطبخ لإحضار كوب من الحليب الدافئ ووضعته على طاولة  
السريير. أخرجت زجاجتين صغيرتين من جيبتها ووضعت القليل من كل واحدة  
منها في القطارة. «افتحي فمك يا أمي. هذا نوع جديد من الأدوية، كوني شجاعة  
يا عزيزتي، سيكون طعمه سيئاً». قامت بعصر السائل بعيداً عن لسان في ورفعت  
رأسها حتى تتمكن من شرب القليل من الحليب للتخلص من الطعم». ارتاحي  
الآن وسأعود بعد قليل».

خرجت كيت بهدوء من الغرفة. كان المطبخ مظلمًا، فتحت الباب وتسللت  
إلى الخارج بين الحشائش. كانت الأرض رطبة من أمطار الربيع. في الجزء  
الخلفي حفرت حفرة صغيرة بعضا مدبية.

رمت الزجاجات الصغيرة الرفيعة وقطارة العين، وبالعصا كسرت الزجاج  
إلى قطع صغيرة وكشطت الأوساخ فوقه. بدأ المطر يهطل عندما عادت كيت  
إلى المنزل.

في البداية كان عليهم تقييد كيت لمنعها من إيذاء نفسها. ثم من العنف  
انتقلت إلى ذهول سوداوي. مر وقت طويل قبل أن تستعيد عافيتها. كانت قد  
نسيت موضوع الوصية. إلى أن تذكرت تريكسي الأمر أخيرًا.



## الفصل 22

### 1

في منزل تراسك، تقوقع آدم على نفسه. كان منزل سانشيز غير المكتمل مشرعاً للرياح والأمطار، وألواح الأرضية الجديدة ملتوية ومشوهة بفعل الرطوبة. والحدائق المخططة أصبحت توليفة من النباتات الموزعة بفوضوية. بدا آدم وكأنه يرتدي لزوجة تبطئ من حركته وتفكيره، وينظر للعالم من خلال مياه رمادية. بين الحين والآخر كان عقله يكافح لشق طريقه، وعندما يلمح النور يشعر بالمرض يعود لعقله، فيرجع إلى الرمادية مجدداً. كان على علم بوجود التوأم لأنه كان يسمعهما يبكيان ويضحكان، لكنه كان يشعر بنوع من النفور منهما. كانا بالنسبة لآدم رمزا للخسارته. زاره جيرانه في واديه الصغير وكل واحد منهم متفهم لحالة الغضب أو الحزن المتمكن منه - وبالتالي حاول مساعدته.

لكنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء حيال السحابة العالقة فوقه. آدم لم يكن يقاومهم، هو ببساطة لم يلحظ وجودهم، وبالنتيجة سرعان ما توقف الجيران عن زيارته.

حاول لي لبعض الوقت تحفيز آدم على استعادة وعيه، لكنه كان رجلاً مشغولاً. كان يطبخ ويغسل ويحمم التوأم ويطعمهما. من خلال عمله الجاد والدائم، أصبح مولعاً بالصبيين الصغيرين. تحدث إليهما باللغة الكانتونية، وكانت الكلمات الصينية هي أول ما تعرفا عليه وحاولا تكراره.

عاد صمويل هاملتون مرتين لمحاولة إخراج آدم من صدمته. ثم تدخلت ليزا.

قالت: «أريدك أن تتعد عن ذلك المكان. لقد أصبحت رجلاً مختلفاً يا صمويل، أنت لا تغيره، هو من يغيرك. أستطيع أن أرى مظهره في وجهك». «هل فكرت في الطفلين، ليزا؟» سألها.

قالت بلطف: «لقد فكرت في عائلتك، أنت بهذا تجلب السوء»

قال: «حسناً» لكن الأمر كان يحزنه لأن صمويل لم يكن بإمكانه الاهتمام بشؤونه عندما كان يعلم أن هناك من يعاني أو يتألم. لم يكن من السهل عليه أن يتخلى عن آدم ويوكله إلى الدمار.

دفع آدم له مقابل عمله، حتى أنه دفع له مقابل أجزاء طاحونة الهواء التي لم يعد يريدتها. باع صمويل المعدات وأعاد المال لآدم ولم يتلق منه أي رد.

أصبح يشعر بنوع من الغضب تجاه آدم تراسك. بدا لصمويل أن آدم ربما يلتذ بهذا الحزن، ولكنه لا يمتلك الكثير من أوقات الفراغ للالتفات لذلك. كان جو قد ذهب للدراسة الجامعية - إلى تلك الكلية التي كان ليلاند ستانفورد قد شيدها في مزرعته بالقرب من بالو ألتو. توم كان مصدر قلق لوالده لأنه أصبح يتعمق أكثر فأكثر في الكتب. كان يقوم بعمله بشكل جيد، لكن صمويل شعر أنه لم يكن سعيداً بما فيه الكفاية.

كان ويل وجورج يبليان بلاءً حسناً في عمليهما، وكانت تصل إلى المنزل رسائل من جو عبارة عن أبيات شعرية مقفلة ويشن عبرها هجوماً ذكياً على جميع الحقائق المقبولة وكأنها جميعاً صالحة.

كتب صمويل إلى جو قائلاً: «سأصاب بخيبة أمل إذا لم تصبح ملحدًا بالفعل، وفهمت بسرور من خلال قراءتي لرسائلك أنك، في عمرك وحكمتك، قد تقبلت اللاأدرية بالطريقة التي تتناول بها كعكة على معدة ممتلئة. لكني



أطلب منك بكل تفهّم قلبي ألا تحاول جرّ والدتك الى التحوّل أيضاً. رسالتك الأخيرة جعلتها تعتقد أنك لست بخير. تؤمن والدتك أن غالب الأمراض يمكن علاجها من خلال حساء جيد. إنها تنسب هجومك الشجاع على ما بُنيت عليه حضارتنا إلى آلام في المعدة. الأمر يقلقها. فإيمانها راسخ كما جبل، وأنت يا بني، لم تحصل لنفسك على معرفة بعد».

كانت ليزا تتقدم في السن وكان هذا جلياً لصموئيل كلما نظر إلى وجهها. في حين لم يشعر هو بالشيخوخة سواء كان بلحية بيضاء أو لا، لكن ليزا كانت تعيش الحياة بشكل عكسي، وهذا هو الدليل.

كان هناك زمن كانت ليزا تنظر فيه إلى خططه ونبوءاته على أنها صيحات مجنونة لطفل، والآن أصبحت تشعر أنها غير لائقة برجل في عمره. أصبح الثلاثة، ليزا وتوم وصموئيل، بمفردهم في المزرعة. أونا كانت قد تزوجت من غريب وغادرت. وديسي تعمل في مجال الخياطة في ساليانس. تزوجت أوليف من فتاها، وكانت مولي متزوجة وتعيش - صدق أو لا تصدق - في شقة في سان فرانسيسكو. حيث العطور وسجادة بيضاء من جلد الدببة في غرفة النوم أمام المدفأة، وسيجارة بحافة ذهبية من نوع فيوليت ميلو بين شفيتها مع قهوتها بعد العشاء.

ذات يوم أجهد صموئيل ظهره وهو يرفع كيساً من القش مما أضر بمشاعره أكثر من ظهره، لأنه لم يستطع تخيل حياة يكون فيها سام هاملتون محظوراً من رفع كيس من القش. شعر بالإهانة من ظهره كما لو كان أحد أبنائه قد خذله.

في كينغ سيتي، قام الدكتور بفحصه. كان الطبيب نفسه قد أصبح أكثر تمللاً بسبب سنواته المرهقة.

«لقد لويت ظهرك».

قال صموئيل: «بالفعل».

«وقمت بالقيادة طول هذا الطريق لتأتي إليّ وأخبرك أنك لويت ظهرك وأخصم منك دولارين؟»  
«تفضل دولارين».

«وتريد أن تعرف ماذا تفعل حيال ذلك؟»  
«طبعاً».

«لا تقم بليه بعد الآن. والآن خذ أموالك. أنت لست بأحمق يا صموئيل، إلا إذا كنت قد أصبت بالخرف».  
«لكنه يؤلمني».

«بالطبع سيؤلمك. كيف تعرف أنه متشنج إذا لم يُشعرك بذلك؟»  
ضحك صموئيل. قال «أنت جيد، وتستحق أكثر من دولارين بالنسبة لي. احتفظ بالمال».

نظر إليه الطيب عن كثب. وأنا أعتقد أنك تقول الحقيقة يا صموئيل. سأحتفظ بالمال».

ذهب صموئيل ليرى ويل في متجره الجديد، هناك بالكاد تعرف على ابنه، لأن ويل كان يبدو سميناً ومتأنقاً ويرتدي بذلة وخاتماً ذهبياً في إصبعه الصغير. قال ويل: «لدي صندوق لأمي، بعض الأشياء الصغيرة من فرنسا. بعض الفطر ومعجون الكبد والقليل جداً من السردين، قليل بحيث تصعب رؤيته».  
قال صموئيل: «سترسلها والدتك إلى جو».

«ألا تستطيع أن تقنعها بأكلها؟»

قال والده: «لا. لكنها ستستمتع حتماً بإرسالها إلى جو».

دخل لي إلى المتجر وومضت عيونه بفرح: «كيف حال سيّد؟»  
«مرحبا يا لي. كيف حال الأولاد؟»

«أولاد بخير».

قال صموئيل: «سأذهب لاحتساء كأس من البيرة في الجوار يا لي. سيسعدني انضمامك لي».

جلس لي وصموئيل على المائدة المستديرة الصغيرة في الحانة وقام صموئيل برسم أشكال على الخشب المقشر برطوبة كأس البيرة». أردت أن آتي لرؤيتك أنت و آدم لكنني شعرت أنني لم أعد قادراً على فعل أي شيء جيد».

«حسناً، لكن لا يمكنك إلحاق أي ضرر أيضاً. اعتقدت أنه سيتغلب على ما أصابه. لكنه ما زال يتجول مثل الشبح».

«لقد مر أكثر من عام أليس كذلك؟» سأل صموئيل.  
«وثلاثة أشهر».

«حسناً، ما الذي يمكنني فعله؟»

قال لي «لا أعرف، ربما يمكنك أن تصدمه ليخرج من هذه الحالة. لم ينجح أي شيء آخر».

«أنا لست جيداً في إحداث الصدمات. ربما ينتهي بي الأمر بصدمة نفسي. بالمناسبة ماذا سمى التوأم؟»

«ليست لديهما أية أسماء»

«أنت تمزح يا لي. أليس كذلك؟»

«أنا لا ألقى النكات».

«بم يناديهما؟»

«يسميها هما»

«أعني عندما يتحدث إليهما».

«عندما يتحدث إليهما يقول أنت، أو كلاهما».

قال صموئيل بغضب «هذا هراء! أي نوع من الحمقى هذا الرجل؟»

«تعمدت أن آتي وأخبرك. إنه رجل ميت ما لم يتم إيقاظه».

قال صموئيل: «سأتي وأحضر معي سوط حصان. لا أسماء؟! أنت محق

بكل تأكيد، سأتي يا لي».

«متى؟»

«غداً»

قال لي: «سأذبح دجاجة. ستحب التوأم سيد هاملتون، إنهما جميلان. لن

أخبر السيد تراسك أنك قادم».

## 2

أخبر صموئيل زوجته بخجل أنه يريد زيارة منزل تراسك. كان يعتقد أنها

ستنصب أمامه جدران اعتراض قوية، إنها إحدى المرات القليلة في حياته

التي كان يعصي فيها رغبتها، بغض النظر عن قوة اعتراضها. كان مجرد

التفكير في عصيان زوجته يشعره بالحزن في داخله. شرح لها بإسهاب هدفه

من هذه الزيارة كما لو كان يعترف بذنوبه. وضعت ليزا يديها على وركها

أثناء حديثه وغرق قلبه وهو يرى ذلك، وعندما انتهى استمرت في النظر إليه

ببرود.

أخيراً قالت: «صموئيل، هل تعتقد أنه بإمكانك تحريك هذا الرجل الأشبه

بالصخرة؟»

«لا أعرف». لم يكن يتوقع هذا السؤال.

«هل تعتقد أنه من الأهمية بمكان أن يكون للطفلين أسماء في الوقت

الحالي؟»

«حسنًا، يبدو الأمر كذلك بالنسبة لي» قالها بخجل.

«صموئيل، هل فكرت لماذا تريد الذهاب؟ هل هو فضولك الطبيعي غير القابل للشفاء؟ هل هو عدم قدرتك على الاهتمام بشؤونك؟»  
«ليزا، أعرف إخفاقاتي جيداً. اعتقدت فقط أنه قد يكون أكثر من ذلك.»  
قالت «من الأفضل أن يكون أكثر من ذلك، فهذا الرجل لم يعترف إلى الآن بأن له أبناء على قيد الحياة. لقد تركهما معلّقين في الهواء.»  
«هذا ما أراه أيضاً يا ليزا.»  
«وإذا طلب منك أن تهتم بشؤونك - ماذا بعد ذلك؟»  
«لا أعلم.»

انغلق فكها وسمع صرير أسنانها: «إذا لم تمنح أسماء للتوأم، فلن يكون هناك مكان دافئ لك في هذا المنزل. لا تجرؤ على العودة متدمراً وقائلاً إنه لن يفعل ذلك أو أنه لا يستمع إليك. إذا فعلت ذلك فسأضطر للذهاب بنفسى إليه.»

قال صموئيل: «لن أسمح له بهذا»  
«لا لن تفعل. أنت تفتقر للشراسة والضراوة يا صموئيل. أنا أعرفك، ستغمره بكلمات حلوة وستعود مهزوماً وتحاول جعلى أنسى أنك ذهبت من الأساس.»  
«سوف أتغلب على عقله» صاح صموئيل وهو يسرع إلى غرفة النوم ترافقه ابتسامة ليزا.

سرعان ما خرج مرتدياً بدلته السوداء وقميصه الأبيض بياقته الناصعة. انحنى قبالتها بينما تربط ربطة عنقه السوداء. كانت لحيته البيضاء ممشطة ومشرقة.  
قالت: «من الأفضل أن تمسح حذاءك بفرشاة سوداء.»

في خضم تلميعه لحذائه الأسود البالي نظر إليها: «هل يمكنني أخذ الكتاب المقدس معي؟، ليس هناك مكان أفضل من الكتاب المقدس للحصول على اسم جيد.»

قالت غير مرتاحة: «لا أحب إخراج الكتاب من المنزل لوقت طويل، ماذا أقرأ إذا تأخرت في العودة إلى المنزل؟ وأسماء الأطفال فيه». رأت ملامحه تذبل. دخلت غرفة النوم وعادت ومعها كتاب مقدس صغير مهترئ، تم لصق غطاءه بورق بني وغراء. قالت «خذ هذا».

«ولكن هذا كتاب والدتك».

«هي لا تمنع. ثم إن جميع الأسماء باستثناء واحد هنا لها تاريخان».

قال صموئيل: «سأغلفه حتى لا يتضرر»

تحدثت ليزا بجدّة «ما تمنع به أمي هو ما أمانع به، وسأخبرك ما هو. أنت لا تكف عن التساؤل والتشكيك فيما ورد في الكتاب المقدس. تقوم بقلبها بالطريقة التي يقلب بها الراكون صخرة مبللة، هذا ما يغضبني».

«أنا فقط أحاول أن أفهم يا أمي».

«ماذا هناك لفهمه؟ فقط اقرأه. كل شيء مدوّن بالأبيض والأسود. من يطلب منك أن تفهم؟ إذا أراد الرب أن تفهم أمراً فسيمنحك هذا الفهم أو يجعله مختلفاً».

«لكن يا أمي -»

قالت: «صموئيل، أنت أكثر رجل مثير للجدل شهده هذا العالم على الإطلاق».

«نعم يا أمي».

«لا تتفق معي طوال الوقت لأن هذا يشير إلى النفاق. دافع عن رأيك».

تأملته وهو يغادر في عربته وقالت بصوت عالٍ: «زوج لطيف، لكنه مثير للجدل».

وكان صموئيل يفكر في دهشة: «عندما أعتقد أنني أصبحت أفهمها، تفعل شيئاً من هذا القبيل».

في نصف الميل الأخير خرج صموئيل من وادي ساليناس وسار تحت أشجار البلوط الضخمة وهو يحدث نفسه بكلمات بطولية لتساعده على تجاوز الإحراج.

كان آدم أكثر هزلاً مما يتذكره صموئيل، عيناه بليدتان وكأنه لم يستخدمهما كثيراً في الرؤية. استغرق الأمر بعض الوقت حتى أدرك آدم أن صموئيل يقف أمامه، كانت الكتابة جليّة على ملامحه.

قال صموئيل: «الآن أشعر أنني ضئيل لأنني أتيت بدون دعوة».

قال آدم، «ماذا تريد؟ ألم أدفع لك؟»

«دفع؟ نعم دفعت لي. والله فعلت. بل كان أكثر مما كنت أستحقه».

«ماذا؟ ماذا تحاول أن تقول؟»

نما غضب صموئيل وتفاقم: «يعمل الرجل طوال حياته مقابل أجر. لكن ماذا لو كان عملي طوال حياتي هو العثور على قيمتي، هل ستدوني أيها الحزين على الفور في دفتر حساباتك؟»

صاح آدم: «سأدفع لك، أقول لك سأدفع. كم تطلب؟»

«لقد دفعت بالفعل، ولكن ليس لي».

«لماذا أتيت إذن؟ اذهب!»

«لقد دعوتني مرة».

«أنا لا أدعوك الآن».

وضع صموئيل يديه على وركيه وانحنى إلى الأمام: «سأخبرك، أصمت. في ليلة مريرة، الليلة الماضية، جاءتني فكرة جيدة جعلت الظلام يبدو جميلاً. وانتقلت هذه الفكرة من نجمة المساء إلى حافة الضوء الأول للنهار - الذي تحدث عنه من هم أفضل منا. لذلك أنا دعوت نفسي لزيارتك».

«أنت غير مرحب بك».

قال صموئيل: «لقد قيل لي إنه لمجد فريد لصلبك أن تُرزق بتوأم».

«وفيمَ يخصك هذا؟»

لمعت عيون صموئيل بشيء من الأمل على تلك الوقاحة ورأى آدم لي وهو يتربص داخل المنزل وينظر إليه بشكل خاطف: «أسألكما بالرب، لا تضغطا عليّ. أنا رجل لا أطلب سوى بعض السلام».

«أنا لا أفهمك. كيف استطعت أن تفعل هذا يا آدم تراسك؟ نرى ذئباً يعتني بزوج من الأشبال، وديكاً مزعجاً يغمر بأبوتته الحنونة بيضة مخصبة، كتلة قدرة!»

انكمشت وجنتا آدم ولأول مرة بدت عيناه وكأنهما تبصران. شعر صموئيل بسبب فرحه باضطراب شديد في معدته فصرخ فيه: «أوه يا صديقي، هذا ليس أوانك، تراجع عني أتوسل إليك! أتوسل إليك بحق أي شيء مقدس يمكنك تذكره، ابتعد عني. أشعر وكأن الموت يتسلل إلى أحشائي».

قال آدم: «أخرج من منزلي. هيا أخرج. أنت تتصرف بجنون. أخرج فوراً. هذا منزلي، أنا من اشتريته».

قال صموئيل ساخراً: «استمع إليّ لأنني ربما سأقتلك بعد ذلك. اشتريت! لقد اشتريت بسبب حصولك على بعض الميراث الجميل. فكر معي - هل تستحق أطفالك يا رجل؟»

«أستحقهم؟ إنهم هنا. أنا لا أفهمك».

صرخ صموئيل: «فليساعدني الرب، آه ليزا! إنها ليست طريقة تفكيرك يا آدم! استمع إلي قبل أن يجد إبهامي المكان السيئ في حلقك. لديك هذا التوأم الثمين - لم تتأملهما، توجههما، تراقبهما، أو تكتشفهما، وأقولها دون بذل أي جهد».



قال آدم بصوت خشن: «أخرج من هنا. لي، أحضر مسدسي! هذا الرجل مجنون. لي!»

بعد لحظات كانت يدا صموئيل تضغطان على حلق آدم بحيث وصل نبضه إلى صدغيه، وتورمت عيناه واحتقتتا بالدم. كان صموئيل يزمجر عليه. «أنت لم تشتري هؤلاء الأولاد، ولم تسرقهم، ولم تقدّم لهم شيئاً. أنت فقط حصلت على بعض الإغفاء الغريب والجميل». وفجأة انتزع يديه القاسيتين من حلق آدم الذي كان يلهث مستشعراً مكان يد الحداد: «ماذا تريد مني؟»

«ليس لديك أي حبّ»

«كان لدي - وكان كافياً لقتلي».

«لم يكتف أحد من قبل. يحتفل البستان الحجري بالقليل جداً وليس بالكثير جداً»

«ابق بعيداً عني. لا تعتقد أنني لا أستطيع الدفاع عن نفسي».

«لديك سلاحان لا أسماء لهما».

«سوف أقاتلك. أنت رجل عجوز».

قال صموئيل «لا أستطيع حتى التفكير في رجل بليد يلتقط صخرة ولا يمنحها قبل المساء اسماً - كبيترو. وأنت - لمدة عام عشت مستنزف القلب ولم تضع حتى رقماً على هذين الطفلين».

قال آدم: «ما أفعله هو أمر يخصني».

ضربه صموئيل بقبضة ثقيلة، وهوى آدم على التراب. طلب منه صموئيل أن يقوم، وعندما نهض ضربه مرة أخرى، وهذه المرة لم يقم آدم، بل بقي ينظر بصرامة إلى الرجل المتوعد.

غادرت النار عيني صموئيل وقال بهدوء: «ابنك لا أسماء لهما».

أجاب آدم: «تركتهما أمهما بلا أم».

«وتركتهما أنت يتامى الأب. ألا تحس بالبرد الذي يشعر به طفل وحيد؟ لا دفء يوجد هنا، لا زقزقة للطيور، لا صباح يمكن أن يكون جيداً. ألا تتذكر يا آدم كيف كان الأمر ولو قليلاً؟»

قال آدم: «لستُ من فعل هذا»

«هل أوقفت استمراره؟ أولادك ليست لديهما أسماء». نزل ووضع ذراعيه حول كتفي آدم وساعده على الوقوف على قدميه. قال: «سنمنحهما أسماء. سنفكر طويلاً ونجد أسماء جيدة». ونفض الغبار عن قميص آدم بيديه.

نظر آدم للبعيد كما لو كان يستمع إلى الموسيقى التي تحملها الرياح، لكن عينيه لم تعودا ميتين كما كانتا. قال: «من الصعب تصوّر أنني أشكر رجلاً على إهانتني ونفضي مثل البساط. لكنني ممتن. إنه شكر مروع، لكنه شكر صادق». ابتسم صموئيل بعينين متجدتين. «هل بدا ذلك طبيعياً؟ هل فعلتُ ذلك بشكل صحيح؟» سأله.

«ماذا تعني؟»

«حسناً، بطريقة ما وعدت زوجتي بأن أفعل هذا. لم تصدق أنني سأفعل. أنا لست رجلاً مقاتلاً كما ترى. آخر مرة ضربت فيها روحاً بشرية كانت لأجل فتاة حمراء الأنف وكتاب مدرسي في مقاطعة ديري».

حدق آدم في صموئيل، كان في ذهنه يرى ويشعر أن شقيقه تشارلز هو من يقف أمامه، أسود وغازب، وتحول هذا المشهد تلقائياً إلى وجه كاثي وعينيها فوق فوهة البندقية. قال آدم: «لم يكن هناك أي خوف، كان الأمر أقرب للتعب». «أعتقد أنني لم أكن غاضباً بما يكفي».

«صموئيل، سأسألك مرة واحدة فقط لا أكثر. هل سمعت أي شيء؟ هل هناك أية أخبار عنها - أية أخبار على الإطلاق؟»  
«لم أسمع شيئاً».

قال آدم: «هذا أمر مريح».

«هل تشعر بكرهية تجاهها؟»

«لا. لا - فقط نوع من الانكماش في القلب. ربما لاحقاً تتحول إلى كراهية. لم يكن هناك فاصل عندما تحول الجمال إلى رعب، كما ترى. أنا مرتبك، الأمر مربك».

قال صموئيل: «يوماً ما سنجلس وستخفف من كل ذلك وتضع كل بطاقاتك بترتيب وأناقة على الطاولة أمامك، لكن الآن لن تتمكن من العثور على جميع البطاقات».

من خلف السقيفة سمعا صراخ دجاجة غاضبة ثم ضربة عنيفة.

قال آدم: «هناك شيء ما عند الدجاجات».

بدأ صراخ ثان. قال صموئيل: «إنه لي. تعرف؛ لو كان للدجاج حكومة وكنيسة وتاريخ فمن المؤكد أنهم كانوا سيحملون انطباعاً بغياً عن الفرح البشري. أي شيء مثير ومليء بالأمل يحدث لإنسان، لا بد أن يتبعه نحيب الدجاج».

بعد ذلك بقي الرجلان صامتين ولم يكسرا الصمت إلا بمجاملات صغيرة كاذبة - استفسارات لا معنى لها حول الصحة والطقس تتبعها إجابات غير مسموعة، ربما كان ليستمع هذا إذا لم يعودا للغضب من بعضهما مجدداً مما اضطر لي إلى التدخل.

أحضر لي طاولة وكرسيين ووضع الكراسي في مواجهة بعضها. ذهب وعاد حاملاً زجاجة نصف لتر من الويسكي وكأسين ووضع كأساً على الطاولة أمام كل كرسي. ثم حمل التوأم، واحداً تحت كل ذراع، ووضعهما على الأرض بجانب الطاولة، وأعطى كل طفل عصا ليهزها وينشغل بالظلال.

جلس الصغيران بهدوء ينظران حولهما، محدقين في لحية صموئيل وباحثين

عن لي. الطريف فيهما كان ملابسهما، كانا يرتديان سراويل مستقيمة وسترات الصينيين المحبوكة. كان أحدهما يرتدي اللون الأزرق الفيروزي والآخر الوردية الباهت، الضفادع والجديلة كانت سوداء، وعلى رأس كل منهما قبة حريرية سوداء مستديرة، وفي الجزء العلوي المسطح منها زر أحمر فاقع.

سأل صموئيل: «من أين حصلت على هذه الملابس يا لي؟»

قال لي بانفعال: «لم أحصل عليها، كانت لدي، والملابس الأخرى الوحيدة لديهما صنعتها بنفسني لهما من قماش شراع. لابد للطفل أن يرتدي ملابس أنيقة في يوم تسميته».

«لقد توقفت عن التحدث بلهجة بيجين، لي».

«أتمنى أن يستمر ذلك إلى الأبد. بالطبع ما زلت أتحدث بها في كينغ سيتي» قام بتمثيل بعض المقاطع الصوتية القصيرة للطفلين الجالسين على الأرض، وابتسما له ولوفا بعصيهما في الهواء. قال لي: «دعني أسكب لك شرابًا من هذا».

قال صموئيل: «إنه مما اشتريته بالأمس في كينغ سيتي».

الآن وقد جلس صموئيل وآدم معًا وانخفضت الحواجز، سقط ستار من الخجل على صموئيل. ما بدأه بالضرب بقبضتيه لم يستطع استكمالها بسهولة. جلس وهو يتفكر في فضائل الشجاعة والصبر التي تصبح مترهلة عندما لا يوجد ما تستخدمها عليه. سخر من نفسه.

جلس الاثنان ينظران إلى التوأم بملابسهما الغريبة ذات الألوان الزاهية. رأى صموئيل وهو ينظر لآدم أنه في بعض الأحيان يمكن لخصمك أن يساعدك أكثر من صديقك.

قال له: «البدء بالأمر صعب. الأمر أشبه برسالة مؤجلة ومع كل دقيقة تنقضي تتكوم عليها التعقيدات أكثر، هل يمكنك مساعدتي هنا؟»

نظر آدم لأعلى للحظة ثم عاد إلى الأولاد على الأرض. قال «هناك صدمة في رأسي، كما الأصوات التي تسمعها تحت الماء، عليّ انتشال نفسي من تراكمات سنة».

«ربما يمكنك إخباري كيف حدث الأمر ونبداً من هناك».

احتسى آدم شرابه وسكب آخر وحرك كأسه في يده، تحرك الويسكي الكهرماني وملاً الهواء برائحته الدافئة النفاذة. قال: «من الصعب أن أتذكر، فالأمر لم يكن عذاباً بل بلادة. لكن لا - كانت هناك إبر. قلت قبل قليل أن الأوراق ليست مكتملة لديّ بعد - وكنت أفكر في ذلك. ربما لن تكتمل لديّ البطاقات أبداً».

«هل هي نفسها تحاول الخروج؟ لأنه عندما يقول المرء إنه لا يريد التحدث عن أمر ما، فهو غالباً يقصد أنه لا يمكنه التفكير في أي شيء آخر».

«ربما الأمر كما تقول. فهي كانت تخلط كل الأمور مع نوع من البلادة، ولا أتذكر عنها الكثير باستثناء الصورة الأخيرة المرسومة بالنار».

«لقد أطلقت عليك النار، أليس كذلك يا آدم؟»

بدا جلياً أن الأمر أثار ضيقه، قال صموئيل: «لا داعي للإجابة».

أجاب آدم: «لا يوجد سبب لعدم القيام بذلك، نعم فعلت».

«هل كانت تنوي قتلك؟»

«لقد فكرت في هذا أكثر من أي شيء آخر. لا، لا أعتقد أنها قصدت قتلي. لم تسمح لي بهذه الكرامة. لم تكن تشعر بكرامية نحوي، ولا أية عاطفة أخرى على الإطلاق. تعلمت ذلك في الجيش. إذا كنت تنوي قتل رجل فأنت تطلق النار على الرأس أو القلب أو المعدة. لكن لا، هي أطلقت النار حيث أرادت. يمكنني إلى اللحظة أن أرى البندقية مصوّبة نحوي. أعتقد أنني لم أكن لأعرض إذا كانت تطلب موتي. كان من الممكن أن يكون ذلك نوعاً من الحب. لكنني كنت مصدر إزعاج وليس عدواً».

قال صموئيل: «بدو أنك فكرت في الأمر كثيرًا».

«كان لدي الكثير من الوقت لذلك. أريد أن أسألك شيئاً. لا أستطيع أن أتذكر كل ما قبل هذا الأمر القبيح. هل كانت جميلة جداً يا صموئيل؟»  
«بالنسبة لك كانت كذلك، لأنك صنعتها. لا أعتقد أنك رأيتها مطلقاً - أنت كنت ترى إبداعك الخاص فحسب».

تساءل آدم بصوت عالٍ: «أتساءل عنمن كانت، ماذا كانت، كنت آنذاك راضياً بعدم معرفتي».

«والآن تريد ذلك؟»

بان الانكسار في عيني آدم: «إنه ليس فضولاً. أود فقط أن أعرف نوع الدم الذي يسري في ولدي. عندما يكبران - أأبأ بحث عن شيء فيهما؟»  
«نعم ستفعل. وأحذرك من الآن أنها ليست دماءهما بل شكوكك هي التي قد تبذر فيهما الشر. سيكونان ما تتوقعه منهما».

«لكن دماءهما -»

قال صموئيل: «شخصياً لا أو من كثيراً بمسألة الدم. أعتقد أنه عندما يجد المرء الخير أو الشر في أطفاله، فإنه لا يرى إلا ما زرعه فيهم بعد خروجهم من الرحم».

«لا يمكنك أن تجعل من خنزير خيل سباقات».

قال صموئيل: «لا، لكن يمكنك أن تربّي خنزيراً سريعاً جداً».

«لا أحد هنا يتفق معك. أعتقد أنه حتى السيدة هاملتون لن تفعل ذلك».

«هذا صحيح تماماً. أكثر من أي أحد آخر هي لا تتفق معي، ولذا لا أقول هذا أمامها وأطلق العنان لصواعق اعتراضاتها. إنها تفوز في كل النقاشات باستخدام العنف والإيمان بأن الاختلاف في الرأي هو إهانة شخصية. إنها امرأة رائعة، لكن عليك أن تتعلم استشعار طريقتك في التعامل معها. دعنا نتحدث عن الصغيرين».

«هل تتناول شرابًا آخر؟»

«نعم شكرًا لك. الأسماء لغز كبير. لم أعرف أبدًا ما إذا كان الاسم هو الذي يصوغ شخصية الطفل أم أن الطفل نفسه يحاول تشكيل نفسه ليلائم اسمه. ولكن يمكنك التأكد من هذا؛ كلما حصل انسان ما على لقب، فهذا دليل على أن الاسم الذي أُعطي له كان خاطئًا. ما رأيك في الأسماء الدارجة؛ جون وجيمس وتشارلز؟»

كان آدم ينظر إلى التوأم وفجأة مع ذكر الاسم الأخير رأى شقيقه يحدق من عيني أحدهما وبشكل تلقائي انحنى إلى الأمام.

«ما الأمر؟» سأل صموئيل.

صاح آدم: «لماذا ليسا متشابهين! إنهما لا يشبهان بعضهما.»

«بالفعل. إنهما ليسا توأمًا متطابقًا.»

«هذا - هذا يشبه أخي. رأيت وجهه للتو. أتساءل عما إذا كان الآخر يشبهني.»

«كلاهما يشبهانك. في الوجه يكمن كل شيء.»

قال آدم: «لم يعد الأمر بتلك القوة الآن، لكن للحظة ظننت أنني رأيت شيئًا.»

قال صموئيل: «ربما هذا هو حال الأشباح.» أحضر لي الأطباق ووضعها على الطاولة «هل لديكم أشباح صينية؟» سأله صموئيل.

قال لي «الملايين، لدينا أشباح أكثر من أي شيء آخر. أعتقد أن لا شيء يموت في الصين. إنها مزدحمة للغاية، بكل حال هذا ما شعرت به عندما كنت هناك.»

قال صموئيل: «اجلس يا لي. نحن نحاول التفكير في الأسماء.»

«الآن أنا منشغل بقلي الدجاج. سيكون جاهزاً بعد قليل.»

نظر آدم إلى التوأم بنظرة دافئة وعينين رطبتين.

انحنى صموئيل وحمل طفلاً وأبقاه في حجره. قال لآدم: «ارفع هذا، لا بد أن نرى ما إذا كان هناك شيء يجذب لهما الأسماء».

حمل آدم الطفل الآخر بارتباك وأجلسه على ركبته قائلاً: «إنهما متشابهان، لكن ليس عندما تنظر إليهما عن قرب. هذا لديه عيون أكثر استدارة من الآخر».

أضاف صموئيل: «نعم، ورأس مستدير وأذان أكبر، ولكن هذا يشبه إلى حد كبير.. يشبه الرصاصة. هذا قد يصبح أطول من الآخر ولكن ليس بكثير. وشعر هذا وجِلده سيكونان أعمق. هذا سيكون داهية على ما أعتقد، والدهاء تقييد للعقل. الدهاء يخبرك دائماً بما لا يجب عليك فعله، لأن ذلك لن يكون دهاء. راقب كيف يدعم نفسه! إنه أكثر تطوراً من أخيه، أليس من الغريب مدى اختلافهما عندما تنظر إليهما عن قرب؟»

كان وجه آدم يتغير كما لو أنه فتحه وخرج على سطحه. رفع إصبعه، فاندفع الطفل للإمساك به وأخطأ وكاد يسقط من حجره: «توقف! اهدأ. هل تريد أن تسقط؟» صاح به آدم.

قال صموئيل: «سيكون من الخطأ تسميتهما بالصفات التي نعتقد أنهما يمتلكانها، فقد نكون مخطئين - مخطئين جداً. ربما يكون من الجيد منحهما اسمين يرتقيان إليهما، الرجل الذي سُميت باسمه ناداه الرب بهذا الاسم، وكنت طوال حياتي أصيخ السمع ولا أخفيك، لمرّة أو مرتين اعتقدت أنني سمعت اسمي ينادى - لكنه لم يكن واضحاً».

انحنى آدم، وهو يمسك الطفل من أعلى ذراعه، وسكب الويسكي في الكأسين: «أشكرك على قدومك يا صموئيل، أشكرك أيضاً على الضرب. على الرغم من غرابة هذا القول».

«لقد كان شيئاً غريباً بالنسبة لي. لن تصدق ليزا ذلك أبداً، ولذا لن أخبرها



أبدًا. الحقيقة غير المؤمن بها يمكنها أن تؤذي المرء أكثر من الكذب. يتطلب الأمر شجاعة كبيرة لدعم الحقيقة غير المقبولة في عصرنا، وهناك عقوبة لذلك وهي عادة الصُّلب، ولا أمتلك الشجاعة الكافية لمواجهة ذلك».

قال آدم، «لقد تساءلتُ مراراً عما يدفع برجل يحمل حكمتك للعمل في مكان صحراوي كهذا».

قال صموئيل: «هذا لأنني لا أمتلك الجرأة. لا يمكنني تحمل المسؤولية بشكل كامل. عندما لم ينادي الرب باسمي، كان بإمكانني مناداته باسمه - لكنني لم أفعل. هناك فرق بين العظمة والعادية. إنه ليس مرضاً نادراً، لكن من الجيد أن يعرف الإنسان العادي البسيط أن العظمة لا بد أن تكون الحالة الأكثر شعوراً بالوحدة في العالم».

قال آدم: «أعتقد أن هناك درجات من العظمة».

قال صموئيل: «لا أعتقد ذلك، هذا سيكون مثل القول أن هناك القليل من الكِبَر. لا، أعتقد أنك عندما تتولى هذه المسؤولية، ستبقيان أنت والعظمة لوحدهما لتقرر الاختيار كما. في جانب هناك الدفء والرفقة والتفاهم اللطيف، وفي الجانب الآخر هناك الشعور بالوحدة الباردة للعظمة. وهنا تقوم باختيارك. أنا سعيد لأنني اخترت الوسط، ولكن كيف لي أن أعلم ما هي المكافأة التي قد تأتي مع الخيار الآخر؟ لن يكون أي من أطفالنا عظماء أيضاً، ربما باستثناء توم. إنه يعاني من حيرة الاختيار الآن. أمر مؤلم مشاهدته، في مكان ما بداخلي أتمنى أن يقول نعم للعظمة. أليس هذا غريباً؟ أب يريد أن يحكم على ابنه بالعظمة! يا لها من أنانية».

ضحك آدم «عملية التسمية هذه لا تبدو لي عملاً بسيطاً، كما أرى».

«هل اعتقدت أنه أمر سهل؟»

قال آدم: «لم أعلم أنه يمكن أن يكون ممتعاً هكذا».

عاد لي مع طبق من الدجاج المقلي ووعاء من البطاطس المسلوقة، وطبق عميق من البنجر المخلل، وكلها على لوح المعجنات. قال: «لا أعرف إن كانت طيبة المذاق، الدجاجات كبيرة في السن بعض الشيء. ليس لدينا أي ديك. لقد قضى ابن عرس على الديك».

قال صموئيل: «هيا»

قال لي: «انتظر حتى أجلب مشروبي»

أثناء ذهابه قال آدم: «أشعر بأني مشوش، في السابق كان يتحدث بشكل مختلف».

قال صموئيل: «بات يثق بك الآن. لديه موهبة الولاء بدون أمل في المكافأة. ربما يكون رجلاً أفضل بكثير مما يحلم به أي منا».

عاد لي وجلس في نهاية الطاولة وقال: «ضعا الطفلين على الأرض».

احتج التوأم عندما تم وضعهما على الأرض. تحدث لي معهما بصراحة باللغة الكانتونية فصمتا فوراً.

كان الرجال يأكلون بهدوء كما يفعل جميع سكان البلاد تقريباً. فجأة نهض لي وهرع إلى الخارج وعاد ومعه إبريق من النبيذ الأحمر: «لقد نسيت هذا، وجدته في المنزل».

ضحك آدم». أتذكر أنني كنت أشرب الخمر هنا قبل أن أشتري المكان. ربما اشتريت المكان بسبب النبيذ. الدجاجة لذيدة يا (لي). لا أعتقد أنني كنت على دراية بمذاق الطعام لفترة طويلة».

قال صموئيل: «أنت تتحسن. يشعر بعض الناس أن الشفاء هو إهانة لمجد مرضهم. لكن كمد الوقت لا يحترم الأمجاد. يتعافى الجميع إذا ما تم التحلي ببعض الصبر».

قام لي بتنظيف الطاولة وأعطى كل طفل عظمة نظيفة. جلسا بهدوء وكل منهما ممسك بعظمته يتفحصها ويمتصها بالتناوب. النيذ والكؤوس بقيت على الطاولة.

قال صموئيل: «من الأفضل أن نبدأ في التسمية، يمكنني أن أشعر بضغط ليزا بالفعل».

قال آدم: «لا أستطيع التفكير في أسماء محددة»  
«ألا تفكر في اسم عائلة تريده لنفسك، مصيدة جذابة لقريب غني، اسم تفخر به وتود إحياءه؟»  
«لا، أريد لهما بداية جديدة بقدر ما هو ممكن».

صنع صموئيل جبهته: «يا له من عار، من العار ألا يمكنهما الحصول على الأسماء المناسبة لهما».  
«ماذا تقصد؟» سأل آدم.

«ذكرت التجديد. كنت أفكر في الأمر الليلة الماضية.. هل فكرت في اسمك؟»

«اسمي؟»

«بالطبع. أن يكون برك قابيل وهايبيل».

قال آدم: «أوه لا. لا، لا يمكننا فعل ذلك».

«أعلم أننا لا نستطيع. مع ذلك سيكون مغرياً مهما كان المصير. لكن أليس من الغريب أن يكون اسم قابيل الشهير في العالم كله - حسب علمي - لم يحمله سوى رجل واحد؟»

قال لي: «ربما لهذا السبب لم يتغير تركيز الاسم أبداً».

نظر آدم إلى النبيذ الأحمر في كأسه: «انتابني قشعريرة عندما ذكرت ذلك». قال صموئيل: «قصتان تطاردانا منذ القدم، نحملهما معنا مثل ذبول غير مرئية؛ قصة الخطيئة الأولى وقصة قابيل وهابيل. لا أفهم أيا منهما، لا أفهمهما على الإطلاق لكني أشعر بهما. ليزا تغضب مني وتقول إنني لا يجب أن أحاول فهمهما. تقول لماذا يجب علينا شرح الحقيقة. ربما كانت على حق. لي، ليزا تقول إنك من الكنيسة المشيخية - هل تفهم قصة جنة عدن وقابيل وهابيل؟»

«اعتقدت أنني لا بد أن أكون شخصية معيّنة، وأني ارتدتُ مدرسة الأحد منذ فترة طويلة في سان فرانسيسكو. الناس يريدونك أن تكون بشخصية محددة، والأفضل أن تشبههم».

قال آدم: «لقد سألك إن كنت تفهم».

«أعتقد أنني أفهم قصة الطرد من الجنة. ربما أستطيع أن أشعر بذلك في نفسي. لكن قصة قتل الأخ لأخيه - لا. حسناً ربما لا أتذكر التفاصيل جيداً».

قال صموئيل: «معظم الناس لا يقرأون التفاصيل. التفاصيل هي التي أذهلتني. هابيل لم يكن له أطفال»

نظر الى السماء وتنهّد: «يا إلهي، كيف يمر اليوم! إنه أشبه بحياة كاملة - يمر بسرعة كبيرة عندما لا نراقبه وبيطء شديد عندما نعمل. لا، أنا مستمتع وقد قطعْتُ وعدًا لنفسي بأن لا أعتبر الاستمتاع خطيئة. يسعدني الاستفسار عن الأشياء. لم أكن لأرضى بتمرير حجر دون النظر تحته، وأشعر بخيبة أمل كبيرة لأنني لا أستطيع أن أرى الجانب الآخر من القمر».

قال آدم: «ليس لدي كتاب مقدس، تركت كتاب العائلة في ولاية كونيتيكت». قال لي «أنا لدي واحد، ساتي به».

قال صموئيل: «لا حاجة لذلك. ليزا سمحت لي بأخذ كتاب والدتها. إنه هنا في جيبتي». أخرج الكتاب الصغير وفك غلافه المهترئ وهو يقول: «لقد

تم كسطه وقضمه، أتساءل ما هي الآلام التي استقرت هنا. أعطني كتاباً مقدساً مستخدماً ويمكنني إخبارك عن صاحبه من الصفحات الملوثة بأثار أصابعه. ليزا تتلف صفحات الكتاب المقدس بالتساوي. ها نحن ذا - إنها أقدم قصة، إن كانت تزعجنا فلا بد أن المشكلة تكمن في أنفسنا».

قال آدم: «لم أسمعها منذ أن كنت طفلاً».

قال صموئيل: «تعتقد أنه وقت طويل، لكنه قصير جداً. سأقروها ثم سنعود لمناقشتها. أعطني القليل من النبيذ، لقد جف حلقي. يا لها من قصة صغيرة مقارنة بالجرح العميق الذي أحدثته».

نظر إلى الأرض حيث الطفلين: «أنظر إليهما! لقد ناما في مكانهما على الأرض».

نهض لي قائلاً: «فلا غطيهما»

قال صموئيل: «الأرض دافئة. تسير القصة على هذا النحو: (واضطجع آدم مع امرأته حواء فحملت وولدت قايين. فقالت: رزقني الرب ابناً.)

همَّ آدم بالكلام ونظر إليه صموئيل فصمت وغطى عينيه بيده. قرأ صموئيل: (وعادت فولدت أخاه هايل. وصار هايل راعي غنم وقايين فلاحاً يفلح الأرض. ومرت الأيام فقدم قايين من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هايل أيضاً من أبقار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب برضى إلى هايل وتقدمته، أما إلى قايين وتقدمته فما نظر برضى)

قال لي: «الآن هنا - لا، استمر، أكمل. سنعود له لاحقاً».

فقرأ صموئيل: (فغضب قايين جداً وعبس وجهه. فقال الرب لقايين: «لماذا غضبت ولماذا عبس وجهك؟ إذا أحسنت عملاً، رفعت شأنك، وإذا لم تحسن عملاً، فالخطية رابضةً بالباب وهي تتلهم إليك. وقال قايين لهابيل أخيه: «هيا لنخرج إلى الحقل». وبينما هما في الحقل هجم قايين على أخيه هايل فقتله. فقال الرب لقايين: «أين هايل أخوك؟» قال: «لا أعرف. أحارس أنا

لأخي؟» فقال له الربُّ: «ماذا فعلتَ؟ دَمُ أَخِيكَ يَصْرُخُ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ. وَالآنَ، فَمَلْعُونَ أَنْتَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي فَتَحْتَ فَمَهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. فَهِيَ لَنْ تُعْطِيكَ خِصْبَهَا إِذَا فَلَحَتْهَا، طَرِيداً شَرِيداً تَكُونُ فِي الْأَرْضِ. فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «عِقَابِي أَقْسَى مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ وَحَجَبْتَ وَجْهَكَ عَنِّي، وَطَرِيداً شَرِيداً صِرْتُ فِي الْأَرْضِ. وَكُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلُنِي!»

فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «إِذَا، كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَايِينَ فَسَبْعَةُ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ». وَجَعَلَ الرَّبُّ عَلَى قَايِينَ عَلامَةً لِئَلَّا يَقْتُلَهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. وَخَرَجَ قَايِينُ مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ وَأَقَامَ بِأَرْضِ نُودَ شَرْقِيَّ عَدْنِ.

أغلق صموئيل الغلاف المهترئ للكتاب وهو يشعر بالضجر: «ها هو ذا، ست عشرة آية لا أكثر. ويا إلهي! كنت قد نسيت كم هي قصة مروعة - لا توجد نغمة واحدة مشجعة. ربما ليزا على حق. لا يوجد هناك شيء لفهمه».

تنهد آدم بعمق: «إنها ليست قصة مطمئنة، أليس كذلك؟»

سكب لي لنفسه كأساً من النبيذ الداكن من قنينة حجرية مستديرة ورشفها وهو يفتح فمه ليحصل على المذاق المزدوج على مؤخرة لسانه. لا توجد قصة تحتفظ بقوتها وتدوم ما لم نستشعر صدقها وصحتها في أنفسنا، يا لهذا الذنب العظيم الذي يحمله الرجال!

قال صموئيل لآدم: «وقد حاولت أن تحمّل نفسك عبء كل شيء».

قال لي: «وأنا كذلك، وكذلك يفعل الجميع. نضمّ أذرعنا المثقلة بالذنوب وكأنها أشياء ثمينة. لا بد أنها رغبتنا».

قال آدم: «هذا يجعلني أشعر بتحسن، وليس بالسوء».

«كيف هذا؟» سأله صموئيل.

«حسناً، كل طفل صغير يعتقد أنه اخترع الخطيئة. نعتقد أننا نتعلم الفضيلة لأنهم يحدثوننا عنها، لكننا نصمم الخطيئة بأنفسنا».

«نعم أفهمك. ولكن كيف تجعل هذه القصة الأمر أفضل؟»

قال آدم بحماس: «لأننا ننحدر من هذا. إنه أبونا، وعليه فشعورنا بالذنب منغمس في أسلافنا. هل كانت هناك فرصة متاحة لنا لسلوك طريق آخر؟ نحن أبناءه وهذا يعني أننا لسنا الأوائل في هذا الأمر. إنه عذر فحسب، والعالم متختم بالأعدار».

قال لي: «ليست أعذاراً مقنعة على أي حال، وإلا كنا قد قضينا على شعورنا بالذنب منذ وقت طويل، ولم يكن العالم ليتملىء بأشخاص حزاني ومعاقبين».

قال صموئيل: «لكن هل تفكر في وضع إطار آخر لهذه الصورة؟ سواء كان عذراً أم لا، لقد عدنا إلى أسلافنا ونحن نحمل شعوراً بالذنب».

قال آدم «أتذكر أنني كنت غاضباً قليلاً من الرب. لقد قدم كل من قابيل وهابيل ما عندهما، قبل الرب ما قدمه هابيل ورفض ما قدمه قابيل. لم أشعر أبداً أن هذا كان شيئاً عادلاً ولم أفهمه قط. هل تفهمه أنت؟»

قال لي: «ربما كل واحد منا يفكر من خلفية مختلفة. أتذكر أننا تعلمنا أن هذه القصة كتبها الرعاة ومن أجل الرعاة وليس المزارعين. ألن يجد إله الرعاة الحمل السمين أثمن من حزمة شعير؟ يجب أن تكون التضحية بالأفضل والأكثر قيمة».

قال صموئيل: «نعم أستطيع فهم ذلك. لكن لي، دعني أحذرك من لفت انتباه ليزا إلى استدالاتك الشرقية».

كان آدم متحمساً. نعم، ولكن لماذا أدان الرب قابيل؟ هذا ظلم».

قال صموئيل: «هناك ميزة للاستماع إلى الكلمات. لم يدن الرب قابيل على الإطلاق. حتى الرب يحق له أن يكون لديه تفضيل، أليس كذلك؟ لنفترض أن الرب أحب الخروف أكثر من الخضار. أعتقد أنني أفعل. ربما أحضر له قابيل حفنة من الجزر وقال الرب: لا أحب هذا. حاول مجدداً. أحضر لي شيئاً

يعجبني وسوف أقوم بوضعك جنباً إلى جنب مع أخيك. لكن قابيل غضب فوراً وتأذت مشاعره. وعندما تتأذى مشاعر الرجل، فهو يرغب أن يضرب شيئاً ما، وكان هايبيل في طريق غضبه».

قال لي: «القدّيس بولس يقول للعبرانيين أن هايبيل كان مؤمناً».

قال صموئيل: «لا توجد إشارة إلى ذلك في سفر التكوين، لا إيمان ولا نقص في الإيمان. فقط لمحة عن مزاج قابيل».

سأل لي: «كيف تشعر السيدة هاملتون حيال مفارقات الكتاب المقدس؟»  
«إنها لا تشعر بأي شيء لأنها لا تعترف بوجود مفارقات».

«ولكن -»

«اصمت يا رجل. جرب أن تسألها. وستخرج أكبر سناً ولكن ليس أقل تشوشاً».

قال آدم: «أنتما درستما هذا. أما أنا فقد سمعت عنه ولم يعلق الكثير منه في ذاكرتي. ثم طُرد قابيل بتهمة القتل؟»  
«هذا صحيح - بسبب القتل».

«والرب وسمه بالعار؟»

«هل استمعت؟ حمّل قابيل العلامة ليس ليهلكه بل ليخلصه، وكانت اللعنة تنتظر أي رجل يفكر بقتله. لقد كانت علامة حافظة».

قال آدم: «لا أستطيع أن أتغلب على الشعور بأن قابيل حصل على النهاية الأصعب».

قال صموئيل: «ربما فعل. لكن قابيل عاش وأنجب أطفالاً، وهايبيل عاش فقط في القصة. نحن أبناء قابيل. أليس من الغريب أن يناقش ثلاثة رجال بالغين بعد آلاف السنين، هذه الجريمة كما لو أنها حدثت في كينغ سيتي بالأمس ولم يتم الحكم فيها؟»



استيقظ أحد الصغيرين وتثاءب وهو ينظر إلى لي وعاد للنوم مرة أخرى.  
قال لي، «هل تتذكر يا سيد هاملتون أنني أخبرتك أنني كنت أحاول ترجمة  
بعض الشعر الصيني القديم إلى الإنجليزية؟ لا تقلق. لن أقرأه لك. أثناء قيامي  
بذلك وجدت بعض الأشياء القديمة طازجة وواضحة مثل هذا الصباح. وتساءلت  
لماذا. بالطبع يهتم الناس بأنفسهم فقط، وإذا لم تكن القصة عن المستمع فلن  
يستمع. وأنا هنا أضع قاعدة - القصة الرائعة والدائمة تدور حول الجميع وإلا فهي  
لن تدوم. الغريب لا يثير اهتمام المستمع - فقط الشخصي والمألوف».  
قال صموئيل: «طبّق ذلك على قصة قابيل وهابيل».

قال آدم: «أنا لم أقتل أخي -» فجأة توقف وعاد ذهنه إلى الوراء في الوقت  
المناسب.

أجاب لي طلب صموئيل: «أعتقد أنني أستطيع فعل ذلك. أعتقد أن هذه  
القصة هي الأكثر شهرة في العالم لأنها قصة الجميع. أعتقد أنها قصة رمزية  
للروح البشرية. مازلت أتلمس طريقي في تفسير الأمر - فلا تنقض عليّ إذا لم  
أكن واضحاً. أكبر رعب يمكن أن يتعرض له الطفل هو ألا يشعر أنه محبوب،  
الرفض هو الجحيم الذي يخشاه. أعتقد أن كل شخص في العالم قد شعر  
إلى حد ما بالرفض، ومع الرفض يأتي الغضب، ومع الغضب تأتي الرغبة في  
الانتقام، فالجريمة والشعور بالذنب - وها هي قصة البشرية. أعتقد أنه إذا كنا  
قد تمكنا من بتر الرفض، فلم يكن الإنسان ليكون اليوم على ما هو عليه. ربما  
كان المجانين أقل. ومتأكد أنا من أنه لن يكون هناك الكثير من السجون. كل  
شيء يكمن هناك... في البداية.

أحدهم تراه يرفض الحب الذي يتوق إليه، يركل القلط ويخفي ذنبه  
السري؛ وآخر يسرق حتى يجعله المال محبوباً. وثالث يغزو العالم - ودائماً  
هناك الشعور بالذنب والرغبة بالانتقام والمزيد من الشعور بالذنب. الإنسان  
هو الحيوان الوحيد المذنب. مهلاً! أعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعل هذه

القصة القديمة والمخيفة مهمة لأنها مخطط للروح - الروح السرية المرفوضة والمدنبة. سيد تراسك، قلت إنك لم تقتل أخاك ثم تذكرت شيئًا. لا أريد أن أعرف ما هو، لكن هل هو بعيد عن قابيل وهابيل؟ ما رأيك في ثرثري الشرقية سيد هاملتون؟ أنت تعلم أنني لست شرقياً أكثر منك».

كان صموئيل قد استند على مرفقيه وغطى عينيه وجبهته: «أريد أن أفكر، اللعنة عليك، أريد أن أفكر. أريد أن أفكك هذا بمفردي لأرى أين الأخطاء. ربما تكون قد حطمت عالمي. ولا أعرف ما الذي يمكنني بناؤه مكانه».

قال لي بهدوء: «ألا يمكن بناء عالم من حقيقة مقبولة؟ ألا يمكن إيقاف بعض الآلام والجنون إذا أصبحت الأسباب معروفة؟»

«لا أعرف، اللعنة عليك. لقد زعزت كوني الجميل. لقد اخترت لعبة مثيرة للجدل وخلقته لها إجابة. دعني لوحدني - دعني أفكر! فأفكارك اللعينة بدأت بالفعل تلد صغارها في عقلي».

أوه، أتساءل كيف سيفكر ابني توم في هذا! سيضعه في راحة عقله ويبطئ عمل دماغه كشواء لحم الخنزير على النار. آدم، هيا الآن، لقد قضيت وقتاً طويلاً في أي ذكرى كانت هذه التي جرفتك».

تنهد آدم بعمق: «أليس الأمر بسيطاً جداً؟ أخشى دائماً الأشياء البسيطة».

قال لي: «الأمر ليس بسيطاً على الإطلاق. بل معقد للغاية. لكن في النهاية هناك نور».

قال صموئيل: «يمكنني التأكيد أنه لن يكون هناك ضوء لوقت طويل هنا، جلسنا وتركنا المساء يتسلل. قطعت هذه المسافة للمساعدة في تسمية التوأم ولم يتم تسميتهما. لقد بقينا نتأرجح على عمود. لي، من الأفضل أن تحافظ على تعقيداتك بعيداً عن الكنائس وإلا ستكون أول صيني يتم صلبه. إنهم يحبون التعقيدات لكنهم يحبون تعقيداتهم الخاصة. يجب أن أعود إلى المنزل».

قال آدم بيأس: «اقترح لي بعض الأسماء».  
«من الكتاب المقدس؟»  
«من أي مكان».

«حسنا فلنر. من بين كل الناس الذين انطلقوا من مصر جاء اثنان فقط إلى  
أرض الميعاد. هل تحبهم كرموز؟»  
«من هم؟»

«جوشوا وكَيْلب».<sup>(1)</sup>

«كان جوشوا جنديًا - جنرالًا. وأنا لا أحب التجنيد».  
«حسنًا، كَيْلب أيضاً كان نقيبًا».

«لكنه ليس جنرالًا. أحب نوعاً ما كَيْلب - كَيْلب تراسك».  
استيقظ أحد الصغيرين وبدأ في النحيب دون انقطاع.

قال صموئيل: «لقد دعيت به باسمه. أنت لا تحب جوشوا، وكَيْلب تم منحه  
اسمه. إنه الذكي. انظر الى الآخر، إنه مستيقظ أيضاً. حسنًا، لطالما أحببت  
أرون<sup>(2)</sup>، لكنه لم يصل إلى أرض الميعاد».

بدأ الصبي الثاني يبكي بنوع من الفرح. قال آدم: «هذا اسم جيد بما فيه  
الكفاية».

ضحك صموئيل: «في دقيقتين وبعد شلال من الأحاديث. كَيْلب وأرون -

---

(1) جوشوا هو يُوشعُ بنُ نُون؛ نبي وشخصية ذكرت في العهد القديم في سفر يشوع، وبعد وفاة  
موسى تسلم زمام قيادة بني إسرائيل طوال الحقبة التي تم فيها الاستيلاء على معظم أرض  
كنعان.

كَيْلب هو كالب بن يوفنا؛ أحد أصحاب النبي موسى وزوج أخته مريم وهو ثاني قائم بأمر  
بني إسرائيل بعد موت موسى.

(2) أرون هو هارون؛ نبي من أنبياء الله الذين يؤمن بهم أتباع العقائد اليهودية والمسيحية  
والإسلامية. عاش النبي هارون مع أخيه النبي موسى في مصر في عصر الفراعنة حسب  
العهد القديم والقرآن وفي الكتاب المقدس العهد القديم هو ابن عمران والأخ الأكبر  
لموسى ومريم ومنتزوج من إيشيفا وله أربعة أبناء.

الآن أنتما أناس وقد انضممتما إلى المنظمة البشرية ولديكما الحق في أن تشقيا».

أخذ لي الأولاد تحت ذراعيه: «هل يمكنك التعرف عليهما الآن؟».

قال آدم: «بالطبع هذا كيّلب وأنت آرون».

أخذ لي التوأم الصاخبين إلى داخل المنزل عند الغسق.

قال آدم: «بالأمس لم أستطع التفريق بينهما».

«آرون وكيّلب».

قال صموئيل: «نشكر الرب على تفكيرنا المتأني. ليزا كانت لتفضل جوشوا.

تحب تحطيمه لجدران أريحا. لكنها تحب آرون أيضاً، لذا أعتقد أن كل شيء على ما يرام. سأذهب وأوقف منصة الحفر الخاصة بي».

مشى آدم معه: «أنا سعيد لأنك أتيت، لقد أزحت ثقلاً هائلاً عني».

ثبت صموئيل سرج دوكسولوجي ورسن رقبتة: «ربما يمكنك الآن التفكير في الحديقة الموجودة في الأرض المسطحة، يمكنني تصوورها بالطريقة التي كنت تخطط لها».

استغرق آدم وقتاً طويلاً للإجابة وأخيراً قال: «أعتقد أنني أضعت هذه الطاقة ولم أعد أستطيع الشعور بها. لدي المال الكافي للعيش. لم أكن أرغب في فعل ذلك لنفسي. ليس لدي من أبنى له حديقة».

امتلأت عيون صموئيل بالدموع وصرخ قائلاً: «لا تظن أنها ماتت ولا تتوقع ذلك. هل أنت أفضل من الآخرين؟ أقول لك أن الطاقة تلك لن تموت إلا بموتك أنت». وقف يلهث للحظة ثم صعد إلى عربته وجلد دوكسولوجي وغادر وكتفاه محدودبان دون كلمة وداع.

## الجزء الثالث



كان آل هاملتون أناسًا غرباء ومتميزين، وبعضهم كان على مستوى عالٍ من الذكاء. يحدث هذا كثيرًا في العالم.

من بين كل بناته كانت أونا أعظم فرح لصموئيل. حتى عندما كانت طفلة صغيرة كانت تتوق للتعلم مثلما يتوق طفل للحصول على قطعة من الكعك في وقت متأخر بعد الظهر. كان بين أونا ووالدها تواطؤ سري فيما يتعلق بالتعلم واستعارة الكتب بسريّة، وقراءتها ونشر أسرارها بشكل خاص.

كانت أونا تحمل أقل روح دعابة من بين جميع الأبناء. التقت وتزوجت برجل أسود - رجل كانت أصابعه ملطخة بمواد كيميائية، غالباً نترات الفضة. كان واحداً من الرجال الذين يعيشون في فقر حتى يستمر سيل أسنلتهم. وكان سؤاله الأزلي مرتكزاً على التصوير. كان يعتقد أنه يمكن نقل العالم الخارجي إلى الورق - ليس بظلال الأشباح بالأبيض والأسود ولكن بالألوان التي تدركها العين البشرية.

كان اسمه أندرسون ويتقن القليل عندما يتعلق الأمر بموهبة التواصل، مثل معظم الفنيين، كان يزدري التكهّنات، والقفزات الاستقرائية لم تكن تلائمه. كان يحفر لخطوته التالية ثم يسحب نفسه، بالطريقة التي يتسلق بها الرجل آخر كتف جبل. كما كان لديه ازدياد شديد ناتج عن الخوف تجاه آل هاملتون، لأنهم جميعاً آمنوا أنهم يمتلكون أجنحة - وهذا تسبب لهم ببعض السقوط السيئ.

أندرسون لم يسقط، لم يتراجع، ولم يطر أبداً. خطواته المدروسة كانت دائماً تتحرك ببطء، وفي النهاية وصل إلى ما أراده دائماً - فيلم ملون. تزوج أونا، ربما لأنها كانت تحمل القليل من الفكاهة وهذا أمر مطمئن. ولأن عائلتها أخافته وأحرجته، أخذها بعيداً إلى الشمال، في مكان ما على حدود ولاية أوريغون. لا بد أنه كان يعيش حياة بدائية للغاية برفقة كل تلك القناني والأوراق.

كانت أونا ترسل رسائل كثيرة تفتقد الفرح ولكنها أيضاً بدون شفقة على الذات، تؤكد فيها أنها كانت بصحة جيدة وتأمل أن تكون عائلتها بخير، وكان زوجها على وشك بلوغ اكتشافه المثير.

ثم ماتت أونا، وشُحن جسدها إلى المنزل.

لم أعرف أونا قط، ماتت قبل أن تحفظها ذاكرتي، لكن جورج هاملتون أخبرني عن ذلك بعد سنوات عديدة بعينين مغرورتين وأنين حزين: «لم تكن أونا فتاة جميلة مثل موللي، لكنها كانت تتمتع بأجمل يدين وقدمين. كان كاحلاها نحيفين كما العشب ويتحركان أيضاً مثل العشب، أصابعها طويلة وأظافرها لوزية الشكل، وبشرتها كانت جميلة وشفافة ومتوهجة.

لم تضحك وتلعب مثل بقيتنا. كان هناك شيء مميز فيها. بدت دائماً وكأنها مستمتعة عندما كانت تقرأ، وكان وجهها يشبه وجه من يستمع إلى الموسيقى. وعندما نسألها عن أي موضوع، تجيب إذا كانت تعرف ذلك بشكل مباشر دون تنميقات الرابما والقد يكون، الخ - كما يفعل بقيتنا. جميعنا كان يحمل بعض الحماقات بعكس أونا. كان هناك نقاء محض في أونا.

ثم أحضروا جسدها إلى المنزل. كانت أظافرها مكسورة وأصابعها متشققة وباليلة. وقدماهما المسكيتان الغاليتان -»، لم يستطع جورج إكمال حديثه لفترة، ثم قال بشراسة رجل يحاول السيطرة على نفسه: «كانت أقدامها مشوهة بآثار الحصى والأشواك. لم تكن أقدامها العزيزة قد ارتدت الأحذية لفترة طويلة، وكان جلدها خشناً مثل الجلود الخام.



قال: «اعتقدنا أنه كان حادثاً بسبب وجود الكثير من المواد الكيميائية حولها».

لكن صموئيل كان يشعر أن الحادث الحقيقي هنا كان هو اليأس والألم. موت أونا ضرب صموئيل كما الزلزال الصامت. لم ينطق بأية كلمات موسية أو مطمئنة. جلس وحيداً وهو يتخلخل في مكانه، شعر أن إهماله هو ما أدى لذلك.

هنا فقط بدأت أنسجة جلده بالاستسلام للزمن، تلك الأنسجة التي حاربت الوقت بفرح. بشرته الفتية هرمت فجأة، وصفاء عيونه اختفى، وانكمشت أكتافه العريضة. ليزا تعاملت مع المأساة بقبولها؛ لم تكن تحمل على كل حال أملاً حقيقياً في هذا الجانب من الحياة. لكن صموئيل أقام جداراً من الضحك في وجه القوانين الطبيعية وموت أونا هدم أسواره، أصبح فجأة طاعناً في السن.

كان أبنائه الآخرون في حالة جيدة، جورج يعمل في مجال التأمين، وويل يزداد ثراء. انتقل جو إلى الشرق وكان يساعد في ابتكار مهنة جديدة تسمى الإعلان. كانت عيوب جو تُعتبر ميزات في هذا المجال حيث اكتشف أنه يستطيع بلوغ أحلام اليقظة المادية الخاصة به - عند تطبيقها بشكل صحيح، وهذا باختصار هو مجال الإعلانات. كان جو رجلاً ناجحاً في مجال جديد.

تزوجت الفتيات جميعهن، باستثناء ديسي، كان لديها مشروع خياطة ناجح في ساليانس. توم كان الوحيد الذي لم يبدأ طريقه.

أخبر صموئيل آدم تراسك أن توم كان بارعاً في النقاش. كان الأب يراقب ابنه ويشعر بكل مشاعره، الدوافع والمخاوف والتقدم والتراجع، لأنه كان يشعر بذلك كله في نفسه.

لم يكن توم يمتلك رهاقة والده أو وسامته. لكن كان يمكنك الشعور بقوته ودفئه ونزاهته الحديدية عندما تقترب منه. وتحت كل هذا كان هناك شاب

منكمش - منكمش وخجول. بإمكانه أن يكون بشوشاً مثل والده، وفجأة في المنتصف ينقطع كما ينقطع وتر الكمان، وحينها تراه يعود للتقلب في سوداويته. كانت بشرة وجهه داكنة. وجسده، ربما بسبب الشمس، كان بلون أسود محمرّ، كما لو كان يحمل الدماء الإسكندنافية. شعر رأسه ولحيته وشاربه كان أحمر أيضاً، وعيونه تبرق بلون أزرق مذهل على لون بشرته. كان شاباً قوياً، ثقيل الكتفين والذراعين، لكن بوركين نحيفين، بإمكانه الرفع والركض والمشي والركوب مع أي شخص، لكن لم يكن يحمل أي إحساس بالمنافسة على الإطلاق. كان ويل وجورج مقامرين وكثيراً ما حاولا إغراء أخيهما بمتعة المغامرة. كان توم يجيب: «لقد حاولت وشعرت أن الأمر مُرهق وفكرت في سبب هذا الإحساس. عندما أفوز لا أحقق انتصاراً كبيراً ولن تحدث مأساة عندما أخسر. بدون هاتين النتيجتين لا معنى لكل هذا. إنها ليست طريقة لكسب المال، ليس لنا، وما لم تكن قادرة على محاكاة الولادة والموت، أو الفرح والحزن - بالنسبة لي على الأقل - فهي لا تشعرني بأي شيء على الإطلاق. كنت سأستمر لو كنت قد شعرت بأي شيء - سواء كان جيداً أو سيئاً».

لم يفهم ويل هذا المنطق، فقد كانت حياته كلها تنافسية وقضى حياته منتقلاً من نوع إلى آخر من المقامرة. لقد أحب توم وحاول أن يمنحه الأشياء التي وجدها ممتعة. أخذه إلى العمل وحاول أن ينقل إليه متعة البيع والشراء والتفوق على الآخرين وخداعهم والقيام بالمناورات.

لكن توم دائماً ما عاد إلى المزرعة مشوشاً. لم يكن انتقادياً بل كان يشعر أنه فقد مساره في مكان ما، يجب أن يستمتع كما الآخرين بملذات التنافس، لكنه لم يستطع التظاهر بأنه فعل.

قال صموئيل إن توم كان دائماً يضع الكثير في طبقه، سواء كان ذلك طعاماً أو نساء. وسموئيل لطالما كان حكيماً، لكنني أعتقد أنه كان يرى جانباً واحداً فقط من توم. ربما أفصح توم بالمزيد للأطفال. ما سأحكيه عنه هو من خزينة

الذاكرة وما أعرف أنه حقيقي بالإضافة إلى التخمين المبني على تركيبته. من يدري ما إذا كان هذا سيكون صحيحًا؟

كنا نعيش في ساليناس ونعرف متى يصل الخال توم - كان يصل دائمًا في الليل - لأنه تحت وسائدنا؛ وسائدي ووسائد شقيقتي ماري، ستكون هناك عبوات من العلكة. وكانت العلكة ذات قيمة في تلك الأيام تضاهي قيمة النيكل. كانت تمر شهور لا يأتي فيها، ولكن كل صباح بمجرد أن نستيقظ كنا نتحسس بأيدينا تحت وسائدنا لنرى. ما زلت أفعل ذلك، وقد مرت سنوات عديدة منذ آخر مرة وجدت فيها عبوة علكة هناك.

لم تحب أختي ماري كونها فتاة، كانت هذه محنة لم تستطع الانسجام معها لأنها كانت رياضية ولاعبة كرات بلي ماهرة، وكانت البهرجة الأنثوية تمنعها من كل ذلك. بالطبع كان هذا قبل وقت طويل من ظهور تعويضات لها لكونها فتاة. تمامًا كما لو أنك قد تكتشف فجأة أن لديك في مكان ما في جسدك، ربما تحت الذراع، زر يسمح لك بالطيران إذا ما ضغطت عليه، قامت ماري بعمل طقوس سحر لنفسها على أمل أن تتحول إلى الولد القاسي الذي تريد أن تكونه. إذا تمددت بهذه الوضعية، وأثنت ركبتيها تمامًا، ووضعت رأسها في تلك الزاوية، وشبكت الأصابع بشكل متقاطع، ستكون عند استيقاظها في الصباح فتى. كانت تحاول كل ليلة العثور على التركيبة الصحيحة، لكنها لم تنجح.

كانت قد يئست من محاولاتها شبك أصابعها بشكل صحيح عندما وجدت علكة تحت وسادتها ذات صباح. كل واحد منا بدأ بفتح إصبع علكة ومضغها بشوق. كانت علكة ييمان بنكهة النعناع، ولم يتم صنع أي شيء بلذة هذه العلكة منذ ذلك الحين.

كانت ماري تلبس جواربها السوداء الطويلة المضلعة عندما قالت بارتياح كبير «بالطبع».

«بالطبع ماذا؟» سألتها.

«خالي توم» قالت وهي تمضغ علكتها وتصدر أصوات طقطقة.

«خالي توم ماذا؟».

«هو يعرف كيف يمكنني التحول إلى صبي».

ها هي التركيبة المثالية - بهذه البساطة. تساءلت لماذا لم أفكر في الأمر من قبل.

كانت أمي في المطبخ تشرف على عمل فتاة دنماركية صغيرة جديدة أتت للعمل لدينا. عملت لدينا سلسلة من الفتيات. كانت العائلات الدنماركية الوافدة حديثاً تقوم بإخضاع بناتها للخدمة في بيوت العائلات الأمريكية، ولم يتعلمن اللغة الإنجليزية فحسب، بل تعلمن أيضاً الطبخ الأمريكي وإعداد المائدة وآدابها وكل التفاصيل الصغيرة للحياة الراقية في ساليناس. في نهاية عامين من هذا التدريب، وبأجر لا يزيد عن اثني عشر دولاراً في الشهر، كانت الفتاة الدنماركية تتحول إلى زوجة مرغوبة ومطلوبة بقوة بالنسبة للشباب الأمريكي. فبالإضافة لإتقانهم للآداب والأعراف الأمريكية، كان بإمكانهم العمل مثل الخيول في الحقول. تنحدر بعض أكثر العائلات أنيقة في ساليناس اليوم من هؤلاء الفتيات.

كانت ماتيلد ذات الشعر الكتاني في المطبخ مع أمي التي تفرقع عليها كما دجاجة.

دخلنا عليها: «هل استيقظ؟»

«ششش! لقد وصل في وقت متأخر. دعوه ينام».

لكن صوت الماء الجاري كان يصلنا من حمام غرفة النوم الخلفية لذلك علمنا أنه كان مستيقظاً. جثينا كما القبط بالقرب من الباب في انتظار خروجه. كان هناك دائماً نوع من التحرُّج بيننا في البداية. أعتقد أن خالي توم كان

خجولاً مثلنا، ولطالما شعرتُ أنه أراد أن يركض ويرمي بنا في الهواء، لكن بدلاً من ذلك كنا جميعاً نتعامل برسمية.

«شكراً على العلكة خالي توم».

«يسعدني أنها تعجبك».

«هل يمكننا أن نتناول رغيف المحار في وقت متأخر من الليل أثناء وجودك

هنا؟»

«سنحاول بالتأكيد، إذا سمحت والدتكما بذلك».

انجرفنا إلى غرفة الجلوس وجلسنا. أتانا صوت أمي من المطبخ: «أتركاه

وشأنه».

«إنهما جيدان يا أولي» أجابها.

جلسنا في مثلث في غرفة المعيشة. كان وجه توم داكناً جداً وعيناه زرقاوين

جداً. كان يرتدي ملابس جيدة لكنه لم يبدأ أبداً حسن الملبس.

في هذا الجانب كان مختلفاً تماماً عن والده. لم يكن شاربه الأحمر أنيقاً أبداً

ولم يكن شعره مسترسلاً وكانت يداه متعبتين من العمل.

سألته ماري: «خالي توم، كيف يصبح المرء ولدًا؟»

«كيف؟ المرء يولد بصفته ولد».

«لا، ليس هذا ما أعنيه. أقصد كيف أصبح صبيًا؟» تأملها توم بجدية:

«أنت؟» سألها.

انهمرت كلماتها بانفعال: «أنا لا أريد أن أكون فتاة يا خالي توم. أريد أن

أكون ولدًا. الفتيات لا اهتمامات لديهن سوى الدمى والتقبيل. لا أريد أن أكون

فتاة. لا أريد». امتلأت عيني ماري بدموع غاضبة.

نظر توم إلى يديه وجذب برفق بظفره المكسور قطعة من الجلد الميت.

بدا أنه يستعد لقول شيء جميل. أعتقد أنه تمنى لو امتلك كلمات مثل كلمات والده، كلمات حلوة مجنحة وذات هديل مرهف. قال: «لم أكن لأتمنى أن تكوني صبيًا».

«ولم لا؟»

«أنت تعجبيني كفتاة».

تحطم صنم في هيكل ماري. «هل تقصد أنك تحب الفتيات؟»

«نعم ماري، أحب الفتيات كثيرًا».

عبرت نظرة نفور على وجه ماري. إذا كان هذا صحيحًا، فقد كان توم أحمقًا. انتقلت ماري إلى نبرة - لا تخاطبني بتلك الحماسة - وقالت: «حسنًا، لكن كيف يمكنني أن أصبح صبيًا؟»

توم كان مستمعًا جيدًا. كان يعلم أن صورته باتت تترنح في تقدير ماري، وأراد منها أن تحبه وتعجب به. لكنه في نفس الوقت كان سلكاً فولاذياً دقيقاً من الصدق الذي يقطع رؤوس الأكاذيب السريعة. نظر إلى شعر ماري الفاتح جداً لدرجة أنه كان أقرب للبياض، والمضفور بإحكام بعيداً عن وجهها، والمتسخة نهاياته، لأن ماري مسحت يديها على جديلتها بينما كانت تلعب بكرات البلي الزجاجية. تأمل توم عينيها الباردة والعدائية.

«لا أعتقد أنك تريدين التغيير حقًا».

«بل أريد ذلك».

كان توم مخطئًا - كانت تريد ذلك حقًا.

قال: «في الواقع لا يمكنك فعل هذا. وستكونين سعيدة بذلك يوماً ما».

قالت ماري: «لن أفرح»، والتفتت إلي وقالت بازدرأ شديد: «إنه لا يعرف!»

جفل توم. وأنا ارتعدت من ضخامة تلك التهمة. كانت ماري أكثر شجاعة وصرامة من معظم الناس. لهذا السبب فازت بكل ألعاب البلي في ساليناس.

قال توم بانزعاج: «إذا وافقت والدتكما سأطلب رغيف المحار هذا الصباح وأذهب لإحضاره الليلة».

قالت ماري «أنا لا أحب أرغفة المحار»، وتوجهت إلى غرفتنا وأغلقت الباب.

نظر توم وراءها بحزن: «من الواضح انها فتاة».

أصبحنا وحدثنا وشعرت أنه يجب عليّ معالجة الجرح الذي أحدثته ماري. قلت: «أنا أحب أرغفة المحار».

«متأكد من أنك تفعل. وكذلك ماري».

«خالتي توم، ألا تعتقد أن هناك طريقة ما لتكون ولدًا؟» قال بحزن: «لا، لا أعتقد. كنت سأخبرها لو كنت أعرف. إنها أفضل لاعبة في ويست إند».

تنهد توم ونظر إلى يديه مرة أخرى، واستطعت أن أرى شعوره بالفشل جلياً، وكنت أشعر بالأسف والألم له. أحضرت له سداة الفلين المجوفة والتي قمت بتثبيتها بدباييس في الأسفل لتكون قضباناً «هل ترغب في الحصول على قفص الذباب الخاص بي يا خالتي توم؟»

أوه، كم كان رجلاً نبيلاً «هل تود أن أحصل عليه؟»

«نعم. أنظر، عليك أن تسحب دبوساً لإدخال الذبابة ثم تبقى هناك وتصدر طنيناً».

«أود جداً أن أحصل عليه. شكراً لك جون».

بقي يعمل طوال اليوم بسكين جيب صغير حاد على قطعة صغيرة من الخشب، وعندما عدنا إلى المنزل من المدرسة كان قد نحت وجهها صغيراً. كانت العينان والأذنان والشفتان متحركة، وكانت هناك قصبات صغيرة مربوطة بها من داخل الرأس المجوف، وفي أسفل العنق كان هناك ثقب مغلق بسداة من الفلين، وهذا كان رائعاً جداً؛ تصطاد ذبابة وتممرها من خلال الفتحة

وُترجِع سداة الفلين، وفجأة يصبح الرأس متحركاً؛ العيون تتحرك والشفاه تتكلم والأذنان يهتران بينما ترحف الذبابة المحمومة فوق القصبات الصغيرة. حتى ماري سامحته قليلاً، لكنها لم تثق به بحق إلا بعد فترة من الزمن عندما شعرت بالسعادة لأنها كانت فتاة، وحينها كان قد فات الأوان. لم يعطِ الرأس لي وحدي بل لنا. ما زلت أحتفظ به في مكان ما.. وما زال يعمل.

كان توم يصطحبني أحياناً إلى صيد السمك. نخرج قبل أن تشرق الشمس ونتوجه نحو قمة فريمونت، وفي الوقت الذي نقرب فيه كانت النجوم قد تلاشت والضوء غمر الجبال. أتذكر كيف كنتُ ألتصق بمعطف توم، تضميني ذراعه ويده تربت على ذراعي من حين لآخر. كنا نتوقف تحت شجرة بلوط لنسقي الحصان على جانب النهر. لا أتذكر أن توم تحدث قط ونحن في الطريق. الآن عندما أفكر في الأمر، لا أستطيع حتى تذكر نبرة صوته أو نوع الكلمات التي استخدمها. أستطيع أن أتذكر كلا الأمرين عن جدي، لكن عندما أفكر في توم فهي ذكرى من الصمت الدافئ. ربما لم يكن يتحدث على الإطلاق. كانت لدى توم معدّات صيد جميلة، لكن لم يكن يهتم إذا ما اصطدنا السلمون المرقط أم لا. لم يكن بحاجة إلى الانتصار على الحيوانات. أتذكر السراخس ذات الأصابع الخمسة التي كانت تنمو تحت الشلالات الصغيرة وتمايل بأصابعها الخضراء بينما يتقاطر عليها رذاذ الماء. أتذكر روائح التلال وشجيرات الأزالية والظربان والترمس الحلو وعرق الحصان على اللجام. أتذكر الرقص الجميل للصقور العالية في السماء وكيف كان توم ينظر إليها طويلاً، لكن لا يقول أي شيء عنها.

أتذكر أنني كنت أمسك بعقدة الحبل بينما توم يدير الأوتاد ويجدلها. أتذكر رائحة السرخس المسحوق في الأحبولة والرائحة المميزة لسلمون قوس قزح الطازج الملقى بشكل جميل على الفراش الأخضر. وأخيراً أتذكر عودتي إلى عربة الحفّارة وسكب الشعير في كيس الغذاء الجلدي وتعليقه فوق رأس



الحصان، خلف أذنيه.. ولا شيء في أذني من نبرة صوته ولا كلامه. إنه حالك وصامت ودافئ للغاية في ذاكرتي.

كان توم يشعر بسوداويته مقارنة بوالده الذكي والوسيم، كانت والدته امرأة قصيرة وإيمانها مطلق لا يتزعزع. كان لكل من إخوته وأخواته ميزات أو مظاهر جميلة أو ثروات. أحب توم كل منهم بشغف، لكنه شعر دائماً بأن هناك ما يثقله ويربطه بالأرض. منتشياً صعد الجبال وتعثر بين قممها الصخرية. كانت لديه اندفاعات من الشجاعة لكنها تتراجع وهي محاصرة بالجبن.

قال صموئيل إن العظمة كانت تُرَجِف توم بينما يحاول أن يقرر ما إذا كان يمكنه تحمل المسؤولية. عرف صموئيل طبيعة ابنه وشعر باحتمال تسلل العنف إليه وأخافه ذلك لأن صموئيل لم يكن يؤمن بالعنف - حتى عندما ضرب آدم تراسك بقبضته، لم يفعل ذلك بعنف.

ثم هناك الكتب التي كانت - بعضها سراً - تدخل منزلهم، بينما كان صموئيل يدخل الكتاب برفق ويوازن بسعادة بين الأفكار بالطريقة التي يجذب بها الرجل زورقه في التيارات النهرية السريعة. كان توم يدخل الكتاب زاحفاً ومتأرجحاً بين الأغلفة، يحفر الأنفاق بين الأفكار، ويخرج من الكتاب على وجهه ويديه. كان يتوق إلى النساء بخجل وغضب وفي نفس الوقت، لأنه لم يكن يشعر أنه يستحق امرأة. لفترات طويلة كان يحاول لجسم نفسه ويتخبط في تبتله الذي يجعله يعوي، ثم يأخذ قطاراً إلى سان فرانسيسكو ويتمرغ في النساء، ويعود بصمت بعدها إلى المزرعة، يشعر بالضعف وعدم الرضا وعدم الجدارة، وكان يعاقب نفسه بالعمل، يحرق ويزرع أرضاً غير مربحة، ويقطع خشب البلوط القاسي حتى يشعر بأن ظهره سينكسر، ويدها أصبحتا خرقاً منهكة.

يحتمل أن والده وقف يوماً بينه وبين الشمس وسقط ظل صموئيل عليه. فقد كان توم يكتب الشعر سراً، وفي تلك الأيام كان من المنطقي إبقاء هكذا موهبة سراً. فقد كان الشعراء شخصيات محتقرة في الغرب وكان الشعر من

أعراض الضعف والانحلال. ويتم الاشتباه فيمن يكتبه ويصبح منبوذاً. كان الشعر رذيلة سرية. لا أحد يعرف ما إذا كان شعر توم جيداً أم لا، لأنه عرضه على شخص واحد فقط وقبل وفاته أحرق كل كلمة. لا بد أن هناك قدراً كبيراً منه تحت رماد الموقد.

من بين جميع أفراد عائلته، أحب توم دي سي أكثر من أي فرد. كانت مختلفة والضحك مقيم على عتبة بابها. كان متجرها مؤسسة فريدة في ساليناس، عالم مخصص للمرأة، تراجعت فيه كل القواعد والمخاوف التي أوجدت القوانين والقيود الحديدية.

كان الباب مغلقاً في وجه الرجال لأنه كان ملاذاً يمكن فيه للنساء أن تكنّ على طبيعتهن - بروائحهن، فجورهن، غموضهن، غرورهن، صدقهن، واهتماماتهن الحقيقية. هناك خلعت الكورسيهات المصنوعة من عظام الحوت، الكورسيهات المقدسة التي كانت تشكّل وتشوّه لحم المرأة لتجعلها إلهة. في متجر دي سي كانت النساء يفرطن في الأكل وفي المرحاض يطلقن الريح دون خجل، ومن هذه الحرية ارتفع صوت الضحك وزئيره.

كان بإمكان الرجال سماع الضحك من خلال الباب المغلق وكانوا يخشون مما كان يحدث خلفه، وربما شعروا أنهم كانوا المؤخرة التي تدفعهن الى هذا الضحك، الأمر الذي كان إلى حد كبير صحيحاً.

ما زال بإمكانني تذكر الخالة دي سي إلى هذه اللحظة، نظارتها الأنفية الذهبية تتأرجح على أنفها وعيونها التي تتدفق بدموع الضحك، وملامح وجهها بالكامل متشنجة من الضحك. كان شعرها ينزل وينحرف بين نظارتها وعينيها عندما تضحك بشدة، وتسقط النظارات من على أنفها وتدور وتتأرجح في نهاية الشريط الأسود.

كانت النساء إذا ما أردن طلب فستان من دي سي تفعلن ذلك قبل شهر، وتقمّن بعشرين زيارة لمتجرها قبل اختيار الخامة والتفصيل المطلوب. لم

يحدث شيء صحي لساليناس مثل متجر ديسي. فقد كان للرجال مساكنهم ونواديبهم وبيوت الدعارة الخاصة بهم، بينما النساء لم يكن لهن سوى نقابة الكنيسة والتودد للقس إلى أن أتت ديسي.

ثم وقعت خالتي ديسي في الحب. لا أعرف أية تفاصيل عن علاقتها الغرامية تلك - من كان الرجل وما هي الظروف، وسواء كان السبب هو الدين، أو زوجة أخرى على قيد الحياة، أو مرض، أو أنانية، أعتقد أن والدتي كانت تعلم، إلا أنها كانت واحدة من تلك الأشياء التي تم وضعها في خزانة العائلة ولم يتم التطرق لها أبداً. وإذا كان هناك آخرون في ساليناس علموا بالأمر فلا بد أنهم أبقوه سراً. كل ما أعرفه هو أنه كان شيئاً ميوّساً منه وفضيح. بعد عام من ذلك، هجر الفرح ديسي ولم نعد نلمح الضحك على تقاسيم وجهها.

كان غضب توم مجنوناً وموجعاً له بحيث هرب الى التلال كما أسد يعاني من آلام غير محتملة. في إحدى الليالي ودون أن ينتظر صباح اليوم التالي أخذ حصانه وغادر إلى ساليناس. تبعه صموئيل وأرسل برقية من كينغ سيتي إلى ساليناس.

وعندما وصل توم في الصباح بوجهه المسود وهو يحفز حصانه المنهك القوى في شارع جون في ساليناس، كان العمدة في انتظاره. أخذ منه سلاحه ووضع في زنزانه وقدم له القهوة السوداء والبراندي حتى جاء صموئيل من أجله.

لم يحاضر صموئيل توم. أخذه فقط إلى المنزل ولم يذكر الحادث أبداً، وقع سكون على منزل آل هاملتون.

## 2

في عيد الشكر عام 1911 اجتمعت العائلة في المزرعة، جميع الأبناء باستثناء جو الذي كان في نيويورك، وليزي التي تركت العائلة وانضمت إلى

عائلة أخرى، وأونا التي ماتت. وصلوا محمّلين بهدايا وطعام أكثر مما يمكن أن تأكله هذه العشيرة. لقد تزوجوا جميعًا باستثناء دي سي وتوم. ملأ أطفالهم منزل آل هاملتون بصخب وفوضى وضوضاء أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى. كان الأطفال يبكون ويصيحون ويتعاركون. قام الرجال برحلات عديدة إلى ورشة الحدادة وعادوا وهم يمسحون شواربهم.

أصبح وجه ليزا المستدير الصغير أكثر احمرارًا. موقد المطبخ لم ينطفئ. كانت الأسرة ممتلئة، والأرض مفروشة بالوسائد واللحاف للأطفال.

نبش صموئيل بهجته القديمة. توهج عقله الساخر واتخذ حديثه إيقاعه الغنائي القديم. تمسك بالكلام والغناء والذكريات، ثم مضى الوقت حتى وصل منتصف الليل، ف شعر بالتعب، وذهب إلى سريره حيث كانت ليزا قد ذهبت منذ ساعتين. كان يشعر بالحيرة في نفسه، ليس لأنه مضطر إلى النوم بل لأنه يريد ذلك.

عندما غادر الأب والأم، أحضر ويل الويسكي وعقد الأبناء اجتماعًا في المطبخ مع تمرير الويسكي في أكواب جيلي مستديرة القاع. تسللت الأمهات إلى غرف النوم لتفقد الأطفال وتغطيهم ثم عدن. تحدثوا جميعًا بهدوء حتى لا يزعجوا الأطفال وكبار السن. كان هناك توم وديسي. جورج وزوجته الجميلة مامي والتي كان اسمها قبل الزواج ديمبسي. ومولي وزوجها ويليام جيه مارتن. وأوليف وزوجها إرنست شتاينبك. وويل وزوجته ديلا.

أرادوا جميعًا أن يقولوا نفس الشيء، جميعهم. صموئيل أصبح مستأ. كان اكتشافًا مذهلاً مثل الرؤية المفاجئة لشبح. بطريقة ما لم يصدقوا أنه أمر ممكن الحدوث. شربوا الويسكي وتحدثوا بهدوء عن الفكرة الجديدة.

كتفاه - هل رأيتم كيف انكمشا؟ وليس هناك نشاط نابض في خطواته كما قبل.

أصبح يجرد قدميه قليلاً، لكن ليس هذا هو الأمر - بل عيناه. أصبحت عيناه مستتين.

لم يكن ينام قبل أجدنا.

هل لاحظتم أنه نسي ما كان يقوله في منتصف تلك القصة؟

جلده أصبح مجعداً، وظاهر يديه أصبح شفافاً، وأصبح يفضل رجله اليمنى.

نعم، ولكنها الساق التي كسرهما الحصان. أعلم، لم يكن يفضلها من قبل.

كانوا يتحدثون عن هذه الأشياء بانفعال. وكأنهم يقولون إن هذا لا يمكن

أن يحدث. لا يمكن أن يصبح الأب رجلاً عجوزاً. صموئيل يافع ونابض مثل

الفجر - الفجر الدائم.

ربما يشيخ كمنتصف النهار، ولكن أن يصبح كالمساء والليل؟ يا إلهي، لا!

كان من الطبيعي أن تتقاذف الأفكار في أذهانهم وترتد، وألا يتحدثوا عنها،

لكن عقولهم كانت ترفض فكرة أن يكون هناك عالم دون صموئيل.

كيف يمكننا التفكير في أي شيء دون معرفة رأيه فيه؟

ماذا سيكون شكل الربيع، أو عيد الميلاد، أو المطر؟ لا يمكن أن يكون

هناك عيد ميلاد.

انكشفت عقولهم بعيداً عن مثل هذا التفكير وبحثوا عن ضحية؛ شخص

يؤلموه لأنهم كانوا يشعرون بالألم. توجهوا الى توم.

أنت كنت هنا. لقد كنت هنا طوال الوقت!

كيف حدث هذا؟ متى حدث ذلك؟

من فعل هذا به؟

هل فعلت هذا بأي حال من الأحوال بنوبات جنونك؟

كان بإمكان توم أن يتحمل ذلك لأنه كان بالفعل معه. قال بصوت أجش:

«إنها أونا. لم يستطع التغلب على حزنه على أونا. لقد أخبرني أنه ليس من حق الرجل، الرجل الحقيقي، أن يترك الحزن يدمره. أكد مرارًا على وجوب السماح للوقت بالاهتمام بالأمر، قال ذلك كثيرًا لدرجة أنني عرفت أنه خسر».

«لماذا لم تخبرنا؟ ربما كان بإمكاننا فعل شيء ما».

انتفض توم، عنيقًا ومرتجفًا «اللعنة! ماذا كان هناك ليقال؟ أنه كان يموت حزنًا؟ أن نخاع عظامه قد ذاب من شدة حزنه؟ ماذا كان هناك ليقال؟ لم تكونوا هنا، أنا من كان عليه أن ينظر إليه كل يوم ويرى عينيه تموتان - اللعنة». خرج توم من الغرفة وسمعوا أقدامه المتعرجة تفرع الأرض الصخرية بالخارج. كانوا يشعرون بالخجل. قال ويل مارتن: «سأخرج وأعيده».

«لا تفعل» قال جورج بسرعة، وأوماً الآخرين موافقين «لا تفعل ذلك. دعه وحده».

بعد قليل عاد توم وقال: «أريد أن أعتذر. أنا آسف جداً. ربما أنا في حالة سكر. يسميها أبي «حالة المرح». في إحدى الليالي عدت إلى المنزل - كان اعترافاً - «مترنحًا عبر الفناء ووقعت في شجيرة الورد وزحفت صعودًا على الدرج على يدي وركبتي وكنت أشعر بالغثيان وتمددت على الأرض بجانب سريري. في الصباح حاولت أن أقول له إنني آسف، وهل تعرفون ما قاله؟ «لماذا يا توم، كنت تمرح فحسب». لم أكن في نظره رجلاً مخموراً يزحف إلى المنزل. كنت فقط في حالة «مرح».

أوقف جورج التدفق الجنوني للكلام. قال: «نريد أن نعتذر لك يا توم، بدا وكأننا نلومك ولم نكن نعني ذلك. أو ربما كنا نعني ذلك. ونحن آسفون».

قال ويل مارتن: «الحياة هنا صعبة للغاية. لماذا لا نجعله يبيع هذا المكان وينتقل إلى المدينة؟ يمكن أن يعيش حياة طويلة وسعيدة. سيسعدنا أنا ومولي أن يأتيا للعيش معنا».

قال ويل: «لا أعتقد أنه سيقبل بذلك، إنه عنيد كبغل وفخور بنفسه كحصان. لديه فخر يشبه النحاس».

قال إرنست، زوج أوليف: «حسنًا لا ضير من السؤال. سيسعدنا أن يقيما معنا».

ثم التزموا الصمت مرة أخرى، لأن فكرة عدم امتلاك المزرعة والصحراء الجافة والتلال الحجرية غير المربحة كانت صادمة أيضاً بالنسبة لهم.

أصبح ويل هاملتون بسبب الغريزة القوية بالإضافة إلى تخصصه في مجال الأعمال قارئاً جيداً للدوافع المختلفة العمق لدى الرجال والنساء. قال: «إذا طلبنا منه إغلاق الورشة فسيكون الأمر وكأننا نطالبه بإنهاء حياته وهو لن يفعل ذلك».

وافق جورج «أنت على حق يا ويل، سيشعره الأمر أنه جبان. لا؛ لن يترك هذا المكان أبداً، وإذا فعل فلا أعتقد أنه سيعيش أسبوعاً».

قال ويل: «هناك طريقة أخرى. ربما يمكن أن يأتي للزيارة. يمكن لتوم إدارة المزرعة. حان الوقت لأن يرى أبي وأمي شيئاً من العالم. هناك الكثير الذي يحدث في الخارج، هذا سوف ينعشه، وبعد ذلك يمكنه العودة إلى المنزل والعمل مرة أخرى. وبعد فترة ربما لن يضطر إلى ذلك».

أبعدت ديسي خصلة من الشعر عن عينيها: «هل حقاً تعتقد أنه بهذا الغباء». وقال ويل من واقع تجربته: «أحياناً يريد الرجل أن يكون غيباً إذا كان الغباء سيسمح له بفعل شيء يمنعه منه ذكاؤه. يمكننا تجربة الأمر بكل حال. ما رأيكم؟»

كانت هناك إيماءة برؤوس كل المتواجدين، وكان توم وحده الذي جلس ثابتاً كما صخرة.

«توم، ألا ترغب في تولي عمل المزرعة؟» سأله جورج.

قال توم: «أوه، هذا لا شيء»، لا توجد مشكلة في إدارة المزرعة لأنه ببساطة ليس هناك عمل ليُدار في المزرعة - ولم يكن قط». «إذن لماذا لا توافق؟»

قال توم: «لا أريد إهانة والدي. سيشعر بهذا، ولكن لا ضرر من اقتراح ذلك»

فرك توم أذنه حتى بدا وكأن الدم سيخرج منها وخلال لحظة عادت بيضاء. قال: «أنا لا أمنعكم، لكن لا يمكنني المشاركة في فعل ذلك».

قال جورج: «يمكننا كتابتها في رسالة - نوع من الدعوة، ونملأها بالملاحظات. نخبره فيها أنه عندما يسأم من أحدنا يمكنه الذهاب إلى آخر. وستكون لديه سنوات من الزيارات لنا»، وتُرك الأمر هنا.

### 3

أحضر توم رسالة أوليف من كينغ سيتي، ولأنه كان يعلم ما تحتويه انتظر حتى يجد صموئيل وحده قبل أن يعطيه إياها. كان صموئيل يعمل في الورشة ويداه سوداوان. أخذ المغلف من زاوية صغيرة ووضعها على السندان، ثم قام بفرك يديه في برمبل من الماء الأسود الذي غرق فيه الحديد الساخن. فتح الرسالة وخرج إلى ضوء الشمس لقراءته. قام توم بإخراج العجلات ودهن محاورها بشحم المحاور الأصفر بينما يراقب والده من زوايا عينيه.

أنهى صموئيل الخطاب ولفه وأعادته إلى مغلفه. جلس على المقعد أمام ورشته وحدق في الفضاء. ثم فتح الرسالة وقرأها مرة أخرى وطواها من جديد ووضعها في جيب قميصه الأزرق. ثم رآه توم يقف ويتمشي ببطء إلى أعلى التل الشرقي وهو يركل الصوان على الأرض.

تساقط مطر قليل في الأيام السابقة وبدأ ظهور القليل من العشب البائس.



في منتصف الطريق جلس صموئيل على الأرض ورفع حفنة من تراب الأرض القاسية في راحة يده ونشرها بسبابته، توليفة من صوان وحجر رملي وجذور ضئيلة وحجر معرق. تركها تفلت من يده ونظف كفيه. التقط قطعة من العشب وضعها بين أسنانه وحدق إلى أعلى التل نحو السماء. كانت سحابة عصبية رمادية تنطلق باتجاه الشرق بحثاً عن أشجار تمطر عليها.

نهض صموئيل وعاد إلى أسفل التل. نظر إلى سقيفة الأدوات وتوقف بالقرب من توم وقام بتدوير إحدى عجلات عربة رباعية العجلات. نظر إلى توم كما لو أنه يراه للمرة الأولى. قال «لقد أصبحت رجلاً بالغاً».

«ألم تعلم بهذا؟»

قال صموئيل «أعتقد أنني فعلت - أعتقد أنني أفعل». كانت تعتلي وجهه تلك النظرة الساخرة التي تعرفها عائلته جيداً - النكتة التي يلقيها على نفسه وتجعله يضحك داخلياً. سار بجوار الحديقة الصغيرة الحزينة وفي أنحاء المنزل الذي لم يعد منزلاً جديداً. حتى آخر الغرف المضافة كانت قد أصبحت قديمة ومتهالكة، والمعجون حول زجاج النوافذ تقلص بعيداً عن الزجاج.

عند الشرفة استدار وتفحص المزرعة بالكامل قبل أن يدخل إلى المنزل.

كانت ليزا تمد عجينة الفطيرة على لوح الدقيق. كانت خبيرة جداً في استخدام الشوبك لدرجة أن العجين كان يبدو وهو بين يديها وكأنه على قيد الحياة. رفعت ليزا العجينة الناصعة ووضعتها فوق إحدى أواني خبز الفطائر وشذبت الحواف بالسكين. وبقربها وعاء يغفو فيه التوت في العصير الأحمر.

جلس صموئيل على كرسي المطبخ وعقد رجله ونظر إليها. كانت عيناه تبتسمان.

«ألا يمكنك أن تجد شيئاً لتفعله في هذا الوقت من اليوم؟» سأله.

«أوه، أعتقد أنني أستطيع يا أمي إذا أردت ذلك».

«حسناً إذاً، لا تجلس هناك وتوترني. الصحيفة في الغرفة الأخرى إذا كنت تشعر بالكسل في النهار».

قال صموئيل: «لقد قرأتها».

«كلها؟»

«كل ما أردت قراءته»

«صموئيل ما خطبك؟ أنت على وشك قول شيء ما. أستطيع أن أرى ذلك في وجهك. قله الآن ودعني أكمل تحضير فطائري».

قام بهز ساقيه وابتسم لها: «يا لهذه الزوجة الصغيرة، ثلاثة منها بالكاد يصلن لحجم قضة».

«صموئيل، توقف الآن عن هذا! لا أمانع بملاطفاتك في المساء بين حين وآخر، لكنها لم تبلغ الساعة الحادية عشرة. هيا الآن، اذهب من هنا».

قال صموئيل: «ليزا، هل تعرفين معنى الكلمة الإنجليزية «عطلة»؟

«توقف عن إطلاق النكات في هذا الوقت».

«هل تعرفين معناها يا ليزا؟»

«بالطبع. لا تعاملني وكأنني حمقاء».

«ماذا تعني؟»

«الذهاب إلى البحر أو الشاطئ لنيل قسط من الراحة. والآن يا صموئيل، اخرج من هنا أنت وألعيك».

«أتساءل كيف تعرفين هذه الكلمة».

«هل ستخبرني عم تبحث؟ لماذا لا تخبرني ما يحدث؟»

«هل استمتعت يوماً باجازة، ليزا؟»

«أنا - «توقفت».

«خلال خمسين عامًا، هل حصلتِ يوماً على إجازة، أيتها الزوجة القزمية،  
السخيفة، الصغيرة، الضئيلة؟»

«صموئيل، أخرج من مطبخي من فضلك».

أخرج الرسالة من جيبه وفتحها: «إنها من أولي. تريدنا أن نذهب ونزور  
ساليناس. لقد أصلحوا غرف الطابق العلوي في منزلهم. تريدنا أن نتعرف على  
الأطفال أكثر، لقد حصلت لنا على تذاكر لموسم تشوتوكوا<sup>(1)</sup>. سيصارع بيلي  
صنداي<sup>(2)</sup> الشيطان وسيلقي المبرر بريان خطابه على صليب الذهب. أود أن  
أسمع ذلك، إنه خطاب غبي قديم لكن يقال إنه يلقيه بطريقة تحطم القلب».  
فركت ليزا أنفها الذي أصبح بلون الطحين: «هل هو مكلف للغاية؟» سألت  
بقلق.

(1) «تشوتوكوا» في الأصل كلمة إيروكوايية ذات معانٍ متعددة منها «حقيبة مربوطة في  
المنتصف» أو «حذاءان مربوطان معًا». تصف الكلمة شكل بحيرة تشوتوكوا الواقعة في  
جنوب غرب نيويورك والتي كانت مكانًا بدأت منه هذه المؤسسة التي أصبحت حركة  
مهمة في مطلع القرن العشرين.

في عام 1874، استأجر جون هيل فينسينت ولويس ميلر الموقع لاستخدامه كمدرسة  
صيفية لمعلمي مدرسة الأحد. ثم أصبح المعسكر معروفًا باسم مؤسسة تشوتوكوا وتلقى  
اهتمامًا على مستوى الأمة. كانت حركة اجتماعية لتعليم الكبار وحظيت بشعبية كبيرة في  
أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث جلبت الترفيه والثقافة للمجتمع  
بأسره، باستقبال وتقديم العروض والمعلمين والموسيقيين والخطباء وغيرهم.

(2) بيلي صنداي (1862 - 1935)، هو لاعب بايسبول ومبشر أمريكي. كان بارعًا وشغوفًا  
للغاية عندما يتعلق الأمر بلعب البيسبول. لكن ما أدهش معجبيه حول العالم كان تبنيه  
المفاجئ للمسيحية الإنجيلية في القرن العشرين وانحرافه النهائي عن الرياضة التي أحبها  
كثيرًا. ليتحول إلى مبشر ديني. تم الاحتفاء به لخطبه الدرامية ومهاراته الخطابية المحمومة.  
واستطاع جذب آلاف المتابعين من جميع أنحاء الولايات المتحدة، وخلال مسيرته  
الطويلة وعظ لأكثر من مليون شخص وجها لوجه وعلى الرغم من أن شعبيته تضاءلت  
في السنوات الأخيرة من حياته، إلا أنه ما زال يعتبر واحدًا من أكثر الإنجيليين الأمريكيين  
نفوذًا.

«مكلف؟ لقد اشترت أولي التذاكر بالفعل؛ إنها هدية».

قالت ليزا: «لا يمكننا الذهاب، من سيدير المزرعة؟»

«توم سيفعل - ما الإدارة التي تحتاجها المزرعة في الشتاء بكل حال؟»

«سيكون وحيداً».

«ربما يأتي جورج ويبقى بعض الوقت ويذهبان لصيد السمان. انظري ماذا

يوجد في الرسالة يا ليزا».

«ما هذا؟»

«تذكرتان إلى ساليناس في القطار. تقول أولي إنها لن تسمح لنا بالرفض».

«يمكنك إرجاعها وإعادة الأموال لها»

«لا، لا أستطيع. لماذا يا ليزا - أمي - لا تفعلين هذا الآن. هاك منديل».

قالت ليزا: «هذه منشفة أطباق».

«اجلسي هنا يا أمي. أعتقد أن صدمة أخذ قسط من الراحة قد أربكتك.

تفضلي! أنا أعلم أنها منشفة أطباق. يقولون إن يبلي صنداي يجر الشيطان على

المنصة».

قالت ليزا: «هذا كفر».

«لكني أود أن أراه، ألا تريد ذلك؟ ماذا قلت؟ ارفعي رأسك. لم

اسمعك. ماذا قلت؟»

قالت ليزا: «قلت نعم»

كان توم يرسم عندما جاء إليه صموئيل. نظر توم إلى والده بنظرات خفية

محاولاً معرفة تأثير رسالة أوليف.

نظر صموئيل إلى الرسم «ما هذا؟»

«أحاول أن أصمم فاتح بوابة حتى لا يضطر الرجل إلى الخروج من الحفارة.

هذا قضيب لفتح المزلاج».

«وما الذي سيفتحه؟»

«كنت أفكر في نابض قوي».

درس صموئيل الرسم». إذن ما الذي سيغلقه؟»

«هذا القضيبي هنا. سوف ينزلق إلى هذا النابض مع الدفع في الاتجاه الآخر».

قال صموئيل: «نعم، قد ينجح الأمر أيضًا إذا كانت البوابة معلقة. وسيستغرق الأمر ضعف الوقت فقط؛ عشرون عامًا من العمل والمتابعة للخروج من منصة الحفر وفتح البوابة».

احتج توم قائلاً: «أحيانًا بحصان مندفع»

قال والده: «أعلم، لكن السبب الرئيسي هو أنه ممتع».

ابتسم توم وقال: «معك حق»

«توم، هل تعتقد أنه يمكنك الاعتناء بالمزرعة إذا قمنا أنا وأمك برحلة صغيرة؟»

قال توم: «بالتأكيد، إلى أين تخطط الذهاب؟»

«أولي تريدنا أن نبقي معها لفترة من الوقت في ساليناس».

قال توم: «سيكون ذلك جيدًا، هل قبلت أمي؟»

«نعم»

قال توم: «هذا رائع، كم من الوقت تخططان للبقاء؟»

استقرت عيون صموئيل البراقة والساخرة على وجه توم حتى قال توم «ما الأمر يا أبي؟»

«إنها تلك النعمة الضئيلة يا بني - ضئيلة جدًا لدرجة أنني بالكاد أسمعها، لكنها موجودة. بني توم، إذا كان لديك سر مع إخوتك فلا مانع لدي. بل أعتقد أن هذا جيد».

قال توم: «لا أعرف ماذا تقصد».

«ربما يجب أن تشكر الرب لأنك لم ترغب أن تكون ممثلاً يا توم، لأنك كنت ستصبح ممثلاً سيئاً للغاية. أعتقد أنكم اتفقتم على الأمر في عيد الشكر، عندما كنتم جميعاً هنا. والأمر يتحقق بسلاسة كما الزبدة. يمكنني رؤية يد ويل في هذا. لا تخبرني إذا كنت لا تريد ذلك».

قال توم: «لم أكن أؤيد ذلك».

قال والده: «لا يبدو الأمر من فعلك بكل حال. كنت ستشتت الحقيقة في الشمس لكي أراها. لا تخبر الآخرين أنني أعرف بالأمر». استدار بعيداً ثم عاد ووضع يده على كتف توم. «أشكرك لأنك أكرمتني بالحقيقة، يا بني. إنه ليس الخيار الأكثر ذكاء ولكنه أكثر ديمومة».

«أنا سعيد لأنك ذاهب».

وقف صموئيل ونظر إلى الأرض: «يقولون إن الأم تحب طفلها القبيح أكثر» وهز رأسه بحدة: «توم سوف أبادلك الشرف بالشرف. من فضلك احتفظ بهذا في موضع أسرارك الأعظم ولا تخبر أيًا من إخوتك وأخواتك - أعرف سبب ذهابي - وتوم، أعرف إلى أين أنا ذاهب، وأنا راضٍ تماماً».

## الفصل 24

### 1

لطالما تساءلت عن السبب في أن بعض الناس أقل تأثراً بحقائق الحياة والموت من غيرهم. شقَّ موت أونا الأرض تحت قدمي صموئيل وسمح للشيخوخة بالتسلل اليه. من ناحية أخرى لم تتعرض ليزا، التي دون شك كانت تحب عائلتها مثل زوجها، لهذا النوع من الدمار أو التشوه. استمرت الحياة بالنسبة لها، شعرت بالحزن بالتأكيد، لكنها نجت من ذلك.

ربما تقبلت ليزا العالم كما تقبلت الكتاب المقدس، بكل مفارقاته. لم تكن تحب الموت بطبيعة الحال لكنها آمنت بحتميته، ولذلك عندما جاء لم يصددها.

ربما فكر صموئيل في الموت وفلسفته لكنه لم يؤمن به حقاً. في عالمه لم يكن الموت عضواً. كان يشعر أنه ومن حوله خالدون. عندما وقف الموت الحقيقي أمامه كان ذلك بمثابة إنكار للخلود الذي آمن به بقوة، وهكذا تسبب الشق الوحيد في جداره في تحطم الهيكل بأكمله. دائماً ما اعتقد أن بإمكانه الدفاع عن نفسه والخروج منتصراً حتى في جداله مع الموت.

بالنسبة إلى ليزا، كان الأمر موتاً فحسب - الشيء الموعود والمتوقع. بإمكانها الاستمرار ووضع قدر من الفاصوليا على النار بينما تتعاش مع حزنها، وتخبز الفطائر، وتخطط لتحديد كمية الطعام التي ستكون ضرورية بشكل صحيح لإطعام من يحضر الجنازة. في خضم حزنها بإمكانها التأكد من بياض وترتيب قميص صموئيل وأن ثيابه السوداء خالية من البقع وأن حذاءه

أسود لامع. ربما يتطلب الزواج الجيد هذين النوعين من البشر، مع عدد من الجوانب الأخرى من القوة.

ربما لو كان صموئيل متقبلاً للأمر كما فعلت ليزا، لكان تفوق عليها وذهب لأبعد منها. لكن عملية القبول كانت تمزقه إربًا. راقبته ليزا عن كثب بعد قرار الذهاب إلى ساليناس. لم تكن تعرف تمامًا ما الذي ينويه، لكنها، كما كل الأمهات الطيبات والحذرات، عرفت أنه كان على وشك القيام بأمر ما. كانت ليزا واقعية تمامًا، سعيدة لأنها ستزور أبناءها. كانت تشعر بالفضول تجاههم وتجاه أطفالهم. لم يكن لديها حب الأماكن، كان المكان مجرد محطة استراحة في الطريق إلى الجنة. لم تكن تحب العمل، لكنها كانت تعمل بهمة لأنه كان واجبها. وكانت متعبة، أكثر آلامها كانت وقت استيقاظها بسبب التيسس الذي حاول إبقائها في السرير في الصباح - ولا يعني هذا أنه نجح في ذلك.

لطالما تطلعت إلى الجنة كمكان لا تتسخ فيه الملابس ولا يلزم فيه طهي الطعام وغسل الأطباق. كانت هناك بعض الأشياء في الجنة التي لم ترق لها تمامًا. هناك الكثير من الغناء، ولم تكن تفهم كيف يمكن حتى للمصطفين العيش لفترة طويلة جدًا في الكسل السماوي الذي وعدوا به. ستجد حتمًا ما تفعله في الجنة، لا بد أن هناك شيئًا ما يستغرق وقتًا - بعض الغيوم التي يجب أن ترتقها، كما بلسمة بعض الأجنحة المنهكة. ربما احتاجت أطواق الجلابيب إلى التقليل بين الحين والآخر. باختصار لم تستطع تصديق أنه حتى في الجنة لن يكون هناك خيوط عنكبوت في بعض الزوايا تحتاج لمكنسة مغطاة بالقماش. كانت فرحة وخائفة من زيارة ساليناس. لقد أحببت الفكرة لدرجة أنها شعرت أنه لا بد من وجود خطيئة متورطة فيها. ثم تشوتوكوا؟ حسنًا، ليس عليها الذهاب وربما لن تفعل. صموئيل سيشعر بحماس كبير - كان عليها أن تراقبه. لم تفقد أبدًا شعورها بأنه شاب ومغلوب على أمره. جيد أنها لم تكن تعرف ما يدور في ذهنه، وما كان يحدث لجسده من خلال عقله.



كانت الأماكن مهمة جداً لصموئيل. المزرعة كانت من أقاربه، وعندما تركها شعر وكأنه يطعن عزيزاً. ولكن لأنه كان قد اتخذ قراره، فقد قام بذلك بشكل جيد.

قام بزيارات مقتضبة لجميع جيرانه، كبار السن الذين تذكروا معه كيف كانت الأمور في السابق. وعندما ابتعد بعربته عن أصدقائه القدامى، علموا أنهم لن يروه مرة أخرى رغم أنه لم يقل ذلك. بقي يحدق في الجبال والأشجار، وحتى الوجوه، طويلاً وكأنه يريد أن يحفظها في ذاكرته إلى الأبد.

لقد احتفظ بآخر زيارة لمنزل تراسك، لم يكن قد ذهب الى هناك منذ شهر. لم يعد آدم شاباً، الأولاد في الحادية عشرة من العمر، ولي، حسناً، لم يتغير لي كثيراً.

قال لصموئيل وهو يمشي معه إلى السقيفة: «أردت التحدث معك منذ فترة طويلة، ولكن لدي الكثير لفعله، وأحاول السفر إلى سان فرانسيسكو مرة واحدة في الشهر على الأقل».

قال صموئيل: «أنت تعرف جيداً أنه عندما يكون لديك صديق لا تذهب لرؤيته ويرحل، سيتحطم ضميرك لأنك لم تفعل».

«سمعت عن ابنتك. تعازي».

«لقد تلقيت رسالتك يا لي. مازلت أحتفظ بها. لقد قلت فيها أشياء جيدة».

قال لي: «أشياء صينية. يبدو أنني أصبح صينياً أكثر فأكثر مع تقدمي في السن».

«هناك شيء قد تغير فيك يا لي. ما هو؟»

«إنها جديلة الكيو خاصتي، سيد هاملتون. لقد قصصتها».

«آها، هذا هو».

«كلنا فعلنا. ألم تسمع؟ رحلت أرملة الإمبراطور والصين أصبحت حرة، والمانشو لم يعودوا أباطرة ونحن لم نعد مجبرين على إبقاء تلك الجديلة».

«هل هناك فرق، لي؟»

«ليس كثيراً. الأمر فقط أسهل. مع ذلك هناك نوع من الارتخاء والخفة في فروة رأسي تجعلني أشعر بالارتباك. من الصعب التعود على الراحة».

«كيف حال آدم؟»

«إنه بخير لكنه لم يتغير كثيراً. أتساءل دائماً كيف كان حاله قبل حدوث ما حدث».

«نعم، لقد تساءلت عن ذلك. لا بد أنها كانت فترة ازدهار قصيرة. ولا بد أن الولدين كبارا».

«إنهما كبيران نعم. أنا سعيد لأنني مكثت هنا. لقد تعلمت الكثير وأنا أرى وأساعد الولدين وهما يكبران».

«هل علمتهما الصينية؟»

«لا. السيد تراسك لا يريدني أن أفعل، وأعتقد أنه على حق، إنه تعقيد لا داعي له، لكنني صديقهما. إنهما معجبان بوالدهما، لكنني أعتقد أنهما يحبانني. وهما مختلفان جداً. لا يمكنك تخيل مدى الاختلاف».

«من أية ناحية يا لي؟»

«سترى ما أعنيه عندما يعودان إلى المنزل من المدرسة. إنهما مثل وجهي ميدالية. كالحاد وسوداوي ويقظ، وشقيقه فتى تحبه قبل أن يتكلم وتحبه أكثر بعد ذلك».

«وأنت لا تحب كال؟»

«أجد نفسي أذاف عنه - لنفسي. إنه يقاتل من أجل حياته، بينما شقيقه غير مضطر لذلك».

قال صموئيل: «لدي من هذا في ذريتي ولا أفهمه. تفكر أنهم لا بد أن يكونوا متشابهين لأنهم يحملون نفس الدم ويتلقون التربية ذاتها، لكنهم ليسوا كذلك على الإطلاق».

في وقت لاحق سار صموئيل وآدم على الطريق المظلل بأشجار البلوط إلى المدخل حيث يمكنهما النظر إلى وادي ساليناس.

«هلا بقيت لتناول العشاء؟» سأل آدم.

قال صموئيل: «لن أكون مسؤولاً عن قتل المزيد من الدجاج».

«الطعام اليوم مشوي».

«في هذه الحالة».

كان كتف آدم الذي أصيب ما زال يبدو أدنى من الآخر ووجهه جامد ويخفي مشاعره، وعينه تنظران إلى العموميات دون تفحص التفاصيل. توقف الرجلان على الطريق وتأملا الوادي الذي يشوبه اللون الأخضر بسبب الأمطار المبكرة. قال صموئيل بهدوء: «أساءل كيف لا تشعر بالخجل وأنت تترك الأرض هكذا معطلة دون بذر أو زراعة».

قال آدم: «ليس لدي سبب لزراعتها، لقد فعلت ذلك من قبل. ظننت أنني سوف أتغير. أنا لم أتغير».

«هل تفتخر بوجعك؟» سأله صموئيل «هل يجعلك هذا تشعر أنك كبير ومأساوي؟»  
«لا أعرف».

«حسناً، جرّب التفكير في هذا الموضوع. ربما تلعب دوراً على مسرح رائع وتكون أنت فقط جمهورك».

تسلل غضب طفيف إلى صوت آدم «هل جئت لتلقي محاضرة عليّ؟ أنا سعيد لأنك أتيت، لكن لماذا تنقبي؟»

«لأرى ما إذا كان بإمكانني إثارة القليل من الغضب فيك. أنا رجل فضولي. أمامي كل تلك الأرض البور، وبجانبي هذا الرجل البور. يبدو كل هذا هدر كبير. ولدي شعور سيء حول الهدر ولا يمكنني أبداً تحمله. هل السماح للحياة بأن تكون بوراً يمنح شعوراً جيداً؟»

«ماذا يمكنني أن أفعل؟»

«يمكنك المحاولة مرة أخرى.»

واجهه آدم: «أنا خائف يا صموئيل. أفضل مواصلة الحياة بهذه الطريقة. ربما لم أعد أمتلك الطاقة أو الشجاعة.»

«ماذا عن ولدك - ألا تحبهما؟»

«نعم نعم.»

«هل تحب واحدًا أكثر من الآخر؟»

«لماذا تقول هذا؟»

«لا أعرف. شيء في نبرة صوتك.»

قال آدم: «لنعد إلى المنزل». فجأة قال آدم، «هل سمعت يومًا أن كاثي كانت في ساليناس؟ هل سمعت مثل هذه الشائعة من قبل؟»

«هل سمعت أنت؟»

«نعم - لكنني لا أصدق ذلك. لا أصدق.»

سار صموئيل بصمت في آثار العجلة الرملية على الطريق وانتقل بفكره ببطء إلى تفكير آدم وبضجر أمل أن تكون الفكرة التي تسلمت إليه قد غادرت عقله. قال أخيرًا، «لم تنسها أبدًا.»

«لا أعتقد. لكنني تناسيت إطلاق النار. لم أعد أفكر في الأمر بعد الآن.»

«ليس من حقي أن أقول لك كيف تعيش حياتك، على الرغم من أنني أفعل. أعلم أنه قد يكون من الأفضل لك الخروج من تحت غطاء هذه الاحتمالات إلى الخارج. وبينما أقول لك ذلك أنا نفسي ما زلت أغربل ذكرياتي بالطريقة التي يقوم بها الرجال بتنقية التراب تحت أرضية حانة للحصول على أجزاء من غبار الذهب بين الشقوق الصغيرة، إنه تنقيب ضئيل، ضئيل جدًا. ما زلت شابًا

جداً على غربة الذكريات يا آدم. في هذا العمر عليك خلق ذكريات جديدة، لتكون عند التنقيب لاحقاً أكثر ثراءً».

كان آدم ينظر للأسفل وعظام فكه بارزة أسفل صدغيه جراء الصرير.

نظر إليه صموئيل: «واجه الأمر، كيف يمكننا تبرير الخطأ هنا؟ هل تريدني أن أقول لك عما تفعله كي لا تظن أنك من اخترعته؟ عندما تذهب إلى الفراش وتطفى المصباح - تراها واقفة في المدخل والقليل من الضوء خلفها، ويمكنك رؤية ثوب النوم الخاص بها وهو يتحرك، تراها تتسلل بلطف إلى سريرك، ومع اقترابها يصبح تنفسك أصعب، تدير الأغشية لتستقبلها وتحرك رأسك على الوسادة لإفساح المجال لرأسها بجانب رأسك. يمكنك شم رائحة بشرتها، تلك الرائحة التي لا مثيل لها في أي بشرة أخرى في العالم -»

صرخ آدم في وجهه: «توقف، يا إلهي، توقف! توقف عن التدخل في حياتي! أنت مثل ذئب يتشمم حول بقرة ميتة».

قال صموئيل بهدوء: «أعرف هذا لأن هناك من أتت إليّ بنفس الطريقة - ليلة بعد ليلة، شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام، حتى الآن. وأعتقد أنه كان يجب عليّ أن أضغط على ذهني وأغلق قلبي عليها، لكنني لم أفعل. طوال هذه السنوات خدعت ليزا. منحتها أكاذيب وزيفاً، وقمت بتوفير الأفضل لتلك الساعات الحلوة المظلمة. والآن أصبحت أتمنى أن يكون لديها زائر سرّي أيضاً. لكنني لن أعرف ذلك أبداً. أعتقد أنها ربما أغلقت قلبها وألقت بمفتاحه إلى الجحيم».

كان آدم يشد على يديه وقد اختفى الدم من مفاصل أصابعه البيضاء. قال بشراسة: «إنك تجعلني أشك في نفسي، لقد فعلتَ دائماً، أنا خائف منك. ماذا عليّ أن أفعل يا صموئيل؟ أخبرني! لا أعرف كيف رأيت ذلك بهذا الوضوح. ماذا عليّ أن أفعل؟»

«أنا أعرف ما ينبغي فعله على الرغم من أنني لا أفعله يا آدم. يجب عليك محاولة إيجاد كاثي جديدة. يجب السماح لكاثي الجديدة بقتل كاثي زائرة الليل، دعهما تتقاتلان. أما أنت فاجلس وامنح عقلك للفائزة، وهذا يعتبر ثاني أفضل خيار. الخيار الأول والأفضل هو البحث عن حب جديد ينعش روحك ويلغي القديم».

قال آدم: «أخشى المحاولة».

«الأمر لك. والآن إليك بعض الأناية. أنا مغادر يا آدم. جئت لتوديعك».

«ماذا تقصد؟»

«طلبت ابنتي أوليف مني ومن ليزا زيارتها في ساليناس، وسنذهب بعد غد».

«حسنًا، ستعود».

تابع صموئيل «بعد أن نقوم بزيارة أوليف ربما لمدة شهر أو شهرين، ستصلنا رسالة من جورج. وستأذى مشاعره إذا لم نقم بزيارته في باسو روبلز. وبعد ذلك ستريدنا مولي في سان فرانسيسكو ثم ويل، وربما حتى جو في الشرق، إذا حدث وعشنا طويلاً».

«حسنًا، ألا تحب ذلك؟ أنت تستحق هذا، لقد عملت بجهد بما فيه الكفاية على كومة الغبار الخاصة بك».

قال صموئيل: «أحب كومة الغبار هذه، أحبها بالطريقة التي تحب بها الكلبة جروها الصغير. أحب كل صوان هناك، أحب التتوءات التي تكسر المحراث، تربتها الرقيقة والقاحلة، قلبها الخالي من الماء. هناك ثراء في مكان ما في كومة الغبار هذه».

«أنت تستحق الراحة».

قال صموئيل: «ها أنت تقولها للمرة الثانية. هذا ما كان عليّ أن أقبله وقد قبلته. عندما تقول إنني أستحق الراحة، فأنت تشعرني أن حياتي قد انتهت».

«هل تصدق ذلك؟»

«هذا ما قبلته».

قال آدم بحماس: «لا يمكنك فعل ذلك. إذا قبلت ذلك فلن تشعر أنك حيّ!»

قال صموئيل: «أعلم».

«لكن لا يمكنك فعل ذلك».

«ولم لا؟»

«لا أريدك أن تفعل».

«أنا رجل مسنّ فضولي يا آدم. والشيء المحزن بالنسبة لي هو أن أفقد فضولي. هكذا ربما أعلم أنه حان وقت زيارة أبنائي. أصبحت غالب الوقت أظهار فقط بالفضول».

«كنت أفضل لو أنك عملت أكثر على كومة الغبار تلك».

ابتسم له صموئيل. «يا له من شيء جميل أن تسمعه! وأشكرك. إنه لأمر جيد أن تكون محبوبًا حتى في أوقاتك المتأخرة».

فجأة استدار آدم أمامه فاضطر صموئيل إلى التوقف. قال آدم: «أنا أدرك ما فعلته من أجلي. لا يمكنني تقديم أي شيء لك في المقابل. لكن يمكنني أن أطلب منك شيئًا آخر. إذا طلبت منك أمرًا، هل ستكرمني بالمزيد من لطفك، وربما تنقذ حياتي؟»

«لفعلت لو استطعت».

هز آدم يده ورسم قوس نحو الغرب: «هذه الأرض هناك، هلا ساعدتني لتحويلها إلى الحديقة التي نتحدث عنها بالإضافة لطواحين الهواء والآبار وحقول البرسيم؟ يمكننا انتشال بذور الزهور. هناك ربح وفير في ذلك. فكر فيما سيكون عليه الأمر، فدادين من البازلاء الحلوة والأذريون الذهبية. ربما عشرة فدادين من الورود للحدائق الغربية. فكر كيف ستكون رائحة المكان عندما تحل الرياح الغربية!»

قال صموئيل: «ستجعلني أبكي، وسيكون هذا شيئاً غير لائق برجل عجوز». وبالفعل كانت عيناه مبتلتين. قال «أشكرك يا آدم، عرضك الجميل له رائحة طيبة تفوق الريح الغربية».

«إذا ستفعل ذلك؟»

«لا، لن أفعل ذلك. لكنني سأرى ذلك في ذهني عندما أكون في ساليناس، بينما أستمع إلى ويليام جيننغز برايان<sup>(1)</sup>. وربما سأصدق ما حدث».

«لكنني أريد أن أفعل ذلك».

«اذهب وتحدث مع توم، سيساعدك. كان المسكين ليزرع العالم بأكمله بالورود، إذا استطاع».

«هل أنت متأكد مما تفعله يا صموئيل؟»

«نعم، أعرف ما أفعله، أعلم جيداً لدرجة أن نصفه قد انتهى بالفعل».

«يا لك من رجل عنيد!»

قال صموئيل: «مشاكس، ليزا تقول إنني مشاكس، لكنني الآن عالق في شبكة من أبنائي - وأعتقد أنني أحب ذلك».

## 2

تم تجهيز مائدة العشاء في المنزل. قال لي: «كنت أود أن أجهزها تحت الشجرة كما في الماضي، لكن الهواء بارد».

قال صموئيل: «بالفعل يا لي».

---

(1) ويليام جيننغز برايان هو خطيب وسياسي أمريكي من نبراسكا. برز من عام 1896 في الحزب الديمقراطي، وترشح ثلاث مرات عن الحزب لرئاسة الولايات المتحدة لكنه فشل في الفوز بالرئاسة في المرات الثلاث. كما عمل في مجلس النواب الأمريكي وكان وزير خارجية في رئاسة وودرو ويلسون.



جاء التوأم في صمت ووقفًا بخجل يحدقان في ضيفهم.

«لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتكما، أيها الأولاد. لكننا أطلقنا عليكما اسمين جميلين. أنت كيِّلب، أليس كذلك؟»  
«أنا كال».

«حسنًا، كال إذن». والتفت إلى الآخر. «هل وجدت طريقة لكسر العمود الفقري لاسمك؟»  
«عفوًا سيدي؟»  
«هل تدعى آرون؟»  
«نعم سيدي».

ضحك لي. «انه يتهجاه بألف مخففة. يبدو اسمه خياليًا بعض الشيء لأصدقائه».

قال آرون: «لدي 35 من الأرناب البلجيكية يا سيدي، هل ترغب في رؤيتها؟ القفص فوق النبع هناك. لدي ثمانية مواليد أيضاً - لقد ولدوا بالأمس».  
«بالطبع أود أن أراهم يا آرون». ارتعش فمه وهو يوجه الكلام للآخر: «كال، لا تقل إنك بستانني؟»

توجه لي نحو صموئيل قائلاً بتوتر: «لا تفعل هذا».

قال كال: «في العام المقبل سيسمح والدي بأن يكون لي فدان».

قال آرون: «لدي أرناب يزن خمسة عشر رطلاً. سأهديه لوالدي في عيد ميلاده».

سمعوا باب غرفة نوم آدم يفتح. قال آرون بسرعة: «لا تخبره، إنه سر».

فتح لي غطاء وعاء الشواء: «دائمًا ما تجلب المتاعب إلى ذهني سيد هاملتون، اجلسا يا أولاد».

دخل آدم ورفع أكمامه وجلس على رأس الطاولة: «مساء الخير يا أولاد»  
فأجابا في انسجام تام: «مساء الخير يا أبي».

همس آرون: «لا تخبره»

أكد له صموئيل: «لن أفعل».

«لا يخبر ماذا؟» سأل آدم.

قال صموئيل: «ألا توجد خصوصية؟ لدي سر مع ابنك».

اندفع كال: «سأخبرك بسر أيضاً، بعد العشاء مباشرة».

قال صموئيل: «أود أن أسمع، وآمل أنني لا أعرف بالفعل ما هو».

نظر لي إلى صموئيل مطولاً وبدأ في تقديم اللحم في الأطباق.

التهم الولدان طعامهما بسرعة وبهدوء. قال آرون «هل تأذن لنا يا أبي؟»

أوماً آدم برأسه، وخرج الصبيان بسرعة. نظر إليهما صموئيل: «يبدو أن أكبر من أحد عشر عاماً، أتذكر أبنائي وهم في الحادية عشرة من أعمارهم، كانوا توليفة من عواء وصراخ وعداء في دوائر لا منتهية. هذان يبدو أنهما كما رجلين بالغين».

«حقاً؟» سأل آدم.

قال لي: «أعتقد أنني أعلم سبب ذلك. ليست هناك امرأة في المنزل، لا أعتقد أن الرجال يتقنون الاهتمام كثيراً بالأطفال، ولذا لم تكن هناك ميزة لهذين الولدين أن يكونا رضيعين. لم يكن هناك شيء ليكسبانه أو يتعلمانه خلال ذلك. لا أعرف ما إذا كان هذا أمراً جيداً أو سيئاً».

مسح صموئيل بقايا المرق في طبقه بقطعة خبز: «آدم، أتساءل عما إذا كنت تدرك ما لديك. فيلسوف يطبخ أم طباطب يفكر؟ لقد علمني الكثير. لا بد أنك تعلمت منه أيضاً يا آدم».

قال آدم: «أخشى أنني لم أستمع بما فيه الكفاية - أو ربما هو لم يتحدث».

«لماذا لا تريد أن يتعلم الأولاد اللغة الصينية يا آدم؟»

فكر آدم للحظة. قال أخيراً: «يبدو أنه وقت قول الصدق، أعتقد أنها كانت مسألة غيرية وإن أعطيتُه اسمًا آخر، ربما لم أرغب في أن يتمكننا بسهولة من الابتعاد عني والذهاب في اتجاه لا يمكنني اتباعهما فيه».

قال صموئيل: «هذا منطقيّ وكاف، وإنساني جداً. لكن معرفة ذلك قفزة عظيمة. أتساءل عما إذا كنتُ قد وصلت لهذا المستوى».

أحضر لي وعاء القهوة الرمادي المطلي بالمينا إلى المائدة وملاً الأكواب وجلس. قام بتدفئة راحة يده على الجانب المستدير من فنجانه. ثم ضحك «لقد ورطنتي بمشاكل كبيرة سيد هاملتون، وأزعجت هدوء الصين».

«كيف هذا يا لي؟»

قال لي: «شعرت للحظة أنني أخبرتك بهذا. ربما قمت بفعل ذلك في ذهني. إنها قصة مسلية على أي حال».

قال صموئيل: «أود أن أسمع»، ونظر إلى آدم: «ألا تريد أن تسمع يا آدم؟ أم أنك تفضل التسلل إلى حمامك؟»

قال آدم ضاحكاً: «في الواقع كنت أفكر في ذلك. أنا متشوق لسماعها».

قال صموئيل: «جيد. ربما يكون هذا من أفضل الأشياء الجيدة التي يمكن أن تحدث للإنسان. دعنا نسمع قصتك يا لي».

لمس الصيني جانب رقبته وابتسم: «أتساءل عما إذا كنت سأعتاد يوماً على عدم وجود جدلتي. أعتقد أنني كنت أستخدمها أكثر مما ظننت. أوه القصة؛ كما كنت أقول لك يا سيد هاملتون، أشعر أنني أعود لأكون صينياً أكثر يوماً بعد يوم، هل شعرت يوماً أنك تعود لتكون إيرلندياً أكثر مما كنت عليه؟»

قال صموئيل: «إنها حالة تأتي وتذهب».

«هل تتذكر عندما قرأت لنا آيات من الفصل الرابع من سفر التكوين وناقشناها؟»

«نعم أتذكر. كان هذا منذ وقت طويل.»

قال لي: «تقريباً عشر سنوات. حسناً، القصة انغرست عميقاً في داخلي وعليه قمت بمراجعتها كلمة بكلمة، وكلما فكرت فيها أصبحت أكثر عمقاً بالنسبة لي. ثم قارنت الترجمات التي لدينا - وكانت قريبة إلى حد ما. كان هناك مكان واحد فقط أزعجني. تقول نسخة الملك جيمس أنه عندما سأل يهوه قاين عن سبب غضبه، قال يهوه: لِمَاذَا غَضِبْتَ وَلِمَاذَا عَبَسَ وَجْهُكَ؟ إذا لم تُحَسِّنْ عَمَلًا، فَالْخَطِيئَةُ رَابِضَةٌ بِالْبَابِ وَهِيَ تَتَلَهَّفُ إِلَيْكَ، وَسَوْفَ تَنْتَصِرُ عَلَيْهَا». كانت «سوف». هي التي لفتت انتباهي، لأنها بمثابة وعد بأن قاين سينتصر على الخطيئة.»

أوما صموئيل برأسه: «وذريته لم تفعل ذلك بالكامل.»

ارتشف لي قهوته: «ثم حصلتُ على نسخة من الكتاب المقدس الأمريكي وكان جديدًا جدًا في ذلك الوقت. وكان الأمر مختلفًا في هذا المقطع: «انتصر عليها»، هذا مختلف جدًا.»

هذا ليس وعدًا، إنه أمر. وبدأت في التفكير في ذلك. تساءلت عن الكلمة الأصلية للكاتب الأصلي والتي أدت إلى هذه الترجمات المختلفة جدًا.»

وضع صموئيل كفيه على المنضدة وانحنى إلى الأمام وعاد البريق القديم إلى عينيه: «لي، لا تقل لي أنك درست العبرية!»

قال لي: «سأخبرك. وهي قصة طويلة إلى حد ما. هل تود ارتشاف بعض النبيذ الصيني؟»

«تقصد ذاك الشراب بطعم التفاح الفاسد؟»

«نعم. يمكنني التحدث بشكل أفضل وأنا أشرب منه.»

قال صموئيل: «ربما يمكنني الاستماع بشكل أفضل».

بينما كان لي ذاهباً إلى المطبخ، سألت صموئيل: «آدم، هل تعلم بهذا؟»

قال آدم: «لا، لم يخبرني. ربما لم أكن أستمع».

عاد لي مع قنينته الحجرية، وثلاثة أكواب من الخبز الرقيق جداً بحيث كان الضوء يشرق من خلالها. قال وهو يسكب السائل القاتم «هذا شراب مرّ ومميز. وله نفس تأثير الأفيون<sup>(1)</sup> إذا شربت ما يكفي منه».

ارتشف صموئيل الشراب: «أريد أن أعرف لماذا كنت مهتماً لهذه الدرجة يا لي؟».

«حسناً، بدا لي أن الرجل الذي يمكنه تصور قصة عظيمة كهذه سيعرف تمامًا ما يريد قوله ولن يكون هناك أي لبس في بيانه».

«أنت تصفه بالرجل، ألا تؤمن إذن أن هذا كتاب إلهي كُتب بيد الله وحرره؟»  
«أعتقد أن العقل الذي تمكن من التفكير في قصة عظيمة كهذه هو عقل ربّاني بشكل مثير للفضول. كان لدينا عدد من هذه العقول في الصين أيضاً».

قال صموئيل: «أردت فقط أن أعرف، أنت لست مشيخياً بكل حال».

«قلت لك أنني بتُّ أصبح صينيّاً أكثر مع مرور الوقت، حسناً، فلا أكمل».

---

(1) وُصف الأفيون تاريخياً بأنه من المشروبات المقطرة والكحولية بدرجة عالية (45% - 74%) وهو كحول بنكهة اليانسون ومستمد من الأعشاب الطبية، بما فيها زهور وأوراق عشبة الأفيون، يُشار إليها عادة بأنها «الأفيون المرّ». ويتمتع الأفيون عادة باللون الأخضر الطبيعي ولكن يمكن أيضاً أن يكون عديم اللون. غالباً ما تم وصف الأفيون على أنه شراب يتميز بالتأثير بشكل خطير ومهلوس وبحلول 1915 تم حظره في الولايات المتحدة وفي معظم أنحاء أوروبا، بما في ذلك فرنسا وهولندا وبلجيكا وسويسرا والنمسا. مع ذلك وعلى الرغم من تشويه الأفيون، إلا أنه لم يثبت أنه أكثر خطورة من المشروبات الروحية الأخرى العادية. كما أظهرت الدراسات الحديثة أن خصائص الأفيون ذات التأثير النفسي (بصرف النظر عن خصائص الكحول) قد تم المبالغة فيها.

ذهبت إلى سان فرانسيسكو لمقر جمعية عائلتنا. هل تعرف عنهم؟ عوائلنا كبيرة ولها مراكز حيث يمكن لأي فرد منا الحصول على أية مساعدة أو إعطائها لمن يحتاجها. عائلة لي كبيرة جداً وتهتم بأمور أفرادها جيداً.

قال صموئيل: «لقد سمعت عنهم».

«تقصد الصيني الذي يقاتل للحصول على فتاة من العبيد؟»

«أظن ذلك».

قال لي: «الأمر مختلف قليلاً عن ذلك، ذهبت إلى هناك لأنه يوجد في عائلتنا عدد من السادة المبجلين القدامى وهم علماء عظماء. مفكرون بشكل أدق. قد يقضي الرجل منهم سنوات عديدة في التفكير في جملة صادرة عن العالم الذي تسميه كونفوشيوس. اعتقدت أنه قد يكون هناك خبراء في التفسير يمكنهم تقديم المشورة لي.

إنهم رجال كبار في السن. يدخنون غليونات من الأفيون في فترة ما بعد الظهر فيريحهم ويقوي أذهانهم، ويجلسون طوال الليل وعقولهم تعمل بشكل رائع. أعتقد أنه لم يتمكن أي أناس آخرين من استخدام الأفيون بشكل مفيد مثلهم».

بلل لسانه في الشراب الأسود وأكمل: «قدمت مسألتني باحترام إلى أحد هؤلاء الحكماء وقرأت له القصة وأخبرته بما فهمته منها. في الليلة التالية التقى أربعة منهم واستدعوني وناقشنا القصة طوال الليل».

ضحك لي: «أعتقد أنه أمر مضحك؛ ومؤكد أنني لن أجرؤ على إخبار كثير من الناس بذلك. هل يمكنك أن تتخيل أربعة من السادة، أصغرهم الآن تجاوز التسعين، يتعلمون اللغة العبرية؟ لقد استعانوا بحاخام وانهمكوا في الدراسة كما لو كانوا أطفالاً. كتبوا التمارين والقواعد والمفردات والجمل البسيطة. يجب أن تشاهد اللغة العبرية مكتوبة بالحبر الصيني بفرشاة! ولم تزعجهم

الكتابة من اليمين إلى اليسار بقدر ما يمكنه إزعاجك، لأننا نكتب من الأعلى إلى الأسفل. أوه، لقد كانوا مثاليين! ذهبوا إلى أصل الأمر». «وأنت؟» سأله صموئيل.

«كنت معهم، منبهاً بجمال عقولهم النظيفة. بدأت أحب عِرقي، ولأول مرة أردت أن أكون صينيًا. كنت أذهب كل أسبوعين للالتقاء بهم، وفي غرفتي هنا كنت أعطي الصفحات بالكتابة. اشتريت كل قاموس عبري معروف. لكنهم كانوا دائماً يسبقونني. لم يمض وقت طويل قبل أن يتفوقوا على الحاخام الذي أحضر زميلاً له يا سيد هاملتون، أتمنى لو كنت انضمت لنا في بعض أمسيات الجدل والمناقشات والأسئلة والبحث، أوه والتفكير الجميل - التفكير المذهل.

«بعد عامين شعرنا أنه يمكننا الاقتراب من آياتك الستة عشر من الفصل الرابع من سفر التكوين. لقد شعر سادتي أن هذه الكلمات كانت مهمة جداً أيضاً - «سوف تنتصر». و«انتصر». وخرج هذا الذهب من مناجمنا: «لك أن». «لك أن تنتصر على الخطيئة». ابتسم السادة الكبار في السن وأومأوا برؤوسهم وشعروا أن تلك السنوات قد تم استهلاكها بشكل جيد. لقد أخرجهم ذلك من القوقعة الصينية أيضاً، وهم الآن يدرسون اليونانية».

قال صموئيل: «إنها قصة رائعة، حاولت متابعتك لكن ربما فقدت الفهم في مكان ما. ما الذي يجعل هذه الكلمة مهمة جداً؟»

ارتجفت يد لي وهو يملأ الأكواب الرقيقة. شرب جرعة وهو يصيح: «ألا ترى؟ تأمر الترجمة الأمريكية القياسية الرجال بالانتصار على الخطيئة، ويمكنك تسمية الجهل بالخطيئة».

تقدم ترجمة الملك جيمس وعدًا في قول «سوف تنتصر» وهو تأكيد على أن الرجال سينتصرون على الخطيئة. لكن الكلمة العبرية «لك أن». والتي تمنح الخيار للمرء، قد تكون أهم كلمة في العالم، حيث تخبرك أن الطريق مفتوح

وتجعل الخيار بيد المرء. لأنه إذا كان «لك أن».. فهذا يعني أنك «لك ألا»..  
أيضاً، هل تفهمني؟»

«نعم، أفهمك تماماً. لكنك لا تؤمن أن هذا قانون إلهي. فلماذا تشعر هكذا  
بأهميته؟»

«آه!، أردت اخبارك بهذا منذ فترة طويلة لدرجة أنني توقعت أسئلتك  
وتهيأت لها بشكل جيد؛ أي كتابة تؤثر على تفكير وحياة عدد لا يحصى من  
الناس هي كتابة مهمة.

والآن هناك الملايين في طوائفهم وكنائسهم يؤمنون بالأمر «انتصر»  
ويضعون ثقلهم في الطاعة. وهناك ملايين ممن يؤمنون بالقدر في «سوف  
تنتصر»، ولا شيء يمكن أن يفعلوه بإمكانه أن يتعارض مع ما سيكون. لكن  
«لك أن»..هي ما تجعل المرء عظيماً، هي ما تمنحه مكانة بقرب الآلهة، لأنه  
في خضم ضعفه ورجسه وقتله لشقيقه ما زال يمتلك الخيار. له أن يختار مساره  
وحره وانتصاره». كان صوت لي بمثابة أنشودة نصر.

قال آدم، «هل تصدق ذلك يا لي؟»

«نعم أفعّل. من السهل، بسبب الكسل والضعف، أن يلقي المرء بنفسه في  
حضن الإله قائلاً: «لم أستطع تفادي الأمر، لقد كان مقدراً. لكن فكر في مجد  
الاختيار! هذا ما يجعل الرجل رجلاً. القطة ليس لديها خيار، النحلة مضطرة  
لصنع العسل، ما من ورع هناك. ثم هل تعلمون أن هؤلاء السادة الكبار الذين  
كانوا يقتربون برفق من الموت أصبحوا مهتمين بأن يموتوا الآن؟»

قال آدم: «هل تقصد أن هؤلاء الرجال الصينيين يؤمنون بالعهد القديم؟»

قال لي: «هؤلاء الرجال الكبار يؤمنون بقصة حقيقية، ويعرفون القصة  
الحقيقية عندما يسمعونها لأنهم منتقدون للحقيقة. إنهم يؤمنون أن هذه الآيات  
الست عشرة تمثل تاريخ البشرية في أي عصر أو ثقافة أو عرق، ولا يصدقون



بأن الرجل كتب خمس عشرة آية وثلاثة أرباع آيات من الحقيقة وكذب في فعل واحد.

كونفوشيوس يعلم الرجال كيف يعيشون ليحظوا بحياة جيدة وناجحة. لكن هذا - هذا سلم يصعد بهم إلى النجوم». بريق غمر عيون لي: «لا يمكنك أن تفقد ذلك. الضعف والجبن والكسل يقطع القدمين من الأسفل».

قال آدم: «لا أفهم كيف يمكنك الطهي وتربية الأولاد والاعتناء بي وفعل هذا أيضاً».

قال لي: «ولا أنا. لكنني أدخن غليونين في فترة ما بعد الظهر، لا أكثر ولا أقل، مثل كبار السن. وحينها أشعر أنني رجل، وأن تكون رجلاً لهو شيء مهم للغاية - ربما أكثر أهمية من النجم. هذا ليس علم لاهوت، فأنا ليس لدي جنوح تجاه الآلهة. لكن لدي حب جديد لتلك الآلة البراقة، الروح البشرية. إنها شيء جميل وفريد في الكون. تم مهاجمتها دائماً ولكن ليس تدميرها أبداً - بسبب «لك أن»».

### 3

خرج لي وآدم مع صموئيل لتوديعه. حمل لي فانوساً من الصفيح لإضاءة الطريق، لأنها كانت إحدى ليالي الشتاء المبكرة الصافية والتي تكون فيها السماء مليئة بالنجوم وتبدو الأرض مظلمة بشكل مضاعف بسببها. ساد صمت على التلال. لم يتحرك أي حيوان، لا أكلة العشب ولا تلك المفترسة، وكان الهواء ساكناً لدرجة أن الأغصان الداكنة وأوراق البلوط كانت تقف ثابتة تجاه مجرة درب التبانة. بقي الرجال الثلاثة صامتين. كان الفانوس يصدر صريراً وهو يتأرجح في يدي.

سأل آدم: «متى تعتقد أنك ستعود من رحلتك؟» لم يجب صموئيل.

وقف دوكولوجي منتظراً بصبر في الاسطبل، رأسه للأسفل، وعيونه الحليبية تحديق في القش تحت قدميه.

قال آدم: «لقد امتلكت هذا الحصان منذ الأزل».

قال صموئيل: «إنه في الثالثة والثلاثين». لقد تأكلت أسنانه، عليّ أن أطعمه الهريس الدافئ بأصابعي. تأتيه أحلام سيئة. يرتجف ويبكي أحياناً أثناء نومه». قال آدم: «إنه أقبح طعام غربان رأيته في حياتي».

«أعلم. أعتقد أن هذا هو سبب اختياري له. هل تعلم أنني دفعت دولارين عند شرائه قبل ثلاثة وثلاثين عاماً؟ كل شيء كان خاطئاً فيه، حوافر تشبه الفطائر المحلاة، عرقوب سميك جداً وقصير ومستقيم، ويبدو وكأن لا مفصل هناك على الإطلاق. إنه غبي وظهره مترهل، لديه صدر مقروص وخلفية كبيرة. مع السرج تشعر كما لو كنت تركب زلاجة فوق حفرة من الحصى. لا يستطيع الهرولة ويتعثر على قدميه عندما يمشي. لم أجد شيئاً واحداً جيداً فيه مطلقاً خلال ثلاثة وثلاثين عاماً.

حتى شخصيته قبيحة. إنه أناني ومشاكس وعاص. حتى يومنا هذا لا أجرؤ على السير خلفه لأنه حتماً سيركلني، وعندما أطعمه الهريس يحاول أن يعض يدي. وأنا أحبه».

قال لي: «وقمت بتسميته دوكسولوجي».<sup>(1)</sup>

قال صموئيل: «بالتأكيد، أعتقد أن مخلوقاً سيئ الحظ يستحق مُلكاً واحداً كبيراً على الأقل. لم يعد لديه وقت طويل الآن».

قال آدم: «لعلك تخرجه من بؤسه».

«أي بؤس؟» سأل صموئيل «إنه إحدى الكائنات القليلة السعيدة والمتناغمة التي التقيت بها على الإطلاق».

---

(1) الحمدلة (دوكسولوجي بالانجليزية) هي ترنيمة قصيرة من المديح للإله في أشكال مختلفة من العبادة المسيحية، تضاف في كثير من الأحيان إلى نهاية النشيد والمزامير والترانيم. وهو تقليد مستمد من ممارسة مماثلة في الكنيس اليهودي.

«لابد أن تكون لديه أوجاع وآلام».

«حسنًا، هو لا يعتقد ذلك. ما زال دوكسولوجي يعتقد أنه حصان مذهل. هل كنت لتطلق النار عليه يا آدم؟»

«نعم، أعتقد أنني كنت لأفعل».

«هل ستتحمل مسؤولية ذلك؟»

«نعم، سأفعل. إنه يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا. لقد انتهى عمره منذ زمن طويل».

كان لي قد وضع فانوسه على الأرض. جلس صموئيل بجانبه ومد يديه غريزيًا للدفع إلى فراشة الضوء الأصفر.

قال: «أشعر بانزعاج يا آدم».

«مم؟»

«هل ستطلق النار على حصاني حقًا لأن الموت قد يكون أكثر راحة له؟»

«حسنًا، قصدت -»

قال صموئيل سريعًا: «هل تحب حياتك يا آدم؟»

«بالطبع لا».

إذا كان لدي دواء لك، ربما يشفيك وربما يقتلك، هل عليّ أن أعطيك إياه؟ عاين نفسك يا رجل».

«أي دواء؟»

قال صموئيل: «لا. إذا قلت لك - وصدقني عندما أقول - قد يقتلك الأمر».

قال لي: «انتبه يا سيد هاملتون».

«ما الأمر؟ أخبرني بما تفكر فيه». سأله آدم

قال صموئيل بهدوء: «أعتقد أنني لمرة واحدة لن أكون حذرًا يالي. اسمعني؛

إذا كنت مخطئًا، فأنا أقبل المسؤولية وسأتحمل اللوم الذي عليّ تحمّله».

«هل أنت متأكد أنك على حق؟» سأل لي بقلق.

«بالطبع لست متأكدًا. آدم، هل تريد الدواء؟»

«نعم. لا أعرف ما هو ولكن أعطني إياه».

«آدم، كاثي في ساليانس. إنها تمتلك مبعي، وهو الأكثر شراسة وفسادًا في هذه البلاد. الشرير والقييح والمشوه واللزج، أسوأ الأشياء التي يمكن أن يفكر فيها البشر معروضة للبيع هناك.

يذهب المصابون بالشلل والمعوجون إلى هناك من أجل المتعة. ولكنه أسوأ من ذلك. كاثي، وتدعى الآن كيت، تأخذ الشباب والحيوية والجمال وتشوهم لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يعودوا كاملين مرة أخرى. هاك، ها هو الدواء، فلنر ما يفعله بك».

«أنت كاذب!» قال آدم.

«لا يا آدم. يمكنني أن أكون الكثير من الأشياء، لكنني لست كاذبًا».

التفت آدم إلى لي: «هل هذا صحيح؟»

قال لي: «لست أنا الترياق، نعم؛ إنها الحقيقة».

وقف آدم متميلاً في ضوء الفانوس ثم استدار وبدأ بالركض. كانت تصلهما صوت خطواته الثقيلة والمتعثرة. سمعاه وهو يسقط ويمشي بصعوبة ويشق طريقه على المنحدر. لم يتوقف صوته إلا عندما وصل فوق التل.

قال لي لصموئيل: «دواؤك يعمل مثل السم».

قال صموئيل: «أنا أتحمل المسؤولية. منذ فترة طويلة تعلمت هذا: عندما يتناول كلب الستركنين<sup>(1)</sup> ويموت، يجب أن تأتي بفأس وتحمله إلى كتلة تقطيع

---

(1) الستركنين قلويد بلوري عالي السمية وعديم اللون، يستخدم كمبيد للآفات، وخاصة لقتل الفقاريات الصغيرة مثل الطيور والقوارض. يتسبب الإستركينين عند استنشاقه أو ابتلاعه أو امتصاصه من خلال العين أو الفم، في حدوث تسمم يؤدي إلى تشنجات عضلية وفي

وتنتظر نوبة تشنجه التالية، وفي تلك اللحظة - تقطع ذيله. ثم، إذا لم يكن السم قد انتشر في جسده، فقد يتعافى كلبك. بإمكان صدمة الألم أن تصد السم، لكن بدون تلك الصدمة سيكون موته مؤكداً.

«ولكن كيف تعرف أن هذا الأمر يشبه ذلك؟» سأل لي.

«انا لا أعرف هذا. لكن بدون فعل ذلك سيموت بالتأكيد».

قال لي: «أنت رجل شجاع».

«لا؛ أنا رجل عجوز. وإذا كان لدي أي شيء في ضميري فلن يدوم طويلاً».

سأل لي: «ماذا تعتقد أنه سيفعل؟»

قال صموئيل: «لا أعرف، لكنه على الأقل لن يجلس ويتألم. هاك، هلا

أمسكت الفانوس من أجلي؟»

في الضوء الأصفر ركب صموئيل حديدة اللجام في فم دوكسولوجي، وكان قد أصبح متقشراً وقديماً. كان قد تخلّى عن رقعة اللجام منذ فترة طويلة، وكان رأس الحصان العجوز حراً، سواء أراد تحريكه، أو التوقف لتناول العشب بجانب الطريق. لم يهتم صموئيل. قام بتجهيزه للمغادرة بحنان بينما حام الحصان حوله في محاولة لركله.

سأله لي: «هل تمنع إذا ركبت معك قليلاً؟ سأعود مشياً».

قال صموئيل: «رافقني»، وتجاهل محاولة لي لمساعدته في الصعود إلى

العربة.

كانت ليلة مظلمة للغاية، وأظهر دوكس اشمئزاه من السفر ليلاً من خلال

التعثر بين كل بضع خطوات.

---

النهاية الى الوفاة من خلال الاختناق. فيما يتعلق بالحيوانات فالتسمم بالاستركنين ظاهرة متكررة حيث يتم استخدامه بكثرة كمادة سامة بشكل طعم وتأكلها بعض أنواع الحيوانات (خاصة الكلاب والقطط).

قال صموئيل: «تحدث يا لي. ماذا تريد أن تقول؟»

لم يبد لي مندهشاً: «ربما أنا فضولي كما تقول. أنا أفكر. أعرف الاحتمالات، لكنك الليلة خدعتني تماماً. كنت أراهن على أنك من بين جميع الرجال لن تخبر آدم».

«هل كنت تعلم عنها؟»

قال لي «بالطبع»

«هل يعلم ولدان؟»

«لا أعتقد ذلك، لكن هذه مسألة وقت فقط. أنت تعرف مدى قسوة الأطفال. يوماً ما في باحة المدرسة سوف يتحدثون بصوت عال عن الأمر أمامهما».

قال صموئيل: «ربما كان عليه أن يبعدهما من هنا، فكر في ذلك يا لي».

«لم تجبني يا سيد هاملتون. كيف استطعت أن تفعل ذلك؟»

«هل تعتقد أنني كنت مخطئاً؟»

«لا، لا أقصد ذلك على الإطلاق. لكنني لم أعتقد أبداً أنك تتخذ موقفاً قوياً وثابتاً من أي شيء. كان هذا رأيي. هل أنت مهتم بالسمع؟»

قال صموئيل: «أرني رجلاً لا يهتم بمناقشة تتعلق به، أكمل».

«أنت رجل طيب يا سيد هاملتون. ولطالما اعتقدت أنه ذلك اللطف الذي يأتي من عدم الرغبة في التورط في أي مشكلة. وعقلك سلس كما خروف صغير يتقاذف في حقل أقحوان، ولم تسيطر يوماً على أي شيء على حد علمي. ثم تأتي الليلة وتفعل شيئاً يمزق هذه الصورة بأكملها».

خلع صاموئيل قبعة السوداء ووضعها في حجره: «أعتقد أن الأمر فاجأني بقدر ما فاجأك، ولكن إذا كنت تريد معرفة السبب، فابحث في نفسك».

«أنا لا أفهمك».

«إذا كنت قد أخبرتني عن بحثك في وقت سابق لربما كنت قد أحدثت فرقًا كبيرًا يالي.»

«ما زلت لا أفهمك.»

«احترس يالي، سوف تجعلني أتحدث. أخبرتك أن نزعتي الإيرلندية تأتي وتذهب. إنها قادمة الآن.»

قال لي: «سيد هاملتون، أنت ذاهب بعيدًا ولن تعود. أنت لا تنوي أن تعيش لفترة أطول.»

«هذا صحيح يالي. كيف عرفت؟»

«هناك موت يحوم حولك، ويشرق منك»

قال صموئيل: «لم أكن أعرف أن أحداً يمكنه رؤيته. أرى أن حياتي تشبه الموسيقى، ليست دائماً موسيقى جيدة ولكنها تستمر بالتمتع بالشكل واللحن. ومقطوعة حياتي لم تكتمل كأوركسترا كاملة منذ وقت طويل. ظلت بلحن واحد فقط - نوتة حزينه لا تتغير. لست وحدي من يتعامل مع الحياة هكذا يالي. يبدو لي أن الكثير منا يتصور أن الحياة تنتهي بالهزيمة.»

قال لي: «ربما الجميع أثرياء للغاية. لقد لاحظت أنه لا يوجد استياء مثل استياء الأغنياء. أطعم رجلاً، ألبسه، وضّعه في بيت جيد، فيموت من اليأس.»

«لقد كانت الترجمة الخاصة بك والمكونة من كلمتين يالي - «لك أن» - هي التي أخذتني من حنجرتي وهزنتي. وعندما انتهى الذهول كان الطريق مفتوحاً وجديداً ومشرقاً. كما حياتي التي يبدو أنها ستنتهي بشكل رائع. لقد أصبح في موسيقي لحن جديد كما أغنية طائر في الليل.»

كان لي ينظر إليه في تلك الحلقة: «هذا ما فعلته الكلمتان بأولئك الرجال المسنين في عائلتي.»

«لك أن تنتصر على الخطيئة»، هذا هو. لا أعتقد أن كل الرجال قد دُمروا.

يمكنني أن أذكر لك عشرات الأشخاص الذين لم يفعلوا، وهم الأشخاص الذين يعيش بهم العالم. هذا صحيح بالنسبة للروح كما هو في المعارك - حيث لا يتم تذكر سوى المنتصر. من المؤكد أن الكثير من الرجال قد هلكوا، لكن هناك آخرون يشبهون أعمدة النار، يوجهون الخائفين في الظلام؛ «لأن!» يا له من مجد! صحيح أننا ضعفاء ومرضى ومثيرون للجدل، لكن إذا كان هذا هو كل ما كنا عليه، لكننا منذ آلاف السنين قد اختفينا من على وجه الأرض. بقايا عظام الفك المتحجر، وبعض الأسنان المكسورة في طبقات الحجر الجيري، ستكون العلامة الوحيدة التي يتركها الإنسان ليثبت وجوده يوماً في العالم.

لكن الاختيار يا لي، خيار الانتصار! لم أفهمه أو أتقبله من قبل. هل ترى الآن لماذا أخبرت آدم الليلة؟ لقد مارست فعل الاختيار. ربما كنتُ مخطئاً، لكن من خلال إخباره دفعته أيضاً إلى العيش أو التوقف عن هدر حياته.

«هلا أوقفت العربة؟»

«ستمشي لوقت طويل في طريق العودة».

نزل لي وهو يقول: «صموئيل!».

«ها أنا ذا». ضحك الرجل العجوز: «ليزا تكره عندما أقول ذلك».

«صموئيل، لقد تجاوزتني».

«حان الوقت يا لي».

قال لي: «وداعاً يا صموئيل» ومشى مسرعاً عائداً على طول الطريق وهو يسمع صوت الإطارات الحديدية للعربة وهي تطحن الطريق. استدار ونظر لمرّة أخيرة، على المنحدر رأى صموئيل العجوز في مواجهة السماء، وشعره الأبيض يبرق بنور النجوم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

نهاية الجزء الأول



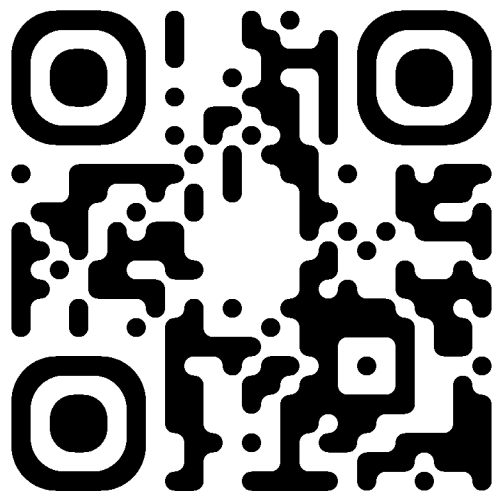
# شَرْتِي عَدْن

لزنسي تشرين .. 23

لزنسي غزوة والشهداء

انضم ل مکتبة .. اصحح الكود

telegram @soramnqraa



شرقي عدن

جون شتاينبك

ترجمة: فاطمة نعيمة

تحرير: عبد المجيد سباطة

عنوان الرواية باللغة الإنكليزية:

*East of Eden*

*By John Steinbeck*

الطبعة الأولى: أغسطس - آب، 2022 (1000 نسخة)

Arabic Translation Copyrights@Dar Al – Rafidain 2022

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

مكتبة

t.me/soramnqraa



بغداد - العراق / شارع المتني عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

Dar ALRafidain دار الرافدين

daralrafidain

dar.alrafidain

dar\_alrafidain

daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 671 - 42 - 0

جون شتاينبك

مكتبة | سُرَّ مَنْ قَرَأَ

# شُرَّتِي عَدُن

الجزء الثاني

ترجمة

فاطمة نعيمة



[www.daralrafidain.com](http://www.daralrafidain.com)

كان فصل الشتاء رطبًا ورائعًا في وادي ساليناس. هطلت الأمطار بلطف ولم تحدث سيولا. كان العلف وافرًا في يناير، وفي فبراير كانت التلال متخمة بالعشب وبدت معاطف الماشية قوية وناعمة. في مارس استمرت الأمطار الخفيفة، وانتظرت كل عاصفة بلطف حتى تغلغلت سابققتها تحت الأرض. ثم غمر الدفء الوادي وازدهرت الأرض بالأصفر والأزرق والذهبي.

كان توم وحده في المزرعة، وحتى كومة الغبار تلك كانت تبدو غنية وجميلة وأصبحت أحجار الصوان تغمرها الأعشاب. كانت أبقار هاملتون سمينية ونبت العشب على الظهور الرطبة لأغنامه.

ظهيرة يوم 15 مارس جلس توم على المقعد خارج الورشة. كان الصباح المشمس قد انتهى، والسحب الرمادية الجبلى بالمياه تبخر فوق الجبال من المحيط وتنزلق ظلالها على الأرض الساطعة.

سمع توم أصوات حوافر حصان تقترب فرأى ولدًا صغيرًا يلوح بيديه ويحث حصانًا منهكًا على التوجه نحو المنزل. وقف وسار باتجاه الطريق. رأى الصبي يركض إلى المنزل، ينزع قبعته، ويخرج مظروفًا أصفر من تحته ويرميه على الأرض، ويستدير بحصانه ويحثه على الركض مرة أخرى.

ناداه توم، ثم انحنى بضجر والتقط البرقية. جلس في الشمس على المقعد خارج الورشة ممسكًا بالبرقية في يده ويتأمل التلال والبيت القديم وكأنه ينقذ

شيئاً ما، قبل أن يفتح الظرف ويقرأ الكلمات الأربع المحتموة، الشخص، الحدث، والوقت.

طوى توم البرقية ببطء مرارًا حتى أصبحت مربعًا بحجم إبهامه. مشى إلى المنزل، عبر المطبخ، غرفة المعيشة الصغيرة، إلى غرفة نومه. أخرج بدلته السوداء وقميصًا أبيض وربطة عنق سوداء ووضعها على ظهر كرسي، ثم استلقى على السرير وأدار وجهه إلى الحائط.

## 2

غادرت الحناطير والعربات مقبرة ساليانس. ذهبت العائلة والأصدقاء إلى منزل أوليف في سترال أفينيو لتناول الطعام وشرب القهوة ومواساة بعضهم البعض وفعل وقول الأشياء اللائقة.

عرض جورج على آدم تراسك أن يوصله في حنطوره المستأجر، لكن آدم رفض. تجول حول المقبرة وجلس على السور الأسمتي لمقبرة آل ويليامز. كانت أشجار السرو التقليدية الداكنة كما دموع تحيط بالمقبرة، والبنفسج الأبيض يملأ الممرات، ربما أحضر شخص ما البعض منه وتكاثر.

هبب الرياح الباردة على شواهد القبور وصرخت في أشجار السرو. كان هناك العديد من النجوم المصنوعة من الحديد الزهر والتي تشير إلى قبور رجال الجيش الكبير، ويعلو كل نجمة علم صغير مهترئ بفعل الرياح يعود إلى احتفالات يوم الزخرفة قبل عام.

جلس آدم ينظر إلى الجبال الواقعة شرق ساليانس تحت هيبة قمة فريمونت. كان الهواء صافيا وبلوريا كما هو الحال عندما يسقط المطر. ثم بدأ مطر خفيف يهطل على الرغم من أن السماء كانت خالية من الغيوم.

كان آدم قد صعد في قطار الصباح. لم يكن ينوي المجيء على الإطلاق، لكن شيئاً ما فاق قدرته على المقاومة لسبب واحد: أنه لم يصدق أن صموئيل

قد مات. كان ما زال بإمكانه سماع موسيقى صوته في أذنيه، والنغمات التي تتصاعد وتهبط في غرابتها، وتلك الموسيقى المميزة للكلمات التي كان يختارها بشكل غريب يجعلك غير متأكد من الكلمة التالية. في أحاديث معظم الرجال تكون دائماً متأكداً تماماً من الكلمة التالية.

ذهب آدم للإلقاء النظرة الأخيرة على صموئيل في تابوته وهو على يقين أنه لا يريد أن يموت. وبما أن وجه الرجل الراقد في التابوت لم يكن يشبه وجه صموئيل، ابتعد آدم ليكون بمفرده ويحتفظ بالرجل على قيد الحياة في ذهنه. كان عليه أن يذهب إلى المقبرة، لأنه من المعيب عرفاً أن يغيب. لكنه وقف في الخلف حيث لم تصله كلمات النعي، وعندما أهال الأبناء التراب على الجسد، سار بعيداً وتمشى في المسارات التي نما فيها البنفسج الأبيض. كانت المقبرة مهجورة وأدى صوت الريح الداكن إلى انحناء أشجار السرو الكثيفة. أصبحت قطرات المطر أكبر واندفعت بشكل لاذع.

نهض آدم ومشى ببطء وهو يرتجف متجاوزاً القبر الجديد. كان قد تم وضع الزهور بشكل متساوٍ لتغطية كومة الأرض الرطبة الجديدة، لكن الرياح أفسدت الأزهار وألقت الباقات الصغيرة في الطريق. حملها آدم وأعادها إلى الكومة. خرج من المقبرة والمطر ينهمر، متجاهلاً البلب الذي غمر معطفه الأسود. كان طريقاً موحلاً مع انتشار لبرك من الماء في شقوق العجلات الجديدة، نما الشوفان البري الطويل والخردل على جانبي الطريق، واللفت البري العالي وخرزات لزجة من الأشواك الأرجوانية كانت ترتفع فوق هذا الفيض الأخضر في الربيع الرطب.

غطى الطين الأسود حذاء آدم ولوث أطراف سرواله الغامق. كان على بعد ميل تقريباً من طريق مونتييري. كان متسخاً عندما وصل إليه وتحول شرقاً إلى بلدة ساليناس. كان الماء يغمر الحافة المنحنية لقبعته الديرابي وياقته المتدلّية.

ينحني الشارع في طريق جون ليصبح شارعاً رئيسياً، هناك قام آدم بإزالة الطين من حذائه عندما وصل إلى الرصيف. ثم زاد من سرعته بعد أن قطعت المباني الرياح عنه وبدأ على الفور تقريباً يرتجف من البرد. بالقرب من الطرف الآخر من الشارع الرئيسي اتجه إلى حانة أبوت وطلب البراندي وشربه بسرعة فزادت رجفته. قال له السيد لابيير من خلف المشرب: «من الأفضل أن تشرب كأساً أخرى، ستصاب بنزلة برد سيئة. هل تود تناول مشروب الروم؟ هذا سوف يطرده منك».

قال آدم: «نعم أود ذلك».

«حسناً تفضل. اشرب الكونياك بينما أجلب بعض الماء الساخن».

أخذ آدم كأسه إلى طاولة وجلس بملابسه المبتلة وهو غير مرتاح. أحضر السيد لابيير غلاية بخار من المطبخ. وضع كأساً صغيرة على صينية وأحضرها إلى الطاولة. قال «اشربه ساخناً بقدر ما تستطيع تحمله، هذا يخرج البرد حتى من الحور الرجراج». رفع كرسيه وجلس، ثم قام قائلاً: «لقد جعلتني أشعر بالبرد، سأشرب كأساً أيضاً». أحضر كأسه إلى الطاولة وجلس مقابل آدم «إنها تعمل. كنت شاحباً جداً لدرجة أنك أخفتني عندما دخلت. هل أنت غريب؟»

قال آدم: «أنا من كينغ سيتي».

«أتيت للجنزة؟»

«نعم، لقد كان صديقاً قديماً».

«هل كانت جنزة كبيرة؟»

«نعم».

«لست متفاجئاً. كان لديه الكثير من الأصدقاء. مؤسف جداً أنه لم يكن يوماً

لطيفاً. لا بد أن تشرب واحدة أخيرة ثم تذهب إلى الفراش».

قال آدم: «سأفعل. إنه يجعلني أشعر بالراحة والاسترخاء».

«ربما أنقذك من الالتهاب الرئوي أيضًا».

بعد أن قدم له كأساً أخرى أحضر قطعة قماش مبللة من خلف الحانة:  
«يمكنك أن تمسح بعضًا من ذلك الوحل. الجنائز ليست ممتعة بكل حال،  
ولكن أن تمطر فيها - فهذا أمر محزن بحق».

قال آدم: «لم تمطر إلا بعد الانتهاء».

«لماذا لا تأخذ غرفة جميلة هنا؟ تذهب الى الفراش وسأرسل لك الويسكي  
الساخن وفي الصباح ستكون بخير».

قال آدم: «أعتقد أنني سأفعل ذلك». كان يشعر بالدم يوخز خديه ويجري  
بحرارة في كتفيه كما لو كان هناك سائل غريب دافئ يسيطر على جسده. ثم  
وصل إلى الصندوق البارد المخفي حيث كان يخزن الأفكار المحرمة، ظهرت  
تلك الأفكار بخجل مثل الأطفال الذين لا يعرفون ما إذا كان سيتم استقبالها.  
التقط آدم قطعة القماش المبللة وانحنى للأسفل لينظف حواف سرواله  
بالإسفنجة.

شعر بالدم ينفجر خلف عينيه. قال «ربما آخذ كأساً أخرى».

قال السيد لاير: «إذا كان هذا للبرد، فقد اكتفيت. ولكن إذا كنت تريد  
الشرب فقط فلدي بعض الروم الجامايكي القديم. أنصحك بشربه دون إضافة،  
عمره خمسون سنة. الماء سيقتل النكهة».

قال آدم: «أريد مشروبًا فحسب».

«سأشرب كأساً معك. لم أفتح هذا الإبريق منذ شهور. ليس هناك الكثير من  
الطلب عليه. هذه مدينة يُشرب فيها الويسكي».

مسح آدم حذائه وأسقط القماش على الأرض. تناول جرعة من الروم  
الداكن وسعل. غلّف المشروب الثقيل برائحته الحلوة رأسه وضرب قاعدة  
أنفه بقوة. شعر بالغرفة تنحرف جانبياً ثم تصحح نفسها.



«إنه جيد، أليس كذلك؟» سأله السيد لابيير «ولكن يمكنه أن يطرح أرضاً. لا أنصحك بأكثر من كأس - إلا إذا كنت ترغب بالطبع في أن تُطرح أرضاً. البعض يفعل».

اتكأ آدم بمرفقيه على الطاولة. كان يسمع ثرثرة تقترب منه ويشعر بالخوف. بدا له صوته مختلفاً، وكلماته أذهلته.

قال «أنا لا آتي هنا كثيراً. هل تعرف مكاناً اسمه مبغى كيت؟»  
«يا ايها المسيح! هذا الروم أفضل مما كنت أعتقد» قال السيد لابيير «هل تعيش في مزرعة؟»

«نعم. بالقرب من كينغ سيتي. اسمي تراسك».

«سعيد بمعرفتك. متزوج؟»

«لا. ليس في الوقت الراهن».

«أرمل؟»

«نعم».

«اذهب إلى مبغى جيني. دع كيت، لن تفيدك. مبغى جيني قريب. اذهب إليه وستحصل على كل ما تحتاجه».

«هل هو قريب؟»

«بالتأكيد، تتجه شرقاً مسافة مبني ونصف وتستدير لليمين. سيخبرك أي شخص أين هو».

كان لسان آدم يزداد ثقلاً «ما خطب مبغى كيت؟» قال السيد لابيير: «اذهب إلى مبغى جيني فحسب».

### 3

كانت أمسية قدرة وعاصفة. كان شارع كاستروفيل غارقاً في الوحل اللزج، وغمرت المياه الحي الصيني لدرجة أن سكانه وضعوا ألواحاً خشبية عبر

الشارع الضيق الذي يفصل بين أكوأخهم. كانت غيوم المساء رمادية، والهواء ليس مبتلاً لكنه شديد الرطوبة. أعتقد أن الاختلاف هنا هو أن البلبل ينزل ولكن الرطوبة ترتفع بسبب العفن والتخمر. كانت رياح الظهريرة قد سكنت وتركت الهواء هائجاً وجريحاً، والجو بارد بدرجة كافية لفض ستائر الروم في رأس آدم من دون خجل أو تردد.

سار بسرعة على الأرصفة غير المعبدة وعيناه على الأرض لتجنب الوقوع في البرك. كان الشارع مضاء بشكل خافت بفوانيس التحذير التابعة لسكة الحديد التي تقطع الشارع وبواسطة مصباح كربوني صغير من شرفة جيني. كان آدم يتبع التعليمات التي سمعها قبل قليل. أحصى منزلين وكاد ألا يتتبع للمنزل الثالث حيث كانت الشجيرات الداكنة أمامه مرتفعة وغير مقيدة. نظر من خلال البوابة إلى الشرفة المظلمة وفتح الباب ببطء ودخل. في منتصف الدرب المظلم، كان بإمكانه رؤية الشرفة المتهدمة المتدلية والدرجات المتقلقلة.

كان الطلاء قد اختفى لفترة طويلة من الجدران ولم يتم القيام بأي عمل على الإطلاق في الحديقة، ولولا وريد الضوء الظاهر حول حواف الستائر لكان قد مر عليها معتقداً أن المنزل مهجور. بدا أن درجات السلم تنهار تحت ثقله بصريير ألواحها وهو يخطو فوقها.

فُتح الباب الأمامي ورأى شخصاً قاتماً يمسك المقبض. قال بصوت ناعم «ألا تدخل؟»

كانت غرفة الاستقبال مضاءة بشكل خافت بواسطة مصابيح صغيرة مثبتة تحت مظلات وردية اللون. شعر آدم بسماكة السجادة تحت قدميه وتأمل تألق الأثاث المصقول وبريق إطارات الصور الذهبية. وأصبح لديه انطباع سريع عن ثراء ونظام المكان.

قال الصوت الناعم، «كان عليك أن ترتدي معطفاً واقياً من المطر. هل نعرفك؟»

قال آدم: «لا، لا تعرفني».

«من أرسلك إلى هنا؟»

«رجل من الفندق». حدّق آدم في الفتاة التي كانت أمامه. كانت ترتدي ثياباً سوداء دون حلي. كان وجهها حاداً - جميلاً وحاداً. حاول أن يتذكر أي حيوان أو طائر ليلي كانت تذكره به، كان حيواناً غامضاً ومفترساً.

قالت الفتاة: «سأقرب من المصباح إذا أردت».

«لا».

ضحكت قائلة: «اجلس هنا. لقد أتيت إلى هنا من أجل شيء ما، أليس كذلك؟ إذا أخبرني بما تريد، سأستدعي لك الفتاة المناسبة». كان لصوتها الأجنس قوة دقيقة. وقد اختارت كلماتها كما يختار أحدهم الأزهار التي يريد قطعها في حديقة مختلطة ويأخذ وقته في ذلك الاختيار.

جعلت آدم يبدو أخرقاً. قال: «أريد أن أرى كيت».

«الآنسة كيت مشغولة. هل تعلم بمجيئك؟»

«لا».

«يمكنني الاهتمام بك»

«أريد رؤية كيت»

«هل يمكنك إخباري عن سبب طلبك لمقابلتها؟»

«لا»

أصبحت نبرة الفتاة كما حافة نصل تم شحذه على حجر: «لا يمكنك رؤيتها. إنها مشغولة. إذا كنت لا تريد فتاة أو أي شيء آخر فمن الأفضل أن تغادر».

«حسنًا، هل يمكنك إخبارها أنني هنا؟»

«هل تعرفك؟»

«لا أعرف». شعر بشجاعته تتراجع «لا أعرف. لكن هلا أخبرتها أن آدم تراسك يود رؤيتها؟ ستعرف بعد ذلك ما إذا كنتُ أعرفها أم لا».

«حسنًا، سأخبرها». تحركت بصمت إلى باب على اليمين وفتحته. سمع آدم بضع كلمات مكتومة ونظر رجل عبر الباب. تركت الفتاة الباب مفتوحًا حتى يعرف آدم أنه ليس بمفرده. على جانب من الغرفة كانت هناك ستائر ثقيلة داكنة معلقة فوق مدخل.

اخترقت الفتاة ثنايا الستائر العميقة واختفت. جلس آدم على كرسيه. رأى رأس الرجل يندفع إلى الداخل ثم ينسحب.

كانت غرفة كيت الخاصة مريحة وفخمة. لم يكن يبدو على الإطلاق كما الغرفة التي كانت تعيش فيها في. كانت الجدران مغطاة بحرير زعفراني والستائر ذات لون أخضر تفاحي. كانت غرفة حريرية - كراس وأرائك عميقة مع وسائد منجدة بالحرير، ومصابيح ذات ظلال حريرية، وسرير عريض في الطرف البعيد من الغرفة بغطاء ساتاني أبيض لامع مكدّسة عليه وسائد ضخمة. لم تكن هناك صورة على الحائط ولا شيء شخصي من أي نوع. لم يكن هناك أي شيء فوق المنضدة القريبة من السرير والمصنوعة من خشب الأبنوس وقد انعكس لمعانها في المرايا الثلاثية. السجادة كانت صينية قديمة وفاخرة بلون زعفراني، تتوسطها رسمة لتنين أخضر بلون التفاح. كانت نهاية الغرفة عبارة عن غرفة نوم، وكان الجزء الأوسط منها مركزاً اجتماعياً، والطرف الآخر كان مكتباً - خزانات من خشب البلوط الذهبي لحفظ الملفات، وخزانة كبيرة سوداء بحروف ذهبية، ومكتب قابل للطي مع مصباح مزدوج بغطاء أخضر، كرسي دوار خلفه وكرسي مستقيم بجانبه.

جلست كيت على الكرسي الدوار خلف المكتب. ما تزال جميلة. عاد شعرها لشقرته مرة أخرى. كان فمها صغيراً وحازماً ومرتفعاً عند الزوايا كما هو الحال دائماً. أصبحت أكتافها أكثر امتلاء بينما يداها امتلأتا بالتجاعيد.

خدودها تبدو بارزة والجلد تحت ذقنها متجعداً، ثدياها ما زالا صغيرين، لكن طبقة من الشحم جعلت بطنها تبرز قليلاً، بينما ظل وركاها نحيفين. ساقاها وقدمائها أصبحتا أسمن بحيث كان هناك انتفاخ واضح للجلد أعلى حذائها. ومن خلال جواربها بالإمكان رؤية الضمادات المرنة الموضوعة بشكل خفي لدعم الأوردة.

مع ذلك كله، ما زالت جميلة وأنيقة.

فقط يداها تقدمتا في السن حقاً، بينما راحتا الكفين وأطراف الأصابع كانت براقية ومشدودة، والتجاعيد والبقع البنية المتناثرة كانت فقط على ظهر يدها. كانت ترتدي فستاناً داكناً بأكمام طويلة، وكان التباين الوحيد هو الدانتيل الأبيض حول معصمها ورقبتها.

كان فعل السنوات بها خفياً. من كان قريباً منها من المحتمل ألا يلاحظ أي تغيير على الإطلاق. لم تعد حدود كيت مبطنّة، وعيونها أضحّت حادة وضحلة، وأنفها رقيقاً، وشفاهها نحيفة وصارمة. كانت الندبة على جبينها بالكاد مرئية، مغطاة ببودرة ملونة لتناسب مع سحتها.

تفقدت كيت مجموعة من الصور على مكتبها، جميعها بنفس الحجم، وكلها التقطت بنفس الكاميرا وبذات السطوع ببودرة الفلاش. وعلى الرغم من اختلاف الشخصيات في كل صورة، إلا أنه كان هناك تشابه كثيب بها؛ لم تكن وجوه النساء أبداً تنظر للكاميرا.

رتبت كيت الصور في أربع مجموعات ووضعت كل مجموعة في مظروف ثقيل. عندما سمعت طرقاتاً على بابها، وضعت المغلفات في درج في مكتبها: «تفضل. أوه إيفا. هل هو هنا؟»

جاءت الفتاة إلى المكتب قبل أن تجيب. بدا وجهها مشدوداً وعيناها لامعتان في الضوء: «إنه جديد، وغريب. يريد رؤيتك».

«حسنًا، لا يمكنه ذلك يا إيفا. أنتِ تعرفين من سيأتي الليلة».

«أخبرته أنك لا تستطيعين رؤيته. يقول إنه يعرفك».

«حسنًا، من هو إيفا؟»

«رجل شرير وكبير ومخمور قليلاً. يقول إن اسمه آدم تراسك».

على الرغم من أن كيت لم تقم بأي حركة أو صوت، إلا أن إيفا علمت أن شيئًا ما قد أصابها. التفت أصابع يد كيت اليمنى ببطء حول راحة يدها بينما تسللت أصابع اليد اليسرى مثل قطة نحيلة نحو حافة المكتب. جلست كيت دون حراك كما لو أنها كانت تحبس أنفاسها. كانت إيفا متوترة. ذهب عقلها إلى الصندوق الموجود في درج الخزانة حيث تحتفظ بإبرها.

قالت كيت أخيرًا «اجلسي هناك على ذلك الكرسي الكبير يا إيفا. فقط اجلسي دقيقة واحدة». عندما لم تتحرك الفتاة، جلدها كيت بكلمة واحدة. «اجلسي!»، تراجعت إيفا وذهبت إلى الكرسي الكبير. مكتبة سُر من قرأ قالت كيت: «لا تقضي أظافرك».

افترقت يدا إيفا، وتعلقت كل منهما بذراع الكرسي.

بقيت كيت محدقة في ظلال الزجاج الأخضر للمصباح المكتبي أمامها. ثم تحركت فجأة لدرجة أن إيفا قفزت وارتجفت شفتاها. فتحت كيت درج المكتب وأخرجت ورقة مطوية. «هاك! اذهبي إلى غرفتك ورتبي هيئتك. لا تتناوليها كله - لا، لا أثق بك». نقرت كيت على الورقة ومزقتها إلى قسمين؛ انسكب القليل من المسحوق الأبيض قبل أن تطوي الأطراف وتمرر واحدة إلى إيفا. «والآن أسرع! عندما تنزلين إلى الطابق السفلي أخبرني رالف أنني أريده في القاعة قريبًا بما يكفي لسماع الجرس ولكن ليس الأصوات. راقبيه لترى أنه لا يتسلل. إذا سمع الجرس - لا، قولي له - لا، دعيه يفعل ذلك بطريقته الخاصة. ثم بعد ذلك أحضري السيد آدم تراسك إلي».

«هل ستكونين بخير، آنسة كيت؟»

نظرت إليها كيت حتى ابتعدت ثم نادتها قائلة: «يمكنك الحصول على النصف الآخر بمجرد مغادرته. والآن أسرعى».

بعد أن أغلق الباب، فتحت كيت الدرج الأيمن من مكتبها وأخرجت مسدسًا، قامت بتفقد الأسطوانة والخراطيش، ثم أغلقته ووضعه على سطح مكتبها ووضعت ورقة فوقه. أطفأت أحد الأضواء واسترخت على كرسيها وهي تشبك يديها على المكتب أمامها.

عندما طرق الباب نادت «تفضل» وهي بالكاد تحرك شفيتها.

كانت عينا إيفا مبللتين وكانت مسترخية. قالت: «ها هو» وأغلقت الباب خلف آدم.

نظر حوله بسرعة قبل أن يلمح كيت جالسة بهدوء خلف المكتب. حدق فيها ثم تحرك نحوها ببطء.

يذاها مفتوحتان وتحركت يدها اليمنى نحو الورقة. بقيت عيونها الباردة والخالية من التعبيرات تنظر في عينيه.

رأى آدم شعرها وندبتها وشفيتها وحلقها وذراعيها وكتفيها وThديها المسطحين. تنهد بعمق.

ارتجفت يد كيت قليلاً. قالت، «ماذا تريد؟»

جلس آدم على الكرسي الموضوع بجانب المكتب. تمنى لو أن بإمكانه أن يصرخ بارتياح، لكنه قال: «لا شيء الآن. أردت فقط أن أراك. أخبرني سام هاملتون أنك هنا».

في اللحظة التي جلس فيها غادرت الرجفة يدها. «ألم تسمع بذلك من قبل؟»

قال «لا، لم أسمع. لقد أثار جنوني قليلاً في البداية، لكنني الآن بخير».

استرخت كيت وابتسم فمها وظهرت أسنانها الصغيرة والأنياب الطويلة الحادة والناصعة. قالت: «لقد أخفتني».

«لماذا؟»

«حسنًا، لم أعرف ماذا ستفعل».

قال آدم: «ولا أنا» واستمر في التحديق فيها كما لو أنها لم تكن على قيد الحياة.

«كنت أتوقع قدومك منذ وقت طويل، وعندما لم تأت اعتقدت أنني نسيتك».

مكتبة

t.me/soramnqraa

قال: «أنا لم أنسك، ولكن يمكنني ذلك الآن».

«ماذا تعني؟»

ضحك بسرور «أعني أنني الآن يمكنني أن أراك. أتعلمين، أعتقد أن صموئيل هو من قال إنني لم أرك من قبل، وهذا صحيح. أتذكر وجهك لكنني لم أره من قبل. الآن يمكنني أن أنساك».

أغلقت شفيتها وضافت عيناها الواسعتان بنظرة قاسية: «هل تعتقد أنك تستطيع؟»

«أعلم أنني أستطيع».

غيرت أسلوبها. قالت: «ربما لن تضطر إلى ذلك، إذا كنت تشعر بأنك على ما يرام بشأن كل شيء، فربما يمكننا أن نجتمع».

قال آدم: «لا أعتقد ذلك».

قالت: «لقد كنت أحمقًا كما الأطفال. لم تكن تعرف ما يجدر بك فعله لنفسك. الآن أستطيع أن أعلمك. يبدو أنك أصبحت رجلاً».

قال: «لقد علمتني بالفعل، لقد كان درسًا حادًا جدًّا».



«هل ترغب بشراب؟»

«نعم».

«أستطيع أن أشم رائحة أنفاسك - كنت تشرب الروم». نهضت وذهبت إلى الخزانة لإحضار زجاجة وكأسين، وعندما استدارت إلى الوراها لاحظت أنه كان ينظر إلى كاحليها. لم يغير غضبها السريع الابتسامة الصغيرة على شفيتها. حملت الزجاجة إلى المائدة المستديرة في منتصف الغرفة وملأت الكوبين الصغيرين بالروم. قالت: «تعال واجلس هنا. إنها مريحة أكثر». عندما انتقل إلى الكرسي الكبير لاحظت أنه ينظر لبطنها البارزة. أعطته كأساً وجلست وهي تطوي يديها على وسطها.

«اشربه. إنه شراب جيد». ابتسم لها ابتسامة لم ترها من قبل. قالت: «عندما أخبرني إيفا أنك هنا فكرت في البداية أن أطلب منهم رميك في الخارج». قال: «كنت لأعود، كان علي أن أراك - ليس لأنني لم أثق في كلام صموئيل، ولكن لإثبات ذلك لنفسي».

قالت: «اشرب شرابك». نظر إلى كأسها.

«لا يمكنك أن تظن أنني سأسممك -» توقفت وغضبت لأنها قالت ذلك. بقي مبتسماً ومحدقاً في كأسها. غمر غضبها وجهها. حملت كأسها وعندما لامست شفيتها قالت: «الخمور تجعلني أشعر بالمرض، أنا لا أشرب أبداً. إنها تسممني». أغلقت فمها بشدة وعضت أسنانها الحادة على شفيتها السفلى. استمر آدم في التبتسّم لها.

كان غضبها يتصاعد خارج نطاق سيطرتها. بسرعة قذفت النيذ في حلقها وبدأت بالسعال المتواصل لدرجة أن عينيهام دمعتا: «أنت لا تثق بي» قالت له وهي تمسح عينيهام بظهر يدها.

«لا، لا أفعل». رفع كأسه وشرب الروم، ثم قام وملأ الكأسين مجدداً.

قالت مذعورة: «لن أشرب بعد الآن».

قال آدم: «ليس عليك ذلك. سأنهاي هذا وأغادر».

احتراق الكحول في حلقها أشعرها بالإثارة التي كانت تخفيها. قالت: «أنا لست خائفة منك أو من أي شخص آخر» وشربت من كأسها الثاني.

قال آدم: «ليس لديك أي سبب لتخافي مني».

«يمكنك أن تنساني الآن. لكنك قلت إنك فعلت ذلك بالفعل».

شعر آدم بالدفء والأمان بشكل رائع، أفضل مما كان عليه لسنوات عديدة. قال: «كنت في جنازة سام هاملتون، كان رجلاً لطيفاً. سأفتقده. هل تتذكرينه كاثي، لقد ساعدك في ولادة التوأم؟»

احتدم الخمر في رأس كيت التي كانت تحاول مقاومته وظهر إجهاد القتال على وجهها.

«ما الأمر؟» سأل آدم.

«قلت لك إنها تسممني. أخبرتك أن الخمر يجعلني أشعر بالمرض».

قال بهدوء: «لم أستطع المخاطرة، لقد أطلقت النار علي مرة. لا أعرف ما الذي فعلته أيضاً».

«ماذا تقصد؟»

قال: «لقد سمعت بعض الفضائح، فضائح قذرة».

نست حينها محاربة إرادتها ضد الكحول، كانت قد خسرت المعركة بالفعل وتبخّر خوفها وحلت مكانه الوحشية غير الحذرة. انتزعت الزجاجاة وملأت كأسها.

كان على آدم أن ينهض ليصب لنفسه وهو يشعر بإحساس غريب تماماً عنه. كان مستمتعا وهو يراها تكافح وشعر بالرضا عن معاقبتها لكنه كان يقظاً أيضاً. قال لنفسه «يجب أن تكون حذراً. لا تتحدث، لا تتحدث».

قال بصوت عال: «كان سام هاملتون صديقاً جيداً لي طوال السنوات سأفتقده».

كانت قد ارتشفت بعض شراب الروم وتبللت زوايا فمها: «لقد كرهته، كنت لأقتله لو استطعت».

«لماذا؟ لقد كان لطيفاً معنا».

«كان يرى، كان يرى حقيقتي».

«ولم لا؟ لقد رأى حقيقتي أيضاً وساعدني».

قالت: «أنا أكرهه، وسعيدة لأنه مات».

قال آدم: «لربما كان الأمر جيداً لو كنت أنا رأيت حقيقتك».

قلبت شفتها: «أنت مجرد أحمق، لا أكرهك. أنت مجرد أحمق وضعيف».  
مع تصاعد توترها استقر هدوء دافئ في أعماق آدم.

صرخت: «نعم، اجلس هناك وابتسم، تعتقد أنك حر أليس كذلك؟ ترتشف بعض الكحول وتعتقد أنك أصبحت رجلاً! بإمكانني أن أثني إصبعي الصغير وستعود ملتهباً وزاحفاً على ركبتك». كان إحساسها بالقوة مفككاً وتخلت عن حذرها المشاكس. قالت: «أنا أعرفك، أعرف قلبك الجبان».

استمر آدم بالتبسم وتذوق شرابه، وذكّر لها ذلك بصب مشروب آخر لنفسها. ارتطم عنق الزجاجاة بكأسها وقالت: «عندما كنت مصابة كنت بحاجة إليك، لكنك كنت حثالة. وعندما لم أعد بحاجة إليك حاولت إيقافي. تخلص من تلك الابتسامة القبيحة عن وجهك».

«أتساءل ما الذي تكرهينه بشدة».

«تساءل، أليس كذلك؟» كان حذرهما قد تبخر بالكامل. هي ليست كراهية، إنه ازدراء. عندما كنت طفلة صغيرة كنت أعرف من هم الحمقى الكاذبون – والداي كانا يتظاهران بالطيبة ولم يكونا كذلك. كنت أعرفهما وبإمكانني أن

أجعلهما يفعلان ما أريد، يمكنني دائماً جعل الناس يفعلون ما أريد. عندما كنت يافعة، جعلت رجلاً يقتل نفسه. كان يتظاهر بأنه جيد أيضاً، وكل ما أراده هو مضاجعتي - فتاة صغيرة».

«لكنك تقولين إنه قتل نفسه. لا بد أنه كان نادماً جداً بشأن شيء ما».

قالت كيت: «لقد كان أحق، سمعته يأتي إلى باب منزلنا ويتوسل أبي، وضحكت طوال الليل».

قال آدم: «لم أكن لأحب الاعتقاد أنني دفعت إنساناً لإنهاء حياته».

«أنت أحق أيضاً. أتذكر كيف كانوا يتحدثون عني: «أليست كائناً جميلاً ساحراً؟ حلوة جداً، لذيذة جداً؟، لا أحد منهم عرفني حقاً، لقد جعلتهم يقفزون عبر الأطواق دون أن يدركوا ذلك أبداً».

قام آدم بإفراغ كأسه. شعر بأنه ناء ويَقِظ. شعر أن بإمكانه رؤية نبضاتها الزاحفة مثل النمل وقراءتها. كان ذلك الشعور الجميل بالفهم العميق الذي يمنحه إياه الكحول أحياناً. قال لها: «لا يهم ما إذا كنتِ تحبين سام هاملتون. عن نفسي وجدته حكيماً. أتذكر أنه قال ذات مرة إن المرأة التي تدعي أنها تعرف كل شيء عن الرجال عادة ما تعرف في الواقع جانباً واحداً فقط، ولا يمكنها تصور وجود جوانب أخرى، لكن هذا لا يعني عدم وجودها».

«لقد كان كاذباً ومنافقاً أيضاً». بصقت كيت كلماتها «هذا ما أكرهه، الكاذبون، وكلهم كذابون. هذه هي الحقيقة، وأنا أحب أن أظهرهم على حقيقتهم وأفرك أنوفهم في قبحهم».

ارتفعت حواجب آدم «هل تقصدين أنه في العالم كله لا يوجد سوى الشر والحماسة؟»

«هذا بالضبط ما أعنيه».

قال آدم بهدوء: «لا أصدق ذلك».

«آه أنت لا تصدق ذلك! أنت لا تصدق ذلك! هل تريد مني إثبات ذلك؟»

قال: «لا يمكنك».

قفزت وركضت إلى مكتبها، وأحضرت الأطرف البنية إلى الطاولة. قالت

«ألق نظرة»

«لا أريد ذلك»

«سأريك على أي حال». أخرجت صورة: «انظر هنا. هذا عضو في مجلس الشيوخ. يعتقد أنه سيرشح نفسه للكونغرس. انظر إلى بطنه السمين. لديه أذنان كما النساء. يحب السياط. هذا الخط هناك - هذه علامة سوط. انظر إلى التعبير على وجهه! لديه زوجة وأربعة أطفال وسيرشح للكونغرس. لا تصدق؟ انظر إلى هذا! كتلة الشحم الأبيض هذه وزير محلي؛ هذا السويدي الأحمر الكبير لديه مزرعة بالقرب من بلانكو. انظر هنا! هذا أستاذ في جامعة بيركلي. يأتي إلى هنا طالباً يرش ماء المرحاض على وجهه - أستاذ الفلسفة. وانظر إلى هذا! هذا خادم الإنجيل، أخ صغير ليسوع. كان يحرق منزلاً ليحصل على ما يريد. والآن نحن نمنحه ذلك بطريقة أخرى. هل ترى عود الثقاب المشتعل قرب خاصرته النحيفة؟»

قال آدم: «لا أريد أن أرى».

«حسنًا، لقد رأيتهم. وما زلت لا تصدق ذلك! سأجعلك تتوصل للوصول إلى هنا. سأجعلك تصرخ». حاولت أن تفرض إرادتها عليه، ورأت أنه غير متحيز وحر. تجمد غضبها حتى تحول إلى كتلة من السم. قالت بهدوء: «لم يفلح أحد في الهرب قط». كانت عيناها مسطحتين وباردتين لكن أظافرها كانت تمزق تنجيد الكرسي الحريري وتهتكه.

تنهد آدم: «إذا كانت لدي تلك الصور وعرف هؤلاء الرجال عن ذلك، فلا أعتقد أنني كنت سأشعر أن حياتي آمنة، أعتقد أن إحدى تلك الصور بإمكانها أن تدمر حياة الرجل. ألسنت في خطر؟»

«هل تعتقد أنني طفلة؟» سألته.

قال آدم: «لم تعودي كذلك، بدأت أعتقد أنك إنسان مشوه - أو ربما لست إنساناً على الإطلاق».

ابتسمت: «ربما تكون قد توصلت للحقيقة، هل تعتقد أنني أريد أن أكون إنساناً؟ انظر إلى تلك الصور! أفضل أن أكون كلباً على أن أكون إنساناً. لكنني لست بكلب. أنا أذكي من البشر. لا أحد يستطيع أن يؤذيني، لا تقلق بشأن الخطر». لوحت لخزائن الملفات «لدي مائة صورة جميلة هناك، وهؤلاء الرجال يعرفون أنه إذا حدث أي شيء لي - أي شيء - فسيتم إرسال مائة رسالة بالبريد، كل واحدة بها صورة وستذهب كل واحدة منها إلى حيث يمكن إحداث الضرر الأكبر. لا، لن يؤذوني».

سأل آدم، «لكن افترضني أنك تعرضت لحادث، أو ربما مرض؟»

قالت «هذا لن يحدث أي فرق». اقتربت منه وهمست «سأخبرك سرّاً لا يعرفه أي من هؤلاء الرجال. في غضون سنوات قليلة سأرحل. وعندما أفعل - سيتم إرسال تلك المغلفات في البريد على أي حال». ثم مالت للخلف في كرسيها وهي تضحك.

ارتجف آدم. نظر إليها عن كذب. كان وجهها وضحكها طفوليين وبرئيين. قام وسكب لنفسه شراباً آخر. كانت الزجاجاة فارغة تقريباً «أنا أعرف ما تكرهين، أنت تكرهين ما لا يمكنك فهمه. أنت لا تكرهين شرهم. أنت تكرهين الخير الذي لا يمكنك استخراجه منهم. أتساءل ما الذي تريدينه، ما هو الشيء الأخير الذي ترغبين فيه».

قالت: «سأحصل على كل المال الذي أحتاجه وأذهب إلى نيويورك ولن أتقدم في السن. أنا لست عجوزاً. سأشتري منزلاً جميلاً في حي جميل وسيكون لدي خدم لطفاء. قبل ذلك كله يجب أن أعثر على رجل، إذا كان ما

زال على قيد الحياة، وبيطء شديد ومع أكبر قدر من الاهتمام بالألم سأخذ منه حياته. إن فعلت ذلك بشكل جيد وحذر، فسيصاب بالجنون قبل أن يموت». بتلمل قال آدم: «هراء، هذا ليس صحيحاً، إنه جنون، لا يمكنني تصديق أي من هذا».

سألته: «هل تتذكر عندما رأيتني لأول مرة؟»

أظلم وجهه: «أوه يا إلهي، نعم!»

«هل تتذكر فكي المكسور وشفتي المنقسمة والأسنان المفقودة؟»  
«أتذكر. ولا أريد أن أتذكر».

قالت: «سيسعدني أن أجد الرجل الذي فعل بي ذلك. وبعد ذلك - ستكون هناك ملذات أخرى».

قال آدم: «يجب أن أذهب».

قالت، «لا تذهب يا عزيزي. لا تذهب الآن يا حبي. هذه الأغذية والملاءات من الحرير. أريدك أن تشعر بها على بشرتك».

«أنتِ حتماً لا تعنين ذلك!!»

«أوه طبعاً أفعل يا حبي. أنت لست ماهراً في الحب، لكن يمكنني أن أعلمك، سوف أعلمك. وقفت بثبات ووضعت يدها على ذراعه. بدا وجهها منتعشاً وشاباً لكن يدها كانت تبدو في نظر آدم مجعدة كما يد قرد وبالتالي ابتعد في اشمئزاز.

رأت إيماءته وفهمتها وعاد فمها متصلباً.

قال: «لا أفهم. لا يمكنني أن أصدق. أعلم أنني لن أصدق ذلك في الصباح. سيكون كابوساً. لكن لا، لا يمكن أن يكون كابوساً - لأنني أتذكر أنك أم أبنائي، التوأم اللذان لم تسأليني حتى الآن عنهما. أنتِ والدتهما».

وضعت كيت مرفقيها على ركبتيها وأرخت يديها تحت ذقنها حتى غطت أصابعها أذنيها المديبتين. كانت عيناها تبرقان بالانتصار وصوتها رقيقاً بشكل ساخر. قالت: لا بد للأحمق من ترك فجوة دائماً، اكتشفتُ ذلك في طفولتي. أنا أم ولديك. هل قلتَ ولديك؟ أنا الأم نعم - لكن كيف تعرف أنك الأب؟»

فتح آدم فمه بذهول: «كاثي، ماذا تقصدين؟»

قالت «اسمي كيت. اسمع يا حبيبي، وحاول تذكّر هذا: كم مرة سمحتُ لك بالاقتراب مني بما يكفي لإنجاب أطفال؟»

قال: «كنتِ مصابة، كنتِ متأذية بشدة».

قالت كيت «مرة واحدة فقط».

واحتج قائلاً: «لقد أتعبك الحمل، كان الأمر صعباً عليك».

ابتسمت له بلطف «لم أتأذى كثيراً من أخيك».

«أخي؟»

«هل نسيت تشارلز؟»

ضحك آدم بحسرة: «أنتِ شيطانة، لكن هل تعتقدين أنني يمكن أن أصدق ذلك عن أخي؟»

قالت: «لا يهمني ما تصدقه».

أجابها فوراً: «أنا لا أصدق ذلك».

«ستفعل. في البداية سوف تتساءل، ثم لن تكون متأكداً. ستعود بذاكرتك إلى تشارلز - كل شيء عنه. كان بإمكانني أن أحب تشارلز. كان يشبهني بطريقة ما».

«لم يفعل».

قالت: «ستتذكر. ربما في يوم من الأيام ستتذكر الشاي الذي كان طعمه مرّاً،



وكنت قد تناولت دوائي عن طريق الخطأ - هل تذكر ذلك اليوم؟ عندما نمت  
كما لم تنم من قبل واستيقظت متأخراً - ثقيل الرأس؟»  
«كنت في حالة لا يمكن أن تسمح لك بالتخطيط لشيء كهذا».

قالت: «يمكنني فعل أي شيء. والآن يا حبيبي، اخلع ملابسك وسأريك ما  
يمكنني فعله غير ذلك».

أغمض آدم عينيه ودار رأسه مع الروم، فتح عينيه وهز رأسه بعنف: «لا يهم  
حتى لو كان ذلك صحيحًا، لا يهم على الإطلاق». وفجأة ضحك لأنه علم أن  
الأمر كان كذلك. وقف سريعًا واضطر إلى الإمساك بظهر كرسيه ليثبت نفسه.  
قفزت كيت ووضعت كلتا يديها على مرفقه «دعني أساعدك في خلع  
معطفك».

لوى آدم يديها وكأنهما سلكان وتحرك نحو الباب بثبات.

اشتعلت الكراهية الخارجة عن السيطرة في عيون كيت وصرخت  
صرخة حيوان متوحش. توقف آدم واستدار نحوها. انفتح الباب بقوة  
ودخل القواد وبقبضته الثقيلة ضرب آدم تحت أذنه ليصطدم آدم فوراً  
بالأرض.

صرخت كيت: «بالحذاء!» اقترب رالف من الرجل وقاس المسافة. لاحظ  
عيني آدم المفتوحتين تحدقان به. التفت بقلق إلى كيت.  
كان صوتها بارداً «قلت لك عالجه بالحذاء. اكسر وجهه!»  
قال رالف: «إنه لا يقاوم».

جلست كيت قربه وهي تتنفس من فمها: «آدم، أنا أكرهك. أكرهك للمرة  
الأولى. أكرهك! هل تسمعني؟ أكرهك!»

حاول آدم الجلوس فسقط وحاول مرة أخرى. جالساً على الأرض نظر إلى  
كيت قال: «لم يعد هذا مهماً، لم يعد مهماً على الإطلاق».

نزل على ركبتيه ومفاصله على الأرض: «أتعلمين؟ أحببتك أكثر من أي شيء في العالم، فعلت حقاً، كان حباً قوياً لدرجة أنه تطلب محاولة قتل».

قالت: «ستعود زاحفاً. تجر بطنك على الأرض وتستجدي!»

«هل تريدني أن أهشم وجهه بالحذاء الآن آنسة كيت؟» سألتها رالف لكنها لم تجبه.

تحرك آدم ببطء شديد نحو الباب وهو يوازن خطواته بعناية.

نادته كيت: «آدم!»

استدار ببطء وابتسم لها كما يبتسم الرجل لذكرى ثم خرج وأغلق الباب برفق خلفه.

جلست كيت تحديق في الباب. كانت عيناها مقفرتين.



## الفصل 26

### 1

في القطار عائداً إلى كينغ سيتي من رحلته إلى ساليانس، كان آدم تراسك غارقاً في سحابة من الأشكال والأصوات والألوان الغامضة. لم يكن يدرك أي فكرة على الإطلاق.

أعتقد أن هناك تقنيات للعقل البشري يتم من خلالها تفحص طبيعة المشاكل أو رفضها أو قبولها بأعماقها الغامضة. تتعلق هذه الأنشطة أحياناً بجوانب لا يعرف المرء بوجودها فيه. كم من مرة يذهب المرء فيها إلى النوم مضطرباً ومليئاً بالأم لا يعرف سببه، وفي الصباح التالي يجد نفسه في اتجاه جديد وواضح. وهناك صباحات أخرى تضخ النشوة في الدم، ويصبح المرء متعشاً بفرح غامض لا يبرره سبب.

كان من المفترض أن يكون آدم بعد جنازة صموئيل والحديث مع كيت حزيناً ومكتئباً، لكنه لم يكن كذلك على الإطلاق. كانت تعتريه نشوة جعلته يشعر بأنه ما زال شاباً وحرّاً وممتلئاً بالبهجة الجائعة. نزل من القطار في كينغ سيتي، وبدلاً من الذهاب مباشرة إلى الإسطنبول لتسلم حصانه وعربته، سار إلى مرآب ويل هاملتون الجديد.

كان ويل جالساً في مكتبه ذي الجدران الزجاجية حيث يمكنه من خلاله متابعة نشاط الميكانيكيين دون سماع ضجة عملهم. كان ويل يزداد ثراءً. كان يقرأ إعلاناً عن سيجار يتم شحنه مباشرة من كوبا. اعتقد آدم أنه كان في

حداد على والده المتوفى لكنه لم يكن كذلك. كان قلقاً قليلاً بشأن توم الذي ذهب مباشرة من الجنازة إلى سان فرانسيسكو. لقد شعر أنه كان أكثر كرامة للمرء أن يغرق نفسه في العمل، كما يفعل هو، من الغرق في الكحول، كما كان يفعل توم على الأرجح.

نظر إلى الأعلى عندما دخل آدم إلى المكتب ولوح بيده إلى أحد الكراسي الجلدية الكبيرة التي كان قد جلبها لعملائه بما يتجاوز حجم الفواتير التي يتعين عليهم دفعها.

جلس آدم: «لا أعرف ما إذا كنت قد قدمت تعازي لك».

قال ويل: «إنه وقت حزين. هل كنت في الجنازة؟»

قال آدم: «نعم. لا أعرف ما إذا كنت تعرف شعوري تجاه والدك. لقد منحني أشياء لن أنساها أبداً».

قال ويل: «لقد كان رجلاً محترماً. حضر الجنازة أكثر من مائتي شخص».

قال آدم: «مثل هذا الرجل لا يموت حقاً، لا أستطيع استيعاب موته. بدا أكثر حيوية بالنسبة لي من ذي قبل».

«هذا صحيح»، قال ويل مع أنه بالنسبة له كان صموئيل ميتاً.

تابع آدم: «أفكر في الأشياء التي قالها لي. لم أكن أستمع باهتمام عندما كان ينطق بها، لكنها تعود لذاكرتي الآن بحيث يمكنني رؤية وجهه وهو يقولها».

قال ويل «بالفعل. كنت أفكر في الشيء نفسه. هل ستعود إلى منزلك؟»

«نعم. لكنني فكرت أن آتيك وأتحدث إليك بشأن شراء سيارة».

هنا طراً تغيير طفيف على ويل، نوع من اليقظة. «كنت سأقول إنك ستكون آخر رجل في الوادي يحصل لنفسه على سيارة» لاحظ وراقب بعيون نصف مغلقة منتظراً ردة فعل آدم.

ضحك آدم. قال «أعتقد أنني أستحق هذا، ربما يكون والدك مسؤولاً عن تغيير داخلي».

«ماذا تعني؟»

«لا أعرف كيف يمكنني شرح ذلك لك، على أي حال، دعنا نتحدث عن السيارة.»

قال ويل: «دعني أخبرك بخلاصة الأمر، الحقيقة هي أنني أعاني حالياً للحصول على ما يكفي من السيارات بسبب كثرة الطلبات. لماذا؟ لأن لدي قائمة بالأشخاص الذين يطلبونها.»

«أو حقاً؟ حسناً، ربما يمكنك وضع اسمي أيضاً في القائمة.»

«يسرني فعل ذلك لك سيد تراسك، و - «توقف مؤقتاً «لقد كنت مقرباً من العائلة - وعليه إذا حدث أي إلغاء سيسعدني أن أقوم بتقديم اسمك في القائمة.»

قال آدم: «هذا لطف بالغ منك.»

«كيف ترغب في ترتيب ذلك؟»

«كيف تعني هذا؟»

«يمكنني ترتيب ذلك بحيث لا تدفع الكثير كل شهر.»

«أليست أعلى بهذه الطريقة؟»

«حسناً، هناك الفائدة وتكاليف الشحن. يجدها البعض مناسبة.»

قال آدم: «أعتقد أنني سأدفع نقداً، لن يكون هناك جدوى من تأجيلها.»

ضحك ويل: «لا يشعر الكثير من الناس بشعورك هذا، وسيأتي وقت لن

أتمكن فيه من البيع نقداً دون خسارة المال.»

قال آدم: «لم أفكر في ذلك أبداً، هل ستضعني في القائمة على الرغم من

ذلك؟»

مال ويل نحوه: «سيد تراسك، سأضعك على رأس القائمة. أول سيارة

تصل ستكون لك.»

«شكرًا لك».

قال ويل: «سيسعدني القيام بذلك من أجلك».

سأل آدم: «كيف حال والدتك؟»

اتكأ ويل على كرسيه وظهرت ابتسامة حنون على وجهه: «إنها امرأة رائعة، بصلاية الصخرة، أتذكر جميع الأوقات الصعبة التي مررنا بها، وقد مررنا بالكثير منها. لم يكن والدي عمليًا جدًا، كان بطبيعته دائمًا محلقةً في الغيوم أو مدفونًا في الكتب. أو من أن والدتي هي من جمعتنا معًا وحافظت على عائلة هاملتون من أنياب الفقر».

قال آدم: «إنها امرأة جيدة»

«ليست فقط جيدة. إنها امرأة تقف على قدميها كما برج من القوة. هل ذهبت إلى منزل شقيقتي أوليف بعد الجنازة؟»  
«لا، لم أفعل».

«أكثر من مائة شخص ذهب. ووالدتي حمّرت كل ذلك الدجاج وحرصت على أن يشبع الجميع».  
«لم تفعل!»

«نعم فعلت. وعندما تفكر في الأمر - كانت جنازة زوجها».

«امرأة رائعة» كرر آدم عبارة ويل.

«إنها عملية. كانت تعلم أنه يجب إطعامهم وبالتالي أطعمتهم».

«أعتقد أنها ستكون بخير، لكن لا بد أنه فقد عظيم بالنسبة لها».

قال ويل «ستكون بخير، وستعيش أكثر منا جميعًا بحجمها الصغير هذا».

في طريق عودته إلى المزرعة انتبه آدم أنه كان يلاحظ أشياء لم يرها منذ سنوات، تأمل الزهور البرية المنتشرة في العشب الكثيف والأبقار التي تتغذى

على سفوح التلال. عندما وصل إلى أرضه شعر بمتعة غامرة لدرجة أنه بدأ يتفحصها. فجأة وجد نفسه يقول بصوت عالٍ: «أنا حر، آه أنا حر. لا قلق بعد الآن. لقد ذهبْتُ. لقد خرجتُ مني. أوه يا إلهي، أنا حر!»

مد يده ونزع الفراء الرقيق من أوراق المريمية ذات اللون الرمادي بجانب الطريق واشتم الرائحة الحادة النفاذة على أصابعه وتنشقها بعمق في رثييه. كان سعيداً بالعودة إلى المنزل. أراد أن يرى كيف نما التوأم في اليومين اللذين كان غائباً فيهما.

## 2

خرج لي من المنزل لاستقبال آدم، ووقف قرب رأس الحصان بينما نزل آدم من العربة.

«كيف حال التوأم؟» سأل آدم.

«إنهما بخير. صنعت لهما بعض الأقواس والسهام وذهبا لصيد الأرناب قرب النهر».

«هل كل شيء على ما يرام هنا؟»

نظر إليه لي باندهاش وكان على وشك الصراخ لكنه غير رأيه «كيف كانت الجنازة؟»

قال آدم: «حضر الكثير من الناس، كان لديه الكثير من الأصدقاء. لا يمكنني استيعاب رحيله».

«يدفن قومي موتاهم بأصوات الطبول ونثر الأوراق لإرباك الشياطين ويضعون خنازير مشوية بدلاً من الزهور على القبر. نحن قوم عمليون ودائماً ما نكون جائعين نوعاً ما. لكن شياطيننا ليست ذكية جداً ويمكننا التفوق عليها. وفي هذا بعض التقدم».



قال آدم: «أعتقد أن صموئيل كان سيحب هذا النوع من الجنازات، كان سيثير اهتمامه». لاحظ أن لي كان يحدق به». خذ الحصان إلى الاسطبل يا لي، ثم تعال وأعد بعض الشاي. أريد أن أتحدث إليك».

دخل آدم المنزل وخلع ملابسه السوداء. مازال بإمكانه أن يشم رائحة الروم التي أصبحت حلوة ومُرضية بالنسبة له. خلع كل ملابسه وفرك جلده بالصابون الأصفر حتى زالت الرائحة من مساماته. ارتدى قميصًا أزرق نظيفًا وبنطال مغسول بشكل جيد حتى أصبح ناعماً وأزرقاً شاحباً وفتحاً عند الركبتين. حلق ذقنه ببطء ومشط شعره بينما كان صوت حشرة لي يصله من عند موقد المطبخ. ذهب إلى غرفة المعيشة ورأى أن لي كان قد وضع كوبًا ووعاء من السكر على الطاولة بجانب كرسيه الكبير. نظر آدم حوله إلى الستائر المغسولة مراراً بحيث أصبحت الأزهار المطبوعة عليها شاحبة. رأى السجاد البالي على الأرض والمسار البني على مشمع القاعة، كان كل شيء جديد عليه.

عندما جاء لي ومعه إبريق الشاي قال له آدم: «أحضرت نفسك فنجانًا يا لي. وإذا كان لديك القليل من مشروبك ذلك، يمكنني تناول القليل منه. لقد شربت الليلة الماضية».

قال لي: «أنت ثملت؟ بالكاد أستطيع تصديق ذلك».

«نعم ثملت. وأريد أن أتحدث عن ذلك. لاحظت نظراتك لي».

«حقاً؟» سأل لي وهو عائد إلى المطبخ لإحضار فنجاناً لنفسه وقئينة الشراب الحجرية الخاصة به.

قال عندما عاد: «الأوقات الوحيدة التي تذوقته فيها لسنوات كانت برفقتك والسيد هاملتون».

«هل هذا هو نفس الشراب الذي أطلقنا عليه اسم التوأم ونحن نشرب منه؟»

«نعم إنه هو». سكب لي الشاي الأخضر الساخن، وتجهم وجهه عندما وضع آدم ملعقتين من السكر في كوبه.

حرك آدم الشاي وشاهد بلورات السكر تدور وتختفي في السائل. قال: «ذهبت لرؤيتها».

قال لي: «شعرت أنك قد تفعل ذلك، في الحقيقة لم أفهم كيف يمكن لرجل أن ينتظر كل هذا الوقت».

«ربما لم أكن مثل البشر».

«فكرت في ذلك أيضاً. كيف كانت؟»

قال آدم ببطء: «لا أستطيع فهم الأمر. لا أصدق وجود مثل هذا المخلوق في العالم».

«مشكلتكم أنتم الغربيون هي أنه ليس لديكم شياطين لتشرح لكم الأمور. هل ثملت بعد ذلك؟»

«لا، قبل ذلك وأثناءه. كنت في حاجة إلى الشرب من أجل الشجاعة على ما أعتقد».

«أنت تبدو بخير الآن».

قال آدم: «أنا بخير. هذا ما أريد أن أتحدث إليك عنه». توقف لبرهة وقال بحزن، «لو كان قد حدث موقف كهذا في العام الماضي كنت سأركض إلى سام هاملتون للتحدث إليه».

قال لي: «ربما حصل كلانا على جزء منه».

«وربما هذا هو الخلود».

قال آدم: «شعرت وكأنني صحوت من نوم عميق، بطريقة غريبة أصبح كل شيء أوضح، وثقل كبير أزيح عن كاهلي».

قال لي: «حتى أنك أصبحت تستخدم كلمات ككلمات السيد هاملتون».

شرب آدم من الخمر الداكن ولحق شفتيه: «أنا حر، أنا بحاجة لإخبار شخص ما. يمكنني العيش مع أولادي. قد أبحث عن امرأة. هل تفهم ما الذي أقوله؟»

«نعم أعرف. ويمكنني أن أراه في عينيك وفي لغة جسدك. لا يمكن لرجل أن يكذب بشأن أمر كهذا. أعتقد أنك ستحب التوأم».

«على الأقل سأمنح نفسي فرصة. هلا سكبت لي مشروبًا آخر وبعض الشاي؟»

سكب لي الشاي والتقط فنجاناه.

«لا أعرف كيف لا تحرق فمك وأنت تشربه بهذه السخونة».

كان لي يبتسم بهدوء بينه وبين نفسه. أدرك آدم وهو ينظر إليه أن لي لم يعد شابًا. كان جلد خديه مشدودًا وسطحه لامعًا كما لو كان مصقولًا. وكانت حواف عينيه حمراء ومتهيجة.

نظر لي إلى الكأس الرقيق في يده وهو يبتسم ابتسامة تشي بتذكره لأمر ما: «ربما الآن وقد تحررت، يمكنك تحريري».

«ماذا تقصد يا لي؟»

«هل تسمح لي بالمغادرة؟»

«بالطبع يمكنك الذهاب. لكن أأنت سعيدا هنا؟»

«لا أعتقد أنني عرفت يومًا مفهوم السعادة بالنسبة لكم. نحن نرى في القناعة رغبتنا، وربما يكون هذا أمرًا سلبيًا».

قال آدم: «سمّها ذلك إذاً. أأنت قانعاً بالعيش هنا؟»

قال لي: «لا أعتقد أن أي رجل يشعر بالقناعة عندما تكون هناك أشياء لم ينجزها وهو راغب في القيام بها».

«ماذا تريد أن تفعل؟»

«حسنًا، لقد فات الأوان. كنت أرغب في أن تكون لي زوجة وأبناء. ربما كنت أرغب في تجسيد هراء نقل حكمة أحد الوالدين وفرضها على الأطفال الذين لا حول ولا قوة لهم».

«أنت لست كبيراً في السن».

«أوه، أعتقد أنني قادر جسدياً أن أصبح أباً لطفل. ليس هذا ما أفكر به. أنا متزوج بالفعل بمصباح القراءة الهادئة. أتعرف يا سيد تراسك، كانت لي زوجة في يوم ما؟ زوجة لا حياة لها خارج ذهني. وكانت شريكة جيدة لي في غرفتي الصغيرة. أتحدث فتستمع لي، ثم تتحدث هي وتخبرني بكل الأحداث التي تواجهها امرأة مثلها في يومها. كان بها غنج، جميلة جداً ومرحة وهي تلقي النكات. ولكن الآن لا أعرف ما إذا كنت سأستمع لها. لا أريد أن أشعرها بالحزن أو الوحدة، وها أنا خسرت خطتي الأولى».

«ماذا كانت خطتك الأخرى؟»

«لقد تحدثت إلى السيد هاملتون عن ذلك؛ أريد أن أفتح محلاً لبيع الكتب في الحي الصيني في سان فرانسيسكو، ستكون أيامي مليئة بالمناقشات والجدال. أود الحصول على بعض الكتل الحبرية المنحوتة على شكل تنين من سلالة سونغ. يُصنع هذا الحبر من دخان التنوب والغراء الذي يتم الحصول عليه فقط من جلد الحمير البرية. عندما تستخدم هذا الحبر، قد يبدو لك لونه أسود فعلياً ولكنه يوحى لنظرك ويقنعك أنه بكل الألوان. ربما يتقدم إليّ رسام ما ويمكننا أن نتجادل حينها حول الأمر والمساومة حول السعر».

قال آدم: «هل تختلق هذا؟»

«لا. إذا كنت بخير وأصبحت حراً، أود أن تكون لدي مكتبة صغيرة أخيراً. أود أن أموت فيها».

جلس آدم في صمت لفترة من الوقت وهو يقلب السكر في الشاي الفاتر ثم قال: «إنه أمر طريف؛ وجدت نفسي أتمنى لو كنت عبداً حتى أتمكن من رفض طلبك. بالطبع يمكنك الذهاب إذا كنت تريد ذلك يا لي. حتى أنني سأقرضك المال من أجل مكتبتك».

«أوه لدي المال. لقد جمعته منذ لفترة طويلة».

قال آدم: «لم أفكر قط في ذهابك، لقد تعاملت معك كأمر مسلم به». قام بتصويب كتفيه. «هل يمكنك الانتظار قليلاً؟»

«لم؟»

«أريدك أن تساعدني في التعرف على أولادي. أريد أن أنظّم شؤون هذا المنزل، ربما أبيعهُ أو أؤجره، أن أعرف مقدار المال المتبقي لدي وماذا يمكنني أن أفعل به».

«أنت لا تفكر بوضع فخ لي أليس كذلك؟ أمنيته لم تعد قوية كما كانت من قبل. أخشى أنني يمكنني التراجع عنها بسهولة، أو ما هو أسوأ؛ يمكن أن أراجع عنها بمجرد شعوري أن هناك من يحتاجني. من فضلك حاول ألا تحتاج لي. هذا أسوأ فخ لرجل وحيد على الإطلاق».

قال آدم: «رجل وحيد. لا بد أنني كنت غارقاً في نفسي لدرجة أنني حتى لم أنتبه لذلك».

«السيد هاملتون كان يعلم» قال لي. رفع رأسه ومن تحت جفونه المنتفخة بان بريق خفي في عينيه: «نحن الصينيون نتحكم في أنفسنا ولا نظهر أي عاطفة. لقد أحببت السيد هاملتون. أود أن أذهب إلى ساليناس غداً إذا سمحت لي».

قال آدم: «افعل أي شيء تريده يا لي، يعلم الرب أنك فعلت ما يكفي من أجلي».

قال لي: «أريد أن أبدو أوراق الشيطان وأضع قطعة من لحم الخنزير المشوي على قبر والدي».

نهض آدم بسرعة وأعاد فنجانهِ وخرج تاركاً لي جالساً هناك.

## الفصل 27

### 1

في تلك السنة هطلت الأمطار بلطف لدرجة أن نهر ساليانس لم يفيض بل تدفق في تيار ملتبو ذهاباً وإياباً وسط الرمال الرمادية، لم يكن الماء حليبياً بسبب الطمي بل نقياً ورائقاً، أشجار الصفصاف النامية في مجرى النهر مورقة بشكل رائع، وبراعم كروم توت العليق البرية تتساقط على الأرض. كان الجو دافئاً جداً بالنسبة لشهر مارس، والرياح تهب من الجنوب.

تحت غطاء مثالي من الكروم والأغصان المتشابكة جلس أرنب رمادي صغير بهدوء في الشمس يجفف فرو صدره المبلل بندى العشب الذي كان قد تناوله قبل قليل. كان أنفه يتجعد وتهتز أذناه بين الحين والآخر كلما سمع أي صوت قد يكون مبعث خطر على أرنب مثله. كان هناك اهتزاز إيقاعي في الأرض استشعره قبل قليل لكن ذلك توقف. ثم كانت هناك حركة في أغصان الصفصاف في اتجاه الريح، كي لا تصل رائحة الخوف إلى الأرنب.

خلال الدقيقتين الماضيتين صدرت أصوات مثيرة للاهتمام ولكنها لم تشعر الأرنب بالخطر - لحظة ثم صافرة خاطفة تشبه صوت حركة أجنحة حمامة برية. مد الأرنب إحدى رجليه الخلفيتين تحت أشعة الشمس الدافئة. لحظة أخرى وصفير آخر فنخير مكتوم يصدر من الفراء. جلس الأرنب ساكناً وجحظت عيناه. كان سهم من الخيزران يخترق صدره، وطرفه الحديدي منغرس في الأرض على الجانب الآخر. انحنى الأرنب على جانبه وقدماه تضربان الهواء في هلع للحظة قبل أن يسكن تماماً.

من خلف الصفصاف زحف صبيان رابضان كانا يحملان أقواسًا يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، وعددًا من السهام خلف أكتافهما اليسرى. كانا يرتديان بدلات عمال وقمصان زرقاء باهتة، وكل صبي يرتدي حول صدغه شريطاً به ريشة من ذيل ديك رومي.

كانا يتحركان بحذر، منحنيين إلى الأسفل بحماس مثل الهنود. انتهت رفرفة موت الأرنب وانحنيا لفحص ضحيتهما.

قال كال: «في القلب». نظر آرون إلى الأسفل ولم يقل شيئاً. وتابع كال: «سأقول إنك فعلت ذلك، لا أريد الحصول على المديح والفضل. سأقول إنها كانت تسديدة صعبة».

قال آرون: «لقد كان الأمر كذلك بالفعل».

«أنا أقول إنني سأمنحك الفضل أمام لي وأبي».

قال آرون: «لا أعرف إن كنت أريد الفضل - ليس كله، اسمع. إذا حصلنا على واحدة أخرى يمكننا القول إن كل منا أصاب واحدة، وإذا لم نحصل على المزيد، فلماذا لا نقول إننا أطلقنا النار معاً ولا نعرف من الذي أصابها؟»

قال كال: «ألا تريد الفضل لك؟ لا أقصد كل الفضل. يمكننا اقتسامه. بالنهاية كان سهمي هو الذي أصابه».

«لا، لم يكن».

«انظر إلى الريش. انظر إلى هذا الشق؟ هذا سهمي أنا».

«كيف وصل إلى جعبتي؟ أنا لا أتذكر أي شق».

«ربما لا تتذكر. لكنني سأمنحك الفضل على أي حال».

قال آرون بامتنان: «لا يا كال. لا أريد ذلك. سنقول إننا أطلقنا السهام معاً».

«حسناً، إن كان هذا ما تريده. لكن افترض أن لي انتبه إلى أنه كان سهمي؟»

«سنقول فقط أنه كان في جعبتي».

«هل تعتقد أنه سيصدق ذلك؟ سوف يعتقد أنك تكذب».

قال آرون بلا حول ولا قوة: «إذا اعتقد أنك من أصبته فليكن، سنتركه يعتقد ذلك».

قال كال: «أردت فقط أن تعرف، فقط في حال اعتقد ذلك». مر السهم من خلال الأرنب بحيث أصبح فروه الأبيض أحمر داكن. وضع السهم في جعبته وقال بشهامة: «يمكنك حمله».

قال آرون: «يجب أن نعود، ربما عاد أبي».

أردف كال: «يمكننا أن نطبخ ذلك الأرنب ونتناوله على العشاء ونبقى في الخارج طوال الليل».

«الجو بارد جدًا في الليل كال. ألا تتذكر كيف كنت ترتجف في الصباح؟»

قال كال: «ليس باردًا جدًا بالنسبة لي، لا أشعر بالبرد الآن».

«فعلت هذا الصباح».

«لا لم أفعل. كنت فقط أسخر منك، أرتجف وأثرثر كالطفل الرضيع. هل

تدعوني بالكاذب؟»

قال آرون: «لا، لا أريد القتال».

«خائف من القتال؟»

«لا. أنا فقط لا أريد ذلك».

«إذا قلت إنك خائف، هل تدعوني بالكاذب؟»

«لا».

«إذن أنت خائف، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك».



تجول آرون ببطء تاركًا الأرنب على الأرض. كانت عيناه واسعتين للغاية وله فم ناعم جميل. أعطاه الاتساع بين عينيه الزرقاوين تعبيراً عن براءة ملائكية. كان شعره ناعماً وذهبيًا بحيث بدا وكأن شمساً تضيء أعلى رأسه.

كان محتارًا - غالبًا ما كان محتارًا. كان يعلم أن شقيقه ينوي شيئاً ما، لكنه لم يكن يعرف ما هو. كان كال لغزًا بالنسبة له. لم يستطع استيعاب منطق أخيه ودائمًا ما فاجأه الغموض التي يحيط به.

بدا كال أشبه بآدم، كان شعره بنيًا غامقًا، أكبر من أخيه حجمًا وعظمًا، وأثقل كتفًا منه، وكان فكه صارمًا ومربعًا كفك آدم. كانت عيون كال بنية ويقظة وأحيانًا تشرق كما لو كانت سوداء. لكن يدي كال كانتا صغيرتين جدًا بالنسبة لبقية جسده. كانت الأصابع قصيرة ونحيلة والأظافر رقيقة، وكان يحميها. قليلة هي الأشياء التي كان بإمكانها أن تدفعه للبكاء، أحدها جرح إصبع له. لم يكن يغامر بيديه ولم يلمس حشرة أو يحمل ثعبانًا قط. وفي العراك كان يلتقط صخرة أو عصا ليقاتل بها.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتي كال بينما كان يشاهد شقيقه يتعد عنه. نادى: «آرون، انتظرنى!»

عندما وصل إلى أخيه قدم له الأرنب وقال بلطف: «يمكنك حمله»، ووضع ذراعه حول كتف أخيه: «لا تغضب مني».

قال آرون: «أنت تريد القتال دائمًا».

«لا، لا أفعل. كنت أمارحك فقط».

«حقاً؟»

«بالتأكيد. انظر - يمكنك حمل الأرنب. وسنعود الآن إذا أردت».

أخيرًا ابتسم آرون. كان دائمًا يشعر بالارتياح عندما يطرد شقيقه التوتر بينهما. مشى الصبيان مبتعدين عن النهر من الجرف المنهار صعوداً إلى الأرض المستوية. كانت ساق سروال آرون اليمنى ملطخة بدماء الأرنب.

قال كال: «سيفاجئهم اصطيادنا أرنباً. إذا كان أبي في المنزل فلنمنحه إياه. إنه يحب تناول الأرنب على العشاء».

قال آرون بسعادة: «حسنًا، اسمع هذا. سنعطيه إياه ولن نقول أننا اصطاده».

قال كال: «حسنًا، إذا كنت تريد ذلك».

سارا في صمت لبعض الوقت ثم قال كال، «كل هذه الأرض ملكنا - من هذا التل إلى ما وراء النهر».

«إنها لأبي».

«نعم، ولكن عندما يموت ستكون ملكنا».

كانت هذه فكرة جديدة لآرون: «ماذا تقصد عندما يموت؟»

قال كال: «الجميع يموت، مثل السيد هاملتون. هو مات».

قال آرون: «أوه، نعم، نعم مات». لكنه لم يستطع ربط الاثنين - السيد هاملتون الميت والأب الحي.

«لقد وضعوه في صندوق ثم حفروا حفرة ووضعوا الصندوق فيها».

«أعلم ذلك». أراد آرون تغيير الموضوع والتفكير في شيء آخر.

قال كال: «لدي سر».

«ما هو؟»

«ستفشي».

«لا، لن أفعل إذا طلبت مني ألا أفشي».

«لا أعرف ما إذا كان يجب علي ذلك».

توسل آرون: «أخبرني به».

«لن تخبر أحداً؟»

«لا، لن أفعل».

قال كال «تعتقد أين أمتنا؟»

«لقد ماتت».

«لا، ليست ميتة»

«هي كذلك»

قال كال: «لقد هربت، سمعت بعض الرجال يتحدثون عن ذلك».  
«إنهم كاذبون».

«لقد هربت، لا تخبر أحداً بما قلته لك»

«لا أصدق ذلك، قال أبي إنها في الجنة».

قال كال بهدوء: «قريباً جداً سأهرب من هنا وأجدها. سأعيدها».

«هل تحدث أولئك الرجال عن مكانها؟»

«لا، لكنني سأجدها».

قال آرون: «إنها في الجنة، لماذا قد يكذب أبي علينا؟» نظر إلى أخيه متوسلاً بصمت أن يوافقه، لكن كال لم يرد عليه. «ألا تعتقد أنها في الجنة مع الملائكة؟» أصر آرون. وعندما ظل كال لا يجيب، «من هم أولئك الرجال الذين قالوا ذلك؟»

«بعض الرجال. في مكتب البريد في كينغ سيتي. لم يظنوا أنني أسمعهم. لكن لدي آذان جيدة. لي يقول إنني أسمع نمو العشب بهما».

قال آرون: «ما الذي دفعها للهرب؟»

«كيف لي أن أعرف؟ ربما لم تحبنا».

تفكر آرون في هذه الهرطقة: «لا، أولئك الرجال كاذبون. قال أبي إنها في الجنة. وأنت تعرف أنه لا يحب التحدث عنها».

«ربما لأنها هربت».

«لا. لقد سألت لي. هل تعرف ماذا قال؟ قال: «والدتك أحبتك وما زالت تفعل». وأعطاني نجمة للنظر إليها. قال ربما كانت هذه والدتنا وستحبنا طالما كان هذا الضوء موجودًا. هل تعتقد أن لي يكذب؟» من خلال دموعه المتجمعة استطاع آرون أن يرى عيون أخيه القاسية والعقلانية، لم تكن هناك دموع في عيون كال.

شعر كال بالإثارة السارة، وجد أداة سرية لاستخدامها في أي غرض يحتاج إليه. كان قد درس شخصية آرون، رأى شفثيه مرتعشتين، ولاحظ في الوقت المناسب فتحتي أنفه. كان آرون يبكي أحياناً، لكن في بعض الأحيان عندما يريد منع دموعه من الانهمار كان يكافح أيضاً. وعندما كان يبكي ويحارب دموعه في نفس الوقت كان يصبح خطيراً، حيث لا شيء كان بإمكانه أن يؤذيه ولا شيء يمكن أن يردعه. بعد أن يمسكه لي في حضنه، ويشبك قبضتيه على جانبيه يسترخي بعد فترة، وحينها يستعثر أنفه بالغضب.

وضع كال أدواته الجديدة بعيداً. يمكنه إخراجها في أي وقت، وكان يدرك أنها كانت أقوى سلاح وجده الى الآن. سيفكر فيها لاحقاً ويقرر متى وكيف يستخدمها. لكنه كان قد اتخذ قراره بعد فوات الأوان. قفز عليه آرون وارتطم جسده الأرنب بوجهه. قفز كال إلى الورااء وهو يصيح: «كنت أمزح فقط. بصدق آرون، كانت مجرد مزحة».

توقف آرون. كان الألم والحيرة جليان على وجهه: «لا أحب هذه المزحة» ثم استنشق ومسح أنفه بكّمه.

اقترب كال منه وعانقه وقبله على خده: «لن أفعل ذلك بعد الآن».

قطع الولدان طوال الطريق بصمت بينما بدأ ضوء النهار يتراجع. نظر كال من فوق كتفه إلى ركام رعديّ أسود فوق الجبال في رياح مارس المتوترة. قال: «هناك عاصفة قادمة، وستكون قوية»

قال آرون: «هل سمعت حقاً أولئك الرجال؟»

قال كال بسرعة «ربما اعتقدت فقط أنني سمعتهم. يا إلهي، انظر إلى تلك السحابة!»

استدار آرون ليرى الوحش الأسود، كان متبلوراً في كتل داكنة كبيرة في السماء، وتحتة تنورة طويلة ممتدة من المطر، بينما كانت السحابة تتدحرج وتومض بالبرق. كان هذا الانفجار السحابي الذي حمله الريح يتدفق على التلال الرطبة عبر الوادي ويقرب من الأراضي المنبسطة. استدار الولدان وركضا عائدين إلى المنزل بينما السحابة تندفع خلفهما والبرق يحطم الهواء إلى أشلاء مرتعشة. وصلت السحابة وانهمرت القطرات القوية من السماء الممزقة. كان بإمكانهما شم رائحة الهواء النقي وهما يركضان ويتنشقان رائحة الرعد.

بينما هما يتسابقان عبر البلدة وعلى مسارات عجلات العربات التي تؤدي إلى منزلهما نقرت قطرات المطر المنهمرة بقوة وجهيهما وعلى الفور كانا غارقين في البلل، شعرهما ملتصق بجبهتيهما ويغطي عيونهما، وريش الديك الرومي على صدغيهما منحني بفعل وزن الماء.

الآن بعد أن أصبحا مبتلين بقدر ما يمكن أن يجعل الأولاد يتوقفون عن الركض. لم يكن هناك سبب للركض للاختباء. نظرا إلى بعضهما البعض وضحكا فرحين. انتزع آرون الأرنب ورماه في الهواء وأمسكه وألقاه نحو كال. وشاعراً بالسخافة، وضعه كال حول عنقه ورأسه وقدميه الخلفيتين تحت ذقنه وضحكا بشكل هستيري. هطل المطر بجنون على أشجار البلوط القريبة من المنزل وأزعجت الريح القوية كرامتها العالية.

## 2

وصل التوأم الى المزرعة في الوقت المناسب لرؤية لي الذي كان يرتدي معطفاً أصفرًا من الجلد الزيتي ويقود حصاناً غريباً وعربة واهية متعبة

من المطاط نحو السقيفة. قال كال: «هناك شخص ما هنا، هل ترى تلك الحفارة؟»

عادة للجري مرة أخرى، دائماً ما شعراً بالحماس حول الزوار. عندما اقتربا من الدرج تحركا بحذر حول المنزل، إذ كانت هناك مخاوف معينة بشأن الزوار أيضاً. ذهباً في الطريق الخلفي ووقفاً يسترقان السمع في المطبخ. سمعا أصواتاً في غرفة المعيشة - صوت أبيهما وصوت آخر، صوت رجل. ثم ظهر صوت ثالث جعلهما يتصلبان واعترت عمودهما الفقري قشعريرة؛ كان صوت امرأة. كان لدى هذين الولدين خبرة قليلة جداً مع النساء. دخلا على أطراف أصابعهما إلى غرفتهما ووقفاً ينظران إلى بعضهما.

«من تظنها؟» سأل كال.

انفجرت عاطفة آرون كما البرق. أراد أن يصرخ: «ربما تكون أمتنا. ربما عادت». ثم تذكر أنها كانت في الجنة والناس لا يعودون من هناك. قال: «لا أعرف. سأرتدي ملابس جافة».

ارتدى الصبيان ملابس جافة ونظيفة، كانت عبارة عن نسخ طبق الأصل من الملابس التي خلعاها للتو. نزعا ريش الديك الرومي المبلل ومشطوا شعرهما بأصابعهما. وطوال الوقت كان بإمكانهما سماع الأصوات، معظمها كانت منخفضة، ثم هناك صوت المرأة المرتفع، وبمجرد أن سكنا سمعا صوت طفل - فتاة - وكان هذا مثيراً لدرجة أنهما لم يتحدثا حتى لبعضهما عن سماعه. دخلا بصمت إلى القاعة وتسللا نحو باب غرفة المعيشة. أدار كال مقبض الباب ببطء شديد ورفع له لأعلى حتى لا يخونه أي صرير. كان قد فتح شقا صغيراً فقط عندما دخل لي من الباب الخلفي وخلع معطفه وأمسك به هناك. ولد صغير ينظر خلصة؟» قال باللغة الهجين، وعندما أغلق كال الباب قال لي بسرعة: «إنه منزل والدك. من الأفضل أن تدخل».

همس آرون بصوت أجش: «من هناك؟»

«بعض الناس الذين دفعهم المطر إلى الدخول». وضع لي يده على يد كال التي بقيت ممسكة بمقبض الباب وأدارها وفتح الباب.

قال: «عاد الأولاد إلى المنزل» وتركهم هناك مكشوفين.

صاح آدم: «تعالاً»

مشى الاثنان برأسين منخفضين وألقيا نظرة خاطفة على الغرباء وهما يتعثران في مشيتهما. كان هناك رجل يرتدي ملابس مدنية وامرأة ترتدي أفخم الملابس. كانت منفضتها وقبعتها وشالها على كرسي بجانبها، كانت ثيابها بالكامل من الحرير الأسود والدانتيل. حتى أن الدانتيل الأسود تسلق بعض عنقها وعانق حلقها. كان هذا كافياً ليوم واحد، لكنه لم يكن كل شيء. بجانب المرأة جلست فتاة، ربما أصغر قليلاً من التوأم. كانت ترتدي قبعة شمس زرقاء مع شريط من الدانتيل حولها. كان فستانها زهرياً وفوقه مئزر صغير بجيوب حول وسطها.

كانت تنورتها قد تراجعت إلى الوراء وبانت تنورتها الداخلية المحبوكة من خيوط حمراء مع نقش حول حافتها. لم يتمكن الأولاد من رؤية وجهها بسبب غطاء الشمس لكن يديها كانتا مطويتين في حجرها وكان من السهل رؤية الخاتم الذهبي الصغير الذي كانت ترتديه في إصبعها الثالث.

لم يتنفس أي من الصبيين وبدأت الحلقات الحمراء تتوهج في مؤخرة أعينهما بسبب حبسهما لأنفاسهما.

قال والدهما «هذان ولدائي، إنهما توأم. هذا آرون وهذا كيّلب. صافحا ضيوفنا يا أولاد».

تحرك الولدان إلى الأمام وهما ينظران للأسفل ورفعوا أيديهما في إيماء تشبه إلى حد بعيد الاستسلام واليأس. صافحا السيد ثم السيدة الراقية. كان آرون أول من صافحهما وابتعد عن الفتاة الصغيرة، لكن السيدة قالت له: «ألن تسلّم على ابنتي؟»

ارتجف آرون ومد يده نحو الفتاة ذات الوجه الخفي. لكن لم يحدث شيء. لم تصافح تلك النقات الخالية من الحياة، لم تضغط عليها، تعصرها، أو حتى تسحقها. بقيت يده معلقة في الهواء أمامها. ألقى آرون نظرة خاطفة من خلال رموشه ليرى ما يجري.

كان رأسها منخفضاً أيضاً وبدت مستمتعة بميزة ارتدائها لقبعة الشمس. كانت يدها اليمنى الصغيرة ذات الخاتم في الإصبع الأوسط ممدودة أيضاً، لكنها لم تتحرك باتجاه يد آرون.

استرق نظرة إلى السيدة، كانت تبسم بشفتين مفترقتين. كان الصمت يسحق الغرفة. ثم سمع آرون تنحناً صادراً عن كاله. مدّ آرون يده نحو يدها وأمسكها وخضها لأعلى ولأسفل ثلاث مرات. كانت لينة كما حفنة بتلات، وشعر وهو يصفحها بحرقة لذيدة. ترك يدها وأخفى يده في جيبه. بينما ابتعد اقترب كاله وقام بمصافحتهم بشكل رسمي وقال «كيف حالكم». كان آرون قد نسي أن يقول ذلك، حتى أنه قال تلك العبارات الآن بعد أخيه، وبدت غريبة مما أضحك آدم وضيوفه.

قال آدم: «السيد والسيدة سيكون تعطلاً في المطر».

قال السيد بيكون: «كنا محظوظين لأننا وضعنا هنا. كنت أبحث عن مزرعة لونغ»

«تلك أبعد من هنا. يجب أن تسلك اليسار التالي قبالة الطريق المؤدي الى الجنوب». واصل آدم مخاطباً ولديه: «السيد باكوجتي هو مشرف المقاطعة».

«لا أعرف لماذا، ولكنني آخذ هذه المهمة على محمل الجد لأقصى حد» قال السيد بيكون وخاطب الولدين: «اسم ابنتي هو أبراهام. أليس هذا اسم مضحك؟» قال ذلك مستخدماً النبرة التي يستخدمها البالغين مع الأطفال. التفت لآدم وقال في صوت رخيم شعري: «كانت أبراهام موجودة قبل تسميتها».



وعلى الرغم من أنني اخترتُ اسماً آخرًا، إلا أنها أتت أبراً» كما قال الشاعر ماثيو بريور<sup>(1)</sup>. لن أدعي أنني لم أرغب في ولد، ولكن يا لها من ابنة رائعة، ارفعي رأسك يا عزيزتي».

لم تتحرك أبراً، وشبكت يديها مرة أخرى في حجرها. كرر والدها باستمتاع، «وعلى الرغم من أنني اخترتُ آخر، إلا أنها أتت أبراً»

رأى آرون شقيقه ينظر نحو قبعة الشمس الصغيرة دون ذرة من الخوف، قال بصوت خشن، «لا أعتقد أن اسم أبراً مضحك».

أوضحت السيدة بيكون: «لم يكن يقصد أنه مضحك بهذه الطريقة، كان يقصد أنه يثير الفضول فقط». وشرحت لآدم: «زوجي يستخرج أغرب الأشياء من الكتب. عزيزي، ألا نذهب؟»

قال آدم بلهفة: «أوه، لا تذهبا بعد سيدتي. لي يقوم بتحضير بعض الشاي. سوف يشعركم بالدفء».

«حسنًا، هذا لطف منك!» قالت السيدة بيكون وتابعت: «أنظروا، لم تعد مطر في الخارج يا أولاد، هيا اذهبوا للخارج والعبوا». كان لصوتها سُلطة أمره لا يمكن معارضتها، نهض آرون أولاً ثم كال وأبرا تلتهما.

### 3

في غرفة المعيشة وضع السيد بيكون ساقاً على ساق: «لديك إمكانيات رائعة هنا، هل هي أرض كبيرة؟»

قال آدم: «إنها قطعة جيدة، أنا أعبّر النهر إلى الجانب الآخر».

---

(1) ماثيو بريور شاعر وديبلوماسي انجليزي. أما أبراً فهو اسم انثوي عبري يقابل اسم أبراهيم، وتاريخياً يحكى أن أبراً كانت واحدة من نساء النبي سليمان المفضلات، وكان اسمًا شائعًا في إنجلترا في القرن السابع عشر.

«إذاً كل تلك الممتدة على طريق المقاطعة ملكك؟»

«نعم إنها كذلك. أشعر بالخجل من الاعتراف بذلك، لكنني أهملتها بشكل سيء ولم أزرعها على الإطلاق. ربما تشبعت من الزراعة بسبب عملي الكثير بها منذ طفولتي.»

كان كل من السيد والسيدة يبكون محذقين بآدم، وكان يعلم أنه يتعين عليه تقديم بعض التفسيرات لإهماله لأرضه الجيدة. قال: «أعتقد أنني رجل كسول، ووالدي لم يساعدي عندما ترك لي ما يكفي من الثروة دون عمل». نظر للأرض لكنه شعر بأن الزوجين سيكون كانا يشعران بشيء من الراحة. لم يكن يتم اعتبار ذلك كسلاً عندما يكون المعني رجلاً ثرياً. الفقراء فقط كانوا كسالي.

مثلما كان الفقراء فقط هم الجهلاء أيضاً. فالرجل الثري الذي لا يعرف شيئاً كان يوصف بالمدلل أو المستقل.

«من الذي يعتني بالصبيين؟» سألت السيدة يبكون.

ضحك آدم «لي يعتني بهما، وليس لديهما الكثير»

«لي؟»

انزعج آدم قليلاً من الاستجواب. قال بعد قليل: «ليس لدي سوى رجل واحد.»

«هل تقصد الصيني الذي رأيناه؟» قالت السيدة يبكون وهي مصدومة.

ابتسم آدم. كانت قد أخافته في البداية لكنه الآن أصبح أكثر استرخاءً: «لقد قام لي بتربية الولدين، وقد اعتنى بي أيضاً»

«لكن ألم تعتن بهما امرأة من قبل؟»

«لا.»

قالت: «يا للحملين المسكينين.»

قال آدم: «إنهما جامحان ولكنهما يتمتعان بصحة جيدة، أعتقد أننا جميعاً أصبحنا جامحين مثل هذه الأرض، لكن لي الآن ينوي الرحيل ولا أعرف ماذا سنفعل».

قام السيد بيبكون بتنقية البلغم من حلقه حتى لا يتأثر صوته: «هل فكرت في تعليم أولادك؟»

«لا - أعتقد أنني لم أفكر في الأمر كثيراً».

قالت السيدة بيبكون: «زوجي مؤمن بالتعليم».

«التعليم هو مفتاح المستقبل» قال الزوج بحماس

سأل آدم: «أي نوع من التعليم؟»

«كل الأشياء تتحقق بين يدي الرجال الذين يعلمون. نعم، أنا مؤمن بشعلة التعلم» ثم انحنى نحوه وأصبح صوته همساً: «طالما أنك لا تنوي زراعة أرضك، فلماذا لا تؤجرها وتنتقل إلى المقاطعة وتكون قريباً من المدارس الجيدة؟»

فكر آدم لثانية في قول: «لماذا لا تهتم بشؤونك اللعينة؟» لكنه سأل بدلاً من ذلك: «هل تعتقد أنها ستكون فكرة جيدة؟»

قال السيد بيبكون: «أعتقد أن بإمكانني الحصول لك على مستأجر جيد يُعتمد عليه، لا يوجد سبب يمنعك من الحصول على ربح من أرضك إذا كنت لا تعيش منها».

أحدث لي ضجة كبيرة وهو يجلب صينية الشاي لأنه سمع ما يكفي من خلال الباب لجعله متيقناً من أن آدم كان منزعجاً. كان لي متأكداً من أنهم لا يحبون الشاي، وإذا فعلوا، فمن غير المرجح أن يفضلوا النوع الذي صنعه. عندما شربا الشاي وأعربا عن إعجابهما بالمذاق علم أنهما ينويان شيئاً. حاول لي أن يلفت انتباه آدم لكنه لم يستطع. كان آدم محققاً بالسجادة بين قدميه.

كانت السيدة بيكون تقول: «لقد عمل زوجي في مجلس إدارة مدرسته لسنوات عديدة -» لكن آدم لم يسمع ما تلا ذلك.

وبدون سبب مفهوم على الإطلاق قفز عقله إلى والده متأرجحاً على ساقه الخشبية، وهو ينقر على تلك الساق لجذب الانتباه باستخدام عصا للمشي. تمكن آدم من استعادة وجه والده الصارم والعسكري وهو يجبره وأخاه على التدريبات وجعلهما يحملان حقائب ثقيلة لتقوية أكتافهما، وفي خضم ذلك كان صوت السيدة بيكون يتسلل إلى أفكاره. تذكر وجه تشارلز وهو يتسم بسخرية - تشارلز اللئيم، وعيونه الشرسة، ومزاجه الناري. شعر آدم فجأة برغبة عارمة في رؤية تشارلز. يمكنه التخطيط لرحلة يصطحب فيها الأولاد، صفقه بإثارة وهو يفكر بذلك.

توقف السيد بيكون عن الحديث: «أستميحك عذراً؟»

قال آدم: «أوه، أنا آسف» «لقد تذكرت للتو شيئاً كنت قد أهملت فعله». انتظر الزوجان بصبر وأدب تفسيره. فكّر آدم بينه وبين نفسه: لمَ لم أفعل؟ لست منشغلاً بالترشح لمنصب المشرف. لست في مجلس إدارة المدرسة. لمَ لم أفعل؟ قال لضيوفه: «لقد تذكرت للتو أنني نسيت أن أكتب لأخي لأكثر من عشر سنوات». ارتجفا وهما يسمعان بيانه الغريب وتبادلا النظرات.

كان لي يعيد تعبئة فناجين الشاي. رأى آدم وجنتيه متفتختين وسمع نخيره السعيد وهو يمر في الردهة. لم يعلق الزوجان بيكون على الحادث، أرادا أن يكونا وحدهما في النقاش. توقع لي أن يكون الأمر على هذا النحو، ولذلك سارع لإحضار عربتهم ذات الإطارات المطاطية إلى الباب الأمامي.

#### 4

عندما خرج كل من أبرأ وكال وآرون وقفوا جنباً إلى جنب على الشرفة الصغيرة المغطاة ينظرون إلى المطر المتساقط من أشجار البلوط المنتشرة

قرب المنزل. كان الانفجار السحابي قد تحول إلى لفافة رعدية ذات صدى بعيد، مع ذلك تركت مطراً مصمماً على الاستمرار لفترة طويلة.

قال آرون: «أخبرتنا تلك السيدة أن المطر توقف».

أجابته أبرا: «لم تنظر. هي لا تنظر أبداً عندما تتحدث».

سأل كال: «كم عمرك؟»

«عشر سنوات، وسأدخل قريباً عامي الحادي عشر».

«واو» قال كال «نحن في الحادية عشر، وسنبلغ الثانية عشرة قريباً».

دفعت أبرا قبعتها الشمسية للخلف وأصبحت وكأنها هالة تحيط برأسها. كانت جميلة وشعرها داكن مسرح في ضفيريّتين. كانت جبهتها الصغيرة مستديرة ومدببة وحاجباها مستويان. في بعض الأيام كان أنفها يبدو جميلاً ومرفوعاً، بينما الآن بدا على شكل زر مدور. لكن سمتان ستكونان معها دائماً؛ كان ذقنها صلباً وفمها جميلاً كما زهرة وواسعاً جداً ووردياً. كانت عيناها عسليّتين حادتين وذكيّتين وجريّتين. نظرت مباشرة إلى عيون الأولاد واحداً تلو الآخر، ولم يكن هناك ما يشير إلى الخجل الذي تظاهرت به داخل المنزل. قالت: «لا أصدق أنكما توأم، أنتما لا تتشابهان».

قال كال: «نحن أيضاً».

قال آرون: «نحن أيضاً».

أصر كال: «بعض التوائم لا تبدو متشابهة».

قال آرون: «الكثير منهم لا يفعل. أخبرنا لي عن سبب ذلك. إذا كانت لدى السيدة بيضة واحدة، فإن التوأم يتشابهان. إذا كانت لديها بيضتان فلن يكونا متشابهين».

قال كال: «نحن بيضتان».

ابتسمت أبراً وهي مستمتعة بخرافات الولدين الريفيين، قالت «مرحبا يا بيض». لم تقل ذلك بصوت عالٍ أو بقسوة، لكن نظرية لي تراجعت وتمايلت ثم تم اسقاطها: «أي واحد منكما مقلي؟» سألت «وأيكما مسلوب؟»

تبادل الصبيان نظراتهما المرتبكة. لقد كانت تجربتهما الأولى مع المنطق الأنثوي الذي لا يرحم، وهو أمر غامر حتى، أو ربما بشكل خاص، عندما يكون خاطئاً. كان هذا جديداً عليهما، كان مثيراً ومخيفاً.

قال كال «لي رجل صيني».

قالت أبراً بلطف: «أوه حسناً، لماذا لم تقل ذلك؟ ربما أنت بيض صيني إذن، كتلك التي توضع في الأعشاش»، توقفت لتسمح لهما بفهم ملاحظتها، شعرت بمعارضة وكفاح اختفى سريعاً. شعرت هنا أبراً أنها تسيطر عليهما، كانت الرئيسة.

اقترح آرون: «لنذهب إلى المنزل القديم ونلعب هناك. السقف يرشح قليلاً لكنه جميل».

ركضوا تحت أشجار البلوط المبللة نحو منزل سانشيز القديم واندفعوا من خلال بابه المفتوح الذي كان يصدر صريراً بلا هوادة من مفصلاته الصدئة.

كان البيت المبني من الطوب يدخل عقده الثاني. نصف غرفة المعيشة الكبيرة مغطى بالجبس، والخط الأبيض يمتد الى المنتصف ويتوقف حيث تركه العمال قبل أكثر من عشر سنوات. وظلت النوافذ العميقة بزخارفها المعاد بناؤها بلا زجاج. كانت الأرضية الجديدة مليئة ببقع المياه، وملأت زاوية الغرفة مجموعة من الصحف القديمة وأكياس مملوءة بالمسامير الصدئة.

وبينما كان الأطفال يقفون في المدخل طار خفاش من مؤخرة المنزل وانتقل من جانب إلى آخر واختفى عبر المدخل.

قاد الولدان أبراً عبر المنزل - فتحا الخزانات وأريها أحواض الغسيل

والحمامات والثريات التي لا تزال معلقة وتنتظر التثبيت. كانت رائحة العفن والورق المبلل تملأ الهواء. سار الأطفال الثلاثة على رؤوس أصابعهم ولم يتحدثوا خوفاً من صدى جدران المنزل الخالي.

بالعودة إلى غرفة المعيشة الكبيرة، واجه التوأم ضيفتهما «هل أحببت ذلك؟» سأل آرون بهدوء بسبب صدى الصوت.  
«ن.. نعم»، أجابته أبراً بتردد.

قال كال بجرأة: «أحياناً نلعب هنا، يمكنك المجيء إلى هنا واللعب معنا، إن أحببت».

«أنا أعيش في ساليناس» قالت أبرابنبرة جعلتهما يشعران أنهما يتعاملان مع كائن متفوق لم يكن لديه وقت للتمتع الرفيفي.

رأت أبراً أنها سحقت أعظم كنز لديهما، وعلى الرغم من أنها كانت تعرف نقاط ضعف الرجال، إلا أنها ما زالت تحبهم، بالإضافة إلى أنها كانت سيدة، ولذلك قالت بلطف: «ربما آتي بعض الأحيان عندما نمر من هنا وألعب معكما»، شعر الصبيان بالامتنان لها.

قال كال فجأة: «سأعطيك أرنبى. كنت سأعطيه لوالدي، لكن يمكنك الحصول عليه».

«أي أرنب؟»

«الذي اصطدناه اليوم - بسهم اخترق قلبه حتى أنه بالكاد ركل».

نظر إليه آرون بغضب «كان لي -»

قاطعته كال، «سنسمح لك بأخذه إلى المنزل. إنه كبير جداً».

قالت أبراً: «وماذا قد أريد من أرنب عجوز ملطخ بالدماء؟»

قال آرون: «سأغسله وأضعه في صندوق وأربطه بخيط، وإذا كنت لا تريدين أن تأكله، يمكنك إقامة جنازة له عندما يكون لديك وقت - في ساليناس».

قالت أبراً: «أنا أذهب إلى جنازات حقيقية. ذهبت إلى واحدة بالأمس. كانت هناك أزهار عالية بطول هذا السقف.»  
«ألا تريدان أن نرئنا؟» سألهما آرون.

نظرت أبراً إلى شعره المشمس وعينيه اللتين بدتا على مقربة من الدموع، وشعرت بعاطفة وحرقة تغمر صدرها، تلك التي تشي ببداية الحب. كما أنها رغبت بشدة أن تلمس آرون، وقد فعلت. وضعت يدها على ذراعه وشعرت أنه يرتجف تحت أصابعها. قالت: «لو وضعته في صندوق.»

والآن بعد أن تولت المسؤولية نظرت أبراً حولها وتأمّلت انتصاراتها. لقد كانت تشعر بأنها أعلى بكثير من الغرور الآن حيث لا يوجد من يمكنه أن يهددها. شعرت بحنان تجاه هذين الصبيين. لاحظت ملاسهما الرقيقة المرتقة هنا وهناك من قبل لي. لقد تخيلت قصتهما في حكاياتها الخيالية. قالت: «يا لكما من طفلين مسكينين، هل يضربكما والدكما؟»

هزارأسيهما. كانا مهتمين لكنهما مذهولين.» هل أنتما فقيران جداً؟  
«ماذا تعينين؟» سأل كالم.

«هل تجلس في الرماد عليك أن تجلب الماء؟ أوه يا صغاري المساكين» وشعرت وكأنها تحمل عصا صغيرة في يدها وفي طرفها نجمة متألّئة: «هل تكرهكما زوجة أبيكما الشريرة وتريد قتلكما؟»

قال كالم: «ليست لدينا زوجة أب.» قال آرون: «ليست لدينا أي نوع من الأمهات، أمنا ماتت.»

دمرت كلماته القصة التي كانت تؤلفها في مخيلتها، لكنها زودتها على الفور بقصة أخرى. اختفت العصا لكنها أصبحت ترتدي قبعة كبيرة يعلوها ريش نعام وتحمل سلة ضخمة تبرز منها أقدام الديك الرومي.

قالت بلطف: «أو ه أيها اليتيمان الصغيران، من لا أم لكما، سأكون أنا أمكما، سأحتضنكما وأهزكما وأحكي لكما القصص.»



قال كال: «نحن كبيران جدًا، يمكننا الإطاحة بك».

نظرت أبراً بعيدًا عن وحشيته، لكنها رأت أن آرون عالق في قصتها، كانت عيناه تبسمان ويبدو أنه كان على وشك التأرجح بين ذراعيها، شعرت مرة أخرى بالحب يسحبها تجاهه. قالت باسمه: «أخبرني، هل حظيت والدتك بجنائز لطيفة؟»

قال آرون: «لا نتذكر، كنا صغارًا جدًا».

«حسنًا، أين تم دفنها؟ يمكنكما وضع الزهور على قبرها. نحن نفعل ذلك دائمًا لجذتنا وعمي ألبرت».

قال آرون: «لا نعرف».

ظهر في عيني كال اهتمام جديد، بريق كان على وشك إعلان الانتصار. قال بسذاجة: «سأسأل والدنا عن مكانها حتى نتمكن من أخذ الزهور إليها».

قالت أبراً: «سأذهب معكما، يمكنني صنع إكليل من الزهور. سأعلمكما». لاحظت أن آرون لم يتكلم. «ألا تريد أن تصنع إكليلًا من الزهور؟» قال «نعم».

لمسته مرة أخرى، ربت على كتفه ثم لمست خده: «ستحب والدتك ذلك، حتى وهم في الجنة ينظرون إلينا ويراقبوننا. والدي يقول إنهم يفعلون ويحفظ قصيدة عن ذلك».

قال آرون: «سأغلف الأرنب. لدي الصندوق الذي جاء فيه سروالي». ركض إلى خارج المنزل القديم وبقي كال ينظر إليه وهو يبتسم. «على ماذا تضحك؟» سأله أبراً.

قال وهو يثبت عينيه عليها: «أوه، لا شيء».

حاولت أن تحديق به، فقد كانت خبيرة في التحديق، لكن كال لم ينظر بعيدًا، في البداية شعر بشيء من الخجل، لكن ذلك غادره سريعاً، وشعور الانتصار

على سيطرة أبراجعله يضحك. كان يعلم أنها تفضل أخاه، لكن هذا لم يكن شيئاً جديداً عليه. فضل الجميع تقريباً آرون بشعره الذهبي وانفتاحه الذي سمح لمودته بالتغلغل فيهم. بينما كال كان يخفي عواطفه في أعماقه وكانت تخرج فقط عند التقهقر أو الهجوم. كان قد بدأ في معاقبة أبراجعلى إعجابها بأخيه، ولم يكن هذا شيئاً جديداً أيضاً، فقد بدأ بممارسة العقاب السري منذ أن اكتشف أنه يستطيع ذلك، وقد نما أسلوبه ليصبح شيئاً يبدع فيه.

ربما يمكن وصف الفرق بين الصبيين بشكل أفضل بهذه الطريقة: إذا صادف آرون مسكن نمل في طريقه، ستراه يستلقي على بطنه ويراقب حياة النمل - يتأمل النمل المنهمك في جلب الطعام والبعض الآخر يحمل البيض الأبيض. كان لينظر ملياً إلى اجتماع اثنين منهما أعلى التل والتحدث بوضع قرونهما معاً. كان يستلقي هناك لساعات منغمساً في الأمر.

من ناحية أخرى، إذا جاء كال على نفس المسكن سيركله ويسحقه ويراقب بينما يعتني النمل المحموم بكارثته. كان آرون مقتنعاً بأن هذا كله جزء من عالمه، لكن كال كان يشعر بضرورة تغييره.

لم يشك كال في حقيقة أن الناس يحبون أخاه أكثر، لكنه طور وسيلة للتأقلم مع الأمر. لقد خطط وانتظر ذات مرة حتى كشف الشخص المعجب عن نفسه، ثم حدث شيء ولم تعرف الضحية أبداً كيف ولماذا حدث ذلك. من الرغبة في الانتقام استخرج كال القوة، ومن القوة بلغ السعادة، وكانت أقوى وأنقى عاطفة عرفها، وبعيداً عن كره آرون، فقد أحبه لأنه كان سبب شعوره بالانتصار. لقد نسي - إذا كان قد عرف - أنه عاقب الآخرين لأنه تمنى أن يُحَب كما آرون.

استفزت أبراجعلى بتعاملها مع آرون عن طريق لمسه والنعومة التي تحدثت بها معه. كان رد فعل كال تلقائياً؛ بحث دماغه عن نقاط ضعف في أبراجعلى، وكان ذكياً جداً للدرجة أنه وجد واحدة في كلماتها. يريد بعض الأطفال أن يبقوا أطفالاً

والبعض الآخر يريدون أن يكونوا بالغين. قلة من هم راضون عن أعمارهم. أرادت أبراً أن تكون راشدة، كانت تستخدم كلمات للبالغين، وتحاكي مواقف وعواطف الكبار. لقد تركت طفولتها لكنها لم تكن قادرة بعد على أن تكون واحدة من الكبار الذين كانت معجبة بهم. شعر كال بهذا وهي منحتة الأداة المناسبة للقضاء على عشاها.

كان يعرف المدة التي سيستغرقها شقيقه للعثور على الصندوق. يمكنه أن يرى في ذهنه ما سيحدث. سيحاول آرون غسل الدم عن الأرنب وسيستغرق هذا وقتاً. ثم سيستهلك العثور على الخيط مزيداً من الوقت، وسيأخذ الربط الدقيق للعقد المزيد من الوقت. في غضون ذلك أدرك كال أنه بدأ يفوز. شعر أن يقين أبراً يتذبذب وكان يعلم أن بإمكانه تحفيز ذلك أكثر.

أخيراً نظرت أبراً بعيداً عنه وقالت: «لماذا تحدد هكذا؟»

نظر كال إلى قدميها وببطء وبرود علت نظراته إليها كما لو كانت كرسيًا. كان يعلم أن هذا من شأنه أن يربك حتى الكبار.

سألها: «هل تذهبين إلى المدرسة؟»

«بالطبع أفعل.»

«أي فصل؟»

«الخامس.»

«كم عمرك؟»

«سأبلغ الحادية عشرة»، ضحك كال.

«ما المضحك في ذلك؟» سألته. لم يرد عليها.

«هيا قل لي! ما المضحك في ذلك؟» ظل دون جواب. قالت: «تعتقد أنك

ذكي للغاية»، وعندما استمر في الضحك قالت بقلق، «أتساءل ما الذي يؤخر أخاك. انظر، لقد توقف المطر.»

قال كال، «أعتقد أنه يبحث عنه».

«تقصد الأرنب؟»

«أوه، لا. إنه على ما يرام - إنه ميت. لكن ربما لا يستطيع الإمساك بالآخر. فهو يهرب منه».

«يمسك بماذا؟ ما الذي يبتعد؟»

قال كال: «لا يريدني أن أقول، يريد لها أن تكون مفاجأة. لقد أمسك به الجمعة الماضية. بل عضه أيضا».

«ما الذي تحدث عنه؟»

«سترين عندما تفتحين الصندوق. أراهن أنه سيطلب منك عدم فتحه على الفور». لم يكن هذا بتخمين، كان كال يعرف شقيقه جيدا.

عرفت أبرأ أنها لم تخسر المعركة فحسب بل الحرب كلها. بدأت تكره هذا الصبي. راجعت في عقلها كل الردود الحاسمة التي عرفتها واستسلمت في حالة من العجز وهي تشعر أنه لن يكون لها أي تأثير، وعليه تراجعت في صمت. خرجت من الباب ونظرت نحو المنزل حيث كان والداها.

قالت: «أعتقد أنني سأعود».

قال كال: «انتظري».

استدارت لتراه يقترب منها فسألته ببرود «ماذا تريد؟»

قال «لا تغضبي مني، أنت لا تعرفين ما يجري هنا. يجب أن تري ظهر أخي». أذهلها تغيير وتيرته، لقد انتبه ببراعة لاهتمامها بالمواقف الرومانسية، لذا تحدث بصوت هامس، وهي بدورها خفضت صوتها ليناسب صوته.

«ماذا تقصد؟ ما المشكلة في ظهره؟» قال كال: «الندوب، إنه الصيني».

ارتجفت وتوترت باهتمام: «ماذا يفعل؟ هل يضربه؟»

قال كال: «أسوأ من ذلك».

«لماذا لا تخبر والدك؟»

«لا نجرؤ. هل تعلمين ماذا يمكن أن يحدث لو تحدثنا؟»

«لا. ماذا؟»

هز رأسه «لا» - بدا أنه يفكر ملياً - «لا أجرؤ حتى على إخبارك».

في تلك اللحظة، كان لي يقوم بإحضار عربة آل بيكون. خرج السيد والسيدة بيكون من المنزل ونظروا جميعهم تلقائياً إلى السماء. قال كال: «لا يمكنني إخبارك الآن. سيعرف الصيني إذا قلت».

نادت السيدة بيكون: «أبرا! هيا! سنغادر». أمسك لي الحصان المضطرب بينما تمت مساعدة السيدة بيكون في صعود العربة.

جاء آرون مندفعاً إلى المنزل حاملاً صندوقاً من الورق المقوى مربوطاً بشكل معقد بخيط في عقدة فيونكة فاخرة. دفعه إلى أبرا قائلاً «هاك. لا تفكي الربطة حتى تصلي إلى المنزل».

لمح كال اشتمزاً على وجه أبرا. تقلصت يداها بعيداً عن الصندوق.

قال والدها: «خذيها يا عزيزتي وأسرعى لقد تأخرنا كثيراً». دفع الصندوق في يديها.

اقترب كال منها وهمس في أذنها. قال: «لقد بللت سروالك». احمرت خجلاً ووضعت قبعتها الشمسية فوق رأسها. حملتها السيدة بيكون من تحت ذراعيها وأجلستها في عربة الأطفال.

شاهد لي وآدم والتوأم الحصان وهو يهرول مبتعداً بشكل رائع.

قبل الوصول للمنعطف الأول، ظهرت يد أبرا ورمت الصندوق في الطريق. راقب كال وجه أخيه ورأى البؤس يلوح في عيني آرون. عندما عاد آدم إلى المنزل وكان لي يتحرك وييده وعاء من الحبوب لإطعام الدجاج، وضع كال ذراعه حول كتفي أخيه وعانقه بشكل مطمئن.

قال آرون: «أردت أن أتزوجها، وضعت لها رسالة في الصندوق أطلب منها ذلك». قال كال: «لا تحزن، سأسمح لك باستخدام بندقيتي». تحرك رأس آرون نحوه. ليست لديك بندقية». «ليست لدي؟ حقاً؟»



## الفصل 28

### 1

اكتشف التوأم اختلافاً في والدهما على مائدة العشاء. كانا يعرفانه كهيئة خارجية، آذان تسمع ولا تصغي، عيون تنظر ولا تلاحظ، كان باختصار سحابة أب. لم يتعلما أبداً إخباره عن اهتماماتهما واكتشافاتهما أو حتى احتياجاتهما. كان لي هو نقطة تواصلهما مع عالم الكبار، ولم يتمكن لي من تربية الولدين وإطعامهما وكسوتهما وتأديبهما فحسب، بل كان قد علمهما أيضاً احترام والدهما. لقد كان لغزا للأولاد، وكان لي هو من قام بنقل كلمته وتعاليمه لهما، أو بالأحرى هو الذي وضعها بنفسه ونسبها إلى آدم.

هذه الليلة، وهي الأولى بعد عودة آدم من ساليناس، اندهش كال وأرون أولاً ثم شعرا ببعض الارتباك عندما وجدا آدم يستمع إليهما وي طرح عليهما الأسئلة وينظر إليهما. هذا التغيير جعلهما مترددين.

قال آدم: «سمعت أنكما اصطدتما اليوم».

أصبح الصبيان حذرين كما هو الحال عند مواجهة وضع جديد. بعد وقفة أجاب آرون، «نعم سيدي».

«هل حصلتما على أي شيء؟»

هذه المرة كانت وقفة أطول: «نعم سيدي».

«ماذا اصطدتما؟»



«أرنب».

«بالأقواس والسهام؟ من الذي اصطاده؟»

قال آرون، «أطلقنا كلانا. لا نعرف من الذي أصابه».

قال آدم: «ألا تعرف سهامك؟ اعتدنا على تحديد سهامنا عندما كنت صبياً».

هذه المرة رفض آرون الإجابة والوقوع في المشاكل. قال كال بعد شيء من

الانتظار: «حسنًا، لقد كان سهمي، لكننا نعتقد أنه ربما وقع في جعبة آرون».

«ما الذي يجعلك تظن ذلك؟»

قال كال: «لا أعرف، ولكن أعتقد أن آرون هو من أصاب الأرنب».

نقل آدم عينيه إلى آرون «وما رأيك؟»

«أعتقد أنني ربما أصبته - لكنني لست متأكدًا».

«حسنًا، يبدو أنكما تتعاملان مع الموقف بشكل جيد».

خف ارتباك الولدين، يبدو أنه لم يكن فحاً.

«وأين هو الأرنب؟» سأل آدم.

قال كال: «لقد أعطاه آرون لأبرا كهدية».

قال آرون: «لقد رمته في الخارج».

«لماذا؟»

«لا أعرف. كنت أرغب في الزواج منها أيضًا».

«حقاً؟»

«نعم سيدي».

«ماذا عنك يا كال؟»

قال كال: «أعتقد أنني سأترك آرون يأخذها».

ضحك آدم، لم يتذكر الأولاد أنهم سمعوه يضحك من قبل». هل هي فتاة لطيفة؟» سألهما.

قال آرون: «أوه، نعم. إنها لطيفة. جيدة ولطيفة».

«حسنًا، أنا سعيد بذلك إذا كانت ستصبح زوجة ابني».

قام لي بتنظيف الطاولة وبعد قعقة سريعة في المطبخ عاد: «هل أنتما جاهزان للنوم؟»

حلّقا وهما يحتجان. قال آدم، «اجلس ودعهما قليلاً».

«لقد قمت بتجهيز الحسابات، يمكننا مراجعتها لاحقًا». قال له لي

«حسابات ماذا يا لي؟»

«حسابات المنزل والمزرعة. قلت إنك تريد أن تعرف وضعك».

«ليس حسابات أكثر من عشر سنوات يا لي!»

«لم ترغب أبدًا في الانشغال بها من قبل».

«أعتقد أن هذا صحيح. لكن تعال واجلس قليلاً. آرون يريد الزواج من الفتاة الصغيرة التي كانت هنا اليوم».

«هل يمكننا اعتبارهما مخطوبين؟» سأل لي.

قال آدم: «لا أعتقد أنها قبلت بعد، قد يمنحنا ذلك بعض الوقت».

سرعان ما فقد كال شعوره بالرعب من التغيير الطارئ في المنزل وبدأ يتفحص مسكن النمل هذا بعيون حساسة، لتحديد كيفية ركله. لقد اتخذ قراره.

قال: «إنها فتاة لطيفة حقًا، أنا معجب بها. هل تعرف لماذا؟ حسنًا، طلبت منا

أن نسألك عن مكان قبر أمنا، حتى نتمكن من أخذ بعض الزهور إليها».

«هل يمكننا يا أبي؟» سأل آرون. قالت إنها ستعلمنا كيفية صنع أكاليل

الزهور».

تسارعت الأفكار في عقل آدم. لم يكن جيدًا في الكذب يوماً ولم يتدرب على ذلك. أخافه الحل الذي طرأ على باله، فقد جاء بسرعة إلى ذهنه وبصعوبة شديدة تسلل إلى لسانه. قال: «أتمنى أن نتمكن من فعل ذلك يا أولاد. لكن علي أن أخبركما. قبر والدتكما يوجد في البلدة التي ولدت فيها».

«لماذا؟» سأل آرون.

«بعض الناس يريدون أن يُدفنوا في المكان الذي أتوا منه».

«كيف وصلت هناك؟» سأل كال.

«وضعناها في قطار وأرسلناها إلى بلدتها، أليس كذلك يا لي؟»

أوماً لي برأسه: «نحن نفعل الشيء نفسه، يتم إرسال جميع الصينيين تقريباً إلى الصين بعد وفاتهم».

قال آرون: «أعرف ذلك. لقد أخبرتنا بذلك من قبل».

«هل فعلت؟» سأل لي.

«بالتأكيد فعلت». قال كال وهو يشعر بخيبة أمل غامضة.

غير آدم الموضوع بسرعة: «قدم السيد بيبكون اقتراحاً بعد ظهر هذا اليوم، وأود منكما أن تفكرا في ذلك يا أولاد. قال إنه ربما يكون من الأفضل لنا أن نتقل إلى ساليناس - هناك مدارس جيدة والعديد من الأطفال الآخرين يمكنكم اللعب معهم».

أذهلت الفكرة التوائم. سأل كال «ماذا عن هنا؟»

«حسنًا، سنحتفظ بالمزرعة في حال أردنا العودة».

قال آرون: «أبرا تقيم في ساليناس». وكان ذلك كافيًا بالنسبة لآرون. كل ما

كان يخطر بباله هو مريلة صغيرة وقبعة شمسية وأصابع صغيرة ناعمة.

قال آدم: «حسنًا، فكرا في الأمر. ربما يجب أن تذهبا إلى الفراش الآن. لماذا

لم تذهبا إلى المدرسة اليوم؟»

قال آرون «المعلم مريض».

كان لي قد تحقق بدوره من ذلك. قال: «الآنسة غولب مريضة منذ ثلاثة أيام، ليس عليهما العودة حتى يوم الإثنين. هيا يا أولاد». تبعوه بطاعة من الغرفة.

## 2

جلس آدم وهو يتسهم بشكل غامض للمصباح وينقر على ركبته بإصبع السبابة حتى عاد لي. قال آدم: «هل يعرفان شيئاً؟» قال لي «لا أعرف».

«حسنًا، ربما كانت الفتاة الصغيرة فقط».

ذهب لي إلى المطبخ وأحضر صندوقًا كبيرًا من الورق المقوى. ها هي دفاتر الحسابات. لكل عام شريط مطاطي. لقد راجعتها. إنها كاملة». «تقصد كل الحسابات؟»

قال لي: «ستجد كتابًا لكل عام وفواتير لكل شيء. أردت أن تعرف وضعك الحالي. ها هو - كل هذا. هل تعتقد حقًا أنك ستنتقل؟» «حسنًا، أنا أفكر في ذلك».

«أتمنى لو كانت هناك طريقة ما لإخبار الأولاد بالحقيقة».

«هذا من شأنه أن يسلبهما الأفكار الجيدة عن والدتهما يا لي».

«هل فكرت في الخطر الآخر؟»

«ماذا تقصد؟»

«افتراض أنهما اكتشفا الحقيقة التي يعرفها الكثير من الناس»

«ربما عندما يكبران سيكون الأمر أسهل».

قال لي «لا أصدق ذلك، لكن هذا ليس أسوأ خطر».

«لا أعتقد أنني أفهم قصدك يا لي».

«الكذبة هي ما أفكر فيها. قد تدمر كل شيء. إذا اكتشفت أنك كذبت عليهما بشأن هذا، فإن الأمور الحقيقية ستعاني؛ لن يصدقوا أي شيء بعد ذلك».

«نعم أفهمك. لكن ماذا يمكنني أن أقول لهما؟ لم أستطع إخبارهما بالحقيقة كاملة».

«ربما يمكنك أن تقول بعد ذلك جزء من الحقيقة تضمن ألا تعاني إذا اكتشفوا الأمر».

«أعدك أن أفكر في ذلك يا لي».

«إذا ذهبت للعيش في ساليانس فسيكون الأمر أكثر خطورة».

«سيكون علي التفكير بهذا».

تابع لي بإصرار: «حدثني والذي عن والدتي مرات عديدة عندما كنت صغيراً ولم يعفني من ذلك. بالطبع لم يكن كهذا الأمر، لكنه كان مروعاً جداً. على الرغم من ذلك أنا سعيد لأنه أخبرني. لم أكن أريد أن يتم إخفاء الأمر عني»

«هل تود أن تخبرني؟»

«لا، لا أريد ذلك. لكنه قد يقنعك بإجراء بعض التغيير من أجل الولدين. ربما إذا قلت لهما إنها غادرت ولا تعرف أين هي».

«لكنني أعلم».

«نعم وهذه هي المشكلة. لا بد أن تكون الحقيقة كاملة أو تحوي القليل من الكذب. حسناً، لا يمكنني إجبارك بكل حال»

«سأفكر في الأمر. ما قصة والدتك؟»

«هل تريد حقاً أن تعرف؟»

«فقط إذا كنت لا تمنع بإخباري».

قال لي: «سأجعلها قصيرة جداً، أولى ذكرياتي هي عيشي في كوخ مظلم صغير بمفردي مع والدي وسط حقل بطاطس، ووالدي وهو يروي لي قصة والدتي. كانت لغته هي الكانتونية، ولكن كلما روى القصة كان يتحدث بلغة الماندرين الجميلة. حسناً إذاً، سأحكيها لك -» ونظر لي إلى الورا في الوقت المناسب.

«عليّ أن أخبرك أولاً أنه عندما قمتم ببناء خطوط السكك الحديدية في الغرب، فإن العمل الرهيب المتمثل في ترتيب ووضع ورفع القضبان قام به عدة آلاف من الصينيين. لقد كانوا عمالة رخيصة، ويعملون بجهد، وإذا ماتوا فما من داع للقلق. تم تجنيدهم إلى حد كبير من كانتون، لأن الكانتوني قصير القامة وقوي البنية، كما أنه ليس مشاكساً. تم إحضارهم بموجب عقود، وربما كان تاريخ والدي نموذجياً إلى حد ما.

«ثم عليك أن تعلم أن الصيني يحرص على سداد جميع ديونه في يوم رأس السنة الجديدة أو يوماً واحداً قبله ليبدأ كل عام نظيفاً، وإذا لم يفعل ذلك، يشعر أنه يفقد كرامته؛ ولكن ليس هذا فقط - حتى أسرته تفقد ماء وجهها. ولا توجد أعذار لذلك».

قال آدم: «هذه ليست فكرة سيئة».

«جيد أو سيء، هكذا كان الأمر. كان حظ والدي سيئاً نوعاً ما، لم يستطع سداد ديونه. لدينا عائلة شريفة اجتمعت وناقشت الوضع. لم يكن سوء الحظ خطأ أحد، لكن الدين غير المسدد كان ملكاً للعائلة بأكملها. قاموا بدفع ديون والدي ثم أصبح مضطراً لسدادها، وكان ذلك شبه مستحيل.

«شيء واحد فعله وكلاء التوظيف لشركات السكك الحديدية - كانوا

يدفعون مبلغًا كبيرًا من المال عند توقيع العقد، وبهذه الطريقة يقبضون على عدد كبير من الرجال المتورطين في الديون. كل هذا كان معقولاً ومشرفاً، لم يكن هناك سوى حزن أسود واحد.

«كان والدي شابًا متزوجًا مؤخرًا، وكانت علاقته بزوجته قوية جدًا وعميقة ودافئة، ولا بد أن علاقتها أيضا به كانت قوية. ومع ذلك، التزاماً بالآداب والأعراف قاما بتوديع بعضهما بحضور رؤساء الأسرة. لقد اعتقدت في كثير من الأحيان أنه ربما يكون الالتزام بالآداب وسادة أمام الحزن.

«كان الرجال يُحشرون مثل الحيوانات في عنبر السفينة الأسود، يقون هناك حتى الوصول إلى سان فرانسيسكو بعد ستة أسابيع. يمكنك أن تتخيل كيف كانت تلك الثقوب. كان لابد من تسليم البضائع وهي في حالة جيدة. وتعلم أبناء شعبي عبر العصور أن يعيشوا بالقرب من بعضهم البعض، وأن يظلوا نظيفين ويتغذوا في الظروف غير المحتملة.

«لقد أمضيا أسبوعًا في البحر قبل أن يكتشف والدي أن والدتي كانت معه. كانت ترتدي ملابس رجالية وقد قامت بتصفير شعرها بتسريحة كيو. ولم يتم اكتشافها بسبب جلوسها بلا حراك وعدم التحدث. وبالطبع لم تكن هناك فحوصات أو تطعيمات في ذلك الوقت. حركت بساطها وأصبحت بالقرب من والدي. لم يستطيعا الكلام إلا همساً في الأذن في الظلام. كان والدي غاضبًا من عصيانها لكنه كان مسرورًا أيضًا.

«حُكم عليهما بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات. لم يخطر ببالهما أن يهربا بمجرد وصولهما إلى أمريكا، لأنهما كانا أناسًا شرفاء وقد وقعا العقد». توقف لي مؤقتًا. ثم قال: «ظننت أنني أستطيع أن أحكيها في بضع جمل. لكنك لا تعرف خلفية الأمر. سأحضر كوبًا من الماء - هل تريده؟»

قال آدم: «نعم. لكن هناك شيء واحد لا أفهمه. كيف يمكن لامرأة أن تقوم بهذا النوع من العمل؟»

قال لي «دقيقة وأعود» وذهب إلى المطبخ. أحضر كوبين من الماء ووضعهما على الطاولة: «والآن ماذا تريد أن تعرف؟»

«كيف تمكنت والدتك من القيام بعمل الرجال؟»

ابتسم لي «أخبرني والذي إنها كانت امرأة قوية، وأعتقد أن المرأة القوية قد تكون أقوى من الرجل، خاصة إذا صادف وجود حب في قلبها. أعتقد أن المرأة العاشقة تكاد تكون غير قابلة للتدمير».

كشّر آدم ساخرًا.

قال لي: «سترى ما أعنيه يومًا ما، سترى بنفسك»

قال آدم: «لم أقصد التفكير بشكل سيء، بكل حال كيف لي أن أعرف من تجربة واحدة؟ أكمل».

«شيء واحد لم تهمس به أمي في أذن أبي خلال ذلك العبور البائس الطويل. ولأن الكثيرين كانوا مصابين بدوار البحر المميت، لم تدل بأي ملاحظة له عن مرضها».

بكى آدم، «لم تكن حامل!»

قال لي: «كانت حامل، ولم ترد أن تثقل كاهل والدي بمزيد من الهموم».

«هل كانت تعلم بالأمر عندما لحقت به؟»

«لا لم تفعل. يبدو أنني حدّدتُ بدء وجودي في العالم في أكثر الأوقات إزعاجًا. إنها قصة أطول مما كنت أعتقد».

قال آدم: «حسنًا، لا يمكنك التوقف الآن».

«لا، لا أعتقد ذلك. في سان فرانسيسكو تراكمت العضلات والعظام في سيارات الماشية الذاهبة في اتجاه الجبال. كانوا في طريقهم إلى العمل في حفر الأنفاق تحت قمم سلسلة الجبال هناك. تم اقتياد أمي إلى سيارة أخرى، ولم يرها والدي حتى وصلوا إلى معسكرهم الواقع في مرج جبلي مرتفع».



كان مكاناً جميلاً للغاية بكل ذلك العشب الأخضر والأزهار والقمم الثلجية،  
وعندها فقط أخبرت والدي عني.

ذهبا إلى العمل، تصلبت عضلات تلك المرأة تمامًا كما الرجال، كما أن  
والدتي كانت تتمتع بروح صلبة أيضًا. لقد قامت بكل الأعمال المتوقعة منها  
كرجل، ولا بد أنها كانت تشعر بالهلع، لكن ذعرهما الأكبر كان بشأن كيفية  
إنجابها للطفل».

قال آدم: «هل هما جاهلان!! لماذا لم تذهب الى صاحب العمل وتخبره  
أنها امرأة وحامل؟ بالتأكيد كانوا سيهتمون بها».

«الأمر هو أنني لم أخبرك كل شيء. ولهذا السبب هذه الحكاية طويلة جدًا.  
لم يكونا جاهلين، تم استيراد هذه الماشية البشرية لشيء واحد فقط - للعمل.  
عند الانتهاء من العمل كان من المقرر إعادة أولئك الذين لم يموتوا. تم إحضار  
الذكور فقط - لا إناث. لم تكن البلاد تريد أن يتكاثروا. وجود رجل وامرأة  
وطفل معاً يعني أنهم سيخلقون وسيلة للتنقيب في الأرض التي يستقرون فيها  
ويحفرون فيها منزلاً، وحينها سيتطلب الأمر الجحيم بأكمله لاجتثاثهم. لكن  
مجموعة تحوي رجال عصبيين وشهوانيين وقلقين ومرضى بالوحدة فيما  
يتعلق بالنساء، هؤلاء قد يذهبون إلى أي مكان، لكنهم على وجه الخصوص  
يريدون العودة إلى الوطن.

وأمي كانت المرأة الوحيدة في هذه المجموعة من الرجال نصف المجانين  
ونصف المتوحشين. وكلما طالت مدة عمل الرجال زاد قلقهم. بالنسبة للرؤساء،  
لم يكونوا بشرًا بل حيوانات يمكن أن تكون خطيرة إذا لم يتم التحكم فيها.  
يمكنك أن تتفهم لماذا لم تطلب أمي المساعدة. لكانوا قد قاموا بإخراجها بسرعة  
من المخيم - ومن يدري؟ - ربما يطلقون عليها الرصاص ويدفنها كما بقرة  
مریضة. تم إطلاق النار بالفعل على خمسة عشر رجلاً لكونهم تمردون قليلاً.  
لا - لقد حافظوا على النظام بالطريقة التي تعلم بها صنفتنا المسكين الحفاظ على

النظام. نعتقد دائماً أنه لا بد أن تكون هناك طرق أفضل ولكننا لا نتعلمها أبداً - دائماً السوط والحبل والبندقية. أتمنى لو لم أبدأ في إخبارك بهذا -  
«لماذا؟» سأل آدم.

«يمكنني إلى اللحظة رؤية وجه أبي وهو يحكي، يغمره بؤس قديم، خام ومليء بالوجع. كان حينها يضطر أحياناً للتوقف ومحاولة استجماع نفسه والتحكم فيها. وعند العودة للحديث يتكلم بصرامة ويستخدم كلمات بالغة الحدة كما لو كان يريد أن يجرح نفسه بها.

«تمكن هذان الشخصان من البقاء على مقربة من بعضهما من خلال الادعاء بأنها ابن أخ والدي. مرت الأشهر ولحسن الحظ كان تورم بطنها طفيفاً، وبقيت تعمل حتى وهي في غمرة الألم. لم يتمكن والدي من مساعدتها إلا قليلاً ومعتزراً: «ابن أخي ما زال يافعاً وعظامه هشّة». لم تكن لديهما خطة ولم يعرفا ما يجب القيام به».

«ثم في تلك الجبال العالية حيث المروج وبجانب بحيرة صنعا جحراً للولادة، وقررا أنه عندما تصبح والدي آمنة ويولد الطفل، سيعود والدي ليأخذ عقابه. ويوقع لمدة خمس سنوات إضافية لدفع عقوبة ابن أخيه. بقدر ما كان هروبهما مثيراً للشفقة، كان كل ما لديهما وبدا بمثابة وميض نور. كان للخطة متطلبان - يجب أن يكون التوقيت مناسباً والغذاء متوفراً».

قال لي: «والداي» - وتوقف مبتسماً بسبب وقع الكلمة، شعر بالراحة لدرجة أنه قام بإضافة بعض الدفء لها - «بدأ والداي العزيزان في الإعداد للأمر. احتفظا بجزء من وجبتهما اليومية وذلك بإخفائه تحت حصائر نومهما. وجد والدي خيطاً طويلاً وحصل على خطاف، ذلك أنهم كانوا يصيدون سمك السلمون المرقط في بحيرات الجبل. توقف عن التدخين لحفظ الثقاب. وجمعت والدي كل قطعة قماش ممزقة وجدتها وفتحت حوافها وخيطة كيس الخردة هذا بشظية لصنع قماط من أجلي. أتمنى لو كنت عرفتها».

قال آدم: «وأنا كذلك. هل حكيت هذا للسام هاملتون؟»

«لا لم أفعل. اتمنى لو أنني فعلت. كان يحب الاحتفاء بالروح البشرية. كانت مثل هذه الأمور بمثابة انتصار شخصي له.»

قال آدم: «أمل أن يكونا قد وصلا إلى هناك.»

«أعرف شعورك. عندما كان والدي يسرد لي كنت أقول له «اذهبا إلى تلك البحيرة - خذ والدتي إلى هناك - لا تدع ذلك يحدث مرة أخرى، ليس هذه المرة. دعنا نقول مرة واحدة فقط: وصلت إلى البحيرة وبنيت منزلاً من أغصان التنوب». حينها يعود والدي صنيئاً للنخاع فيقول: الحقيقة أجمل، حتى لو كان هذا الجمال مدمراً. يغيّر رواة القصص عند بوابة المدينة الحقائق حتى تبدو لطيفة للكسالى والأغبياء والضعفاء، وهذا فقط يقوي ضعفهم ولا يعلمهم أو يعالج شيئاً ولا يسمح للقلب بالتحليق.»

قال آدم بانفعال: «أكمل.»

نهض لي وذهب إلى النافذة، وأنهى القصة ناظراً إلى النجوم التي غمزت واندفعت في رياح مارس.

«سقطت صخرة أسفل التل على ساق والدي وكسرتها. قاموا بتجبير الساق وأعطوه أعمال المقعدين، تسوية المسامير المستخدمة بمطرقة على صخرة. وسواء كان بسبب القلق أو العمل، لا يهم، أتى أمي المخاض في وقت مبكر. وعرف الرجال نصف المجانين بالأمر وأصبحوا مجانين بالكامل. شحذ الجوع جوع آخر، وجريمة واحدة محت تلك التي قبلها، وكل الجرائم الصغيرة المرتكبة ضد أولئك الرجال المتصورين تجمّعت في جريمة عملاقة واحدة.

سمع والدي صيحة «امرأة» وعرف. حاول الركض وانكسرت ساقه تحته وزحف على المنحدر الخشن إلى حيث كانت الضجة.

«عندما وصل إلى هناك، حل نوع من الحزن في السماء، وكان رجال

الكاتون يزحفون للاختباء ولنسيان أن الرجال يمكن أن يكونوا هكذا. وصل إليها والدي وهي تحت كومة من الصخور الزيتية. لم تعد لديها حتى عيون ترى من خلالها، لكن كان فمها ما زال يتحرك، أعطته التعليمات. أخرجني أبي من لحم أمي الممزق بأظافر أصابعه، وماتت هي على الصخر الزيتي في فترة ما بعد الظهر».

كان آدم يتنفس بصعوبة. وتابع لي: «قبل أن تكره هؤلاء الرجال، يجب أن تعرف هذا؛ كان والدي يقول ذلك دائماً في النهاية: لم يحصل أي طفل على الرعاية التي حصلتُ عليها. أصبح المخيم بأكمله أما لي. إنه أمر جميل - نوع مروّع من الجمال. والآن تصبح على خير. لا أستطيع التحدث بعد الآن».

### 3

فتح آدم الأدراج بلا كلل ونظر إلى الأرفف ورفع أغطية الصناديق في منزله، وفي النهاية اضطر إلى مناداة وسؤال لي: «أين المحبرة والقلم؟» قال لي: لم يعد لديك أي شيء فأنت لم تكتب كلمة واحدة منذ سنوات. سأقترضك خاصتي إذا أردت». ذهب إلى غرفته وعاد بزجاجة حبر وقلم بعض الورق والأظرف ووضعها على المنضدة.

سأل آدم: «كيف عرفت أنني أريد كتابة رسالة؟»

«ستحاول الكتابة إلى أخيك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح».

قال لي: «سيكون من الصعب القيام بذلك بعد كل هذه المدة الطويلة».

وكان الأمر صعباً بالفعل. قضم آدم القلم ومضغه بضم متجهم. كتب العديد من الجمل وألقى الصفحة تو الأخرى وبدأ من جديد وهو يحك رأسه بحامل القلم: «لي، إذا أردتُ القيام برحلة إلى الشرق، فهل ستبقى مع التوأم حتى أعود؟»

قال لي: «الذهاب أسهل من الكتابة، بالتأكيد سأبقى».

«لا. سوف أكتب».

«لماذا لا تطلب من أخيك المجيء إلى هنا؟»

«هذه فكرة رائعة يا لي. كيف لم أفكر في ذلك».

«إنه أمر يمنحك أيضًا سببًا للكتابة، وهذا شيء جيد».

أصبحت كتابة الرسالة مهمة سهلة إلى حد ما بعد ذلك، وتمت مراجعتها ونسخها بشكل سلس. وأعاد آدم قراءتها قبل أن يضعها في الظرف.

«أخي العزيز تشارلز، ستتفاجأ حتماً عندما تسمع عني بعد هذه الفترة الطويلة. لقد فكرت في الكتابة إليك عدة مرات، ولكن تعرف كيف يمكن للرجل إرجاء الأمور. أتساءل عن أحوالك وأرجو أن تكون في صحة جيدة. حسب ما أعرفه عنك لا بد أنك قد رزقت الآن بخمسة أو حتى عشرة أطفال. ها! ها! رُزقت أنا بتوأم، ولدان. والدتهم ليست هنا؛ لم تنسجم مع الحياة هنا، وأصبحت تعيش في بلدة قريبة وأراها بين الحين والآخر. لدي مزرعة جيدة، لكنني بخجل أقول إنني لا أحافظ عليها. ربما سأفعل بشكل أفضل من الآن فصاعداً. كنت دائماً أتخذ قرارات جيدة، لكن لعدة سنوات شعرت بالضعف، مع ذلك أنا بخير الآن».

«كيف حالك أنت؟ أود أن أراك، لماذا لا تأتي لزيارة إلى هنا؟ إنها بلدة رائعة وقد تجد مكاناً ترغب في الاستقرار فيه. لا شتاء بارد هنا. هذا يحدث فرقا مع «كبار السن» أمثالنا. ها! ها!

«حسناً يا تشارلز، أتمنى أن تفكر في الأمر وتبلغني بقرارك. سيفيدك السفر. أتمنى بحق أن أراك. لدي الكثير لأخبرك به ولا يمكنني تدوينه».

اكتب لي عن أخبار المنزل القديم. افترض أن أشياء كثيرة قد حدثت. كلما تقدمت في العمر تسمع في الغالب عن موت أولئك الذين عرفتهم. أعتقد أن هذا هو مسار الحياة. اكتب بأقرب وقت وأخبرني إذا كنت ستأتي. أخوك آدم».

جلس ممسكًا الرسالة في يده وبقي ينظر إليها وهو يرى فيها وجه أخيه الداكن وجبهته التي تتوسطها الندبة، استطاع رؤية الحرارة المتلاثلة في عيونه البنية، رأى شفثيه تلتويان خلف الأسنان حيث يظهر الحيوان الأعمى المدمر. هز رأسه لتخليص ذاكرته من تلك الرؤية، وحاول إعادة بناء وجه أخيه مبتسمًا، حاول تذكر جبهته قبل الندبة، لكنه لم يستطع التركيز على أي منهما. أمسك القلم وكتب أسفل توقيعه: ملحوظة يا تشارلز، لم أكرهك يوماً. لطالما أحببتك لأنك كنت أخي».

طوى آدم الرسالة وقام بإغلاق الظرف: «لي!»

نظر الصيني من خلال الباب.

«لي، كم من الوقت تستغرق الرسالة للوصول إلى الشرق؟»

قال لي «لا أعرف، ربما تستغرق أسبوعين».

مكتبة

t.me/soramnqraa



## الفصل 29

### 1

بعد أن أرسل آدم رسالته الأولى إلى أخيه منذ أكثر من عشر سنوات، نفذ صبره وهو ينتظر استلام إجابة منه. نسي كم من الوقت قد انقضى. قبل حتى وصول الرسالة إلى سان فرانسيسكو كان يسأل لي: «أتساءل لماذا لم يرد. ربما هو غاضب مني لعدم الكتابة. لكنه لم يكتب أيضًا. لا - هو لم يكن يعرف أين كنت. ربما انتقل.»

أجاب لي: «لقد أرسلت الرسالة منذ بضعة أيام فقط. امنح الأمر بعض الوقت.»

«أتساءل إذا كان سيأتي إلي هنا؟» سأل آدم نفسه، وتساءل عما إذا كان نفسه يريد تشارلز. الآن بعد أن ذهب الرسالة، كان آدم يخشى أن يقبلها تشارلز. كان مثل الطفل الذي لا يهدأ، يتدخل في شؤون التوأم، يسألها أسئلة لا حصر لها حول المدرسة.

«حسنًا، ماذا تعلمتما اليوم؟»

«لا شيء!»

«أوه كفى! لا بد أنكما تعلمتما شيئًا. هل قرأتما؟»

«نعم سيدي.»

«ماذا قرأتما؟»



«القصة القديمة عن الجندب والنملة».

«حسنًا، هذا مثير للاهتمام».

«هناك قصة حول نسر يحمل طفلاً بعيداً».

«نعم، أتذكر تلك. نسيت ما يحدث».

«لم نبدأ بها بعد. لقد رأينا الصور فحسب»

كان الأولاد يشعرون بالملل. خلال إحدى لحظات آدم الأبوية استعار كال سكين جيبه على أمل أن ينسى استعادته. لكنه استعاد سكينه ليعلمهما كيفية صنع صفارة من غصن الصفصاف كان لي قد علمهما كيفية صنعها قبل ثلاث سنوات. ومما زاد الطين بلة أن آدم نسي كيفية قص الغصن، ولم يستطع إخراج الصوت من ثقب الصفارات.

في ظهيرة يوم من تلك الأيام، أتى ويل هاملتون وهو يزأر في الطريق بسيارة فورد جديدة يتمايل الجزء العلوي منها كما سفينة تحركها عاصفة، وبمبرد محرك وخزان بريستولايت نحاسي يعمي البصر.

سحب ويل ذراع المكابح وأدار المفتاح للأسفل بشكل مستقيم، ثم عاد للجلوس في المقعد الجلدي. لم يفلح في تشغيلها بعد المحاولة لعدة مرات بسبب ارتفاع درجة حرارتها.

«ها هي!» صاح ويل بحماس كاذب. كان يكره فورد بشدة، لكنها كانت تزيد ثروته بشكل يومي.

علق آدم ولي على الأجزاء الداخلية المكشوفة للسيارة بينما قام ويل هاملتون، من تحت عبء شحومه الجديدة، بشرح طريقة عملها بآلية لم يفهمها هو نفسه.

من الصعب تخيل صعوبة تعلم، قيادة، وصيانة السيارة. لم تكن العملية برمتها معقدة فحسب، بل كان على المرء أن يبدأ من نقطة الصفر. يتعلم

أطفال هذا الوقت نظريات وعادات وخصوصيات محرك الاحتراق الداخلي في مهدهم، لكن آنذاك كان يبدأ الأمر بالاعتقاد بأن شيئاً كهذا لن يعمل على الإطلاق، وأحياناً كنت على حق. أيضاً، لبدء تشغيل محرك سيارة حديثة يمكنك القيام بأمرين فقط؛ إدخال المفتاح والتشغيل وكل شيء آخر يعمل بشكل تلقائي. بينما كانت العملية أكثر تعقيداً آنذاك، حيث لم يتطلب الأمر ذاكرة جيدة، وذراعاً قوية، ومزاجاً ملائكياً، وأملاً أعمى فحسب. بل تطلب أيضاً قدرًا معيناً من السحر، بحيث من المحتمل رؤية الرجل الذي يوشك على تشغيل الساعد في موديل تي وهو يبصق على الأرض قبلها ويهمس بتعويذة.

شرح ويل هاملتون كيفية عمل السيارة وأعاد الشرح مرة أخرى. كان عملاؤه مركّزين، متعاونين، ومهتمين، ولم يقاطعوه، ولكن عندما بدأ بإعادة الشرح للمرة الثالثة، رأى ويل أنه لا مكان له.

قال ببراعة: «دعني أخبرك بشيء! كما ترى هذا خارج نطاق عملي. أردتك أن تراها وتستمع إلى صوت محركها قبل أن أقوم بتوصيلها. الآن سأعود إلى المدينة وغداً سأرسل هذه السيارة مع خبير وسيخبرك في بضع دقائق أكثر مما أستطيع إخبارك إياه في أسبوع. لكنني أردت فقط أن تراها قبل ذلك».

كان ويل قد نسى بالفعل بعض التعليمات الخاصة، حاول إعادة تشغيل السيارة لبعض الوقت دون جدوى، ثم استعار عربة وحصاناً من آدم للعودة إلى المدينة، مع وعد بإرسال ميكانيكي في اليوم التالي.

## 2

لم يكن هناك شك في إرسال التوأم إلى المدرسة في اليوم التالي. ما كانا لذهبا وقد وقفت سيارة فورد شامخة ورصينة تحت شجرة البلوط حيث أوقفها ويل. قام أصحابها الجدد بالطواف حولها ولمسها بين الحين والآخر بالطريقة التي يتم بها لمس حصان غير مروض لتهدئته.

قال لي: «أتساءل عما إذا كنت سأعتاد على هذا».

قال آدم دون اقتناع: «بالطبع ستفعل، سوف تقود سيارتك في جميع أنحاء المقاطعة».

قال لي: «سأحاول فهم كيفية عملها، لكنني لن أقودها».

قام الأولاد بتفقدتها واستكشافها من الداخل والخارج ليلمسوا شيئاً ويقفزوا بعيداً: «ما هذا يا أبي؟»

«ارفعاً أيديكما عن ذلك».

«ولكن ما هذا؟»

«لا أعرف، لكن لا تلمسها. أنتما لا تعرفان ما قد يحدث».

«ألم يخبرك الرجل؟»

«لا أتذكر ما قاله. والآن ابتعدا عن ذلك وإلا سأضطر إلى إرسالكما إلى المدرسة. هل تسمعني يا كال؟ لا تفتح هذا».

كانا قد استيقظنا واستعدنا في وقت مبكر جداً من الصباح. بحلول الساعة الحادية عشرة بدأ التوتر الهستيرى يتسلل إليهما. أتى الميكانيكي في العربة في الوقت المناسب لتناول وجبة منتصف النهار. كان يرتدي حذاء وبدلة عمل وكان معطفه المربّع الواسع يصل لركبتيه. وبجانبه في العربة كانت هناك حقيبة بها أدوات العمل الخاصة به. كان في التاسعة عشرة من عمره ويمضغ التبغ، ومن خلال الأشهر الثلاثة التي قضاها في مدرسة السيارات اكتسب ازدياداً كبيراً ومرهقاً للبشر. بصق وألقى بعض الأوامر على لي: «ضع هذا الحصان البائس بعيداً، كيف تعرف أين مقدمته وأين المؤخرة؟» نزل من العربة كما يخرج سفير من قطار حكومي، سخر من التوأم والتفت ببرود إلى آدم: «أمل أنني وصلت في الوقت المناسب لتناول العشاء».

حرق لي وآدم في بعضهما؛ لقد نسيا تناول وجبة الظهر.

في المنزل قبل القيصر على مضض تناول الجبن والخبز واللحوم الباردة وفطيرة وقهوة وقطعة من كعكة الشوكولاتة.

قال: «أنا معتاد على تناول عشاء ساخن. من الأفضل إبقاء الأطفال بعيدًا إذا كنت تريد سيارة». بعد تناول وجبة ترفيهية واستراحة قصيرة على الشرفة أخذ الميكانيكي حقيبته إلى غرفة نوم آدم. في غضون دقائق قليلة ظهر مرتديًا بدلة مخططة وقبعة بيضاء بشعار «فورد» على مقدمتها.

قال «حسنًا، هل قمت بأي تفحص او دراسة؟»  
«دراسة؟» قال آدم.

«ألم تقرأ حتى الكتاب الموجود تحت المقعد؟»  
قال آدم: «لم أكن أعرف أنه كان هناك».

«آه يا إلهي» قال الشاب باشمئزاز وهو يستجمع قواه الأخلاقية بصبر وتحرك تجاه السيارة: «ربما يمكننا البدء، الرب وحده يعلم كم ستستغرق من الوقت». قال آدم: «السيد هاملتون لم يتمكن من تشغيلها الليلة الماضية».

قال الحكيم: «إنه يحاول دائمًا بدء تشغيلها على المغناطيس. حسنا تعال هنا. هل تعرف مبادئ الاحتراق الداخلي؟»  
قال آدم: «لا».

«أوه، يا يسوع المسيح!» رفع اللوحات المصنوعة من القصدير: «هذا - هنا محرك احتراق داخلي».

قال لي بهدوء: «شاب جدًا لتكون على دراية كبيرة كهذه».

تأرجح الصبي نحوه عابسًا «ماذا قلت؟» ثم توجه نحو آدم وسأله: «ماذا يقول هذا ال تشينك<sup>(1)</sup>؟»

---

(1) تشينك (بالإنجليزية Chink) هو طمس عرقي باللغة الإنجليزية موجه عادة إلى الشخص

نشر لي يديه وابتسم بلطف وقال بهدوء: «قولي جداً فتى ذكي ربما يذهب جامعة».

«نادني جو فحسب!» قال الشاب بلا سبب على الإطلاق، وأضاف: «الجامعة! ماذا يعرفون هناك يا رفاق؟ هل يمكنهم ضبط جهاز توقيت؟ هه جامعة!» وبصق على الأرض وهو يهمس بشتيمة مهينة. نظر إليه التوأم بإعجاب، وقام كال بجمع البصاق على مؤخرة لسانه للتدرب.

قال آدم: «كان لي بيدي إعجابه بفهمك للأمر».

غادرت الفتنة الغلام، وحلت مكانها الشهامة. قال «نادني جو فحسب، يجب أن أكون ملماً بكل شيء، لقد ارتدت مدرسة السيارات في شيكاغو. إنها مدرسة حقيقية - وليست كأى كلية أخرى. يقول والدي أنك إذا حصلت على تشينك جيد، أعني رجلاً جيداً - فهو جيد كأى شخص آخر، إنهم أناس صادقون».

قال لي «لكن ليس الأشرار منهم»

«قطعاً لا! فقط الجيدون منهم».

«آمل أن أكون من ضمن تلك المجموعة؟»

«أنت تبدو تشينك جيداً بالنسبة لي. نادني جو فحسب»

كان آدم يشعر بالحيرة من المحادثة لكن التوأم لم يكونا كذلك. قال كال لآرون على سبيل التجربة: «نادني جو فحسب» بينما آرون يحرك شفثيه محاولاً نطق الكلمات كما الشاب.

عاد الميكانيكي إلى احترامه مرة أخرى لكن نبرته هذه المرة كانت أطف. حلت الصداقة المسلية محل ازدرائه السابق. قال: «هذا هنا محرك احتراق داخلي». نظروا إلى كتلة الحديد القبيحة بشيء من الرهبة.

---

من أصل صيني وغالباً ما تستخدم الكلمة بشكل عشوائي ضد الأشخاص المنحدرين من شرق و/ أو جنوب شرق آسيا بشكل عام.

ثم تحدث الشاب بسرعة كبيرة بحيث اختلطت الكلمات ببعضها البعض لتتحول إلى أغنية رائعة للعصر الجديد «تعمل من خلال انفجار الغازات في مكان مغلق. تمارس قوة الانفجار على المكبس ومن خلال قضيب التوصيل والعمود من خلال ناقل الحركة إلى العجلات الخلفية.. مفهوم؟» أوأوا برؤوسهم خائفين من توقف التدفق.

«ثم هناك نوعان، ذات دورتين وأربع دورات. هذه هنا ذات أربع دورات. فهمتم؟»

أوأوا مرة أخرى. أوأا التوأ وهما ينظران إلى وجهه بإعجاب.  
قال آدم: «هذا مثير للاهتمام».

واصل جو على عجل «الاختلاف الرئيسي لسيارة فورد عن الأنواع الأخرى هو ناقل الحركة الذي يعمل وفقاً لمبدأ ثو - ري»، توقف للحظة وعلى وجهه ظهر الإجهاد. وعندما أوأا مستمعوه الأربعة مرة أخرى حذرهم: «لا أعتقد انكم تفهمون الفكرة. نظام، لا تنسوا: ثو - ري. من الأفضل أن تذاكره من الكتاب. والآن إذا فهمتم كل هذا، فسننتقل إلى تشغيل السيارة». قال هذا بخط عريض وأحرف كبيرة. من الواضح أنه كان سعيداً بإنهاء الجزء الأول من محاضرتة، لكنه لم يكن أكثر سعادة من جمهوره. بدأ إجهادهم من التركيز بفضحهم ولم يتمكنوا من معالجة الأمر لأنهم ببساطة لم يفهموا كلمة واحدة. قال الشاب: تعال هنا. هل ترى ذلك - هناك؟ هذا هو مفتاح الإشعال. عندما تدير ذلك - تكون جاهزاً للتحرك. الآن، تدفع هذا الشيء إلى اليسار. هذا يضعها على البطارية - انظر هنا حيث تقول الكتابة بطارية». قاموا برفع رقابهم للنظر إلى داخل السيارة وكان التوأ يقفان على لوح الصعود.

«لا انتظر. لقد تقدمت على نفسي. عليك أولاً أن تؤخر الشرارة وتدفع الغاز وإلا ستركل ذراعك. هذا هنا - تراه؟ - هذه هي الشرارة. أنت تدفعها للأعلى -

هل فهمت؟ وهذا هو الغاز - تدفعها للأسفل. الآن سأقوم بالشرح العملي وأريدك أن تنتبه. أنما انزلا من السيارة». نزل التوأم على مضض من على لوح الصعود وبقيت عيونهما تنظر من فوق الباب.

أخذ نفساً عميقاً: «والآن هل أنت مستعد؟ شرارة متخلفة، غاز متقدم. أطلق الشرارة، واخفض الغاز. هيا الآن قم بالتبديل إلى البطارية - يساراً، تذكر - يساراً». صدر أزيز وكأنه صوت نحلة عملاقة». هل تسمع ذلك؟ هذا هو الاتصال الذي أخبرتك عنه». لاحظ نظرة فزع على وجه آدم. قال بلطف: «يمكنك دراسة ذلك في الكتاب».

انتقل إلى مقدمة السيارة «الآن هذا هو عمود الكرنك و - هل ترى هذا السلك الصغير الخارج من المبرد؟ - هذا هو الخانق. الآن شاهد بعناية بينما أريك. تمسك بالكرنك هكذا وتدفع، انظر كيف أوجه إبهامي للأسفل؟ إذا أمسكت به في الاتجاه الآخر مع الإبهام حوله سيقتلع الإبهام. هل تفهمني؟» لم ينظر لأعلى لكنه علم أنهم كانوا يميلون برأسهم.

قال: «الآن انظر جيداً. أقوم بدفعه إلى الداخل وأستمر حتى أحصل على الضغط، وبعد ذلك أخرج هذا السلك وأحضره بحذر لامتصاص الغاز. تسمع صوت الامتصاص هذا؟ هذا خنق. لكن لا تسحبه كثيراً. الآن وقد تركت السلك وأعطيته فترة جيدة من الدوران وبمجرد أن تمسك بها تركض وتقدم الشرارة وتوقف الغاز وتنقل المفتاح سريعاً إلى المولد المغناطيسي. هذا كل ما في الأمر».

كان مستمعوه يشعرون بالإنهاك والتشوش، كان كل هذا فقط لتشغيل المحرك.

كرر الشاب: «أريدكم أن تقولوا بعدي حتى تتعلموها: الشرارة للأعلى - الغاز للأسفل»

كررت الجوقة من بعده: «الشرارة للأعلى - الغاز للأسفل».

«التحويل الى البطارية».

«التحويل الى البطارية».

«ضغط الكرنك، الإبهام للأسفل».

«ضغط الكرنك، الإبهام للأسفل».

«الدوران».

«الدوران»

«الشرارة - الغاز».

«الشرارة - الغاز».

«التحويل إلى البطارية»

«التحويل إلى البطارية»

«والآن سوف نمر عليها مرة أخرى: نادوني جو فحسب»

«نناديك جو فحسب».

«ليس هذا، الشرارة للأعلى - الغاز للأسفل».

شعر آدم بنوع من الإرهاق عندما راجعوا التعليمات للمرة الرابعة. بدت العملية سخيقة بالنسبة له وشعر بالارتياح عندما لمح ويل هاملتون بعد ذلك بوقت قصير وهو يقترب منهم في سيارته الحمراء الصغيرة. نظر الشاب الميكانيكي إلى السيارة التي تقترب. قال بنبرة وقار: «سته عشر صمامًا، إنجاز خاص».

انحنى ويل من سيارته: «كيف تجري الأمور هنا؟» قال الميكانيكي «على ما يرام، إنهم يتعلمون بسرعة».

«اسمع يا روي، أنا أحتاجك، انكسر محمل في سيارة الجنازات الجديدة».



سيتعين عليك العمل لوقت متأخر لتجهيزها للسيدة هوكس في الساعة الحادية عشرة غداً».

انتقل روي إلى حالة الانتباه التام، وهرع إلى المنزل قائلاً: «سأحضر حقيقتي». وبينما كان يفعل وقف كال في طريقه.

قال كال: «مرحباً، اعتقدت أن اسمك كان جو».

«ماذا تقصد بـ جو؟»

«أخبرتنا أن نناديك جو. يقول السيد هاملتون أن اسمك روي».

ضحك روي وقفز إلى السيارة: «هل تعرف لماذا أقول نادني جو؟»

«لا. لماذا؟»

«لأن اسمي روي». في خضم ضحكه توقف وقال لآدم بصراحة: «خذ ذلك

الكتاب تحت المقعد وادرس ما فيه جيداً، هل تسمعي؟»

قال آدم: «سأفعل»

## الفصل 30

### 1

كما في الأزمنة التي يتحدث عنها الكتاب المقدس، كانت هناك معجزات على الأرض في تلك الأيام. بعد أسبوع من ذلك الدرس، اصطدمت سيارة فورد بالشارع الرئيسي لمدينة كينغ سيتي وتوقفت مرتجفة أمام مكتب البريد. كان آدم يجلس خلف عجلة القيادة مع لي بجانبه والصبيان مستقيمان في المقعد الخلفي.

هتف الأربعة جميعًا في انسجام تام: «الفرامل قيد التشغيل - الوقود المسبق - إيقاف التشغيل». زار المحرك الصغير ثم توقف. جلس آدم للحظة هناك، منهك لكنه فخور، قبل أن يخرج.

نظر مدير مكتب البريد من بين القضبان الذهبية: «أرى أن لديك إحدى تلك الأشياء اللعينة».

قال آدم: «لابد من مواكبة العصر».

«أتوقع أنه سيأتي وقت لن يمكننا فيه العثور على حصان سيد تراسك».

«ربما».

«سيغفرون وجه الريف» قال مدير مكتب البريد «نشعر به هنا، اعتاد الرجل أن يأتي من أجل بريده مرة في الأسبوع. الآن أصبح يأتي كل يوم، أحياناً مرتين في اليوم، لا يستطيع انتظار كتالوج اللعين. يدور في الأنحاء ويركض دائماً». كان مبالغاً في إبداء كراهيته لدرجة أن آدم تيقن أنه لم يشتر سيارة فورد بعد،

كانت الغيرة تنضح منه. قال الرجل: «لم أكن لأشتري واحدة»، ومعنى هذا أن زوجته كانت تضغط عليه لشراء واحدة. النساء هن من يمارسن الضغط، والوضع الاجتماعي كان سبب ذلك.

بحث مدير مكتب البريد بغضب بين الرسائل في الصندوق الذي يحمل حرف (ت) وسلّم آدم تراسك مغلفاً طويلاً قائلاً: «حسناً، أراك في المستشفى». ابتسم له آدم وأخذ رسالته وخرج.

الرجل الذي يستلم رسائل قليلة لا يفتح الرسالة التي تصله باستخفاف، بل يرفعها ويقرأ اسم المرسل وعنوانه على الظرف، وينظر إلى خط اليد، ويتأمل الختم البريدي والتاريخ. كان آدم خارج مكتب البريد وعبر الرصيف إلى سيارته الفورد قبل أن يفعل كل هذه الأشياء. كان الركن الأيسر من الظرف قد طُبع عليه، بيلوز وهارفي، مكتب محاماة، والعنوان هو مدينة كونيتيكت التي جاء منها آدم.

قال بنبرة لطيفة: «أعرف بيلوز وهارفي، أعرفهما جيداً. أتساءل ماذا يريدان؟» نظر عن كُتُب إلى الظرف. «أتساءل كيف حصلنا على عنواني؟» قلب الظرف ونظر إلى الخلف. راقبه لي وهو يتبسم: «ربما تجد الإجابات على أسئلتك في الرسالة».

قال آدم: «أعتقد ذلك». بمجرد أن قرر فتح الرسالة أخرج سكينه وفتح النصل الكبير وتفحص المغلف في ضوء الشمس بحثاً عن نقطة دخول، ثم نقر على أحد طرفي المغلف وقطع الطرف الآخر وأخرج الرسالة وبدأ بقراءتها ببطء شديد.

«السيد آدم تراسك، كينغ سيتي، كاليفورنيا، سيدي العزيز، على مدار الأشهر الستة الماضية، استفدنا كل وسيلة لتحديد مكانك، قمنا بالإعلان في الصحف في جميع أنحاء البلاد ولكن دون جدوى. ولم نتمكن من التأكد من

مكان وجودك إلى أن تم تسليمنا رسالتك المرسلة إلى أخيك من قبل مدير مكتب البريد المحلي».

استطاع آدم أن يشعر بنفاد صبرهم معه. بدأت الفقرة التالية بتغير كامل في النبرة «إنه لمن المحزن أن نعلمكم بوفاة شقيقكم تشارلز تراسك. لقد توفي في 12 أكتوبر بسبب اعتلال الرئة بعد أسبوعين من المرض، وجسده الآن يرقد في مقبرة الزملاء الفرديين. لا شاهد يميز قبره. نفترض أنك سترغب في القيام بهذا الواجب المحزن بنفسك».

سحب آدم نفساً عميقاً وحبسه أثناء قراءته للفقرة مرة أخرى. تنفس ببطء حرصاً على أن يكون زفيره تنهيدة. قال «شقيقي تشارلز مات».

قال لي «أنا آسف».

قال كال: «هل هو عمنا؟»

قال آدم: «نعم؛ تشارلز عمك»

«أنا أيضاً؟» سأل آرون.

«عمك أنت ايضاً».

قال آرون: «لم أكن أعرف أن لنا عمًا، ربما يمكننا وضع بعض الزهور على قبره. سوف تساعدنا أبرا لأنها تحب ذلك».

«إنه طريق طويل، إنه في الجانب الآخر من البلاد».

قال آرون بحماس: «أعلم! عندما نأخذ الزهور لقبر أمنا يمكننا أخذ إكليل لقبر عمنا تشارلز». ثم قال بحزن: «أتمنى لو أنني علمت بوجوده قبل أن يموت». لقد شعر أنه كان يزداد ثراءً فيما يتعلق بالأقارب المتوفين». هل كان لطيفاً؟» سأل آرون.

قال آدم: «لطيف جداً، لقد كان أخي الوحيد، تمامًا كما كان هو شقيقك الوحيد».

«هل كنتم توأم أيضًا؟»

«لا - لم نكن توأمًا».

سأل كال: «هل كان غنيًا؟»

قال آدم: «بالطبع لا، من أين أتت هذه الفكرة؟»

«حسنًا، إذا كان غنيًا فسنحصل على ثروته، أليس كذلك؟»

قال آدم بصرامة: «ليس من اللائق التحدث عن المال في وقت الموت. نحن حزينون لأنه مات».

«كيف يمكنني أن أكون حزينًا؟ أنا لم أره حتى». قال كال.

غطى لي فمه بيده لإخفاء ابتسامته. نظر آدم للخلف، ومرة أخرى تغير مزاجه.

«بصفتنا محامين عن المتوفى، من واجبنا أن نعلمك أن شقيقك قد جمع ثروة كبيرة من الأرض والأوراق المالية والنقد تتجاوز مائة ألف دولار.

وصيته التي كتبها ووقع عليها في هذا المكتب في حوزتنا وسيتم إرسالها إليك بناءً على طلبك. بموجب شروطه أوصى بأن يتم تقسيم جميع الأموال والممتلكات والأوراق المالية بالتساوي بينك وبين زوجتك. في حالة وفاة زوجتك يذهب لك المجموع. كما تنص الوصية على أنه في حالة وفاتك تذهب جميع الممتلكات إلى زوجتك. نحكم من رسالتك أنك ما زلت على قيد الحياة ونود أن نتقدم إليك بالتهنئة. مع تحياتنا في شركة بيلوز وهارفي، بتوقيع: جورج بي هارفي». وكُتِب في أسفل الصفحة، «عزيزي آدم: لا تنس عبيدك في أيام رخائك. تشارلز لم ينفق سنتًا واحدًا. أتمنى أن تستمتعا أنت وزوجتك وأنتما تنفقان المال. هل هناك فرص توظيف لمحام جيد هناك؟ أعني بذلك نفسي. صديقك القديم جو هارفي».

نظر آدم من خلف حافة الرسالة إلى الأولاد ولي. كان الثلاثة ينتظرون

إكماله. صمت آدم تمامًا وطوى الرسالة ووضعها في مغلّفها، ووضع الظرف بعناية في جيبه الداخلي.

«آية تعقيدات؟» سأل لي.

«لا».

«أشعر أنك قلق».

«لست كذلك. أنا فقط حزين على فقد أخي» كان آدم يحاول ترتيب ما أتى في الرسالة في ذهنه، وكان الأمر يجعله مضطرباً مثل دجاجة تتسلل إلى العش. لقد شعر أنه بحاجة لأن يكون بمفرده لاستيعابها. صعد إلى السيارة ونظر بهدوء، لم يستطع تذكر إجراء واحد.

سأل لي: «هل تريد بعض المساعدة؟»

«مضحك!» قال آدم «لا أتذكر من أين أبدأ».

قال لي والأولاد بهدوء: «الشرارة - الغاز - التحويل إلى البطارية».

«نعم. صحيح، صحيح». وبينما كانت تصدر الصوت العالي المزعج قام آدم بإدارة محرك السيارة وتشغيلها. كانوا يقودون ببطء على الطريق المتعرج من المنزل تحت أشجار البلوط عندما قال لي: «لقد نسينا إحضار اللحوم».

«حقاً؟ اعتقدت أننا فعلنا. حسناً، ألا يمكننا تناول شيء آخر؟»

«ماذا عن لحم الخنزير المقدد والبيض؟»

«إنه جيد».

قال لي: «سترغب في إرسال ردك بالبريد غداً. يمكنك شراء اللحوم بعد ذلك».

قال آدم: «أعتقد أنني سأفعل ذلك».

بينما كان لي يجهز العشاء جلس آدم محدقاً في الفضاء. كان يعلم أنه

سيتعين عليه الحصول على مساعدة من لي، حتى لو كان ذلك فقط من خلال الاستماع له.

قاد كال شقيقه نحو الخارج، إلى كوخ العربات حيث استقرت السيارة. فتح كال الباب وجلس خلف عجلة القيادة. «تعال، ادخل!» قال لآرون. احتج آرون «قال أبي أن نبقي خارجها». «لن يعرف. أدخل!»

صعد آرون في تردد وانكمش إلى الوراء في المقعد. قام كال بتحويل العجلة من جانب إلى آخر وصاح هونك هونك محاولاً تقليد صوت المحرك، ثم قال لآرون: «أتعرف ما أفكر فيه؟ أعتقد أن العم تشارلز كان ثرياً». «لم يكن».

«أراهنك بأي شيء أنه كان ثرياً»

«تعتقد أن والدنا يكذب؟»

لا أقول ذلك. أنا فقط أراهن أنه كان ثرياً. بقيا صامتين لفترة. كان كال يوجه السيارة بعنف حول منحنيات خيالية ثم قال: «أراهن أنني أستطيع معرفة ذلك». «كيف؟»

«علام تراهن؟»

قال آرون: «لا شيء».

«ماذا عن صافرة ساق الغزال؟ أراهنك على هذه، صافرة ساق الغزلان، أننا سيتم إرسالنا إلى الفراش بعد العشاء مباشرة. هل نعتبره رهانا؟»

قال آرون بارتباك: «أعتقد ذلك، ولا أفهم لماذا».

قال كال: «أبي سيرغب في التحدث إلى لي. وسأسترق السمع»  
«لن تجرؤ».

«تعتقد أنني لن أفعل؟»

«افترض أنني قررت أن أشي بك».

أصبحت نظرات كال باردة وأظلم وجهه. انحنى بقوة لدرجة أن صوته انخفض إلى همس: «لن تشي بي. لأنك إن فعلت ذلك - سأخبره عمن سرق سكينه».

«لم يسرق أحد سكينه. سكينه لديه. لقد فتح به الرسالة».

ابتسم كال: «أعني غداً». فهم آرون مقصده وعرف أنه لا يستطيع أن يشي به. لم يستطيع فعل أي شيء حيال ذلك. كان كال آمناً تماماً.

رأى كال الارتباك والعجز على وجه آرون وشعر بقوته وهذا جعله يفرح. بإمكانه التفوق على أخيه والتحكم فيه بسهولة. بل بدأ بالاعتقاد أنه يستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع أبيه.

على الرغم من كل ذلك، كل تلك الحيل لم تنفع مع لي، كان بذهنه المتقدم دائماً يسبقه بخطوات ودائماً هناك عند نقطة النهاية، منتظراً، متفهماً، ومحدراً بهدوء، «لا تفعل ذلك». كان كال يحترم لي ويخاف منه قليلاً. لكن آرون المتطلع بلا حول ولا قوة في وجهه، كان كما قطعة من الطين اللين في يديه. شعر فجأة كال بالحب العميق نحو أخيه وبالرغبة الصادقة في حمايته في حالة ضعفه، وضع ذراعه حول آرون. لكن آرون لم يحجم ولم يستجب. تراجع قليلاً فقط لينظر في وجه كال. الذي قال: «هل ترى أي عشب أخضر ينمو في رأسي؟»

قال آرون، «لا أعرف لماذا تريد القيام بذلك».

«ماذا تعني؟ أفعل ماذا؟»

قال آرون: «كل الأشياء الخادعة والمستترة».

«ماذا تقصد بالمستترة؟»

«حسناً، عن الأرنب، والتسلل هنا في السيارة. كما أنك فعلت شيئاً لأب. لا

أعرف ماذا، لكنك من جعلتها ترمي الصندوق بعيداً».

قال كال: «تريد أن تعرف!» لكنه كان عصبياً.



ببطء أجابه آرون: «لا أريد أن أعرف. أود أن أفهم فقط لماذا تفعل كل ذلك. أنت دائماً منشغل في شيء ما، أتساءل فقط لماذا تفعل ذلك، فيم يفيدك؟»  
اخترق ألم قلب كال، شعر فجأة أن تخطيطه قدر بالنسبة له. كان يعلم أن شقيقه اكتشفه، وشعر باشتياق وحاجة لأن يحبه آرون. شعر بالضيق والجوع ولم يعرف ماذا يفعل.

فتح آرون باب السيارة ونزل منها وخرج من كوخ العربات. لبضع لحظات قام كال بتحريك عجلة القيادة محاولاً التخيل أنه كان يتسابق على الطريق. لكن ذلك لم يكن جيداً، وسرعان ما لحق بآرون عائداً نحو المنزل.

## 2

عندما انتهى العشاء وغسل لي الأطباق قال آدم: «أعتقد أنه من الأفضل أن تخلد إلى الفراش يا أولاد. لقد كان يوماً عظيماً».

نظر آرون بسرعة إلى كال وأخرج صافرة ساق الغزلان ببطء من جيبه.  
قال كال: «لا أريدها».

قال آرون: «إنها لك».

«لا أريدها. لن آخذها منك».

وضع آرون صافرة العظم على المنضدة: «سأتركها هنا من أجلك».

اقتحم آدم حديثهما: «ما هذا الجدل؟ طلبت منكما الذهاب إلى الفراش».

وضع كال على وجهه تعبير الولد الصغير وسأل والده: «لماذا؟ الوقت مبكر جداً للذهاب إلى الفراش».

قال آدم: «لم تكن هذه هي الحقيقة. أريد أن أتحدث على انفراد مع لي. وقد حل الظلام بالفعل وعليه لا يمكنكما الخروج، لذا أريدكما أن تذهبا إلى غرفتكما على الأقل - هل فهمتما؟».

أجاب الصبيان: «نعم، سيدي» تبعاً لي في القاعة إلى غرفة نومهما في الجزء الخلفي من المنزل. بعد قليل عادا في قمصان نومهما ليتمنيا لوالدهما ليلة سعيدة.

عاد لي إلى غرفة المعيشة وأغلق باب الصالة. رفع صافرة ساق الغزال وتفحصها قليلاً ثم وضعها على الأرض قائلاً: «أتساءل ما موضوع هذه». «ماذا تقصد يا لي؟»

«حسناً، تم إجراء رهان ما قبل العشاء، وبعد العشاء مباشرة خسر آرون الرهان وسدد لكال. عمّ كنا نتكلم آنذاك؟»

«كل ما أتذكره هو أنني طلبت منهما الذهاب إلى النوم».

قال لي: «حسناً، ربما سيظهر الأمر لاحقاً».

«يبدو لي أنك تضيع الكثير من الوقت في شؤون الأطفال. ربما لم يكن أي شيء».

«إنه يعني شيئاً ما. سيد تراسك، هل تعتقد أن أفكار الناس تصبح فجأة مهمة في عمر معين؟ هل لديك مشاعر أكثر حدة أو أفكار أهم وأوضح الآن مما كنت عليه عندما كنت في العاشرة؟ هل ترى، تسمع، أو تتذوق بشكل أكثر حيوية؟» قال آدم: «ربما أنت على حق».

قال لي: «واحدة من المغالطات العظيمة، بالنسبة لي، أن الوقت لا يمنح الكثير من أي شيء عدا السنوات والحزن». «والذاكرة».

«نعم الذاكرة. بدونها سيكون الوقت أعزل ضدنا. ما الذي كنت تريد التحدث عنه معي؟»

أخذ آدم الرسالة من جيبه ووضعها على الطاولة: «أريدك أن تقرأها، أن تقرأها بعناية، وبعد ذلك - أريد أن نتحدث عنها». أخرج لي نظارات القراءة. فتح الرسالة تحت المصباح وقرأها.

سأل آدم، «إذاً؟»

«هل هناك وظائف محاماة شاغرة هنا؟»

«كيف تعني هذا؟ أوه حسناً. أنت تمزح»

«لا. لم أكن أمزح. بطريقة شرقية غامضة ولكن مهذبة، كنت أوضح لك أنني أفضل معرفة رأيك قبل أن أقول رأيي».

«هل تحدثني بحدّة؟»

قال لي «نعم. سأضع جانباً أسلوبِي الشرقي، فقد تقدمت في السن وأصبحت قليل الصبر وعدوانيا في سلوكي بعض الشيء. ألم تسمع أن الخدم الصينيين عندما يتقدمون في السن يظلون أوفياء لكنهم يصبحون لئيمين؟»  
«لا أريد أن أجرح مشاعرك».

«لم تجرحني. تريد التحدث عن هذه الرسالة، تحدث إذاً، وسأعرف من حديثك ما إذا كان بإمكانني تقديم رأي صادق أو ما إذا كان من الأفضل طمأنتك لرأيك».

قال آدم بلا حول ولا قوة: «أنا لا أفهم ذلك».

«حسناً، أنت عرفت شقيقك، إن كنت أنت لا تفهم الأمر، كيف لي أنا أن أفعل؟ أنا الذي لم أراه قط؟»

قام آدم وفتح باب الصالة ولم ير الظل الذي انسل من خلفه. ذهب إلى غرفته وعاد ووضع داجيروتايب<sup>(1)</sup> بنيا باهتا على الطاولة أمام لي: «هذا هو أخي تشارلز» وعاد إلى باب الصالة وأغلقه.

---

(1) الداجيريّة (أو الداجيروتايب في الترجمات الحرفية) والمنسوبة إلى مخترعها الفرنسي هو نوع بدائي ومبكر من التصوير الفوتوغرافي اخترعه الكيميائي الفرنسي لويس داجير عام 1839 بعد سنوات من البحث والتجارب. كانت تُستعمل في هذا النوع من التصوير، ألواح معدنية مفضضة ويتم تعريضها لبخار اليود ثم توضع هذه الألواح في الكاميرا للحصول على الصور.

تفحص لي المعدن اللامع تحت المصباح، وهو يقلب الصورة على جانب وآخر للتغلب على انعكاس الضوء. قال آدم: «لقد مضى عليها وقت طويل، كان هذا قبل التحاقى بالجيش».

انحنى لي بالقرب من الصورة: «من الصعب رؤية الملامح بوضوح. لكن من خلال تعبيره يمكنني القول إن شقيقك لم يتمتع بقدر كبير من الفكاهاة». قال آدم: «لم يكن لديه أي حس فكاهي، لم يضحك قط».

«حسنًا، لم يكن هذا ما قصدته بالضبط. عندما قرأت شروط وصية أخيك، أذهلني أنه ربما كان يتمتع بحس وحشي وقاس. هل كان يحبك؟»

قال آدم: «لا أعرف. اعتقدت أحيانًا أنه يحبني. لقد حاول قتلي مرة».

قال لي: «نعم، هذا واضح في وجهه - كلاهما؛ الحب والقتل. وقد جعلاه بخيلًا، والبخيل رجل خائف مخبئ في حصن من المال. هل كان يعرف زوجتك؟»

«نعم».

«هل أحبها؟»

«لقد كرهها».

تنهد لي «لا يهم حقًا. هذه ليست مشكلتك، أليس كذلك؟»  
«لا. ليست كذلك».

«هل ترغب في إبراز المشكلة وإلقاء نظرة عليها؟»  
«هذا ما أريده».

«هيا إذا».

«لا يمكنني أن أجعل عقلي يعمل بشكل واضح».

«هل تريد مني أن أضع البطاقات لك؟ يمكن لغير المعنيين القيام بذلك في بعض الأحيان».

«نعم أريد هذا».

«حسن اذًا»

ثم فجأة ظهرت نظرة استغراب على وجه لي. أمسك ذقنه المستديرة في يده الصغيرة الرقيقة، وهمس يا إلهي! لم أفكر في ذلك».

تحرك آدم بقلق، قال بانفعال: «أتمنى أن توضّح ما تعنيه، أنت تجعلني أشعر وكأنني عمود من الأرقام المكتوبة على سبورة».

سحب لي أنبوبًا من جيبه، وهو عبارة عن ساق طويل نحيف من خشب الأبنوس ووعاء نحاسي صغير يشبه الكوب. ملأ وعاء الكشتبان بالتبغ المقطع على شكل خيوط رفيعة حتى بدا وكأنه شعر. ثم أشعل الأنبوب وأخذ أربع نفثات طويلة وتركه.

«هل هذا أفيون؟» سأل آدم.

قال لي «لا» «إنه تبغ صيني رخيص، وله مذاق كريه».

«لماذا تدخنه إذن؟»

قال لي: «لا أعرف. أعتقد أنه ربما يذكرني بشيء - شيء ما مرتبط بي. المسألة ليست معقدة للغاية» كانت جفونه نصف مغلقة، «حسنًا، سأحاول إخراج أفكارك كما معكرونة البيض وتركها تجف في الشمس. المرأة لا تزال زوجتك ولا تزال على قيد الحياة. بموجب خطاب الوصية سترث ما يزيد عن خمسين ألف دولار. هذا قدر كبير من المال، يمكنها بواسطته القيام بالكثير من الخير أو الشر. هل كان أخوك، إذا عرف أين هي وماذا تفعل في الوقت الراهن، كان ليريدها أن تحصل على المال؟ المحاكم تحرص دائمًا على اتباع رغبات صاحب الوصية».

قال آدم: «لم يكن أخي ليريد ذلك». ثم تذكر الفتيات في الطابق العلوي في الحانة وزيارات تشارلز الدورية لهن.

قال لي: «ربما عليك التفكير نيابة عن شقيقك، ما تفعله زوجتك ليس جيداً ولا سيئاً. يمكن للقديسين أن ينبعوا من أي تربة. ربما بهذا المال ستفعل شيئاً رائعاً. ليست هناك نقطة انطلاق لفعل الخير أفضل من الضمير السيئ».

ارتجف آدم «سألني ماذا قد تفعل إذا كان لديها المال، قد يكون أقرب إلى القتل منه إلى الصدقة».

«تعتقد أنها لا يجب أن تحصل على المال إذن؟»

«قلت إنها تنوي تدمير العديد من الرجال ذوي السمعة الطيبة في ساليانس. ويمكنها فعل ذلك».

قال لي «نعم، يسرني أن بإمكانني إلقاء نظرة منفصلة على هذا الأمر. لا بد أن هناك في سراويل سمعتهم بعض الأماكن الرقيقة. إذن، أنت تعارض أخلاقياً حصولها على المال؟»

«نعم».

«حسناً، فكر في هذا: هي لا تملك اسماً ولا خلفية. العاهرة تولد من الأرض. كما لن يكون بإمكانها المطالبة بالمال، إن علمتُ بالأمر، دون مساعدتك».

«أعتقد أن الأمر كذلك. نعم، أستطيع أن أرى أنها قد لا تتمكن من المطالبة به دون مساعدتي».

رفع لي الأنبوب والتقط الرماد بدبوس نحاسي صغير وملاً الوعاء مرة أخرى. وبينما كان يأخذ أربع نفثات بطيئة، رفع جفونه الثقيلة ونظر لآدم. قال: «إنها مشكلة أخلاقية حساسة للغاية». بعد إذنك سأعرضها على أقاربي - دون استخدام أسماء بالطبع. سوف يبحثون في الأمر كما يفتش صبي كلبه بحثاً عن القراد. أنا متأكد من أنهم سيحصلون على بعض النتائج المثيرة للاهتمام». وضع غليونه على المنضدة وأردف: «لكن ليس لديك أي خيار، أليس كذلك؟»

«ماذا تقصد بذلك؟» سأل آدم.

«حسنًا، أليس الأمر كذلك؟ هل تعرف نفسك أقل مما أعرفك؟»

قال آدم: «لا أعرف ماذا يجب علي فعله، يجب أن أفكر في الأمر كثيرًا».

قال لي بغضب: «أعتقد أنني كنت أضيع وقتي. هل تكذب على نفسك أم

عليّ فقط؟»

«لا نتحدث معي هكذا!» قال آدم.

«ولم لا؟ لقد كرهتُ دائماً الخداع. وجهتك مرسومة، ما ستفعله مكتوب، مكتوب في كل نفس أخذته في أي وقت مضى. أنا أتكلم بالطريقة التي أريدها. أنا أحمل نزوات غريبة، أشعر بالرمال تحت جلدي، وأتطلع إلى الرائحة السيئة للكتب القديمة والرائحة الجميلة للتفكير الجيد. وفي مواجهة مجموعتين من الأخلاق، عليك اتباع تدريبك الخاص. ما تسميه تفكيراً لن يغيره. حقيقة أن زوجتك عاهرة في ساليانس لن يغير شيئاً».

وقف آدم، كان وجهه غاضباً، صرخ قائلاً: «لقد أصبحت وقحاً الآن بعد أن قررت الرحيل. ما أقوله هو إنني لم أحسم أمري فيما أفعله بشأن المال».

تنهد لي بعمق. وقف ومشى بضجر إلى الباب الأمامي وفتحه، ثم استدار وابتسم لآدم وقال بهدوء: «هراء!». خرج وأغلق الباب خلفه.

### 3

تسلل كال بهدوء إلى القاعة المظلمة ودخل الغرفة حيث كان ينام هو وشقيقه. رأى هيئة رأس أخيه على الوسادة في السرير المزدوج، لكنه لم يستطع رؤية ما إذا كان آرون نائماً. بلطف شديد استرخى على جانبه واستدار ببطء ووضع أصابعه خلف رأسه وهدق في ما لا يحصى من النقاط الملونة الصغيرة التي تشكل في الظلام. ظلت ستارة النافذة تتحرك ببطء ثم هبطت رياح الليل وخفق الظل البالي بهدوء على النافذة.

راوده حزن رمادي غامض. تمنى من كل قلبه لو لم يتعد عنه آرون عندما كانا في كوخ العربات. تمنى من كل قلبه لو أنه لم يجلس القرفصاء ويسترق السمع عند باب القاعة. حرك شفثيه في الظلمة وهو يصوغ الكلمات في صمت في رأسه، ومع ذلك كان يسمعها.

قال: «إلهي العزيز، اجعني مثل آرون. لا تدعني أكون لئيماً. لا أريد أن أكون كذلك. إذا حققت لي هذا سأقدم لك أي شيء في العالم، وإذا لم أحصل عليه، سأسعى للحصول عليه. لا أريد أن أكون لئيماً. لا أريد أن أكون وحيداً، أقسم عليك يسوع. آمين». كانت الدموع الدافئة البطيئة تنهمر على خديه، وعضلاته مشدودة وكافح لكيلا يصدر منه أي صوت لبكاء أو شهقات.

همس آرون في الظلام: «أنت بارد وترتعش». مد يده إلى ذراع كال وشعر برجفته. سأله بهدوء: «هل كانت لدى تشارلز ثروة؟»  
«لا» قال كال.

«حسناً، لقد بقيت هناك لفترة كافية. ما الذي أراد أبي التحدث عنه؟»  
بقي كال ساكناً محاولاً التحكم في نفسه.

«ألا تريد أن تخبرني؟» سأل آرون «لا يهمني إذا لم تخبرني».  
«سأقول» همس كال ثم استدار على جنبه بحيث أصبح ظهره تجاه أخيه: «أبي سيرسل إكليلاً من الزهور لأمنا. إكليل كبير من زهور القرنفل».  
جلس آرون في السرير وسأل بحماس: «حقاً؟ كيف سيوصله إلى هناك؟»  
«عبر القطار. لا تتحدث بصوت عالٍ».

عاد آرون إلى الهمس. «ولكن كيف ستبقى طازجة؟»  
«سيقومون بتعبئة الثلج حوله».

«ألن يتطلب الأمر الكثير من الثلج؟» سأل آرون  
قال كال: «الكثير منه، هيا نم الآن».



بقي آرون صامتًا، ثم قال: «أتمنى أن يصل الإكليل هناك منعشاً وجميلاً». «سيكون كذلك» قال كال، وفي عقله كان يصرخ قائلاً: «لا تدعني أكون لئيمًا»

## الفصل 31

### 1

كان آدم يتجول في المنزل طوال الصباح، وفي الظهر ذهب ليجد لي يجرف السماد في حديقته النباتية ويزرع خضروات الربيع والجزر والبنجر واللفت والبازلاء والفاصوليا واللفت. كانت الصفوف مزروعة بشكل مستقيم تحت خيط مشدود، وكانت الأوتاد الموجودة في نهايات الصفوف تحمل عبوة البذور لتحديد الصف. على حافة الحديقة كانت مجموعات الطماطم والفلفل الحلو والملفوف جاهزة تقريباً للزراعة، في انتظار انتهاء خطر الصقيع.

قال آدم: «أعتقد أنني كنت غيباً».

استند لي على شوكة التجريف ونظر إليه بهدوء.

«متى ستذهب؟» سأله.

«فكرت بأخذ رحلة الساعة الثانية وأربعين دقيقة، ثم يمكنني الالتحاق برحلة الساعة الثامنة ليلاً في العودة».

قال لي: «يمكنك وضعها في رسالة، كما تعلم».

«لقد فكرت في ذلك بالفعل. هل بالإمكان كتابة رسالة؟»

«لا. أنت على حق. أنا الغبي هنا. لا رسائل».

قال آدم: «يجب أن أذهب. فكرت في الأمر من كل الاتجاهات ودائماً ما أعادني لهذه النقطة».

قال لي: «يمكنك أن تكون غير صادق في نواح كثيرة، ولكن ليس بهذه الطريقة. حسناً حظاً سعيداً. سأكون مهتماً بسماع ما تقوله وتفعله».

قال آدم: «سأخذ العربية، سأركنها في الإسطبل في كينغ سيتي. أنا متوتر بشأن قيادة سيارة فورد بمفردي».

كانت الساعة الرابعة وخمسة عشر دقيقة عندما صعد آدم الدرجات المتهالكة وطرق باب منزل كيت. فتح الباب رجل جديد، فنلندي ذو وجه مربع يرتدي قميصاً وسروالاً، وحزام ذراع من الحرير الأحمر يحيط بأكمامه. ترك آدم واقفاً على الشرفة وبعد لحظات عاد وقاده إلى غرفة الطعام.

كانت غرفة كبيرة غير مزخرفة، وجدرانها وأعمالها الخشبية مطلية باللون الأبيض. تحتل طاولة مربعة طويلة وسط الغرفة، غطاؤها من القماش الزيتي الأبيض، وتم وضع الأطباق والأكواب والصحون بشكل مقلوب.

كانت كيت جالسة على رأس الطاولة مع دفتر حساب مفتوح أمامها. لباسها مبهرج وقد لوّنت جفنيها بلون أخضر، وتهز قلم رصاص أصفر بلا كلل بين أصابعها. نظرت ببرود إلى آدم وهو يقف في المدخل.

«ماذا تريد الآن؟» سألته بينما وقف الفنلندي خلف آدم.

لم يرد آدم. مشى إلى الطاولة ووضع الرسالة أمامها أعلى دفتر الحسابات. «ما هذا؟» سألته ودون انتظار الرد قرأت الرسالة بسرعة، «أخرج وأغلق الباب» قالت للفنلندي.

جلس آدم على الطاولة بجانبها. دفع الصحون جانبا ليعد مكانا لقبعته. عندما أغلق الباب قالت كيت: «هل هذه مزحة؟ لا، أنت لا تملك روح دعابة. ربما أخوك هو من يمزح. هل أنت متأكد من أنه مات؟»

قال آدم: «كل ما لدي هو هذه الرسالة».

«ماذا تريد مني أن أفعل حيال ذلك؟»

هز آدم كتفيه.

قالت كيت: «إذا كنت تريدني أن أوقع على أي شيء، فأنت تضع وقتك. ماذا تريد؟»

مرر آدم إصبعه ببطء على الشريط الأسود المحيط بقبعته: «لماذا لا تراسلين مكتب المحامي وتتواصلين معهم بنفسك؟»  
«ماذا قلت لهم عني؟»

قال آدم: «لا شيء». كنت قد كتبت إلى تشارلز وقلت في الرسالة إنك تعيشين في بلدة أخرى، لا شيء أكثر من ذلك. كان ميتاً عندما وصلت الرسالة إلى هناك، وذهبت الرسالة إلى المحامين».

«الشخص الذي كتب التذييل يبدو صديقاً لك. ماذا كتبت له؟»  
«لم أجب على الرسالة بعد».

«ماذا تنوي أن تقول عندما تجيبه؟»  
«نفس الشيء - أنك تعيشين في مدينة أخرى».  
«لا يمكنك القول بأننا مطلقان. لأننا لم نكن».  
«أنا لا أنوي ذلك».

«هل تريد أن تعرف كم سيكلف شرائي؟ سأخذ خمساً وأربعين ألفاً نقدًا».  
«لا».

«ماذا تعني بـ لا؟ لا يمكنك المساومة».

«أنا لا أفأوض. الرسالة أمامك، أنت تعرفين بقدر ما أعرف. افعلي ما تريدين».

«ما سبب هذا الغرور؟»

«أشعر بالأمان».

نظرت إليه من تحت ظلال العيون الخضراء الشفافة. كانت الخصلات الصغيرة المجعّدة من شعرها تتناثر على الرسالة كما الكروم على سطح أخضر: «آدم، أنت أحمق. لو كنت أغلقت فمك، ما كان لأحد أن يعرف أنني على قيد الحياة».

«وأنا أعلم ذلك».

«أنت تعرف؟ هل تعتقد أنني قد أخاف من المطالبة بالمال؟ أنت مجنون إذا كنت تعتقد ذلك».

قال آدم بصبر: «لا يهمني ما تفعلينه».

ابتسمت بسخرية. «لا تفعل، أليس كذلك؟ لنفترض أنني مضطرة لإخبارك أن هناك أمرًا دائمًا في مكتب العمدة، تركه العمدة القديم هناك، أنه إذا استخدمتُ اسمك أو اعترفت بأنني زوجتك فسوف يتم طردي من المقاطعة والولاية. هل هذا يغريك؟»

«يغريني لماذا؟»

«للتخلص مني وأخذ كل المال».

قال آدم بصبر: «لقد أحضرت لك الرسالة».

«أريد أن أعرف لماذا».

قال آدم: «أنا لست مهتمًا بما تعتقدينه أو بانطباعتك عني. ترك لك تشارلز المال في وصيته. لم يضع أي قيود عليها. لم أر الوصية، لكنه أرادك أن تحصيلي على المال».

قالت: «أنت تلعب لعبة بخمسين ألف دولار، ولن تفلت من العقاب. لا أعرف ما هي الحيلة التي تمارسها، لكنني سأكتشفها». توقفت للحظة ثم

استدركت: «بماذا أفكر؟ أنت لست ذكيًا. من الذي ينصحك بهذا؟»

«لا أحد».

«ماذا عن ذلك الصيني؟ إنه ذكي».

«لم يقدم لي أي نصيحة». كان آدم مدركاً أنه فاقد للعاطفة بشكل تام. لم يشعر حقاً أنه كان حاضراً على الإطلاق. عندما نظر إليها تفاجأ برؤية انفعال على وجهها لم يره من قبل. كانت كيت خائفة - خائفة منه. لكن لماذا؟ كانت تحاول التحكم في ملامحها المضطربة: «أنت تفعل ذلك فقط لأنك صادق، هل هذا هو الأمر؟ أنت أطيب من أن تكون حقيقياً».

قال آدم: «لم أفكر في ذلك. إنها أموالك وأنا لست لصاً. لا يهمني ما تفكرين فيه».

قالت كيت وهي تضغط على رأسها: «تريدني أن أصدق أنك تلقي هذه الأموال بهذه السهولة في حجري؟ حسناً، سأكتشف ما تنوي فعله. لا تعتقد أنني لن أحمي نفسي. هل تعتقد أنني سأتناول مثل هذا الطعم الغبي؟»

«من أين تحصلين على بريدك؟» سأل بصبر.

«فيم يخلصك هذا؟»

«سأكتب للمحاميين لأخبرهم أين يمكنهم التواصل معك».

«لا تفعل!» قالت. وضعت الرسالة في دفتر الحساب وأغلقت الغلاف». سأحتفظ بهذا. سأطلب استشارة قانونية. لا تعتقد أنني لن أفعل. يمكنك التوقف عن ادّعاء البراءة الآن».

قال آدم: «افعلي ذلك، أريدك أن تحصلي على ما هو لك. أوصى تشارلز لك بالمال. هو ليس ملكي».

«سأكشف حيلتك، سأجدها».

قال آدم: «أعتقد أنك لا تستطيعين فهم الأمر. أنا لا أهتم كثيراً. هناك أشياء كثيرة لا أفهمها أيضاً. لا أفهم كيف يمكنك إطلاق النار عليّ وهجر ابنيك. لا أفهم كيف يمكنك، أو أي شخص، العيش بهذا الشكل». لوح بيده للدلالة على المنزل.

«من طلب منك أن تفهم؟»

نهض آدم وأخذ قبعته من على الطاولة وقال: «أعتقد أن هذا كل شيء. مع السلامة». مشى نحو الباب.

نادت من خلفه: «لقد تغيرت يا سيد فأر. هل حصلت على امرأة أخيراً؟»  
توقف آدم واستدار ببطء وكانت عيناه متيقظتين: «لم أفكر في هذا من قبل»  
تحرك نحوها حتى وقف ملاصقاً لها بحيث اضطرت إلى إمالة رأسها للخلف  
لتنظر في وجهه قال ببطء: «قلت من قبل أنني لم أفهمك. الآن فقط عرفت ما  
لا تفهمينه أنت».

«ما الذي لا أفهمه يا سيد فأر؟»

«أنتِ ترين جانب القبح في الناس فقط، لقد أريتي الصور، تستغلين كل  
الأجزاء الحزينة والضعيفة للرجل، والله يعلم أنه لديه ذلك».

«جميعهم -»

تابع آدم، مندهشاً من سلاسة أفكاره: «لكن أنتِ - نعم، هذا صحيح - أنتِ  
لا تعرفين شيئاً عن الباقي. أنتِ لا تصدقين أنني أحضرت لك الرسالة لأنني  
لا أريد نقودك. لا تصدقين أنني أحببتك، وأن الرجال الذين يأتون إليك هنا  
بقبحهم، أولئك الرجال في الصور - لا تصدقين أن هؤلاء الرجال يمكن أن  
يكون فيهم جانب الخير والجمال. ترين جانباً واحداً فقط، وتفكرين - بل أكثر  
من ذلك - أنت متأكدة - أن هذا هو كل ما يملكونه».

قهقهت بسخرية: «يا لك من حالم لطيف، أتحنفي بموعظة أيها الفأر»

«لا. لن أفعل ذلك لأنني أعرف أن هناك جزءاً مفقوداً منك. لا يستطيع  
بعض الرجال رؤية اللون الأخضر، لكنهم قد لا يعرفوا أبداً أنهم لا يستطيعون  
ذلك. أعتقد أنك مجرد جزء من إنسان. لا يمكنني فعل أي شيء حيال ذلك.  
لكنني أتساءل عما إذا كنتِ قد شعرت يوماً أن شيئاً غير مرئي يحيط بك. سيكون

الأمر مروعاً إذا عرفتِ أنه هناك ولا يمكنكِ رؤيته أو الشعور به. سيكون ذلك مروعاً».

دفعت كيت كرسيها للخلف ووقفت. كانت قبضتها مشدودة على جانبيها وتختبئ في ثنايا تنورتها. حاولت منع الصراخ المتسلل إلى صوتها.

قالت: «فأرنا فيلسوف. لكن فأرنا ليس أفضل في ذلك مما هو عليه في أشياء أخرى. هل سمعت من قبل عن الهلوسة؟ إذا كانت هناك أشياء لا أستطيع رؤيتها، ألا تعتقد أنها من الممكن أن تكون أحلاماً صُنعت في عقلك المريض؟»

قال آدم: «لا، لا أعتقد ذلك. ولا أعتقد أنكِ تفعلين أيضاً». استدار وخرج وأغلق الباب من ورائه.

جلست كيت وهي محدقة في الباب المغلق. لم تكن تعلم أن قبضتها تضربان بهدوء على القماش الأبيض الزيتي. لكنها كانت مدركة أن الباب الأبيض المربع مشوه بالدموع وأن جسدها يرتجف بشيء يشبه الغضب.. والحزن.

## 2

بعدما غادر آدم منزل كيت، كان أمامه أكثر من ساعتين في انتظار عودة القطار إلى كينغ سيتي. خرج من الشارع الرئيسي وسار في شارع سنترال أفنيو إلى المنزل رقم 130، البيت الأبيض المملوك لإرنست شتاينبك. كان منزلاً ناصعاً وودوداً، فخماً بدرجة كافية ولكنه ليس مبهرجاً، يحيط به سياج أبيض محاط بحشائش مشذبة، والورود والنباتات تتناثر على جدرانه البيضاء.

صعد آدم درج الشرفة الواسعة ودق الجرس. جاءت أوليف إلى الباب وفتحته قليلاً، بينما كان الصغيران ماري وجون يحومان حول أطراف فستانها.



خلع آدم قبعته «أنت لا تعرفيني. أنا آدم تراسك. كان والدك صديقاً لي. وددت أن أقدم تعازي واحترامي للسيدة هاملتون. لقد ساعدتني عند ولادة ولداي التوأم».

«بالطبع» قالت أوليف وهي تفتح الأبواب «لقد سمعنا عنك. لحظة واحدة، كما ترى قمنا بتهيئة ملاذ هنا لها»

طرقت على باب الصالة الأمامية الواسعة وقالت: «أمي! أتى صديق لزيارتك».

فتحت الباب وأطلعت آدم على الغرفة اللطيفة التي تعيش فيها ليزا ثم قالت لآدم: «أستاذن منك، كاترينا تقلي الدجاج وعلي مراقبتها. جون! ماري! تعالا».

بدأت ليزا أصغر من أي وقت مضى. كانت تجلس على كرسي هزاز من الخيزران وتبدو كبيرة في السن. ترتدي فستان من الألبكة السوداء ذات حواف عريضة، وفي ياقعتها تضع دبوساً مكتوباً عليه «الأم» بخط ذهبي.

كانت غرفة الجلوس الصغيرة اللطيفة مزدحمة بالصور، وزجاجات المياه، ووسائد الدانتيل، والفرش والأمشاط، وأدوات المائدة الفضية والخزفية التي يتم استخدامها لأعياد الميلاد والمناسبات.

علقت على الحائط صورة ملوّنة ضخمة لصموئيل، ذات تعابير باردة ومتحفظة لم يظهر بها وهو على قيد الحياة. لم يكن هناك أي بريق أو انتعاش في صورته. كانت الصورة معلقة في إطار ذهبي ثقيل، ولإخافة الأطفال أوهموم أن العيون فيها كانت تتبع الطفل الموجود في الغرفة.

على طاولة من الخيزران بجانب ليزا كان هناك قفص ببغاء اشتراه توم من بحار. كان طائرًا عجوزًا قيل إنه بعمر الخمسين وقد عاش حياة فاحشة واكتسب الحديث الجريء من البحارة. حاولت، كما هو متوقع من ليزا، أن تجعله يستبدل المفردات البديئة بالمزامير المقدسة. قام بولي

بتحريك رأسه بشكل جانبي وتفحص آدم وقال بشكل جاف: «تعال أيها الوغد»

عبست ليزا في وجهه وقالت بصرامة: «بولي، هذا ليس مهذبًا». «النذل اللعين!» أجابها بولي.

تجاهلت ليزا الابتذال. مدت يدها الصغيرة. سيد تراسك، سعيدة برؤيتك. تفضل بالجلوس»

«كنت مارًا من هنا، وأردت أن أقدم تعازي».

«وصلتنا الزهور التي أرسلتها». وذكرت أيضًا كل باقة كان قد أرسلها بعد كل هذا الوقت.

«لا بد أنه من الصعب إعادة ترتيب حياتك».

دمعت عيناها وأغلقت فمها الصغير على ضعفها.

قال آدم: «ربما لا يجب أن أتحدث عن ذلك، لكنني أفقده».

أدارت ليزا رأسها بعيدًا: «كيف تسير الأمور معك؟»

«جيدة هذا العام. الكثير من الأمطار، والعلف وافر».

قالت: «نعم، توم كتب لي عن ذلك. ما الذي جاء بك إلى ساليناس سيد تراسك؟»

«بعض الأعمال. أفكر في الانتقال إلى هنا. أعتقد أنه قد يكون أفضل لأولادي. إنهم يشعرون بالوحدة في المزرعة».

قالت بحدّة: «لم نشعر بالوحدة قط في المزرعة».

«أعتقد أنه ربما تكون المدارس هنا أفضل. يمكن أن يتمتع التوأّم بالمزايا هنا».

«ابنتي أوليف كانت معلمة في عدد من مدارسنا» أوضحت من خلال نبرتها

أنه لا توجد مدارس أفضل من تلك. بدأ آدم يشعر بإعجاب بكياستها اللغوية الشجاعة.

قال «حسناً، كنت فقط أفكر في الأمر».

«الأطفال الذين يتم تربيتهم في البلدة يكون أداؤهم أفضل». كان هذا هو مبدأها، ويمكنها إثبات ذلك من خلال أولادها. ثم حدقت به: «هل تبحث عن منزل في ساليناس؟»

«نعم، أعتقد أنني كذلك».

قالت: «أذهب لرؤية ابنتي ديسي. ديسي تريد العودة للإقامة في المزرعة مع توم. لديها منزل صغير لطيف في الشارع بجوار مخبز رينود».

قال آدم: «سأفعل ذلك بالتأكيد، سأذهب حالاً. يسعدني أنك بحال جيدة».

قالت: «شكراً، أنا بخير» كان آدم متوجه نحو الباب عندما قالت: «سيد تراسك، هل التقيت بابني توم من قبل؟»

«لا، لم أفعل. كما تعلمين، لم أخرج من المزرعة».

قالت بسرعة: «أتمنى أن تذهب لرؤيته، أعتقد أنه يشعر بالوحدة». توقفت كما لو كانت مذعورة من هذا الانهيار.

«سأفعل بالتأكيد. وداعاً سيدتي».

عندما أغلق الباب سمع البيغاء يقول: «أغلق زر بنطالك أيها الوغد!» وليزا تصرخ به: «بولي، راقب لغتك وإلا ضربتك».

قاد آدم نفسه إلى خارج المنزل وسار باتجاه شارع ماين، بجوار المخبز الفرنسي في رينود، رأى منزل ديسي. كان الفناء مكتظاً بأجمات تمر حنة طويلة لدرجة أنه لم يستطع رؤية جزء كبير من المنزل. على البوابة الأمامية ثم تثبيت لافتة مكتوب عليها بأناقة: ديسي هاملتون/ خيطة.

كان مطعم سان فرانسيسكو يقع في زاوية من شارع ماين وكانت نوافذه

تطل على كلا الشارين. ذهب آدم لتناول العشاء. كان ويل هاملتون جالساً على طاولة في الزاوية يلتهم شريحة لحم، نادى آدم: «تفضل واجلس معي، هل أنت هنا في عمل؟»

قال آدم: «نعم. ذهبت لزيارة والدتك».

وضع ويل شوكتة: «أنا هنا لمدة ساعة فقط. لم أذهب لرؤيتها لأن ذلك يجعلها متحمسة. وأختي أوليف تعني بالمنزل وتحرص على تحضير عشاء خاص لي. لا أريد أن أزعجهم. إلى جانب ذلك لا بد لي من العودة. اطلب شريحة اللحم. لديهم أطباق جيدة. كيف هي والدتي؟»

قال آدم: «تمتلك شجاعة عظيمة، يزداد إعجابي بها طوال الوقت».

«هي كذلك بالفعل، كيف تمكنت من الاحتفاظ بحسها الجيد معنا جميعاً ومع والدي، لا أعرف».

قال آدم للنادل: «شريحة لحم مشوية، استواء متوسط».

«بطاطا؟»

«نعم، شرائح مقلية. والدتك قلقة على توم، هل هو بخير؟»

قطع ويل حواف الشحم من شريحة لحمه ودفعها إلى جانب صحنه: «لديها سبب منطقي للقلق، هناك شيء ما يتعلق بتوم. إنه يتجول مثل نصب تذكاري». ربما كان معتمداً على صموئيل».

قال ويل «كثيراً، لا يبدو أنه قد تخلص من هذه الحالة، من بعض النواحي توم ليس سوى طفل كبير».

«سأذهب وأراه. تقول والدتك إن ديسي تنوي العودة إلى المزرعة».

وضع ويل سكينه وشوكتة على مفرش المائدة وحدق في آدم: «لا تستطيع فعل ذلك. لن أسمح لها بفعل ذلك».

«ولم لا؟»

«حسنًا، لديها عمل جيد هنا يمنحها العيش الكريم. سيكون من العار التخلّص منه». أمسك السكين والشوكة واجترأ قطعة من الشحم ووضعها في فمه.

قال آدم: «سألتحق برحلة الساعة الثامنة إلى المنزل». قال ويل «أنا كذلك». لم يعد يريد التحدث أكثر من ذلك.

## الفصل 32

### 1

ديسي كانت محبوبة العائلة، مولي القطة الجميلة، أوليف الصارمة، وأونا الحالمة، كلهن كن محبوبات، لكن ديسي كانت تلك المحبوبة الدافئة. لها بريق خاص وضحكة معدية مثل الجدرى، كانت تمتلك البهجة التي تلون اليوم وتنتقل إلى الناس.

يمكنني وضع الأمر على هذا النحو، السيدة موريسون من 122 شارع تشيرش، ساليناس، لديها ثلاثة أطفال وزوج كان يدير متجرًا للبضائع الجاهزة. في أيام معينة من الصباح عند الإفطار، كانت أغنيس موريسون تقول: «سأذهب إلى محل ديسي هاملتون لقياس فستان بعد العشاء».

حينها يسعد الأطفال ويركلون بأقدامهم أرجل الطاولة إلى أن يتم إسكاتهم، والسيد موريسون يفرك يديه ويذهب إلى متجره آملاً أن يأتي عازف الطبول في ذلك اليوم. وربما ينسى الأطفال والسيد موريسون لماذا كان يوماً جيداً وموعوداً.

كانت السيدة موريسون تذهب إلى المنزل المجاور لمخبز رينو قرابة الساعة الثانية وتبقى حتى الرابعة، وعندما تغادر تكون عيونها مبللة بالدموع وأنفها أحمر. عند عودتها إلى المنزل كانت تمسح أنفها وعينيها وتضحك من جديد كلما تذكرت ما جرى في محل ديسي في ذلك اليوم. ربما كان كل ما فعلته ديسي هو وضع عدة دبابيس سوداء في وسادة لجعلها تبدو مثل القس

المعمداني، ثم جعل الوسادة المدببة تلقي خطبة جافة قصيرة. ربما ابتكرت لقاء مع العجوز تايلور، الذي كان يشتري منازل قديمة وينقلها إلى قطعة أرض شاغرة كبيرة كان يمتلكها حتى أصبحت وكأنها بحر سارغاسو على أرض يابسة. ربما ألفت قصيدة مرفقة بالإيماءات. لا يهم، دائماً ما كان الأمر مضحكاً وممتعاً.

يومها لم يكن أطفال موريسون يجدون عند عودتهم من المدرسة أو جاعاً أو صداعاً في استقبالهم. لم يكن ضحيجهم مزعجاً ولا وجوههم قذرة، وعندما يرتفع صوت ضحكهم، كانت والدتهم تبادلهم الضحك.

وعند عودته إلى المنزل، كان السيد موريسون يحكي عن يومه ويتم الاستماع إليه، يكون العشاء لذيذاً؛ الكعك أشبه بالونات من خفتها، البسكويت هش، ولا يمكن لأي شخص تتبيل يخنة مثل أغنيس موريسون. ثم بعد العشاء عندما يكون الأطفال قد ناموا على أنفسهم من الضحك، يلمس السيد موريسون كتف أغنيس بإشارتهما القديمة، ويذهبان إلى الفراش ويمارسان الحب وينامان وهما سعيدان.

قد تؤدي زيارة ديسي مهمتها لمدة يومين آخرين قبل أن تتلاشى ويعود الصداع، هذا كان تأثير ديسي. حملت الإثارة بين يديها تماماً مثل صموئيل. كانت رائعة، كانت محبوبة الأسرة.

لم تكن ديسي باهرة الجمال، ربما لم تكن جميلة حتى، لكن كانت تمتلك الوهج الذي يجعل الرجال يتبعون المرأة على أمل أن يعكسوا القليل من هذا الوهج. كنت تعتقد أنه بمرور الوقت كانت ستتغلب على أول علاقة حب لها وتجد حباً آخر، لكنها لم تفعل. عندما تفكر في الأمر، لم يكن لدى أسرة هاملتون، بكل تنوعها، أي تنوع في الحب. لم يبد أي منهم قادراً على التكيّف مع الحب الخفيف أو المتغير.

لم تتمكن ديسي من الاستسلام. كان الأمر أسوأ بكثير من ذلك، واصلت

القيام بعملها وكونها على ما كانت عليه - لكن بدون توهج. الأشخاص الذين أحبوا تألموا لأجلها، وتابعوها وهي تحاول، وحاولوا من أجلها.

كان أصدقاء ديسي جيدين ومخلصين لكنهم بشر، والبشر يحبون الشعور الجيد والفرح ويكرهون الشعور بالسوء. في الوقت المناسب وجدت السيدة موريسون أسباباً قاطعة لعدم الذهاب إلى المحل الصغير بجوار المخبز. لم تكن خائفة. هي فقط لم ترغب في أن تكون حزينة بقدر ما أرادت أن تكون سعيدة. من السهل العثور على سبب منطقي وفاضل لعدم القيام بما لا تريد القيام به.

بدأت أعمال ديسي في التراجع. والنساء اللاتي اعتقدن أنهن يرغبن في الفساتين لم يدركن أبداً أن ما أردنه حقاً هو السعادة. كانت الأوقات تتغير وأصبح الفستان الجاهز يحظى بشعبية أكثر ولم يعد ارتداؤه عاراً. وما دام السيد موريسون يستورد السلع الجاهزة، فمن المنطقي رؤية أغنيس موريسون ترتديها.

كانت الأسرة قلقة بشأن ديسي، لكن ماذا يمكنها أن تفعل عندما لا تعترف هي بوجود أي خطب؟ لقد اعترفت بالفعل أنها تتألم، وأنها كانت آلاماً شرسة، لكنها استمرت لفترة قصيرة ولم تعد تأتي إلا على فترات.

ثم مات صموئيل وتحطم العالم مثل طبق. كان أبنائه وبناته وأصدقاؤه يحاولون إعادة إصاق القطع، ومحاولين صنع عالم ما مرة أخرى.

قررت ديسي تصفية أعمالها والعودة إلى المزرعة للعيش مع توم. لم يكن لديها الكثير للبيع. علمت ليزا بالأمر وكتبت أوليف وديسي إلى توم. لكن ويل، الذي كان جالساً عابساً على الطاولة في سان فرانسيسكو تشوب هاوس، لم يتم إخباره. غلى بداخله غضب وأخيراً رفع منديله ونهض قائلاً لآدم: «لقد نسيت شيئاً. أراك في القطار».



مشى إلى منزل ديسي.

كانت تتناول العشاء بمفردها، وجاءت إلى الباب ومنديلها في يدها. «مرحبا» قالت وهي تقرب خدها الوردى ليقبلها. «متى وصلت إلى المدينة؟» قال «لدي عمل. أريد التحدث إليك».

قادته إلى مطبخها والذي كان غرفة الطعام أيضاً، غرفة صغيرة دافئة مغطاة بالورود. سكبت كوباً من القهوة ووضعت وعاء السكر وإبريق الكريمة أمامه. «هل ذهبت لرؤية أمي؟» سأله

قال بفضاظة: «أنا هنا فقط بين القطارات. ديسي، هل صحيح أنك تريد العودة إلى المزرعة؟» «أفكر في ذلك».

«لا أريدك أن تذهبي».

ابتسمت بحيرة. «ولم لا؟ ما الخطأ في ذلك؟ توم وحيد هناك».

قال «لديك عمل جيد هنا».

أجابت «ليس لدي أي عمل هنا، اعتقدت أنك تعرف ذلك».

كرر بتجاهل: «لا أريدك أن تذهبي».

كانت ابتسامتها حزينة وحاولت ما بوسعها أن تسخر بطريقتها: «أخي الكبير البارع، أخبر ديسي لماذا لا يجب عليها أن تذهب»

«المكان موحش جداً هناك».

«لن يكون كذلك ونحن معاً».

شد ويل شفثيه بغضب وصرخ، «توم لم يعد هو نفسه. لا يجب أن تكوني بمفردك معه».

«أليس بخير؟ هل يحتاج إلى مساعدة؟»

قال ويل: «لم أرغب في إخبارك - لا أعتقد أن توم قد تخطى موت أبي. إنه غريب».

ابتسمت بحنان». ويل، كنت تعتقد دائماً أنه غريب. كنت تعتقد أنه كان غريباً عندما لم يكن يحب العمل».

«كان ذلك مختلفاً آنذاك. الآن أصبح كئيباً، لا يتكلم، يتمشى وحده في الليل على التلال. ذهبْتُ لرؤيته - أصبح يكتب الشعر - صفحاته متناثرة على الطاولة».

«ألم تكتب يوماً الشعر يا ويل؟»

«لم أفعل».

قالت ديسي: «أنا فعلت. صفحات و صفحات في كل مكان على الطاولة».

«لا أريدك أن تذهبي».

قالت بهدوء: «دعني أقرر لنفسي. لقد فقدت شيئاً. أريد أن أحاول العثور عليه مرة أخرى».

«أنت تتحدثين بشكل أحمق».

دارت حول الطاولة ووضعت ذراعيها حول رقبتة. قالت: «أخي العزيز، دعني أقرر لنفسي».

خرج غاضباً من المنزل وبالكاد لحق بالقطار.

## 2

التقى توم ديسي في محطة كينغ سيتي. كان مصقولاً وقد حلق ذقنه قريباً جداً لدرجة أنه كان يلعب مثل الخشب المصقول. تم قص شاربه الأحمر. كان يرتدي قبعة جديدة، وسترة تويد نورفولك مع مشبك حزام من عرق اللؤلؤ وحذاء لامعاً، ووقفت ياقته الصلبة حول رقبتة القوية الحمراء، وكان يرتدي

ربطة عنق زرقاء شاحبة مع دبوس ربطة عنق على شكل حدوة حصان. حاول إخفاء حماسته بشبك يديه البنيتين أمامه.

لوح ديسي بحماس من النافذة وهي تصرخ: «ها أنا ذا، ها أنا ذا!» على الرغم من أنها كانت تعلم أنه لا يستطيع سماعها بسبب صوت القطار المار أمامه. نزلت الدرجات ورأته ينظر بقلق في الاتجاه الخاطئ. ابتسمت وسارت خلفه.

قالت بهدوء: «أستميحك عذراً أيها الغريب، هل يوجد السيد توم هاملتون هنا؟»

دار حولها وصرخ بسرور وأخذها في عناق غامر ورقص حولها، رفعها عن الأرض بذراع واحدة وضرب مؤخرتها بيده الأخرى، مرّغ أنفه وشاربه الخشن بخدّها، ثم أمسك بكتفيها وبقي يتأملها، ثم ألقى كلاهما رأسيهما إلى الوراء وانفجرا في نوبة من الضحك.

انحنى وكيل المحطة من نافذته وأراح مرفقيه المحميين بأكمام سوداء مستعارة وقال لعامل التلغراف: ««أبناء هاملتون! فقط انظر إليهما!»»

كان توم وديسي يتلامسان بأطراف أصابعهما، ويتقافزان ويغنيان بصوت عال، ثم تعانقا مرة أخرى. انحنى رأس توم إلى الأسفل قائلاً «ألسّ ديسي هاملتون؟ ممم، أعتقد أنني أتذكرك، لكنك تغيرت، أين صفائك».

استغرق توم وقتاً طويلاً لاستلام أمتعتها، بسبب فقدانه لأرصدها في جيوبه أولاً، ثم العثور عليها واستلام قطع خاطئة. ثم أخيراً أصبحت كومة سلالها في عربته. ضرب الحصانان الأرض الصلبة بحوافرها، ظهرهما يلمعان في أشعة النهار وحزامهما المصقول ونحاسه يتلألأ كما الذهب. كان هناك شريط أحمر مربوط فوق سوط عربات التي تجرها الدواب وشرائط حمراء على شكل صفائر في أعراف الخيول وذبولها.

ساعد توم ديسي في الجلوس وتظاهر بإلقاء نظرة خاطفة على كاحلها. ثم قام بفك المقابض والسوط، واستدارت الخيول بحدة. قال توم: «هل تودين القيام بجولة في كينغ سيتي؟ إنها مدينة جميلة».

قالت «لا. أعتقد أنني أتذكر ذلك». استدار يسارًا واتجه جنوباً ودفع الخيول إلى هرولة جيدة.

قالت ديسي: «أين ويل؟»

أجاب بفضافة: «لا أعرف»:

«هل تحدث معك؟»

«نعم. قال أنك يجب ألا تعودى للعيش هنا».

قالت ديسي: «قال لي نفس الشيء، وجعل جورج يكتب لي عن هذا أيضًا».

«لماذا لا تأتيين إذا كنتِ ترغبين في ذلك؟» قال توم غاضباً «ما دخل ويل

في ذلك؟»

لمست ذراعه «يعتقد أنك مجنون. يقول إنك تكتب الشعر».

أظلم وجه توم: «لابد أنه ذهب إلى المنزل عندما لم أكن هناك. ماذا يريد

على أي حال؟ لم يكن لديه الحق في الاطلاع على أوراقى».

قالت ديسي: «اهدأ، ويل أخوك. لا تنس ذلك».

«هل سيقبل لو كنت من فتش أوراقه؟» سألها توم.

قالت ديسي بجفاف: «لم يكن ليسمح لك، كان ليخفيها في الخزانة. الآن

دعنا لا نفسد اليوم بالغضب».

قال: «فليكن! لكن يعلم الرب كم يثير غضبي. إذا كنت لا أريد أن أعيش

بأسلوب حياته، فأنا مجنون - مجنون فحسب».

غيرت ديسي الموضوع وأجبرته على الرضوخ قائلة: «في نهاية الأمر قضيت

وقتاً مميّزاً. أمي أيضاً أرادت أن تأتي. هل رأيته تبكي من قبل توم؟»

«لا، لا أستطيع تذكر ذلك. لا، هي ليست بكاءة».

«حسنًا، لقد بكت. ليس كثيرًا، ولكنه كثير بالنسبة لها - حبس الدمع، شهقتان، أنف ممسوح، وصقل النظارة».

قال توم: «أوه، يا إلهي يا ديسي، من الرائع عودتك! تجعلني أشعر أنني بخير».

ضربت الخيول بحوافرها الصلبة طول طريق المقاطعة. قال توم: «اشترى آدم تراسك سيارة فورد. أو ربما يجب أن أقول إن ويل باعه سيارة فورد».

قالت ديسي: «لم أكن أعرف عن فورد، سيشتري منزلي. وعرض سعرًا جيدًا جدًا لذلك». ضحكت «وضعت سعرًا مرتفعًا جدًا للمنزل وكنت أنوي تخفيضه أثناء المفاوضات. لكن السيد تراسك قبل السعر الأول، وضعني في مأزق».

ثم ماذا فعلت يا ديسي؟

«حسنًا، كان علي أن أخبره عن السعر المرتفع وأني كنت قد خططت للمناقشة. لم يبد أنه يهتم بكلا الحاليتين».

قال توم: «أتوسل إليك ألا تخبري ويل بهذه القصة أبدًا. لكان قد سجنك بسببها».

«لكن المنزل لم يكن يستحق ما طلبته!»

«أكرر ما قلته عن ويل. ماذا يريد آدم من منزلك؟»

«سوف ينتقل إلى هناك. يريد إرسال التوأم إلى المدرسة في ساليناس».

«ماذا سيفعل بمزرعته؟»

«لا أعرف. لم يقل».

قال توم: «أتساءل ما الذي كان سيحدث لو حصل أبي على مزرعة كهذه بدلاً من هذه الجافة القديمة».

«ليس مكانًا سيئًا».

«جيد لكل شيء ما عدا كسب لقمة العيش».

قالت ديسي بجديّة: «هل سبق لك أن عرفت عائلة أكثر متعة؟»

«لا، لا أفعل. لكن هذه كانت الأسرة، وليس الأرض».

«توم، هل تذكر عندما اصطحبت جيني وويل وويليامز إلى حفلة رقص

مدرسة بيتش على تلك الأريكة؟»

«أمي لا تدعني أنسى ذلك أبداً. اسمعي، ما رأيك أن تطلبي من جيني وويل

زيارة؟»

قالت ديسي: «ستأتين حتماً، فلنفعلها»

عندما خرجا من طريق المقاطعة قالت: «بطريقة ما أتذكرها بشكل مختلف».

«أكثر جفافاً؟»

«أعتقد هذا. توم، هناك الكثير من العشب الآن»

«لدي عشرون رأساً من الماشية لأكله».

«لا بد أنك أصبحت غنياً».

«لا، والسنة الجيدة ستكسر سعر اللحم البقري. أتساءل ماذا سيفعل ويل».

قال لي: «أعمل دائماً في وقت الندرة. ويل ذكي».

لم تتغير وعورة الطريق، الأحاديث كانت أعمق فحسب والحجارة المستديرة

أصبحت أعلى.

قالت ديسي: «ما هذه اللوحة الموجودة على شجيرة المسكيت تلك؟»

قرأتها أثناء مرورها: «مرحباً بك في المنزل».

«توم، هل فعلتها أنت!»

«لا. شخص ما هنا».

بعد كل خمسين ياردة كانت هناك لوحة أخرى معلقة على شجيرة، أو

أغصان، أو فزاعة ما، وكلها تقول «أهلاً بك في المنزل». صاحت ديسي بفرحة عند مرورها بكل واحدة منها.

وصلاً فوق الوادي الصغير الذي يضم منزل هاملتون القديم وتوقف توم هناك للسماح لها بالاستمتاع بالمنظر. على التل الآخر عبر الوادي، كان مكتوباً بالحجارة البيضاء الضخمة، ذات الكلمات «مرحباً بك في بيتك، ديسي». وضعت رأسها على صدره وضحكت وبكت في نفس الوقت.

نظر توم أمامه باعتزاز: «من كان بإمكانه فعل ذلك؟ لا يمكن للمرء مغادرة المكان بعد الآن».

عند الفجر أيقظت ديسي قشعريرة الألم التي كانت تلاحقها على فترات. بدأت بآلام خفيفة، واندفعت من جانبها وعبر بطنها، تلتها قرصة شديدة كما لو أن يداً شرسة ضخمة قبضت عليها، وعندما غادرها ذلك كله شعرت بألم يشبه الكدمة.

لم يدم الأمر طويلاً، ولكن بينما كان يحدث شعرت أن العالم الخارجي اختفى من حولها وباتت تسمع ما يجري داخل جسدها فقط. عندما بقي فقط الوجع الذي خلفته النوبة، رأت الفجر الفضي يزحف على النوافذ، وتنشقت نسائمه وهي تداعب الستائر، وتسلفت إليها رائحة العشب والجذور والأرض الرطبة. بعد ذلك انضمت الأصوات إلى موكب الإدراك هذا - جدالات العصافير الصباحية، صخب البقرة البليدة وهي تركل عجلها الجائع، نعيق القيق الأزرق، وهمس الدجاج في مكان ما بالقرب من العشب. كان فناء الدجاج يغلي بالإثارة بسبب بيضة، كانت الدجاجة الكبيرة الحمراء، التي تزن أربعة أرطال، تحتج على إجبارها على الجلوس فوق بيضة طوال الوقت بسبب ديك هزيل بإمكانها إزاحته بضربة واحدة من جناحها.

انضم أيضاً هديل الحمام إلى الموكب. تذكرت ديسي كيف قال والدها يوماً وهو جالس على رأس الطاولة: «أخبرت السيد رايبنت أنني أنوي تربية بعض

الحمام وقال لي لا تربّ الحمام الأبيض. سألته لماذا، فقال لأنهم أسوأ حظاً من الحظ السيء. إن أخذت الحمام الأبيض ستجلب لنفسك الحزن والموت. خذ الرمادي منها. قلت له أنني أحب الأبيض. كرر: خذ الرمادي. هذا هراء. ما دمتُ تحت هذه السماء، سأربي الأبيض».

فقلت ليزا بصبر: «لماذا يجب عليك اختبار كل شيء يا صموئيل؟ الرمادي طعمه جيد وهو أسمن أيضاً».

قال صموئيل: «لن أسمح لقصة خرافية واهية أن تتحكم بي».

وقالت ليزا ببساطتها المروعة: «رغبتك بالجدال تتحكم بك بالفعل. أنت بغل جدال، بغل بامتياز!»

قال بتجاهل: «يجب على شخص ما أن يفعل هذه الأشياء، وإلا فالقدر لن يتأثر أبداً وستظل البشرية متعلقة بالأغصان العالية لشجرة»

وبالطبع أتى بحمام أبيض وانتظر الحزن والموت حتى يثبت وجهة نظره. وها هي الطيور السمينة تهدل في الصباح وتستيقظ لتطير مثل أوشحة بيضاء حول سقيفة العربات.

بينما استعادت ديسي تلك الذكريات، تسللت الأصوات والكلمات لأذنيها وعاد المنزل يحتضن أفراد أسرتها، فكرت في الحزن والموت، سمعت صوتاً يتصاعد من المنفاخ الكبير والمطرقة من الورشة، سمعت ليزا تفتح باب الفرن، وصوت ارتطام عجينة الرغيف بلوح الدقيق. ثم تجوّل جو باحثاً في أماكن غير منطقية عن حذائه والعثور عليه أخيراً حيث تركه تحت السرير.

سمعت صوت مولّي الجمهوري الحلو في المطبخ وهي تقرأ نصّاً في الصباح من الكتاب المقدس، وتصحيح أونا البارد.

وكان توم قد عالج مولّي بسكين جيبه، وشعر بالفزع عندما أدرك شجاعته.

قالت هامسة وهي تستذكر تلك الحادثة «أوه يا عزيزي توم».



كان جُبن توم ضخماً مثل شجاعته، كما هو الحال في الرجال العظماء. عنفه وازن حنانه، وكان هو نفسه ساحة معركة لقواته. كان مرتبكا، لكن ديسي يمكنها أن توجهه بالطريقة التي يوجّه بها المدرب جواد من سلالة أصيلة إلى الحاجز لإظهار سلالته وبنيته.

استلقت ديسي وجزء منها ما زال يتألم بينما كان الصباح يضيء النافذة. ثم تذكرت أن مولي كانت ستقود المسيرة الكبرى في نزهة الرابع من يوليو بمشاركة هاري فوربس، عضو مجلس الشيوخ عن الولاية، ولم تكمل ديسي وضع الجديلة على فستان مولي. كافحت من أجل النهوض. كان هناك الكثير من العمل في انتظارها بينما هي راقدة هنا.

همست: «سأنيه يا مولي. سيكون جاهزاً».

قامت من سريرها وارتدت رداءها وسارت حافية القدمين في المنزل المزدهم بآل هاملتون. ذهبت إلى الصالة فوجدت أنهم كانوا في غرفهم. في غرف النوم وجدت الأسرة مرتبة؛ كانوا جميعاً في المطبخ، وفي المطبخ.. لقد تشتتوا جميعاً ورحلوا. إنه الحزن والموت؛ انحسرت الموجه وتركتها في يقظة جافة.

كان المنزل نظيفاً للغاية، الستائر مغسولة، النوافذ مصقولة، ولكن كل ذلك بطريقة الرجال - لم تكن الستائر المكوّبة معلقة بشكل مستقيم وكانت هناك خطوط على النوافذ وأثر مربع على المنضدة عند تحريك كتاب.

كان الموقد دافئاً، والضوء البرتقالي الصادر من اللهب يظهر حول الأغطية، وبنءول ساعة المطبخ يومض من خلف زجاجها، صوت دقاتها يشبه مطرقة خشبية صغيرة تضرب صندوقاً خشبياً فارغاً.

سمعت صوت صفيير صاحب بنبرة عالية وغريبة وبلحن همجي يقترب من المنزل، ثم خطوات توم على الشرفة، دخل وهو يحمل قطعة كبيرة من خشب البلوط لدرجة أنه لم ير ديسي. قام بوضع الخشب في صندوق الحطب.

قال «أنتِ مستيقظة بالفعل! كان ذلك لإيقاظك إذا كنتِ ما زلتِ نائمة».  
أضواء وجهه بفرح.

قالت ديسي: «تبدو مثل والدك»، وبادلته الضحكات.

اشتد فرحه وتحول إلى ضراوة وقال بصوت عال: «نعم، وسنستعيد ذلك الزمان مرة أخرى وهنا. كنت أجبر نفسي في بؤس مثل ثعبان دون عمود فقري. لا عجب أن ويل كان يعتقد أنني جنت. لكنني الآن عدت، وسوف أريك. سأبعث الحياة في الحياة مرة أخرى. هل تسمعين؟ هذا المنزل سيعود على قيد الحياة».

قالت: «أنا سعيدة لأنني أتيت»، كانت تفكر بينها وبين نفسها في حالته ومدى هشاشته وسهولة تحطيمه، وكيف سيتعين عليها حمايته.

قالت: «لا بد أنك عملت ليل نهار لتنظيف المنزل».

«إنه لا شيء، تحريك بسيط بالأصابع».

«أعرف هذا التحريك، لكنه كان في السابق مع دلو وممسحة وعلى ركبتيك - إلا إذا كنت قد اخترعت طريقة ما للقيام بذلك عن طريق الريح».

«اختراع - ولهذا السبب ليس لدي وقت. لقد اخترعت فتحة صغيرة تسمح لربطة العنق بالانزلاق بحرية في ياقة صلبة».

«أنت لا ترتدي ياقات صلبة».

«فعلت بالأمس لاستقبالك؛ وهكذا اخترعته. وبالنسبة للدجاج - سأقوم بتربية الملايين منه - منازل صغيرة في جميع أنحاء المزرعة وحلقة على السطح لانزالها في الخزانات، والبيض يخرج عبر حزام ناقل صغير - هنا! سأرسمه لك».

قالت ديسي: «أريد أن أتناول وجبة الإفطار. ما هو شكل البيضة المقلية؟ كيف يمكن رسم شريحة لحم الخنزير المقدد بالدهون؟»

صرخ بفرح: «لكِ ذلك»، فتح غطاء الموقد ورفع النار حتى تجعدت شعيرات يده، وبدأ يصفر عالياً.

قالت ديسي: «صفيرك يشبه صوت قدم ماعز مع مزمار على تل في اليونان». «ما أنا برأيكِ؟» صرخ.

فكرت ديسي بيأس، إذا كان هذا حقيقياً، فلماذا لا يكون قلبي خفيفاً أيضاً؟ لماذا لا أستطيع الخروج من حقبة القمامة الرمادية الخاصة بي؟ سأفعل، صرخت داخل نفسها. إذا استطاع توم - سأستطيع أنا أيضاً.

قالت، «توم!»

«نعم».

«أريد بيضة أرجوانية».

## الفصل 33

### 1

غمر اللون الأخضر التلال حتى شهر يونيو قبل أن يتحول لون العشب إلى الأصفر. كانت رؤوس الشوفان البري ثقيلة جدًا بالبذور لدرجة أنها كانت معلقة على سيقانها، والينابيع الصغيرة بقيت تتدفق حتى أواخر الصيف. ترنحت الماشية تحت شحومها وجلودها. لقد كانت سنة نسي فيها سكان وادي ساليناس سنوات الجفاف. اشترى المزارعون الأراضي أكثر مما يستطيعون تحملها وحسبوا أرباحهم على أغلفة دفاتر الشيكات الخاصة بهم.

عمل توم هاملتون كعملاق، ليس فقط بذراعيه القويتين ويديه الخشتين ولكن أيضًا بقلبه وروحه. عاد صوت السندان في الورشة مرة أخرى. قام بطلاء المنزل القديم والأكواخ باللون الأبيض. ذهب إلى كينغ سيتي واطلع على طريقة عمل المرحاض الدافق ثم صنع واحدًا من القصدير والخشب المنحوت بمهارة. ولأن الماء كان يصل ببطء شديد من النبع، وضع خزائناً من الخشب الأحمر بجانب المنزل وضخ المياه إليه باستخدام طاحونة هوائية مصنوعة يدويًا بذكاء بحيث تتحرك مع أدنى ريح. وصنع نماذج معدنية وخشبية لفكرتين ليتم إرسالها إلى مكتب براءات الاختراع في الخريف.

لم يكن هذا كل شيء - كان توم يعمل بروح مرحة وطيبة. كان على ديسي أن تنهض مبكرًا للقيام بالأعمال المنزلية قبل أن ينجز توم كل شيء. راقبت سعادته العظيمة، ولم تكن خفيفة كما كانت سعادة صموئيل. لم تخرج من

جذورها وتعود لتطفو. كان يصنع السعادة بمهارة يتقنها ويعرف كيف يصوغها ويشكلها.

ديسي التي كان لديها أصدقاء أكثر من أي شخص آخر في الوادي بأكملها لم يكن لديها أصدقاء مقربون. عندما حلت عليها مشاكلها لم تجد من تتحدث معه عنها، واستمرت نوبات الآلام تزورها سرًا.

عندما وجدها توم مرة تتلوى من الألم صرخ في ذعر: «ديسي، ما الأمر؟» سيطرت على ملامح وجهها وقالت: تشنج بسيط، هذا كل شيء. أنا بخير، وبعد لحظات كانا يضحكان.

ضحكا كثيراً وكأنهما يطمئنان نفسيهما. عندما وصلت ديسي إلى سريرها سقطت بسبب الآلام غير المحتملة، بينما رقد توم في عتمة غرفته مرتبكاً كما كان يفعل عندما كان طفلاً. كان يسمع قلبه ينبض باضطراب. ابتعد عقله عن التفكير وتشبث بالأمان حيث الخطط والتصميمات والآلات الصغيرة.

في بعض الأحيان في أمسيات الصيف كانا يتمشيان أعلى التل لمشاهدة الشفق الذي يتشبث بأعلى الجبال الغربية ويستمتعان بالنسيم الذي يتسلل إلى الوادي بفعل الهواء الدافئ المتصاعد. عادة ما يقفان في صمت لبعض الوقت ويتنفسان بهدوء فحسب. ونظرًا لأن كليهما كان خجولاً، لم يتحدثا عن نفسيهما أبدًا. لا أحد منهما كان يعرف شيئًا عن شؤون الآخر.

كان الأمر مذهباً لكليهما عندما قالت ديسي ذات مساء على التل: «توم، لماذا لا تتزوج؟»

التفت إليها بسرعة ثم نظر بعيداً: «ومن تلك التي ستقبل بي؟»

«هل هذه مزحة أم أنك تعني ذلك حقاً؟»

«من ستقبل بي؟» قالها مرة أخرى. «من ستقبل بأحد مثلي؟»

«يبدو لي أنك تعني ذلك حقاً». ثم انتهكت قانونهما غير المعلن: «هل

وقعت في حب شخص ما؟»

قال بعد لحظة صمت: «لا».

قالت كما لو أنه لم يرد: «ليتني علمت»

لم يتكلم توم مرة أخرى وهم يسيران إلى أسفل التل. لكنه قال فجأة على الشرفة: «أنتِ وحيدة هنا، لا تريدين البقاء». انتظر رداً منها للحظة ثم قال «أجيبني. أليس هذا صحيحاً؟»

«أريد أن أبقى هنا أكثر مما أريد البقاء في أي مكان آخر». سألته، «هل سبق لك أن عاشرت النساء؟»  
قال «نعم».

«هل هذا مفيد لك؟»

«ليس كثيراً».

«ما الذي تنوي فعله؟»

«لا أعرف».

في صمت عادا إلى المنزل. أشعل توم المصباح في غرفة المعيشة القديمة. كان قد أصلح أريكة شعر الخيل، جلس توم بجانب طاولة المركز المستديرة. بينما جلست ديسي على الأريكة، واستطاعت أن ترى أنه ما زال محرّجاً من كلامه الأخير. فكرت كم هو نقي، كم هو غير لائق بعالم كانت حتى هي تعرف عنه أكثر مما يعرفه. شجاع وشهم، وبدت له خطاياها الصغيرة كبيرة جداً لدرجة أنه شعر بأنه غير لائق. تمنّت لو كان والدها هنا. لطالما شعر والدها بعظمة توم. لعله كان يعرف الآن كيف يطلق سراحها ويتركها تحلّق بحرية.

اتخذت مساراً آخر لترى ما إذا كان بإمكانها إثارة بعض الشرارة فيه: «طالما أننا نتحدث عن أنفسنا، هل فكرت يوماً أن عالمنا كله هو هذا الوادي وبضع رحلات إلى سان فرانسيسكو؟ هل سبق لك أن ذهبت جنوباً إلى أبعد من سان لويس أوبيسبو؟ لم يسبق لي أن فعلت».

قال توم: «ولا أنا كذلك».

«أليس هذا سخيفاً؟»

قال «الكثير من الناس لم يفعلوا ذلك».

«لكنه ليس قانوناً. يمكننا الذهاب إلى باريس وروما أو القدس. أود بشدة أن أرى المدرج الروماني».

كان يراقبها بريبة، متوقفاً أن يكون في كلامها نوع من المزاح. كيف يمكننا أن نفعل ذلك؟ هذا يتطلب الكثير من المال».

قالت: «لا أعتقد أن الأمر كذلك، لسنا مضطرين إلى النزول في أماكن فاخرة. يمكننا أخذ القوارب الرخيصة والدرجة الأدنى. هكذا جاء والدنا إلى هنا من إيرلندا، وهكذا يمكننا الذهاب إلى إيرلندا».

بقي يراقبها، لكن بدأ يشعر بنوع من الحرقعة في عينيه.

واستطردت دي سي قائلة: «يمكننا أن نعمل عامًا كاملاً ونوفر كل بنس. يمكنني الحصول على بعض أعمال الخياطة لأقوم بها في كينغ سيتي. سيساعدنا. وفي الصيف القادم يمكنك بيع كل الماشية ويمكننا الذهاب. لا يوجد قانون يمنع ذلك».

نهض توم وخرج. نظر إلى نجوم الصيف، إلى الزهرة الزرقاء والمريخ الأحمر. أسند يديه على جانبيه ثم استدار وعاد إلى داخل المنزل. لم تتحرك دي سي.

«هل تريد الذهاب يا دي سي؟»

«أكثر من أي شيء في العالم».

«إذن سنذهب!»

«هل تريد الذهاب؟»

قال: «أكثر من أي شيء في العالم. ثم هناك مصر.. هل فكرت في مصر؟»

قالت: «وأثينا، القسطنطينية، بيت لحم!»

قال فجأة: «نعم بيت لحم. اذهبي إلى الفراش. أمامنا عام من العمل - عام كامل. خذي قسطاً من الراحة. سأقترض المال من ويل لشراء مائة من الماعز والأغنام».

«ماذا ستطعمهم؟»

قال توم: «جوز البلوط، سأصنع آلة لجمع الجوز».

بعد أن ذهب إلى غرفته كانت تسمعه يطرق ويتحدث بهدوء مع نفسه. نظرت دي سي من نافذتها في الليل المضاء بالنجوم وكانت سعيدة. لكنها تساءلت عما إذا كانت تريد حقاً الذهاب، أو ما إذا كان توم أراد ذلك. وبينما كانت تتساءل نما همس الألم من جانبها.

عندما استيقظت دي سي في الصباح كان توم بالفعل منهمكا في لوح الرسم الخاص به، يضرب على جبهته بقبضته ويحدث نفسه. نظرت دي سي من فوق كتفه: «هل هي آلة جوز البلوط؟»

قال «من المفترض أن يكون الأمر سهلاً، ولكن كيف نخرج العصي والصخور؟»

«أعلم أنك المخترع، لكنني اخترعت أعظم منتقي بلوط في العالم وهو جاهز للانطلاق».

«ماذا تقصدين؟»

قالت: «الأطفال، تلك الأيدي الصغيرة النشيطة».

«لن يفعلوا ذلك ولا حتى مقابل أجر».

«يفعلون من أجل المكافآت. مكافأة للجميع وجائزة كبرى للفائز - ربما جائزة مائة دولار. سيمشطون لك الوادي. هل تسمح لي بالمحاولة؟»



حك رأسه: «لم لا؟ ولكن كيف ستجمعين الجوز؟»

قالت ديسي: «سوف يحضره الأطفال، فقط دعني أعتني بالأمر. أتمنى أن تكون لديك مساحة تخزين كبيرة».

«ستكون استفادة من عمل الصغار أليس كذلك؟»

أجابته ديسي بحماس: «بالتأكيد. عندما كان لدي متجري، استعنت بالفتيات اللواتي أردن تعلم الخياطة - وهن استفدن مني. أعتقد أنني سأطلق على هذه مسابقة جوز البلوط في مقاطعة مونتييري الكبرى. ولن أسمح للجميع بالدخول. ربما نقدم دراجات كجوائز - ألا تلتقط الجوز على أمل الحصول على دراجة يا توم؟»

قال: «بالتأكيد سأفعل، لكن ألا يمكننا أن ندفع لهم أيضًا؟»

قالت ديسي «ليس بالمال، هذا من شأنه أنه يجعل منه وظيفة عادية ولن يجتهدوا فيها، ولم أكن لأفعل ذلك أنا»

انحنى توم على لوحته وضحك: «ولم أكن لأفعل أيضاً. حسناً أنتِ مسؤولة عن الجوز وأنا مسؤول عن الخنازير».

قالت ديسي: «توم، أَلن يكون الأمر غامراً إذا كسبنا المال، نحن من بين جميع الناس؟»

قال: «لكنك كسبتِ المال في ساليناس».

«بعض المال - ليس الكثير. لكنني كنت غنية بالوعود. لو كانت كل فواتيري مدفوعة لما احتجنا اليوم إلى الخنازير. كان بإمكاننا السفر إلى باريس غداً».

قال توم: «سأذهب وأتحدث إلى ويل». دفع كرسيه للخلف ونهض: «هل تودين المجيء معي؟»

«لا، سأبقى وأرتب خططي. غداً سأبدأ مسابقة الجوزة الكبرى».

في طريق العودة إلى المزرعة في وقت متأخر من بعد الظهر شعر توم بالاكئاب والحزن. كما هو الحال دائماً، تمكن ويل من مضغ وبتق حماسه. مدّ ويل شفته وفرك حاجبيه وحك أنفه ونظف نظارته، ثم قام بعملية مطولة لقطع السيجار وإشعاله. كانت مسألة الخنازير مليئة بالثقوب، وكان ويل قادراً على وضع أصابعه في تلك الثقوب.

قال إن مسابقة الجوز لن تنجح على الرغم من أنه لم يكن واضحاً بشأن سبب عدم نجاحها. وأن كل شيء بدا غير ثابت بالنسبة له لا سيما في هذه الأوقات. أفضل ما استطاع فعله هو الموافقة على التفكير في الأمر.

أثناء الحديث فكر توم في إخبار ويل عن أوروبا، لكن غريزة سريعة منعه. إن فكرة التجول في أنحاء أوروبا، ما لم تكن بالطبع متقاعدًا وتمتلك رأس مال جيد، ستكون جنوناً من شأنه أن يجعل خطة الخنازير أعجوبة في الفطنة التجارية. لم يخبره توم، وتركه ليفكر في الأمر، مع يقينه أنه سيكون ضد الخنازير والجوز.

لم يعرف المسكين توم ولم يستطع أن يتعلم أن التظاهر بشكل بارع هو إحدى إبداعات رجل الأعمال. إظهار الحماس حماقة، وويل كان يقصد حقاً التفكير في الأمر. أذهلته أجزاء من الخطة، لقد عثر توم على شيء مثير للاهتمام. إذا كان بالإمكان شراء الماشية بالائتمان، وتسمينها بالطعام الذي لا يكلف شيئاً، ثم بيعها وسداد قرضك وجني أرباحك، ستكون قد أنجزت شيئاً حقاً. لم يكن ويل ينوي سرقة أخيه. كان سيقطع منه الأرباح فقط، لكن توم كان حالماً ولا يمكن الوثوق به. توم، على سبيل المثال، لم يكن يعرف حتى سعر لحم الخنزير واتجاهه المحتمل. إذا نجح الأمر، يمكن الاعتماد على ويل لمنح توم هدية كبيرة جداً - ربما حتى فورد. ماذا عن تقديم سيارة

فورد لتكون الجائزة الأولى والوحيدة للجوز؟ سيعمل الجميع في الوادي في قطف الجوز.

أثناء القيادة في رحلة العودة تساءل توم عن كيفية إخبار ديسي أن خطتها لم تكن جيدة كفاية. وأن أفضل طريقة هي أن تكون لديها خطة أخرى. كيف يمكنهما جني أموال كافية في عام واحد للتجول في أوروبا؟ ثم فجأة أدرك أنه لا يعرف مقدار ما يحتاجان إليه من الأساس. لم يكن يعرف سعر تذكرة السفينة البخارية. ربما يمكنهما قضاء الأمسية في مناقشة ذلك.

جانب منه توقع أن تهرب ديسي من المنزل عندما يخرج. تبسّم وألقى نكتة. لكن ديسي لم تهرب. اعتقد أنها ربما تأخذ قيلولة. ذهب لسقي الخيول ووضعها في الإسطبلات ونصب التبن في المذود.

كانت ديسي مستلقية على الأريكة ذات الرأس المنحنية عندما جاء توم. «تأخذين قيلولة؟» سألهما، لكن عندما رأى لون وجهها. صرخ «ديسي، ما الأمر؟» حاولت مقاومة الألم وقالت: «آلام في المعدة، إنها قاسية».

قال توم: «أوه، لقد أخفّيتني. يمكنني علاج آلام المعدة». ذهب إلى المطبخ وأحضر كوبًا من سائل أبيض وناولها أياه.

«ما هذا يا توم؟»

«أملاح قديمة جيدة. قد تزعجك قليلا لكنها ستؤدي المهمة».

شربته بطاعة: «أتذكر هذا الطعم، علاج أومي في موسم التفاح الأخضر».

قال توم: «والآن تمديدي بلا حراك، سأحضّر العشاء».

كانت تسمعه يطرق في المطبخ. انتشر الألم في جسدها. ومع الألم كان الخوف. شعرت أن الدواء يحترق في معدتها. بعد فترة جرّت نفسها إلى المرحاض الجديد المصنوع منزليًا وحاولت أن تتقيأ الأملاح. كان العرق يتدفق من جبهتها وغمر عينيها. عندما حاولت أن تقف كانت عضلات بطنها متييسة بحيث لم تستطع التحرر.

الأحقًا أحضر لها توم بعض البيض المخفوق. هزت رأسها ببطء. قالت مبتسمة: «لا أستطيع، أعتقد أنني سأذهب للنوم فقط».

أكد لها توم أن الأملاح ستعمل قريبًا «ستكونين بخير». ساعدها على الوصول إلى فراشها. «ماذا تظنين أنك تناولتِ وسبب لك ذلك؟»

استلقت ديسي في غرفة نومها وهي تكافح الألم. حوالي الساعة العاشرة مساءً، بدأت إرادتها تخسر معركتها. نادى على توم وأتى وهو يحمل تقويم العالم في يده. قالت: «توم، أنا أسفة. لكنني مريضة للغاية توم. أنا مريضة للغاية». جلس على حافة سريرها في منتصف الظلام. «هل الانقباضات مؤلمة؟»  
«نعم، فظيعة».

«هل يمكنك الذهاب إلى المرحاض الآن؟»

«لا ليس الآن».

قال: «سأحضر مصباحًا وأجلس معك، ربما يمكنك النوم قليلاً، سوف تختفي في الصباح. الأملاح ستؤدي المهمة».

استقرت إرادتها مرة أخرى واستلقت ساكنة بينما كان توم يقرأ أجزاءً من التقويم لتهدئتها. توقف عن القراءة عندما اعتقد أنها نامت، ونام في كرسيه بجانب المصباح.

أيقظته صرخة أخافته، داس على جانب أغطية الفراش المتعثرة. كانت عيون ديسي حليبية ومتوترة مثل عيون حصان مجنون. حول زوايا فمها ظهرت فقاعات سميقة، فيما وجهها ساخن كالنار. وضع توم يده تحت الغطاء وشعر أن عضلاتها متشنجة مثل الحديد. فجأة توقف نضالها وسقط رأسها إلى الورا وانعكس الضوء على عينيها نصف المغلقتين.

وضع توم لجامًا على الحصان وألقى بنفسه على ظهره. مزق حزامه على ظهر الحصان الخائف لحيته على الركض بشكل أسرع فوق المسار الحجري الممزق.

لم يسمع آل دنكن النائمون في الطابق العلوي في منزلهم المكون من طابقين على طريق المقاطعة دويًا على بابهم، لكنهم سمعوا دويًا عندما انزعجوا دويًا على بابهم الأمامي حاملاً معه القفل والمفصلات. بحلول الوقت الذي نزل فيه ريد دنكن إلى الطابق السفلي حاملاً بندقيته كان توم يصرخ في هاتف محطة وسط كينغ سيتي: الدكتور توسون! لا يهمني. اجلبه! حصل على الطبيب الملعون واجلبه الى هنا». كان ريد دنكن يوجه البندقية نحوه.

قال الدكتور تيلسون: «نعم! نعم! نعم! أنت توم هاملتون. ما خطبها؟ هل تعاني من الإمساك؟ ما الذي فعلته؟ أملاح! أيها الأحمق اللعين!» ثم سيطر الطبيب على غضبه: «توم، توم، يا فتى. تماسك. عد وألبسها ملابس باردة - باردة قدر الإمكان. لا أفترض أن لديك أي ثلج. بكل حال استمر في تغيير الملابس. سأخرج بأسرع ما يمكن. هل تسمعي؟ توم، هل تسمعي؟»

أغلق السماعه وبدأ بارتداء ملابسه في حالة من التعب الغاضب، فتح خزانة الحائط وجمع المباحض والمشابك والإسفنجة والأنايب والخيوط ليضعها في حقيبته. قام بهز فانوس ضغط البنزين الخاص به للتأكد من امتلائه وترتيب علبة الأثير والقناع بجانبه في مكتبه، كانت زوجته تنظر اليه وهي في ثوب النوم، قال لها الدكتور تيلسون: «سأذهب إلى المرآب. اتصلي بـ ويل هاملتون. أخبريه أنني أريده أن يقودني إلى منزل والده الآن. إذا جادل أخبريه أن أخته - تحتضر».

### 3

عاد توم إلى المزرعة بعد أسبوع من جنازة ديسي، كان يبدو وهو يمتطي جواده عاليًا ورائعًا، كتفاه مستقيمان وذقنه مرفوعة مثل حارس في موكب. فعل توم كل شيء ببطء وبشكل مثالي. جفف حصانه ونظفه بالفرشاة، وارتدى قبعة أنيقة مربعة على رأسه. حتى صموئيل لم يكن بإمكانه الحفاظ على كرامته أكثر

من نوم أثناء عودته إلى المنزل القديم. حتى الصقر الذي انقض على دجاجة بقبضة مزدوجة لم يجعله يدير رأسه.

نزل إلى الحظيرة وسقى حصانه، أمسكه عند الباب للحظة ووضع شعيراً ملفوفاً في الصندوق المجاور للمذود. نزع السرج وقلب البطانية حتى تجف. عندما انتهى الشعير قاد الحصان إلى الخارج وحرره ليرعى في كل شبر من العالم.

في المنزل، بدا له أن الأثاث والكراسي والموقد تتراجع إلى الوراء مبتعدة عنه في نفور. تجنبه كرسي عندما دخل غرفة المعيشة. كانت أعواد الثقاب ناعمة ورطبة، يرافقه شعور بالاعتذار ذهب إلى المطبخ لجلب المزيد. كان المصباح في غرفة المعيشة جميلاً ووحيداً.

جلس توم هناك في المساء وهو ينظر حوله. تجنب عيناه الأريكة ذات الشعر الخفيف، وجعلته ضوضاء طفيفة صادرة من الفئران في المطبخ يستدير، ورأى ظلّه على الحائط وانتبه إلى أنه ما زال يرتدي قبعته. رفعها ووضعها على الطاولة بجانبه.

كانت تتسلل إليه الأفكار متباطئة، لكنه كان يعلم أنه سيتعين عليه قريباً جداً المشول أمام محكمة ذاته، حيث تكون نفسه القاضي وجرائمه المحلفين.

نودي اسمه بخشونة في أذنيه، سار عقله لمواجهة المتهمين: الغرور الذي اتهمه بسوء الملابس والقذارة والابتذال. الشهوة التي جعلته يهدر ماله على العاهرات. عدم الصدق الذي دفعه للتظاهر بامتلاك الموهبة التي لم يمتلكها. الكسل والشراهة في نفس الوقت. شعر توم بالراحة من هؤلاء لأنهم قاموا بغرلة تلك الخطايا الخفية في المقعد الخلفي، في انتظار الوصول إلى الجريمة المروعة. لقد استخرج بعض الأمور واستخدم الخطايا الصغيرة بصفتها فضائل تقريباً لإنقاذ نفسه. كان هناك اشتهاً لثروة ويل، وخيانة لإله أمه، وسرقة للوقت والأمل، ورفض مَرَضِي للحب.

ملاً صوت صموئيل الغرفة بهدوء: «كن جيداً، كن نقياً، كن رائعاً، كن توم هاملتون».

تجاهل توم والده: «أنا منشغل بتحية أصدقائي، وأوماً برأسه إلى الفظاظ والبشاعة والسلوك غير اللائق والأظافر غير المهذبة. ثم عاد الى الغرور مرة أخرى، لكن فات أوان المماطلة مع الخطايا الصغيرة، كانت هناك جريمة قتل. استشعرت يد توم برودة الكأس ونظر إلى السائل الأبيض والبلورات الذائبة والفقاعات الواضحة التي كانت ما زالت تتصاعد، كرر بصوت عالٍ في الغرفة الفارغة: «هذا سيقي بالغرض. فقط انتظري حتى الصباح. ستشعرين بعد ذلك بتحسن». هكذا بدا الأمر، سمعته الجدران والكراسي والمصباح جميعاً ويمكنهم إثبات ذلك. لم يكن هناك مكان في العالم ليعيش فيه توم هاملتون. لكن لم يكن ذلك بسبب قلة المحاولة. لقد درس كل الاحتمالات؛ لندن؟ لا! مصر - الأهرامات في مصر وأبو الهول. لا! باريس؟ لا! مهلاً - هناك يمارسون كل ذنوبك بشكل أفضل. لا! حسناً توقف جانباً وربما سنعود إليك لاحقاً. بيت لحم؟ لا يا إلهي لا! سيكون ذلك موحشاً بالنسبة لشخص غريب.

وهنا، من الصعب أن تتذكر كيف تموت ومتى، قد يحدث الأمر بينما ترفع حاجباً، أو تصفر، أو في ليلة منيرة تكتشف فيها الطلقة التي يحركها المسحوق سرك ويندفع نحوك فيطلق السائل المخزون في داخلك.

هذا صحيح، كان توم هاملتون ذاهباً نحو الموت وكان عليه فقط القيام ببعض الأشياء لجعلها نهائية.

تشنجت الأريكة وأصدرت صريراً، نظر إليها توم وإلى المصباح المدخن الذي تشير إليه الأريكة، قال لها توم: شكراً لك، لم ألاحظ ذلك» وأخمد الفتيل حتى توقف الدخان.

غفى عقله، صفعه القتل مرة أخرى، لكنه كان أكثر تعباً من أن يقدم على قتل نفسه، فهذا الأمر يتطلب بعض العمل، مع شيء من الألم وربما العذاب.

تذكر أن والدته كانت تكره مسألة الانتحار بشدة، كانت تشعر أنه يجمع بين ثلاثة أشياء كانت ترفضها - الأخلاق السيئة، والجبن، والخطيئة. كان في نظرها بسوء الزنا أو السرقة. لا بد أن تكون هناك طريقة لتجنب استنكار ليزا التي يمكنها أن تجعل المرء يعاني إذا كانت رافضة للأمر. مكتبة سُر من قرأ لم يكن صموئيل ليجعل الأمر معقداً، لكن من ناحية أخرى لا يمكن تجنب صموئيل لأنه كان في الهواء في كل مكان. كان على توم أن يخبر صموئيل. قال: أبي، أنا آسف. لا يمكنني تجنب ذلك. لقد بالغت في تقديري. كنت مخطئاً. أتمنى أن أتمكن من تبرير الحب والفخر اللذين أهدرتهما علي. ربما تمكنت أنت من إيجاد مخرج، لكني لا أستطيع. لا أستطيع العيش. لقد قتلت ديسي وأريد أن أنام».

تحدث عقله عن والده الغائب قائلاً: «أستطيع أن أفهم كيف سيكون ذلك. هناك العديد من الأنماط للاختيار من بينها منذ الولادة وحتى الولادة الأخرى. لكن دعنا نفكر كيف يمكننا أن نجعل كل شيء على ما يرام مع أمي. لماذا صبرك نافذ هكذا يا عزيزي؟»

قال توم: «لأنني لا أستطيع الانتظار، لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك». «بالتأكيد يمكنك يا بني، أيها العزيز. لقد كبرت كما عرفت أنك ستفعل. افتح درج الطاولة ثم استفد من هذا اللفت الذي تسميه رأسك».

فتح توم الدرج ورأى لوحاً عليه أوراق وحزمة من الأظرف مع أقلام رصاص وفي زاوية في الخلف بعض الطوابع. مد اللوح وشحذ الأقلام بسكين جيبه.

كتب: «أمي العزيزة، أتمنى أن تحافظي على صحتك. سأخطط لقضاء المزيد من الوقت معك. طلبت مني أوليف المجيء في عيد الشكر وتعلمين أنني سأكون هناك. أصبح بإمكان أوليف الصغيرة طهي ديك رومي تقريباً يطابق الذي كنتِ تقومين بتحضيره، لكنني أعلم أنك لن تصدقي ذلك أبداً. لقد حظيتُ بضربة حظ. اشتريتُ حصاناً بخمسة عشر دولاراً - مخصي، ويبدو



لي أنه من سلالة أصيلة. لقد تم عرضه بثمان رخيص لأنه يكره البشرية. أمضى مالكة السابق على ظهره وقتاً أطول من وقته على ظهر هذا الحصان. يجب أن أقول إنه لطيف للغاية. لقد ألقى بي مرتين لكنني سأروضه، وإذا نجحت في ذلك سأمتلك أحد أفضل الخيول في المقاطعة بأكملها. ويمكنك التأكد من أنني سأروضه إذا استغرق مني الشتاء كله. لا أعرف لماذا أستمر في الحديث عنه، قد يكون بسبب ما قاله الرجل الذي اشتريته منه، قال شيئاً مضحكاً: «هذا الحصان شرس لدرجة أنه قد يأكل رجلاً من ظهره مباشرة». حسناً، هل تتذكرين ما كان يقوله أبي عندما كنا نذهب لصيد الأرناب؟ ارجع وأنت تحمل درعك أو هو يحملك. سأراك في عيد الشكر. ابنك توم».

تساءل عما إذا كان ذلك جيداً بما فيه الكفاية، لكنه كان أكثر تعباً من أن يكتب رسالة أخرى. أضاف ملاحظة: لاحظت أن بولي ما زال كما هو. هذا الببغاء يجعلني أحمر خجلاً».

وكتب على ورقة أخرى: «عزيزي ويل، بغض النظر عما قد تفكر فيه - أرجوك أن تساعدني. بحق أننا - من فضلك. لقد رمى بي الحصان وركلني في رأسي - من فضلك! أخوك توم».

ختم الرسالتين ووضعهما في جيبه وسأل صموئيل: «هل هذا جيد؟» في غرفة نومه فتح علبة جديدة من الطلقات ووضع إحداها في مسدس من نوع سميث اند ويلسون ووضع البقية على بعد مسافة واحدة على يسار الزناد. أتى حصانه وهو نائم مستجيباً لصافرته إلى السياج، كانت الساعة الثالثة صباحاً عندما ألقى الرسائل في مكتب البريد في كينغ سيتي وامتطى حصانه عائداً نحو التلال القاحلة لمنزل هاملتون القديم.

لقد كان رجلاً شهماً ونبيلاً.

## الجزء الرابع



## الفصل 34

قد يسأل طفل: «ما هي قصة العالم؟»

وقد يتساءل الرجل أو المرأة: «إلى أين سيمضي هذا العالم؟ كيف سينتهي، وبينما نحن فيه، ما هي قصته؟»

أعتقد أن هناك قصة واحدة في العالم، قصة واحدة فقط، أخافتنا وألهمتنا، ولذلك نحن نعيش في تفكير وتساؤل مستمر. يقع البشر - في حياتهم، أفكارهم، جوعهم وطموحاتهم، في جشعهم وقسوتهم، وفي لطفهم وكرمهم أيضًا - في شبكة من الخير والشر. أعتقد أن هذه هي القصة الوحيدة التي لدينا والتي تحدث على جميع مستويات الشعور والذكاء. الفضيلة والرذيلة كانتا خيوط لحمة وعينا الأول، وستكونان نسيج آخرتنا، على الرغم من أي تغييرات قد نفرضها على الحقل والنهر والجبل، على الاقتصاد والأخلاق. لا توجد قصة أخرى. الانسان، بعد أن يزيل الغبار والشوائب من حياته، يترك الأسئلة الصعبة والنظيفة فقط: هل كان ذلك جيدًا أم كان سيئًا؟ هل قمت بعمل جيد أو سيء؟ يروي هيرودوت<sup>(1)</sup>، في الحرب الفارسية، قصة عن كيف سأل كروسيوس<sup>(2)</sup>،

---

(1) هيرودوت أو هيرودوتس، كان مؤرخاً إغريقياً يونانياً آسيويًا عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدّة زارها حول العالم المعروف آنذاك، وأناس قابلهم في رحلاته وكتبه العديدة عن السيطرة الفارسية على اليونان.

(2) يروي الإغريق العديد من الحكايات عن كروسيوس، وأشهرها تلك التي تتعلق بزيارة الحكيم سولون الذي أعطاه درساً أرشده فيه عن آلهة الانتقام التي تنتظر عند كل ثروة كبيرة وهي التي رواها هيرودوتس، كما أن هناك قصيدة من تأليف باخيليديس يقول فيها أن كروسيوس أراد الهرب بحرق نفسه وثروته في محرقة جنازية مثل ساراكوس آخر

أغنى ملوك عصره وأكثرهم تفضيلاً، سولون<sup>(1)</sup> الأثيني سؤالاً رئيسياً لم يكن يسأله إذا لم يكن قلقاً بشأن جوابه، تساءل: «من هو الشخص الأكثر حظاً في العالم؟» لا بد أن الشك قد أكله وكان بحاجة للطمأنينة. أخبره سولون عن ثلاثة أشخاص محظوظين قديماً، على الأرجح لم يستمع كروسيوس لأنه كان قلقاً بشأن نفسه. وعندما لم يذكره سولون قال كروسيوس: «ألا تعتبرني محظوظاً؟» لم يتردد سولون في إجابته «كيف يمكنني ذلك؟ أنت لم تمت بعد».

ولا بد أن هذه الإجابة قد طاردت كروسيوس بشكل مخيف بحيث خسر حظه وثروته ومملكته. وبينما كان يُحرق على نار عالية، قد يكون قد فكر في الأمر وربما تمنى لو لم يسأل أو لم يتم الرد عليه.

في زماننا هذا عندما يموت الرجل - إذا كانت لديه ثروة ونفوذ وسلطة وهيئة تثير الحسد، وبعد أن يقوم الآخرون بتقييم ممتلكاته ومكانته وأعماله وآثاره - يبقى السؤال مطروحاً هناك: هل كانت حياته جيدة أم كانت سيئة؟ - وهي طريقة أخرى لطرح سؤال كروسيوس، والمقياس هو: «هل كان محبوباً أم مكروهاً؟ هل موته خسارة أم سيأتي منه نوع من الفرح؟»

أتذكر بوضوح وفاة ثلاثة رجال. كان أحدهم أغنى رجل في هذا القرن، والذي بعد أن شق طريقه إلى الثروة من خلال أرواح وأجساد الرجال، أمضى

---

ملوك آشور ولكنه وقع في يدي الملك الفارسي قورش قبل أن ينفذ مبتغاه، وهناك نسخة أخرى من القصة رواها هيرودوت يقول فيها أن قورش حكم على سجينه بأن يحرق حياً، وهي طريقة موت غير متناسبة مع احترام الفرس للنار، وأن أبولو أتى لإنقاذه وهناك صرخ كروسيوس باسم سولون فكان سبباً في نجاته.

(1) سولون واحد من حكماء الإغريق السبعة والذين يعود لهم الفضل في سن قوانين اجتماعية متقدمة وذلك بعد حرب أهلية خاضها الفقراء ضد طبقة الملاك، وسمي قانونهم قانون سولون ويتضمن حق الملكية الفردية المحدودة، وحق الشعب في الإشراف على مؤسسات الدولة، وحق الجماعة في تشكيل وحدة لها قوانينها الخاصة التي تحكمها وتخضع لقانون الدولة العام.

سنوات عديدة محاولاً شراء الحب الذي فقده، وبهذه العملية قدم خدمة عظيمة للعالم، وربما أكثر بكثير من شرور صعوده. كنت على متن سفينة عندما مات، وتم نشر الخبر على لوحة الإعلانات، وتلقى الجميع تقريباً الخبر بسرور. قال العديد منهم «الحمد لله أن ابن العاهرة مات».

ثم كان هناك رجل ذكي مثل الشيطان، يفتقر إلى بعض الإدراك للكرامة الإنسانية ويعرف جيداً كل جانب من جوانب الضعف البشري والشر، استخدم موهبته تلك في تشويه الرجال وشراءهم، وفي الرشوة والتهديد والإغواء حتى وجد نفسه في موقع قوة عظمى. ألبس دوافعه أسماء الفضيلة. كنت أتساءل عما إذا كان يعلم أنه لا توجد هدية يمكنها شراء حب المرء أبداً عندما يفقد حبه لذاته. لا يمكن للرجل المرتشي إلا أن يكرهه راسييه. عندما مات هذا الرجل رنّت الأمة بالتسيبجات فرحاً بموته.

كان هناك رجل ثالث ربما ارتكب العديد من الأخطاء، لكنه كرّس حياته الفعلية لجعل الرجال شجعاناً وكرماء في وقت كانوا فيه فقراء وخائفين وعندما كانت القوى القبيحة في العالم طليقة في استغلال مخاوفهم. كان هذا الرجل مكروهاً من قبل القلة. عندما مات الناس انهمرت دموع الناس في الشوارع وصرخت عقولهم: «ماذا نفعل الآن؟ كيف يمكننا الاستمرار بدونه؟»

أنا متأكد من أنهم من تحت قشرتهم الخارجية، يريد البشر أن يكونوا صالحين وأن يُحَبَّوا. في الواقع من خلال معظم الرذائل كان البشر يحاولون إيجاد طرق مختصرة للحب. عندما يموت المرء، مهما كانت مواهبه وتأثيره وعبقريته، إذا مات وهو غير محبوب، فلا بد أن حياته كانت فاشلة وموته كان مرعباً وبارداً. يبدو لي أنه إذا اضطررنا أنا أو أنت إلى الاختيار بين مسارين من التفكير أو العمل، فلا بد أن نتذكر الموت ونحاول أن نعيش حتى لا يجلب موتنا أي متعة للعالم. لدينا قصة واحدة فقط. كل الروايات

والقصائد، مبنية على المنافسة التي لا تنتهي في أنفسنا بين الخير والشر. ويخطر لي أن الشر يجب أن يولد باستمرار، في حين أن الخير والفضيلة خالدان. للرزيلة دائماً وجه شاب جديد، بينما الفضيلة تمتلك مكانة لا مثيل لها في العالم.

## الفصل 35

### 1

ساعد لي آدم والصبيين على الانتقال إلى ساليناس، وهذا يعني أنه فعل كل شيء، وحزم ما يجب أخذه، ووضع في القطار، وحمل المقعد الخلفي لفورد، وعند الوصول إلى ساليناس فك الأمتعة وتأكد من استقرار العائلة في منزل ديسي الصغير. عندما فعل كل ما يستلزم لجعلهم مرتاحين، وعدد من الأشياء غير الضرورية، والمزيد من الأشياء بسبب التأخير، انتظر آدم رسميًا في إحدى الأمسيات بعد أن ذهب التوأم إلى الفراش. ربما استوعب آدم نيته من برودة لي ورسميته.

قال آدم: «حسنًا. كنت أتوقع ذلك. أخبرني».

أدى هذا إلى تفكيك خطاب لي المحفوظ، والذي كان ينوي أن يلقيه..  
لعدد من السنوات خدمتك بأفضل ما لدي والآن أشعر».

قال لي: «لقد أجلتها لأطول فترة ممكنة. لدي خطاب جاهز. هل تريد أن تسمعه؟»

«هل تود أن تلقيه؟»

قال لي «لا، لا أريد. مع أنه خطاب جيد جدًا أيضًا».

«متى تريد أن تذهب؟» سأل آدم.

«في أسرع وقت ممكن. أخشى أنني قد أفقد نيتي إذا لم أذهب قريبًا. هل تريدني أن أنتظر حتى تعثر على شخص آخر؟»



قال آدم: «من الأفضل ألا تفعل، أنت تعرف كم أنا بطيء، قد يستغرق الأمر بعض الوقت، وقد لا أفعلها أبدًا».

«سأذهب غدا إذا».

قال آدم: «سيمزق هذا التوأم إلى أشلاء، لا أعرف ماذا سيفعلان. ربما من الأفضل أن تتسلل وتدعني أخبرهما بعد ذلك».

قال لي: «ملاحظتي الدائمة هي أن الصغار دائماً ما يفاجئونا».

وكان كذلك. عند الإفطار في صباح اليوم التالي قال آدم: «يا أولاد، لي سيغادر».

«حقاً؟» قال كال، وبعد لحظة أردف: «هناك مباراة كرة سلة الليلة بتكلفة عشرة سنتات. هل يمكننا الذهاب؟»

«نعم. لكن هل سمعت ما قلته؟»

قال آرون «بالتأكيد. لقد قلت إن لي سيغادرنا».

«ولن يعود».

سأل كال: «إلى أين هو ذاهب؟»

«سينتقل للعيش في سان فرانسيسكو».

قال آرون: «أوه! هناك رجل في الشارع الرئيسي لديه موقد صغير ويطبخ النقائق ويضعها في الكعك بنيكل واحد فقط. ويمكنك أن تضيف كمية الخردل الذي تريدها».

وقف لي على باب المطبخ مبتسماً لآدم.

عندما حمل التوأم كتبهما قال لي: «وداعاً يا أولاد».

صاحا «وداعاً!» وهما يخرجان.

حرق آدم في فنجان قهوته وقال في اعتذار: «بهائم! أعتقد أن هذه هي مكافأتك على خدمتك لأكثر من عشر سنوات».

قال لي: «إنه أفضل هكذا، لو تظاهرا بالحزن لكانا كاذبين. لا يعني لهم الأمر أي شيء. ربما سيفكرون بي أحياناً - على انفراد. لا أريدهما أن يكونا حزينين. أمل ألا أكون ذا روح ضئيلة جداً لدرجة أن أشعر بضرورة أن يتم افتقادي لأشعر بالرضا». وضع خمسين سنتاً على المنضدة أمام آدم». عندما يبدوون مباراة كرة السلة الليلية، أعطهما هذا مني واطلب منهما شراء كعك النقائق. إنها هدية وداعي».

نظر آدم إلى سلة التلسكوب التي أحضرها لي إلى غرفة الطعام». هل هذا كل ما لديك يا لي؟»

«كل شيء ما عدا كتيبي. إنها في صناديق في القبو. إذا كنت لا تمانع، فسأرسل من يأخذها أو آتي من أجلها بعد أن استقر».

«بالتأكيد. سأفتقدك يا لي، سواء كنت تحبني أم لا. هل ستفتتح حقاً مكتبك؟»

«هذه هي نيتي».

«هل يمكننا التواصل؟»

«لا اعرف. سيكون علي التفكير بالأمر. يقولون إن الجرح النظيف يشفى سريعاً. لا يوجد شيء أكثر حزناً بالنسبة لي من العلاقات التي لا يجمعها سوى غراء الطوابع البريدية. إذا كنت لا تستطيع رؤية أو سماع أو لمس المرء، فمن الأفضل تركه يمضي في سبيله».

قام آدم عن الطاولة «سأمشي معك إلى المستودع».

«لا!» قال لي بحدة «لا. لا أريد ذلك. وداعاً سيد تراسك. وداعاً يا آدم». خرج من المنزل بسرعة كبيرة لدرجة أن كلمة «وداعاً» التي قالها آدم وصلت إليه وهو في نهاية الدرجات الأمامية و«لا تنسى الكتابة» عند البوابة الأمامية.

في تلك الليلة بعد مباراة كرة السلة، كان لدى كل من كال وآرون خمسة نقائق على الكعك، وكان الأمر كذلك لأن آدم نسي تحضير أي عشاء. عند العودة إلى المنزل ناقش التوأم موضوع لي للمرة الأولى.

«أتساءل لماذا ذهب؟» سأل كال.

«لقد تحدث عن الذهاب من قبل».

«ماذا تفترض أنه سيفعل بدوننا؟»

«لا أعرف» قال آرون «أراهن أنه سيعود».

«كيف؟ قال أبي إنه سيفتح محل لبيع الكتب. هذا مضحك. مكتبة صينية».

قال آرون: «سوف يعود، سيشعر بالوحدة دوننا. سوف ترى».

«أراهن بعشرة سنتات أنه لن يعود».

«قبل متى؟»

«إلى الأبد».

قال آرون: «إنه رهان».

لم يتمكن آرون من جمع مكاسبه لمدة شهر تقريباً، لكنه فاز بعد ستة أيام.

جاء لي في العاشرة وأربعين دقيقة، وسمح لنفسه بالدخول بمفتاحه الخاص. كان هناك ضوء في غرفة الطعام، لكن لي وجد آدم في المطبخ، وهو يكشط قشرة سوداء سميكة من المقلاة بحافة فتاحة علب.

وضع لي سلته «لو قمت بنقعها الليلة لتمكنت من إزالتها على الفور».

«حقاً؟ لقد أحرقت كل شيء قمت بطهوه. هناك قدر من البنجر في الخارج

في الفناء. رائحته سيئة للغاية لدرجة أنني لم أستطع إبقائه في المنزل. البنجر

المحروق فظيع يا لي!« صاح ثم قال «هل كل شيء على ما يرام؟»

أخذ لي المقلاة الحديدية السوداء منه ووضعها في الحوض وفتح صنوبر الماء: «لو كان لدينا موقد غاز جديد، لأصبح بإمكاننا صنع فنجان من القهوة في بضع دقائق. فلأشعل النار كذلك».

قال آدم: «الموقد لا يعمل».

رفع لي الغطاء. «هل أزلت الرماد؟»

«رماد؟»

قال لي: «أوه، اذهب إلى الغرفة الأخرى. ساعد بعض القهوة».

انتظر آدم بفارغ الصبر في غرفة الطعام لكنه أطاع أوامره. أخيرًا أحضر لي فنجانين من القهوة ووضعهما على المنضدة. قال «صنعتها في مقلاة، أسرع بكثير». انحنى فوق السلة الخاصة به وفك الحبل وأخرج القارورة الحجرية: «الأفستين الصيني. لقد نسيت أن أسأل عما إذا كنت قد استبدلتني».

قال آدم: «أنت تراوغ»

«أعلم. وأعلم أيضًا أن أفضل طريقة هي التحدث بشكل مباشر والانتهاز من الأمر».

«لقد خسرت أموالك في مباراة مشجعين».

«لا. أتمنى لو كان كذلك. لدي أموال. هذه السدادة اللعينة مكسورة - سأضطر إلى دفعها إلى داخل الزجاجاة». سكب الشراب الأسود في قهوته: «لم أشربه بهذه الطريقة أبدًا، أخبرني، هل هو جيد؟»

قال آدم: «طعمه يشبه التفاح الفاسد».

«نعم، ولكن تذكر أن سام هاملتون قال إنه بطعم التفاح الفاسد الجيد».

قال آدم: «متى تعتقد أنك ستخبرني بما حدث؟»

قال لي «لم يحدث شيء، لقد أصبحت وحيدًا، هذا كل شيء، ألا يكفي

ذلك؟»

«ماذا عن مكتبك؟»

«لا أريد مكتبة. أعتقد أنني كنت أعرف ذلك قبل أن أصعد إلى القطار، لكنني استغرقت كل هذا الوقت للتأكد.»

«إذا ذهب حلمك الأخير.»

«إنه خلاص جيد». بدا لي على شفا حالة من الهستيريا: «سيد تراسك، صبي صيني يبدو يشمل.»

انزعج آدم: «ما خطبك؟»

رفع لي الزجاجة عن شفتيه وتناول جرعة كبيرة من المشروب الساخن وبيث الأبخرة من حلقة المحترق قائلاً: «آدم، أنا سعيد بشكل لا يضاهاى، بشكل لا يصدق، بفرح غامر لعودتي الى المنزل. لم أشعر بوحدة كتلك في حياتي.»

## الفصل 36

### 1

في ساليناس كانت هناك مدرستان لقواعد اللغة، مبان صفراء كبيرة ذات نوافذ طويلة، كانت النوافذ مزعجة والأبواب لا تبتسم. هاتان المدرستان كانتا تسميان الشرقية والغربية. نظرًا لأن المدرسة الشرقية كانت طريقًا إلى الجحيم عبر المدينة وارتادها الأطفال الذين يعيشون شرق الشارع الرئيسي هناك، فلن أزعج نفسي بها.

المدرسة الغربية كانت مكونة من مبنى ضخم من طابقين، أمامه سلسلة من أشجار الحور، وساحات اللعب مقسمة لجانب للفتيات وآخر للأولاد. خلف المدرسة كان هناك سياج مرتفع يفصل جانب الفتيات عن الأولاد، والجزء الخلفي من ساحة اللعب تحده منحدرات من المياه الراكدة التي نمت فيها أعشاب السعدية الطويلة. المدرسة الغربية كانت تحوي الفصول الدراسية من الثالث إلى الثامن، بينما ذهب طلاب الصف الأول والثاني إلى مدرسة الأطفال الواقعة على مسافة بعيدة.

في المدرسة الغربية كانت هناك غرفة لكل صف - الثالث والرابع والخامس في الطابق الأرضي، والسادس والسابع والثامن في الطابق الثاني. كانت كل غرفة تحتوي على المكاتب المعتادة المصنوعة من خشب البلوط المتهاالك ومنصة ومكتب معلّم وساعة حائط وصورة واحدة. كانت الصور تحدد الغرف

وكان تأثير ما قبل الرفائيلية<sup>(1)</sup> ساحقًا. أشار جلاهاد<sup>(2)</sup> الواقف مرتدياً درعًا كاملاً إلى الطريق أمام تلاميذ الصف الثالث. حثَّ سباق أتلانتا تلاميذ الصف الرابع، وأربك وعاء الريحان<sup>(3)</sup> تلاميذ الصف الخامس، وهكذا دواليك.

تم وضع كال وآرون في الصف السابع بسبب تقدمهما في السن، وصدما بحجم وعظمة المدرسة الغربية بعد ارتيادهما لمدرسة ريفية مكونة من غرفة واحدة.

لقد ترك بذخ وجود مدرس لكل صف انطباعًا عميقًا لديهما. بدا الأمر مسرفًا، ولكن كما هو الحال مع جميع البشر، لم تدم صدمتهما لأكثر من يوم واحد، وأعجبا بالأمر في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث لم يتذكرا أنهما ذهبا إلى أي مدرسة أخرى.

كانت المعلمة سمراء جميلة، ولم يكن لدى التوأم أي قلق فيما يتعلق بمسألة رفع الأيدي أو حجبتها. عمل كال على حل الأمر بسرعة وشرحا لآرون: «راقب معظم الأولاد، يرفعون أيديهم إذا كانوا يعرفون الإجابة، وإذا كانوا لا يعرفون فإنهم ينكمشون تحت الطاولة. أتعرف ماذا سنفعل؟»

«لا. ماذا؟»

---

(1) ما قبل الرفائيلية هي رابطة تشكلت من مجموعة من الرسامين والشعراء البريطانيين عام 1848م احتجاجاً على المستوى المتدني للفن الإنجليزي في القرن الثامن عشر، فكانت ثورة ضد التقاليد الفنية للأكاديمية الملكية بهدف استرجاع الفن البريطاني الذي اتمسك بالبساطة والقوة كما في الفن الايطالي قبل عصر رافائيل.

(2) السير جالاهاد فارس من النبلاء ومتذوق للفن مذكور في أساطير المائدة المستديرة للملك آرثر في القرون الوسطى من تاريخ بريطانيا. ظهر اسم جالاهاد في البداية في حكايات الكتاب المقدس المكتوب باللاتينية، وهي مجموعة من النثر الفرنسي المنسوب إلى العهد الآرثري الذي بدأ حوالي عام 1215م.

(3) لوحة إيزابيلا أو وعاء الريحان هي لوحة أنجزت في عام 1868 من قبل ويليام هولمان هنت وتصور مشهداً من قصيدة جون كيتس «إيزابيلا، أو وعاء الريحان». يصور البطلة إيزابيلا وهي تداعب الوعاء الذي دفنت فيه رأس حبيبها المقطوع لورنزو.

«حسنًا، لاحظت أن المعلمة لا تسأل من يرفع يده، بل تبحث عن الآخرين الذين لا يعرفون».

قال آرون: «هذا صحيح».

«اسمع، في الأسبوع الأول لن نرفع أيدينا، وبذلك تلاحظنا وتساءلنا وسنجيب بإجابات صحيحة. هذا سوف يفي. في الأسبوع الثاني لن نعمل وسنرفع أيدينا ولن نساءلنا. في الأسبوع الثالث، سنجلس هادئين، ولن نعرف أبدًا ما إذا كنا نعرف الإجابة أم لا. ثم ستركنا. هي لن تضيع وقتها في سؤال تلميذ يعرف الأجوبة».

نجحت طريقة كال. في وقت قصير لم تترك المعلمة التوأم فحسب بل وحصلت على سمعة جيدة تتعلق بالذكاء. في واقع الأمر، كانت طريقة كال مضيعة للوقت فكلما الصبيان كان يتعلم بسهولة.

كان كال قادرًا على تطوير نفسه في لعبة الكرات الرخامية وبدأ في جمع الكرات ومبادلتها في ساحة المدرسة. خلال فترة بسيطة أصبح لديه ما لا يقل عن خمسة وأربعين قطعة من مختلف الأحجام والألوان.

لاحظ كل من رأى التوأم اختلافهما عن الآخر وبدا الأمر محيرًا. كان كال ينمو بشكل جيد، بشرته داكنة، وشعره داكن. كان سريعًا واثقًا وغامضًا. على الرغم من أنه ربما حاول، إلا أنه لم يستطع إخفاء ذكائه. لقد أعجب الكبار بما بدا لهم نضجًا مبكرًا، وكانوا يشعرون بنوع من الخوف منه في الوقت ذاته. لم يكن أحد يحب كال كثيرًا ومع ذلك شعر الجميع بالخوف منه ومن خلال الخوف أبدوا الاحترام له. على الرغم من عدم وجود أصدقاء له، رحب به زملاؤه في الفصل وتولى منصب القيادة في ساحة المدرسة.

وكما نجح في إخفاء براعته، أخفى جروحه أيضًا. كان يُنظر إليه على أنه غليظ وقاس.



اجتذب آرون على الجانب الآخر الحب من كل صوب. بدا خجولاً وحساساً، وجذبت بشرته البيضاء المشربة بالحمرة، وشعره الأشقر، وعيونه الزرقاء اللوزية الانتباه. في باحة المدرسة تسبب جماله الشديد في مواجهته لبعض الصعوبات حتى اكتشف المشرفون أن آرون كان مقاتلاً عنيداً وشجاعاً، خاصة عندما سمعوا صراخه، وآثروا تركه وشأنه. لم يحاول آرون إخفاء سجيته، فقط مظهره الوديع يخفي ذلك. كان جسده لا يستشعر الألم كما لا يستشعر عقله التفاصيل الدقيقة الصغيرة للأمر.

عرف كالمشقيقة وتمكن من التعامل معه عن طريق إبقائه بلا أي توازن. لكن هذا لم ينجح إلا إلى حد معين. كان كالمعلم متى يتجنب ومتى يهرب. أدى تغيير الاتجاه إلى إرباك آرون، لكن هذا كان الشيء الوحيد الذي أربكه. كان يرسم طريقه ويمشي فيه دون الاهتمام بما يوجد على جانبيه. كانت عواطفه قليلة وثقيلة، وكل ذلك كان مخفياً خلف وجهه الملائكي، ولهذا لم يكن لديه أي قلق أو مسؤولية أكثر من التزلف بالبقع التي ترقش بشرته اليافعة.

## 2

في أول يوم في المدرسة انتظر آرون فترة الاستراحة بفارغ الصبر. ذهب إلى قسم الفتيات للتحدث مع أبراء. لم تستطع مجموعة من الفتيات الصاخبات طرده. استلزم الأمر مدرساً بالغاً لإجباره على العودة إلى جانب الأولاد. لم يستطع اللحاق بها في الظهيرة لأن والدها جاء واصطحبها إلى المنزل لتناول طعام الغداء. انتظرها خارج بوابة باحة المدرسة بعد انتهاء الدوام. خرجت محاطة بالفتيات. كان وجهها مرتبكاً ولم تظهر أي إشارة على أنها كانت تتوقع حضوره. كانت أجمل فتاة في المدرسة، لكن ليس مؤكداً إن كان آرون قد انتبه لذلك.

ظلت جماعة الفتيات تسير ببطء هناك، وسار آرون على طول ثلاث

خطوات خلفهن، صبورًا وغير محرّج حتى عندما وجهت الفتيات عددا من الإهانات نحوه من فوق أكتافهن. انعزلت كل فترة إحداهن عائدة إلى منزلها وبقيت ثلاث فتيات فقط مع أبرا عندما وصلت إلى البوابة البيضاء لفناء منزلها واستدارت. حدقت صديقاتها في وجهه لحظة، وضحكن ثم مضين في طريقهن.

جلس آرون على حافة الرصيف. بعد بعض الوقت رُفع المزلاج وفتحت البوابة البيضاء لتخرج أبرا. سارت عبر الممشى ووقفت فوق رأسه. «ماذا تريد؟»

نظرت إليها عيون آرون الواسعة: «أنت لستِ مخطوبة لأحد؟»  
قالت «يا لك من سخيف».

كافح حتى وقف على قدميه: «أعتقد أنه سيمر وقت طويل قبل أن تتمكن من الزواج».  
«من يريد أن يتزوج؟»

لم يرد آرون. ربما لم يسمعها من الأساس. سار بجانبها.

تحركت أبرا بخطوات حازمة ومدروسة ونظرت للأمام مباشرة. كانت في تعابيرها حكمة وعدوية وبدت عميقة التفكير. سار آرون بجانبها ولم يرفع عينيه عن وجهها قط، بدا انتباهه مرتبطاً بوجهها بخيط مشدود.

سارا بصمت إلى أن وصلا إلى مدرسة الأطفال وهناك انتهى الرصيف. استدارت أبرا يميناً وقادت الطريق عبر بقايا حقل القش، سارا وهما يسحقان الكتل السوداء تحت أقدامهما.

على حافة الحقل كان يوجد بيت ضخ صغير وشجرة صفصاف ازدهرت بجانبه، تغذيها المياه المتدفقة. كانت الأغصان الطويلة للصفصاف تتدلى على الأرض تقريباً.

فرّقت أبراً تلك الأغصان التي تشبه الستائر ودخلت بيتاً تكوّن من أوراق الشجر التي غطت الأغصان النازلة بالقرب من جذع الصفصافة. كانت الرؤية ممكنة من خلال تلك الأوراق، ولكن داخلها كان محمياً بشكل لطيف ودافئ وآمن بينما دخلتها أشعة شمس الظهرية الصفراء من خلال الأوراق.

جلست أبراً على الأرض، أو بالأحرى بدت وكأنها تنجرف للأسفل، واستقرت تنورتها حولها. طوت يديها في حجرها كما لو كانت تصلي وجلس آرون بجانبها. قال مرة أخرى: «أعتقد أنه سيمر وقت طويل قبل أن تتمكن من الزواج». قالت أبراً: «لن يكون وقتاً طويلاً»  
«أتمنى لو كان الآن».

قالت أبراً: «لن يمر وقت طويل».

سأل آرون: «هل تعتقدين أن والدك سيسمح لك بالزواج مني؟»  
كانت فكرة جديدة بالنسبة لها، التفتت ونظرت إليه: «ربما لن أسأله».  
«ولكن والدتك؟»

قالت: «دعنا لا نزعجهما، سيعتقدان أنه أمر مضحك أو سيء. هل يمكنك الاحتفاظ بسر؟»

«نعم بالتأكيد. يمكنني الاحتفاظ بالأسرار أفضل من أي شخص آخر. ولدي البعض منها أيضاً». قالت أبراً: «حسناً إذاً، أضف هذا السر إلى البقية».  
التقط آرون غصيناً ورسم خطأً على الأرض المظلمة: «أبراً، هل تعرفين كيف تحصلين على أطفال؟»

قالت «نعم، من قال لك عن هذا؟»

«لي. شرح الأمر برمته. أعتقد أنه لا يمكننا إنجاب أي أطفال لفترة طويلة».  
ارتفعت زوايا فم أبراً بحكمة متعالية: «لن يكون وقتاً طويلاً».

قال آرون مرتبًا: «سيكون لدينا منزل يوماً ما. سندخله ونغلق الباب وسيكون الأمر رائعاً. لكن ذلك سيكون بعد وقت طويل».

مدت أبرا يدها ولمست ذراعه قائلة: «لا تقلق بشأن الأوقات الطويلة، هذا نوعاً ما منزل. يمكننا اللعب والعيش فيه بينما ننتظر. ستكون زوجي ويمكنك مناداتي بزوجتي».

لقد جربها بينه وبين نفسه ثم بصوت عالٍ قال: «زوجتي».

قالت أبرا: «سيكون الأمر أشبه بالتمرين».

ارتجفت ذراع آرون تحت يدها ووضعتة في حضنها.

قال آرون فجأة: «بينما نتدرب، ربما يمكننا فعل شيء آخر».

«ماذا؟»

«ربما لن يعجبك ذلك».

«ما هو؟»

«ربما يمكننا التظاهر أنك أُمي». قالت «هذا سهل».

«هل بإمكانك؟»

«بل أحب ذلك. هل تريد أن نبدأ الآن؟»

قال آرون «بالتأكيد، كيف تريد أن نفعل هذا؟»

قالت أبرا: «أوه، أستطيع أن أخبرك ذلك». وضعت نغمة رقراقة في صوتها وقالت: «تعال يا طفلي، ضع رأسك في حضن أمك. تعال يا ولدي الصغير. ماما ستحملك». وجهت رأسه للأسفل، ودون سابق إنذار بدأ آرون في البكاء ولم يستطع التوقف، بكى بهدوء ومسحت أبرا الدموع المنهمرة على خده بحافة تنورتها.

تسللت الشمس إلى مكان غروبها خلف نهر ساليناس، وبدأ طائر يغني

بشكل رائع في الحقل. كان المكان جميلاً تحت أغصان شجرة الصفصاف بما يفوق أي شيء آخر في هذا العالم.

ببطء شديد توقف بكاء آرون، وشعر بالراحة والدفء. قالت أبرأ: «ها هو طفلي الرائع، دع أمك تمشط شعرك للخلف».

جلس آرون وقال بشيء من التشنج: «أنا لا أبكي إلا إذا كنت غاضباً. لا أعرف لماذا بكيت».

سألته أبرأ: «هل تتذكر والدتك؟»

«لا. لقد ماتت عندما كنت طفلاً».

«ألا تعرف كيف بدت؟»

«لا».

«ربما رأيت صورة لها».

«لا، أقول لك. ليست لدينا أي صور. سألت لي وقال لا توجد صور - لا، كال هو من سأل لي».

«متى ماتت؟»

«بعد ولادتي أنا وكال».

«ماذا كان اسمها؟»

«لي قال إن اسمها كان كاثيري. لماذا كل هذه الأسئلة؟»

«واصلت أبرأ بهدوء: «كيف كانت سحتها؟»

«ماذا؟»

«هل كان شعرها فاتحاً أم غامقاً؟»

«لا أعرف».

«ألم يخبرك والدك؟»

«نحن لم نسأله قط».

التزمت أبر الصمت، بعد فترة سألتها آرون: «ما الأمر، هل قضم القط لسانك؟»

لكنها بقيت صامته وهي تتأمل غروب الشمس.

سأل آرون باضطراب: «هل أنتِ غاضبة مني» - وأضاف بتردد - «يا زوجتي؟»  
«لا أنا لست غاضبة. أنا فقط متعجبة».

«مم؟»

«من أمر ما» بدا وجه أبر الحازم منشغلاً بمواجهة حجة داخلية هائجة.  
سألته: «كيف هي الحياة دون وجود أم؟»  
«لا أعرف. ربما مثل أي شيء آخر».  
«أعتقد أنك لن تعرف الفرق بكل حال».

«ربما أفعل. أتمنى أن تتحدثي بوضوح. أنتِ تتحدثين مثل ألغاز الصحف».  
واصلت أبر بتركيز، «أتريد أن تكون لديك أم؟»

قال آرون: «هذا جنون، بالطبع أفعل، الجميع يفعل. أنت لا تحاولين جرح مشاعري أليس كذلك؟ يفعل كال ذلك أحياناً ثم يضحك».

نظرت أبر بعيداً عن الشمس الغاربة. واجهت صعوبة في رؤية ما وراء البقع الأرجوانية التي تركها الضوء في عينيها. «قلت قبل قليل أنه يمكنك الاحتفاظ بالأسرار».

«يمكنني نعم».

«حسناً، هل لديك سر بخطورة أسرار التسميم وقطع الحناجر؟»  
«بالتأكيد لدي».

قالت أبر بهدوء: «أخبرني يا آرون». نطق اسمها بغنج.

«أخبرك بماذا؟»

«أخبرني بأعمق سر تعرفه.»

تراجع آرون عنها في حالة ذعر: «ماذا؟ لن أفعل، بأي حق تطالبين مني هذا؟ لن أخبر أحداً.»

الحتّ قائلة: «هيا يا صغيري - أخبر أمك.»

تجمعت الدموع في عينيه مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت دموع غضب. قال: «لا أعرف إن كنت أريد الزواج منك. أعتقد أنني سأذهب إلى المنزل الآن.»

وضعت أبرا يدها على معصمه وقد فقد صوتها غنجه. أردت أن أتأكد. أعتقد أن بإمكانك الاحتفاظ بالأسرار بشكل جيد.»

«لماذا فعلت ذلك؟ أنا غاضب الآن. ولا أشعر أنني بخير.»

قالت: «سأخبرك بسر.»

«آها!» سخر منها «من الذي لا يستطيع الاحتفاظ بالأسرار الآن؟»

قالت: «كنت أحاول أن أقرر. أعتقد أنني سأخبرك بهذا السر لأنه قد يفيدك ويجعلك سعيداً.»

«من طلب منك ألا تخبري أحداً عن هذا السر؟»

قالت «لا أحد. أنا طلبت ذلك من نفسي.»

«حسناً، أعتقد أن هذا مختلف قليلاً. ما هو سرّك؟»

استندت الشمس الحمراء على حافة سطح منزل تولوت الواقع على طريق بلانكو، ومدخنة تولوت بدت وكأنها إبهام أسود ضخمة.

قالت أبرا بهدوء: «اسمع، هل تذكر عندما أتينا إلى منزلكم في ذلك اليوم؟»

«بالتأكيد!»

«حسناً، في طريق العودة نمت، وعندما استيقظت لم يكن أبي وأمي يعلمان أنني مستيقظة. كانا يتحدثان وقالوا إن والدتك لم تمت. قالا إنها ذهبت بعيداً، وأن أمراً سيئاً لابد أن يكون قد حدث لها ودفعها للرحيل».

قال آرون بصوت عصبى: «إنها ميتة».

«ألن يكون لطيفاً لو لم تكن ميتة؟»

«أبي يقول إنها ماتت. إنه ليس كاذباً».

«ربما يعتقد أنها ماتت».

قال: «أعتقد أنه سيعرف إن لم تكن كذلك» لكن كان هناك عدم يقين في نبرته.

قالت أبراً: «أليس من الجميل أن نجدها؟ افترض أنها فقدت ذاكرتها أو شيئاً من هذا القبيل. لقد قرأت عن ذلك. يمكننا العثور عليها وهذا سيجعلها تتذكر». اشتعل الخيال الرومانسي فيها مثل موجة مد وحملها بعيداً.

قال آرون: «سأسأل والدي».

قالت بصرامة: «آرون. ما قلته لك هو سر».

«من يقول ذلك؟»

«أنا أقول. والآن كرر من بعدي: «سأتجرع السم وأقطع حنجرتي إذا بحث بذلك».

تردد للحظة ثم كرر: «سأتجرع السم وأقطع حنجرتي إذا بحث»

قالت: «الآن ابصق في راحة يدك - هكذا - أعطني يدك - أترى؟ - نمزج بصاقنا معاً، الآن امسح بيدك على شعرك لتجفيفها» ثم قالت بجدية: «والآن أود فقط أن أراك تخبر أحداً بذلك. كنت أعرف فتاة باحت بسر بعد هذا القسم واحترقت في حريق في حظيرة».

اختفت الشمس خلف منزل تويلر وهي تجر خلفها نورها الذهبي، وظهر بريق نجم المساء فوق جبل تورو.



قالت أبراً: «سوف يسلخون جلدي حية، هيا، عجل! أراهن أن والدي قد أطلق صافرة الكلب من أجلي. سيجلديني».

نظر إليها آرون غير مصدق: «جلد! لا يعقل أنهم يجلدونك؟»  
«هذا ما تظنه!»

قال آرون بشغف: «فقط دعهم يحاولون. إذا حاولوا جلدي أخبرهم أنني سأقتلهم». كانت عيونه الزرقاء الواسعة مسحوبة ولا معة. قال: «لن يجلد أحد زوجتي».

وضعت أبراً ذراعها حول رقبتة عند الغسق تحت شجرة الصفصاف وقبّلتها على فمه المفتوح هامسة: «أحبك يا زوجي» ثم استدارت واندفعت خارجة وهي ترفع تنورتها فوق ركبتيها وتركض نحو المنزل.

### 3

عاد آرون إلى جذع شجرة الصفصاف وجلس على الأرض متكئاً على اللحاء. كان عقله مشوشاً وهناك تقلبات مؤلمة في بطنه. حاول أن يفرز شعوره في أفكار وصور حتى يختفي الألم. لم يستطع عقله البطيء استيعاب الكثير من الأفكار والمشاعر في وقت واحد. كان الباب مغلقاً على كل شيء ما عدا الألم الجسدي. بعد فترة انفتح الباب قليلاً وسمح بدخول شيء ما ليتم فحصه ثم آخر وآخر، حتى تم استيعاب كل شيء تواليًا. خارج عقله المنغلق كان هناك شيء ضخيم يطالب بالدخول. أوقفه آرون حتى النهاية.

أولاً، سمح لأبراً بالدخول وتجاوز هندامها، ووجهها، وملمس يدها على خده، والرائحة التي تنبعث منها والتي تشبه رائحة الحليب أحياناً والعشب الطازج أحياناً. تأملها وشعر بها وسمعها وتنشقها من جديد. فكر في مدى نظافتها، في يديها وأظافرهما، وكيف كانت مباشرة وصريحة بعكس زميلاتها الضاحكات في المدرسة.

ثم فكر بها وهي تضم رأسه عندما بكى بلهفة وكأنه كان بحاجة إلى شيء  
وشعر أنه يحصل عليه، بل ربما كان بكاؤه بسبب حصوله عليه.

بعد ذلك فكر في خدعتها - اختبارها له. تساءل عما كانت ستفعل لو أخبرها  
هو بسر. ما السر الذي كان يمكن أن يخبرها به لو رغب بذلك؟ لم يتذكر أي سر  
باستثناء السر الذي كان يدق على الباب ليخطر بباله.

السؤال الأكثر حدة الذي طرحته كان: «كيف هي الحياة دون وجود أم؟»  
انزلق إلى عقله. كيف شعرت؟ لم أشعر بأي شيء. آه، لكن في المدرسة،  
في عيد الميلاد، وحفل التخرج، عندما حضرت أمهات الآخرين إلى تلك  
المناسبات - حضرت معهن الصرخة المكتومة والشوق الصامت. هكذا كان  
الحال.

كانت سالي ناس محاطة ومخرقة بالمستنقعات والبرك المملوءة بالحشائش،  
وفي كل بركة ولدت آلاف الضفادع. في المساء كان الجو يصخب بغنائها  
لدرجة أنها كانت نوعاً من الصمت الهائج. كان حجاباً، وخلفية، وكان توقفه  
المفاجئ بعد قصف الرعد أمراً صادماً. كان من الممكن أن يستيقظ سكان  
سالي ناس إذا توقف صوت الضفدع في الليل، وشعروا أن هناك ضوضاء كبيرة.  
يبدو أن أغاني ملايين الضفادع كانت تحمل إيقاعاً وميزاناً متقناً، وربما وظيفة  
الأذنين تكمن في القيام بذلك تماماً كما هو عمل العيون، أن تجعل النجوم  
تلمع.

أصبح الظلام شديداً تحت شجرة الصفصاف. تساءل آرون عما إذا كان  
مستعداً لمواجهة الأمر الجلل، وبينما كان يتساءل، تسلل إليه ودخل.

كانت والدته على قيد الحياة. غالباً ما كان يتخيلها مستلقية تحت الأرض،  
جسدها بارد وغير متعفن. ولكن هذا لم يكن صحيحاً. كانت تتحرك وتتحدث  
في مكان ما، كانت تحرك يديها، كانت عيونها مفتوحة. وفي خضم هذا الطوفان  
نزل عليه حزن وشعور بالضياع وشعور بخسارة مروعة. كان في حيرة من أمره،

أخذ يفتش سحابة الحزن. إذا كانت والدته على قيد الحياة فهذا يعني أن والده كان كاذبًا. إذا كان أحدهما على قيد الحياة فقد مات الآخر. قال آرون بصوت عالٍ تحت الشجرة، «أمي ماتت. لقد دُفنت في مكان ما في الشرق».

في الظلام رأى وجه لي وسمع خطابه اللطيف. تمتع لي باحترام للحقيقة يصل إلى حد التبجيل، ومن المنطقي أن يحمل الكره لنقيض ذلك - الكذب. لقد أوضح للأولاد ما يقصده بالضبط. إذا كان هناك شيء غير صحيح ولم تكن تعرفه، فهذا خطأ. لكن إذا عرفت أمرًا صحيحًا وقمت بتغييره إلى آخر خاطئ، هنا كلاهما يصبح بغيضًا.

قال لي: «أعلم أنه في بعض الأحيان يتم استخدام الكذب بنوايا حسنة. لكن لا أعتقد أن النتيجة تكون حسنة. يمكن لألم الحقيقة السريع أن يزول، لكن ألم الكذب البطيء لا ينتهي أبدًا». عمل لي بصبر وبطء ونجح في بناء آدم في عيني التوأم باعتباره مركز وأساس وجوهر الحقيقة.

هز آرون رأسه في الظلام بشدة في حالة عدم التصديق: «إذا كان والدي كاذبًا، فإن لي كاذب أيضًا». كان يشعر بحيرة. لم يكن لديه من يسأله. كان كال كاذبًا، لكن إدانة لي جعلت كال كاذبًا ذكيًا. شعر آرون أن أحدا ما لا بد أن يموت - والدته أو عالمه.

برز أمامه الحل فجأة. أبرام لم تكذب عليه. لقد أخبرته فقط بما سمعته، ووالداها أيضًا سمعا عن ذلك فحسب. وقف على قدميه ودفع والدته إلى الموت وأغلق عقله عليها.

تأخر على العشاء. قال «كنت برفقة أبرام». بعد العشاء، عندما جلس آدم في كرسيه المريح الجديد يطلع على فهرس ساليانس، شعر بلمسة على كتفه ونظر إلى الأعلى: «ما الأمر يا آرون؟».

قال آرون، «ليلة سعيدة يا أبي».

## الفصل 37

### 1

غالباً ما يكون شهر فبراير في ساليانس ممطراً وبارداً ومليئاً بالكآبة. تهطل الأمطار بغزارة، والنهر يفيض في هذا الوقت. كان شهر فبراير من عام 1915 عامًا مليئًا بالمياه.

كانت أسرة تراسك مستقرة في ساليانس. بمجرد أن تخلى لي عن حلمه المليء بالكتب، صنع لنفسه مكانًا جديدًا في المنزل الواقع بجوار مخبز رينو. في المنزل القديم لم يبق لي بتفريغ أغراضه، لأنه كان يعيش على فكرة انتقاله إلى مكان آخر. هنا، ولأول مرة في حياته، بنى لنفسه منزلاً مريحاً ودائماً.

بدأ بغرفة النوم الكبيرة الأقرب إلى باب الشارع. لجأ إلى مدخراته. لم يسبق له أن أنفق بنسًا واحدًا على غير الضروريات حيث كان قد خصص كل أمواله لمكتبته. لكنه الآن اشترى سريراً صلباً ومكتبًا، وقام ببناء أرفف كتب وفك كتبه كما اشترى بساطاً ناعماً وعلق اللوحات على الجدران. وضع كرسيًا عميقاً ومريحاً تحت أفضل مصباح قراءة يمكن أن يجده. وأخيرًا اشترى آلة كتابة وشرع في تعلم كيفية استخدامها.

بعد أن تخلص من تقشفه الخاص أعاد تشكيل منزل تراسك ولم يعارضه آدم مطلقاً. أدخل إلى المنزل موقد غاز وعدة أسلاك كهربائية وهاتفًا. أنفق أموال آدم بلا رحمة - أثاث وسجاد جديد وسخان مياه يعمل بالغاز وبراد كبير. في وقت قصير لم يكن هناك منزل في ساليانس مجهز كمَنْزِل آدم. دافع لي عن

نفسه أمام آدم قائلاً: «لديك الكثير من المال. سيكون من العار عدم الاستمتاع به».

احتج آدم قائلاً: «أنا لا أشكو، أريد فقط شراء شيء ما أيضاً. ماذا أشتري؟»  
«لماذا لا تذهب إلى متجر الموسيقى في لوغون وتستمع إلى أحد الفونوغرافات الجديدة؟»

قال آدم: «أعتقد أنني سأفعل ذلك». واشترى آلة فيكتور فيكتورولا، وهي آلة قوطية طويلة، وكان يذهب بانتظام ليرى ما هي التسجيلات الجديدة التي وصلت.

أخرج التطور المتنامي في تلك الفترة آدم من قوقعته. اشترك في مجلة الأطلسي الشهرية وناشيونال جيوغرافيك. انضم إلى الماسونيين وفكر في الانضمام إلى نادي الأيائل الاجتماعي. لقد سحره البراد الجديد فاشترى كتاباً عن التبريد وبدأ بدراسته.

كانت الحقيقة هي أن آدم كان بحاجة إلى عمل. لقد استيقظ من غفوته الطويلة وشعر بحاجة للقيام بشيء ما.

قال لـ لي: «أعتقد أنني سأبدأ بالعمل».  
«لا تحتاج إلى ذلك. لديك ما يكفي للعيش».  
«لكنني أود أن أفعل شيئاً».

قال لي: «هذا أمر مختلف، هل تعرف ما تريد القيام به؟ لا أعتقد أنك ستكون جيداً في العمل».

«ولم لا؟»

قال لي «مجرد فكرة».

«لي، أريدك أن تقرأ مقالاً قرأته يقول إنهم قد استخرجوا حيوان ماستودون مدفوناً في سيبيريا. كان مدفوناً تحت الجليد آلاف السنين. وما زال لحمه جيداً».

ابتسم لي له وقال: «هناك أمر يدور في فكرك، ماذا لديك في كل تلك الأكواب الصغيرة في البراد؟»  
«أشياء مختلفة».

«هل هذا هو العمل الذي تتحدث عنه؟ بعض الكؤوس لها رائحة كريهة».  
قال آدم: «إنها فكرة لا يمكنني إزاحتها عن رأسي على ما يبدو. لا أستطيع تجاوز فكرة أنه يمكنك الاحتفاظ بالأشياء إذا وضعتها في برودة كافية».  
قال لي: «دعنا فقط لا نحتفظ بلحم حيوان ماستودون في برّادنا».

لو كان آدم قد خلق آلاف الأفكار كما كان سام هاملتون يفعل، لكانت قد هربت جميعها، لكن لم تكن بجعبته سوى فكرة واحدة. بقي الماستودون المجمد في ذهنه. أكوابه الصغيرة من الفاكهة، الحلوى، وقطع اللحم المطبوخة والنيئة بقيت في البراد. اشترى كل كتاب متاح عن البكتيريا وبدأ بطلب المجلات التي تطبع مقالات ذات طبيعة علمية معتدلة. وكما هو الحال بالنسبة لرجل لديه فكرة واحدة، أصبح مهووساً بها.

كانت في ساليناس شركة ثلج صغيرة، كانت كافية لتزويد المنازل القليلة بصناديق الثلج وخدمة صالات الآيس كريم. كانت عربة الجليد التي تجرها الخيول تمر بالمناطق كل يوم.

بدأ آدم في زيارة مصنع الثلج وسرعان ما نقل أكوابه الصغيرة إلى غرف التجميد. تمنى من كل قلبه لو أن سام هاملتون كان على قيد الحياة لمناقشة البرودة معه. كان يعتقد أن سام سيغطي الميدان بسرعة كبيرة.

كان آدم يسير عائداً من مصنع الثلج بعد ظهر يوم ممطر وهو يفكر في سام هاملتون، عندما رأى ويل هاملتون ذاهباً إلى حانة أبوت. تبعه واتكأ على البار بجواره. «لماذا لا تأتي وتتناول بعض العشاء معنا؟»

قال ويل: «أود ذلك، لدي صفقة أحاول إبرامها. إذا انتهيت في الوقت المناسب فسأمر. هل هناك شيء مهم؟»

«في الواقع لا أعرف. لقد كنت أفكر في أمر ما وأود أن أطلب نصيحتك». كان تقريباً كل عرض عمل في المقاطعة يصل إلى ويل هاملتون عاجلاً أم آجلاً. ربما كان قد اعتذر لو لم يتذكر أن آدم كان رجلاً ثرياً. كانت الفكرة شيئاً، لكن دعمها بالمال كان شيئاً مختلفاً تماماً «لن تقبل عرضاً لبيع مزرعتك، أليس كذلك؟» سأل.

«حسناً، الأولاد، ولا سيما كال، يحبون المكان كثيراً. أعتقد أنني سأتمسك به».

«أعتقد أنه يمكنني العمل عليها لك».

«لا، لقد قمت بتأجيرها بالفعل، سأتمسك بها».

قال ويل: «إذا لم أستطع الحضور لتناول العشاء، فقد أتمكن من الحضور بعد ذلك».

كان ويل هاملتون رجل أعمال كبيراً للغاية. لم يكن أحد يعرف بالضبط طبيعة نشاطاته ومقدار ثروته، ولكن كان معروفاً عنه أنه رجل ذكي وغني نسبياً. صفقاته التجارية لم تكن معروفة لأحد. كان جزء من سياسته هو أن يكون مشغولاً دائماً. تناول العشاء وحده في الحانة. ثم بعد وقت مدروس سار في شارع سنترال أفينيو ودق جرس منزل آدم تراسك.

كان التوأم قد ذهباً إلى الفراش. جلس لي بقرب سلته الرتيبة وهو يرتق الجوارب السوداء الطويلة التي كان يرتديها التوأم في المدرسة، وكان آدم يقرأ مجلة علمية. سمح له بالدخول ووضع كرسيًا له. أحضر لي قدرًا من القهوة وعاد إلى عمله.

استقر في الكرسي وأخرج سيجارًا وأشعله وانتظر آدم ليبدأ بالكلام.

«طقس لطيف. كيف حال والدتك؟» قال آدم.

«بخير. تبدو أصغر سنًا كل يوم. لا بد أن الولدان يكبران».

«أوه، نعم. سيمثل كال في مسرحيته المدرسية. إنه ممثل مميز. وآرون طالب جيد. يريد كال أن يتجه إلى الزراعة».

«لا حرج في ذلك إذا كنت تفعله بشكل صحيح. يمكن للبلد الاستفادة من بعض المزارعين المتطلعين». انتظر ويل بصبر متسائلاً عما إذا كان من الممكن أن يكون مقدار أموال آدم مبالغاً فيه. هل من الممكن أن آدم يستعد الآن لطلب اقتراض المال؟ فكر ويل بسرعة في المبلغ الذي سيقرضه إياه والمبلغ الذي يمكنه اقتراضه. لم تكن الأرقام هي نفسها، ولا سعر الفائدة. كل ذلك وآدم لم يتحدث. نما قلق ويل. قال: «لا أستطيع أن أبقى طويلاً، أخبرت زميلاً أنني سألتقي به لاحقاً الليلة».

اقترح آدم «تناول فنجاناً آخر من القهوة».

«لا شكراً. القهوة تبقيني مستيقظاً. هل كان لديك شيء أردت التحدث عنه؟»

قال آدم: «كنت أفكر في والدك وأعتقد أنني وددت التحدث إلى أحد من آل هاملتون».

استرخى ويل قليلاً في كرسيه: «لقد كان متحدثاً عظيماً ورائعاً».

قال آدم: «بطريقة ما كان يجعل المرء أفضل مما هو عليه».

علق لي: «ربما يكون أفضل متحدث في العالم هو ذلك الذي يساعد الآخرين على التحدث».

قال ويل: «من الطريف سماعك وأنت تتحدث بهذا الشكل، كنت لأقسم بالرب أنك كنت تتحدث بلغة هجين».

قال لي: «كنت معتاداً على ذلك، أعتقد أنه كان الغرور». ابتسم لآدم ثم قال لويل: «هل سمعت ذلك الخبر عن استخراج حيوان مدفون تحت الجليد في مكان ما في سيبيريا؟ لقد مرت مائة ألف سنة ولحم هذا الحيوان ما زال طازجاً».



«ماستودون؟»

«نعم، نوع من الأفيال لم يعيش على الأرض لفترة طويلة».

«ولحمه، ما زال طازجاً؟»

قال لي: «كما قطعة من لحم الخنزير».

«هذا مثير للغاية» قال ويل.

ضحك آدم: «اعتقد أنني موارب، كل ما في الأمر هو أنني تعبت من مجرد

الجلوس. أريد العمل على شيء ما، استغل فيه وقتي».

«لماذا لا تزرع أرضك؟»

«لا. الزراعة ليست من اهتماماتي. كما ترى يا ويل أنا لست رجلاً يبحث

عن وظيفة. أنا أبحث عن عمل خاص بي. لست بحاجة إلى وظيفة».

تخلص ويل من حذره: «حسناً، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟»

«فكرت في إخبارك عن فكرة تدور بذهني، وربما تخبرني برأيك كرجل

أعمال».

«بالطبع، أي شيء يمكنني تقديمه».

قال آدم: «كنت أبحث في مجال التبريد. خطرت لي فكرة لا يمكنني

التخلص منها. أذهب للنوم وهي في رأسي واستيقظ وتعود لي مباشرة. لم

تستحوذ علي فكرة بهذا الشكل من قبل. إنها فكرة كبيرة نوعاً ما. وربما تكون

مليئة بالثقوب».

أرخى ويل ساقيه وسحب سرواله من حيث كان يقيده: «هيا انطلق».

قال آدم: «البلد كله يتغير. لن يواصل الناس العيش بالطريقة التي اعتادوا

عليها. هل تعلم أين يوجد أكبر سوق للبرتقال في الشتاء؟»

«لا. أين؟»

«مدينة نيويورك، لقد قرأت ذلك. ألا تعتقد أن الناس في المناطق الباردة من البلاد يريدون أشياء قابلة للتلف في الشتاء - مثل البازلاء والخس والقرنبيط؟ في جزء كبير من البلاد لا يمكن توفير هذه الخضار لأشهر وأشهر. هنا في وادي ساليانس يمكننا توفيرها طوال العام».

قال ويل: «حسنًا هنا الوضع مختلف عن هناك، ما هي فكرتك؟»

«لقد جلب لي إلى المنزل براد كبير أثار اهتمامي. وضعت أنواعًا مختلفة من الخضار فيه. وقد قمت بحفظها بطرق مختلفة. هل تعلم يا ويل أنك إذا قطعت ثلجًا جيدًا ووضعت رأسًا من الخس فيه ولففته بورق مشمع فسيبقى لمدة ثلاثة أسابيع ويخرج طازجًا وجيدًا».

قال ويل بحذر: «أكمل».

«حسنًا، تعرف أن السكك الحديدية لديها عربات لنقل الفاكهة، لقد ذهبت وألقيت نظرة عليها وهي جيدة جدًا. هل تعلم أنه يمكننا شحن الخس مباشرة إلى الساحل الشرقي في منتصف الشتاء؟ كنت أفكر في شراء مصنع الثلج هنا في ساليانس ومحاولة شحن بعض المواد».

«هذا سيكلفك الكثير من المال».

قال آدم: «لدي الكثير من المال».

ضغط ويل هاملتون على شفته بغضب: «لا أعرف لماذا أتورط في هذا، أعرف أفضل منك».

«كيف؟»

قال ويل «انظر، عندما يأتي رجل لي للحصول على نصيحة حول فكرة، أعلم أنه في الواقع لا يريد النصيحة، بل يريدني أن أتفق معه. وإذا أردت الحفاظ على صداقته أقول له إن فكرته جيدة وأمضي قدمًا. لكنني معجب بك وأنت صديق لعائلتي، لذلك سأقوم بانتزاع نفسي».

ترك لي رتقه، وحرك سلة الخياطة على الأرض، ونزع نظارته.

احتج آدم: «ما الذي يزعجك في هذا الأمر؟»

قال ويل: «أنحدر من عائلة أفرادها من المخترعين. كانت لدينا أفكار لتناول الإفطار. كانت لدينا أفكار بدلاً من الإفطار. كان لدينا الكثير من الأفكار التي أنستنا ضرورة كسب المال لشراء البقالة. عندما تقدمنا قليلاً، حصل والدي، أو توم، على براءة اختراع لشيء ما. أنا الوحيد في العائلة، باستثناء والدتي، الذي لم تكن لديه أفكار، وأنا الوحيد الذي كسب المال في الواقع. كانت لدى توم أفكار حول مساعدة الناس، أفكار بائسة وأقرب الى الاشتراكية. إن أخبرني أنك لا تهتم بجني الأرباح فسأرمي رأسك بوعاء القهوة هذا».

«في الحقيقة لا أهتم كثيراً».

«توقف عند هذا الحد يا آدم. إذا كنت تريد إهدار أربعين أو خمسين ألف دولار بسرعة فما عليك سوى المضي قدماً في فكرتك. لكنني أقول لك الآن دع فكرتك اللعينة هذه تموت وأهل التراب عليها».

«ما الخطأ فيها؟»

«كل شيء فيها خطأ. الناس في الشرق ليسوا معتادين على استهلاك الخضار في الشتاء. لن يشتروها. إذا تعطلت شاحنات النقل ستخسر الشحنة. يا يسوع المسيح! أشعر بالجنون عندما يحاول الصغار الانخراط في سوق العمل بسبب فكرة».

تنهد آدم. قال: «أنت تجعل سام هاملتون يبدو وكأنه مجرم».

«حسنًا، لقد كان والدي وأنا أحببته، لكنني تمنيت دائماً لو أنه ترك تلك الأفكار وشأنها». نظر ويل إلى آدم ورأى الدهشة في عينيه، هنا خجل ويل وهز رأسه ببطء: «لم أقصد إهانة أهلي، أعلم أنهم كانوا أناسا طبيين. لكن نصيحتي لك هي التوقف. دع موضوع التبريد وشأنه».

استدار آدم ببطء إلى لي. «هل لدينا المزيد من فطيرة الليمون التي تناولناها على العشاء؟» سأل.

قال لي «لا أعتقد ذلك. أعتقد أنني سمعت الفئران في المطبخ. لديك نصف لتر من الويسكي».

«حقاً؟ لماذا لا نتناول ذلك؟»

قال ويل وهو يحاول أن يضحك على انفعاله: «يبدو أن الحماس غمرني، سيفيدني بعض الشراب». كان وجهه أحمر نارياً وكان صوته متوتراً في حلقه. ثم قال «لقد سمنت كثيراً».

تناول مشرويين واسترخى، وبينما جلس بشكل مريح وجه آدم: «بعض الأشياء لا تتغير قيمتها أبداً يا آدم. إذا كنت تريد استثمار الأموال في شيء ما، فلتنظر إلى العالم حولك. ستستمر الحرب في أوروبا لفترة طويلة، وعندما تكون هناك حرب يكون هناك جوع. لا أقول إن الأمر كذلك الآن، لكن لن أتفاجأ إذا دخلنا فيها. لا أتق في ويلسون<sup>(1)</sup> هذا - فهو لا يملك سوى النظريات والكلمات الرنانة.

وإذا دخلنا فيها ستكون هناك ثروات تتحقق من الأطعمة غير القابلة للتلف. خذ الأرز والذرة والقمح والبقول، فهي لا تحتاج إلى ثلج. بالإمكان الاحتفاظ بها ويمكن للناس أن يظلوا على قيد الحياة من خلالها. أود أن أقول إنك لو تزرع الفاصوليا بالكامل في أرضك وتحفظ بها، فلن يضطر أولادك إلى القلق بشأن المستقبل. سعر الفاصوليا يصل إلى ثلاثة سنتات الآن. إذا دخلنا الحرب فلن أتفاجأ إذا وصلت إلى عشر سنتات. تحافظ على الفاصوليا جافة وستكون هناك في انتظار السوق. إذا كنت تريد جني الأرباح فلتزرع الفاصوليا».

---

(1) توماس وودرو ويلسون سياسي وأكاديمي أميركي شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة من عام 1913 إلى 1921.

غادر وهو في حالة جيدة وقد ذهب العار الذي حلّ به، لأنه كان يعلم أنه قدّم نصائح سديدة.

بعد أن ذهب ويل أحضر لي ثلث فطيرة الليمون وقام بتقطيعها إلى قسمين: «لقد أصبح سميناً جداً».

كان آدم يفكر: «قلت فقط إنني أريد شيئاً أفعله».

«ماذا عن مصنع الثلج؟»

«أعتقد أنني سأشتريه».

قال لي: «يمكنك أن تزرع بعض الفاصوليا أيضاً».

## 2

في أواخر العام قام آدم بمحاولته العظيمة التي أحدثت ضجة كبيرة على الصعيدين المحلي والدولي. عندما أصبح جاهزاً تحدث رجال الأعمال على أنه طموح وذو عقلية تقدمية. مغادرة ست شاحنات محملة بالخس المعبأ في الجليد كان حدثاً حضرته غرفة التجارة. تم تزيين الشاحنات بملصقات كبيرة كتب عليها «خس وادي ساليناس». مع ذلك لم يرغب أحد في الاستثمار في المشروع.

لم يستغل آدم الطاقة التي امتلكها. كانت مهمة جمع الخس وتبريده وشحنه مهمة كبيرة. لم تكن هناك معدات متوفرة لمثل هذا العمل. كان لابد من ارتجال كل شيء وتوظيف عدد كبير من الأيدي العاملة وتعليمها للقيام بالعمل. قدم الجميع النصائح والمقترحات ولكن أحداً لم يساعد. أنفق آدم ثروة على فكرته، لكن مقدار هذه الثروة لم يعرفها أحد، حتى آدم نفسه، لي كان الوحيد الذي عرف.

بدأت الفكرة جيدة. تم إرسال الخس الى التجار في نيويورك بسعر جيد.

ذهب القطار وعاد الجميع إلى منازلهم للانتظار. إذا كان الأمر قد نجح، كان عدد غير محدود من الرجال على استعداد للربح من خلال المشاركة. حتى ويل هاملتون تساءل عما إذا كان مخطئاً في نصيحته.

لو تم التخطيط لسلسلة الأحداث من قبل عدو قاهر لا يرحم لما كان يمكن أن تكون أكثر فعالية. عندما وصل القطار إلى سكرامنتو أغلقت زلاجة ثلجية جبال سييرا لمدة يومين ووقفت الشاحنات الست على جانب من الطريق، وأخذ جليدها يقطر. في اليوم الثالث عبرت الحمولة الجبال وكان هذا هو الوقت الدافئ غير المعتاد في جميع أنحاء الغرب الأوسط. في شيكاغو وقع ارتباك في الأوامر - لم يكن خطأ أحد - واحدة من تلك الأشياء التي تحدث فحسب، بقيت شاحنات الخس الست واقفة في الفناء لمدة خمسة أيام أخرى. كان ذلك كافياً ولا داعي للخوض فيه بالتفصيل. ما وصل إلى نيويورك كان عبارة عن ست شحنات مائة كبيرة يجب التخلص منها.

قرأ آدم البرقية واستقر على كرسيه وظهرت ابتسامة غريبة على وجهه وبقيت لفترة طويلة.

ابتعد لي عنه لمنحه مساحة للبقاء وحده. سمع التوأم ردة الفعل في ساليناس؛ أن آدم أحق، وأن هؤلاء الحالمين الذين يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء دائماً ما يواجهون المشاكل.

هنا رجال الأعمال أنفسهم على بُعد نظرهم في الابتعاد عن ذلك. يستغرق الأمر خبرة طويلة لتصبح رجل أعمال. أما الأشخاص الذين يرثون أموالهم فهم دائماً ما يواجهون المشاكل. وإذا أردت دليلاً على ذلك - انظر فقط كيف أدار آدم مزرعته. سرعان ما يفترق الأحق وأمواله، ربما من شأن هذا أن يعلمه درساً. كما أنه ضاعف إنتاج شركة الثلج.

يتذكر ويل هاملتون أنه لم يجادله فقط بل تنبأ بالتفصيل بما سيحدث. لم يشعر بالسعادة لما حدث، ولكن ماذا يمكنك أن تفعل عندما لا يأخذ الرجل

نصيحة من رجل أعمال يمتلك الخبرة الكافية؟ كان لدى ويل الكثير من الخبرة عن الأفكار المتسارعة. بطريقة ملتوية تم تذكر أن سام هاملتون كان أحرق أيضًا، أما بالنسبة لتوم هاملتون فقد كان يُعتبر مجنونًا تمامًا.

عندما شعر لي بأن الوقت الذي منحه إياه كان كافيًا، عاد وجلس أمام آدم مباشرة ليلفت انتباهه.

«بم تشعر؟» سأله.

«بخير».

«لن تزحف مرة أخرى إلى حفرتك الخاصة، أليس كذلك؟»

«ما الذي يجعلك تظن ذلك؟» سأل آدم.

«حسنًا، لديك تلك النظرة التي كنت ترتديها على وجهك. وذلك البريق في عينيك. هل أذى هذا الأمر مشاعرك؟»

قال آدم: «لا. الشيء الوحيد الذي كنت أتساءل عنه هو ما إذا كنت قد أفلست».

قال لي «ليس تمامًا، لديك حوالي تسعة آلاف دولار بالإضافة إلى المزرعة».

قال آدم: «هناك فاتورة بقيمة ألفي دولار للتخلص من القمامة».

«هذا كان قبل التسعة آلاف».

«أنا مدين بالكثير لآلة الثلج الجديدة».

«تم دفعه».

«وبقيت لدي تسعة آلاف؟»

قال لي «والمزرعة. ربما يمكنك بيع مصنع الثلج».

اشتدت تقاسيم وجه آدم وغادرتها تلك الابتسامة المذهولة: «ما زلت أعتقد أنها ستنجح، واجهتنا عدد من الحوادث فحسب. سأحتفظ بمصنع الثلج. البرد

يحافظ على الأشياء. الى جانب ذلك فالمصنع يكسب بعض المال. ربما  
يمكنني اكتشاف شيء ما».

قال لي: «حاول ألا تكتشف شيئاً يكلفك المال. أكره خسارة موقد الغاز  
الخاص بي».

### 3

شعر التوأم بفشل آدم بعمق شديد. كانا يبلغان من العمر خمسة عشر عاماً  
وكانا يعرفان منذ فترة طويلة أنهما أبناء رجل ثري وكان من الصعب فقدان  
الشعور بذلك. لو لم يتحول الأمر برمته إلى كرنفال لما كان سيئاً للغاية. لقد  
تذكرا اللافتات الكبيرة على عربات الشحن. إذا كان رجال الأعمال يسخرون  
من آدم، فإن مجموعة المدرسة الثانوية كانت أكثر قسوة. بين عشية وضحاها  
أصبحوا يشيرون إلى التوأم بـ «آرون وكال خس» أو ببساطة «رأس الخس».

ناقش آرون مشكلته مع أبرا. قال لها «سيحدث فرقاً كبيراً».

كبرت أبرا لتصبح فتاة جميلة. ثديها كانا يرتفعان مع سنواتها، ووجهها  
ينعم بالهدوء ودفء الجمال. لقد تجاوزت الجمال، كانت قوية وواثقة وفاتنة.

نظرت إلى وجهه القلق وسألته: «لماذا سيحدث هذا فرقاً؟»

«حسناً، هناك شيء واحد، أعتقد أننا أصبحنا فقراء».

«كنت لتعمل على أي حال».

«أنت تعلمين أنني أريد الذهاب إلى الكلية».

«ما زال بإمكانك ذلك، سأساعدك. هل خسرت والدك كل ماله؟»

«لا أعرف. هذا ما يقولونه».

«من هم؟» سأله أبرا.

«الجميع. وربما لا يريد والدك وأمك أن تتزوجيني».



قالت أبراً: «إذاً لن أخبرهم بذلك»

«أنت متأكدة من نفسك تماماً».

قالت: «نعم، أنا متأكدة من نفسي. هلا قبّلتني؟»

«هنا؟ في الشارع؟»

«ولم لا؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«الجميع سيرى».

قالت أبراً: «أريدهم أن يفعلوا».

قال آرون: «لا. لا أحب الإعلان عن مثل هذه الأمور».

وقفت أمامه وأوقفته: «انظر هنا يا سيد. قبّلتني الآن».

«لماذا؟»

قالت ببطء: «ليعرف الجميع أنني السيدة رأس الخس».

نقر فمها بسرعة وخرج بالغ ثم أجبرها على الجلوس بجانبه: «ربما يجب أن ألغي ذلك».

«ماذا تقصد؟»

«أنا لست جيداً بما يكفي لك بعد الآن. أنا مجرد صبي فقير آخر. هل تعتقدين أنني لم ألاحظ اختلاف تعامل والدك؟»

قالت أبراً: «أنت مجرد مجنون» وعبست قليلاً لأنها رأت بالفعل الاختلاف في تعامل والدها مع آرون.

ذهبا إلى متجر بيل وجلسا على طاولة. كان المشروب السائد في ذلك العام هو تونيك الكرفس. في العام السابق، كانت المشروبات الغازية ومثلجات البيرة.

حركت أبراً الفقاعات بلطف بقشيتها وفكرت كيف تغير والدها منذ فشل

مشروع الخس. كان قد قال لها: «ألا تعتقدين أنه سيكون من الحكمة مواعدة شخص آخر من باب التغيير؟»  
«لكنني مخطوبة لأرون».

«مخطوبة! منذ متى تتم خطوبة الأطفال؟ من الأفضل أن تنظري حولك قليلاً. هناك أسماك أخرى في البحر».

وتذكرت أن والديها تحدثا أمامها مؤخراً عن المواءمات العائلية ومرة لمحا إلى أن بعض الأشخاص لا يمكنهم إخفاء الفضيحة إلى الأبد. حدث هذا فقط عندما أشيع أن آدم فقد كل أمواله».

كانت تتكى على الطاولة: «أنت تعرف أن ما يمكننا فعله حقاً هو أمر بسيط للغاية يجعلك تضحك».

«ماذا؟»

«يمكننا إدارة مزرعة والدك. والذي يقول إنها أرض جميلة».

قال آرون بسرعة «لا».

«ولم لا؟»

«لن أكون مزارعاً ولن تصبحي زوجة مزارع».

«سأكون زوجة آرون بغض النظر عن عمله».

قال «لن أتخلى عن الكلية».

قالت أبرا مرة أخرى: «سأساعدك».

«من أين ستحصلين على المال؟»

قالت: «سأسرقه».

قال: «أريد الخروج من هذه البلدة. الجميع يسخر مني. لا أستطيع تحمل

الحياة هنا».

«سوف ينسون ذلك قريباً جداً».

«لا لن يفعلوا. لا أريد البقاء عامين آخرين لإنهاء المدرسة الثانوية».

«هل تريد الابتعاد عني يا آرون؟»

«لا. أوه، تباً، لماذا كان عليه العبث بأشياء لا يعرف عنها شيئاً؟»

وبخته أبرا. «لا تلم والدك. لو نجح الأمر لكان الجميع قد انحنوا له».

«حسناً، لكنه لم ينجح. والآن لا أستطيع رفع رأسي. يا إلهي! كم أكرهه».

قالت أبرا بصرامة: «آرون! توقف عن الحديث هكذا!»

«كيف لي أن أعرف أنه لم يكذب بشأن والدتي؟»

احمر وجه أبرا من الغضب: «تستحق الصفع. إذا لم يكن حولنا الجميع لكنت ضربتك بنفسي». نظرت إلى وجهه الجميل، المتشنج الآن جراء الغضب والإحباط، وفجأة غيرت تكتيكها: «لماذا لا تسأله عن والدتك؟ أسأله فحسب».

«لا أستطيع، لقد وعدتك».

«لقد وعدت فقط ألا تقول ما قلته لك».

«حسناً، إذا سألته سيرغب في معرفة أين سمعت ذلك»

صرخت: «حسناً، يا لك من طفل مدلل! أنت في حل من الوفاء بوعدك لي».

تفضل وأسأله».

«لا أعرف ما إذا كنت سأفعل أم لا».

قالت: «أحياناً أريد قتلك، لكنني أحبك يا آرون - أحبك كثيراً». كانت هناك قهقهة صادرة من المقاعد أمام نافورة الصودا. كانت أصواتهما قد ارتفعت وسمعهما أقرانهما. احمر آرون خجلاً وبدأت دموع الغضب تتجمع في عينيه. هرب من المتجر واندفع بعيداً في الشارع.

حملت أبراً حقيبتها بهدوء وقامت بترتيب تنورتها بيدها. مشت بهدوء إلى السيد بيل ودفعت ثمن مشروباتهما. في طريقها إلى الباب توقفت عند المجموعة الضاحكة. قالت ببرود: «اتركوه وشأنه». مشت وتبعها أحدهم وهو يقول: «أوه آرون، أنا أحبك حقاً».

في الشارع ركضت محاولة اللحاق بآرون لكنها لم تتمكن من العثور عليه. اتصلت بهاتف المنزل. قال لها لي إن آرون لم يعد بعد. لكن آرون كان في غرفة نومه تغمره مشاعر الاستياء - وكان لي قد رآه وهو يتسلل ويغلق باب خلفه.

سارت أبراً في شوارع ساليناس على أمل رؤيته. كانت غاضبة منه لكنها كانت أيضاً تشعر بالوحدة من دونه، لم يهرب آرون منها من قبل.

كان على كالي أن يتعلم الشعور بالوحدة. حاول لفترة وجيزة جداً الانضمام إلى أبراً وآرون، لكنهما لم يريدها. شعر بالغيرة وحاول جذب الفتاة لنفسه لكنه فشل.

وجد دراسته سهلة لكن ليست ممتعة. كان على آرون أن يعمل بجد أكبر للتعلم، لذلك كان لدى آرون إحساس أكبر بالإنجاز عندما نجح، وحمل احتراماً خاصاً للتعلم. انجرف كالي بعيداً، لم يكن يهتم كثيراً بالرياضة في المدرسة أو بالأنشطة، ودفعه قلقه المتزايد للخروج ليلاً. أصبح طويلاً وممشوقاً، وكان الغموض يحيط به دائماً.



## الفصل 38

### 1

من ذاكرته الأولى، تاق كال إلى الدفء والمودة كما يفعل الجميع. لو كان وحيداً أو كان آرون صبيّاً من نوع مختلف لكان قد نجح في علاقاته بشكل طبيعي وبسهولة. ولكن منذ البداية فاز آرون بسبب جماله وبساطته. تنافس كال بشكل طبيعي لنيل الاهتمام والمودة بالطريقة الوحيدة التي يعرفها - بمحاولة تقليد آرون. وما كان ساحراً في آرون الأشقر أصبح مريباً ومزعجاً في كال أسمر الوجه، لوزي العينين. وبما أنه كان يتظاهر لم يكن أداءه مقنعاً. في ذات المواقف التي تم فيها الترحيب بآرون، تم رفض كال لقيامه أو قوله لنفس الشيء بالضبط.

كما يصبح الجرو خجولاً بعد بعض الملاطفة لأنفه، فإن الرفض يجعل الصبي خجولاً بشكل عام. ولكن في حين أن الجرو وقتها يتقافز أو يتدحرج على ظهره متذلاً، قد يخفي الصبي الصغير خجله باللامبالاة، أو الشجاعة، أو الغموض. كما أنه بمجرد أن يعاني الطفل من الرفض، سيتهياً له الرفض حتى حيث لا وجود له.

استغرق تبلور هذا الجانب في شخصية كال فترة طويلة وبطيئة جداً لدرجة أنه لم يشعر بأي غرابة، قام ببناء جدار من الاكتفاء الذاتي حول نفسه، جدار قوي بما يكفي للدفاع عنه في وجه العالم. وإن كان في جداره أي نقطة ضعف فربما كانت لآرون ولي، وادم بشكل خاص. ربما في جهل والده الشديد شعر كال بالأمان، فعدم ملاحظتك على الإطلاق أفضل من أن يتم الانتباه لك بشكل سلبي.

عندما كان صغيرًا اكتشف كال سرًا. إذا اقترب بهدوء من المكان الذي كان يجلس فيه والده ومال بخفة شديدة على ركبته، فإن يد آدم سترتفع تلقائيًا وتداعب أصابعه كتف كال. من المحتمل أن آدم لم يكن ينتبه إلى أنه فعل ذلك، لكن تلك المداعبة كانت تجلب لكال هذا الفيضان الهائج من المشاعر لدرجة أنه حفظ هذه مشاعر تلك الفرحة الخاصة واستعادها في ذهنه فقط عندما احتاجها. كان رمزًا احتفاليًا غامراً.

لا تتغير حقيقة الأمور مع تغير المشهد. في ساليانس لم يكن لدى كال أصدقاء أكثر مما كان له في كينغ سيتي. كان لديه شركاء، وسلطة، وبعض الإعجاب، لكن لم يكن لديه أصدقاء. عاش وحيداً ومشى دائماً وحده.

## 2

إذا ما انتبه لي إلى أن كال خرج من المنزل في الليل وعاد في وقت متأخر جداً، ما كان ليعطي أي إشارة على ذلك، لأنه لا يستطيع فعل أي شيء حيال الأمر. لمححه رجال الشرطة في بعض الأحيان يسير بمفرده، لكن تم التأكيد لرئيس الشرطة أن كال ليس لديه سجل للعب الهوكي فحسب، بل كان في الواقع طالباً مجتهداً جداً. كان الرئيس يعرف آدم بالطبع، وبما أن كال لم يتسبب بأي إزعاج، فقد أخبر رجال الشرطة أن يبقوا أعينهم مفتوحة وترك الصبي وشأنه ما لم يتورط في أي مشكلة.

التقى توم واتسون العجوز بكال ذات ليلة وسأل، «لماذا تتجول كثيراً في الليل؟»

«أنا لا أزعج أحداً» قال كال دفاعاً عن نفسه.  
«أنا أعلم أنك لا تفعل. لكن يجب أن تكون في المنزل وفي السرير في هكذا وقت.»

قال كال: «لا أشعر بالنعاس»، ولم يكن هذا منطقياً على الإطلاق بالنسبة

إلى توم الذي لا يتذكر وقتاً في حياته لم يكن فيه نعساناً. نظر الصبي إلى ألعاب الحي الصيني لكنه لم يلعب. لقد كان غامضاً، ولكن بكل حال كانت الأشياء البسيطة دائماً بمثابة ألغاز بالنسبة لتوم واتسون، وفضل تركها على هذا النحو. في نزهته الليلية تذكر كال المحادثة التي سمعها في المزرعة بين لي و آدم. أراد أن يعرف الحقيقة. وتراكت المعلومات في ذهنه ببطء. لو أن آرون سمع صوت الشظايا لما اهتم لها، لكن كال كان يجمعها. كان يعلم أن والدته لم تمت. كان يعلم أيضاً من المحادثة الأولى والحديث الذي سمعه، أن آرون غير سعيد باكتشاف هذا الأمر.

في إحدى الليالي التقى كال بالسيد رايبت هولمان، الذي كان في حالة سكر. استقبل رايبت كال بحفاوة حيث كان الرجل الريفي يرحب دائماً بمعارفه في المكان الغريب. رايبت الذي كان يشرب من قنينة نصف لتر في الزقاق خلف حانة أبوت، أخبر كال كل الأخبار التي يمكن أن يفكر فيها. لقد باع قطعة من أرضه بسعر جيد وكان في سأليناس للاحتفال، وكان الاحتفال أهم من أي شيء آخر. كان يذهب إلى الحانة ويرى العاهرات ما يمكن أن يفعله الرجل الحقيقي.

جلس كال بهدوء بجانبه يستمع. عندما بقي القليل من الويسكي في زجاجة رايبت ذهب كال ودفع للويس شنايدر لشراء أخرى له. وضع رايبت بقربه زجاجة نصف لتر فارغة وعندما مد يده مرة أخرى خرج بزجاجة نصف لتر ممتلئة.

قال: «هذا مضحك، اعتقدت أن لديّ زجاجة واحدة فحسب، إنه خطأ جيد».

عندما بلغ النصف الثاني من الزجاجة كان رايبت غير قادر على التعرف على كال، ليس ذلك فحسب، بل حتى كم كان عمره. ومع ذلك تذكر أن رفيقه كان صديقه القديم والعزير جداً.



قال: «دعني أخبرك شيئاً يا جورج. دعني أشرب المزيد من هذا وسوف نذهب أنا وأنت للاحتفال، لا تقل إنك لا تستطيع تحمل الاحتفال الصاخب. كل شيء سيكون على حسابي. هل أخبرتك أنني بعث أربعين فداناً؟»

ثم قال: «هاري، دعني أخبرك ما يجب علينا فعله. دعنا نبتعد عن هؤلاء العاهرات الرخيصات. سنذهب إلى بيت كيت، على الرغم من أن تكلفته باهظة، عشرة دولارات، فليكن بحق الجحيم!

لديهم سيرك هناك. هل رأيت سيركاً من قبل يا (هاري)؟ حسناً، من المؤكد أن كيت تعرف كيف تستخدم أدواتها. أنت تذكر كيت، أليس كذلك يا جورج؟ زوجة آدم تراسك، والدة التوأم اللعين. يا إلهي! لا أنسى أبداً الوقت الذي أطلقت فيه النار عليه وهربت. حسناً، لم تكن جيدة كزوجة لكنها واثقة من أنها عاهرة جيدة. من المضحك أيضاً - تعلم ما يقولونه من أن العاهرة يمكنها أن تصبح زوجة صالحة؟ ليس شيئاً جديداً بالنسبة لهم لتجربته. هلا ساعدتني قليلاً يا هاري؟ ماذا كنت أقول؟»

قال كال بهدوء «سيرك».

«أه نعم. حسناً، سيرك كيت هذا سوف يجعل عينيك تخرجان من محجريهما. تعرف ماذا يفعلون؟»

مشى كال إلى الخلف قليلاً حتى لا يلاحظه رايت. تحدث رايت عما كانوا يفعلونه. وما فعلوه لم يكن هو ما جعل كال يشعر بالإغياء. بدا ذلك سخيفاً بالنسبة له. كان المقرف بالنسبة له هو الرجال الذين شاهدوا ذلك. عند رؤية وجه رايت تحت أضواء الشارع، عرف كال كيف هي وجوه من يشاهدون ذلك السيرك.

مرا عبر الفناء الكبير وصعدا إلى الشرفة غير المطلية. على الرغم من أن كال كان طويل القامة بالنسبة لسنه إلا أنه حاول السير على أصابع قدميه ليبدو كبيراً.

لم ينظر إليه حارس الباب عن كثب، والغرفة المظلمة بمصاييحها الخافتة والرجال المنتظرين المتوترين، أخفوا وجوده.

### 3

في السابق أراد كال دائماً أن يبني تراكمًا سريعًا للأشياء المرئية والأشياء المسموعة - كمستودع للمواد التي قد تكون مفيدة يوماً ما، ولكن بعد زيارة كيت شعر بالحاجة الماسة إلى المساعدة.

ذات ليلة سمع لي وهو يديق على مفاتيح الآلة الكاتبة، طرق بهدوء على بابه وسمح له لي بالدخول. جلس الصبي على حافة السرير، واسترخى لي بجسده النحيل على كرسيه الوثير، كان مستمتعًا بالكرسي لأنه منحه الكثير من الراحة. طوى لي يديه على بطنه كما لو كان يرتدي الأكمام الصينية وانتظر بصبر. كان كال ينظر إلى بقعة في الهواء فوق رأس لي.

تحدث كال بهدوء وسرعة «أعرف مكان والدتي وماذا تفعل. لقد رأيتها». تلا عقل لي صلاة متشنجة طلباً للإرشاد «ماذا تريد أن تعرف؟» سأله بهدوء. «لم أفكر بعد. أحاول التفكير. هل ستخبرني الحقيقة؟» «بالطبع».

كانت الأسئلة التي تدور في رأس كال محيرة للغاية لدرجة أنه واجه صعوبة في اختيار واحدة.

«هل يعلم أبي؟»

«نعم».

«لماذا قال إنها ماتت؟»

«ليجنبكما الألم».

تفكّر كال: «ماذا فعل والدي ليدفعها للرحيل؟»

«لقد أحبها بكل عقله وجسده. لقد أعطاها كل ما يمكن تخيله».

«هل أطلقت عليه الرصاص؟»

«نعم».

«لماذا؟»

«لأنه لم يكن يريد أن تهجره».

«هل جرحها؟»

«لم أعلم بشيء كهذا، لم يكن من طبعه أن يؤذيها».

«لي، لماذا فعلت ذلك؟»

«لا أعرف».

«لا تعرف أو لن تقول؟»

«لا أعرف».

ظل كال صامتاً لفترة طويلة لدرجة أن أصابع لي خدرت وهي ممسكة بمعصميه. شعر بالارتياح عندما تحدث كال مرة أخرى. كانت نبرة الصبي مختلفة. كان هناك توسل فيه.

«لي، أنت تعرفها. كيف كانت تبدو؟»

تنهد لي واسترخت يديه. «لا يسعني إلا أن أقول ما أفكر فيه. وربما أكون مخطئاً».

«حسناً، ما كان رأيك بها؟»

«كال، لقد فكرت في هذا الأمر كثيراً وما زلت لا أعرف. إنها لغز. يبدو لي أنها ليست مثل الآخرين. هناك شيء تفتقر إليه. ربما اللطف أو الضمير. لا يمكنك فهم الناس إلا إذا شعرت بهم في نفسك. ولم أستطع أن أشعر بها. في اللحظة التي أفكر فيها يتحول شعوري إلى السوداوية. لا أعرف ما الذي تريده

أو ما الذي كانت تبحث عنه. كانت مليئة بالكراهية ولكن لماذا أو تجاه ماذا لا أعرف. إنها لغز. وحقدتها لم يكن صحيحاً، لم يكن غاضباً، كان بلا قلب. لا أعلم إن كان من الجيد التحدث إليك بهذه الطريقة».

«أحتاج أن أعرف».

«لماذا؟ ألم تشعر أنك أفضل حالاً قبل أن تعرف؟»

«نعم. لكن لا يمكنني التوقف الآن».

قال لي «أنت على حق» عندما تذهب البراءة الأولى لن تتمكن من التوقف - إلا إذا كنت منافقاً أو أحمق. لكن لا يمكنني إخبارك بالمزيد عن هذا الموضوع لأنني لا أعرف المزيد».

قال كال، «أخبرني عن حال والدي بعد حدوث ذلك».

قال لي «هذا أمر يمكنني فعله». توقف قليلاً «أتساءل عما إذا كان بإمكان أي شخص أن يسمعنا نتحدث. تكلم بهدوء».

قال كال: «أخبرني عنه».

«أعتقد أن والدك يمتاز بالصفات التي تفتقر إليها زوجته وبشكل مضاعف. اللطف والضمير كبيران جداً فيه لدرجة أنهما يُعتبران عيوبه تقريباً. إنهما يعيقانه ويجعلانه يتعثر».

«ماذا فعل عندما غادرت؟»

قال لي: «لقد مات. كان يتحرك لكنه ميت. مؤخراً فقط عاد نصفه للحياة مرة أخرى». رأى لي تعبيراً جديداً غريباً على وجه كال. كانت العينان مفتوحتين على نطاق أوسع، والفم الذي يكون عادةً مشدوداً أصبح مرتخياً. تمكن لي من رؤية وجه آرون في وجهه الآن ولأول مرة، على الرغم من اختلاف السحنات. كانت أكتاف كال ترتعش كما عضلة ترزح تحت الضغط لوقت طويل.

«ما بك يا كال؟» سأل لي.

قال كال: «أنا أحبه».

قال لي: «أنا أحبه أيضًا. أعتقد أنني لم أكن لأبقى هنا لفترة طويلة إذا لم أفعل ذلك. إنه ليس ذكيًا بالمعنى الديني لكنه رجل طيب. ربما أفضل رجل عرفته على الإطلاق».

وقف كال فجأة وقال «تصبح على خير يالي».

«انتظر لحظة، هل أخبرت أحدا بهذا؟»

«لا».

«ليس آرون - لا، بالطبع لم تكن لتفعل».

«افتراض أنه اكتشف الأمر؟»

«حينئذ عليك أن تقف على أهبة الاستعداد لمساعدته. لا تذهب بعد. قد لا تتمكن من التحدث مرة أخرى عندما تغادر هذه الغرفة. قد تكرهني لعلمي أنك أصبحت تعرف الحقيقة. قل لي - هل تكره والدتك؟»

«نعم» قال كال.

قال لي «كنت أتساءل، لأنني لا أعتقد أن والدك كرهها أبدًا. كان حزينًا فقط».

مشى كال نحو الباب ببطء وهدوء وهو يحشر قبضتيه في جيوبه: «الأمر يشبه ما قلته عن معرفة الناس. أنا أكرهها لأنني أعرف سبب رحيلها. أعرف - لأنني أحمل ذلك الجانب في داخلي». كان رأسه محنياً وصوته حزينًا.

قفز لي وقال بحدة: «توقف عن ذلك! هل تسمعي؟ لا تدعني أمسك بك تفعل هذا. بالطبع تحمل ذلك. كل شخص يفعل. لكنك تمتلك الجانب الآخر أيضًا، أنظر إليّ - هنا!»

رفع كال رأسه وقال بضجر «ماذا تريد؟»

«أنت تمتلك الجانب الآخر أيضًا، جانب الخير، استمع! لم تكن لتتساءل

حتى إذا لم يكن لديك ذلك. لا تجرؤ على اختيار الدرب السهل. من السهل جدًا أن تتعذر بأسلافك. لا تدعني أقبض عليك وأنت تفعل ذلك! والآن انظر إلي وتذكر هذا: مهما يكن ما تفعله، ستكون أنت من تفعل ذلك - وليس والدتك».

«هل تصدق ذلك يا لي؟»

«نعم، ومن الأفضل أن تصدق ذلك أيضاً وإلا سأكسر كل عظمة في جسمك».

بعد أن ذهب كال عاد لي إلى كرسيه وجلس يفكر بأسى: أتساءل ماذا حدث لاسترخائي الشرقي؟

#### 4

كان اكتشاف كال لأمه توكيداً أكثر منه شيئاً جديداً بالنسبة له. لفترة طويلة كان يعلم دون تفاصيل أن السحابة كانت موجودة. وكان رد فعله ذا شقين؛ كان لديه إحساس لطيف بالقوة بسبب معرفته بالأمر، وتمكنه بسبب ذلك من تقييم الأفعال والتعبيرات وتفسير الأحاديث الغامضة، وحتى الانغماس في الماضي وإعادة تنظيمه. لكن هذه لم تعوضه عن الألم الذي تجرّعه بسبب علمه.

كان جسده يعيد ترتيب نفسه للمضي نحو الرجولة ورياح المراهقة المنحرفة تفقده توازنه. في لحظة كان مخلصاً ونقياً وفي اليوم التالي كان غارقاً في القذارة. وفي اليوم الذي يليه تراه متذللاً بخجل وعائداً لطريق التفاني.

أدى اكتشافه إلى زيادة حدة مشاعره. بدا له أنه فريد من نوعه وهو يحمل مثل هذا التراث. لم يستطع تصديق كلمات لي أو تصور أن الأولاد الآخرين يمرون بنفس الشيء.

بقيت ذكرى السيرك الذي شاهده في بيت كيت ترافقه. في لحظة كانت تلهب عقله وجسده، وفي اللحظة التالية تغمره بالاشمئزاز والكراهية.

نظر إلى والده بتمعن ورأى حزناً وإحباطاً في آدم أكبر مما كان موجوداً في الواقع. بالنتيجة نشأ حب عميق في قلبه لوالده ورغبة في حمايته وتعويضه عن الأشياء التي عانى منها. في عقل كال المرهف كانت المعاناة لا تطاق، تسلل إلى الحمام بينما كان آدم يستحم ورأى ندبة الرصاصة القبيحة وسمع نفسه يسأله رغماً عنه: «أبي، ما هذه الندبة؟»

ارتفعت أصابع آدم لإخفاء الندبة: «إنه جرح قديم يا كال. كنت مشاركاً في الحملات الهندية. سأخبرك عن ذلك في وقت ما».

راقب كال وجه آدم ورأى كيف قفز عقله إلى الماضي ليكذب. لم يكره كال الكذبة ولكن ضرورة إخبارها. كذب كال لأسباب تتعلق بالربح بشكل أو آخر. بدا له أنه من المخجل أن يُقاد إلى الكذب وأراد أن يصرخ: «لا بأس، أعرف قصة هذه الندبة». لكنه لم يفعل ذلك بالطبع بل قال «أود أن أسمع عن ذلك».

وقع آرون في دوامة التغيير أيضاً لكنه كان أبطأ من كال. لم يصرخ جسده في وجهه بشدة، اتخذت عواطفه اتجاهها دينياً.

لقد قرر أن يصبح رجل دين مستقبلاً. حضر جميع قداسات الكنيسة، وساعد في ترتيب الزهور والأوراق في فترات الأعياد، وقضى ساعات طويلة مع رجل الدين الشاب ذي الشعر المجعد، السيد رولف. تلقى آرون تدريبه من شاب يفتقد الخبرة، ما جعله يتقن التعميم الذي لا يتقنه إلا من لا يملكون الخبرة.

تم تثبيت آرون في الكنيسة الأسقفية وأخذ مكانه في الجوقة أيام الأحد. تبعته أبرا. أدرك عقلها الأنثوي أن مثل هذه الأمور ضرورية ولكنها غير مهمة.

كان من الطبيعي أن يركّز آرون على كال. في البداية صلى آرون بصمت من أجل كال، لكنه بعدئذ اقترب منه وهو يندد بالحاده ويطالبه بالإصلاح.

ربما كان كال ليستجيب له إذا كان شقيقه أكثر ذكاءً مما كان عليه. لكن آرون وصل إلى نقطة جعلت أي شخص آخر في نظره مخطئاً. بعد بضع محاضرات

كان يرى أن كال متعجرف بشكل لا يطاق وأخبره بذلك. لقد كان مصدر ارتياح لكليهما عندما ترك آرون شقيقه ليوواجه عذاب الآخرة لوحده.

سلك دين آرون منحني إلزامياً من ناحية الجنس. تحدث مع أبراهام عن ضرورة الامتناع عن ممارسة الجنس وقرر أنه سيعيش حياة التبتل. لم تعارضه أبراهام بحكمتها وأملت أن تنقضي هذه المرحلة، أرادت الزواج من آرون وإنجاب أبناءه بالطبع، لكنها لم تتحدث عن ذلك في الوقت الحالي. لم تكن تشعر بالغيرة من قبل لكنها الآن بدأت تجد في نفسها كراهية غريزية وربما مبررة للقس رولف.

شاهد كال شقيقه ينتصر على خطايا لم يرتكبها قط، فكر بسخرية في إخباره عن والدته، ليرى كيف سيتعامل مع الأمر، لكنه تراجع عن الفكرة بسرعة. لم يعتقد أن آرون يمكنه التعامل مع هذا الموضوع على الإطلاق.





## الفصل 39

### 1

عانى وادي ساليناس على فترات متقطعة من تجشؤ أخلاقي. العملية لم تتغير كثيراً، فقد كانت كل دفقة تشبه الأخرى. بدأ الأمر أحياناً في منبر الواعظ وأحياناً من قبل رئيسة طموحة جديدة للنادي النسائي. كان لعب القمار دائماً خطيئة يجب القضاء عليها. كانت هناك فوائد معينة لمهاجمة القمار يمكن للمرء أن يناقشها، وهو أمر لا ينطبق على الدعارة. لقد كان شرًا مطلقاً يدار بواسطة الصينيين.

انتقلت الحمى من الكنيسة والنادي إلى صحيفتي البلدة. طالبت الافتتاحيات بالتنظيف، ووافقت الشرطة على ذلك لكنها تعذرت بعدم كفاية القوة. عندما وصل الأمر إلى الصحافة كان الجميع يعلم أن الأوراق قد سقطت. ما تبع ذلك تم ترتيبه بعناية مثل رقصة باليه. استعدت الشرطة، واستعدت دور القمار، وأعدت الصحف افتتاحيات تهنئة مقدماً. ثم أتت المداهمات، متعمدة ومؤكدة. عشرون صينيًا أو أكثر تم استيرادهم من باجارو، وعدد قليل من المتشردين، وستة أو ثمانية من عازفي الطبول لأنهم غرباء ولم يتم تحذيرهم، سقطوا في شبكة الشرطة وتم حجزهم وسجنهم، وفي الصباح تغريمهم وإطلاق سراحهم. استرخت المدينة في نقاوتها الجديدة وخسرت دور القمار ليلة واحدة فقط من العمل بالإضافة إلى الغرامة. إحدى انتصارات الإنسان هي أن يعرف حقيقة أمر ما ويستمر في عدم تصديقها.

في إحدى ليالي خريف عام 1916 كان كال يشاهد لعبة فان - تان<sup>(1)</sup> في منزل شورتلي ليم في الحي الصيني عندما حدثت مدهامة. لم يلاحظه في الظلام أحد لكن الرئيس كان محرّجاً وهو يجده من بين المعتقلين في الصباح. اتصل هاتفياً بآدم وحرّمه من تناول الإفطار. سار آدم على بعد مبنين إلى مركز شرطة المدينة، وأخذ كال وعبر الشارع إلى مكتب البريد من أجل استلام بريده ثم عاد الاثنان إلى المنزل.

احتفظ لي بالبيض دافئاً لآدم وقلّي اثنتين لكال.

دخل آرون إلى غرفة الطعام في طريقه إلى المدرسة «هل تريدني أن أنتظرك؟» سأل كال.

«لا». أنزل عينيه وأكل بيضته.

لم يتكلم آدم إلا ليقول «تعال!» لكال في قاعة المدينة بعد أن شكر الرئيس. تناول كال وجبة فطور لم يكن يشتهيها، وألقى نظرة سريعة عبر رموشه على وجه والده. لم يستطع أن يفهم شيئاً من تعبير آدم، بدا حائراً وغاضباً ومراعياً وحزيناً

بقي آدم محديقاً في فنجان قهوته وطال صمته حتى أصبح من الصعب التخلص من ثقله.

نظر إليه لي: «قهوة؟».

هز آدم رأسه ببطء. انسحب لي وأغلق باب المطبخ.

في صمت دقائق الساعة بدأ كال يشعر بالخوف. شعر بقوة لم يكن يعلم بوجودها تتدفق من والده. تعالت وخزات من الألم في ساقه وكان يخشى تحريكها لاستعادة الدورة الدموية. قام بتحريك شوكتة على طبقه لإحداث بعض الضوضاء.

---

(1) فان - تان لعبة مقامرة تشبه الروليت وهي من أصل صيني يعود تاريخها إلى 2000 عام تقريباً وتم تقديمها في غرب الولايات المتحدة الأمريكية من قبل المهاجرين الصينيين.

بدأ الخوف يبرد وحل الاستياء مكانه. كما قد يشعر الثعلب المحاصر بالغضب من مخلبه الذي أوقعه في الفخ.

فجأة قام كال، ولم يكن يعلم أنه سيتحرك. صرخ ولم يكن يعلم أنه سيتحدث. صاح: «افعل ما ستفعله بي! هيا تفضل! فلننه الأمر!»  
لكن الصمت ابتلع صراخه.

رفع آدم رأسه ببطء. صحيح أن كال لم ينظر إلى عيني أبيه من قبل، وصحيح أن الكثير من الناس لا ينظرون أبداً في عيون آبائهم. كانت فرحية آدم زرقاء فاتحة مع خطوط نصف قطرية داكنة تؤدي إلى بؤبؤ عينيه. وفي أعماق كل بؤبؤ رأى كال وجهه منعكساً كما لو كان اثنان منه ينظران إليه.

قال آدم بهدوء: «لقد خذلتك، أليس كذلك؟»

كان هذا أسوأ من الهجوم. تعثر كال: «ماذا تقصد؟»

«تم اقتيادك وأنت في بيت قمار. لا أعرف كيف وصلت إلى هناك، أو ماذا كنت تفعل هناك، أو لماذا ذهبت إلى هناك.»  
جلس كال مضطرباً وهو ينظر إلى طبقه.

«هل تقامر يا بني؟»

«لا يا سيدي. كنت أشاهد فقط.»

«هل ذهبت إلى هناك من قبل؟»

«نعم يا سيدي. مرات عديدة.»

«لماذا تذهب؟»

«لا أعرف. أشعر بالقلق في الليل كما قطط الأزقة على ما أظن.» تذكر كيت ونكتة فظيعة تسلت الى رأسه: «عندما لا أستطيع النوم أتجول في محاولة لطمس القلق.»

تأمل آدم كلامه: «هل يتجول أخوك أيضًا؟»

«أوه، لا يا سيدي. لا يفكر في فعل ذلك. إنه - إنه ليس قلقاً».

قال آدم: «في الواقع، أنا لا أعرف. أنا لا أعرف أي شيء عنك».

أراد كالم أن يلقي ذراعيه حول والده ويعانقه. أراد إظهار تعاطفه وحبه الكبير له. قال بهدوء: «سأخبرك إذا سألت».

«أنا لم أسأل. لم أسأل! أنا أب سيء مثل والدي».

لم يسمع كالم هذه النغمة في صوت آدم. كان أجشاً ومتقطعاً ودافئاً، كان يتخبط بين كلماته السوداوية.

قال آدم: «صنع لي والدي قالباً وأجبرني عليه. كان القالب سيئاً ولكن لم يكن من الممكن إعادة صهري. لا يمكن إعادة صهر أحد، وعليه بقيت في قالب سيء».

قال كالم «سيدي، لا تتأسف. لقد قدمت الكثير من الاعتذارات بالفعل».

«هل فعلت؟ ربما - ولكن ربما كانت من النوع الخطأ. أنا لا أعرف أبنائي. أتساءل عما إذا كان بإمكانني معرفتكما».

«سأخبرك بأي شيء تريد معرفته. فقط اسألني».

«من أين أبدأ؟ من البداية؟ هل أنت حزين أم غاضب لأنني كنت في السجن؟»

تفاجأ كالم بضحك آدم: «كنت هناك متواجداً فقط، أليس كذلك؟ أنت لم ترتكب أي خطأ».

«ربما كان التواجد هناك خطأ». أراد كالم أن يلوم نفسه.

قال آدم: «ذات مرة ذهبت إلى واحدة من هذه الدور أيضاً، وأصبحت سجيناً لمدة عام تقريباً لمجرد وجودي هناك».

حاول كال استيعاب الأمر: «لا أصدق ذلك».

«أحيانًا لا أفعل أيضًا، لكنني أعلم أنه عندما هربت سرقتُ من متجر بعض الملابس».

قال كال بضعف: «لا أصدق ذلك» كان الدفء والتقارب لذيذًا لدرجة أنه تشبث به، كان يتنفس بسطحية حتى لا يعكر صفو هذا الدفء.

قال آدم «هل تتذكر صموئيل هاملتون؟ - متأكد أنك تفعل. عندما كنت طفلًا قال إنني أب سيء وضربني وطرحني أرضاً لتأكيد ذلك».

«الرجل العجوز؟»

«كان رجلاً صارمًا، والآن أعرف ما كان يقصده، أنا مثل والدي. لم يسمح لي أن أكون شخصًا، ولم أنظر لأبنائي كأشخاص. هذا ما قصده صموئيل». نظر مباشرة في عيني كال وابتسم وتعاطف معه كال بحب.

قال كال «لا نعتقد أنك أب سيء».

قال آدم: «مسكينان، كيف لكما أن تعرفا؟ لم يكن لديكما أي نوع آخر من قبل».

قال كال: «أنا سعيد لأنني كنت في السجن».

«وأنا كذلك» ضحك آدم «لقد دخل كلانا السجن - ويمكننا التحدث».

نمت فرحته «ربما يمكنك أن تخبرني أي نوع من الأولاد أنت - هل يمكنك ذلك؟»

«نعم سيدي».

«ستخبرني؟»

«نعم سيدي».

«حسنًا أخبرني. كما تعلم هناك مسؤولية في أن تكون شخصًا. الأمر يتجاوز مجرد شغل مساحة ما»

«بلا مزاح؟» سأل كال بخجل.

«دون مزاح - بالتأكيد. أخبرني عن نفسك - إذا كنت تريد ذلك».

بدأ كال: «حسناً - أنا -» ثم توقف: «الأمر ليس بهذه السهولة عندما تحاول فعله»

«أعتقد أنه ربما سيكون مستحيلاً. حسناً أخبرني عن شقيقك».

«ماذا تريد أن تعرف عنه؟»

«رأيتك فيه على ما أعتقد. هذا كل ما يمكن أن تخبرني به».

قال كال: «إنه فتى جيد. لا يرتكب أفعالاً سيئة. إنه حتى لا يفكر في الأمور السيئة».

«الآن أنت تتحدث عن نفسك».

«عفواً سيدي؟»

«أنت تقول إنك تفعل وتفكر بأشياء سيئة».

احمر خد كال: «نعم أفعَل».

«أشياء سيئة للغاية؟»

«نعم سيدي. هل تريدني أن أخبرك؟»

«لا يا كال. لقد قلت كل شيء. صوتك وعيناك تقولان إنك في حالة حرب مع نفسك. لكن لا يجب أن تخجل من هذا. إنه لأمر مروع أن تخجل. هل يخجل آرون؟»

«إنه لا يفعل أي شيء يخجل منه».

انحنى آدم إلى الأمام «هل أنت متأكد؟»

«متأكد تماماً».

«قل لي يا كال - هل تحميه؟»

«كيف يا سيدي؟»

«أعني - إذا سمعت عنه شيئاً سيئاً أو قاسياً أو قبيحاً، فهل ستمنعه عنه؟»  
«أعتقد ذلك».

«هل تعتقد أنه أضعف من أن يتحمل أشياء يمكنك تحملها؟»

«ليس هذا يا سيدي. إنه جيد، جيد حقاً، لا يؤذي أحداً أبداً. لم يقل يوماً أشياء سيئة عن أي شخص. إنه ليس لئيمًا ولا يتذمر أبداً وهو شجاع. لا يحب القتال لكنه يفعل إذا ما اضطر لذلك».

«أنت تحب أخاك، أليس كذلك؟»

«نعم سيدي. مع أنني أفعل أشياء سيئة له، لقد خدعته كثيراً، وأحياناً أؤذيه دون سبب على الإطلاق».

«ولذلك تشعر بالحزن؟»

«نعم سيدي».

«هل شعر أرون بالحزن يوماً؟»

«لا أعرف. عندما لم أرغب في الانضمام إلى الكنيسة شعر بالحزن. وذات مرة عندما غضبت منه أبرا وقالت له إنها تكرهه شعر بالحزن الشديد. أصبح مريضاً وكان يعاني من الحمى. ألا تتذكر عندما أرسل لي للطبيب».

قال آدم بدهشة: «كيف يمكنني أن أعيش معك دون أن أعرف شيئاً من هذه الأشياء! لماذا كانت أبرا غاضبة منه؟»

قال كال «لا أعرف ما إذا كان عليّ أن أخبرك».

«لا أريدك أن تفعل إذاً».

«لا شيء سيئ. أعتقد أن كل شيء على ما يرام. كما تعلم سيدي، أرون يريد أن يكون رجل دين. وأعتقد أنه ربما لن يتزوج أبداً وربما يذهب إلى معتكف».



«مثل الرهبان تقصد؟»

«نعم سيدي».

«وأبرالم يعجبها ذلك؟»

«يعجبها؟ لقد أصيبت بالجنون الكامل، وغضبها جامع في بعض الأحيان. أخذت قلم حبر آرون وألقته على الرصيف وداست عليه قائلة إنها ضيقت نصف حياتها عليه».

ضحك آدم «كم عمر أبرالم؟»

«ما يقارب الخامسة عشرة. لكنها - أكبر من ذلك من بعض النواحي».

«يبدو إنها كذلك. ماذا فعل آرون؟»

«بقي هادئاً لكنه شعر بسوء فظيع».

قال آدم «أعتقد أنه كان بإمكانك أخذها منه بعد ذلك».

قال كال: «أبرالم فتاة آرون».

نظر آدم بعمق في عيني كال ثم صاح: «لي! لم يتلق أي جواب. نادى مجدداً: «لي! لم أسمع يخرج. أريد بعض القهوة».

قفز كال «أنا سأحضرها لك».

قال آدم: «يجب أن تكون في المدرسة».

«لا أريد أن أذهب».

«يجب أن تذهب. آرون ذهب».

قال كال: «أنا سعيد هنا. أريد أن أكون معك».

نظر آدم إلى يديه وهو يقول بهدوء وبصوت خجل: «أعدّ القهوة».

عندما كان كال في المطبخ، نظر آدم إلى نفسه بدهشة. كانت أعصابه وعضلاته تنبض بجوع متحمس. كانت أصابعه تتوق للإمساك، ورجلاه

للركض. تسلطت عيناه على الغرفة، تأمل الكراسي والصور والورود الحمراء على السجادة والأشياء الواضحة الجديدة - أشياء عادية للآخرين لكنها ودية، وولدت في دماغه شهية حادة للمستقبل - ترقب دافئ سعيد كما لو أن الدقائق والأسابيع القادمة لا بد أن تجلب البهجة. شعر بعاطفة الصباح الباكر تغمره بيوم جميل بأشعته الذهبية وهدوئه. شبك أصابعه خلف رأسه ومد ساقيه أمامه. في المطبخ انتظر كال تسخين المياه في إبريق القهوة بسعادة. بمجرد أن تصبح المعجزة مألوفة فإنها لا تعود معجزة؛ كان كال قد فقد إعجابه بالعلاقة الذهبية مع والده ولكن متعتها بقيت. لقد خرج منه سم الشعور بالوحدة والحسد لمن هم غير وحيدين مثله، وأصبح نقياً ولطيفاً، وكان يعلم ذلك. حاول استرجاع الكراهية القديمة ليختبر نفسه ووجد أن الكراهية قد غادرتة بالفعل. لقد أراد أن يخدم والده ويمنحه هدية عظيمة ويقوم ببعض المهام الحسنة تكريماً له.

نضجت القهوة وأمضى كال دقائق في تنظيف الموقد وهو يقول في نفسه: «ما كنت لأفعل هذا بالأمس».

ابتسم له آدم عندما حمل القدر الذي يندفع منه البخار، استنشق آدم وقال: «هذه رائحة يمكنها أن ترفعني من قبر إسمتي».

قال كال: «فاضت بينما تغلي»

قال آدم: «لا بد أن تغلي حتى تصبح شهية المذاق. أتساءل أين ذهب لي».

«ربما هو في غرفته. هل أبحث عنه؟»

«لا. كان ليحيب».

«سيدي، عندما أنهى المدرسة، هل تسمح لي بإدارة المزرعة؟»

«أنت تخطط بشكل مبكر. ماذا عن آرون؟»

«يريد ارتياد الكلية. لا تخبره بما قلته. دعه يخبرك هو وفتفاجأ».

قال آدم: «حسناً. لكن ألا تريد الذهاب إلى الكلية أيضاً؟»

«أراهن أنني أستطيع كسب المال في المزرعة - ما يكفي لدفع ثمن دخول آرون للكلية».

ارتشف آدم قهوته «هذا كرم بالغ منك. لا أعرف ما إذا كان يجب أن أخبرك بهذا ولكن - حسناً، عندما سألتك سابقاً عن شخصية آرون، دافعت عنه بشدة جعلتني أعتقد أنك ربما لا تحبه أو حتى تكرهه».

قال كال بشدة: «لقد كرهته في الماضي، وقد آذيته أيضاً. لكن، هل يمكنني إخبارك بشيء يا سيدي؟ أنا لا أكرهه الآن. لن أكرهه مرة أخرى. لا أعتقد أنني سأكره أي شخص ولا حتى والدتي -» توقف فزعاً من الهفوة وتجمد عقله بشدة وعجز.

نظر آدم إلى الأمام مباشرة وهو يفرك جبهته براحة يده. أخيراً قال بهدوء «أنت تعرف أمك». لم يكن سؤالاً.

«نعم. نعم سيدي».

«كل شيء عنها؟»

«نعم سيدي».

انحنى آدم إلى الخلف في كرسيه. «هل يعلم آرون؟»

«أوه، لا! لا - لا يا سيدي. إنه لا يعرف».

«لماذا تقول ذلك بهذه الطريقة؟»

«لن أجرؤ على إخباره».

«ولم لا؟»

قال كال بانكسار: «لا أعتقد أنه يستطيع تحمل ذلك. آرون لا يحمل ما يكفي من السوء لتحمل أمر كهذا» أراد أن يكملها ب: «أكثر مما استطعت أنت»، لكنه ترك الأمر.

بدا وجه آدم منهكاً. يحرك رأسه من جانب إلى آخر «كال، استمع إلي. هل تعتقد أن هناك أي فرصة لمنع آرون من معرفة الأمر؟ فكر جيداً».

قال كال: «إنه لا يقترب من هذا النوع من الأماكن. هو ليس مثلي».

«فلنفترض أن أحداً أخبره؟»

«لا أعتقد أنه سيصدق ذلك يا سيدي. سيعتقد أنها كذبة».

«هل شهدت ذلك يحدث من قبل؟»

«نعم سيدي». وتابع كال بحماس: «لو أنه يذهب إلى الكلية ويغادر هذه المدينة -»

أوما آدم برأسه «نعم. هذا حتماً سيفيد. لكن لديه عامين إضافيين هنا».

«ربما يمكنني أن أجعله يسرع الأمر وينتهي في غضون عام واحد. إنه ذكي».

«لكنك أذكي»

قال كال: «نوع مختلف من الذكاء».

بدا أن آدم يتبلور حتى ملأ جانباً من الغرفة. كان وجهه صارماً وعينه الزرقاوان حادتان ونافذتان: «كال!» قال بصرامة.

«سيدي؟»

قال آدم: «أنا أثق بك يا بني».

## 2

جلب تقدير آدم لكال الفرح والاعتراز للأخير. بدأ بيتسم أكثر مما فعل من قبل، واختفى تقريباً الغموض الخفي من تقاسيم وجهه.

سأله لي بهدوء وهو يلاحظ التغيير الطارئ عليه: «لم تجد فتاة، أليس كذلك؟»

«فتاة؟ لا. من يريد فتاة؟»

قال لي «الجميع» ثم سأله: «هل تعرف ما الذي حل بك؟»

قال آدم: «إنه يعرف بشأنها»

«حقاً؟» أبقى لي نفسه بعيداً عن المشاكل «حسناً، تذكر أنني شجعتك على إخبارهما بذلك».

«لم أخبره. كان يعرف».

قال لي: «ما رأيك في ذلك! هكذا معلومات لا تجعل الصبي يندن عندما يذاكر ويمرح بقبعته عندما يمشي. ماذا عن آرون؟»

قال آدم: «هذا ما يخيفني، لا أعتقد أنني أريده أن يعرف».

«قد يكون هذا متأخراً جداً».

«قد أتحدث مع آرون بشكل غير مباشر وأرى»

«شيء ما حدث لك أيضاً».

«حقاً؟» قال آدم.

لكن المهمة والمرح وإتمام واجباته المدرسية بسرعة، لم تكن سوى أصغر أنشطة كال. في غمرة فرحته الجديدة عين نفسه وصياً على راحة والده. كان ما قاله عن عدم الشعور بالكراهية تجاه والدته صحيحاً. لكن هذا لم يغير حقيقة أنها كانت أداة جرح وخذلان آدم. فكر كال أن ما تمكنت من فعله من قبل قد تتمكن من فعله مرة أخرى. قرر أن يعرف كل ما في وسعه عنها. العدو المعروف أقل خطورة وأقل قدرة على المفاجأة.

في الليل كان يحوم حول المبنى عبر القضبان. أحياناً في فترة ما بعد الظهر كان يختبئ بين الحشائش الطويلة في الشارع المقابل ويراقب المكان. رأى الفتيات يخرجن، يرتدين ملابس كثيفة. كنَّ يغادرن المنزل دائماً في أزواج، تبعمهم كال بعينه إلى زاوية شارع كاستروفيل حيث يستدرن يساراً باتجاه الشارع

الرئيسي. اكتشف أنه إذا كنت لا تعرف من أين كنَّ خارجات، فلن تتمكن من معرفة هوياتهن. لكنه لم يكن ينتظر الفتيات للخروج. أراد أن يرى والدته في ضوء النهار. وجد أن كيت تخرج كل يوم اثنين في الواحدة والنصف.

قام كال ببعض الترتيبات في المدرسة من خلال القيام بعمل إضافي وممتاز للتعويض عن غيابه بعد ظهر يوم الاثنين. أجاب على أسئلة آرون أنه كان يعمل على مفاجأة وأنه من الأفضل ألا يخبر أحداً. لم يكن آرون مهتماً كثيراً على أي حال. سرعان ما نسي آرون كل شيء في خضم انغماره بذاته.

بعد أن تبعها عدة مرات، عرف كال طريق كيت، كانت تذهب دائماً إلى نفس الأماكن - أولاً إلى بنك مقاطعة مونتييري حيث يتم إدخالها إلى ما وراء القضبان اللامعة التي تحمي قبر الودائع. تمضي هناك خمسة عشر أو عشرين دقيقة. ثم تمشي ببطء على طول الشارع الرئيسي وتتأمل نوافذ المتاجر. تدخل إلى محل بورتر وإيرفين وتنظر إلى الفساتين وتشتري في بعض الأحيان - دبابيس، خماراً، زوجاً من القفازات. عند الساعة الثانية عشرة تقريباً تدخل إلى صالون تجميل ميني فرانكن، تبقى لمدة ساعة، وتخرج بشعر مرفوع تعلوه تجعيدات ثابتة وفوقه وشاح حريري مربوط تحت ذقنها.

في الثالثة والنصف تصعد السلالم المؤدية إلى مكاتب فارمرز وتذهب إلى غرفة الاستشارات الخاصة بالدكتور روزين. بعدها تتوقف في متجر بيل للحلوى وتشتري صندوقاً يزن كيلوغرامين من الشوكولاتة المختلطة. لم تغير طريقها قط. من متجر بيل تعود مباشرة إلى شارع كاستروفيل ومن هناك إلى منزلها.

لم يكن هناك شيء غريب في ملابسها. كانت ترتدي ملابسها تماماً مثل أي امرأة ثرية من ساليناس خارجة للتسوق بعد ظهر يوم الاثنين - باستثناء أنها كانت ترتدي دائماً القفازات وهو أمر غير معتاد بالنسبة لساليناس.

جعلت القفازات يديها تبدو منفتحتين وبدينتين. كانت تتحرك وكأنها

محاطة بقذيفة زجاجية. لم تكن تتحدث إلى أحد بل بدت وكأنها لا ترى أحداً. من حين لآخر كان رجل هنا أو هناك يستدير للنظر إليها ثم يعود للقيام بعمله بتوتر. لكنها في الغالب كانت تتحرك وكأنها امرأة غير مرئية.

لعدد من الأسابيع تبعها كال مع الحرص على عدم لفت انتباهها. وبما أن كيت كانت تسير دائماً وهي تنظر للأمام بشكل مستقيم، فقد كان مقتنعاً بأنها لم تلاحظه.

عندما كانت كيت تدخل فناء منزلها، كان كال يعود إلى المنزل عبر طريق آخر. لم يكن بإمكانه أن يفسر لماذا استمر في ملاحظتها، إلا أنه أراد أن يعرف كل شيء عنها.

في الأسبوع الثامن ذهب إلى فناء منزلها كالمعتاد. انتظر قليلاً ثم مر عبر البوابة المتهالكة.

كانت كيت تقف خلف شجرة طويلة. قالت له ببرود: ماذا تريد؟

تجمد كال في مكانه وبالكاد أصبح يتنفس. ثم بدأ ممارسة تعلمها عندما كان صغيراً جداً. لاحظ وفهرس التفاصيل خارج موضوعه الرئيسي. بدأ بملاحظة كيف تنحني الرياح القادمة من الجنوب على الأوراق الصغيرة الجديدة للشجرة الطويلة. رأى المسار الموحد المسودّ بسبب كثرة الأقدام التي مشت فيه، ورأى أقدام كيت الواقفة بعيداً على جانب الوحل. سمع صوت محرك يتم تشغيله في الساحة الجنوبية، وشعر بالهواء البارد على الزغب المتزايد على خديه. وطوال الوقت كان يحرق في كيت وكانت تحرق به بدورها. ورأى في توليفة ولون عينيها وشعرها، وحتى في الطريقة التي ترفع فيها كتفيها عالياً أن آرون كان يشبهها إلى حد بعيد. لم يكن يعرف ملامح وجهه بما يكفي ليعرف أن فمها وأسنانها الصغيرة وعظام وجنتيها العريضة تشبهه. بقيا واقفين هكذا لبعض الوقت، إلى أن قالت كيت: «هذه ليست المرة الأولى التي تتبعني فيها. ماذا تريد؟»

أنزل رأسه: «لا شيء».

«من طلب منك أن تفعل هذا؟»

«لا أحد يا سيدتي».

«لن تخبرني أليس كذلك؟»

استمع كال إلى خطابه التالي والذي خرج قبل أن يتمكن من إيقافه بذهول: «أنتِ أمي وأردت أن أرى ما أنتِ عليه» كانت هذه هي الحقيقة، وكانت مثل لدغة أفعى.

«ماذا؟ ما هذا؟ من أنت؟»

قال «أنا كال تراسك». لقد شعر بالتغيير الدقيق في التوازن كما ذلك الذي يحدث لأرجوحة متحركة. أصبحت اليد العليا له الآن. على الرغم من أن تعبيرها لم يتغير، إلا أن كال علم أنها أصبحت في موقف دفاعي.

نظرت إليه عن كثب ولاحظت كل تقاسيمه، قفزت في ذهنها صورة قاتمة لتشارلز. فجأة قالت: «تعال معي!» استدارت وسارت متجهة إلى داخل المنزل.

تردد كال للحظة فقط قبل أن يتبعها. تذكر الغرفة المظلمة الكبيرة، لكن باقي المنزل كان غريباً بالنسبة له. كانت كيت تسبقه وهي تسير نحو القاعة ومنها إلى غرفتها. وبينما كانت تمر عبر مدخل المطبخ قالت: «شاي. كوبان!»

في غرفتها بدت وكأنها نسيته!. خلعت معطفها وهي تشد الأكمام بأصابعها المتفتحة بسبب ارتدائها القفازات. ثم توجهت إلى باب في الحائط في نهاية الغرفة حيث كان سريرها. فتحت الباب وذهبت إلى مكان جديد صغير: «تعال إلى هنا، وأحضر الكرسي معك».

تبعها إلى الغرفة الأقرب إلى صندوق، لم تكن بها نوافذ ولا زخارف من أي نوع. كانت جدرانها مطلية باللون الرمادي الغامق. غطت الأرضية سجادة رمادية صلبة. كان الأثاث الوحيد في الغرفة كرسيّاً ضخماً منفضاً بوسائد من



الحرير الرمادي، وطاولة قراءة، ومصباحاً أرضياً مغطى بغطاء ثخين. سحبت كيت سلسلة المصباح بيدها التي ترتدي قفازاً وقالت له: «أغلق الباب!»

ألقى الضوء بدائرة على طاولة القراءة ولم ينتشر إلا بشكل خافت من خلال الغرفة الرمادية. وبالفعل بدت الجدران الرمادية وكأنها تمتص الضوء وتدمره. استقرت كيت بحذر شديد بين الوسائد السميكة وأزالت قفازاتها ببطء. كانت أصابع يديها مضممة.

قالت كيت بغضب «لا تحدق هكذا. إنه التهاب المفاصل. أوه، تريد أن ترى أليس كذلك؟» قامت بفك الضمادة عن سبابتها اليمنى ووضعت إصبعها الملتهوي تحت الضوء. قالت: «ها هو - انظر إليه، إنه التهاب المفاصل». كانت تتن من الألم وهي تعيد لف الضمادة برفق «يا إلهي، هذه القفازات تؤلم! اجلس».

جلس كال على حافة كرسيه.

قالت كيت: «من المحتمل أن تصاب به أيضاً، كانت عمتي مصابة به، ووالدتي كانت قد بدأت للتو -» توقفت.

كان هناك طرق خفيف على الباب. صاحت كيت: «هل هذا أنت يا جو؟ ضع الصينية هناك، جو هل أنت هناك؟»

سمعت متممة عبر الباب.

قالت كيت بنبرة جافة: «هناك قمامة في الصالون، نظفها. لم تنظف آن غرفتها، أعطها تحذيراً آخر وأخبرها أنه تحذيرها الأخير. تذاكت إيفا الليلة الماضية، سأهتم بأمورها. جو، أخبر الطباخ أنه إذا قدم الجزر مرة أخرى هذا الأسبوع يمكنه حزم أمتعته. هل تسمعي؟»

وصلتها المتممة من خلف الباب.

قالت كيت بتذمر: «هذا كل شيء». الخنازير القذرة! سيتعفنون إذا لم أشرف عليهم. اخرج وأحضر صينية الشاي».

كانت غرفة النوم فارغة عندما فتح كال الباب. حمل الصينية ووضعها بحذر شديد على طاولة القراءة. كانت صينية فضية كبيرة، وعليها إبريق شاي من القصدير، وفنجانان من الشاي الأبيض رقيقان كما الورق، وسكر، وكريمة، وعلبة شوكولاتة مفتوحة.

قالت كيت: «اسكب الشاي، هذا يؤلم يدي». وضعت قطعة شوكولاتة في فمها: «رأيتك تنظر إلى هذه الغرفة. الضوء يؤلم عيني. وآتي إلى هنا لأستريح». رأت نظرة سريعة من كال إلى عينيها فكررت: «الضوء يؤذي عيني». ثم قالت بحدة: «ما الأمر؟ ألا تريد تناول الشاي؟»

قال كال، «لا سيدتي، أنا لا أحب الشاي».

أمسكت بالكوب الرقيق بأصابعها. حسنا. ماذا تريد؟  
«لا شيء سيدتي».

«أردت فقط أن تنظر إلي؟»

«نعم سيدتي».

«هل أنت راض؟»

«نعم سيدتي».

«كيف أبدو؟» ابتسمت له وظهرت أسنانها الصغيرة البيضاء الحادة.  
«جيدة».

«أين أخوك؟»

«في المدرسة على ما أعتقد، أو المنزل».

«كيف يبدو؟»

«إنه يشبهك أكثر».

«أوه، حقاً؟ يشبهني؟»

قال كال: «يريد أن يصبح قساً»

«ربما هذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر - أن يشبهني ويريد العمل في الكنيسة. يمكن لهذا الرجل أن يحدث الكثير من الضرر في الكنيسة. عندما يأتي شخص ما إلى هنا فإنه يكون حذراً. ولكن في الكنيسة يكون في غاية الانفتاح»  
قال كال: «هو جاد في ذلك».

مالت نحوه باهتمام: «املاً كوبي. هل أخوك بليد؟»

قال كال: «إنه لطيف».

«سألتك إذا كان بليداً».

«لا سيدتي»

استقرت ورفعت فنجانها الى فمها: «كيف حال والدك؟»

قال كال: «لا أريد التحدث عنه».

«أوه، لا! هل تحبه إذن؟»

قال كال: «أحبه جداً»

حدّقت فيه كيت، وهزها تشنج غريب - انقباض مؤلم ارتفع في صدرها للحظات ثم استعادت سيطرتها على نفسها.

«ألا تريد بعض الحلوى؟» سألته.

«نعم سيدتي. لماذا قمت بفعلها؟»

«لماذا فعلت ماذا؟»

«لماذا أطلقت النار على والدي وهربت منا».

«هل قال لك ذلك؟»

«لا. هو لم يخبرنا».

لمست إحدى يديها الأخرى وفزعت وكأن تياراً أحرقهما. سألته: «هل كان لدى والدك في أي وقت فتيات أو نساء يأتين إلى المنزل؟»

قال كال «لماذا أطلقتِ عليه النار ورحلتِ؟»

تشنج خذاها واستقام فمها كما لو أنها أصبحت تحت سيطرة شبكة من العضلات. رفعت رأسها وكانت عيناها باردتين وضحلتين.

قالت: «أنت تتكلم بكلام أكبر من عمرك، لكنك لا تتحدث بنضج كاف. ربما من الأفضل لك الركض واللعب ومسح أنفك».

قال: «في بعض الأحيان أجرب تنفيذ ذلك على أخي، لقد جعلته يرتبك ويبيكي، لا يعرف كيف أفعل ذلك. أنا أذكي منه، لكني لا أريد أن أفعل هذا. إنه يجعلني أشعر بالاشمئزاز».

التقطتها كيت كما لو كانت محادثتها الخاصة: «اعتقدوا أنهم أذكاء للغاية. نظروا إلي وظنوا أنهم يعرفونني. لقد خدعتهم، خدعت كل واحد منهم. وعندما ظنوا أن بإمكانهم أن يملوا عليّ ماذا أفعل - أوه! حينها خدعتهم بأفضل شكل. تشارلز، لقد خدعتهم حقاً بعد ذلك».

قال كال: «اسمي كيّلب. وصل كيّلب إلى أرض الميعاد. هذا ما يقوله لي، إنه موجود في الكتاب المقدس».

قالت كيت: «تقصد الصيني» وأكملت بصبر «اعتقد آدم أنه قد امتلكني. عندما كنت مصابة، ومنكسرة، أسكنني منزله وانتظرتني، طهى الطعام لي. لقد حاول أن يقيدني بهذه الطريقة، يتم تقييد معظم الناس بهذه الطريقة. عن طريق امتنانهم، شعورهم أنهم مدينون، وهذه أسوأ أنواع الأصفاد. لكن لا أحد يستطيع أن يقيدني. انتظرت وانتظرت حتى استعدت قوتي، ثم انفجرت لأنني كنت أعرف ما كان يفعله».

كانت الغرفة الرمادية هادئة لا يسمع فيها سوى أنفاسها المتحمسة. قال كال: «لماذا أطلقتِ عليه النار؟»

«لأنه حاول منعي. كان بإمكانني قتله لكنني لم أفعل. أردته فقط أن يسمح لي بالرحيل».

«هل تمنيت يوماً أن تبقي؟»

«يا إلهي، لا! حتى عندما كنت طفلة صغيرة كان بإمكانني فعل أي شيء أريده. لم يعرفوا أبداً كيف كنت أفعل ذلك. أبداً. كانوا دائماً على يقين من أنهم على حق. ولم يعرفوا أبداً - لم يعرف أحد مطلقاً». باغتها نوع من الإدراك: «ربما أنت تشبهني في هذا. ما الذي يمنع أن تكون كذلك؟»

وقف كال وشبك يديه خلف ظهره: «عندما كنت صغيرة، هل...» - توقف مؤقتاً لترتيب الفكرة - «هل شعرت يوماً بأنك تفتقدين شيئاً ما؟ كما لو أن الآخرين يعرفون شيئاً لم تعرفيه - وكأنه سر لا يخبرونك به؟ هل شعرت بهذا؟» بينما كان يتحدث بدأت تفقد الاهتمام، وبحلول الوقت الذي توقف فيه كانت قد سدت الطريق المفتوح بينهما.

قالت: «ما الذي أفعله، إنني أتحدث إلى الأطفال!»

فك كال يديه من خلفه ودفعهما في جيوبه.

قالت: «أتحدث إلى الأطفال ذوي أنوف مليئة بالمخاط، لا بد أنني جنت». أضاء وجه كال بالإثارة واتسعت عيناه.

قالت كيت «ما خطبك؟»

وقف ساكناً، جبهته تتلأأ بالعرق، ويداه مقيدتان بقبضتيه.

كيت، كما فعلت دائماً، تعاملت بسكين قسوتها الذكي ببراعة، ضحكت بهدوء: «ربما ورثت مني بعض الأشياء الممتعة، مثل هذه - » رفعت يديها الملتوييتين. ولكن إن كان هناك نوبات صرع فهي ليست مني». نظرت إليه متوقعة الصدمة وبدأت تقلق.

لكن كال قال بسعادة: «أنا ذاهب، سأذهب الآن، كل شيء على ما يرام. ما

قاله لي كان صحيحاً».

«ماذا قال لي؟»

قال كال: «كنت أخشى أن أكون نسخة منك».

قالت كيت: «أنت كذلك»

«لا، لستُ كذلك. أنا أشبه نفسي. لست مضطراً أن أشبهك».

«كيف تعرف ذلك؟».

«لقد عرفت للتو. لقد اكتشفت الأمر بالكامل. إذا كنت لئيمًا، فهو لؤمي

الخاص».

«هذا الرجل الصيني قد أطعمك حقًا بعض الهراء. لماذا تنظر إلي هكذا؟»

قال كال: «لا أعتقد أن الضوء يؤدي عينيك. أعتقد أنك خائفة».

«اخرج! هيا، اخرج من هنا!» صرخت به

«أنا ذاهب». ثم قال بينما يده على مقبض الباب: «أنا لا أكرهك. لكنني

سعيد لأنك خائفة».

حاولت الصراخ: «جو!» لكن صوتها صار غليظًا. فتح كال الباب وأغلقه

بقوة خلفه.

كان جو يتحدث إلى إحدى الفتيات في الصالون. سمعوا خطي سريعة

تقترب. لكن بحلول الوقت الذي نظروا فيه إلى أعلى كان الشخص قد وصل

إلى الباب وفتحه وخرج. كانت هناك خطوة واحدة فقط على الشرفة ثم صوت

ضربات أقدام على الأرض.

«ماذا كان هذا بحق الجحيم؟» سألت الفتاة.

قال جو «الله أعلم، في بعض الأحيان أعتقد أنني أرى أشياء».

قالت الفتاة: «أنا أيضًا، هل أخبرتك أن كلارا لديها حشرات تحت جلدها؟»

قال جو: «أعتقد أنها رأَت ظل الإبرة. في الواقع، حسب ما أرى أشعر أنه

كلما قلت معرفتك بالأمر، كنت أفضل حالًا».

وافقت الفتاة: «هذه هي الحقيقة».



## الفصل 40

### 1

جلست كيت على كرسيها الوثير وموجات من الأعصاب تخترق جسدها، وترفع الشعيرات الصغيرة وتحولها إلى نتوءات جليدية تلسعها أثناء تحركها. تحدثت بهدوء مع نفسها: «اثبتني الآن، اهديني، لا تدعي الأمر يربكك، توقفي عن التفكير لفترة. الأنف اللعين المليء بالمخاط!»

فكرت فجأة في الشخص الوحيد الذي جعلها تشعر بهذه الكراهية المرعبة. كان صموئيل هاملتون، بلحيته البيضاء ووجنتيه الورديتين وعيونه الضاحكة، تلك العيون التي رفعت قشرتها الخارجية ونظرت تحتها.

بالسبابة المضمّدة قامت بسحب سلسلة رفيعة معلقة حول رقبتها، سحبت السلسلة من صدرها. كان مفتاحان للإيداع الآمن معلقين في السلسلة، وساعة ذهبية بها دبوس فلور دي ليس، وأنبوب صغير من الصلب مع حلقة في الأعلى. قامت بحذر شديد بفك الجزء العلوي من الأنبوب وبسطت ركبتيها ونفضت من الأنبوب كبسولة جيلاتين. حملت الكبسولة تحت الضوء ورأت البلورات البيضاء بداخلها - ست حبات من المورفين. برفق شديد أعادت الكبسولة إلى أنبوبها وأغلقتها وأسقطت السلسلة داخل فستانها.

كانت كلمات كال الأخيرة تكرر نفسها مرارًا وتكرارًا في رأسها. «أنا سعيد لأنك خائفة». قالت الكلمات بصوت عالٍ لنفسها لقتل الصوت. توقف الإيقاع، لكن صورة قوية تشكلت في عقلها وتركتها تتشكل حتى تتمكن من فحصها مرة أخرى.



كان ذلك قبل توسيع المنزل. كانت كيت قد جمعت الأموال التي تركها لها تشارلز. تم تحويل الشيك إلى فواتير كبيرة، وكانت الفواتير محفوظة في صندوق ودائع آمن في بنك مقاطعة مونتيري.

كان ذلك في الوقت الذي بدأت فيه الآلام في يديها وقد أصبح لديها ما يكفي من المال للرحيل بعيداً. ولكن كان من الأفضل أيضاً الانتظار حتى تشعر بالتحسن أولاً.

لم تشعر بحالة جيدة بعدها، بالإضافة إلى أن نيويورك بدت باردة وبعيدة جداً.

وصلتها رسالة موقعة من إثيل. من هي إثيل بحق الجحيم؟ أيا كانت، لا بد أن تكون مجنونة لطلب المال. إثيل - كان هناك المئات من الإثيلات. وهذه كانت واحدة منهن تحاول أن تخربش بطريقة غير شرعية على وسادة مبطنة. لم يمض وقت طويل بعد ذلك، جاءت إثيل لرؤية كيت، وبالكد تعرفت عليها كيت.

جلست كيت على مكتبها متيقظة، حذرة، وواثقة. قالت لها «لقد مر وقت طويل».

ردت إثيل كجندي مسن يلتقي بالرقيب الذي درّبه. قالت: «لقد كنت في حالة سيئة». كان جسدها قد أصبح ثقيلاً وسميناً في كل مكان، وملابسها تفتقر للنظافة وتشي بالفقر.

«أين تقيمين الآن؟» سألتها كيت، وهي تتساءل بينها وبين نفسها عن مدى سرعة وصولها إلى صلب الموضوع.

«فندق باسيفيك. لدي غرفة هناك».

«أوه، إذن أنتِ لا تعملين في مبعي الآن؟»

قالت إثيل: «لم أستطع البدء مرة أخرى، ما كان عليكِ الاستغناء عني» مسحت دموعاً كبيرة من زوايا عينيها بطرف قفازها القطني: «الأمور سيئة. في البداية واجهت مشكلة عندما أتى ذلك القاضي الجديد. لقد حكم عليّ بتسعين يوماً. خرجت وأصبت بمرض جنسي ولم أعلم أنني مصابة به، ونقلته إلى صديق يعمل في عصابة. كسر عظامي، وجرح أنفي، وأفقدني أربعة أسنان. القاضي الجديد حكم عليّ بمائة وثمانين يوماً. إنه جحيم يا كيت، إنهم ينسون أنك كائن حي. لم أتمكن من البدء أبداً».

أومأت كيت برأسها بتعاطف بارد، كانت تعلم ما كانت إثيل بصدد قوله. وقبل أن تفعل فتحت درج مكتبها وأخرجت بعض النقود ودفعتها إلى إثيل.

قالت: «أنا لا أخذل أصدقائي أبداً. لماذا لا تذهبين إلى بلدة جديدة، تبدئين من جديد؟ قد يتغير حظك».

حاولت إثيل منع أصابعها من الإمساك بالمال. قامت بتهوية الأوراق النقدية مثل يد البوكر - أربع عشرات.

قالت إثيل بنبرة مختلفة: «كنت أتمنى نوعاً ما أن تسمح لي بأخذ أكثر من أربعين دولاراً».

«ماذا تقصدين؟»

«ألم تتلقي رسالتي؟»

«اي رسالة؟»

قالت إثيل: «أوه، حسناً، ربما ضاعت في البريد. إنهم لا يهتمون. على أي حال، كنت أتساءل إن كان بإمكانك الاعتناء بي. لا أشعر أنني بحالة جيدة على الإطلاق. هذا الوزن يجبر أحشائي إلى الأسفل». تنهدت ثم تحدثت بسرعة لدرجة أن كيت علمت أنها تدربت على ذلك.

«حسناً، ربما تتذكرين كيف كنت أمتلك دائماً نظرة مختلفة للأمور، كنت دائماً أتوقع الأشياء ثم تتحقق. أحلم دائماً بأشياء وتتحقق. كانوا يقولون إنني وسيطة روحية بالفطرة، هل تذكرين؟»

قالت كيت: «لا. لا أتذكر»

«لا؟ حسناً، ربما لم تلاحظي أبداً. الآخرون فعلوا، أخبرتهم بالكثير من الأشياء وتحققت».

«ما الذي تحاولين قوله؟»

«لقد حلمت بشيء، أتذكر ذلك لأنه كان في نفس الليلة التي ماتت فيها في». ركزت نظراتها على وجه كيت البارد وواصلت بإصرار: «كانت تمطر تلك الليلة، وكانت السماء تمطر في حلمي أيضاً. حسناً، في حلمي رأيتك تخرجين من باب المطبخ. لم يكن الظلام حالكاً، كان هناك القليل من ضوء القمر، وفي الحلم خرجت إلى الجزء الخلفي من المنزل وانحنيت هناك، لم أستطع رؤية ما كنت تفعلين هناك، ثم عدت زاحفة بسرية إلى المنزل. الأمر التالي الذي حدث - ماتت في». توقفت إثيل مؤقتاً متوقعة بعض التعليقات من كيت، لكن وجه كيت كان بلا تعابير.

انتظرت إثيل حتى تأكدت من أن كيت لن تتحدث، قالت: «حسناً، كما قلت لك، كنت أو من دائماً بأحلامي. إنه أمر مضحك، لم يكن هناك شيء باستثناء بعض زجاجات الدواء المحطمة وقطارة العين».

قالت كيت بتكاسل: «وأخذتها إلى الطبيب. ماذا قال عن محتوى الزجاجات؟»

«أوه، لم أفعل شيئاً من هذا القبيل».

قالت كيت: «كان يجب أن تفعلني».

«لا أريد أن أرى أحداً يقع في المشاكل. لقد عانيت بما يكفي من المتاعب. قمت بوضع الزجاج المكسور في مظروف واحتفظت به».

قالت كيت بهدوء: «ولذا أنتِ هنا من أجل النصيحة؟»

«نعم، سيدتي».

قالت كيت: «سأخبرك بما أعتقد. أعتقد أنك عاهرة عجوز وبالية وقد تعرضتِ للضرب على رأسك مرات كثيرة».

بدأت إثيل: «لا تبدئي بالقول إنني مجنونة».

«لا، ربما لستِ كذلك، لكنك متعبة ومريضة. قلت لك إنني لم أخذل صديقاً أبداً. يمكنكِ العودة إلى هنا. لا يمكنكِ العمل ولكن يمكنكِ المساعدة في التنظيف ومساعدة الطباخ. سيكون لديك سرير وستحصلين على وجباتك. ما رأيك بهذا بالإضافة إلى بعض المال في يدك؟».

تحركت إثيل بشكل مضطرب: «لا سيدتي. لا أعتقد أنني أريد أن أقيم هنا. ثم إنني لا أحمل هذا المظروف. لقد تركته مع صديق».

«ما الذي تنوينه؟» سألتها كيت.

«حسناً، فكرت إذا كان بإمكانك إعطائي مائة دولار شهرياً، هكذا يمكنني أن أستعيد صحتي وحياتي».

«قلتِ إنك تعيشين في فندق باسيفيك؟»

«نعم سيدتي - وتقع غرفتي في أعلى الردهة فوق مكتب الاستعلامات مباشرةً. موظف النوبة الليلية صديق لي. إنه لا ينام أبداً عندما يكون في الخدمة. شاب لطيف».

قالت كيت: «لا تنخدعي يا إثيل. كل ما عليك أن تقلقي بشأنه هو كم يريد منك هذا ال اللطيف. انتظري دقيقة». أحصت ست أوراق نقدية أخرى من فئة العشرة دولارات من الدرج الذي أمامها وسلمتها لإثيل التي قالت: «هل ستأتين في اليوم الأول من كل شهر أم يجب أن آتي هنا من أجله؟»

قالت كيت: «سأرسلها لك» ثم تابعت بهدوء: «إثيل، ما زلت أعتقد أنه يجب عليكِ تحليل تلك الزجاجات».

كانت إثيل ممسكة بالمال في يدها بإحكام. كانت يغمرها شعور بالانتصار اللذيذ. كانت واحدة من الأشياء القليلة التي نجحت فيها على الإطلاق. قالت «لن أفكر في القيام بذلك، ليس إلا إذا اضطررت لذلك».

بعد أن ذهبت، خرجت كيت إلى الجزء الخلفي من القطعة خلف المنزل. حتى بعد سنوات استطاعت أن ترى من عدم استواء الأرض أنه لا بد أنها قد حُفرت جيدًا.

في صباح اليوم التالي استمع القاضي إلى القضايا المعتادة للعنف والجشع الليلي. استمع نصفه فقط إلى الحالة الرابعة وفي نهاية الشهادة المقتضبة للشاهد المشتكي سأل: «كم خسرت؟»

قال الرجل ذو الشعر الداكن «ما يقرب من مائة دولار».

التفت القاضي إلى الضابط الذي اعتقلها «كم لديها؟»

«ستة وتسعون دولارًا. وقد ابتاعت قنينة ويسكي وسجائر وبعض المجلات من الموظف الليلي في الساعة السادسة صباح هذا اليوم».

بكت إثيل: «لم أر هذا الرجل في حياتي».

نظر القاضي في أوراقه: «حُكِمَ عليكِ بالفعل مرتين بتهم تتعلق بالدعارة والسرقة. أنت تكلفين الكثير. أريدكِ خارج المدينة بحلول الظهر». التفت إلى الضابط: «قل للعمدة أن يخرجها من المقاطعة». وقال لإثيل: «إذا عدتِ إلى هنا سأبقيكِ خلف حدود المقاطعة، وهي سان كوينتين، هل تفهمين؟»

قالت إثيل: «أيها القاضي، أريد أن أتحدث إليك وحدك».

«لماذا؟»

قالت إثيل: «يجب أن أخبرك بشيء، هذه مكيدة».

قال القاضي: «كل شيء مكيدة، التالي».

بينما كان نائب العمدة يقود إثيل على الجسر فوق نهر باجارو، كان الشاهد

المشككي يسير في شارع كاستروفيل باتجاه مبغى كيت، وغير رأيه وعاد إلى صالون حلاقة كينو لقص شعره.

### 3

زيارة إثيل لم تزعج كيت كثيرًا عندما حدثت. كانت تعرف كيف تهتم بعاهرة كانت تعمل لديها، وأن تحليل الزجاجات المكسورة لن يظهر أي شيء يمكن التعرف عليه على أنه سم. لقد كادت أن تنسى في، كان مجرد استعادتها في ذهنها ذكرى غير سارة. ومع ذلك وجدت نفسها تدريجيًا تفكر في الأمر.

ذات ليلة عندما كانت تتحقق من المواد الموجودة في فاتورة بقالة، لمعت فكرة مثل النيزك في رأسها. ومضت الفكرة وخرجت بسرعة لدرجة أنها اضطرت إلى التوقف عما كانت تفعله لمحاولة العثور عليها. كيف تورط وجه تشارلز الغامض وعينا (سام هاملتون) المرحتان في الفكرة؟ ولماذا انتابتها قشعريرة خوف منها؟

تخلت عنها وعادت إلى عملها، لكن وجه تشارلز كان وراءها وينظر من فوق كتفها. بدأت أصابعها تؤذيها فوضعت الحسابات بعيدًا وقامت بجولة في المنزل. كانت ليلة فاترة - ليلة ثلاثاء. لم يكن هناك عدد كافٍ من العملاء حتى لإقامة عرض السيرك.

كانت كيت تعرف مشاعر الفتيات تجاهها، كنَّ يخشينها بشدة، وقد احتفظت بهن بهذه الطريقة. من المحتمل أنهن كرهنها وهذا لا يهم أيضًا. المهم أنهن وثقتن بها. إذا اتبعن القواعد التي وضعتها لهن بشكل تام فستعني بهن وتحميهن. لم يكن هناك حب ولا احترام. لم تكافئهن قط وكانت تعاقب المخطئات منهن مرتين قبل أن تطردهن. كان مفتاح أمان الفتيات هو علمهن أنهن لن يعاقبن بدون سبب.

أثناء مرور كيت، كانت الفتيات يمثلن التعامل معها بعفوية بشكل متقن.

كانت كيت تدرك ذلك أيضًا. لكنها شعرت في هذه الليلة أنها ليست وحيدة. بدا أن تشارلز يسير إلى جانبها وخلفها.

مشت عبر غرفة الطعام ودخلت المطبخ، فتحت البراد ونظرت فيه. رفعت غطاء صندوق القمامة وفتشت النفايات. كانت تفعل هذا كل ليلة لكنها كانت تبحث بشكل أدق هذه الليلة.

عندما غادرت الصالون نظرت الفتيات إلى بعضهن ورفعت أكتافهن في حيرة. قالت إلويز، التي كانت تتحدث إلى جو ذو الشعر الأسود، «هل حدث شيء؟»

مكتبة  
t.me/soramnqraa

«لا أعلم لي. لماذا؟»

«لا أعرف. تبدو متوترة.»

«حسنًا، كان هناك شيء كما سباق فئران.»

«ماذا كان؟»

«انتظري دقيقة! أنا لا أعرف وأنت لا تعرفين.»

«فهمت. أهتم بشؤوني فحسب.»

قال جو: «نعم. دعينا نحافظ على الأمر على هذا النحو»

قالت إلويز: «لم أعد أريد أن أعرف.»

قال جو «الآن أنتِ على الطريق الصحيح.»

عادت كيت من جولتها. قالت لجو: «أنا ذاهبة إلى الفراش، لا توقظني إلا إذا كنت مضطراً.»

«أي شيء يمكنني القيام به؟»

«نعم، أعد لي إبريق شاي. هل أنت التي كويت ذلك الفستان يا إلويز؟»

«نعم، سيدتي.»

«لم تفعلني ذلك بشكل جيد».

«نعم، سيدتي».

كانت كيت قلقة. وضعت جميع أوراقها بشكل منظم في صناديق الرسائل الموجودة في مكتبها، عندما أحضر جو صينية الشاي طلبت منه وضعه بجانب سريرها.

مستلقة بين وسائدها وهي تحتسي الشاي، نقبت في أفكارها. ماذا عن تشارلز؟ ثم توصلت لتفسير.

كان تشارلز ذكياً، وسام هاملتون أيضاً بطريقته المجنونة كان ذكياً. كانت هذه هي الفكرة التي يحركها الخوف - وجود أشخاص أذكىء. مات كل من سام وتشارلز، لكن ربما كان هناك آخرون. تفكرت فيها ببطء شديد.

فلنفترض أنني كنت من أخرج الزجاجات من تلك الحفرة؟ فيم كنت سأفكر وماذا كنت سأفعل؟ ارتفعت حدة الذعر في صدرها. لماذا تم كسر الزجاجات ودفنها؟ إن لم تكن تحوي سمّاً! لماذا تم دفنها؟ ما الذي دفعها للقيام بذلك؟ التصرف الطبيعي هو أن تلقيها في نفايات الشارع الرئيسي أو في سلة المهملات. كان الدكتور وايلد ميتاً. لكن ما هي السجلات التي كان يحتفظ بها؟ لم تكن تعلم. فلنفترض أنها عثرت على الكأس وعلمت عما كان بداخلها. ألن تسأل شخصاً يعرف: «ماذا قد يحدث لو تناول أحدهم زيت كروتون؟»

«حسناً، فلنفترض أنك أعطيت الشخص جرعات صغيرة ولفترة طويلة؟» ستعرف. وربما شخص آخر سيعرف. لنفترض أنك سمعت عن سيدة ثرية أوصت بكل ممتلكاتها لفتاة جديدة ثم ماتت».

كانت كيت تعرف جيداً ما هو أول ما يمكن أن تفكر به، ما الجنون الذي جعلها تتسبب بنفي إثيل؟ الآن لن تتمكن من العثور عليها. كان من الأفضل



دفع مبلغ لإثيل مقابل إعادة الزجاجات. أين هي تلك الزجاجات الآن؟ في مغلف - لكن أين؟ كيف يمكن العثور على إثيل؟

ستعرف إثيل لماذا وكيف تم نفيها. لم تكن إثيل ذكية، لكنها ربما تكون قد أخبرت شخصاً ما ذكياً بما يكفي. وقد يروي هذا الصوت الثرثار ما سمعه منها، وكيف كانت في مريضة، وكيف كانت تبدو، وعن الوصية.

كانت كيت تتنفس بسرعة وبدأت وخزات الخوف الصغيرة تتسلل إلى جسدها. يجب أن تغادر إلى نيويورك أو أي مكان آخر - لا يهم بيع المنزل. لم تكن بحاجة إلى المال. كان لديها الكثير. لا يمكن لأحد أن يجدها. نعم، لكن إذا هربت وسمع الشخص الذكي إثيل وهي تحكي القصة، ألن يسهل ذلك الأمر؟

نهضت كيت من سريرها وأخذت جرعة كبيرة من الدواء المسكن. أصبح الخوف رابضاً إلى جانبها طوال الوقت، كانت بشكل ما مسرورة في داخلها عندما علمت أن الألم في يديها هو بسبب التهاب المفاصل، كان صوت شرير قد همس لها أنه قد يكون عقاباً.

لم تكن قد خرجت إلى المدينة كثيراً من قبل، لكنها الآن أصبحت مترددة في الخروج على الإطلاق. كانت تعلم أن الرجال يحدقون بها عارفين من تكون. لنفترض أن أحد هؤلاء الرجال كان له وجه تشارلز أو عيون صموئيل. كان عليها أن تدفع نفسها للخروج مرة في الأسبوع.

ثم قامت ببناء الغرفة الرمادية قائلة إن السبب هو أن الضوء يزعج عينيها، وبدأت تدريجياً تؤمن أن الضوء بالفعل يتسبب في إزعاج عينيها. حيث كانت تشعر بحرقة فيهما بعد ذهابها إلى المدينة. وأصبحت تمضي المزيد والمزيد من الوقت في غرفتها الصغيرة.

من الممكن لبعض الناس، كما كان لكيت، حمل فكرتين متعارضتين

في نفس الوقت. فقد كانت تعتقد أن الضوء يؤلم عينيها، وبنفس الوقت أن الغرفة الرمادية كانت عبارة عن كهف للاختباء فيه، حفرة مظلمة في الأرض، مكان يمكن أن تحديق فيه العيون. ذات مرة وهي جالسة على كرسيها المغطى بالوسائد فكرت في بناء باب سري حتى يكون لها سبيل للهروب. بعد ذلك أفضل شعورها الخطة وليس الفكرة. لن تكون محمية بعد ذلك. إذا تمكنت من الخروج، سيتمكن شيء من الدخول - ذلك الشيء الذي يحوم حول المنزل ويزحف بالقرب من الجدران ليلاً، محاولاً النظر من خلال النوافذ. تطلب الأمر الكثير والمزيد من الإرادة لكي تغادر كيت المنزل بعد ظهر يوم الإثنين. عندما بدأ كال في ملاحظتها، انتقلت إلى مستوى مختلف من الخوف، وعندما انتظرته خلف الشجرة، كانت قريبة جداً من الذعر.

لكن رأسها الآن غرق بعمق في وسائدها الناعمة وبدأت عيناها تشعران بالثقل اللذيذ الذي يحدثه المسكن.



## الفصل 41

### 1

انزلت الأمة بشكل غير محسوس نحو الحرب، خائفة ومنجذبة في نفس الوقت. لم يشعر الناس بصدمة الحرب منذ ما يقارب الستين عامًا. كانت المسألة الإسبانية بمثابة رحلة استكشافية أكثر منها حربًا. أعيد انتخاب السيد ويلسون رئيسًا في تشرين الثاني (نوفمبر) بناءً على وعد في برنامج الانتخابي بإبعادنا عن الحرب، وفي الوقت نفسه تلقى تعليمات لاتخاذ موقف حازم، وهو ما يعني بالضرورة المشاركة في الحرب. انتعشت الأعمال وبدأت الأسعار في الارتفاع. تجول وكلاء البيع البريطانيون في جميع أنحاء البلاد لشراء المواد الغذائية والأقمشة والمعادن والمواد الكيميائية. سرت حالة من الإثارة في جميع أنحاء البلاد. لم يؤمن الناس حقًا بالحرب حتى عندما خططوا لها، بينما عاش وادي ساليانس كما كان دائمًا.

### 2

كان كال يمشي إلى المدرسة مع آرون.

قال آرون: «تبدو متعبًا».

«حقًا؟»

«سمعت أنك عدت الليلة الماضية في الساعة الرابعة. ماذا تفعل إلى هذا

الوقت المتأخر؟»

«كنت أتجول - أفكر. ما رأيك في ترك المدرسة والعودة إلى المزرعة؟»

«لم؟»

«يمكننا كسب بعض المال من أجل أبي.»

«أنا سأرتاد الجامعة. ليتني أذهب الآن. الجميع يسخرون منا. أريد الخروج

من هذه المدينة.»

«أنت غاضب.»

«أنا لست غاضباً. لكنني لم أخسر المال. لم أكن صاحب فكرة خس

مجنونة. لكن الناس يضحكون علي أيضاً، ولا أعرف ما إذا كان هناك ما يكفي

من المال للجامعة.»

«لم يكن ينوي خسارة المال.»

«لكنه فعل.»

قال كال: «بقيت فقط هذه السنة والتي تليها قبل أن تتمكن من الذهاب إلى

الجامعة.»

«هل تعتقد أنني لا أعرف ذلك؟»

«إذا عملت بجد فربما يمكنك إجراء اختبارات القبول في الصيف المقبل

والذهاب في الخريف.»

تأرجح آرون «لا أستطيع فعل ذلك.»

«أعتقد أنك تستطيع. لماذا لا تتحدث مع المدير؟ وأراهن أن القس رولف

سيساعدك.»

قال آرون، «أريد الخروج من هذه المدينة. لا أريد أن أعود أبداً. لا يزالون

يسموننا رؤوس الخس. إنهم يضحكون علينا.»

«ماذا عن أبرأ؟»

«أبراستفعل ما هو أفضل لها».

سأل كال: «هل تريدك أن تذهب بعيدًا؟»

«ستفعل ما أريدها أن تفعله».

فكر كال للحظة: «اسمع. سأحاول كسب بعض المال. إذا تهيأت بشكل جيد للامتحانات واجتزتها قبل عام، سأساعدك في الذهاب الى الجامعة».

«هل تفعلها؟»

«بالتأكيد سأفعل».

«سأذهب وأرى المدير على الفور».

ناداه كال: «آرون، انتظر! اسمع! إذا أخبرك أنه يمكنك فعل ذلك، فلا تخبر أبي».

«ولم لا؟»

«كنت أفكر فقط كم سيكون الأمر رائعًا إذا ذهبت إليه وأخبرته أنك اجتزت الامتحانات».

«لا أرى الفرق».

«لا؟»

قال آرون: «لا، لا أفعل، يبدو الأمر سخيفًا بالنسبة لي».

نمت لدى كال رغبة شديدة في الصراخ به: «أنا أعرف من هي أمنا، ويمكنني أن أريها لك». لكن هذا من شأنه أن يقطع ويخترق قلب آرون.

التقى كال بأبرا في القاعة قبل أن يرن جرس المدرسة «ما خطب آرون؟» سأله.

«لا أعرف».

قال «نعم تعرفين»

«إنه هائم. أعتقد أنه ذلك القس».

«هل يمشي معك للمنزل؟»

«يفعل. لكن يمكنني أن أرى ما يدور في خلدته. إنه هائم»

«ما زال يخجل من مسألة الخس».

قالت أبراً: «أعلم أنه كذلك، وأحاول أن أخرجه منها. لكن ربما هو مستمتع بها».

«ماذا تقصدين؟»

قالت أبراً: «لا شيء».

بعد العشاء في تلك الليلة قال كال: «أبي، هل تمنع إذا نزلت إلى المزرعة بعد ظهر يوم الجمعة؟»

أدار آدم كرسيه «لم؟»

«أود فقط أن أرى وأتفرج»

«هل يريد آرون الذهاب؟»

«لا. أريد أن أذهب وحدي».

«لا أفهم لماذا تريد ذلك. لي، هل ترى أي سبب يمنعه من الذهاب؟»

قال لي «لا».

تأمل آدم كال: «هل حقاً تفكر بجديفة في الزراعة؟»

«أعتقد. إذا سمحت لي بتولي الأمر فسأزرعها يا أبي».

قال آدم: «أمام عقد الإيجار أكثر من عام».

«هل يمكنني زراعتها بعد ذلك؟»

«ماذا عن المدرسة؟»

«سأكون قد انتهيت من المدرسة».

قال آدم: «حسنًا، سنرى. قد ترغب في ارتياد الجامعة».

عند خروج كال من الغرفة تبعه لي «هلا أخبرتني بما يدور في رأسك؟»  
سأله.

«أريد فقط الاهتمام بالأمور».

«حسنًا أعتقد أنك لا تريد إخباري». استدار لي للعودة إلى المنزل. ثم نادى:  
«كال!» توقف الصبي. «هل أنت قلق يا كال؟»  
«لا».

«لدي خمسة آلاف دولار إذا ما احتجت يوماً»

«لماذا قد أحتاجها؟»

قال لي «لا أعرف».

### 3

أحب ويل هاملتون مكتبه الأشبه بالفص الزجاجي في المرآب. كانت اهتماماته التجارية أوسع بكثير من وكالة السيارات، لكنه لم يحصل على مكتب آخر. لقد أحب الحركة التي استمرت خارج قفصه الزجاجي المربع. وقد وضع زجاجًا مزدوجًا لإبعاد ضوء المرآب.

كان يجلس على كرسيه الجلدي الأحمر الدوار، ويستمتع بحياته في معظم الأوقات. عندما كان الناس يتحدثون عن شقيقه جو الذي كان يكسب الكثير من المال من الإعلانات في الشرق، يجيب ويل إنه كان يفضل أن يكون ضفدعًا كبيرًا في بركة صغيرة، يقول: «أخشى الذهاب إلى مدينة كبيرة. أنا فتى ريفي».

أحب الضحك الذي كان يرافقه دائمًا، كان هذا يثبت له أن أصدقائه يعرفون أنه ميسور الحال.

جاء كال لرؤيته صباح أحد أيام السبت. قال وهو يرى نظرة ويل المحيرة:  
«أنا كال تراسك».



«بالطبع. يا إلهي، ستصبح ولدًا كبيرًا. هل والدك في الأسفل؟»

«لا. جئت لوحدي».

«حسنًا، تفضل. لا أفترض أنك تدخن».

«أحيانًا. السجائر».

قدم له ويل علبة سجائر، فتح كال العلبة ثم أغلقها قائلاً: «لا أعتقد أنني سأفعل ذلك الآن».

نظر ويل إلى الولد وكان يروق له لأنه اعتقد أنه ذكي وليس بأحمق. قال له: «أفترض أنك ستبدأ العمل قريبًا جدًا».

«نعم سيدي. أفكر في إدارة المزرعة عندما أكمل المدرسة الثانوية».

قال ويل: «لا يوجد ربح في ذلك، المزارعون لا يكسبون أية أموال، بل الرجل الذي يشتري منهم ويبيع. لن تكسب أي أموال من الزراعة». علم ويل أن كال كان يختبره ويراقبه ولم يمانع بذلك.

وعلى الرغم من أن كال كان قد اتخذ قراره، إلا أنه سأل: «سيد هاملتون، ليس لديك أي أطفال أليس كذلك؟»

«لا. وأنا آسف لذلك. أعتقد أنني أشعر بالأسى حيال ذلك، لكن ما الذي يجعلك تسأل؟»

تجاهل كال السؤال. «هل يمكنك اعطائي بعض النصائح؟»

شعر ويل بشعور غامر من السرور: «إذا كان بإمكانني فسيسرني ذلك. ما الذي تريد أن تعرفه؟»

ثم فعل كال شيئًا وافق عليه هاملتون أكثر، استخدم الصراحة كسلاح: «أريد أن أجني الكثير من المال. أريدك أن تخبرني كيف أفعل ذلك».

حاول ويل التغلب على دافعه للضحك. مع أن البيان كان ساذجًا، إلا أنه لم يعتقد أن كال ساذج: «الكل يريد ذلك. ماذا تقصد بالكثير من المال؟»

«عشرون أو ثلاثون ألف دولار».

«يا إلهي!» قال ويل وهو يقرب كرسيه إلى الأمام. كان يضحك ولكن ليس في ازدياد، وابتسم كال مع ضحكته.

قال ويل: «هل يمكنك أن تخبرني لماذا تريد أن تكسب الكثير؟»

«نعم سيدي أستطيع». وفتح كال علبة السجائر ذات الرؤوس البيضاء وأشعلها. قال: «سأخبرك لماذا».

مال ويل بكرسيه إلى الورا مستمتعاً

«فقد والدي الكثير من المال».

قال ويل: «أعلم. لقد حذرته من محاولة شحن الخس عبر البلاد».

«حقاً؟ لماذا؟»

«لم تكن هناك ضمانات. رجل الأعمال يجب أن يحمي نفسه. أي حدث غير متوقع قد ينهيه، وقد حدث ذلك. أكمل».

«أريد أن أكسب ما يكفي من المال لأعيد له ما خسره».

«لماذا؟» سأله ويل وهو متعجب.

«أريد أن أفعل ذلك»

«أتجبه لهذا الحد؟»

«نعم».

انقبض وجه ويل واندفعت نحوه ذكرى مثل ريح تقشعر لها الأبدان. لم تتسلل إليه صور الماضي ببطء، أتى كل شيء في ومضة واحدة، كل السنوات، صور، مشاعر، ويأس، كل ذلك توقف بالطريقة التي توقف بها الكاميرا العالم. كان هناك صموئيل الجميل كما الفجر، وتوم الذكي البارح الذي كان ناراً غامضة، أونا التي ركبت العواصف، ومولي الجميلة، ديسي الضاحكة، جورج

الوسيم الذي تملأ حلاوته المكان مثل عبق الزهور، وجو الأصغر المحبوب.  
كل واحد منهم جلب دون جهد بعض الهدايا الأثيرة إلى الأسرة.

كل شخص منا تقريباً لديه صندوق سري لآلامه الخاصة والذي لا يشاركه فيه أحد. كان ويل قد أخفى بثره، بقي يضحك بصوت عالٍ ولم يدع غيرته تظهر أبداً. كان يرى نفسه بطيئاً، وسهلاً، ومحافظاً، وغير ملهم. لا حلم كبير رفعه عالياً، ولا يأس أجبره على تدمير نفسه. لقد كان دائماً هناك على حافة الهاوية، يحاول التمسك بحافة الأسرة بالهدايا، الرعاية، المنطق والتنفيذ. عمل في الحسابات، تعيين المحامين، والتنسيق مع متعهدي دفن الموتى، وفي النهاية دفع الفواتير. لم يدرك الآخرون حتى أنهم بحاجة إليه. لقد امتلك موهبة الحصول على المال والاحتفاظ به. كان يعتقد أن آل هاملتون يستهينون به بسبب موهبته الوحيدة. لكنه أحبهم بإصرار، وكان دائماً في متناول أيديهم بأمواله لإخراجهم من مشاكلهم. كان يشعر أنهم يخجلون منه، وقاتل بمرارة من أجل نيل تقديرهم له. لكن كل هذا كان في الريح المتجمدة التي هبت بدخله.

تبلمت قليلاً عيونه المتفخخة وهو محقق فيما وراء كال الذي سأله: «ما الأمر سيد هاملتون؟ ألا تشعر أنك بخير؟»

شعر ويل بعائلته لكنه لم يفهمها. وهم قبلوه دون أن يدركوا أن هناك شيئاً لفهمه. والآن أتاه هذا الصبي. فهمه ويل وشعر به وعرف ما يمر به. كان هذا هو الابن الذي كان يجب أن ينجيه، أو الأخ، أو الأب. وتغيرت رياح الذاكرة الباردة إلى دفء تجاه كال. دفء قبض على معدته واندفع نحو رثتيه.

أجبر انتباهه على العودة إلى المكتب الزجاجي. كان كال جالساً في كرسيه منتظراً.

لم يعرف ويل كم من الوقت استمر صمته. قال بصوت صارم: «كنت أفكر. لقد سألتني عن شيء، أنا رجل أعمال. لا أمنح الأشياء. أنا أبيعها»

«نعم سيدي». كان كال يقظًا، وشعر أن ويل هاملتون أحبه.

قال ويل «أريد أن أعرف شيئًا وأريد الحقيقة. هل ستخبرني الحقيقة؟»  
قال كال: «لا أعرف».

«أحب ذلك. كيف يمكنك أن تعرف قبل أن تسمع السؤال؟ أحب ذلك. هذا جواب ذكي وصادق. اسمع - لديك أخ. هل يحبه والدك أكثر منك؟»  
قال كال بهدوء: «الكل يفعل. الجميع يحب آرون».

«حقًا؟ ماذا عنك؟»

«نعم سيدي. نوعاً ما أفعل».

«ماذا تقصد بـ «نوعاً ما»؟»

«في بعض الأحيان أعتقد أنه غبي لكنني ما زلت أحبه».

«ماذا عن والدك؟»

قال كال: «أنا أحبه».

«وهو يحب أخاك أكثر».

«لا أعرف».

«وتقول إنك تريد إعادة الأموال التي فقدها والدك. لماذا؟»

كانت عيون كال عادةً شبه مغمضة وحذرة، لكنها الآن متسعة لدرجة أنها بدت وكأنها تنظر لكل ما حوله وتخترق ويل. شعر كال أنه قريب من روحه أكثر من أي وقت مضى.

قال «والدي رجل طيب. أريد فقط أن أعوضه لأنني لست جيدًا».

«وإذا فعلت ذلك ألن تصبح جيدًا؟»

قال كال «لا».

لم يقابل ويل أبدًا أي شخص يتحدث بمثل هذه التجرد. كان يشعر بنوع من

الإحراج بسبب شعوره بالعري، وكان يعني مدى صدق كال هنا. قال: «سؤال آخر فقط، ولن أمانع إذا كنت لا تود الرد عليه. لا أعتقد أنني شخصياً سأجيب عليه: لنفترض أنك حصلت على هذا المال وأعطيته لوالدك - ألن يخطر ببالك أنك بهذا كنت تحاول شراء حبه؟»

«نعم سيدي. سيخطر على بالي. وسيكون ذلك صحيحاً».

«هذا كل ما أرت سؤالك عنه. هذا كل شيء». انحنى ويل للأمام ووضع يديه على جبهته النابضة التي تتفصد عرقاً. لم يستطع أن يتذكر متى ارتجف بهذا الشكل. أما بالنسبة لكال، فقد كانت هناك قفزة انتصار حذرة، كان على يقين من أنه فاز لكن لم تُظهر تعابير وجهه أية إشارة.

رفع ويل رأسه وخلع نظارته ومسح الرطوبة عنها: «دعنا نخرج. دعنا نخرج في نزهة بالسيارة».

كان ويل يقود سيارة وينتون كبيرة، بغطاء محرك طويل يشبه التابوت وغمغمة قوية تنبعث من أحشائها. قاد سيارته جنوب كينغ سيتي عبر طريق المقاطعة، عابراً أقوى الربيع المتجمعة حيث المروج أمامهما، واللحن المنبعث من أسلاك السياج. وقمة جبل بيكو بلانكو الشامخة في مواجهة الغرب برأسها الثلجي، وخطوط الأوكالبتوس الممتدة عبر الوادي لكسر الرياح تتلألاً بأوراقها الجديدة.

عندما وصل إلى الطريق الجانبي المؤدي إلى أرض تراسك، توقف على جانب الطريق. لم يكن قد تحدث منذ خروجهما من مدينة كينغ سيتي، تباطأ المحرك الكبير مع همسة عميقة.

قال، وهو يتطلع إلى الأمام مباشرة: «كال، هل تريد أن تكون شريكاً معي؟»  
«نعم سيدي».

«لا أحب اتخاذ شريك بدون نقود. يمكنني إقراضك المال، ولكن هناك مشكلة فقط في ذلك».

قال كال: «يمكنني الحصول على المال».

«كم؟»

«خمسة آلاف دولار».

«أنت.. أنا لا أصدق ذلك». لم يرد كال.

عاد وقال: «أصدقك. هل ستقترضها؟»

«نعم سيدي».

«والفائدة؟»

«لا فائدة».

«هذه خطة جيدة. من أين ستحصل على المبلغ؟»

«لن أخبرك يا سيدي».

هز ويل رأسه وضحك. كان مسروراً: «ربما يكون تصرفي هذا أحمق، لكنني أصدقك - وأنا لست بأحمق». أطلق محركه ثم تركه في وضع الإبطاء مرة أخرى. «أريدك أن تستمع. هل تقرأ الصحف؟»

«نعم سيدي».

«سنشارك في هذه الحرب في أي دقيقة».

«هذا ما يبدو عليه الأمر».

«حسناً، يرى الكثير من الناس ذلك. الآن، هل تعرف السعر الحالي للفاصوليا؟ أعني، ما الذي يمكنك بيعه بمئة كيس في ساليانس؟»  
«لست متأكداً. أعتقد ثلاثة إلى ثلاثة ستات ونصف للرطل».

«ماذا تعني أنك غير متأكد؟ كيف تعرف ذلك؟»

«كنت أفكر في مطالبة والدي بالسماح لي بإدارة المزرعة».

«نعم، لكنك لا تريد الزراعة. أنت ذكي جداً. مستأجر والدك يدعى السيد

رتنائي. إنه سويسري إيطالي ومزارع جيد. لقد وضع ما يقرب من خمسمائة فدان في الزراعة. إذا استطعنا أن نضمن له خمسة سنتات للرطل ومنحه قرصاً للبذور فسوف يزرع الفاصوليا. وكذلك كل مزارع آخر هنا. يمكننا التعاقد لزراعة خمسة آلاف فدان من الفاصوليا.

قال كال: «ماذا سنفعل بحبوب بخمسة سنتات في سوق بثلاثة سنتات؟ نعم بالتأكيد! ولكن كيف يمكننا التأكد؟»

سأل ويل «هل نحن شركاء؟»

«نعم سيدي.»

«نعم ويل!»

«نعم ويل.»

«متى يمكنك الحصول على الخمسة آلاف دولار؟»

«بحلول الأربعماء المقبل.»

«هات يدك وصافحني!» تصافح الرجل القوي والصبي النحيل.

قال ويل وهو ما يزال ممسكاً بيد كال: «نحن الآن شركاء. لدي عقد مع وكالة المشتريات البريطانية. ولدي صديق في فيلق التموين. أراهن أنه يمكننا بيع جميع الفاصوليا المجففة بعشرة سنتات للرطل أو أكثر.»

«متى يمكننا البيع؟»

«سأبيع قبل أن نوقع على أي شيء. الآن، هل ترغب في الصعود إلى المنزل

القديم والتحدث إلى رتنائي؟»

قال كال: «نعم سيدي.»

انطلق ويل بسيارته الخضراء الكبيرة في الطريق الجانبي.

## الفصل 42

تأتي الحرب دائمًا لشخص آخر. كنا ندرك في ساليناس أن الولايات المتحدة كانت أعظم وأقوى دولة في العالم. كان كل أميركي محارباً منذ الولادة، وأميركي واحد يساوي عشرة أو عشرين أجنبيًا في القتال.

بعثة المكسيك وبواسطة فيا<sup>(1)</sup> أفسدت إحدى أساطيرنا التي كنا نؤمن بها لوقت طويل. كنا نعتقد حقًا أن المكسيكيين لا يستطيعون إطلاق النار بشكل مستقيم، بالإضافة إلى أنهم كسالى وأغبياء. عندما عادت قواتنا من الحدود قالوا إن أيًا من هذا لم يكن صحيحاً. يمكن للمكسيكيين إطلاق النار بشكل مباشر ومحترف! تفوق فرسان فيا على أبناء مدينتنا الذين لم تقوهم أمسيتان من التدريب في الشهر كثيرًا. وأخيرًا بدأ أن المكسيكيين قد تفوقوا على حملة بلاك

---

(1) حملة بانشو فيا أو المعروفة رسميًا في الولايات المتحدة باسم الحملة المكسيكية هي عملية عسكرية أجراها الجيش الأمريكي ضد القوات شبه العسكرية المكسيكية المتمردة بقيادة الجنرال المكسيكي فرانيسكو فيا عامي 1916 و1917. كانت الحملة ردًا على التوغل غير المشروع لقوات فيا في الولايات المتحدة والهجوم على قرية كولومبوس بمقاطعة لونا في نيو مكسيكو خلال الثورة المكسيكية. بدأت الحملة رسميًا في 14 مارس 1916، وانتهت في 7 فبراير 1917.

انتهى البحث النشط عن فيا بعد شهر في الميدان عندما قاومت القوات التي أرسلها فينوستيانو كارانزا، رئيس الفصيل الدستوري للثورة ورئيس الحكومة المكسيكية، التوغل الأمريكي. تم تغيير مهمة الولايات المتحدة لمنع المزيد من الهجمات عليها من قبل القوات المكسيكية والتخطيط لاحتمال الحرب. ظلت البعثة في المكسيك حتى فبراير 1917 لتشجيع حكومة كارانزا على متابعة فيا ومنع المزيد من الغارات عبر الحدود.



جاك بيرشينغ<sup>(1)</sup> وتغلبوا عليها. كما وانضم للمكسيكيين حليفهم الزحار، كان الأمر قاسياً. في الواقع لم يشعر بعض أولادنا بأنهم بخير مرة أخرى لسنوات. بطريقة ما لم نربط الألمان بالمكسيكيين. لقد عدنا مباشرة إلى أساطيرنا. كان الأمريكي يساوي عشرين ألمانياً. ولما كان هذا صحيحاً، كان علينا فقط أن نتصرف بطريقة صارمة لدفع القيصر إلى الاستسلام. لم يكن ليجرؤ على التدخل في تجارتنا - لكنه فعل. لم يكن ليخرج عنقه ويغرق سفننا - وقد فعل. لقد كان غيباً، لكنه فعل ذلك كله، ولم يكن هناك من خيار سوى محاربتة.

كانت الحرب، في البداية على أي حال، حرب أناس آخرين. كان لدينا، أنا وعائتي وأصدقائي، حصانة من نوع ما وكان الأمر مثيراً للغاية. وكما أن الحرب دائماً ما يخوضها شخص آخر، فمن الصحيح أيضاً أن شخصاً آخر هو من يُقتل دائماً. ويا إلهي! هذا لم يكن صحيحاً أيضاً. بدأت البرقيات المروعة تتسلل بحزن إلى الداخل، وكانت بشأن شقيق لشخص أو آخر. وكنا هنا، على بعد أكثر من ستة آلاف ميل من الغضب والضجيج، وهذا أيضاً لم ينقذنا.

لم يكن الأمر ممتعاً بعد ذلك. يمكن للجماليات أن تشارك في الاستعراضات وهن يرتدين القبعات والزي الرسمي الأبيض. يمكن إعادة كتابة خطاب الاستقلال في الرابع من يوليو واستخدامه لبيع السندات. يمكننا في المدرسة الثانوية أن نرتدي القبعات الزيتونية الباهتة وندرس دليل الأسلحة من مدرس الفيزياء، ولكن يا إلهي! مات مارتي هوبس، الصبي الوسيم الذي كانت أختنا الصغيرة مفتونة به منذ أن كانت في الثالثة من عمرها، لقد تمزق إلى أجزاء!

---

(1) هي حملة الجنرال جون بيرشغ، جنرال في القوات الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى وقائد للقوات الأمريكية والحرب ضد الهنود الحمر. بعد خدمته في الشرق الأقصى تولى قيادة المنطقة العسكرية في سان فرانسيسكو وكان هو من قاد القوة العسكرية المنطلقة من الولايات المتحدة إلى المكسيك من أجل تأديب قوات الثوار المكسيكيين بقيادة فيا.

كان الشباب المجندون حاملين حقائبهم ويسرون في الشارع الرئيسي متجهين نحو مستودعات الباسيفيك وهم يجرون خطاهم بخجل، سار فريق ساليناس أمامهم وهو يعزف «النجوم والشارات إلى الأبد».<sup>(1)</sup>

كان هناك بعض الذين بدأوا يتحدثون بهدوء في غرف حمامات السباحة والحانات في ساليناس. كان لدى هؤلاء معلومات خاصة تصلهم من جندي ما - لم نكن نفهم الحقيقة. لقد تم إرسال رجالنا بدون أسلحة. غرقت القوات ولم نخبرنا الحكومة. كان الجيش الألماني متفوقاً جداً على جيشنا لدرجة أنه لم تكن لدينا فرصة. كان ذلك القيصر ذكياً، وكان يستعد لغزو أمريكا. لكن هل أخبرنا ويلسون بهذا؟ لا. وعادة ما يكون هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين قالوا يوماً إن أمريكياً واحداً يساوي عشرين ألمانياً - إنهم أنفسهم.

تحركت مجموعات صغيرة من البريطانيين بزبهم العسكري الغريب (لكنهم بدوا أذكياً) في جميع أنحاء البلاد واشتروا كل ما لم يمكنك تسميته ودفَعوا ثمنه بمبالغ كبيرة. كان عدد كبير منهم مشلولين لكنهم كانوا يرتدون زبهم الرسمي. من بين أشياء أخرى قاموا بشراء الفاصوليا، لأن الفاصوليا سهلة النقل ولا تفسد ويمكن للمرء أن يعيش عليها بشكل جيد. كانت الفاصوليا تباع باثني عشر سنتاً ونصفاً للرطل ويصعب العثور عليها. وتمنى المزارعون لو أنهم لم يكونوا قد تعاقدوا على بيع محاصيلهم من الفاصوليا مقابل سنتين رديئتين للرطل.

غيرت الأمة ووادي ساليناس أغانيها. في البداية كنا نغني أغاني تتحدث عن كيف سنهزم هيلغولاند<sup>(2)</sup> ونشقى القيصر ونسير الى هناك وننظف الفوضى التي

---

(1) «النجوم والشارات للأبد» هي أنشودة مسيرة أمريكية وطنية كتبها ولحنها جون فيليب سوزا. بموجب قانون صادر عن الكونغرس الأمريكي عام 1987، أصبحت المسيرة الوطنية الرسمية للولايات المتحدة الأمريكية.

(2) هيلغولاند هو أرخبيل ألماني صغير يقع في بحر الشمال. كان سابقاً ملكاً للدنمارك

تسبب بها الأجانب. ثم فجأة أصبحنا نترنم بـ «في اللعنة الحمراء للحرب تقف ممرضة الصليب الأحمر<sup>(1)</sup>»، ونغني: «مرحباً يا موظف الهاتف، هلا أوصلتني بالجنة؟ فوالدي هناك...»<sup>(2)</sup>. أعتقد أننا كنا كما صبي قوي ولكن عديم الخبرة وتعرض لأول لكمة في أنفه وأوجعته بشدة، وكنا نتمنى أن ينتهي الأمر.

---

وبريطانيا، وتقع الجزر في خليج هليغولاند في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر الشمال. تعد الجزر الوحيدة التي لا تقع في المنطقة المتاخمة للبر الألماني الرئيس ويستغرق وقت الإبحار حوالي ثلاث ساعات من كوكسهافن عند مصب نهر إلبه.

(1) أغنية كُتبت تقديراً لمرضات الصليب الأحمر في الخطوط الأمامية للحرب العالمية الأولى.

(2) أغنية شهيرة نُشرت لأول مرة في عام 1901 من كلمات وألحان تشارلز هاريس، وكانت من بين أشهر أغانيه وتحدث عن فتاة ترغب في استخدام الهاتف للاتصال بوالدها المتوفى.

## الفصل 43

### 1

في أواخر الصيف خرج لي إلى الشارع حاملاً سلة التسوق الكبيرة. كان قد أصبح أميركياً محافظاً بملابسه منذ أن عاش في ساليانس. كان يرتدي دائماً ملابس سوداء من الجوخ عندما يخرج من المنزل. قمصانه بيضاء بياقات عالية وصلبة وبناطيله سوداء ضيقة، مثل تلك التي كانت ذات يوم شارة أعضاء مجلس الشيوخ الجنوبيين. كانت قبعاته سوداء، مستديرة التاج ومستقيمة الحافة، وكان مبهراً في أناقته ونظافته.

بمجرد أن علّق آدم على أناقة ملابس لي ابتسم الأخير ابتسامة عريضة وقال: «لا بد لي من القيام بذلك. يجب على المرء أن يكون ثرياً جداً ليرتدي ملابس سيئة كملابسك. الفقراء مجبرون على ارتداء ملابس جيدة».

«فقير!» انفجر آدم: «أنت قد تقررنا المال قبل أن نفلس».

قال لي: «ربما»

بعد ظهر ذلك اليوم وضع سلته الثقيلة على الأرض: «سأحاول صنع حساء البطيخ الشتوي. إنه من المطبخ الصيني. لدي ابن عم في الحي الصيني، وقد أخبرني عن طريقة صنعه. ابن عمي يعمل في مجال ألعاب القمار».

قال آدم: «اعتقدت أنه ليس لديك أي أقارب».

قال لي: «جميع الصينيين مرتبطون ببعضهم البعض، وأولئك الذين يحملون اسم لي هم الأقرب. ابتعد ابن عمي مؤخراً من أجل الاهتمام بصحته

وتعلم الطبخ. تضع البطيخ في قدر وتقطع الجزء العلوي بعناية، وتضع في جوفها دجاجة كاملة، وتضيف الفطر، كستناء الماء، الكراث، والقليل من الزنجبيل. ثم تعيد وضع الجزء العلوي على البطيخ وتطهيه ببطء قدر الإمكان لمدة يومين. يقول إنه لذيذ».

كان آدم مسترخياً على كرسيه وكفاه مشدودتان خلف رأسه وابتسم للسقف. قال: «جيد يا لي، جيد».

قال لي «أنت حتى لم تستمع».

قام آدم بتعديل جلسته: «تعتقد أنك تعرف أطفالك، ثم تكتشف أنك لا تعرفهم على الإطلاق».

ابتسم لي: «هل هربت منك بعض تفاصيل حياتهم؟».

ضحك آدم. قال: «اكتشفت ذلك بالصدفة. كنت أعرف أن آرون لم يكن موجوداً كثيراً هذا الصيف، لكنني اعتقدت أنه كان منشغلاً كمن هم في سنه باللعب».

«باللعب!» قال لي: «لقد توقفت عن اللعب منذ سنوات».

«أقصد أيّ كان ما يفعله». وتابع آدم: «التقيت اليوم بالسيد كيليني - تعرفه من المدرسة الثانوية، كان يعتقد أنني أعرف كل شيء عن الأمر. هل تعرف ماذا يفعل ذلك الفتى؟»

قال لي «لا».

«لقد غطى كل أعمال العام المقبل. سيخضع لامتحانات الجامعة وسيوفر عامًا. وكليني واثق من أنه سينجح. والآن ما رأيك في ذلك؟»

قال لي: «هذا رائع طبعاً، لكن لماذا يفعل ذلك؟»

«لماذا، لتوفير عام!»

«توفيره من أجل ماذا؟»

«يا إلهي يا لي، إنه طموح. ألا يمكنك فهم ذلك؟»

قال لي «لا. لا أفهم أبداً».

قال آدم: «لم يتكلم عن الأمر قط. أتساءل عما إذا كان شقيقه يعلم».

«أعتقد أن آرون يريد أن تكون مفاجأة. لا ينبغي أن نذكر ذلك حتى يفعل

هو».

«أظن أنك محق. هل تعلم يا لي؟ - أنا فخور به. فخور للغاية. هذا يجعلني

أشعر أنني بحالة رائعة. أتمنى أن يكون لدى كمال بعض الطموح».

قال لي «ربما لديه. ربما لديه سره الخاص أيضاً».

«ربما. لا أراه كثيراً مؤخراً أيضاً. هل تعتقد أنه من الجيد أن يقضي كل هذا

الوقت بعيداً؟»

قال لي «كالم يحاول أن يجد نفسه. أعتقد أن لعبة الغمضة هذه ليست غريبة.

بعض الناس يبقون كذلك طيلة حياتهم - وبشكل مؤوس منه».

قال آدم «فكر فقط، عام كامل. عندما نخبرنا يجب أن نحضر له هدية».

قال لي «ساعة ذهبية».

قال آدم: «نعم، سأشتري واحدة وأجعلها محفورة وجاهزة. ماذا يجب أن

أكتب له؟»

قال لي: «الصائغ سيخبرك. تخرج الدجاجة بعد يومين وتقطع العظم وتعيد

اللحم».

«أي دجاجة؟»

قال لي «حساء البطيخ الشتوي».

«هل لدينا ما يكفي من المال لإرساله إلى الجامعة يا لي؟»

«إذا كنا حريصين ولم يمل هو للأذواق باهظة الثمن».

قال آدم: «لم يكن ليفعل».

«لم أكن أعتقد أنني سأفعل أيضاً - لكنني فعلت». قال لي وهو يتفقد كم معطفه بإعجاب.

## 2

كان بيت القساوسة التابع لكنيسة القديس بولس الأسقفية كبيراً. تم بناؤه لاستضافة الوزراء وعائلاتهم الكبيرة. السيد رولف، غير متزوج وبسيط في ذوقه، كان قد أغلق معظم أقسام المنزل، ولكن عندما احتاج آرون إلى مكان للدراسة، منحه غرفة كبيرة وساعده في دراسته.

كان السيد رولف معجباً بآرون. كان يحب جمال وجهه الملائكي وخديه الناعمين، ووركه الضيق، وسيقانه الطويلة المستقيمة. كان يحب الجلوس في الغرفة ومشاهدة وجه آرون المنهك من الجهد. لقد فهم سبب عدم تمكن آرون من العمل في المنزل في جو لا يفضي إلى التفكير النظيف. شعر السيد رولف أن آرون كان نتاجه وابنه الروحي ومساهمته في الكنيسة. لقد أشرف عليه خلال مشوار تبته وشعر أنه كان يوجهه إلى المياه الهادئة.

كانت مناقشاتهما طويلة ووثيقة وشخصية. قال السيد رولف: «أعلم أنني أتعرض للنقد، لكنني أؤمن بضرورة وجود كنيسة أقوى. لا أحد بإمكانه أن يقول إن الاعتراف ليس بنفس أهمية تناول القربان المقدس. واصغ لكلمتي هذه؛ سأعيده، ولكن بحذر، وبالتدرج».

«عندما تكون لدينا كنيسة سأفعل ذلك أيضاً».

قال السيد رولف: «الأمر يتطلب براعة كبيرة».

قال آرون، «أتمنى أن يصبح لدينا في كنيستنا. حسناً، فلأقل هذا أيضاً، أتمنى

لو كان لدينا شيء مثل الفرنسييسكانيين<sup>(1)</sup>. مكان ما للاعتزال. أشعر أحياناً بالقدارة وأريد الابتعاد عن الأوساخ وأن أكون نظيفاً.

قال السيد رولف بجدية: «أعرف كيف تشعر، لكن لا أستطيع أن أوافقك في هذا. لا يمكنني تصور أن يسوع يريد أن ينسحب كهنوته من خدمة العالم. فكر كيف أصر على أن ندرس الإنجيل، ونساعد المرضى والفقراء، وننزل إلى القذارة لانتشال المذنبين من الوحل. يجب أن نحافظ على مثاله الدقيق أمامنا دائماً».

بدأت عيناه تتوهجان وصوته استقر في النبوة التي كان يستخدمها في خطبه. ربما لا يجب أن أخبرك بهذا. وأتمنى ألا تعتبره تفاخراً بل هو نوع من المجد. على مدى الأسابيع الخمسة الماضية، انتهت إلى وجود امرأة تأتي إلى القديس المسائي. لا أعتقد أنه يمكنك رؤيتها من مكانك في الكورال. إنها تجلس دائماً في الصف الأخير على الجانب الأيسر - لا بل يمكنك رؤيتها أيضاً. ترتدي خماراً ودائماً تغادر قبل عودتي من فترة الراحة».

«من هي؟» سأل آرون.

«عليك أن تتعلم هذه الأشياء. لقد قمت بإجراء استفسارات سرية للغاية لن تخمنها أبداً. إنها - حسناً - صاحبة بيت سيئ السمعة - مبغى».

«هنا في ساليناس؟»

«هنا في ساليناس». انحنى السيد رولف إلى الأمام. «آرون، يمكنني رؤية اشمئزازك. عليك تجاوز ذلك. لا تنس قصة يسوع مع مريم المجدلية. بدون فخر أقول إنني سأكون سعيداً بالاعتناء بها».

---

(1) الرهبنة الفرنسييسكانية، ويعرف رهبانها باسم الفرنسييسكان، هي رهبنة في الكنيسة الكاثوليكية، تأسست على يد القديس فرنسيس الأسيزي في شمال إيطاليا في القرن الثالث عشر تحديداً عام 1208 وثبت قوانينها البابا إينوسنت الثالث عام 1209، وتعتمد على روحانية القديس فرنسيس، والقوانين التي وضعها بشكل أساسي.



«ماذا تريد من مجيئها الى هنا؟» طالب آرون.

«ربما ما نقدمه - الخلاص. سيتطلب الأمر براعة كبيرة ويمكنني أن أرى كيف سيكون. وتذكر كلماتي: هذه الفئة من الناس تشعر بالخزي والخجل. في يوم من الأيام ستطرق بابي وتتوسل للدخول. ثم، آرون، أدعو الرب أن أكون آنذاك حكيماً وصبوراً. صدقني - عندما يحدث ذلك، عندما تصل إليك روح ضالة وباحثة عن النور، تكون هذه أعلى وأجمل تجربة يمكن أن يمر بها الكاهن. هذا ما نحن هنا من أجله يا آرون. هذا ما نحن هنا من أجله».

كان السيد رولف يتحكم في نفسه بصعوبة: «وأدعو الرب ألا أفسل».

### 3

فكر آدم تراسك في الحرب من منظور الحملة التي شارك فيها ضد الهنود والتي لا يتذكرها الكثيرون الآن. لم يعرف أحد أي شيء عن حرب ضخمة وعامة. وقرأ لي التاريخ الأوروبي محاولاً أن يميز من خيوط الماضي بعض أنماط المستقبل.

ماتت ليزا هاملتون بابتسامة صغيرة على فمها، بدت عظام وجنتيها مرتفعة بشكل صادم بعدما غاب اللون الأحمر عنهما.

انتظر آدم بفارغ الصبر أن يأتي آرون بأخبار امتحاناته. كانت الساعة الذهبية الضخمة موضوعة تحت مناديل في الدرج العلوي من مكتبه، وأبقى عليها ملفوفة بعد أن قام بضبطها وفحص دقتها مقابل ساعته.

أعطى لي تعليماته؛ في مساء يوم الإعلان يطهو ديكاً رومياً ويخبز كعكة.

قال آدم: «سرعّب في إقامة حفلة، ما رأيك في الشمبانيا؟»

قال لي «جميل جداً، هل قرأت من قبل ل فون كلاوزفيتز؟»

«من هذا؟»

قال لي: «القراءة له ليست مطمئنة للغاية. زجاجة واحدة من الشمبانيا؟»  
«نعم، هذا يكفي. إنه فقط من أجل رفع النخب، كما تعلم، هذا سيجعل منها  
حفلة». لم يخطر ببال آدم للحظة أن آرون قد يفشل.  
بعد ظهر أحد الأيام جاء آرون وسأل لي: «أين أبي؟»  
«إنه يحلق».

قال آرون: «لن أكون موجوداً لتناول العشاء». في الحمام وقف خلف والده  
وتحدث إلى صورة وجهه في المرأة «السيد رولف طلب مني تناول العشاء في  
منزل القس».

مسح آدم موس موسى على قطعة مطوية من ورق التواليت. قال «هذا  
لطيف».

«هل يمكنني الاستحمام؟»

قال آدم: «سأخرج من هنا خلال دقيقة واحدة».

عندما سار آرون في غرفة المعيشة وتمنى للجميع ليلة سعيدة وخرج، نظر  
إليه كل من كال وآدم. قال كال: «لقد استخدم الكولونيا الخاصة بي، بإمكانني  
شم رائحته».

قال آدم: «لا بد أنها حفلة».

«لا ألومه على رغبته في الاحتفال. كان ذلك عملاً شاقاً».

«احتفال؟»

«الامتحانات. ألم يخبرك؟ لقد اجتازها».

قال آدم: «أوه، نعم، الامتحانات. نعم أخبرني. عمل جيد. أنا فخور به.  
أعتقد أنني سأحضر له ساعة ذهبية».

قال كال بحدة: «لم يخبرك!»

«أوه نعم نعم، لقد فعل. أخبرني هذا الصباح».

قال كال: «لم يكن يعلم هذا الصباح»، وقام وخرج.

سار بسرعة كبيرة في الظلام إلى خارج شارع سنترال أفينيو، متجاوزًا الحديقة ومنزل ستونوول جاكسون سمارت إلى المكان الواقع خلف أضواء الشارع، حيث أصبح الشارع طريقًا للمقاطعة ومنحرفًا لتجنب منزل ومزرعة تولوت.

في الساعة العاشرة صباحًا، خرج لي لإرسال رسالة بالبريد ووجد كال جالسًا على أدنى درجة من الشرفة الأمامية «ماذا حدث لك؟» سأل.

«ذهبت لأتمشى».

«ما خطب آرون؟»

«لا أعرف».

«يبدو أنه يحمل نوعا من الضغينة. هل تود الذهاب إلى مكتب البريد مشياً

معي؟»

«لا».

«لماذا تجلس هنا؟»

«سأضربه بكل ما أوتيت من قوة».

قال لي «لا تفعل ذلك».

«ولم لا؟»

«لأنني لا أعتقد أنك تستطيع. قد يذبحك».

قال كال: «أعتقد أنك على حق، ابن العاهرة!»

«انتبه لكلامك».

ضحك كال: «أعتقد أنني سأذهب معك».

«هل قرأت من قبل ل فون كلاوزفيتز؟»

«لم أسمع به حتى من قبل.»

عندما عاد آرون إلى المنزل كان لي هو الذي ينتظره على أدنى درجة من الشرفه الأمامية. قال لي: «لقد أنقذتك من بعض الضرب. اجلس.»

«أنا ذاهب إلى الفراش.»

«اجلس! أريد أن أتحدث إليك. لماذا لم تخبر والدك أنك اجتزت الاختبارات؟»

«لن يفهم.»

«لديك حشرة في مؤخرتك.»

«لا أحب هذا الأسلوب.»

«لماذا تعتقد أنني استخدمته؟ أنا لست مبتدلاً بالصدفة. آرون، والدك يعيش من أجل هذا.»

«كيف عرف؟»

«كان يجب أن تخبره بنفسك.»

«هذا ليس من شأنك.»

«أريدك أن تدخل وتوقفه إذا كان نائمًا، لكنني لا أعتقد أنه سيكون نائمًا. أريدك أن تخبره.»

«لن أفعل ذلك.»

قال لي بهدوء: «آرون، هل اضطررت يوماً لقتال رجل صغير، رجل بنصف حجمك؟»

«ماذا تقصد؟»

«إنها واحدة من أكثر الأشياء إخراجًا في العالم. لأنه لن يتوقف وسرعان ما

ستضطر لأن تضربه وهذا أسوأ. وبالتالي تكون وقتها حقًا في مشكلة من كل الجوانب».

«عم تتحدث؟»

«إذا لم تفعل ما أطلبه منك يا آرون فسأفاتلك. أليس هذا سخيفًا؟»

حاول آرون أن يمر. لكن لي وقف أمامه وكور قبضتيه الصغيرتين بشكل غير مؤثر، كانت وقفته سخيفة للغاية لدرجة أنه بدأ يضحك وقال: «لا أعرف كيف أفعل هذا، لكنني سأحاول».

تراجع آرون بعصبية عنه. وعندما جلس أخيرًا على الدرج تنهد لي بعمق. قال «الحمد لله أن هذا انتهى. كان يمكن أن يكون مروعًا. انظر آرون، ألا يمكنك إخباري ما بك؟ كنت دائمًا تخبرني».

فجأة انهار آرون: «أريد أن أذهب بعيدًا. هذه مدينة قدرة».

«لا، ليست كذلك. إنها مشابهة تمامًا للأماكن الأخرى».

«أنا لا أنتمي إلى هنا. أتمنى لو لم نأت إلى هنا من الأساس. لا أعلم ما خطبي. أريد فقط أن أذهب بعيدًا». ارتفع صوته إلى النحيب.

وضع لي ذراعه حول كتفيه العريضتين لتهدئته «أنت تكبر. في بعض الأحيان أعتقد أن العالم يختبرنا بحدة في هذه الفترة، ونتجه حينها نحو الداخل ونراقب أنفسنا برعب. لكن هذا ليس هو الأسوأ».

نعتقد طوال الوقت أن الجميع يراقبنا، ثم هناك الأوساخ شديدة القذارة والنقاوة الشديدة البياض والاشراق. آرون، سوف يمر وينتهي هذا كله. انتظر قليلاً فقط وستراه ينتهي. أعلم أن هذا الكلام لا يريحك كثيرًا الآن لأنك لا تصدقه، لكنه أفضل ما يمكنني فعله من أجلك. حاول أن تصدق أن الأشياء ليست جيدة ولا سيئة كما تبدو لك الآن. نعم، أستطيع مساعدتك. اذهب إلى الفراش الآن، وفي الصباح استيقظ مبكرًا وأخبر والدك عن امتحاناتك. اجعل

الأمر مثيراً. إنه أكثر شعوراً بالوحدة منك لأنه ليس لديه مستقبل جميل يحلم به. خذ الأمور ببساطة كما كان يقول سام هاملتون. ادّع أن هذا صحيح وربما يصبح كذلك. خذ الأمور ببساطة، افعل ذلك. والآن اذهب إلى السرير. يجب أن أخبز كعكة للإفطار. وآرون، ترك لك والدك هدية على وسادتك».



## الفصل 44

### 1

بعد أن ذهب آرون إلى الجامعة، تعرفت أبراً على أسرته حقاً. كان آرون وأبرا قد قاما بتسييح نفسيهما. ومع ذهاب آرون، تعلقت أبراً بآل تراسك الآخرين. وجدت أنها تثق بآدم أكثر وتحب لي أكثر من والدها.

فيما يتعلق بكال لم تستطع أن تقرر بعد. كان يزعجها أحياناً بالاستفزاز وأحياناً بالإيلام، وأحياناً بالفضول. بدا أنه في صراع دائم معها. لم تكن تعرف ما إذا كان يحبها أم لا، ولذا لم تحبه. كانت تشعر بالارتياح عندما تذهب إلى منزل آل تراسك ولم يكن كال موجوداً، لينظر إليها سرّاً، ويطلق الأحكام عليها، وقيّمها، ويفكر، ويشيح بعينه عندما تقبض عليه متلبساً بالنظر إليها.

كانت أبراً امرأة مستقيمة، قوية، رشيقة الصدر، متحضرة ومستعدة للزواج. كانت تذهب إلى منزل تراسك بعد المدرسة وتجلس مع لي وتقرأ له أجزاء من رسائل آرون اليومية.

كان آرون وحيداً في ستانفورد. كانت رسائله غارقة في الشعور بالوحدة والشوق لفتاته. لقد كانا معاً حقيقة، ولكن من الجامعة، على بعد تسعين ميلاً، منحها الحب بشغف جارف، معتزلاً الحياة من حوله. كان يدرس ويأكل وينام ويكتب لأبرا، كانت هذه حياته كلها.

في فترة ما بعد الظهر كانت تجلس في المطبخ مع لي وتساعده في جمع الفاصوليا أو إخراج البازلاء من قرونها. في بعض الأحيان كانت تصنع الفدج



وفي كثير من الأحيان تبقى لتناول العشاء بدلاً من العودة إلى المنزل للبقاء مع والديها. لم يكن هناك موضوع لا يمكنها مناقشته مع لي. بينما المواضيع القليلة التي استطاعت التحدث عنها لوالدها ووالدتها كانت سطحية وشاحبة ومرهقة وغير صحيحة في الغالب. لي كان مختلفاً، أرادت أبرا أن تخبره بالأشياء الحقيقية فقط حتى عندما لم تكن متأكدة تماماً مما هو صحيح.

كان لي يجلس مبتسماً قليلاً ويده السريعة الهشة تتجول في عملها كما لو كان لديها حياة مستقلة. لم تكن أبرا على علم بأنها كانت تتحدث عن نفسها بشكل حصري. وأحياناً أثناء حديثها، كان عقل لي يتجول ويعود ويخرج مرة أخرى، كان يهز رأسه على فترات ويصدر صوت همهمة هادئة.

أحب أبرا وشعر بقوتها وطبيعتها ودفئها أيضاً. كانت ملامحها تتمتع بالقوة العضلية الجريئة التي يمكن أن تؤدي في النهاية إما إلى القبح أو الجمال الرائع. فكر لي، وهو يتأمل خلال حديثها، في الوجوه الناعمة المستديرة للكانتونيين من سلالته الخاصة. حتى النحفاء منهم كانوا يمتلكون وجوه مدوّرة. كان من المفترض أن يحب لي هذا النوع من الملامح أكثر من غيرها لأن الجمال في نظر الأفراد يتمثل فيما يشبههم إلى حد ما، لكنه لم يفعل. كان عندما يفكر في الجمال الصيني، تخطر في ذهنه الوجوه المفترسة الحديدية للمانشو، وهي وجوه متغطسة وعنيدة لأناس تمتعوا بالسلطة بسبب الميراث الذي لا يمكن الجدل فيه.

قالت: «ربما كان يشعر بذلك طوال الوقت، لا أعلم. لم يكن يتحدث كثيرا عن والده. كان ذلك بعد أن مرّ السيد تراسك بـ - تعلم - الخس. أصبح آرون غاضباً منذئذ».

«لماذا؟» سأل لي.

«لأن الناس كانوا يضحكون عليه».

برز عقل لي كله: «يضحكون على آرون؟ لماذا عليه هو؟ لم تكن له أي علاقة بالأمر».

«هذا ما شعر به، هل تريد أن تعرف رأيي؟»

قال لي «بالطبع».

«لقد اكتشفت ذلك ولم أفهمه تماماً بعد. لطالما كان يشعر، كيف أقولها، بنوع من الإعاقة، ربما للأمر علاقة بعدم وجود أم في حياته».

اتسعت عيون لي على مصراعيها ثم عادت واسترخت مرة أخرى، أو ما برأسه: «أفهمك. هل تعتقد أن كال يشعر بهذه الطريقة أيضًا؟»  
«لا».

«إذن لماذا آرون يفعل؟»

«حسنًا، لم أتوصل للإجابة على ذلك بعد. ربما يحتاج بعض الناس إلى أمور معينة أكثر من غيرهم، أو يكرهون أموراً أكثر. أبي يكره اللفت. كان دائماً يفعل. لم يحدث له هذا الأمر لسبب معين. اللفت يفضبه جداً. في إحدى المرات كانت والدتي نزقة، وصنعت طبقاً من اللفت المهروس ووضعت فوقه الكثير من الفلفل والجبن وجعلته كله بنيًا. أكل والدي نصف طبق منها قبل أن يسأل ما هو. قالت له أمي إنه لفت، ألقى بالطبق على الأرض ونهض وخرج. لا أعتقد أنه قد سامحها أبداً».

ضحك لي: «يمكنه أن يغفر لها لأنها قالت اللفت. لكن أبرا، افترضني أنه سأل وقالت شيئاً آخر وأعجبه وتناول طبق آخر. وبعد ذلك اكتشف الأمر، ربما كان قتلها».

«أظن ذلك. حسنًا، على أي حال، أعتقد أن آرون بحاجة إلى أم أكثر من كال. وأعتقد أنه كان يلوم والده دائماً».

«لماذا؟»

«لا أعرف. هذا ما أعتقد».

«أنت تنتبهين الى التفاصيل كثيراً، أليس كذلك؟»

«أيجدر بي ألا أفعل؟»

«بل بالطبع يجب عليك ذلك»

«هل أقوم بتحضير بعض الفدج؟»

«ليس اليوم. ما يزال لدينا البعض منه»

«ماذا أفعل؟»

«يمكنك سحق الدقيق. هل تبقيين معنا للعشاء؟»

«لا. انا ذاهبة الى حفلة عيد ميلاد، شكراً لك. هل تعتقد أنه سيصبح قساً؟»

«كيف لي أن أعرف؟ ربما تكون مجرد فكرة مؤقتة»

«قلت أبراً: «أمل ألا يفعل ذلك»، وغطت فمها مندهشة بعد أن قالت ذلك.

نهض لي وأخرج لوح المعجنات ووضع اللحم الأحمر ومنخل دقيق

بجانبه. قال «استخدمي الجانب الخلفي من السكين».

«أعرف». قالت وهي تأمل أنه لم يسمعها.

لكن لي سأل: «لماذا لا تريدينه أن يكون قساً؟»

«لا ينبغي أن أقول ذلك».

«عليك أن تقولي ما تريدين قوله. ليس عليك أن تشرحي». عاد إلى كرسيه

ونخلت أبراً الطحين فوق اللحم وضربت اللحم بسكين كبيرة: «لا يجب أن

أتحدث هكذا. لكنه ماض في اتجاه واحد، وجوب أن تكون سلطة الكنيسة

أقوى، وضرورة عدم زواج رجال الدين».

نوه لي: «ليست هذه هي الطريقة التي بدت بها رسالته الأخيرة».

«أعرف. هذا كان في السابق». بدت في حيرة مؤلمة وأردفت: «لي، أنا لست

جيدة بما يكفي بالنسبة له».

«توقفي عن هذا الآن! ماذا تقصدين بذلك؟»

«لا أمزح. إنه لا يفكر بي. لقد اختلق أخرى ويبدو كما لو أنه وضع بشرتي عليها. أنا لست كذلك - لست هذا الكائن الذي اختلقه».

«كيف تبدو؟»

«نقية، نقية تمامًا. لا شيء فيها سوى النقاء - لا شيء سيئ بها مطلقاً، وأنا لست كذلك».

قال لي «لا أحد كذلك».

«إنه لا يعرفني. لا يريد حتى أن يعرفني. يريد ذلك الشبح الأبيض».

فرك لي قطعة من البسكويت «ألا تحببينه؟ أنت صغيرة جداً، لكنني لا أعتقد أن هذا يحدث أي فرق».

«بالطبع أحبه وسأصبح زوجته. لكنني أريده أن يحبني أيضاً. لكن كيف يفعل ذلك إذا كان لا يعرف شيئاً عني؟ كنت أعتقد أنه يعرفني، والآن لم أعد متأكدة من أنه فعل ذلك على الإطلاق».

«ربما يمر بوقت عصيب وهذا لن يستمر للأبد. أنت فتاة ذكية - ذكية جداً. هل من الصعب جداً محاولة الارتقاء إلى المستوى الذي ألبسه بشرتك؟»  
«أخشى أنه دائماً سيرى في داخلي شيئاً ليس موجوداً في الكائن الذي اختلقه. سيأتي يوم أو وقت أغضب فيه أو أشم رائحة كريهة - أو أي شيء آخر. سيكتشف ذلك».

قال لي: «ربما لا، ولكن حتماً من الصعب أن تعيشي كالسيدة العذراء والشخصية الأخرى في نفس الوقت. رائحة البشر بالفعل كريهة في بعض الأحيان».

تحركت نحو الطاولة: «لي، أتمنى -»

قال: «لا تسكبي الدقيق على الأرض. ماذا تتمنين؟»

«حسب علمي، أعتقد أن آرون، بسبب فقدانه لأمه، جعلها مثالاً لكل شيء جيد يمكنه التفكير فيه».

«ربما يكون الأمر كذلك. وبعد ذلك تعتقدون أنه ألقى كل شيء عليك». حدقت به وهي تمرر أصابعها برفق لأعلى ولأسفل نصل السكين. واصل لي: «وتتمنين أن تجدي طريقة ما للتخلص من كل ذلك مرة أخرى».

«نعم».

«افتراضي أنه لن يحبك بعد ذلك؟»

قالت: «أفضل اغتنام الفرصة. أفضل أن أكون نفسي».

قال لي: «لم أر أي شخص يتورط في شؤون الآخرين بالطريقة التي أفعلها. وأنا رجل ليست لديه إجابة نهائية لأي شيء. هل ستدقين هذا اللحم أم أفعل أنا؟»

عادت إلى العمل: «هل ترى أنه من المضحك أن أكون جادة لهذه الدرجة بينما لم أكمل الثانوية بعد؟» سأله.

قال لي: «لا أرى كيف يمكن أن يكون الأمر بأية طريقة أخرى. الضحك يأتي لاحقاً مثل ضرر العقل، والضحك على نفسك يأتي أخيراً في سباق مجنون مع الموت، وأحياناً لا يأتي في الوقت المناسب».

تسارعت سرعة ضرباتها للحم وأصبحت متقطعة وعصية. ثم توقفت: «هل السيدة تراسك على قيد الحياة؟»

علقت سبابة لي على حبة فول للحظة ثم سقطت ببطء، كان يعلم أنها كانت تنظر إليه. يمكنه حتى أن يرى في عقله كيف سيكون تعبيره بمثابة دعر من سؤالها. تسارع تفكيره مثل جرد علق للتو في فخ الأسلاك. تنهد واستدار ببطء ونظر إليها، وكان تصوّره دقيقاً.

قال لي بلا نبرة: «لقد تحدثنا كثيراً ولا أتذكر أننا تحدثنا مرة عني أبداً -

أبدًا». ابتسم بخجل وواصل حديثه: «أبرأ، دعيني أخبرك عن نفسي. أنا خادم. عجوز. صيني. تعرفين ذلك. أنا متعب وجبان - قاطعته: «أنت لست كذلك»

قال: «ابقي صامته. أنا جبان جداً. لا أضع إصبعي في أي فطيرة بشرية». «ماذا تقصد؟»

«أبرأ، هل والدك يكره أي شيء آخر عدا اللفت؟»  
أصبح وجهها عنيداً: «أنا سألتك سؤالاً».

قال بصوت هادئ: «لم أسمع سؤالاً. أنتِ لم تسأليني سؤالاً يا أبرأ». «أعتقد أنك تظن أنني صغيرة جداً».

«ذات مرة عملت لدى امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها قاومت التجريب والتعلم والجمال. كانت في السادسة من عمرها مبعث يأس لوالديها. وفي سن الخامسة والثلاثين سُمح لها بالتحكم في الأموال وحياة الأشخاص من حولها. لا يا أبرأ، العمر ليس له علاقة بالأمر. إذا كان لدي أي شيء أقوله - فسأقوله لك».

ابتسمت الفتاة له: «أنا ذكية، هل أمارس ذكائي؟»  
احتج لي قائلاً: «فليساعدني الرب - لا».  
«إذن أنت لا تريدني أن أحاول معرفة الحقيقة»

«لا يهمني ما تفعلينه طالما أنه لا علاقة لي به. أعتقد أنه بغض النظر عن مدى ضعف وسلبية الرجل الصالح، فإن لديه العديد من الخطايا التي عليه تحملها، وأنا لدي ما يكفي من الذنوب لتزعجني. ربما قد لا تكون خطايا كبيرة مقارنة ببعض، لكنها كذلك بالطريقة التي أشعر بها، وهي كل ما يمكنني الاعتناء به. برجاء اعذريني».

مدّت أبرا يدها عبر الطاولة ولمست ظهر يده بأصابعها الطرية. كان الجلد الأصفر على يده مشدوداً وشفافاً. نظر إلى البودرة البيضاء التي لطخت أصابعها اليسرى.

قالت أبرا: أراد أبي ولدًا. أعتقد أنه يكره اللفت والفتيات. يخبر الجميع عن تلك القصة عن منحي هذا الاسم المجنون».

ابتسم لها لي: «يا لك من فتاة لطيفة، سأشتري بعض اللفت غدًا إذا أتيت لتناول العشاء».

سألت أبرا بهدوء: «هل هي على قيد الحياة؟»

قال لي «نعم».

انغلق الباب الأمامي، ودخل كال إلى المطبخ «مرحبا أبرا. لي، هل أبي في المنزل؟»

«لا ليس بعد. ما الذي يجعلك تبتسم لهذا الحد؟» سلمه كال شيكًا «هاك هذا لك». نظر لي إليه وقال: «لم أطلب فائدة»

«هذا أفضل. قد أرغب في استعارته مرة أخرى».

«ألن تخبرني من أين حصلت عليه؟»

«لا. ليس بعد. لدي فكرة جيدة» - تحركت عيناه نحو أبرا.

قالت: «لا بد لي من العودة إلى المنزل الآن».

قال كال: «يمكنها أن تكون موجودة أيضاً. قررت أن أفعل ذلك في عيد الشكر ومن المحتمل أن تكون أبرا هنا وسيعود آرون إلى المنزل».

«ستفعل ماذا؟» سألته أبرا.

«لدي هدية لأبي».

«ما هي؟»

«لن أقول. سوف تكتشفين في الوقت المناسب».

«هل يعرف لي؟»

«نعم، لكنه لن يقول».

قالت أبراً: «لا أعتقد أنني رأيتك هكذا من قبل - بهذا المرح»

قال ملاطفاً: «لا أعتقد أنني رأيتكِ مرحة على الإطلاق». اكتشفت في نفسها

شعوراً بالدفء نحوه.

بعد أن ذهبت أبراً جالس كال وقال: «لا أعرف ما إذا كنت سأعطيها له قبل

عشاء عيد الشكر أم بعده».

قال لي «بعده. هل حصلت على المال حقاً؟»

«خمسة عشر ألف دولار».

«حقاً؟»

«تقصد هل سرقتها؟»

«نعم».

قال كال: «حقاً. هل تذكر كيف أحضرنا الشمبانيا لأرون؟ سنحضر

الشمبانيا. و - حسناً، ربما نزين غرفة الطعام، ربما تساعدك أبراً».

«هل تعتقد حقاً أن والدك يريد المال؟»

«لم لا؟»

قال لي: «أتمنى أن تكون على حق. كيف هي أمورك في المدرسة؟»

«ليست جيدة». قال كال.

## 2

بعد المدرسة في اليوم التالي، سارعت أبراً ولحقت بـ كال. قال: «مرحبا

أبراً، أنت تصنعين حلوى فدج طيبة».



«كانت آخر مرة جافة. يجب أن تكون دسمة أكثر».

«لي مجنون بك. ماذا فعلت به؟»

قالت: «أحب لي. أريد أن أسألك شيئاً كال».

«نعم؟»

«ما خطب آرون؟»

«ماذا تقصدين؟»

«يبدو أنه لا يفكر إلا في نفسه».

«لا أعتقد أن هذا أمر جديد. هل تشاجرتِ معه؟»

«لا. عندما كان يتحدث عن العمل في الكنيسة وعدم الزواج، حاولت

التشاجر معه، لكنه لم يفعل».

«ألن يتزوجك؟ لا أستطيع تخيل ذلك».

«كال، إنه يكتب لي رسائل حب - لكنها ليست لي».

«إذن لمن؟»

«يبدو الأمر كما لو كانت - لنفسه».

قال كال: «أعرف عن شجرة الصفصاف».

لم تبد متفاجئة: «حقاً؟».

«هل أنت غاضبة من آرون؟»

«لا، ليس غضباً. أنا فقط لا أستطيع العثور عليه. لم أعد أعرفه».

قال كال: «اصبري، ربما يمر بحالة ما».

«أتساءل إن كان سيكون بخير. هل تعتقد أنه من الممكن أن أكون مخطئة

طوال هذا الوقت؟»

«كيف لي أن أعرف؟»

«كال. هل صحيح أنك تخرج في وقت متأخر من الليل وتذهب إلى بيوت - بيوت سيئة؟»

قال «نعم. هذا صحيح. هل أخبرك آرون؟»  
«لا، ليس آرون. لماذا تذهب إلى هناك؟» سار بجانبها ولم يجب.  
كررت: «قل لي».

«فيم ينفعلك جوابي؟»

«هل هذا لأنك سيء؟»

«كيف يبدو الأمر بالنسبة لك؟»

قالت: «أنا لست جيدة أيضًا».

قال كال: «أنت مجنونة، وآرون سوف يخلصك من هذا الجنون».

«هل تعتقد أنه سيفعل؟»

قال كال: «يجب عليه أن يفعل».

مكتبة  
t.me/soramnqraa



## الفصل 45

### 1

اقتصر تعامل جو فاليري مع ما حوله على المشاهدة والاستماع، وكما وصف نفسه، لم يتدخل في شؤون أحد أبداً. لقد بنى كراهيته بالتدرج - بدءاً من أم أهملته، وأب كان يجلدته، وكان من السهل عليه نقل كراهيته المتنامية إلى المعلم الذي قام بتأديبه والشرطي الذي طارده والكاهن الذي نصحه. وحتى قبل أن ينظر إليه القاضي الأول بازدراء، كان جو قد طور توليفة رائعة من الكراهية تجاه العالم بأسره.

لا يمكن للكراهية أن تنمو بمفردها. يجب أن يكون الحب متواجداً كمحفز، دافع، أو منبّه. طور جو في وقت مبكر حباً وقائياً لطيفاً لجو. كان يحنو على جو ويعتز به. أقام الجدران لإنقاذ جو من العالم المعادي في الخارج. وبالتدرج أصبح جو محمياً من الخطأ. إذا وقع جو في مشكلة، فذلك لأن العالم كان يحيك مؤامرة ضده. وإذا هاجم جو العالم، فهذا انتقام يستحقه أبناء العاهرات. لقد أغدق جو كل اهتمامه على حبه، وقد أسس لنفسه مجموعة من القواعد التي ربما تكون على هذا النحو:

1. لا تصدق أحداً؛ فالأوغاد خلفك دائماً.
2. ابق فمك مغلقاً.
3. ابق أذنك مفتوحتين، وعندما يرتكبون زلة تمسك بها وانتظر.
4. الجميع أبناء عاهرات، ومهما فعلت سيقولون أنك تستحق ما أنت فيه.

5. تعامل مع كل شيء بشكل غير مباشر.

6. لا تثق أبدًا في أي سيدة بشأن أي شيء.

7. ضع إيمانك في الخُبز. الجميع بحاجة له. والجميع قد يبيع ما يملك للحصول عليه.

كانت هناك قواعد أخرى لكنها كانت مجرد تحسينات. نجح نظامه، وبما أنه لم يعرف سواه، لم يكن لدى جو أي أساس لعمل مقارنة مع أنظمة أخرى. كان يعلم أنه من الضروري أن يكون ذكيًا وكان يعتبر نفسه بالفعل ذكيًا. إذا نجح في شيء، فهذا لأنه ذكي؛ وإذا فشل، كان ذلك حظًا سيئًا. لم يكن جو ناجحًا جدًا لكنه نجح في ذلك وبأقل جهد ممكن. احتفظت به كيت لأنها كانت تعلم أنه سيفعل أي شيء في العالم إذا حصل على أجر للقيام به. لم تكن لديها شكوك بشأنه. كان جو ضرورة في عملها.

عندما حصل على الوظيفة لأول مرة مع كيت، كان جو يعلم عن نقاط الضعف في المكان الذي يعيش فيه - الغرور، الشهوة، القلق أو تأنيب الضمير، الجشع، والهستيريا. كان يعلم أن هذه الأمور موجودة لأنها كانت امرأة. لكنها كانت صدمة كبيرة له عندما علم أنها إذا كانت موجودة في كيت، فلم يتمكن من العثور عليها. هذه السيدة كانت تفكر وتتصرف كرجل - بشكل أقوى وأسرع وأكثر ذكاءً فحسب. ارتكب جو بعض الأخطاء التي مرغت كيت أنفه فيها. كان إعجابه بها مبنياً على الخوف.

عندما وجد أنه لا يستطيع الإفلات من بعض الأشياء، بدأ يؤمن أنه لا يستطيع الإفلات من أي شيء. جعلت منه كيت عبداً كما كان دائماً يخلق عبادات من النساء. كانت تطعمه، تكسوه، تعطيه الأوامر، وتعاقبه.

عرف جو أنها أكثر ذكاءً منه، وكانت تلك خطوة قصيرة نحو الاعتقاد بأنها أكثر ذكاءً من أي شخص آخر. كان يعتقد أنها تمتلك الهبتين العظيمتين: كانت

ذكية وكانت غنية - ولا يمكنك أن ترغب في أفضل من ذلك. كان سعيداً للقيام بالجانب الخشن من أعمالها ولم يكن يخشى ذلك. قال جو إن كيت لا ترتكب أخطاء، وإذا لعبت وفق تعليماتها ستعطني بك. ثم تجاوز هذا الأمر إلى ما هو أبعد من فكرة وأصبح نمطا وعادة. عندما ترك إثيل لتهميم خلف حدود المقاطعة، لم يكن ذلك سوى يوم عمل. كان عملا خاص بـ كيت، وكيت امرأة ذكية.

## 2

لم تستطع كيت أن تنام بشكل جيد عندما كانت آلام التهاب المفاصل سيئة. كانت تشعر أن مفاصلها تتورم وتضمر. حاولت أحيانا التفكير في أشياء أخرى، حتى الأشياء غير السارة، لإبعاد الألم والأصابع المشوهة عن عقلها. حاولت أحيانا أن تتذكر تفاصيل غرفة لم ترها لفترة طويلة. في بعض الأحيان كانت تستعين بالذكريات. تذكرت وجه السيد إدواردز وملابسه والكلمة التي ختمها على المشبك المعدني لحمالاته. لم تكن قد انتبهت لذلك من قبل، لكنها عرفت أن الكلمة هي «إكسلسيور».<sup>(1)</sup>

غالبًا ما كانت تفكر في في في الليل، تتذكر عينيها وشعرها ونبرة صوتها وكيف كانت ذراعاها ترتجان، وكتلة اللحم الصغيرة بجانب إبهامها الأيسر؛ ندبة من جرح قديم. فكرت كيت في شعورها تجاه في. هل كرهتها أم أحببتها؟ هل أشفقت عليها؟ هل هي آسفة لأنها قتلتها؟ كانت كيت تتغلب على أفكارها مثل الدودة القياسة. وجدت أنها لا تشعر بأي شعور تجاهها؛ لا تحب ولا تكره شخصها أو ذكراها. كانت هناك أوقات في فترة احتضارها عندما كان صراخها ورائحتها تزيد من غضب كيت لذلك فكرت في قتلها بسرعة لتنتهي من ذلك كله.

(1) كلمة لاتينية تعني «إلى الأعلى دائما» وتستخدم كشعار لولاية نيويورك منذ عام 1784.

تذكرت كيت كيف بدت في آخر مرة نظرت فيها إليها، كانت مستلقية في تابوتها الأرجواني، مرتدية ملابس بيضاء، مع ابتسامة رسمها متعهد دفن الموتى على شفيتها وبودرة وأحمر شفاه كافيين لتغطية شحوب بشرتها.

قال صوت خلف كيت «إنها تبدو أفضل مما كانت عليه منذ سنوات». وأجاب آخر «ربما ستفيدني بعض من هذه الحمرة» ثم كان هناك ضحك مزدوج. الصوت الأول كان صوت إثيل، والثاني تريكسي. تذكرت كيت رد فعلها نصف الفكاهي، كانت تفكر لحظتها في واقع أن العاهرة الميتة تشبه أي ميت آخر.

نعم، لا بد أن يكون الصوت الأول هو صوت إثيل. لطالما ولجت إثيل تفكيرها الليلي، ودائمًا ما كانت إثيل تجلب معها خوفًا يجعل معدتها تتقلص، العاهرة الغبية الخرقاء - الحقيقية الرثة الرديئة. حدث كثيرًا أن عقل كيت يقول لها: «انتظري الآن لحظة. لماذا تصفينها بحقيقية رثة وردية؟ أليس هذا بسبب خطئك أنت؟ لماذا قمت بنفيها؟ لو كنت استخدمت عقلك وأبقيتها هنا -

تساءلت كيت عن مكان إثيل. ماذا لو استعانت بواحد من أولئك المُخبرين السريين للعثور عليها - على الأقل لمعرفة أين ذهبت؟ نعم، وبعد ذلك ستخبرها إثيل عن تلك الليلة وتريها الزجاجات. حينها سيكون هناك أنفان يستنشقان بدلاً من أنف واحد. نعم، ولكن ما الفرق الذي سيحدثه ذلك؟ في كل مرة تحصل فيها إثيل على بيرة ستخبر أحداً بالأمر. أوه، بالتأكيد، لكنهم حينها سيعتقدون أنها مجرد محتالة عجوز صاحبة. والآن بشأن ذلك المُخبر السري - لا - لا مخبر.

أمضت كيت ساعات طويلة مع إثيل. ترى هل كان لدى القاضي أي فكرة أنها كانت خدعة - هل كان واضحاً جداً؟ لم يكن ينبغي أن يكون مائة دولار. كان ذلك جلياً. وماذا عن العمدة؟ قال جو إنهم تركوها على طريق مقاطعة سانتا كروز. ماذا قالت إثيل للنائب الذي رافقها الى هناك؟ كانت إثيل خفاشا

بليداً. ربما بقيت في واتسونفيل. هناك محطة باجارو للسكك الحديدية، ثم نهر باجارو والجسر المؤدي إلى واتسونفيل. الكثير من الأيدي تلوح وهي ذاهبة وآتية، المكسيكيون وبعض الهندوس. ألن يكون الأمر مضحكاً لو أنها لم تغادر واتسونفيل، الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً، مطلقاً؟ لأمكنها التسلل عبر الحدود ورؤية أصدقائها إذا أرادت. وربما تأتي إلى ساليانس في بعض الأحيان، ربما كانت في ساليانس الآن. كان من المستبعد أن يستمر رجال الشرطة في البحث عنها طويلاً. ربما يكون من الجيد إرسال جو إلى واتسونفيل لمعرفة ما إذا كانت إثيل موجودة هناك. ربما تكون قد ذهبت إلى سانتا كروز. يمكن لجو أن يبحث هناك أيضاً. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. يمكن أن يجد جو أي عاهرة في أي بلدة في غضون ساعات قليلة. إذا وجدها يمكنه إعادتها بطريقة ما. إثيل كانت حمقاء بكل حال، ربما عندما يعثر عليها جو سيكون من الأفضل أن تذهب إليها كيت. تقفل الباب. تترك لافتة «الرجاء عدم الإزعاج». يمكنها الذهاب إلى واتسونفيل، إتمام المهمة، والعودة. لا حاجة لاستخدام سيارات الأجرة. ستستقل الحافلة. في الحافلات الليلية لم يكن أحد ينتبه لأحد.

الناس في الحافلات يخلعون أحذيتهم وينامون بينما يضعون معافطهم الملفوفة خلف رؤوسهم. فجأة شعرت أنها ستخشى الذهاب إلى واتسونفيل. لكن، يمكنها على الرغم من ذلك أن تدفع نفسها للذهاب وحينها ستوقف كل هذه التساؤلات. غريب أنها لم تفكر في إرسال جو من قبل. كان ذلك ليكون حلاً مثالياً، لأن جو يتقن إتمام بعض المهام، ويعتقد اللقيط الغبي بسبب ذلك أنه ذكي. كان هذا النوع من البشر هو النوع الأسهل في التعامل. بينما إثيل كانت غبية، وجعل ذلك من الصعب التعامل معها.

نظراً لأن أيديها وعقلها أصبحا أكثر انحرافاً، بدأت كيت في الاعتماد أكثر فأكثر على جو فاليري كمساعد رئيسي، وسيط وجلاد يعمل لصالحها. كان خوفها الأساسي هو من الفتيات المقيمات في المبنى - ليس لأنهن غير



جديرات بالثقة أكثر من جو ولكن لأن الهستيريا التي كانت قريبة جداً من السطح قد تتصدع في أي وقت من خلال حذرهن وتخليهن عن تحفظهن والتسبب بالتمزق ليس فقط لأنفسهن ولكن لمحيطهن أيضاً. كانت كيت دائماً قادرة على التعامل مع هذا النوع من الخطر القائم، ولكن الآن تسبب قلة امتصاص الكالسيوم والتبلور التدريجي للمخاوف في احتياجها إلى المساعدة والبحث عنها من خلال جو. كانت تعرف أن الرجال لديهم جدار أقوى قليلاً من النساء اللواتي تعرفهن عندما يتعلق الأمر بمواجهة تدمير الذات.

شعرت أنها يمكن أن تثق في جو، لأنها كانت تحتفظ في ملفاتها على ملاحظة تتعلق بجوزيف فينوتا، الذي هرب من عصابة قطاع طرق في سان كويتين في السنة الرابعة من حكم بالسجن لمدة خمس سنوات بتهمة السرقة. لم تذكر كيت ذلك أبداً لجو فاليري، لكنها اعتقدت أنه قد يكون له تأثير مهدي عليه إذا خرج في يوم ما عن السيطرة.

كل صباح كان يحضر لها جو صينية الإفطار - الشاي الأخضر الصيني والقشدة والخبز المحمص. عندما يضعها على منضدة سريرها، يقدم تقريره ويتلقى أوامرها لذلك اليوم. كان يعلم أنها كانت تعتمد عليه أكثر فأكثر. وكان يستكشف ببطء شديد وبهدوء إمكانية تولي الأمر بالكامل. ربما تصبح لديه فرصة إذا تمكن منها المرض بدرجة كافية. لكن جو كان يخاف منها بشدة.

قال «صباح الخير سيدتي»

«لن أتمكن من النهوض لتناول هذا يا جو. هات الشاي، سيكون عليك حمل الكوب لي».

«اليدان؟»

«نعم. ستتحسنان بعد قليل».

«يبدو أنك قضيت ليلة سيئة».

قالت كيت: «لا. لقد أمضيت ليلة جيدة. بدأت فقط باستخدام بعض الأدوية الجديدة».

حمل جو الكوب إلى شفيتها وشربت الشاي في رشفات صغيرة ونفخت عليه لتبريده. قالت عندما أصبح نصف الكوب فارغاً: «هذا يكفي. كيف كانت الليلة الماضية؟»

قال جو: «لقد جئت لأخبرك عن الليلة الماضية، جاء أحدهم من كينغ سيتي. كان قد باع للتو محصوله واشترى منزلاً. دفع سبعمائة دون احتساب ما أعطاه البنات».

«ماذا كان اسمه؟»

«لا أعرف. لكن آمل أن يأتي مرة أخرى».

«يجب أن تعرف الاسم يا جو. لقد أخبرتك بذلك».

«كان رجلاً حذرًا».

«هذا سبب للحصول على اسمه. ألم تفتشه أي من الفتيات؟»

«لا أعرف».

«سنعرف ذلك».

شعر جو بلطف خفيف فيها وجعله ذلك يشعر بالرضا. أكد لها: «سأعرف

ذلك»

تجولت بعينها عليه وهي تختبره وتتفحصه، وكان يعلم أن شيئاً ما قادم.

«هل يروق لك العمل هنا؟» سألت بهدوء.

«بالتأكيد. العمل جيد هنا».

قالت: «يمكنه أن يكون أفضل - أو أسوأ».

قال مرتبكاً: «أحب عملي هنا، وهو يسير بشكل جميل».

بللت شفيتها بلسانها على شكل سهم. قالت: «أنا وأنت، يمكننا أن نعمل معاً».

قال: «بأي طريقة تريدنيها سيدتي» وغمرته موجة من التوقعات السارة. انتظر بصبر بينما استغرقت هي وقتاً طويلاً للتحدث. أخيراً قالت: «جو، أنا لا أحب أن يُسرق مني أي شيء».

«لم آخذ أي شيء».

«لم أقل إنك فعلت».

«من إذاً؟»

«سنصل إليه. جو، هل تتذكر تلك العجوز البليدة التي اضطررنا إلى نفيها؟»  
«تقصدين إثيل، هذا اسمها؟»

«نعم. هذا هو. لقد أفلتت بشيء ما. لم أكن أعرف عن ذلك حينها».

«ماذا؟»

تسللت برودة إلى صوتها: «هذا ليس شأنك يا جو. استمع لي! أنت رجل ذكي. أين قد تذهب للبحث عنها؟»

عمل عقل جو بسرعة، ليس بالمنطق ولكن بالخبرة والغريزة: «لقد تعرضت للضرب الشديد. لن تذهب بعيداً. محتالة عجوز مثلها لا تتعد كثيراً».

«أنت ذكي. هل تعتقد أنها قد تكون في واتسونفيل؟»

«هناك أو ربما سانتا كروز. على أي حال لن تصل لأبعد من سان خوسيه».

كانت تداعب أصابعها بحنان «هل تود أن تكسب خمسمائة يا جو؟»

«هل تريدني أن أجدها؟»

«نعم. فقط ابحث عنها. عندما تجدها لا تدعها تعرف. فقط أحضر لي

العنوان. هل فهمت؟ فقط قل لي أين هي».

قال جو «حسنًا. لا بد أنها سرقت منك الكثير».

«هذا ليس من شأنك يا جو».

قال: «نعم سيدتي. هل تريد أن أبدأ على الفور؟»

«نعم. اجعل الأمر سريعاً»

قال: «قد يكون صعباً بعض الشيء، لقد مر وقت طويل».

«الأمر متروك لك».

«سأذهب إلى واتسونفيل بعد ظهر اليوم».

«جيد». قالت وهي تبدو غارقة في التفكير.

كان جو يعلم أنها لم تنته وأنها كانت تتساءل بينها وبين نفسها عما إذا كان

ينبغي لها الاستمرار. اتخذت قرارها وقالت:

«جو، هل.. هل فعلت إثيل أي شيء، غريب، ذلك اليوم في المحكمة؟»

«قطعاً لا. قالت إنها كانت حيلة كما يفعلون دائماً».

ثم بدا وكأنه تذكر شيئاً لم ينتبه له في ذلك الوقت. تذكر صوت إثيل وهي

تقول: «أيها القاضي، أريد التحدث إليك على انفراد. عليّ أن أخبرك بشيء».

حاول دفن ذلك في ذاكرته بعمق حتى لا يفضحه وجهه.

قالت كيت، «ماذا حدث؟»

كان الأوان قد فات. قفز عقله وقال لكسب الوقت: «هناك شيء ما أحاول

أن أتذكره».

«فكر جيداً!» كان صوتها متوترًا وقلقًا.

«حسنًا، نعم، سمعتها تتحدث مع رجال الشرطة وقالت لماذا لا يسمحون

لها بالذهاب إلى الجنوب. قالت إن لها أقارب في سان لويس أوبيسبو».

انحنى كيت بسرعة تجاهه. «نعم؟»

«وقال رجال الشرطة أن المنطقة بعيدة».

«أنت ذكي يا جو. إلى أين قد تذهب أولاً؟»

قال «واتسونفيل. لدي صديق في سان لويس. سيبحث لي. سأعطيه خاتماً».

قالت بحدة: «جو. أريد إبقاء الأمر سرّاً».

قال جو «مقابل خمسمائة ستحصلين على السرية والسرعة». شعر بالرضا على الرغم من أن عينيها عادة ما متفحصتين مرة أخرى. تسببت كلماتها التالية في إرخاء بطنه وعموده الفقري.

«جو، ليس لتغيير الموضوع - لكن هل اسم فينوتا يعني لك أي شيء؟»

حاول الإجابة قبل أن يشد حلقة. قال «لا يعني لي شيئاً».

قالت كيت: «عُد بأسرع ما يمكن. قل لهيلين أن تأتي. ستتولى زمام الأمور

في غيابك».

### 3

حزم جو حقيبته، وذهب إلى المحطة واشترى تذكرة ل واتسونفيل. في كاستروفيل، المحطة الأولى في الشمال، نزل وانتظر أربع ساعات قطار ديل مونتي السريع الذهاب من سان فرانسيسكو إلى مونتيري، والواقع في نهاية خط سبير. في مونتيري صعد درج فندق سنترال، أخذ غرفة باسم جون فيكر. نزل إلى الطابق السفلي وأكل شريحة لحم في حانة إيرنست واشترى زجاجة ويسكي، وعاد إلى غرفته.

نزع حذاءه ومعطفه وسترته وربطة عنقه واستلقى على السرير. كان الويسكي والكأس على المنضدة بجانب السرير النحاسي. لم يزعجه الضوء الساطع في وجهه. لم يلاحظه حتى. بشكل منهجي قام بتهيئة دماغه بنصف كوب من الويسكي ثم عقد يديه خلف رأسه وأخرج الأفكار والانطباعات والتصورات وبدأ في مطابقتها.

إلى الآن بداله تصرفه جيداً واعتقد أنه نجح في خداعها. حسناً، لقد قلل من شأنها، كيف بحق الجحيم علمت عن كونه مطلوباً؟ فكر بالذهاب إلى رينو أو ربما إلى سياتل، مدن الموانئ دائماً جيدة. ثم بعد ذلك - مهلاً؛ بدأ في التفكير في الأمر.

لم تسرق إثيل شيئاً، كان بحوزتها شيء. كانت كيت خائفة من إثيل، الخمسمائة تبدو مبلغاً مبالغاً فيه لإيجاد عاهرة بليدة. ما أرادت إثيل أن تخبره للقاضي كان صحيحاً، هذا أولاً. ثانياً، كانت كيت خائفة من أن إثيل ربما تكون قادرة على استخدام ذلك ضدها. تبا! - ليس بينما كيت تحمل ذلك الدليل عن هروبه من السجن. رفض جو فكرة العودة الى السجن وقضاء الحد الأقصى للعقوبات.

لكن لا ضير في التفكير في الأمر. لو كان سيراهن بأربع سنوات - حسناً، فلنقل عشرة آلاف. هل هذا رهان سيء؟ لا حاجة لاتخاذ قرار. لقد عرفت عن أمره من قبل ولم تسلمه. يبدو أنها اعتقدت أنه كلب جيد. ربما إثيل هي بطاقتها المخفية.

مع ذلك، من المهم التفكير في الأمر جيداً، كيت ذكية جداً. تساءل جو عما إذا كان بإمكانه اللعب ضدها، لكن ما لو تظاهر بمساعدتها؟

جلس جو وملاً كأسه بالكامل وأطفأ النور وبينما كان يشرب شاهد امرأة نحيفة في رداء حمام تغسل جواربها في حوض في غرفة على الجانب الآخر من منفذ التهوية. وتمتم الويسكي في اذنيه:

ربما يتعلق الأمر بالمال فقط. الله أعلم، لقد صبر جو على تلك العاهرة ذات الأسنان الحادة الصغيرة طويلاً. لا حاجة لاتخاذ قرار الآن.

فتح نافذته بهدوء وألقى بقلم الكتابة الذي أخذه من على الطاولة باتجاه النافذة عبر منفذ التهوية واستمتع بمشهد الخوف والقلق الذي اعترى ظل السيدة النحيفة قبل أن تختفي.

مع الكوب الثالث من الويسكي أصبحت القنينة فارغة. شعر جو برغبة في الخروج إلى الشارع وإلقاء نظرة على المدينة. ولكن بعد ذلك تولى انضباطه الأمر. كان منذ سنين طويلة قد وضع قاعدة والتزم بها، وهي ألا يغادر غرفته أبدًا عندما يكون ثملاً. بهذه الطريقة لا يقع المرء في المشاكل. كانت المتاعب تعني رجال الشرطة، والشرطة تعني إجراء فحص طبي، وهذا يعني بالتأكيد رحلة عبر الخليج إلى سان كويتين واحتمال وجود عصابة.. أخرج الشارع من عقله.

كان لدى جو متعة أخرى وفرها للأوقات التي كان فيها بمفرده، ولم يكن يدرك أنها كانت متعة. لقد انغمس في ذلك الآن. استلقى على السرير النحاسي وعاد في الوقت المناسب إلى طفولته المتعسرة والبائسة والحزينة. لم يحالفه الحظ - لم يكن لديه أي مال، كانت الأموال في جعبة الأغنياء فقط. أفلت بممارسة بعض المهن هنا وهناك، لكن صندوق سكاكين الجيب ذاك؟ جاء رجال الشرطة مباشرة إلى منزله وأخذوه، ومنذ ذلك الحين أصبح اسمه مسجلاً ولم يتركوه وشأنه. في المدرسة لم يحالفه الحظ أيضًا. كان المدير والمعلمون ضده، لم يستطع تحمل هذا الهراء واضطر لتركها.

تبلور فيه حزن دافئ بدافع من ذاكرته عن سوء حظه ودفعه إلى استعادة المزيد من الذكريات التي جعلت دموعه تنهمر وترتجف شفتاه شفقة على الصبي التائه الوحيد الذي كان عليه. وها هو الآن - انظر إليه - متهم يعمل في مبيعى بينما ينعم الرجال الآخرون بمنازل وسيارات. كانوا آمنين وسعداء وفي الليل يغلقون ستائرهم في وجه جو. بكى بهدوء حتى نام.

استيقظ جو في الساعة العاشرة صباحًا وتناول إفطارًا هائلًا في حانة إرنست. في وقت مبكر من بعد الظهر استقل حافلة إلى واتسونفيل ولعب ثلاث ألعاب سنوكر مع صديق جاء لمقابلته ردًا على مكالمته هاتفية. فاز جو في المباراة الأخيرة وحقق هدفه وسلم صديقه عملتين من فئة عشرة دولارات.

قال صديقه: «اللعة، لا أريد نقودك».

قال جو «خذها».

«ليس الأمر كما لو أنني أعطيتك شيئاً».

«أعطيتني الكثير. أخبرني أنها ليست هنا وأنت متأكد».

«ألا يمكنك إخباري عما تريده منها؟»

«ويلسون، أخبرتك سابقاً وأكرر ما قلته الآن، لا أعرف. أنا فقط أنفذ مهمة

طلبت مني في العمل».

«حسناً، هذا كل ما يمكنني مساعدتك به. لا أذكر ما إذا كانت قالت إنها

ذاهبة أم أنني استتجت الأمر بنفسني. لقد علق هذا الأمر في ذهني فحسب.

جرب الذهاب الى سانتا كروز. هل تعرف أي شخص هناك؟»

قال جو: «لدي بعض المعارف».

«ابحث عن هال ماهر. مدير نادي بليارد هال».

قال جو «شكراً».

«لا - اسمع يا جو. لا أريد نقودك».

قال جو: «إنها ليست نقودي - اشتر سيجاراً».

نزل من الحافلة على بعد بايين من نادي هال. لقد كان وقت العشاء ولكن

لعبة بوكر كانت ما تزال مستمرة. مرت ساعة قبل أن ينهض هال للذهاب إلى

الحمام ويتمكن جو من اللحاق به والتحدث اليه. نظر هال لجو بعيون كبيرة

شاحبة صنعتها نظاراته السميقة. قام بضبط أوراق اللعب خاصته ثم قال: «هل

تود الجلوس؟»

«كم واحد يلعب لك يا هال؟»

«واحد فقط».



«سوف أعب لك».

قال هال «خمسة دولارات في الساعة».

«عشرة بالمائة إذا فزت؟»

«حسنًا لك ذلك»

في الواحدة صباحًا، كان هال وجو في طريقهما إلى مطعم بارلو غريل:  
«شريحتان من اللحم المشوي والبطاطا المقلية. حساء؟ سأله هال جو.

«لا. ولا بطاطا مقلية. إنها تثقلني»

قال هال: «أنا أيضًا، ومع ذلك أكلها. لا أمارس تمارين رياضية كافية».

كان هال رجلًا صامتًا حتى بدأ بالأكل، ونادراً ما تكلم إلا إذا كان فمه ممتلئًا:  
«ما هو عرضك؟» سأله جو.

«إنها مجرد مهمة عمل. سأجني مائة دولار وتحصل أنت على خمسة  
وعشرين دولارًا منها - هل يناسبك هذا؟»

«هل تحتاج لشيء ماديّ بمثابة دليل - أوراق؟»

«لا. سيكون جيدًا لو حصلت على ذلك، لكن يمكنني قبول ما دونه».

«حسنًا، لقد جاءت وأرادت مني توصيلها. لم تكن بحال جيدة، لذا لم أقبل.  
ربما لم أكن لأعرف ما حدث لها لو لم يرها بيل بريموس، عندما وجدوها جاء  
وسألني عنها، بيل رجل طيب، لدينا رجال جيدون هنا».

لم تكن إثيل امرأة سيئة - كانت كسولة وقدرة لكنها طيبة القلب. كانت  
تريد العيش بكرامة وبعض الاهتمام. لم تكن ذكية ولم تمتلك الجمال وبسبب  
نقص هذين لم تكن محظوظة جدًا. من الممكن أن تتألم إثيل لو أنها علمت أنه  
عندما أخرجوها من الرمال حيث تركتها الأمواج كانت نصف مدفونة وتنورتها  
ملفوفة حول مؤخرتها. كانت لترغب بالمزيد من الشعور بالكرامة.

قال هال: «لدينا بعض الأوغاد المجانين في أسطول السردين. أظن أن أحدهم اصطحبها ثم دفعها إلى البحر. لا أفهم كيف دخلت المياه بغير ذلك». «ربما قفزت من رصيف الميناء؟»

«هذه؟ قطعاً لا! إنها أكثر كسلاً من أن تصل لقتل نفسها. هل تريد التحقق من الأمر؟ قال هال وهو يتناول البطاطس.

«ما دمت تقول إنها هي، فهي هي» قال جو وهو يضع المال على الطاولة. «دحرج هال النقود مثل سيجارة ووضعها في جيب سترته، ثم قطع اللحم على شكل مثلث وقال وهو يضعه في فمه: «كانت هي. هل تود تناول قطعة فطيرة؟»

كان جو ينوي أن ينام حتى الظهر لكنه استيقظ في السابعة وبقي مستلقياً على السرير لفترة طويلة. كان يعتزم عدم العودة إلى ساليناس إلا بعد منتصف الليل. كان بحاجة إلى مزيد من الوقت للتفكير.

عندما قام، نظر في المرأة وتفقد التعبير الذي كان ينوي اتخاذه. أراد أن يبدو محبباً ولكن ليس بخيبة أمل كبيرة. كانت كيت ذكية للغاية. فلتقد هي، وهو سيتبع تعليماتها. كانت مفتوحة على مصراعيها مثل قبضة اليد. كان على جو أن يعترف بأنه كان خائفاً منها حتى الموت.

قال له صوته الداخلي محذراً: «فقط ادخل وأخبرها واحصل على الخمسمائة».

وأجابه بوحشية: «ماذا عن المال؟ هل أريد أن أبقى قواداً رديئاً طوال حياتي؟»

«لا تغامر. دعها تتولى الحديث».

«لا ضرر في ذلك يمكنني دائماً إخبارها لاحقاً بأسلوب: «لقد تذكرت للتو».. إذا لم تسر الأمور على ما يرام».

«يمكنها أن تترج بك في زنزانة خلال ست ساعات».

«ليس إذا لم أغامر. ثم ماذا لدي لأخسره؟ ما هي الأرباح التي حصلت عليها؟»

#### 4

كانت كيت تشعر بتحسن. بدأ أن العلاج الجديد يفيدها بعض الشيء. خف الألم في يديها وبدالها أن أصابعها أصبحت أكثر استقامة وخف التورم فيها. لم تكن قد نامت بشكل جيد هكذا منذ وقت طويل، شعرت بالراحة والانتعاش. خططت لتناول بيضة مسلوقة على الإفطار. نهضت وارتدت ثوبًا وأحضرت مرآة يد إلى السرير. وبينما هي مستلقية على الوسائد تفقدت وجهها.

الراحة فعلت العجائب. الألم يجعل الفك يبدو متشنجاً، والعيون تصبح شاحبة جراء القلق، وتبرز العضلات فوق الصدغ وعلى طول الخدين، حتى العضلات الضعيفة القريبة من الأنف، إنه مظهر المرض ومقاومة المعاناة.

كان الاختلاف في وجهها المستريح مذهلاً. بدأت أصغر بعشر سنوات. فتحت شفيتها ونظرت إلى أسنانها. حان وقت التنظيف. لقد اعتنت بأمر أسنانها. كان الجسر الذهبي حيث اختفت الأضراس هو الإصلاح الوحيد في فمها. وكان مظهرها الفتى لافتاً للنظر. نامت ليلة واحدة فقط ثم عادت. كان هذا شيئاً آخر خدعهم. ظنوا أنها ستكون ضعيفة وحساسة. ابتسمت لنفسها - حساسة كمصيدة فولاذية. لكنها اعتنت بنفسها دائماً - لا خمور ولا مخدرات، ومؤخراً توقفت عن شرب القهوة. وقد أتى هذا الأمر أكله. كان لديها وجه ملائكي.

قفز فكرها إلى ذلك الوجه الملائكي الذي يشبه وجهها - ما اسمه؟ - تباً ما كان اسمه - أليك؟ تذكرته، رأته وهو يتحرك ببطء، برداءه الكهنوتي الأبيض والمحاط بالدانتيل، وذقنه اللطيف للأسفل وشعره يتوهج تحت ضوء الشموع.

كان ممسكاً بعضا البلوط وصليبه النحاسي أمامه. كان هناك شيء جميل للغاية فيه، شيء طاهر لم يمسه أحد ولا يمكن المساس به. حسناً، هل سبق أن لمس كيت أي شيء أو أي شخص آخر فعلاً - لمسها حقاً ولوئها؟ بالتأكيد لا.

فقط قشرتها الخارجية القاسية هي التي تم لمسها من قبل الذين عرفتهم. لكنها كانت سليمة من الداخل - نظيفة ومشرقة مثل هذا الصبي أليك - هل كان هذا اسمه؟

ضحكت - وهي أم لولدين - ضحكة طفلة. ماذا لو رآها أحد مع هذا الأشقر، هل يمكن أن يساورهم أي شك؟ كيف سيكون الوقوف بجانبه وسط حشد من الناس وترك الناس يكتشفون الأمر بأنفسهم. ماذا سيفعل - آرون، نعم هذا هو الاسم - ماذا سيفعل إذا عرف؟ شقيقه يعرف، ابن العاهرة الذكي - كلمة خاطئة - يجب ألا يُنادى بذلك، لأنه قد يكون صحيحاً أكثر مما ينبغي. كما أنه ليس لقيطاً - فقد ولد في عش الزوجية. ضحكت كيت بصوت عال، كانت تشعر بالارتياح وتقضي وقتاً طيباً.

الأخر الذكي - الغامض - كان يزعجها. كان يشبه تشارلز. لقد احترمت تشارلز - وربما كان قتلها تشارلز لو استطاع ذلك.

يا له من دواء رائع - لم يوقف فقط آلام المفاصل، بل أعاد لها شجاعتها. سرعان ما ستمكن من بيع كل شيء والتوجه إلى نيويورك كما خططت دائماً. فكرت كيت في خوفها من إثيل. كم كانت مريضة - تلك العجوز الغبية المسكينة. فكرت في قتلها بلطف عندما يجدها جو، ثم فكرت؛ لم لا تصطحبها إلى نيويورك وتبقيها قريبة؟

راودت كيت فكرة مضحكة. ستكون جريمة قتل هزلية لا يمكن لأحد حلها أو حتى الشك فيها تحت أي ظرف من الظروف. الشوكولاتة - علب الشوكولاتة وأوعية الفونندان ولحم الخنزير المقدد المقرمش - الدهون والنيذ والزبدة، كل شيء منقوع في الزبدة والقشدة؛ لا خضروات ولا فواكه - ولا

تسلية أيضًا. ابقني في المنزل يا عزيزتي. أنا أثق بك. اعطني بالأشياء. أنت متعبة. اذهبي إلى الفراش. اسمحي لي أن أملأ قنيتك. أحضرت هذه الحلويات الجديدة لك. هل ترغبين في أخذ الصندوق للسرير؟ هذا الكاجو لذيذ، ألا تعتقدين ذلك؟ سوف تنفجر العاهرة العجوز في غضون ستة أشهر. ثم ماذا عن الدودة الشريطية؟ هل سبق لأي شخص استخدام الديدان الشريطية؟ من كان ذلك الرجل الذي لم يستطع إيصال الماء إلى فمه عبر منخل - تانتالوس؟

كانت شفاه كيت تبتسمان بلطف وكان الفرح يداعبها. قد يكون من الجيد قبل مغادرتها إقامة حفلة لولديها. مجرد حفلة صغيرة مع سيرك بعد ذلك. فكرت في وجه آرون الجميل الذي يشبه وجهها، ونشأ ألم غريب في صدرها. هذا الولد لم يكن ذكيًا ولن يستطيع حماية نفسه. قد يكون الآخر خطيرًا، وقد شعرت بذلك. لا بد من أن تلقنه درسًا قبل مغادرتها. ربما - بل بالتأكيد - ربما جرعة من الصفعات تعيد ذلك الشاب إلى رشده.

أدركت بعدها فجأة أنها لا تريد أن يعرفها آرون. ربما يمكنه أن يأتي إليها في نيويورك. سيعتقد حينها أنها عاشت دائمًا في منزل صغير أنيق على الجانب الشرقي. ستأخذه إلى المسرح، الأوبرا، وسيراهما الناس معًا ويتعجبون من جمالهما، ويدركون أنهما إما أخ وأخت أو أم وابن. لا أحد يستطيع أن يفشل في معرفة ذلك. يمكنهما الذهاب معًا إلى جنازة إثيل. ستحتاج إلى نعش كبير الحجم وستة مصارعين لحمل تابوتها. كان ذهن كيت متختمًا بالأفكار المرححة لدرجة أنها لم تسمع جو يطرق الباب. فتح الباب قليلاً ونظر إلى الداخل ليرى وجهها المبتسم بشكل غريب.

قال «الإفطار» ودفع الباب بحافة صينية مغطاة بقطعة من قماش الكتان. دفع بركبته الباب وأغلقه. «هل تريدينه هناك؟» سأل وأشار إلى الغرفة الرمادية بذقنه. «لا. سأتناول الفطور هنا، أريد بيضة مسلوقة وقطعة خبز بالقرفة. أربع دقائق ونصف للبيضة. تأكد من ذلك. لا أريدها لزجة».

«لابد أنك تشعرين بتحسن يا سيدتي».

قالت: «بالفعل، العلاج الجديد رائع. تبدو كمن تم جرّه بالكلاب يا جو. ألا تشعر أنك بخير؟»

قال: «أنا بخير»، ووضع الصينية على المنضدة أمام الكرسي الكبير «أربع دقائق ونصف؟»

«هذا صحيح. وإذا كانت هناك تفاحة جيدة - تفاحة طازجة - أحضرها أيضًا».

قال «لم أرك بهذا الحال منذ عرفتك».

في المطبخ، وبينما هو ينتظر الطباخ لالتهاء من تحضير البيض، كان يفكر بقلق، ماذا لو كانت تعلم. يجب أن يكون حذرًا. لكن، لا يمكنها أن تكرهه بسبب شيء لم يكن يعرفه. لا جريمة في ذلك.

قال لها في غرفتها: «لم يكن هناك تفاح. قال إن هذه ثمرة كمثرى جيدة».

قالت كيت: «سأود تناولها أكثر»

شاهدها وهي تقطع البيضة وتغمس ملعقة في القشرة: «كيف هي؟»

«ممتازة» قالت كيت.

قال: «تبدين بحالة جيدة».

«أشعر أنني بحالة جيدة. أنت من يبدو بحالة مزرية. ما الأمر؟»

دخل جو في الموضوع بحذر: «سيدتي، ليس هناك من يحتاج للخمسائة مثلي».

قالت بمرح: «ليس هناك من يحتاج -»

«ماذا؟»

«انس الأمر. ماذا تحاول أن تقول؟ أنك لم تتمكن من العثور عليها؟ حسنًا،

لو كنت قد قمت بعمل جيد لكنت حصلت على الخمسمائة. تحدّث». التقتت المملحة ونثرت القليل منه على البيض.

رسم جو ابتسامة مصطنعة على وجهه وقال: «شكراً، أنا في حاجة إلى المبلغ. لقد بحثت في باجارو وواتسونفيل. حصلت على أثر لها في واتسونفيل لكن عندما وصلت كانت قد ذهبت إلى سانتا كروز. هناك أيضاً عثرت لها على أثر لكنها كانت قد غادرت قبل وصولي».

تذوقت كيت البيضة وأضافت المزيد من الملح: «هذا كل شيء؟» قال جو «لا. نزلت إلى سان لويس، كانت هناك أيضاً لكنها غادرت إلى مكان آخر»

«لا أثر؟ لا فكرة أين ذهبت؟»

عبث جو بأصابعه. كان كلامه، وربما حياته كلها، تعتمد على كلماته التالية، وكان متردداً في قولها.

قالت أخيراً: «تحدّث، لديك شيء - ما هو؟»

«حسناً، ليس الكثير. لا أعرف ما هو».

«لا تفكر. فقط تحدّث» قالت بحدة.

«قد لا يكون ذلك صحيحاً».

«بحق المسيح!» قالت بغضب.

«حسناً، لقد تحدّثت إلى آخر شخص رأها. يدعى جو، مثلي -»

«وهل حصلت على اسم جدته؟» سألت بسخرية.

«هذا الرجل جو يقول إنها تناولت الجعة ذات ليلة» وأخبرته أنها ستعود إلى

ساليناس بشكل سري». ثم غابت عن الأنظار. هذا الرجل جو لم يعرف شيئاً أكثر من هذا».

فوجئت كيت وخرجت عن السيطرة، لاحظ جو اضطرابها وهلعها وخوفها اليائس. مهما كان ذلك، أصبح لدى جو شيء ما. لقد حصل على المال أخيراً. نظرت إليه من فوق أصابعها الملتوية وقالت: «فلننس تلك اللعينة العجوز. ستحصل على الخمسمائة خاصتك يا جو».

تنفس جو بحذر، خائفاً من أن أي صوت قد يسحبها خارج استغراقها بذاتها. لقد صدقته. بل أكثر من ذلك، صدقت أشياء لم يخبرها بها. أراد الخروج من الغرفة بأسرع ما يمكن، قال: «شكراً لكِ سيدتي» بصوت خافت، وتحرك نحو الباب بصمت.

كانت يده على المقبض عندما تحدثت بوقاحة متقنة «جو، بالمناسبة -  
«نعم سيدتي»

«إذا سمعت أي شيء عنها ستعلمني، أليس كذلك؟» «حتماً سأفعل. هل تريدني مني أن أواصل البحث؟»  
«لا. لا عليك. إنه ليس بهذه الأهمية».

في غرفته، وبعد أن أغلق الباب، جلس جو مبتسماً لنفسه وعلى الفور بدأ في العمل على المسار المستقبلي. قرر السماح لها بالاحتفاظ بالخبر حتى، فلنقل حتى الأسبوع المقبل مثلاً. سيدعها تسترخي، ثم يقوم بذكر إثيل مرة أخرى. لم يكن يعرف ما هو سلاحه هنا أو كيف سيستخدمه. لكنه كان يعلم أنه سلاح حاد جداً وكان يتوق لاستخدامه. كان سيضحك بصوت عالٍ لو علم أن كيت كانت قد دخلت إلى الغرفة الرمادية وأغلقت عليها بابها، وأنها بقيت هناك جالسة على الكرسي الكبير إلى أن أغمضت عينيها.





# الجزء الخامس



## الفصل 46

في بعض الأحيان، وليس في معظمها، تهطل الأمطار على وادي ساليناس في شهر نوفمبر. من النادر جدًا أن تصدر المجلات أو الصحف أو كلاهما مقالات افتتاحية حول هذا الموضوع. تتحول التلال إلى لون أخضر ناعم بين عشية وضحاها وتصبح رائحة الهواء طيبة. المطر في هذا الوقت ليس جيدًا بشكل خاص من الناحية الزراعية إلا إذا كان سيستمر، وهو أمر غير معتاد مطلقًا. بشكل أكثر شيوعًا، يعود الجفاف ويذبل زغب العشب ويؤدي إلى إهدار كمية هائلة من البذور.

كانت سنوات الحرب ممطرة، والكثير من الناس ألقوا باللائمة على الطقس العنيد الغريب في إطلاق النار من البنادق في فرنسا وتم النظر في هذا بجدية في المقالات والنقاشات.

لم يكن لدينا الكثير من القوات في فرنسا في ذلك الشتاء الأول، ولكن كان لدينا ملايين المتدربين الذين يستعدون للانطلاق - كما كانت الحرب مؤلمة، كانت مشيرة أيضًا. لم يتم إيقاف الألمان. في الواقع، لقد أخذوا زمام المبادرة مرة أخرى، بالتقدم بشكل منهجي نحو باريس، والرب وحده علم متى يمكن إيقافهم - إن كان من الممكن إيقافهم على الإطلاق. ربما ينقذنا الجنرال بيرشينج إن كان بالإمكان إنقاذنا. ظهرت صورته بالزري الرسمي الجميل في كل جريدة كل يوم. كان ذقنه مخلوقاً وصلباً ولم تكن هناك تجعيده واحدة على سترته. لقد كان مثالا للجندي المثالي. لا أحد يعرف ما كان يفكر به حقًا.

كنا نعلم أننا لا يمكن أن نخسر ومع ذلك بدا أننا نتجه نحو الخسارة. لا

يمكنك شراء الدقيق، الدقيق الأبيض، من دون أن تأخذ أربعة أضعاف كميته من الدقيق البني. أولئك الذين يستطيعون تحمل تكاليف ذلك أكلوا الخبز والبسكويت المصنوع من الطحين الأبيض وهرسوا البني لإطعمته للدجاج.

في مستودع الأسلحة القديم، قام الحرس بتدريب الرجال فوق الخمسين، لم يكونوا أفضل جنود، لكنهم واضبوا على حضور تدريبات الإعداد مرتين في الأسبوع، وعلقوا شارات الحرس ولبسوا قبعاتهم، وتجادلوا إلى ما لا نهاية حول من يجب أن يكون الضابط. توفي ويليام سي بيرت على أرض مستودع الأسلحة في منتصف تمرين الضغط. قلبه لم يستطع تحمل ذلك.

كان هناك أيضًا رجال «الدقيقة الواحدة»، تمت تسميتهم بذلك لأنهم كانوا يلقون خطابات مدتها دقيقة واحدة لصالح أمريكا في مسارح الصور المتحركة وفي الكنائس.

هؤلاء كانوا يحملون شارات أيضًا.

قامت النساء بلف الضمادات وارتداء زي الصليب الأحمر واعتبرن أنفسهن ملائكة الرحمة. الجميع نسج شيئًا لشخص ما؛ المعاصم، أنابيب قصيرة من الصوف لمنع الريح من الدخول والصفير في أكمام الجنود، وكانت هناك خوذة محبوكة بها فتحة فقط في الأمام للنظر من خلالها. تم تصميم هذه الخوذات للحفاظ على خوذة القصدير الجديدة من التجمد على الرأس.

تم أخذ كل قطعة من الجلود الفاخرة لصنع أحذية الضباط وأحزماتهم من نوع سام براون. وهي أحزمة جميلة كان بإمكان الضباط فقط ارتداؤها. كانت تتألف من حزام عريض وشريط يعبر الصدر ويمر تحت الكتف الأيسر. قمنا بنسخها من البريطانيين، وحتى البريطانيون نسوا هدفهم الأصلي، والذي كان ربما دعم السيف الثقيل الذي كانوا يحملونه. لم تُحمل السيوف إلا في استعراض عسكري، لكن الضباط لم يكن ليموت بدون حزام سام براون والذي كان بكلفة جيدة تصل إلى خمسة وعشرين دولارًا.

لقد تعلمنا الكثير من البريطانيين - ولو لم يكونوا محاربين جيدين لما كنا نفعل.

كان لدينا أعداء داخلون أيضًا، وتوخينا اليقظة. تفشى في سان خوسيه ذعر من الجاسوسية، ولم يكن من المحتمل أن يتخلف وادي ساليناس عن الركب. على مدى عشرين عامًا كان السيد فنشيل يقوم بالخياطة اليدوية في ساليناس. كان قصيرًا وسمينًا وله لكنة تجعلك تضحك. كان يجلس طوال اليوم متربعا على طاولته في المتجر الصغير بشارع أليسال، وفي المساء يعود إلى منزله الأبيض الصغير في سنترال أفنيو. كان يطلي منزله وسياجه باللون الأبيض دائما. لم يفكر أحد في لهجته حتى اندلعت الحرب، لكننا أصبحنا فجأة نعرف ذلك، كانت لهجته ألمانية. كان لدينا ألماني خاص بنا. لم ينفعه إفلاسه بسبب شرائه لسندات الحرب، كانت هذه طريقة واضحة وسهلة للغاية للتخفي.

لم يأخذه الحرس. لم يريدوا جاسوسًا يعرف خططهم السرية للدفاع عن ساليناس. ثم من كان يريد أن يلبس بذلة من صنع عدوه؟ جلس السيد فنشيل طوال اليوم على طاولته دون أن يكون لديه أي شيء يفعله، وعليه كان يخيط ويمزق ويخيط ويمزق نفس قطعة القماش مرارًا وتكرارًا.

استخدمنا كل القسوة التي من الممكن تصورها على السيد فنشيل، الألماني خاصتنا. كان يمر ببيتنا كل يوم، وكان هناك وقت يتحدث فيه إلى كل رجل وامرأة وطفل وكلب، وكان الجميع يجيبه. لم يعد يتحدث معه أحد، بإمكانني إلى اللحظة تذكّر وحدته ووجهه الحزين المغبون.

لقد قمت أنا وأختي الصغيرة بدورنا بأداء واجبنا تجاه السيد فنشيل، وهي واحدة من ذكريات العار التي لا تزال تجعلني أتصبب عرقاً وتضغط على حلقي.

كنا نقف في الفناء الأمامي لحديقتنا ذات مساء ورأيناه يتمشى بخطوات بطيئة. كانت قبعته الهومبورغ السوداء نظيفة، لا أتذكر أننا ناقشنا خطتنا، وكان لابد من ذلك، لكي ننفذها بشكل جيد.

عندما اقترب تحركت أنا وأختي ببطء عبر الشارع جنباً إلى جنب. رفع السيد فنشل رأسه ورآنا نتحرك نحوه. توقفنا في عندما وصل الينا.

ابتسم وقال: «مساء الخير جون. مساء الخير ماري» وقفنا بثبات جنباً إلى جنب وقلنا في انسجام تام بالألمانية «فليحيا القيصر!»

ما زلت أتذكر وجهه وعيونه الزرقاء المرهقة. حاول أن يقول شيئاً ثم بدأ في البكاء. لم يحاول حتى التظاهر بأنه لم يكن كذلك. وقف هناك وبكى. وهل تعلمون؟ - استدرت وماري وسرنا بصلاصة وعبرنا الشارع ومنه الى الفناء ونحن نشعر بالسوء بسبب فظاعة تصرفنا، ما زلت أفعل عندما أتذكر ذلك.

كنا أصغر من أن نقوم بعمل مميز مع السيد فينشيل. استدعى هذا الأمر رجالاً أقوياء - نحو ثلاثين منهم. في إحدى ليالي السبت تجمعوا في حانة وساروا في طابور من أربعة صفوف خارج سنترال أفينيو هاتفين: «هوب! هوب!» في انسجام. هدموا سياج السيد فنشيل الأبيض وأحرقوا الجزء الأمامي من منزله. لم يكن لابن عاهرة محب للقيصر أن يفلت منا بسهولة. وهكذا تمكن وادي ساليناس من رفع رأسه بفخر مثل سان خوسيه.

بالطبع هذا جعل واتسونفيل منشغلة أيضاً بإثبات نفسها. قاموا هناك بتلطixح رجل بولندي معتقدين أنه ألماني، لأنه كان يتحدث بلكنة.

نحن في ساليناس مررنا بكل الأمور التي لا مفر منها في الحرب، وفكرنا في الأفكار التي لا مفر منها. هتفنا بفرح عندما تلقينا الإشاعات الجيدة وأوشكنا على الموت ذعراً بسبب الأخبار السيئة. كان لدى الجميع سر لابد أن ينشره بشكل غير مباشر للحفاظ على هويته. تغيير نمط حياتنا المعتادة. ارتفعت

الأجور والأسعار. استشعار النقص جعلنا نشترى الطعام ونخزنه. كانت ألطف السيدات وأكثرهن هدوء يחדشن بعضهن من أجل علبة طماطم.

لم يكن كل شيء سيئاً أو رخيصاً أو هستيرياً. كانت هناك بطولة أيضاً. هناك البعض ممن تمكنوا من تجنب التجنيد، وآخرون اعترضوا على الحرب لأسباب أخلاقية أو دينية. كان هناك أناس قدموا كل ما لديهم للحرب لأنها يجب أن تكون الحرب الأخيرة وبفوزنا بها سنزيل الحرب مثل الشوكة من لحم العالم ولن يكون هناك مثل هذا الهراء المروع بعد ذلك.

لا كرامة في الموت في المعركة، غالباً ما يتطاير لحم المرء ودمه والنتيجة قدرة، لكن هناك كرامة كبيرة وجميلة نوعاً ما في الحزن، الحزن العاجز، اليأس، الذي ينزل على الأسرة في برقية.

لا شيء يمكن قوله، لا شيء يمكن فعله، وأمل واحد فقط - التمني أنه لم يعاني - ويا له من أمل وخيار أخير يائس. صحيح أنه كان هناك بعض الأشخاص الذين، عندما بدأ حزنهم يفقد مذاقه، دفعوه بلطف نحو الكبرياء وشعروا بأهمية متزايدة بسبب خسارتهم. حتى أن بعض هؤلاء جعلوا منه أمراً مفيداً بعد انتهاء الحرب. هذا أمر طبيعي، تماماً كما هو طبيعي بالنسبة لرجل تتمثل وظيفته في كسب المال من الحرب. لم يلم أحداً أحد على ذلك، لكن كان من المتوقع أن يستثمر جزءاً من نهفته في سندات الحرب على الأقل. كنا نظن أننا اخترعنا كل هذه الأمور في ساليناس.. حتى الحزن.





## الفصل 47

### 1

في منزل تراسك المجاور لمخبز رينود، ثبت لي وآدم خريطة للجبهة الغربية بخطوط من الدبابيس الملونة المتسللة نحو الأسفل، منحهم الأمر شعورًا بالمشاركة. ثم مات السيد كيللي وتم تعيين آدم تراسك ليحل محله في مكتب سجل الخدمة العسكرية الإجبارية. كان الرجل المناسب لهذا المنصب. لم يكن مصنع الثلج يأخذ الكثير من وقته بكل حال، وكان لديه سجل خدمة واضح ومشرف.

شهد آدم تراسك حربًا - حربًا صغيرة من المناورات والذبح، لكنه على الأقل شهد القواعد المعكوسة حيث يُسمح للرجل بقتل كل من يستطيع قتلهم من البشر. لم يعد آدم يتذكر تلك الحرب جيدًا. بعض الصور الحادة فقط كانت تبرز في ذاكرته، وجه رجل ما، أجساد مكدسة ومحتركة، الهرولة السريعة، الصوت غير المتكافئ المنطلق من البنادق، والصوت البارد الرقيق للأبواق في الليل. لكن صور آدم الذهنية كانت قد أصبحت جامدة. لم تكن فيها أي حركة أو عاطفة - كانت كما رسوم توضيحية في صفحات كتاب، ولم تكن مرسومة بشكل جيد.

عمل آدم بجهد وأمانة وحزن. لم يستطع التغلب على الشعور بأن الشبان الذين نقلهم إلى الجيش محكوم عليهم بالإعدام. ولأنه كان يعلم أنه ضعيف، فقد ازداد صرامة وتعبًا وأقل احتمالًا لقبول عذر أو إعاقة. كان يأخذ القوائم

معه إلى المنزل ويستدعي الآباء. في الواقع، كان يقوم بعمل أكثر بكثير مما كان متوقعاً منه. شعر وكأنه قاضي إعدام يكره حبل المشنقة.

شاهد هنري ستانتون آدم يصبح أكثر هزلاً وصمتاً، وكان هنري رجل يحب المرح - وفي حاجة دائمة إليه، وبإمكان أي زميل متجهم أن يجعله يشعر بالاستياء.

قال لآدم: «استرخ. أنت تحاول أن تحمل ثقل الحرب على ظهرك. إنها ليست مسؤوليتك. لقد تم تعيينك وإعطاؤك مجموعة من القواعد. فقط اتبع القواعد واسترخ. أنت لا تدير الحرب».

قام آدم بتحريك الستارة حتى لا تضرب أشعة شمس الظهر القوية عينيه، وحدق في الخطوط المتوازية القاسية التي تلقيها الشمس على مكتبه. قال بضجر: «أعرف، أوه، أنا أعلم ذلك! لكن هنري، عندما يكون لديك خيار، وهذا هو تقديري الخاص للمزايا، عندها ستفهمني. لقد رشحت الفتى ابن القاضي كيندال وقُتل في التدريب».

«هذا ليس من شأنك يا آدم. لماذا لا تتناول بعض المشروبات في الليل؟ اذهب لمشاهدة فيلم». وضع هنري إبهامه في فتحات سترته وانحنى إلى الخلف في كرسيه. «بينما نتحدث عن ذلك يا آدم، يبدو لي أنك لا تقدم للمرشح شيئاً جيداً بقلقك هذا».

قال آدم: «أعلم، أتساءل كم من الوقت سوف يستمر هذا كله؟»  
تفحصه هنري بذكاء وأخذ قلم رصاص من جيب سترته وفرك الممحاة على أسنانه الأمامية البيضاء الكبيرة. قال بهدوء: «أنا أفهم جيداً ما تعنيه»  
نظر إليه آدم بقلق: «ماذا أعني؟».

«الآن لا تغضب، لم أفكر أبداً أنني محظوظ من قبل، أنا أب لفتيات فقط»  
تبع آدم أحد ظلال الألواح على مكتبه بإصبعه، وقال بصوت رقيق أشبه بالتهنيدة: «نعم».

«سيمضي وقت طويل قبل أن يتم استدعاء ابنك».

«نعم». دخل إصبع آدم في خط من الضوء وانزلق ببطء للخلف.

قال هنري: «أكره أن -»

«تكره ماذا؟»

«كنت أتساءل فقط كيف سأشعر إذا اضطررت إلى إرسال أبنائي».

قال آدم: «كنت لأستقيل».

«نعم. أستطيع أن أرى ذلك. سيميل أي أب إلى رفض التحاقهم - أعني

أبناءه».

قال آدم: «لا. سأستقيل لأنني لا أستطيع رفض التحاقهم، لا يجدر بالرجل

استثناء أبناءه».

ربط هنري أصابعه وصنع قبضة كبيرة من يديه ووضع القبضة على المكتب

أمامه. قال: «لا، أنت على حق. لا يجدر بالرجل فعل ذلك. كان هنري يحب

المرح ويتجنبه عندما يكون هناك أي أمر جاد، لأنه كان يخلط بينه وبين الحزن

«كيف حال آرون في ستانفورد؟»

«بخير. يكتب. يقول إن الأمر صعب لكنه يعتقد أنه سيكون على ما يرام.

سيكون هنا لعيد الشكر».

«أود أن أراه. لقد رأيت كال في الشارع ليلة أمس. يا له من فتى ذكي».

قال آدم: «لن يخضع كال لاختبارات الجامعة قبل عام».

«حسنًا، ربما ليس هذا ما يناسبه. أنا لم أذهب إلى الجامعة. هل فعلت

أنت؟»

قال آدم: «لا. ذهبت إلى الجيش».

«حسنًا، إنها خبرة جيدة. أراهن أنك لن تود تحقيق بعض الريج من الخبرة».

وقف آدم ببطء والتقط قبعته من قرني الغزلان المثبتين على الحائط وقال:  
«تصبح على خير يا هنري».

## 2

في طريقه إلى المنزل، فكر آدم في مسؤوليته. أثناء مروره خرج لي من مخبز رينو حاملاً رغيفاً ذهبياً من الخبز الفرنسي.  
قال لي: «أرغب في بعض الخبز بالثوم».  
قال آدم: «أحبها مع شرائح اللحم».  
«لدينا شريحة لحم. هل كان هناك أي بريد؟»  
«لقد نسيت تفقد الصندوق».

دخلا المنزل وذهب لي إلى المطبخ. بعد لحظة تبعه آدم وجلس على طاولة المطبخ. قال: «لي، لنفترض أننا أرسلنا فتى إلى الجيش وقُتل، هل نحن مسؤولون؟»

قال لي: «أكمل، أفضل سماع القصة كاملة مرة واحدة».  
«حسنًا، افترض أن هناك شكاً بسيطاً في كون الفتى مناسباً لأن يكون في الجيش وأنا أرسلناه وقُتل».

«نعم. هل المسؤولية أو اللوم هو ما يزعجك؟»  
«لا أريد اللوم».

«أحياناً تكون المسؤولية أسوأ. إنها لا تحمل أنانية لطيفة».

قال آدم: «كنت أفكر في ذلك الوقت عندما أجرينا أنا وسام هاملتون نقاشاً طويلاً حول كلمة، ماذا كانت تلك الكلمة؟»  
«الآن أفهمك. كانت الكلمة «لك أن».

«لَكَ أَنْ - وَأَنْتِ قَلْتِ -»

«قلت إن هذه الكلمة تحمل عظمة الرجل إذا ما أراد الاستفادة منها».

«أتذكر أن سام هاملتون شعر بالسعادة وقتها».

قال لي: «لقد أشعرتَه هذه الكلمة بالاعتاق، لقد أعطته الحق في أن يكون رجلاً منفصلاً عن أي إنسان آخر».

«هذا يشعرك بالوحدة».

«كل الأشياء العظيمة والثمينة وحيدة».

«ما هي الكلمة مرة أخرى؟»

«لَكَ أَنْ»

### 3

تطلع آدم إلى عيد الشكر لعودة آرون إلى المنزل من الجامعة. على الرغم من أن آرون كان بعيداً لوقت قصير فقد نسيه آدم وغيره بالطريقة التي يغير بها أي رجل شخصاً يحبه. كان الصمت ردة فعله الوحيدة على رحيل آرون، وكان كل حدث مؤلم صغير مرتبطاً بطريقة ما بغيابه. وجد آدم نفسه يتحدث ويتفاخر بشأن ابنه ويخبر الأشخاص الذين لم يكونوا مهتمين جداً بمدى ذكاء آرون عن تجاوزه لعام دراسي. كان يرى أنه سيكون أمراً جيداً أن يكون هناك احتفاء حقيقي في عيد الشكر لإشعار الفتى بأن جهوده كانت موضع تقدير.

أقام آرون في غرفة مفروشة في بالو ألتو، وكان يسير مسافة ميل من وإلى الحرم الجامعي كل يوم. كان مستاءً. توقع أن يجد الجامعة مكاناً جميلاً. كان تصوّره - والذي لم يتأكد منه جيداً - هو لشباب وفتيات طاهرين، جميعهم يرتدون أردية أكاديمية ويجلسون في كنيسة مبنية على تل مشجر في المساء. وجوههم مشرقة وأصواتهم ترتفع في الجوقة. لم تكن لديه أي فكرة من أين

حصل على تلك الصورة الذهنية للحياة الأكاديمية - ربما من رسوم جحيم دانتى مع ملائكته المتجمعة والمتألقة. ولم تكن جامعة ليلاند ستانفورد كذلك. طوب من كتل الحجر الرملي البني موضوعة في حقل قش. كنيسة بواجهة فيفساء إيطالية؛ فصول دراسية من خشب الصنوبر المطلي. وعالم النضال والغضب العظيم أعيد تمثيله من خلال صعود وسقوط الأخويات. الملائكة كانوا شباناً يرتدون سراويل قطنية متسخة، بعضهم مشوش في الدراسة والبعض الآخر يتعلم ردائل آبائهم الصغيرة.

كان آرون، الذي لم يعرف أن لديه منزلاً، يشعر بالغيان والحنين إلى الوطن. لم يحاول أن يتعرف على أسلوب الحياة تلك ولا أن يدخلها. لقد وجد الضجيج والصخب الدائم وألعاب الطلاب الجامعيين مرعبة. غادر سكن الجامعة منتقلاً للإقامة في غرفة مؤثثة بشكل كئيب حيث يمكنه تزيين حلم آخر لم يتحقق إلا الآن. في المخبأ الجديد والمحايد، ذهب إلى فصوله الدراسية وغادرها بأسرع ما يمكن، ليعيش في ذكرياته الجديدة.

أصبح المنزل المجاور لمخبز رينود دافناً وحميمياً، لي أروع مثال للصديق والمستشار، ووالده شخصية ألوهية رائعة يمكن الاعتماد عليها، وشقيقه ذكي ومبهج، وأبرا - حسناً، لقد جعل أبراهي حلمه الطاهر وبعد أن خلقها، وقع في حبها. كان عندما ينهي دراسته ليلاً، ينتقل لكتابة رسالته المسائية لها كما يذهب المرء لأخذ حمام معطر. عندما أصبحت أبراً أكثر إشراقاً ونقاءً وجمالاً زادت سعادة آرون بها بشكل شره. وفي نوبة من الهيجان الشديد سكب كل الأفكار المخزية التي تدور في ذهنه على الورق ليرسلها إليها، وذهب إلى الفراش كما يفعل رجل بعد ممارسة الجنس. كان قد تخلص من كل الأفكار الشريرة ونبذها. وكانت النتائج عبارة عن رسائل حب تقطر شوقاً ونبرتها العالية جعلت أبراً متوترة للغاية. لم تعرف أن نشاط آرون الجنسي قد اتخذ مساراً غير عادي. لقد أخطأ، وكان بإمكانه أن يعترف بالخطأ، لكنه لم يستطع عكس الزمور.

لقد عقد اتفاقاً مع نفسه. في عيد الشكر قرر أن يعود إلى المنزل، وسيكون حينها متأكداً. تذكر أن أبراً كانت قد اقترحت ذات مرة أن يذهباً للعيش في المزرعة، وأصبح ذلك حلمه. لقد تذكر أشجار البلوط العظيمة والهواء المنعش النقي، والنسائم القادمة من التلال وأوراق البلوط البني المتساقطة. كان بإمكانه أن يتصور أبراً هناك واقفة تحت شجرة وتنتظر عودته من العمل مساءً، حيث يمكنه أن يعيش في نقاء وسلام، معزولاً عن القبح.





## الفصل 48

### 1

في أواخر نوفمبر ماتت الزنجية صاحبة المبغي، وأقيمت لها مراسم متقشفة كما طلبت. رقدت ليوم واحد في كنيسة مولر الجنائزية في تابوت من خشب الأبنوس والفضة، وقد جعلها مظهرها النحيل والقاسي أكثر تقشفًا من خلال الشموع الأربعة الكبيرة الموضوعة في الزوايا الأربع للتابوت.

جلس زوجها الأسود الصغير القرفصاء مثل قطة بجانب كتفها الأيمن وبدا ساكنًا مثلها لساعات عديدة. لم تكن هناك زهور كما أوصت ولا مراسم ولا خطبة ولا حزن. لكن توليفة غريبة من المواطنين توجهت إلى باب الكنيسة وأطالت النظر إليها ثم غادرت - محامون وعمال وموظفون وصرافو بنوك، معظمهم تجاوزوا منتصف العمر. جاءت فتياتها واحدة تلو الأخرى لإلقاء النظرة الأخيرة عليها وغادرن.

لقد اختفت مؤسسة من ساليناس، مؤسسة تقدم الجنس السري المهلك، كما يتم تقديم تضحية بشرية يائسة ومؤلمة للغاية. مبعي جيني كان ما زال يضحج بالضحكات والصخب وأصوات الموسيقى الريفية والتجشؤ. بينما مبعي كيت كان يمزق الأعصاب ويجرّها إلى الوصول لنشوة تترك الرجل مهزوزًا وضعيفًا وخائفًا من نفسه. لكن اللغز الكئيب الذي كان يشبه سحر الفودو يكون قد ذهب إلى الأبد.

أقيمت الجنازة أيضًا حسب تعليمات الوصية، سيارة حمل النعش والرجل

الأسود الصغير الجالس القرفصاء في الزاوية. كان يوماً كئيباً، بعدما قامت مؤسسة خدمة مولر لمراسيم الجنائز بإنزال النعش برافعاتها الصامتة، ابتعدت وقام الزوج بملء القبر بنفسه بمجرفة جديدة. سمع حارس المقبرة وهو يقطع الأعشاب الجافة على بعد مائة ياردة أئيناً حملته الريح.

كان جو فاليري يشرب بيرة مع بوتش بيفرز في حانه أول، وذهبا معاً للإلقاء نظرة على الزنجي. كان بوتش في عجلة من أمره لأنه كان عليه الذهاب إلى ناتيفيداد لبيع قطع صغير من الأبقار في مزاد علني.

عند خروجه وجد جو نفسه أمام ألف نيكلسون - ألف نيكلسون المجنون. كان ألف عاملاً متعدد التخصصات، نجاراً، بحاراً، وحداداً، وكهربائياً، وعامل بناء، وإسكافياً. كان بإمكان ألف فعل أي شيء، مع ذلك كان فاشلاً من الناحية المادية، على الرغم من أنه كان يعمل طوال الوقت. وكان يعرف كل شيء عن الجميع منذ بداية الزمن.

في الماضي، في فترة نجاحه، كان هناك نوعان من الناس يمكنهم الوصول إلى جميع المنازل وكل القيل والقال: الخياطة والعامل. بإمكان ألف أن يخبرك عن جميع سكان جانبي الشارع الرئيسي. كان صاحب ثروة ذكورية شريرة، فضولية بلا هوادة، ومحبة للانتقام.

نظر إلى جو وحاول التعرف إليه. قال: «أنا أعرفك، لا تخبرني من تكون». ابتعد جو قليلاً. كان حذرًا من الأشخاص الذين يعرفونه. قال ألف: «انتظر دقيقة. لقد تذكرت. كيت. أنت تعمل في مبغى كيت».

تهدد جو بارتياح. كان يعتقد أن ألف قد عرفه من وقت سابق. قال بعد لحظات: «هذا صحيح».

قال ألف «لا أنسى وجهًا أبدًا. لقد رأيتك عندما بنيت تلك الغرفة الضيقة في منزل كيت. لماذا بحق الجحيم أردتها دون نافذة».

قال جو: «أرادتها مظلمة. العيون المتلصصة تزعجها».

تنهد ألف. لم يصدق أبداً أي شيء بسيط أو جيد عن أي شخص. يمكنك أن تقول صباح الخير لـ ألف وهو سيعمل على تفسير معناها الخفي. كان مقتنعاً بأن الجميع يعيشون في الخفاء وأنه وحده يستطيع أن يرى من خلالهم. أدار جو رأسه نحو مولر وقال «حسناً، إنها علامة فارقة، كل القدامى تقريباً رحلوا. وعندما ترحل جيني يعني هذا أنها النهاية».

كان جو قلقاً. أراد الهروب - وألف عرف ذلك. كان ألف خبيراً في معرفة الأشخاص الذين يريدون الابتعاد عنه. عندما تفكر في الأمر، قد تجد أنه ربما لهذا السبب حمل دائماً حقيبة القمصن الخاصة به. لا يتعد أحد عنك عندما تُسمعه بعض الأشياء المثيرة عن شخص آخر. الجميع يحب الثروة. لم يكن ألف محبوباً بسبب موهبته تلك، مع ذلك كان الجميع يريد الاستماع إليه. كان يعلم أن جو كان على وشك تقديم عذر والمغادرة. تذكر أنه لم يعد يسمع الكثير عن مبغى كيت مؤخراً.

قد يقاوضه جو ببعض الأشياء الجديدة مقابل بعض الأشياء القديمة. قال: «كانت الأيام الخوالي جميلة، طبعاً أنت مجرد طفل».

قال جو: «عليّ مقابلة أحدهم».

تظاهر ألف بعدم سماعه وقال: «خُذ فيّ على سبيل المثال. لقد كانت شخصية مميزة. أنت تعرف أن فيّ كانت هي صاحبة هذا المبعغى. لا أحد يعرف حقاً كيف امتلكته كيت فجأة. كان الأمر غامضاً جداً، وكان هناك البعض ممن كانت لديهم شكوكهم» سكت ورأى باستمتاع أن الرجل الذي كان سيقابله جو سينتظر طويلاً.

«ما الذي كانوا يشتبهون فيه؟» سأله جو.

«عليهم اللعنة، تعرف كيف يتحدث الناس. ربما ليس هناك شيء. لكن عليّ الاعتراف بأن الأمر بدا غريباً نوعاً ما».

«هل ترغب في تناول بيرة؟» سأله جو.

قال ألف: «الآن أنت تقدم شيئاً جيداً، يقولون إن الرجل يخرج من الجنازة إلى غرفة النوم. لكنني لم أعد شاباً كما كنت. الجنازات تجعلني عطشان. كانت الزنجية شخصية فريدة. يمكنني أن أخبرك أشياء عنها. لقد عرفتها منذ خمسة وثلاثين - لا، سبعة وثلاثين عاماً».

«من هي في؟» سأل جو.

ذهبا إلى صالون السيد غريفيين. السيد غريفيين لم يحب أي شيء يتعلق بالخمور وكان يكره السكرارى ويحتقرهم بشدة. كان يمتلك ويدير صالوناً في الشارع الرئيسي، وفي ليلة السبت قد يرفض خدمة عشرين رجلاً لأنه يرى أن لديه ما يكفي من الزبائن. وكانت النتيجة أنه حصل على أفضل الأرباح بتوفيره مكانه الهادئ والمنظم والراقي. كان صالوناً لعقد الصفقات والتحدث بهدوء دون مقاطعات.

جلس جو وألف على المائدة المستديرة في الخلف وتناول كل منهما ثلاثة أنواع من البيرة. عرف جو كل شيء، الحقيقي وغير الصحيح، المبني على أساس منطقي والذي لا أساس له، وكل التخمينات القبيحة. خرج بارتباك كامل ولكن أيضاً ببعض الأفكار. شيء ما كان غامضاً فيما يتعلق بوفاة في. وكيت قد تكون زوجة آدم تراسك.

قد يرغب تراسك في سداد ثمن هذه المعلومة. قد يكون موضوع في خطيراً جداً. كان على جو أن يفكر في ذلك - لوحده.

بعد انقضاء ساعتين ضاق خلق ألف. جو لم يقاوضه بأي شيء، ولا قطعة واحدة من المعلومات أو التخمينات. وجد ألف نفسه يفكر، لا بد أن يكون لدى هذا الرجل ما يخفيه. أتساءل من وراءه؟

قال ألف أخيراً: «افهم الأمر، أنا معجب بكيت. لقد كلفتنى بمهام بين

الحين والآخر وهي سخية وسريعة في الدفع. ربما لا يوجد شيء متعلق بها على الإطلاق. مع ذلك، عندما تفكر في الأمر، ترى كم هي امرأة باردة جدًا وقاسية، ألا تظن؟»

قال جو: «أنا على ما يرام في عملي لديها»

كان ألف مستاء من خداع جو له، لذلك أدخل إبرته: «كانت لدي فكرة مضحكة، عندما بنيت تلك الغرفة الصغيرة بدون نافذة. حدّقت بي بتلك العين الباردة ذات يوم وخطرت لي فكرة. لو كانت تعرف كل الأشياء التي كنت أعرفها، لكانت قدمت لي مشروبًا أو حتى كعك مكوب - كنت سأقول: «لا. شكرًا لك سيدتي»

قال جو: «أنا وهي على ما يرام. عليّ أن ألتقي بأحدهم».

ذهب جو إلى غرفته ليفكر. وهو في خضم اضطرابه فوجيء ونظر في حقيبتة وفتح جميع أدراج المكتب. شعر أن شخصًا ما كان يفتش أغراضه. وتذكو فوراً أنه لم يكن هناك شيء لتجده. مع ذلك زاد هذا الأمر من توتره. حاول ترتيب الأشياء التي سمعها. كان هناك طرق خفيف على الباب ودخلت ثيلما وعيناها متورمتان وأنفها أحمر «ما الذي يحدث لكيت؟»  
«لقد كانت مريضة».

«لا أقصد ذلك. كنت في المطبخ أحضر اللبن المخفوق ودخلت وبدأت بالصراخ»

«ربما أضفت الخمر؟»

«قطعاً لا. فقط خلاصة الفانيليا. لا يمكنها التحدث معي هكذا».

«لكنها فعلت، أليس كذلك؟»

«حسنًا، أنا لا أقبل».

قال جو «أوه نعم، ستفعلين، والآن اخرجي يا ثيلما»

نظرت إليه ثيلما واستعادت هدوئها: «جو، هل أنت حقاً ابن عاهرة أم أنك تتظاهر بذلك فقط؟»

«فيم يهملك؟» سألتها.

قالت ثيلما: «لا يهمني، يا ابن العاهرة».

## 2

خطط جو للتحرك ببطء وحذر و فقط بعد تفكير ودراسة جيدة. قال لنفسه: «لقد حصلت على المال، ويجب أن تستخدمه بشكل صحيح».

ذهب ليحصل على أوامره المسائية وأخذها من مؤخرة رأس كيت. كانت على مكتبها، لمح ظلال العيون الخضراء، لم تنظر إليه. أنهت أوامرها المقتضبة ثم تابعت: «جو، أتساءل عما إذا كنت تهتم بالعمل. كنت مريضة. لكنني بحالة جيدة مرة أخرى أو على وشك أن أكون على ما يرام».

«هل هناك خطب ما؟»

«مجرد عوارض. أفضل أن تشرب ثيلما الويسكي على مستخلص الفانيليا، ولا أريدها أن تشرب الويسكي. أعتقد أنك أصبحت غافلاً نوعاً ما».

انطلق عقله بحثاً عن مكان للاختباء. قال «حسناً، لقد كنت مشغولاً».

«مشغول؟»

«بالطبع. كنت منشغلاً بذلك الموضوع».

«أي موضوع؟»

«تعرفين - عن إثيل».

«انس إثيل!»

قال جو «حسناً». ثم قال دون تفكير. «قابلت رجلاً بالأمس قال إنه رآها».

مكتبة  
t.me/soramnqraa

لو لم يعرفها جو لما كان سيتوقف قليلاً، عشر ثوانٍ صارمة من الصمت، ثم حان الوقت؛ سألت كيت بهدوء: «أين؟»  
«هنا».

أدارت كرسيها الدوار ببطء في مواجهته «ما كان يجب أن أتركك تعمل بشكل سري يا جو. من الصعب الاعتراف بالخطأ لكنني مدينة لك بذلك. لست مضطرة لتذكيرك بأني أخرجت إثيل من المقاطعة. ظننت أنها أخطأت في حقي». تسلس شيء من الحزن إلى صوتها «كنت مخطئة. اكتشفت ذلك لاحقاً. لقد كانت تعمل معي في الماضي، لم تضرنني بأي طريقة. أريد أن أجدها وأصلح الأمر. أعتقد أنك تظن أنه من الغريب بالنسبة لي أن أفكر بهذه الطريقة».

«لا يا سيدتي».

«ابحث عنها لي يا جو. سأشعر بتحسن عندما أعوضها - تلك العجوز المسكينة».

«سأحاول سيدتي».

«وجو - إذا كنت بحاجة إلى أي أموال أخبرني بذلك. وإذا وجدتتها، فقط أخبرها بما قلته. إذا كانت لا تريد المجيء إلى هنا، حاول معرفة أين يمكنني الاتصال بها. هل تحتاج إلى أي نقود؟»

«ليس الآن سيدتي. لكن علي أن أغادر المنزل أكثر مما ينبغي».

«فليكن. هذا كل شيء يا جو».

شعر برغبة عارمة في معانقة نفسه. في القاعة أمسك بمرفقيه وترك فرحه يمر من خلاله. بدأ يؤمن أنه خطط لكل شيء بشكل مثالي. مر بالردهة المظلمة التي تحلّق فيها الأصوات الخافتة في وقت مبكر من المساء. انطلق إلى الخارج ووقف يتأمل النجوم وهي تسبح عبر السحب التي تحركها الرياح.



تذكر جو والده المتعثر - تذكر شيئاً قاله له ذلك العجوز: «ابحث عن حاملة حساء. استعن بواحدة منهن تحمل حساءً دائماً لشخص ما - لا تنس هذا».

قال جو وهو يتنفس: «حاملة حساء. اعتقدت أنها كانت أذكى من ذلك». راجع نبرة صوتها وكلماتها للتأكد من أنه لم يفوت شيئاً. لا، ربما حامل حساء، فكر في ألف وهمس: «لكانت قدمت لي مشروباً أو حتى كعكاً مكوب..».

### 3

جلست كيت إلى مكتبها. كان بإمكانها سماع صوت الريح في القاعة خارج غرفتها، كانت الرياح والظلام متخمين بإثيل، إثيل السمينية، القذرة، النازفة بالقرب من قنديل البحر. حل عليها تعب بليد.

دخلت الغرفة الرمادية وأغلقت الباب وجلست في الظلام تصغي إلى الألم يتسلل عائداً إلى أصابعها. كانت تشعر بالدم يندفع في صدغها. تذكرت الكبسولة في الأنبوب المعلق في السلسلة حول رقبتها، فركت الأنبوب المعدني الدافئ من صدرها على خدها، وعادت شجاعتها. غسلت وجهها ووضعت الماكياج ومشطت شعرها ونفخته في تسريحة بومبادور فضفاضة وانتقلت إلى القاعة وعند باب الردهة توقفت مؤقتاً، كالعادة، تستمع.

على يمين الباب سمعت فتاتين ورجلا يتحدثون، وبمجرد أن دخلت كيت توقف الحديث على الفور. قالت كيت: «هيلين، أريد أن أراك إذا لم تكوني مشغولة الآن».

تبعها الفتاة في الردهة إلى غرفتها. كانت شقراء شاحبة بجلد يشبه العظم النظيف المصقول. «هل هناك شيء آنسة كيت؟» سألت بخوف.

«اجلسي. لا، لا شيء. هل ذهبتِ إلى جنازة الزنجية».

«ألم تريدني أن أفعل؟»

«لا يهمني ذلك. هل ذهبتِ».

«نعم، سيدتي».

«حدثيني عنها».

«ماذا عنها؟»

«أخبريني بما تتذكرينه - كيف كان الأمر».

قالت هيلين بتوتر «حسنًا، لقد كانت جنازة فظيعة و - نوعًا ما جميلة».

«كيف هذا؟»

«لا أعرف. لا زهور، لا شيء، ولكن كان هناك - حسنًا، نوع من الكرامة. كانت الزنجية ترقد هناك في تابوت خشبي أسود به مقابض فضية. تجعلك تشعرين ب - لا يمكنني قول ذلك. لا أعرف كيف أقول ذلك».

«ربما قلتها بالفعل. ماذا كانت ترتدي؟»

«ثيابها يا سيدتي؟»

«نعم ثيابها. لم يدفنوها عارية، أليس كذلك؟»

بدا على وجه هيلين شيء يشبه الصراع الداخلي. قالت: «لا أعرف، أعني لا أتذكر».

«هل ذهبتِ إلى المقبرة؟»

«لا، سيدتي. لم يفعل أحد غيره».

«من؟»

«زوجها».

قالت كيت بسرعة - بسرعة كبيرة نوعًا ما: «هل لديك أي زبائن الليلة؟»

«لا سيدتي. العمل قليل في اليوم الذي يسبق عيد الشكر».

قالت كيت: «لقد نسيت، عودي إلى الخارج». راقبت الفتاة تخرج من الغرفة

وعادت إلى مكتبها. وبينما كانت تنظر إلى فاتورة مفصلة لعمل سباكة انحرفت يدها اليسرى إلى رقبته ولمست السلسلة. غمرها شعور بالراحة والطمأنينة.

## الفصل 49

### 1

حاول كل من لي وكال إقناع آدم بعدم الذهاب إلى محطة القطار، قطار لارك الليلي القادم من سان فرانسيسكو إلى لوس أنجلوس.

قال كال: «لماذا لا نترك أبرا تذهب وحدها؟ سيرغب في رؤيتها أولاً».

قال لي: «أعتقد أنه لن يلاحظ حتى أن هناك أي شخص آخر، لذلك لا يهم ما إذا كنا سنذهب أم لا».

قال آدم: «أريد أن أراه وهو ينزل من القطار، سيكون قد تغير. أريد أن أرى التغيير».

قال لي «لقد غادر لشهرين فقط. لا يعقل أن يكون قد تغير كثيراً، ولا أن يبدو أكبر سنّاً بكثير».

«سيكون مختلفاً. التجربة تفعل ذلك».

قال كال: «إذا ذهبت فستعين علينا جميعاً الذهاب».

«ألا تريد رؤية أخيك؟» سأله آدم بصرامة.

«بالتأكيد، لكنه لن يريد رؤيتي - ليس في البداية أقصد».

قال آدم: «بل يريد، لا تقلل من شأن آرون».

«ألقي لي يديه: «أعتقد أننا جميعاً ذاهبون».

«هل يمكنك أن تتخيل؟» قال آدم. «سيكون قد تعلم الكثير من الأشياء

الجديدة. أتساءل عما إذا أصبح يتحدث بشكل مختلف. أتعلم يا لي، في الشرق يتبنى الشاب أسلوب خطابة مدرسته، يمكنك التمييز بين خريج هارفارد وخريج برينستون كل حسب أسلوب حديثه. على الأقل هذا ما يقولونه».

قال لي: «سأستمع جيداً. أتساءل ما هي اللهجة التي يتحدثون بها في جامعة ستانفورد». ابتسم لكال.

لم يعتقد آدم أنه كان مضحكاً «هل وضعت بعض الفاكهة في غرفته؟ هو يحب الفاكهة».

قال لي: «الكمثرى والتفاح وعنب مسكي»

«نعم، يحب العنب المسكي. أتذكر ذلك».

تحت إلحاح آدم وصلوا إلى مستودع جنوب المحيط الهادئ قبل نصف ساعة من موعد وصول القطار. كانت أبرا هناك بالفعل.

قالت: «لا أستطيع القدوم لتناول العشاء غداً لي، أبي يريدني في المنزل، سأحضر في أقرب وقت ممكن».

قال لي «أنت لاهثة قليلاً، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنني كذلك. ابحث عن المسار وشاهد ما إذا كان الضوء قد تحول إلى اللون الأخضر».

تعتبر مواعيد القطارات مصدر فخر وتخوف لدى الجميع تقريباً. عندما، بغض النظر عن المسار، كانت إشارة الكتلة تنقطع من الأحمر إلى الأخضر وكان مسبار المصباح الأمامي ينعطف وينطلق في المحطة، كان الرجال ينظرون إلى ساعاتهم ويقولون: «في الوقت المحدد».

كان هناك شعور بالفخر والراحة أيضاً. أصبح الجزء من الثانية أكثر أهمية بالنسبة لنا. وبينما تصبح الأنشطة البشرية أكثر تشابكاً وتكاملاً، سيظهر عُشر الثانية، وبعد ذلك يجب اختراع اسم جديد للجزء المائة، إلى أن نقول

يوم ما، على الرغم من أنني لا أصدق ذلك: «أوه، فلتذهب إلى الجحيم. ما المشكلة في التأخر ساعة؟» لكن هذا الانشغال بوحدات زمنية صغيرة ليس بالأمر السخيف. يمكن لتأخر أو تقدّم أمر واحد أن يعطل كل شيء من حوله، والاضطراب سيمتد حينها إلى الخارج في مجموعات تشبه الأمواج المتكونة من سقوط حجر في بركة هادئة.

وصل لارك<sup>(1)</sup> مسرعًا كما لو أنه لا ينوي التوقف. و فقط عندما تجاوز المحرك وسيارات الأمتعة، توقفت الفرامل الهوائية عن صراخها وتوقف الحديد المجهد.

نقل القطار حشدًا كبيرًا من سكان ساليانس وأعاد أقاربهم إلى ديارهم للاحتفال بعيد الشكر وأيادهم تحمل علب كرتون وصناديق ورقية مغلقة بالهدايا. لقد مرت لحظة أو اثنتان قبل أن تتمكن عائلة آرون من العثور عليه. ثم وأوه، وبدا أنه أصبح أكبر مما كان عليه.

كان يرتدي قبعة مسطحة ضيقة الحواف وأنيقة للغاية، عندما رأهم انطلق راكضًا وانتزع قبعته، لاحظوا أن شعره اللامع قد تم قصه وكان واقفًا بشكل مستقيم. لمعت عيناه عندما رأى سعادتهم لرؤيته.

أسقط آرون حقييته ورفع أبراً عن الأرض في عناق كبير. أنزلها وأعطى آدم وكال يديه. وضع ذراعيه حول كتفي لي وكاد يسحقه.

في طريقهم إلى المنزل كان الجميع يتحدث في نفس الوقت. «حسنًا كيف حالك؟ تبدو بخير».

«أبراً، أنتِ جميلة جدًا».

«لستُ كذلك. لماذا قصصت شعرك؟»

---

(1) قطار ركاب تابع لشركة Southern Pacific Company بين سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس منذ عام 1941 وتم إيقافه في 8 أبريل 1968.

«أوه، الجميع يقص شعره بهذه الطريقة»

«لكن لديك شعر جميل».

سارعوا إلى الشارع الرئيسي ولوحت لهم السيدة رينود من خلف نافذة المخبز بيدها الشاحبة كالطحين وخلال وقت قصير وصلوا إلى المنزل.

قال آدم: «بعض القهوة، لي؟»

«لقد حضرتها قبل مغادرتنا. إنها على نار هادئة». كان قد جهز الأكواب أيضًا. فجأة أصبحوا جميعاً معاً - آرون وأبرا على الأريكة، وآدم على كرسيه تحت الضوء، ولي يوزع القهوة، وكال في مدخل القاعة، وقد التزموا جميعاً الصمت، فقد فات الأوان لقول مرحباً ومن السابق لأوانه البدء في الخوض في مواضيع أخرى.

قال آدم: «أريد أن أسمع كل شيء. هل ستحصل على درجات جيدة؟»

«الامتحانات النهائية لن تبدأ قبل الشهر المقبل يا أبي».

«حسنًا، ستحصل على درجات جيدة. أنا متأكد أنك ستفعل».

رغمًا عنه عبرت وجه آرون كآبة من نفاذ الصبر.

قال آدم: «أراهن أنك متعب. حسنًا، يمكننا التحدث غدًا».

«أراهن أنه ليس كذلك. أراهن أنه يرغب في أن يكون بمفرده فحسب». قال

لي

نظر آدم إلى لي وقال: «بالطبع. هل تعتقد أنه يجب علينا جميعًا الذهاب إلى

الفراش؟»

حلت أبرا المعضلة قائلة: «لا يمكنني البقاء في الخارج لوقت طويل. آرون،

لماذا لا توصلني للمنزل؟ سنلتقي غدًا».

في الطريق تشبثت آرون بذراعها وهو يرتجف: «الجو يبرد».

«سعيد بالعودة؟»

«نعم. لدي الكثير لأتحدث عنه.»

«أشياء جيدة؟»

«ربما. أتمنى أن تجديها جيدة.»

«يبدو أنك جاد.»

«الأمر جاد»

«متى عليك العودة؟»

«ليلة الأحد.»

«سيكون لدينا الكثير من الوقت. أريد أن أخبرك ببعض الأمور أيضاً. لدينا غداً والجمعة والسبت ويوم الأحد بأكمله. هل تمانع ألا تأتي الليلة؟»

«ولم لا؟»

«سأخبرك لاحقاً.»

«أريد أن أعرف الآن.»

«حسنًا، يمر والدي بواحدة من نوباته.»

«ضدي؟»

«نعم. لا يمكنني القدوم لتناول العشاء معك غداً، لكنني لن أكل كثيرًا في المنزل، لذا اطلب من لي أن يحتفظ لي بطبق.»

كان يشعر بالخجل. أحست بذلك عندما استرخت قبضته على ذراعها، وفي صمته، وتمكنت من رؤية ذلك في وجهه عندما رفعه نحوها. «ما كان يجب أن أكتب لك ذلك الكلام في تلك الليلة.»

قالت ببطء «نعم، يجب عليك، أخبرني الحقيقة، هل ما زلت تريد أن تكون

معني؟»



«نعم».

«إذاً كل شيء على ما يرام. سأذهب الآن وستحدث غداً».

تركها على شرفة منزلها مع قبلة خفيفة على شفيتها. شعرت بالألم لأنه وافق بسهولة، وضحكت بحزن على حقيقة أن بإمكانها أن تطلب أمراً وعندما تتم تلميته تشعر أن مشاعرها تأذت. راقبت خطوته السريعة الطويلة من خلال ضوء الشارع في الزاوية وفكرت: لا بد أنني مجنونة، لقد كنت أتوهم.

## 2

في غرفة نومه جلس آرون على حافة سريره وألقى نظرة على يديه المتشابكتين بين ركبتيه. شعر بالإحباط والعجز، شعر أنه معبأ مثل بيضة طائر في قطن طموح والده. لم يكن يعرف قوة هذه المشاعر حتى الليلة، وتساءل عما إذا كان سينتق من قوتها الناعمة والمثابرة. بدا المنزل بارداً ورطباً مما جعله يرتجف. قام وفتح بابه بهدوء، كان هناك ضوء تحت باب كال فنقر ودخل دون انتظار الرد.

كان كال جالساً على مكتب جديد. كانت بين يديه مناديل ورقية وشريط أحمر، وعندما دخل آرون قام على عجل بتغطية شيء ما على مكتبه بمصفاة كبيرة.

ابتسم آرون «هدايا؟»

«نعم» قال كال وترك الأمر عند هذا الحد.

«هل أستطيع التحدث معك؟»

«بالتأكيد! أدخل. تحدث بصوت منخفض وإلا سيأتي أبي. يكره تفويت

لحظة».

جلس آرون على السرير. ظل صامتاً لوقت طويل حتى سأله كال: «ما

الأمر - هل لديك مشكلة؟»

«لا، لا مشكلة. أردت فقط التحدث معك. كال، لا أريد الاستمرار في الجامعة».

قفز رأس كال «لا؟ لم لا؟»

«لا أريد فحسب».

«لم تخبر أبي، أليس كذلك؟ سيصاب بخيبة أمل. إنه أمر سيء بما يكفي بالنسبة له أنني لا أريد الذهاب. ماذا تنوي أن تفعل؟»

«أفكر في تولي أمر المزرعة».

«ماذا عن أبرأ؟»

«لقد أخبرتني منذ وقت طويل أن هذا هو ما تريده أيضاً»

تفكر كال في الأمر «المزرعة مؤجرة للتشغيل».

«حسنًا، كنت أفكر في ذلك للتو».

قال كال «لا يوجد مال في الزراعة».

«لا أريد الكثير من المال. فقط ما يكفي للمعيشة».

قال كال: «هذا ليس جيدًا بما يكفي بالنسبة لي، أريد الكثير من المال وسأحصل عليه أيضًا».

«كيف؟»

شعر كال بأنه أكبر سنا وأكثر خبرة من أخيه. شعر بالحماية تجاهه. إذا كنت ستستمر في الجامعة، سأبدأ بتأسيس مشروع. ثم عندما تنتهي يمكننا أن نكون شركاء. سأخذ نوعًا واحدًا من السلع وسيكون لديك نوع آخر. قد يكون ذلك جيدًا».

«لا أريد العودة. لماذا علي أن أعود؟»

«لأن أبي يريدك أن تفعل».

«هذا لن يجعلني أرحل».

حدق كال بشراسة في أخيه، في الشعر الأشقر والعيون الواسعة، وفجأة عرف لماذا أحب والده آرون، وعرف ذلك بما لا يدع مجالاً للشك. قال بسرعة: «فكر في الأمر، سيكون من الأفضل إذا أنهيت هذا الفصل على الأقل. لا تفعل أي شيء الآن».

نهض آرون واتجه نحو الباب «لمن الهدية؟» سأل.

«إنها لأبي. سترها غداً - بعد العشاء».

«إنه ليس عيد الميلاد».

قال كال: «لا، إنه أفضل من عيد الميلاد».

عندما عاد آرون إلى غرفته، كشف كال الهدية. أحصى الأوراق النقدية الخمسة عشر الجديدة مرة أخرى، كانت هشة للغاية لدرجة أنها أحدثت صوتاً حاداً. اضطر بنك مقاطعة مونتيري إلى التحدث مع سان فرانسيسكو للحصول عليها، وتم إرسالها فقط عندما تم إخبارهم عن السبب. كان من دواعي الصدمة وعدم التصديق بالنسبة للبنك أن شاباً يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً بإمكانه امتلاكها أولاً، وثانياً، أن يحملها. لا يحب المصرفيون التعامل باستخفاف مع المال حتى لو كان التعامل عاطفياً. كانت كلمة ويل هاملتون سبباً في جعل البنك يصدق أن المال يخص كال، وأنه مال ربحه بأمانة، وأن من حقه فعل ما يريد به.

قام كال بلف الأوراق النقدية في منديل ورقي وربطها بشريط أحمر. كانت الحزمة عبارة عن منديل أخفاه تحت قمصانه في خزانته وذهب لفرشه لكنه لم يستطع النوم. كان متحمساً وفي نفس الوقت خجلاً. تمنى لو انتهى اليوم وأعطى والده الهدية. ذهب إلى ما كان يخطط لقوله.

«هذا لك».

«ما هذا؟»

«هدية».

إلى هنا يصل ثم لم يكن يعرف ماذا سيحدث. بقي يتقلب ويتدحرج على سريره، وعند الفجر قام وارتدى ثيابه وتسلل إلى خارج المنزل.

في الشارع الرئيسي رأى مارتن العجوز يكنس الشارع. كان مجلس المدينة يناقش شراء مكنسة ميكانيكية، وكان مارتن يأمل في أن يقودها، لكنه كان ساخرًا حيال ذلك. حصل الشباب على كل شيء. مرت عربة قمامة ونظر إليها مارتن بحقد. كان هذا عملاً يدر ربحاً جيداً، وكان هؤلاء يزدادون ثراءً.

كان الشارع الرئيسي فارغاً باستثناء عدد قليل من الكلاب المستلقية عند المداخل المغلقة والنشاط الهادئ حول مطعم سان فرانسيسكو للأضلاع المشوية. كانت سيارة بيت الأجرة الجديدة متوقفة أمامه، حيث تم الطلب من بيت في الليلة السابقة نقل فتيات ويليامز إلى قطار الصباح المتجه إلى سان فرانسيسكو.

نادى مارتن كال: «هل لديك سيجارة، أيها الشاب؟» توقف كال وأخرج علبة سجائره الكرتونية.

«أوه، رائع!» قال مارتن: «لا أملك أعواد ثقاب أيضاً».

أشعل كال السيجارة له، مع الحرص على عدم إشعال النار في الشعر الرمادي الكثيف حول فم مارتن.

استند مارتن على مقبض مكنسته ونفخ قائلاً: «الشباب فقط يحصلون على الوظائف الجيدة، لن يسمحوا لي بقيادة السيارة».

«ماذا؟» سأل كال.

«لماذا، ألم تر سيارات الكنس الجديدة. ألم تسمع؟ أين كنت يا فتى؟» كان من المذهل بالنسبة له أن أي إنسان مطلع بشكل معقول لا يعرف شيئاً

عن سيارات الكنيس. ربما تمنحه الشركة الجديدة وظيفة. كانوا يعطون أجوراً جيدة. ثلاث عربات وشاحنة جديدة.

انعطف كال إلى شارع أليسال وتوجه إلى مكتب البريد ونظر في النافذة الزجاجية للصندوق 632. كانت فارغة. تجول في المنزل ووجد لي يحشو ديكاً رومياً كبيراً جداً.

«مستيقظ طول الليل؟» سأل لي.

«لا. لقد ذهبت للتو في نزهة».

«متوتر؟»

«نعم».

«لا ألومك. كنت لأكون أيضاً. من الصعب إعطاء الناس أشياء - أعتقد أنه من الصعب إعطاء الأشياء، رغم ذلك. يبدو الأمر سخيفاً، أليس كذلك؟ هل تريد بعض القهوة؟»  
«لا أمانع».

مسح لي يديه وسكب القهوة له ولكال: «كيف هو آرون برأيك؟»

«بخير، على ما أعتقد».

«هل تحدثت معه؟»

«لا» قال كال. كان هذا أسهل. يريد لي أن يعرف ماذا قال، لكنه لم يكن يوم آرون، كان يوم كال. لقد أراد هذا اليوم لنفسه. كان يريد له لنفسه وحسب.  
دخل آرون وعيناه ما زالتا ضبابيتين: «في أي وقت تخطط لتقديم العشاء، لي؟»

«أوه، لا أعرف - في الثالثة والنصف أو الرابعة».

«هل يمكنك أن تجعلها حوالي الخامسة؟»

«أعتقد ذلك، إذا قال آدم أنه لا يمانع. لماذا؟»

«حسنًا، لا تستطيع أبرا الحضور إلى هنا قبل ذلك الحين. ولدي خطة أريد أن أحدث والدي عنها وأريدها أن تكون موجودة».

قال لي: «أعتقد أن هذا سيكون على ما يرام».

نهض كال بسرعة وذهب إلى غرفته. جلس على مكتبه وهو يتخبط من عدم الارتياح والاستياء. بدون جهد استولى آرون على يومه، وسيصبح يوم آرون. ثم فجأة شعر بالخجل الشديد. غطى عينيه بيديه وقال: «إنها مجرد غيرة. أنا أشعر بالغيرة. هذا ما أنا عليه الآن. أنا غيور. لا أريد أن أكون غيورًا». وكرر مرارًا وتكرارًا «غيور - غيور - غيور»، وكأن الإعلان عنه قد يقضي عليه. بعد أن وصل إلى هذا الحد شرع في معاقبة نفسه: «لماذا أعطي المال لوالدي؟ لصالحه؟ لا إنه لصالحه أنا. قالها ويل هاملتون - أنا أحاول شراءه. لا يوجد شيء واحد لائق في ذلك. لا يوجد شيء واحد لائق بي. أجلس هنا وأشعر بالغيرة من أخي. لماذا لا تسمي الأشياء بأسمائها يا كال؟»

همس بصوت أجش في نفسه «لماذا لا نكون صادقين؟ أعرف لماذا يحب والدي آرون. لأنه يشبهها. والدي لم يتغلب على حبه لها أبدًا. قد لا يعرف ذلك، لكنه صحيح. أتساءل ما إذا كان يعي ذلك. هذا يجعلني أشعر بالغيرة منها أيضًا. لماذا لا آخذ نقودي وأذهب بعيداً؟ لن يشتاقوا لي. بعد فترة وجيزة سينسون أنني كنت موجوداً في أي وقت - باستثناء لي. أتساءل عما إذا كان لي يحبني. ربما لا». أسند قبضتيه على جبهته «هل يضطر آرون أن يقاتل نفسه بهذه الطريقة؟ لا أعتقد ذلك، ولكن كيف لي أن أعرف؟ يمكنني أن أسأله. لا، لن يقول».

شعر كال بالغضب يغمر عقله والشفقة على نفسه. ثم جاء صوت جديد يقول بهدوء وباحتقار: «إذا كنت صادقاً بالفعل - فلماذا لا تقول إنك تستمتع بهذه اللكمات التي تسدها لنفسك؟ هذه هي الحقيقة، لماذا لا تكون على

طبيعتك وتفعل ما تفعله؟» جلس كال في صدمة من هذه الفكرة. هل كان يستمتع بهذا؟ - بالطبع.

بجلده لنفسه يحميها من جلد شخص آخر. ضغط على عقله. أعطه المال، ولكن أعطه برفق. لا تعتمد على أي شيء. لا تتوقع أي شيء. فقط أعطه وانس الأمر. امنح اليوم لآرون. لم لا؟ قفز وأسرع إلى المطبخ. كان آرون يمسك بجلد الديك الرومي بينما كان لي يضع الحشوة في التجويف. وحرارة الفرن تتزايد.

قال لي: «فلنر، ثمانية عشر رطلاً، عشرون دقيقة للرطل - أي ثمانية عشر مرة في عشرين - أي ثلاثمائة وستون دقيقة، ست ساعات حتى -» وبدأ يعد على أصابعه.

قال كال: «عندما تكمل يا آرون، تعال لنتمشي».

«إلى أين؟» سأل آرون.

«في المدينة. أريد أن أسألك شيئاً».

قاد كال شقيقه عبر الشارع إلى محل بيرغيس وغاريسير، مستوردو النبيذ الفاخر والمشروبات الكحولية. قال كال: «لدي بعض المال يا آرون. اعتقدت أنك قد ترغب في شراء بعض النبيذ للعشاء. سأعطيك المال».

«أي نوع من النبيذ؟»

«لنقم باحتفال حقيقي. دعنا نشترى الشمبانيا - يمكنها أن تكون هديتك».

قال جو غاريسير «أنتما لستما كبارًا بما يكفي».

«للعشاء؟ بالتأكيد نحن كذلك»

«لا يمكنني بيعها لكما. أنا آسف».

قال كال: «أعرف ما يمكنك فعله. يمكننا دفع ثمنها ويمكنك إرسالها إلى

والدنا».

قال جو غاريسير: «يمكنني أن أفعل ذلك، لدينا شمبانيا أول دو بيدري»  
ورطب شفثيه كما لو كان يتذوقها.  
«ما هذا؟» سأل كال.

«شمبانيا لذيدة جدًا، بلون عين الحجل، وردية ولكن أغمق قليلاً من  
العادية، وجافة أيضًا. أربعة وخمسون للزجاجة».  
«أليس هذا سعرًا مرتفعًا؟» سأل آرون.  
«بالتأكيد!» ضحك كال «أرسل ثلاث زجاجات يا جو».  
ثم قال لآرون: «إنها هديتك».

### 3

كان اليوم طويلًا جدًّا بالنسبة لكال. أراد مغادرة المنزل ولم يستطع. في  
الساعة الحادية عشرة، ذهب آدم إلى مكتب مجلس التجنيد المغلق للنظر في  
السجلات الجديدة لمجموعة من الأولاد.

بدا آرون هادئًا تمامًا. جلس في غرفة المعيشة ينظر إلى أعداد قديمة من  
مجلات رسومات الكرتون. من المطبخ بدأت رائحة الديك الرومي المشوي  
تملأ المنزل.

ذهب كال إلى غرفته وأخرج هديته ووضعها على مكتبه. حاول كتابة بطاقة  
ليضعها عليها «إلى والدي، من كيِّلب» - «إلى آدم تراسك من كيِّلب تراسك».  
مزق البطاقات إلى قطع صغيرة وألقى بها في المرحاض.

فكر، لماذا أعطيه إياها اليوم؟ ربما يمكنني أن أذهب إليه غدًا بهدوء وأقول:  
هذا لك، ثم أبتعد. سيكون ذلك أسهل. قال بصوت عالٍ: «لا. أريد أن يراها  
الآخرون». كان يجب أن يكون بهذه الطريقة. لكن رثتيه كانتا مضغوطتين  
وراحتا يديه مبللتان جراء القلق. ثم تذكر ذلك الصباح عندما أخرجه والده من



السجن. ذلك الدفء والقرب كانا من الأشياء التي يجب تذكرها، وثقة والده. حتى أنه قال يومها: «أنا أثق بك». شعر بتحسن كبير بعد ذلك.

في حوالي الساعة الثالثة، سمع آدم يدخل وكانت هناك أصوات منخفضة تحدث في غرفة المعيشة. انضم كال إلى والده وآرون.

كان آدم يقول «الأوقات تغيرت. يجب أن يكون الشاب متخصصاً وإلا فلن يصل إلى أي مكان. أعتقد أن هذا هو سبب سعادتي بذهابك إلى الجامعة».

قال آرون «لقد كنت أفكر في ذلك، وأتساءل».

«حسنًا، لا تفكر بعد الآن. خيارك الأول هو الصحيح. انظر إلي. أعرف القليل عن الكثير من الأشياء ولا أعرف الكثير عن أي منها لكسب لقمة العيش في هذه الأوقات».

دخل كال وجلس بهدوء. لم يلاحظه آدم. كان وجهه مركز على فكرته.

وتابع آدم: «من الطبيعي أن يرغب الرجل في نجاح ابنه، وربما أستطيع أن أرى بشكل أفضل مما تستطيع».

أطلّ لي: «لابد أن موازين المطبخ أصبحت مختلّة، الديك الرومي سيجهز في وقت أبكر مما أوضحت التعليمات. أراهن أن الطائر لا يزن ثمانية عشر رطلاً».

قال آدم: «حسنًا، يمكنك أن تبقيه دافئاً» وتابع: «توقع سام هاملتون حدوث هذا الأمر. قال إنه لا يمكن أن يكون هناك الكثير من الفلاسفة الكونيين. ثقل المعرفة أكبر من أن يمتصه عقل واحد. لقد عاش في زمن كان فيه الرجل يعرف جزءاً ضئيلاً فقط، لكنه كان يعرفه بشكل جيد».

قال لي من المدخل: «نعم، وشجب ذلك وكرهه».

«هل فعل حقاً؟» سأل آدم.

جاء لي إلى الغرفة ممسكاً بمغرفته العميقة في يده اليمنى، بينما اليسرى

ثابتة تحت المعرفة لالتقاط أية قطرات قد تسقط على السجادة. مع ذلك نسي نفسه ولوّح بملعقته ووسقطت قطرات من دهن الديك الرومي على الأرض: «الآن أصبحت أشك في ذلك، لا أعرف. لا أعرف ما إذا كان هو يكرهه أم أصبحت أنا أكره الأمر من أجله».

قال آدم: «لا تتحمس كثيرًا. يبدو لي أننا لا نستطيع مناقشة أي شيء بعد الآن، لأنك قد تعتبره إهانة شخصية».

قال لي: «ربما تكون المعرفة كبيرة جدًا والرجال ينمون بشكل ضئيل للغاية ويصبحون بحجم الذرة عندما يجثون أمامها. ربما المختص ليس سوى جبان يخشى أن ينظر خارج قفصه الصغير. ويفكر فيما يفتقده أي مختص مثله؛ العالم بأكمله خارج سوره».

«نحن نتحدث فقط عن كسب لقمة العيش».

قال لي بحماس: «لقمة العيش أم المال، من السهل كسب المال إذا كان المال هو ما تريده. لكن مع استثناءات قليلة، لا يريد الناس المال فقط، يريدون الرفاهية والحب والإعجاب».

«حسنًا. لكن هل لديك أي اعتراض على الدراسة الجامعية؟ هذا ما نتحدث عنه».

قال لي: «أنا آسف، أنت محق، يبدو أن الحماس غلبي. لا، إذا كانت الجامعة هي المكان الذي يمكن للرجل أن يذهب إليه ليجد علاقته بعالمه، فأنا لا أعارض. هل هذا ما تريده يا آرون؟»  
قال آرون: «لا أعرف».

جاء صوت هسهسة من المطبخ. قال لي «الحوصلة اللعينة تغلي» وانطلق من الباب.

نظر آدم وراءه بمودة. «يا له من رجل طيب! يا له من صديق جيد!»

قال آرون، «أتمنى أن يعيش مائة عام».

ضحك والده: «كيف تعرف أنه ليس بعمر المائة الآن؟»

سأل كال: «كيف حال مصنع الثلج يا أبي؟»

«حسنًا. إنه يحقق القليل من الربح. لماذا؟»

«فكرت في شيئين لجعله مفيداً بحق».

قال آدم بسرعة «ليس اليوم. دعه ليوم الاثنين، إن تذكرت، ولكن ليس اليوم. لا أتذكر متى كانت آخر مرة شعرت فيها بشعور جيد كهذا. أشعر - حسنًا، يمكنكما تسميتها بالاكتمال والراحة. ربما لأنني نمت جيداً أو حظيت بحمام رائق. وربما يكون ذلك لأننا جميعاً هنا وفي سلام». ابتسم لآرون: «لم نكن نعرف قوة ما شعرنا به تجاهك حتى سافرت».

اعترف آرون: «كنت أشعر بالحنين للمنزل، في الأيام القليلة الأولى اعتقدت أنني سأموت بسبب ذلك».

جاءت أبرا مندفة بإثارة، كان خداهما ورديين وكانت سعيدة: «هل رأيتم الثلج على قمة جبل تورو؟» سأله.

قال آدم: «نعم، لقد رأيت ذلك» يقولون إن هذا يعني سنة جيدة مقبلة. ويمكننا الاستفادة منها».

قالت أبرا: «لقد أكلت القليل جداً، أردت أن أبقى جائعة لآكل هنا».

اعتذر لي عن العشاء مثل أحقق عجوز. ألقى باللوم على فرن الغاز الذي لا يسخن كما موقد الحطب الجيد. وألقى باللوم على السلالة الجديدة من الديوك الرومية التي تفتقر إلى شيء كان الديك الرومي في السابق يمتلكه. لكنه ضحك معهم عندما أخبروه أنه يتصرف مثل امرأة عجوز تتوق لنيل المجاملات.

مع حلوى البرقوق فتح آدم زجاجة الشمبانيا، وعاملوها معاملة بالاحتفال ورفعوا الأنخاب. وألقى آدم خطاباً صغيراً عن أبرا عندما شرب نخبها.

كانت عيناها تلمعان وتحت المنضدة أمسك آرون بيدها. خفف النيذ من توتر كال ولم يعد مرتبكاً بشأن هديته.

عندما انتهى آدم من حلوى البرقوق قال: «أعتقد أننا لم نحظ بعيد شكر بهذا الجمال من قبل».

مد كال يده في جيب سترته وأخرج العبوة ذات الشريط الأحمر ودفعها أمام والده.

«ما هذا؟» سأله آدم.

«إنها هدية».

كان آدم مسروراً: «إنه ليس حتى عيد الميلاد ولدينا هدايا. أتساءل ماذا يمكن أن يكون!»

قالت أبراً: «منديل»

فتح آدم المناديل الورقية وبقي محمداً في المال.

قالت أبراً: «ما هذا؟» ووقفت لتتأمل. وانحنى آرون إلى الأمام. حاول لي الواقف في المدخل، إبقاء مظهر القلق بعيداً عن وجهه. ألقى نظرة سريعة على كال ورأى نور الفرح والانتصار في عينيه.

بيطء شديد حرك آدم أصابعه ولوّح بالأوراق النقدية. بدا صوته وكأنه يأتي من بعيد. «ما هذا؟ ماذا - توقف».

ابتلع كال ريقه: «إنه - لقد كسبته - لأعطيك - لتعويضك عن خسارتك في مشروع الخس».

رفع آدم رأسه ببطء: «كسبتها؟ كيف؟»

«بمساعدة السيد ويل هاملتون - لقد كسبناه - من بيع الفاصوليا، اشترينا العقود الآجلة بخمسة سنتات، وعندما ارتفع السعر - إنها لك يا أبي، خمسة عشر ألف دولار. إنها ملكك».

طوى آدم الأوراق النقدية الجديدة بحيث اجتمعت حوافها، ولف المناديل فوقها وهو ينظر إلى لي بيأس. شعر كال بالبلاء يغمر الهواء، وثقل كثقل المرض، سمع والده يقول: «عليك أن تعيدها».

قال صوته عن بعد: «أعيدها؟ أعيدها لمن؟»

«إلى الأشخاص الذين حصلت عليها منهم».

«وكالة المشتريات البريطانية؟ لا يمكنهم استعادتها. إنهم يدفعون اثني عشر سنتًا ونصفًا للفاصوليا في جميع أنحاء البلاد».

«إذاً أدفعها للمزارعين الذين سلبتهم».

«سلبتهم؟» صرخ كال، «لقد دفعنا لهم سنتين للرطل، لم نسرقهم». شعر كال أنه كان معلقاً في الفضاء، وبدا الوقت بطيئاً جداً.

استغرق والده وقتاً طويلاً للإجابة. بدت أن هناك مسافات طويلة بين كلماته. قال: «أنا أرسل الأولاد إلى الجبهات، أوقع باسمي ويخرجون. يموت البعض ويرقد البعض بلا حول ولا قوة بدون أذرع وأرجل. لا يعود أحد دون أن يمزقه أحد. بني، هل تعتقد أنه يمكنني قبول ربح من ذلك؟»

«لقد فعلته لأجلك». قال كال «أردت أن يكون لديك المال لتعويض خسارتك».

«أنا لا أريد المال كال. ومشروع الخس - لا أعتقد أنني فعلت ذلك من أجل الربح. لقد كان نوعاً من المغامرة لمعرفة ما إذا كان بالإمكان الحصول على الخس هناك، وقد خسرت. لا أريد المال».

نظر كال إلى الأمام مباشرة. كان يشعر بعيون لي وآرون وأبرا تزحف على خديه. أبقى عينيه على شفتي أبيه.

وتابع آدم: «أعجبتني مع ذلك فكرة تقديم هدية، أشكرك على التفكير فيها»  
«سأحتفظ به من أجلك» قاطعه كال.

«لا. لن أطلب ذلك ابداً. كنت سأكون سعيداً جداً إذا كان من الممكن أن

تمنحني - ما يمنحه أخوك لي - الشعور بالفخر بما يفعله، سعادتي بنجاحه.  
المال، حتى المال النظيف، لا يتكدر مع ذلك». اتسعت عيناه قليلاً وقال:  
«هل أغضبتك يا بني؟ لا تغضب. إذا كنت تريد أن تمنحني هدية - امنحني حياة  
طيبة. سيكون هذا شيئاً يمكنني أن أقدره».

شعر كال أنه كان يخنق. كانت جبهته تتدفق من العرق وذاق ملوحته على  
لسانه. وقف بقوة بحيث سقط كرسيه. ركض خارجاً من الغرفة وهو يحبس  
أنفاسه.

نادى آدم من وراءه: «لا تغضب يا بني».

جلس في غرفته ومرفقاه على مكتبه. كان يعتقد أنه سيكي لكنه لم يفعل.  
حاول أن يسمح للبكاء بالبداية لكن الدموع لم تطاوعه. بعد فترة استقر تنفسه  
وراقب دماغه وهو يعود إلى العمل بهدوء ومكر. حاول محاربة عقله البغيض  
الهادئ لكن عقله انزلق جانباً وشرع في عمله. كان يحاربه بشكل أضعف من  
قبل، لأن الكراهية كانت تتسرب إلى جميع أنحاء جسده، وتسمم كل عصب.  
كان يشعر بأنه يفقد السيطرة.

ثم جاءت نقطة اختفت فيها السيطرة والخوف وصرخ دماغه في انتصار  
مؤلم. ذهبت يده إلى قلم رصاص وقام برسم أشكال حلزونية صغيرة واحدة تلو  
الأخرى. عندما جاء لي لتفقدته بعد ساعة كانت هناك المئات من الحلزونات،  
وكانت قد أصبحت أصغر وأصغر. لم يرفع رأسه حتى.

أغلق لي الباب برفق وقال: «أحضرت لك بعض القهوة».

«لا أريد - نعم أريد. شكراً يا لي. لطف منك أن تفكر في الأمر».

قال لي، «توقف! توقف عن هذا!»

«أتوقف عن ماذا؟ ما الذي تريد مني التوقف عنه؟»

قال لي: «لقد أخبرتك ذات مرة عندما قلت لي أنك تشعر أن هناك نزعة شر  
فيك. أخبرتك أنه يمكنك التحكم فيه - إن أردت ذلك».

«التحكّم في ماذا؟ لا أعرف ما الذي تتحدث عنه».

قال لي: «ألا تسمعي؟ ألا أستطيع الوصول إليك؟ كال، ألا تعرف ما أقوله؟»

«أسمعك يا لي. عم تتحدث؟»

«لم يستطع التصرف بغير هذا التصرف يا كال. هذه طبيعته. انها الطريقة الوحيدة التي يعرفها. ليس لديه أي خيار آخر. لكن أنت لديك. هل تسمعي؟ لديك الخيار».

أصبحت الأشكال الحلزونية صغيرة جدًا لدرجة أن خطوط القلم الرصاص تشابكت معًا وكانت النتيجة نقطة سوداء كبيرة لامعة.

قال كال بهدوء: «أنت تثير ضجة بشأن لا شيء. من يسمع كلامك سيعتقد أنني قتلت شخصًا ما. كفى يا لي، كفى».

ساد الصمت في الغرفة. بعد لحظة استدار كال من مكتبه وكانت الغرفة فارغة. شرب كال القهوة الحارقة كما كانت وذهب إلى غرفة المعيشة. نظر والده إليه باعتذار.

قال كال: «أنا آسف يا أبي. لم أكن أعرف شعورك حيال ذلك». أخذ حزمة النقود من مكانها على الرف ووضعها في الجيب الداخلي لمعطفه حيث كان من قبل. «سأرى ما يمكنني القيام به بهذا الشأن». قال عرضًا: «أين الآخرون؟» «أوه، كان على أبرا الذهاب، رافقها آرون. ولي خرج»  
قال كال: «أعتقد أنني سأذهب وأتمشى قليلاً».

#### 4

كانت ليلة جميلة من ليالي نوفمبر، فتح كال الباب الأمامي ورأى أكتاف لي ورأسه على الحائط الأبيض للمغسلة الفرنسية الواقعة على الجانب الآخر من الشارع. كان لي جالسًا على الدرج، وبدا مكتئبًا في معطفه الثقيل.

أغلق كال الباب بهدوء وعاد الى غرفة المعيشة. قال «الشمبانيا تجعلك عطشان». لم ينظر إليه والده.

تسلل كال من باب المطبخ وانتقل عبر الحديقة، صعد السياج العالي، ووجد اللوح الخشبي الذي يبلغ طوله اثنان في اثني عشر والذي كان بمثابة جسر لعبور منحدر من المياه المظلمة، وخرج بين مخبز لانغ ومتجر سميث في شارع كاستروفيل.

سار إلى شارع ستون حيث توجد الكنيسة الكاثوليكية واستدار يسارًا، متجاوزًا منزل كاريغا وويلسون وزابالا، ثم انعطف يسارًا الى شارع سنترال قرب منزل شتاينبيك. على بعد شارعين من وسط المدينة استدار يسارًا متجاوزًا مدرسة ويست إند.

كانت الأشجار أمام فناء المدرسة عارية تقريبًا، ولكن في المساء كانت هناك بعض الأوراق الصفراء ما تزال تتلوى.

كان عقل كال مخدرًا. لم يكن يعلم حتى أن الهواء كان باردًا والصقيع بدأ بالتسلل من الجبال. رأى شقيقه يعبر تحت ضوء الشارع قادمًا نحوه. كان يعلم أنه شقيقه من خطواته ووقفته ولأنه كان يعرفه أكثر من أي كائن آخر. أبطأ كال خطواته، وعندما وصل آرون إليه قال «مرحبًا. جئت أبحث عنك. أنا آسف على ما جرى هذا المساء».

«لا ذنب لك - انس الأمر». استدار وسار الاثنان جنبًا إلى جنب. قال كال: «أريدك أن تأتي معي، أريد أن أريك شيئًا».

«ما هو؟»

«أوه، إنها مفاجأة. لكنها مثيرة جدًا. ستكون مهمتها».

«حسنًا، هل سيستغرق وقتًا طويلًا؟»

«لا، لن يأخذ منك وقتًا طويلًا على الإطلاق».

سارا عبر الجادة المركزية باتجاه شارع كاستروفيل.



كان الرقيب أكسل داين يفتح مكتب تجنيد سان خوسيه في الساعة الثامنة صباحاً، ولكن في حال تأخره لأي سبب كان العريف كيمب يفتح المكتب، ولم يكن يشتكي من ذلك. لم يكن أكسل حالة غير عادية. كان التوقف الذي حدث في فترة السلم بين الحريين الإسبانية والألمانية غير ملائم له كعسكري لم يتعود على الحياة المدنية الباردة والبليدة، لكنه بعد فترة، كما أثبت مركز التجنيد في سان خوسيه، أصبح يعرف طريقه جيداً. كانت تربطه علاقة حميمة مع فتاة تعيش في سان خوسيه.

لم يكن لدى كيمب الوقت الكافي، لكنه كان يتعلم القاعدة الأساسية. أن تتماشى مع الشخصيات الكبرى تتجنب الضباط قدر الإمكان، لم يكن يمانع في المهمة البسيطة التي سلمه إياها الرقيب داين.

في الثامنة والنصف دخل داين المكتب ليجد العريف كيمب نائماً على مكتبه وفتى متعب ينتظر أمامه. نظر داين إلى الفتى ثم ذهب إلى الخلف ووضع يده على كتف كيمب.

قال: «حبيبتى، القبرّات تغني وفجر جديد بزغ هنا».

رفع كيمب رأسه عن ذراعيه ومسح أنفه بظهر يده وعطس. قال الرقيب: «ها هي حلوتي، استيقظ، لدينا زبون».

فرك كيمب عينيه وقال: «يمكن للحرب أن تنتظر».

نظر داين عن كئيب إلى الفتى «يا إلهي! كم هو وسيم. أمل أن يعتنوا به جيداً، قد تعتقد أنه يريد حمل السلاح ضد العدو، لكنني أعتقد أنه هارب من الحب».

شعر كيمب بالارتياح لأن الرقيب لم يكن متزناً تماماً «هل تعتقد أن سيدة ما آذته؟» كان بارعاً في لعب أي لعبة يريد لها رقيب «هل تعتقد أنه الفيلق الأجنبي؟»

«ربما يهرب من نفسه. قف أيها الشاب. ثمانية عشر أليس كذلك؟»

«نعم سيدي».

استدار داين إلى رجله: «ما رأيك؟»

قال كيمب: «أقول إذا كانت قوته الجسدية جيدة بما يكفي، فهو كبير بما يكفي».

قال الرقيب: «فلنقل إنك في الثامنة عشرة. وسنلتزم بذلك»

«نعم سيدي».

«ما عليك سوى أخذ هذا النموذج وتعبئته. تكتشف السنة التي ولدت فيها، وتضعها هنا، وتذكرها».



## الفصل 50

### 1

لم يرق لـ جو أن تجلس كيت ثابتة وتحقق للأمام ساعة بعد ساعة. هذا يعني أنها كانت تفكر، وبما أن وجهها لم يكن به أي تعبير لم يكن بإمكان جو الوصول إلى أفكارها. جعلته حالتها تلك غير مستقر. لم يكن يريد خسارة ربحه الحقيقي الأول.

كانت لديه خطة واحدة فقط - وكان ذلك إبقاءها مشغلة حتى لا تختلي مع أفكارها. بعدها يمكنه الذهاب في أي اتجاه يريد. ولكن ماذا لو جلست تنظر إلى الحائط؟ هل يعني هذا أنها متيقظة أم لا؟

عرف جو أنها لم تنم في فراشها، وعندما سألها عما إذا كانت تريد الإفطار أم لا، هزت رأسها ببطء شديد بحيث كان من الصعب معرفة ما إذا كانت قد سمعته أم لا.

نصح نفسه بحذر: «لا تفعل شيئاً! ما عليك سوى البقاء قريباً وإبقاء عينيك وأذنيك مفتوحتين». عرفت الفتيات في المنزل أن شيئاً ما قد حدث ولكن لم يكن لدى اثنتين من تلك العاهرات اللعينات نفس القصة.

لم تكن كيت تفكر. تاه عقلها وانجرف بين الانطباعات كما ينجرف وينقض بها الخفاش في الليل. رأت وجه الفتى الأشقر الجميل وعينيه الغاضبتين بالصدمة. سمعت كلماته القبيحة لا تستهدفها بقدر ما كانت تستهدف نفسه. ورأت أخاه يتكئ على الباب ويضحك.

ضحكت كيت أيضًا - أسرع وأفضل حماية ذاتية. ماذا سيفعل ابنها؟ ماذا فعل بعد أن ابتعد بهدوء؟

فكرت في عيني كال بنظرتهما الكسولة والوحشية وهي تنظر إليها بينما تغلق الباب ببطء.

لماذا أحضر أخاه؟ ماذا يريد؟ ما الذي كان ينوي فعله؟ لو علمت لتمكنت من حماية نفسها، لكنها لم تعرف.

كان الألم يزحف إلى يديها مرة أخرى وفي مكان جديد. شعرت بالألم أغضبها في وركها الأيمن عندما تحركت. فكرت: «إذن سينتقل الألم من الآن نحو المركز، وعاجلاً أم آجلاً ستلتقي كل الآلام في المركز وتنضم لبعضها مثل الفئران ليجعلوها جلطة».

على الرغم من نصيحته لنفسه، لم يستطع جو ترك الأمر وشأنه. حمل إبريق الشاي إلى بابها وطرقه بهدوء وفتح الباب، وبقدر ما رأى، هي لم تتحرك. قال: أحضرت لك بعض الشاي، سيدتي.

قالت: «ضعه على الطاولة. شكرًا لك يا جو».

«ألا تشعرين أنك على ما يرام سيدتي؟»

«عاد الألم. لقد خدعني الدواء».

«أي شيء يمكنني القيام به؟»

رفعت يديها. «اقطع هذين من الرسغين». كانت تتذمر من الألم الإضافي الذي تسبب فيه رفع يديها. قالت بحزن: «إنه يجعلك تشعر باليأس».

لم يسمع جو أبدًا نغمة ضعف فيها من قبل وأخبرته غريزته أن الوقت قد حان للانتقال إليها. قال، «ربما لا تريدين أن أزعجك لكنني تلقيت بعض الأخبار عن ذلك الأمر». كان يعرف من خلال الفاصل الزمني الصغير قبل أن تجيب بأنها متوترة.

«أي أمر؟» سألت بهدوء.

«تلك السيدة، سيدتي».

«أوه! تقصد إثيل!»

«نعم، سيدتي».

«لقد بدأت أتعب من إثيل. ما الأمر الآن؟»

«حسنًا، سأخبرك بالأمر كما حدث. لا أستطيع أن أفهم شيئًا منه. كنت في متجر السيجار في كيلوغ واقترب مني رجل قائلاً «أنت جو؟» سألته عمّن يكون، قال: «أنت تبحث عن شخص ما. تلك المرأة تريد التحدث إليك».

قلت له: «حسنًا، لم لا تفعل ذلك؟» نظر لي طويل ثم قال: «ربما نسيت أمر القاضي». أعتقد أنه كان يقصد عودتها».

نظر إلى وجه كيت، كان ساكنًا وشاحبًا، وعيناها تنظران إلى الأمام مباشرة.

قالت كيت: «ثم طلب منك بعض المال؟»

«لا سيدتي لم يفعل. قال شيئًا لا معنى له: «هل يعني لك اسم في شيئًا؟»

«لا يعني لي شيئًا» أجبته.

قال: «ربما من الأفضل أن تتحدث معها».

قلت: «ربما» وغادرت المكان. لم أفهم أيا مما قاله، لذلك فكرت في سؤالك».

سألته كيت: «هل اسم في يعني لك أي شيء؟»

«لا شيء».

أصبح صوتها رقيقًا جدًا». هل تقصد أنك لم تسمع قط أن في كانت تمتلك هذا المنزل؟»

شعر جو بهزة مقززة في حفرة معدته. يا له من أحمق ملعون! لا يمكن أن

يبقي فمه مغلقاً، تعثر عقله: «عندما أفكر في الأمر، أعتقد أنني سمعت ذلك، بدا وكأن الاسم كان فيث».

كان هذا الإنذار المفاجئ جيداً لكيت. أبعد عن ذهنها الفتى الأشقر والألم ومنحها شيئاً تفعله، واستجابت هي للتحدي بشيء مثل المتعة.

ضحكت بهدوء وهي تنطقها من بعده: «فيث.. صب لي بعض الشاي، جو». لم يبد أنها لاحظت أن يده كانت ترتجف وأن صنوبر إبريق الشاي ارتطم بالكوب. لم تنظر إليه حتى عندما وضع الكأس أمامها ثم تراجع بعيداً عن نطاق عينيها. كان جو يرتجف من الخوف.

قالت كيت بصوت متوسل: «جو، هل تعتقد أنك تستطيع مساعدتي؟ إذا أعطيتك عشرة آلاف دولار، هل تعتقد أنه يمكنك إصلاح كل شيء؟» انتظرت لحظة، ثم نظرت في وجهه.

كانت عيناه رطبتين، رأت كيف كان يلحق شفتيه. وعند تحركها المفاجئ تراجع كما لو أنها ستضربه. لم تحوّل نظرها عنه.

«هل أمسكت بك يا جو؟»

«لا أعرف ما الذي تقصدينه سيدتي».

«اذهب واكتشف ذلك - ثم عد وأخبرني. أنت جيد في اكتشاف الأشياء. وأرسل تيريز إلى هنا»

لقد أراد الخروج من هذه الغرفة التي تم كشفه وهزيمته فيها. لقد تسبب في إحداث فوضى. تساءل عما إذا كان قد خسر المال. ثم أتت الكلبة الجرأة لتقول «شكراً لك على إحضار الشاي. أنت ولد لطيف».

أراد أن يغلق الباب بقوة، لكنه لم يجروء.

نهضت كيت بشكل متصلب، محاولة تجنب تحريك فخذها. ذهبت إلى مكتبها وسحبت ورقة. كان حتى إمساك القلم صعباً.

كتبت وهي تحرك ذراعها بالكامل «عزيزي رالف: أخبر العمدة أن لا ضير من التحقق من بصمات جو فاليري. تذكر جو، الذي يعمل لديّ. السيدة كيت». كانت تطوي الورقة عندما دخلت تيريز التي بدت خائفة.

«هل طلبتني؟ هل بدر مني شيء؟ لقد حاولت جهدي يا سيدتي، أنا لست بخير».

قالت كيت، «تعالى إلى هنا»، وبينما كانت الفتاة تنتظر بجانب المكتب، تناولت كيت المغلف ببطء وختمته. قالت: «أريدك أن تقومي ببعض المهمات من أجلي. اذهبي إلى متجر حلوى بيل واشتري علبة شوكلاتة مختلطة ذات وزن خمسة أرطال وعلبة تزن رطلاً واحداً. الكبرى لكنّ أتنن. توقفي عند صيدلية كروه واحضري لي فرشاة أسنان متوسطة الخشونة وعلبة من مسحوق الأسنان»

«نعم، سيدتي». شعرت تيريز بالارتياح الشديد.

تابعت كيت «أنت فتاة جيدة، لقد وضعت عيني عليك. أنا لست بخير يا تيريز. إذا رأيت أنك تقومين بالمهام بشكل جيد، فسأفكر بجدية في تكليفك بالمسؤولية عندما أذهب إلى المستشفى».

«ستذهبين إلى المستشفى؟»

«لا أعرف بعد يا عزيزتي. لكنني سأحتاج مساعدتك. الآن هذا بعض المال للحلوى. فرشاة أسنان متوسطة الخشونة - لا تنسي».

«نعم، سيدتي. شكراً لك. هل أذهب الآن؟»

«نعم، حاولي التسلل بسرية، لا تدعي الفتيات الأخريات يعرفن ما قلته لك».

«سأذهب من الباب الخلفي». أسرع نحو الباب. قالت كيت، «كدت أنسى. هلا تضعين هذا أيضاً في صندوق البريد؟»



«بالتأكيد سأفعل سيدتي. أي شيء آخر؟»

«هذا كل شيء يا عزيزتي».

عندما غادرت الفتاة، أراحت كيت ذراعيها ويديها على المنضدة بحيث يتم دعم كل إصبع ملتو. وها هو الأمر قد تم. جو سيُسجن، لكن دائماً هناك شخص آخر، هناك دائماً إثيل. عاجلاً أم آجلاً - لكن لا داعي للتفكير في ذلك الآن. كان عقلها يحوم حول الموضوع بأكمله لكنه يعود إلى شيء بعيد المنال ويختلس النظر إليه ثم ينسحب. كانت تفكر في ابنها ذي الشعر الأشقر عندما برزت قطعة من ذكرى قديمة في ذهنها لأول مرة. كان وجهه المتألم، المرتبك، واليائس هو الذي استحضرها..

تذكرت أنها كانت صغيرة جداً بوجه جميل ورقيق مثل وجه ابنها - كانت فتاة صغيرة جداً. عرفت في معظم الأوقات أنها أكثر ذكاءً وأجمل من أي شخص آخر. لكن بين الحين والآخر كان خوف وحيد يهبط عليها بحيث تبدو وكأنها محاطة بغابة طويلة من الأعداء. ثم كان الشعور بأن الهدف من كل فكرة وكلمة ونظرة هو إيذاؤها، ولم يكن لديها مكان للفرار أو الاختباء. كانت تبكي في ذعر لأنه لا مفر ولا ملاذ لها. ثم ذات يوم كانت تقرأ كتاباً. كانت تستطيع القراءة منذ كانت في الخامسة من عمرها. تذكرت الكتاب - بغلاف بني، عنوان فضي، وقماش متجدد. كان «أليس في بلاد العجائب»

كانت تتذكر الرسومات - أليس بشعر طويل مفرد. لكن كانت الزجاجاة التي كُتب عليها «اشربيني» هي التي غيرت حياتها. علّمتها أليس ذلك.

أصبحت مستعدة عندما تحيط بها غابة أعدائها. كانت في جيبتها زجاجة ماء وسكر وكتبت على الملصق ذي الإطار الأحمر «اشربيني». كانت تأخذ رشفة من الزجاجاة وتصبح أصغر فأصغر، وتدع أعداءها يبحثون عنها بعد ذلك! كانت «كاثي» حينها تختبئ تحت ورقة شجرة ما أو تنظر من حفرة النمل ضاحكة. لم يتمكنوا من العثور عليها بعد ذلك. لم يستطع أي باب أن يوقفها، كان بإمكانها المشي منتصبه تحته.

بالإضافة لذلك كانت أليس هناك دائماً للعب معها، كانت تحبها وثقت بها،  
وتتظرها دائماً في عالمها البالغ الصغر.

كل هذا كان جيداً جداً، ولكن على الرغم من ذلك كان هناك شيء آخر  
دائماً في المقابل: الخطر وسلامتها. كان عليها فقط أن تشرب من الزجاجات  
وحينها تتضاءل وتتضاءل إلى أن تختفي من الوجود. وأفضل من ذلك كله،  
عندما توقفت عن الوجود، فهذا يعني أنها لم تكن هنا أبداً.

كانت هذه سلامتها. في بعض الأحيان كانت تشرب في سريرها ما يكفي  
من سائل «اشربيني» بحيث تصبح نقطة صغيرة بحجم البعوض. لكنها لم تغادر  
الوجود بالكامل - لم تضطر أبداً إلى ذلك. كانت تلك خطتها الاحتياطية -  
المخفية عن الجميع.

هزت كيت رأسها بحزن، وتذكرت تلك الفتاة الصغيرة. تساءلت لماذا  
نسيت تلك الحيلة الرائعة. لقد أنقذتها من الكثير من الكوارث. كان الضوء  
الذي يتدفق من خلال ورقة البرسيم رائعاً. سارت كاثي وأليس بين أوراق  
العشب الشاهق وهما تتأبطان ذراعي بعضهما، كانتا صديقتين مقربتين. ولم  
تشرب كاثي قط مشروب «اشربيني» بالكامل لأن أليس كانت معها.

وضعت كيت رأسها بين يديها الموجوعتين. كانت باردة ومُفكرة ووحيدة.  
مهما كان ما فعلته في حياتها، كانت مدفوعة للقيام به. كانت مختلفة - كان  
تمتلك شيئاً لا يملكه الآخرون. رفعت رأسها ولم تمسح عيونها التي بدأت  
تنهمر بالدموع. كان هذا صحيحاً. كانت أذكى وأقوى من الآخرين. كان لديها  
شيء يفتقرون إليه.

وفي منتصف تفكيرها، كان وجه كال الغامض معلقاً في الهواء أمامها  
وكانت شفاته تبسيمان بقسوة وبرود.

كان لديهما شيء تفتقر إليه ولم تكن تعرف ما هو. بمجرد أن عرفت ذلك

كانت جاهزة؛ وبمجرد أن أصبحت جاهزة عرفت أنها كانت مستعدة لفترة طويلة - ربما طوال حياتها. كان عقلها يعمل كعقل خشبي، وكان جسدها يتحرك مثل مثل دموية متحركة تعمل بشكل سيء، لكنها استمرت في العمل بثبات. كان الوقت ظهرًا - عرفت من أصوات أحاديث الفتيات في غرفة الطعام. كانت الحلزونات قد استيقظن للتو.

واجهت كيت مشكلة في إدارة مقبض الباب وأدارته أخيرًا عن طريق دحرجته بين راحتيها.

اختنقت الفتيات وسط ضحكهن وهن يلمحنها مقبلة.

كانت كيت تبدو كما شبح مريض، ملتوية ومروعة إلى حد ما. اتكأت على حائط غرفة الطعام وابتسمت للفتيات، وكانت ابتسامتها تخيفهن أكثر لأنها كانت تبدو كمن يصرخ.

«أين جو؟» سألت كيت.

«خرج يا سيدتي».

قالت: «اسمعن. لم أنم لفترة طويلة. سوف أتناول بعض الأدوية وأنام. لا أريد أن يزعجني أحد، لا أريد أي عشاء. سوف أنام على مدار الساعة. أخبرن جو أنني لا أريد أن يقترب أي شخص مني من أجل أي شيء حتى صباح الغد. هل تفهمن؟»

أجبن: «نعم سيدتي».

«إذن تصبحن على خير. إنه وقت عصر لكنني أتمنى لكن ليلة سعيدة».

«تصبحين على خير سيدتي» قلن بطاعة.

استدارت كيت وسارت عائدة إلى غرفتها.

أغلقت بابها ووقفت تنظر حولها ثم عادت إلى مكتبها. هذه المرة أجبرت يدها، رغم الألم، على الكتابة بوضوح. «أوصي بكل ما أملك لابني آرون

تراسك». وقامت بتأريخ الورقة ووقعت عليها «كاثرين تراسك». استقرت أصابعها على الصفحة، ثم نهضت وتركتها على المكتب.

سكبت الشاي المثلج الموضوع على الطاولة التي تتوسط غرفة نومها وحملت الكوب إلى الغرفة الرمادية ووضعت على طاولة القراءة. ثم ذهبت إلى منضدة التزيين الخاصة بها ومشطت شعرها، وفركت وجهها بقليل من الحمرة، ثم بقليل من البودرة، ووضعت أحمر الشفاه الباهت الذي كانت تستخدمه دائماً. ثم بردت أظافرها ونظفتها.

عندما أغلقت باب الغرفة الرمادية على نفسها، انقطع الضوء الخارجي وألقى مصباح القراءة الضوء على الطاولة فقط. رتبت الوسائد وربت عليها وجلست. قامت بتجريب رأسها على الوسادة السفلية. شعرت بأنها شاذة إلى حد ما، كما لو كانت ذاهبة إلى حفلة. بحذر شديد أخرجت السلسلة من صدريتها، فكت الأنبوب الصغير وهزت الكبسولة في يدها. ابتسمت لها وهمست: «كُليني» ووضعت الكبسولة في فمها.

ثم التقطت فنجان الشاي المثلج المر وقالت «اشربيني».

أجبرت عقلها على البقاء على اتصال باليس الصغيرة جداً والمنتظرة. رأت وجوهاً أخرى من جانبي عينيها - والدها ووالدتها، تشارلز وآدم، وسمويل هاملتون، ثم آرون، واستطاعت أن ترى كال يتسم لها.

لم يكن عليه أن يتكلم. قال بريق عينيها: «فاتك شيء». كان لديهم شيء وقد فاتك».

لقد عادت بعقلها إلى أليس. في الجدار الرمادي المقابل كان هناك ثقب مسمار. ستكون أليس هناك، تحيط خصر كاثيري بذراعها، وكاثيري تحيط خصر أليس، وستغادران بعيداً - أفضل صديقتين - صغيرتين بحجم رأس الدبوس. بدأ الخدر الدافئ يتسلل إلى ذراعها وساقها. كان الألم يغادر يديها. شعرت بجفونها ثقيلة - ثقيلة جداً. تضاءت.

فكرت - أو قالت - : «أليس لا تعرف. أنا ذاهبة إلى الماضي».

أغمضت عينيها وهزها غثيان ودوار قوي. فتحت عينيها وحدقت في رعب. أظلمت الغرفة الرمادية وضوء المصباح كان يتموج مثل الماء. ثم أغمضت عينيها مرة أخرى وتكورت أصابعها كما لو كانت تمسك بثديين صغيرين. كان قلبها ينبض بهدوء وتباطأ تنفسها وهي تصبح أصغر فأصغر إلى أن اختفت.. وكأنها لم تكن.

## 2

ذهب جو إلى صالون الحلاقة بعد خروجه من غرفة كيت، كما كان يفعل دائماً عندما يكون مستاءً. كان قد قص شعره وغسله. طلب تدليكاً للوجه واشترى علبة من الطين، حصل لنفسه على تقليم لأظافره، وتلميع لحدائه. في العادة، كان مثل هذه الأمور وربطة عنق جديدة تشعر جو بالرضا والسعادة، لكنه كان ما زال مكتئباً عندما ترك محل الحلاق بعد أن دفع له إكرامية قدرها خمسون سنتاً.

كانت كيت قد حاصرته كما الجرذ - أمسكت به وهو عار. تفكيرها السريع تركه مرتبكاً وعاجزاً.

بدأت الليلة بطريقة مملة ولكن بعد ذلك جاء ستة عشر عضواً من أخوية سيغما، فرع ستانفورد، كانوا قادمين وهم في غاية الفرح والصخب من سان خوان.

فلورنس، التي تدخن السيجارة في السيرك، كانت تعاني من سعال شديد، وفي كل مرة كانت تحاول القيام بدورها كانت تسعل وتفقد السيطرة. وكان حصان البوني يعاني من الإسهال.

صرخ الطلاب وضربوا بعضهم البعض في خضم مزاحهم ثم سرقوا كل ما لم يكن مثبتاً بالمسامير.

بعد مغادرتهم دخلت فتاتان في شجار مزعج ورتيب. ثم ظهرت على تيريز أعراض السفلس. أوه يا إلهي، يا لها من ليلة!

وفي نهاية الصالة كان ذلك الكائن الصامت الخطير يقبع خلف الباب المغلق. وقف جو بجانب الباب قبل الذهاب للنوم ولم يسمع شيئاً. أغلق باب المبعى في الساعة الثانية والنصف وكان في الفراش في حدود الثالثة - لكنه لم يستطع النوم. جلس على سريره وقرأ سبعة فصول من كتاب، وعندما حل النهار نزل إلى المطبخ الصامت وصنع قدرًا من القهوة.

أراح مرفقيه على الطاولة وأمسك فنجان القهوة بكلتا يديه. كان هناك أمر خاطئ لم يستطع جو تحديده. ربما اكتشفت أن إثيل ماتت، كان عليه أن يراقب خطواته. اتخذ قراره بحزم، سيذهب لرؤيتها في التاسعة ويبقي أذنيه مفتوحتين. ربما لم يكن قد سمع بشكل صحيح. أفضل شيء هو أن يقول الحقيقة وألا يكون خنزيرًا. فليقل لها إنه سيأخذ ألف دولار ويخرج من هذا الجحيم، وإذا رفضت فسيخرج من هذا الجحيم على أي حال. لقد سئم العمل مع السيدات. يمكنه الحصول على وظيفة في رينو - ساعات عمل عادية دون سيدات. ربما يشتري لنفسه شقة ويفرشها بأرائك وكراسي كبيرة. لا جدوى من البقاء في هذه المدينة الرديئة. من الأفضل أن يخرج من الولاية على أي حال. فكر في الذهاب فوراً - أن ينهض من على هذه الطاولة، يصعد السلالم ويحزم حقيبته خلال دقيقتين ويغادر. الأمر لا يستغرق أكثر من ثلاث أو أربع دقائق، لا حاجة لإخبار أحد بشيء. راقب له الفكرة. ربما لم تكن الأموال التي توقع الحصول عليها من موضوع إثيل كما كان يعتقد في البداية، لكن الألف دولار كانت بمثابة حصة. من الأفضل التروي.

عاد جو إلى غرفته وقرأ المزيد ثم حزم حقيبته. كان سيغادر كيفما سارت الأمور.

في الساعة التاسعة، طرق باب كيت برفق ودفعه لفتحه. لم يبد على سريرها

أنها قد نامت فيه. وضع الصينية وتوجه إلى باب الغرفة الرمادية وطرقه طرقاً خفيفاً، لم يسمع رداً، فطرقه مرة أخرى، ثم نادى. أخيراً فتح الباب. كان المصباح مضاء على طاولة القراءة. كان رأس كيت غارقاً بعمق في الوسادة.

قال جو «لابد أنكِ نمتِ هنا طوال الليل»، تجول أمامها ورأى أن شفاها كانت شاحبة وعيناها نصف مغلقتين، فأدرك أنها ميتة.

حرك رأسه من جانب إلى آخر وعاد بسرعة إلى الغرفة الأخرى للتأكد من إغلاق باب الصالة. بسرعة كبيرة فتش الخزانة درجاً بعد درج، وفتح حقائبها والصندوق الصغير بجوار سريرها ووقف ساكناً. لم يكن لديها شيء - ولا حتى فرشاة شعر بظهر فضي.

تسلل إلى الغرفة الرمادية ووقف أمامها - لا تلبس حلقة ولا دبوساً. ثم لمح السلسلة الصغيرة حول رقبتها فرفعها وفك المشبك - إنها ساعة ذهبية صغيرة، وأنبوب صغير، ومفتاحان لحفظ الأمانات، رقمهما 27 و 29.

قال «إذاً هذا هو المكان الذي تحتفظين فيه بالمال، أيتها العاهرة اللعينة». سحب الساعة من السلسلة الرفيعة ووضعها في جيبه. أراد لقمها في أنفها. ثم تذكر مكتبها.

لفتت نظره الورقة التي عليها سطران. قد يدفع له شخص ما مقابل هذه. وضعه في جيبه. أخذ حفنة من الأوراق من الدرج - فواتير وإيصالات؛ الدرج التالي، أوراق تأمين؛ ثم دفتر صغير يحوي معلومات عن كل فتاة، وضع ذلك في جيبه أيضاً. نزع الشريط المطاطي من علبة تحوي مظاريف بنية اللون، فتح واحدة وأخرج منها صورة مكتوب في الجزء الخلفي منها بخط كيت الأنيق والحاد، اسم وعنوان الشخصية.

ضحك جو بصوت عال. كانت هذه هي الثروة الحقيقية. جرب مغلفاً آخر وآخر. كان بين يديه منجم ذهب - يمكن للرجل أن يعيش لسنوات على

هذه فحسب. انظر إلى عضو المجلس البدين هذا. في الدرج العلوي كانت هناك ثماني سندات فئة عشرة دولارات ومجموعة مفاتيح. وضع المال في جيبه أيضاً. عندما فتح الدرج الثاني بما يكفي ليرى أنه يحمل ورق كتابة وختم الشمع والحبر، سمع طرقاتاً على الباب. مشى إليه وفتحه قليلاً.

قال الطاهي: «هناك رجل يريد رؤيتك».

«من هو؟»

«كيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟»

ألقى جو نظرة إلى الغرفة ثم خرج، أخذ المفتاح من الداخل وأقفل الباب ووضع المفتاح في جيبه. ربما يكون قد تغاضى عن شيء ما.

كان أوسكار نوبل يقف في الغرفة الأمامية الكبيرة، وقبعته الرمادية على رأسه. كانت عيناه رماديتين باهتتين - نفس لون شعيراته الخفيفة. كانت الغرفة شبه مظلمة. لم يرفع أحد الستائر بعد.

دخل جو القاعة بهدوء وسأله أوسكار: «أنت جو؟»

«من يسأل؟»

«العمدة يريد التحدث معك».

شعر جو بالثلج يتسلل إلى بطنه: «هل لديك مذكرة؟»

قال أوسكار: «تباً، لا. ليس لدينا شيء ضدك. فقط تحقق. هلا أتيت معي؟»

قال جو «بالتأكيد، ولم لا؟»

خرجا معاً. كان جو يرتجف: «كان يجب أن ألبس معطفاً».

«هل تريد العودة لأخذ واحد؟»

قال جو «لا أعتقد ذلك».

سارا نحو شارع كاستروفيل. سأله أوسكار، «هل تعرضت للسرقة أو تم

أخذ بصماتك من قبل؟»



بقي جو صامتاً لبعض الوقت ثم قال أخيراً: «نعم».

«لم؟»

قال جو: «تهمة سكر، وضرب شرطي».

قال أوسكار: «حسناً، سنكتشف ذلك قريباً»

عندما انعطفا بدأ جو يركض كالأرنب عبر الشارع باتجاه المتاجر والأزقة في الحي الصيني.

كان على أوسكار أن يخلع قفازاً ويفك أزرار سترته ليخرج مسدسه. حاول التسديد نحوه وأخطأ.

بدأ جو في الركض بشكل متعرج. أصبح على بعد خمسين ياردة واقترب من فتحة بين مبنيين.

اقترب أوسكار من عمود هاتف عند الرصيف، ثبت كوعه الأيسر وأمسك بمعصمه الأيمن بيده اليسرى، وركز بدقة على مدخل الزقاق الصغير. أطلق النار في اللحظة التي نظر فيها جو أمامه.

انزلت قدم جو وارتطم بالأرض على وجهه.

دخل أوسكار إلى ناد فلبيني للعب البلياردو لإجراء مكالمة، وعندما خرج كان هناك حشد كبير حول الجسد.

## الفصل 51

### 1

في عام 1903، فاز هوراس كوين على السيد كيف لمنصب العمدة. كان قد تلقى تدريباً جيداً ككاتب رئيس شرطة. اعتقد معظم الناخبين أنه نظراً لأن كوين كان يقوم بمعظم العمل فلا ضير من أن يحمل اللقب أيضاً. شغل العمدة كوين المنصب حتى عام 1919. لقد كان عمدة لفترة طويلة لدرجة أننا نشأنا في مقاطعة مونتييري معتقدين أن الكلمتين «العمدة» و«كوين» متلازمتان بشكل طبيعي. لم نكن نتخيل أن يكون أي شخص آخر عمدة. شاخ كوين في مكتبه وكان يعرج من إصابة قديمة. كنا نعلم أنه كان مقداماً، لأنه صمد في العديد من المعارك. إلى جانب ذلك، بدا وكأنه عمدة - النوع الوحيد الذي نعرفه. كان وجهه عريضاً ووردي اللون، وشاربه الأبيض يشبه قرني عجل. كان عريض الكتفين، وبالنسبة لعمره كان يمتلك جسداً غليظاً زاد من هيئته. كان يرتدي قبعة ستيتسون جميلة، سترة نورفولك، وفي سنواته الأخيرة يحمل بندقيته في جراب كتف. كان يعرف مقاطعته في عام 1903 وعرف كيف يسيطر عليها بشكل أفضل حتى في عام 1917. لقد كان مؤسسة، كان جزءاً من وادي ساليناس كما جبالها.

في كل السنوات التي تلت إطلاق النار على آدم، كان العمدة كوين يتتبع كيت. عندما ماتت في، كان يعلم غريزياً أن كيت ربما تكون مسؤولة، لكنه كان يعلم أيضاً أنه لم تكن لديه أي فرصة لإدانتها، ولم يقيم العمدة الحكيم بوضع رأسه في مواجهة المستحيل. لقد كن مجرد عاهرات بكل حال.

في السنوات التي تلت ذلك، لعبت كيت دوراً عادلاً معه وحقق لها تدريجياً بعض الاحترام. بما أنه ستكون هناك بيوت دعارة بكل حال، فمن الأفضل أن يديرها أشخاص مسؤولون. في كثير من الأحيان كانت كيت تكتشف رجلاً مطلوباً وتقوم بتسليمه. كانت تدير مبعًى بعيداً عن المشاكل. لطالما تعاون العمدة كوين وكيت معاً.

في يوم السبت بعد عيد الشكر وقريباً من الظهر، نظر العمدة كوين في الأوراق التي وجدت في جيوب جو فاليري. كانت الطلقة قد فتت جانباً من قلب جو وسحقت بعض الضلوع وأحدثت تمزقاً كبيراً بحجم قبضة اليد. كانت الأوراق قد التصقت بالدم الأسود.

استعان العمدة بمنديل مبلل لتفريقها. قرأ الوصية التي كانت مطوية وعليه بقي الدم في خارجها. وضعها جانباً وفتش الصور في المظاريف. تنهد بعمق. كل ظرف كان يحتوي على شرف رجل ما وراحة باله. إذا تم استخدام هذه الصور، فقد تسبب في نصف دزينة من حالات الانتحار. عندما انتهى من رؤية كل الصور اتصل برقم. قال في الهاتف: «هل يمكنك المجيء إلى مكتبي؟ حسناً هلا أجلات غداءك؟ نعم، أعتقد أنك ستجده أمراً مهماً. أنتظر!».

بعد بضع دقائق عندما وقف الرجل المجهول بجانب مكتبه في المكتب الأمامي لسجن المقاطعة الأحمر القديم خلف قاعة المحكمة، قام العمدة كوين بوضع الوصية أمامه «بصفتك محامياً، هل تعتقد أن هذا مفيد؟»  
قرأ زائره السطرين وتنفس بعمق من أنفه «هل هذه هي من أعتقدها؟»  
«نعم».

«حسناً، إذا كان اسمها كاثرين تراسك وهذا خط يدها، وإذا كان آرون تراسك هو ابنها، فهذا مفيد كالذهب».

رفع كوين طرفي شاربه العريض بظهر سبابته «أنت تعرفها، أليس كذلك؟»

«حسنًا، كنت أعرفها».

وضع كوين مرفقيه على مكتبه وانحنى إلى الأمام: «اجلس، أريد أن أتحدث معك».

رفع زائره كرسياً. نقرت أصابعه على زر المعطف.

سأل العمدة «هل كانت كيت تبتزك؟»

«بالتأكيد لا. لماذا قد تفعل ذلك؟»

«أنا أسألك كصديق. أنت تعلم أنها ماتت. يمكنك إخباري».

«لا أعرف ما الذي تقصده - لا أحد يبتزني».

قام كوين بسحب صورة من مظروفها ودفعها إليه مثل بطاقة اللعب.

قام زائره بتعديل نظارته وصفر. همس بفرع: «يا يسوع المسيح».

«ألم تعرف أنها كانت تحتفظ بها؟»

«أوه، كنت بالطبع أعرف ذلك جيداً. لقد سمحت لي أن أعرف. أسألك

بالرب يا هوراس - ماذا ستفعل بها؟»

أخذ كوين الصورة من يده.

«هوراس، ماذا ستفعل بها؟»

«سأحرقها». قام العمدة بكشط حواف المغلفات بإبهامه. قال: «بإمكان هذا

أن يمزق المقاطعة إلى أشلاء».

كتب كوين قائمة بالأسماء على ورقة. ثم رفع نفسه على ساقه وذهب

إلى الموقد الحديدي المواجه للجدار الشمالي لمكتبه. قام بإشعال صحيفة

ساليناس الصباحية وأسقطها في الموقد، وعندما اشتعلت النار ألقى المغلفات

فيها، وعندما تأكد من أنها أصبحت رماداً أغلق الموقد.

حاول زائره التحدث لكن صوته كان همساً أجش. «شكراً لك هوراس».

«أريدك أن تفعل شيئاً من أجلي. هذه قائمة. أخبر كل من فيها أنني قمت بحرق الصور. أنت والرب فقط تعرفونهم. لا أحد مقدس. تحدث مع كل رجل على حدة وأخبره بما حدث بالضبط. انظر هنا!» فتح باب الموقد ليرى الرماد الأسود وقال «قل لهم ذلك».

نظر الرجل إلى العمدة، وعرف كوين أنه لا توجد قوة على الأرض يمكن أن تمنع هذا الرجل من كرهه. بالنسبة لبقية حياتهما سيبقى هناك حاجز بينهما، ولا يمكن لأحد أن يعترف بذلك.

«هوراس، لا أعرف كيف أشكرك».

قال العمدة بحزن: «لا بأس، هذا ما كنت لأريد من أصدقائي أن يفعلوه من أجلي».

قال زائر بهدوء: «العاهرة اللعينة» وكان هوراس كوين يعلم أن جزءاً من اللعن كان موجهاً له.

وكان يعلم أنه لن يكون عمدة لفترة أطول. هؤلاء الرجال الذين يشعرون بالذنب بإمكانهم أن يخرجوه، وسيتعين عليهم ذلك. تنهد وقال: «اذهب إلى غدائك الآن، لدي عمل».

في الواحدة إلا ربع كان العمدة كوين يسير في سترال أفينيو ذاهباً إلى مخبز رينو، اشترى رغيفاً من الخبز الفرنسي الدافئ الذي تنبعث منه رائحة رائعة. صعد بصعوبة درجات شرفة منزل تراسك.

أجاب لي الباب، كان يربط منشفة حول وسطه. قال: «إنه ليس بالمنزل».

«حسناً، إنه في طريقه. اتصلت بمكتب التسجيل. سأنتظره».

تحرك لي جانباً وسمح له بالدخول وأجلسه في غرفة المعيشة. هل تود تناول فنجان من القهوة الساخنة؟» سأله.

«لا أمانع»

قال لي «إنها طازجة» وذهب إلى المطبخ.

تأمل كوين غرفة الجلوس المريحة. شعر أنه لا يريد البقاء في منصبه لفترة أطول. تذكر أنه سمع يوماً طبيباً يقول: «أحب عملي في ولادة الأطفال، عندما أقوم بعملتي بشكل جيد، هناك فرح في نهاية الأمر». بقي العمدة يفكر كثيراً في هذه الملاحظة. بداله أنه إذا قام بعمله بشكل جيد، سيكون هناك حزن في نهايته بالنسبة لشخص ما. لكن هذه الحقيقة فقدت قيمتها معه في النهاية، سيتقاعد قريباً سواء أراد ذلك أم لا.

كل رجل لديه صورة عن فترة تقاعده حيث يقوم فيها بالأشياء التي لم يكن لديه وقت للقيام بها - يقوم بالرحلات، ويقرأ الكتب المهملة التي كان يتظاهر دائماً بقراءتها. لسنوات عديدة حلم العمدة بقضاء الوقت في الصيد البري وصيد الأسماك - والتجول في سلسلة جبال سانتا لوسيا، والتخيم بجوار الجداول التي لم يعد يتذكرها أحد. والآن بعد أن حان الوقت تقريباً أدرك أنه لا يريد أن يفعل ذلك. أصبح النوم على الأرض يؤلم ساقيه. تذكر مدى ثقل الغزلان ومدى صعوبة حمل الجسد المتدلي من مكان قتله. وبصراحة لم يحب لحم الغزال على أي حال. يمكن لمدام رينو أن تنقعه في النيذ وتغمره بالتوابل، لكن، اللعنة، حتى الحذاء القديم سيصبح طيب المذاق مع هذه المعاملة.

كان لي قد اشترى دورق قهوة. كان بإمكان كوين أن يسمع صوت الماء يتطاير على القبة الزجاجية، وهمس له عقله المدرب منذ فترة طويلة بأن لي لم يقل الحقيقة بشأن تناول القهوة الطازجة.

لقد كان الرجل العجوز يمتلك عقلاً جيداً شحذه في عمله. بإمكانه استعادة وجوه كاملة في ذهنه وبتفحصها ويتذكر أيضاً المشاهد والمحادثات المرتبطة بها. يمكنه تشغيلها في رأسه مثل أسطوانة أو فيلم. بالتفكير في لحم الغزال، كان عقله يدور حول فهرسة غرفة الجلوس ودفعه عقله قائلاً: «مرحباً، هناك شيء خاطئ هنا - شيء غريب».

استمع العمدة إلى الصوت ونظر إلى الغرفة - قماش مزهر بالورود، ستائر من الدانتيل، وغطاء طاولة أبيض، ووسائد على الأريكة مغطاة بطبعة مزخرفة ومشرقة. كانت الغرفة ممتلئة بتفاصيل أنثوية في منزل يعيش فيه الرجال فقط.

لقد فكر في غرفة جلوسه الخاصة. اختارت السيدة كوين كل شيء فيها باستثناء الأنابيب. عندما يفكر في الأمر، لقد اشترت هي الأنابيب أيضاً. بالطبع هناك غرف للنساء أيضاً. لكن هذا كان مزيفاً. كانت أنثوية بشكل مبالغ فيه. في هذه الحالة سيكون لي هو من فعل ذلك، آدم لم يكن حتى ليلاحظ وجودها، ناهيك عن تنسيقها معاً - لا - يحاول لي بناء منزل، و آدم لم ينتبه حتى.

تذكر هوراس كوين سؤاله لآدم منذ زمن بعيد، وتذكره يوم كان غارقاً في عذابه. ما زال بإمكانه تذكر عيون آدم المروعة. كان يعتقد آنذاك في آدم على أنه رجل صادق لدرجة أنه لا يستطيع تصور أي شيء آخر. في السنين السابقة رأى آدم كثيراً. كان كلاهما ينتميان إلى المنظمة الماسونية. تبع هوراس آدم بصفته سيد المحفل وكلاهما كان يرتدي شارة الرئيس السابق. كان آدم يضع جداراً بينه وبين العالم. لا يمكنك الوصول إليه ولا هو يخرج إليك. لكن فيما يتعلق بذلك الوجد القديم لم يكن هناك جدار.

كان آدم قد لامس العالم الحي من خلال زوجته. فكر بها هوراس، الآن هي رمادية اللون.

لم يمارس آدم أي خداع. لم يكن يطمع بأي شيء. عليك أن تطمع بشيء ما لتكون غير أمين. تساءل العمدة عما يجري خلف ذلك الجدار، ما هي الضغوطات، وما هي الملذات والآلام.

كان المنزل هادئاً باستثناء صوت غليان القهوة. كان آدم قد خرج منذ فترة طويلة من المكتب. تسللت فكرة مسلية إلى ذهن العمدة: يبدو أنني أتقدم في السن، ونوعاً ما أحب هذا الأمر»

ثم سمع آدم عند الباب الأمامي. سمعه لي أيضًا وانطلق نحوه قائلاً: «العمدة ينتظرك»، ربما لتحذيره.

جاء آدم مبتسمًا ومد يده «مرحبًا هوراس - هل لديك أمر قضائي؟» كانت مزحة جيدة.

قال كوين: «مرحبًا، رجلك عرض أن يقدم لي فنجان قهوة». ذهب لي إلى المطبخ وهز الأطباق.

قال آدم «هل كل شيء على ما يرام هوراس؟»

«لا شيء على ما يرام في عملي. سأنتظر حتى تأتي القهوة».

«لا تهتم بشأن لي. إنه يستمع على أي حال. يمكنه أن يسمع من خلف باب مغلق. أنا لا أخفي شيئًا عنه لأنني لا أستطيع».

جاء لي مع صينية وعلى وجهه ابتسامة، عندما سكب القهوة وخرج سألت آدم مرة أخرى، «هل هناك خطب يا هوراس؟»

«لا، لا أعتقد ذلك آدم، هل ما زالت تلك المرأة متزوجة بك؟»

تيس آدم: «نعم. ماذا حدث؟»

«قتلت نفسها الليلة الماضية».

امتقع وجه آدم واتسعت عيناه وترقرقت بالدموع. حاول كتم فمه ثم استسلم ووضع وجهه بين يديه وانتحب: «يا إلهي! آه، آه يا حبيبتى المسكينة!»

جلس كوين بهدوء وتركه يتخفف من صدمته قليلاً، بعد فترة عادت سيطرة آدم على نفسه ورفع رأسه: «أعتذر يا هوراس».

جاء لي من المطبخ ووضع منشفة مبللة في يديه، وقام آدم بمسح عينيه بها وأعادها.

قال آدم: «لم أتوقع سماع ذلك، ماذا علي أن أفعل؟ سأطالب بها. سأقوم بدفنها».



قال هوراس: «لم أكن لأفعل ذلك، ما لم تشعر أنك مضطر لذلك. بكل حال هذا ليس ما جئت من أجله». أخرج الوصية المطوية من جيبه وأعطاه إياها. انكمش آدم: «أهذا دمها؟»

«لا ليس كذلك. إنه ليس دمها على الإطلاق. اقرأها».

قرأ آدم السطرين وذهب مباشرة من التحديق في الورقة إلى وجه العمدة: «إنه لا يعرف.. إنها والدته».

«ألم تخبره قط؟»

«لا».

«يا إلهي!» قال العمدة.

قال آدم بجدية «أنا متأكد من أنه لن يريد أي شيء منها. دعنا فقط نمزقها وننساها. لو كان يعلم لما رغب آرون في أي شيء منها».

قال كوين: «أخشى أنك لا تستطيع فعل ذلك. لقد قمت بالفعل ببعض الأمور غير القانونية. كان لديها صندوق ودائع. لا أريد أن أخبرك من أين حصلت على الوصية أو المفتاح. ذهبت إلى البنك ولم أنتظر أمر المحكمة». لم يخبر آدم أنه اعتقد أنه ربما تكون هناك المزيد من الصور. «حسناً، سمح لي بوب العجوز بفتح الصندوق - يمكننا دائماً أن ننكر ذلك. يوجد أكثر من مائة ألف دولار على هيئة شهادات. هناك أموال - ليس هناك شيء سوى المال».

«لا شيء؟»

«شيء وحيد - شهادة الزواج».

انحنى آدم إلى الخلف في كرسيه، سافر بعقله بعيداً عن العالم، نظر لقهوته وأخذ رشفة منها. «ماذا يجب أن أفعل برأيك؟» سأل بثبات وهدوء.

قال العمدة كوين: «يمكنني فقط أن أخبرك بما سأفعله لو كنت بمكانك. ليس عليك أن تأخذ بنصيحتي. كنت سأنادي الفتى فوراً وأخبره بكل شيء - كل شيء. سأخبره لماذا لم أخبره عن كل هذا من قبل. كم عمره؟»

«سبعة عشر».

«إنه رجل. لابد أن يعلم بهذا في وقت ما. من الأفضل أن يعرف كل شيء دفعة واحدة».

قال آدم: «كالم يعرف. أتساءل لماذا تركت الوصية لأرون؟»

«الله أعلم. حسناً ماذا تعتقد؟»

«لا أعرف، وعليه سأفعل ما اقترحت. هلا بقيت معي؟»

«بالتأكيد».

قال آدم: «لي. أخبر أرون أنني أريده. لقد عاد إلى المنزل، أليس كذلك؟»

جاء لي إلى المدخل. أغلق جفنيه الثقيلين للحظة ثم انفتح. ليس بعد. ربما عاد إلى الجامعة».

«كان لي خبرني. شربنا الكثير من الشمبانيا في عيد الشكر يا هوراس. أين

كال؟»

قال لي: «في غرفته».

«حسناً، ناده. سيعرف كال أين أرون».

كان وجه كال متعباً وكتفيه منكمشين من الإرهاق، لكن وجهه كان غامضاً وماكراً ولطيفاً.

سأله آدم: «هل تعلم أين أخوك؟»

قال كال: «لا، لا أعلم».

«ألم تكن معه؟»

«لا».

«لم يعد إلى المنزل منذ ليلتين. أين هو؟»

«كيف لي أن أعرف؟ هل من المفترض أن أعني به؟»

غرق رأس آدم، جسده كان يرجف وومض في عينيه ضوء أزرق لامع وحاد للغاية. قال بحزن «ربما عاد إلى الجامعة». بدت شفثاه ثقيلتين وتمتم كما رجل يتحدث في نومه «ألا تعتقد أنه عاد إلى الجامعة؟»

وقف العمدة كوين «أي شيء يجب أن أفعله يمكنني القيام به لاحقاً. احصل على قسط من الراحة يا آدم. مازلت تحت تأثير الصدمة».

نظر إليه آدم: «صدمة - أوه، نعم. شكراً لك يا جورج. شكراً جزيلاً لك».

«جورج؟»

قال آدم: «شكراً جزيلاً لك».

عندما غادر العمدة ذهب كال إلى غرفته. انحنى آدم إلى الخلف في كرسيه، وسرعان ما غرق في النوم وهو فاتح فمه ويشخر عبر حلقة.

راقبه لي لفترة من الوقت قبل أن يعود إلى مطبخه. رفع علبة الخبز وأخرج مجلداً صغيراً جليداً، كانت الأحرف الذهبية مهترئة تقريباً - تأملات ماركوس أوريليوس المترجمة باللغة الإنجليزية.

مسح لي نظارته ذات الإطار الفولاذي بمنشفة أطباق. فتح الكتاب وتصفحه. ابتسم لنفسه وهو يبحث بوعي عن الطمأنينة.

قرأ ببطء، حرك شفثيه فوق الكلمات «تبقى كل الأشياء ليوم واحد فقط، سواء الذي يتذكر، أو الذي يتم تذكره».

«لاحظ باستمرار أن كل الأشياء تحدث عن طريق التغيير، وعود نفسك على اعتبار أن طبيعة الكون لا تحب شيئاً بقدر ما تحب تغيير الأشياء وصنع أشياء جديدة مثلها. لأن كل ما هو موجود بطريقة ما هو بذرة لما سيكون».

نظر لي إلى أسفل الصفحة «ستموت قريباً وأنت لست متواضعاً بعد ولا خالياً من الاضطرابات، لم تتخلص من شكك في تأثير الأمور الخارجية، ولا تتصرف بلطف تجاه الجميع؛ ولا تستخدم حكمتك في التصرف بالعدل».

نظر لي بعيداً وأجاب الكتاب وكأنه يجيب أحد أقاربه القدامى.

قال «هذا صحيح. الأمر صعب للغاية وأنا آسف. لكن لا تنس أنك تقول أيضًا: «اركض دائمًا في الطريق القصير، الطريق القصير هو الطبيعي» - لا تنس ذلك». ترك الصفحات تفلت من أصابعه إلى ورقة الغلاف الذي كُتب بقلم نجار عريض عليه: «سام هاملتون».

فجأة شعر لي أنه بحالة جيدة. تساءل عما إذا كان صاموئيل هاملتون قد افتقد كتابه أو عرف من سرقه. بدا بالنسبة إلى لي أن الطريقة المثلى والوحيدة هي سرقة. وما زال يشعر بالرضا حيال ذلك. كانت أصابعه تداعب الجلد الأملس للغلاف وهو يعيده ويضعه تحت صندوق الخبز. قال في نفسه: «بالطبع عرف من أخذها. من كان ليسرق تأملات ماركوس أوريليوس؟» دخل غرفة الجلوس وسحب كرسيًا بالقرب من آدم النائم.

## 2

في غرفته جلس كال على مكتبه وراحته تمسكان برأسه الموجوع وتضغطان على صدغيه. كانت معدته تؤلمه ورائحة الويسكي تنبعث من فمه ومسامه وثيابه، وتضرب بهدوء رأسه.

لم يشرب كال من قبل ولم يكن بحاجة إلى ذلك. لكن الذهاب إلى بيت كيت لم يخلصه من الألم وانتقامه لم يشعره بالانتصار. كانت كل ذاكرته تدور في دوامة من الأصوات والوجوه والمشاعر المكسورة. لم يعد بإمكانه الفصل بين ما كان صحيحًا وما كان متخيلاً. عند خروجه من منزل كيت لمس شقيقه المتتحب وقام آرون بإبعاده بقبضة كما السوط. وقف آرون فوقه في الظلام ثم استدار فجأة وركض متجنباً مثل طفل منكسر القلب. ما زالت صرخاته تصل لسمع كال. كان كال ما يزال في المكان الذي وقع فيه بالقرب من الفناء الأمامي لبيت كيت عندما سمع خطوات خافتة تقترب منه، انحنى أحد ما فوقه، ظن أنها كيت. بعد لحظات ابتعد الشخص بهدوء.

بعد فترة وقف كال ونظف نفسه وسار باتجاه الشارع الرئيسي. فوجئ بمدى شعوره بالارتياح. غنى بهدوء، «هناك وردة تنمو في المنطقة المحرمة ومن الرائع رؤيتها -»

في يوم الجمعة بقي كال مكتئباً طوال اليوم. وفي المساء اشترى له جولاغونا ربع جالون من الويسكي. كان عمر كال لا يسمح بشراء ذلك. أراد جو مرافقته، لكنه كان راضياً عن الدولار الذي أعطاه له كال وعاد إلى المحل واشترى لنفسه نصف لتر من شراب آخر.

ذهب كال إلى الزقاق الواقع خلف حانة أبوت حيث جلس في الليلة التي رأى فيها والدته لأول مرة. جلس متربّعاً على الأرض، وبعد ذلك، على الرغم من شعوره بالاشمئزاز والغثيان، شرب جرعات كبيرة من الويسكي. تقياً مرتين واستمر في الشرب حتى أصبحت الأرض وأضواء الشارع تتمايل وتدور.

انزلت الزجاجاة من يده أخيراً وفقد كال الوعي، ولكن حتى بينما كان فاقداً للوعي بقي يتقياً بضعف. اقترب منه كلب ضال قصير الشعر ومتجعد الذيل في الزقاق وحام حوله وتشممه. وجده جولاغونا وتشممه أيضاً. هزّ جو الزجاجاة المستندة على ساق كال، ورفعها إلى ضوء الشارع ورأى أن ثلثها ما زال ممتلئاً. بحث عن السدادة ولم يتمكن من العثور عليها. غادر المكان وهو يسد الزجاجاة بإبهامه لمنع الويسكي من الانسكاب.

فجراً عندما أيقظ الصقيع كال على عالم مريض، كافح للوصول الى المنزل كما حشرة مكسورة. لم تكن أمامه مسافة طويلة ليقطعها، كان عليه فقط العودة إلى بداية الزقاق ثم عبور الشارع.

سمعه لي من عند الباب وشم رائحته التنتنة وهو يترنح في طريقه من القاعة إلى غرفته ويهوي أخيراً على سريره.

كان كال يشعر أن رأسه سينشطر من الألم وكان مستيقظاً تماماً. لم تكن لديه

طاقة لمقاومة الحزن ولا وسيلة لحماية نفسه من العار. بعد فترة أجبر نفسه على النهوض. استحم بالماء البارد وفرك جسده بقطعة من حجر الخفاف، وبدا الألم الناتج عن خدشه جيداً له.

كان يعلم أنه كان عليه أن يخبر والده بما اقترفه وأن يطلب غفرانه. وكان عليه أن يذل نفسه أمام آرون أيضاً، ليس الآن فقط بل دائماً. لا يستطيع العيش بدون فعل ذلك. مع ذلك، عندما تم استدعاؤه في الغرفة حيث العمدة كوين ووالده، عاد فظاً وغازباً كما كلب شرير، واندفعت كراهيته لنفسه إلى الخارج تجاه الجميع - لعنة مؤذية ألا يكون المرء محبباً ولا محبوباً.

بعد ذلك الموقف عاد إلى غرفته وانقض عليه ذنبه ولم يكن لديه سلاح لمحاربه.

نشأ بداخله ذعر على آرون. قد يكون مصاباً، قد يكون في مشكلة. كان آرون هو الذي لم يستطع الاعتناء بنفسه. عرف كال أنه كان عليه إعادة آرون، كان عليه أن يجده ويعيده كما كان. كان لا بد من القيام بذلك حتى لو اضطر للتضحية بنفسه. ومن ثم سيطرت عليه فكرة التضحية بالطريقة التي يتبعها جميع الرجال حين يشعرون بالذنب. قد تؤثر التضحية في آرون وتعيده.

ذهب كال إلى مكتبه وأخرج الحزمة من تحت مناديله في الدرج. نظر حول الغرفة وأحضر صينية خزفية إلى مكتبه. تنفس بعمق وتلذذ بالانتعاش الذي منحه إياه الهواء البارد. رفع إحدى الأوراق النقدية الهشة وجعلها من المنتصف بحيث صنعت زاوية، ثم أشعل عود ثقاب فيها. تجعدت الورقة واسودت واندفع لهبها إلى الأعلى ولم يرمها إلا عندما اقترب اللهب من أصابعه، رمى كال البقايا المتفحمة في الصينية، ثم جرد ورقة أخرى وأشعل فيها النار.

عندما أتم حرق ستة أوراق نقدية دخل لي دون أن يطرق: «أشم رائحة دخان»، ثم رأى ما كان يفعله كال فتنهد «أوه!».

هم كال بالتحديث لكنه لم ينطق بشيء بينما طوى لي يديه عبر وسطه ووقف بصمت منتظراً. أشعل كال ورقة تلو الأخرى بإصرار حتى أحرقها كلها، ثم سحق الرقائق السوداء إلى أن أصبحت رماداً وانتظر أن يعلق لي، لكن لي لم يتكلم أو يتحرك.

أخيراً قال كال: «تفضل - تريد التحديث معي. انطلق!»

قال لي: «لا، أنا لا أفعل. وإذا لم تكن بحاجة للتحديث معي - فسأبقى لبعض الوقت ثم سأذهب. سأجلس هنا». جلس على كرسي وطوى يديه وانتظر. ابتسم لنفسه، التعبير الذي يسمى مبهم.

تحول كال منه. قال: «يمكنني التفوق عليك في الجلوس هنا لفترة أطول».

قال لي: «ربما إذا كانت مسابقة، لكن من يوم إلى يوم، ومن سنة إلى أخرى - من يدري؟ - من قرن إلى قرن - لا يا كال. ستخسر».

بعد لحظات قليلة قال كال بحزن: «أتمنى أن تنهي محاضرتك».

«ليست لدي محاضرة».

«ماذا تفعل هنا إذن؟ أنت تعرف ما فعلته، وأنني ثملت الليلة الماضية».

«أشك في الأولى ويمكنني شم رائحة الثانية».

«تشم؟»

قال لي: «ما زالت الرائحة عالقة بك».

قال كال «إنها المرة الأولى لي، لا أحب ذلك».

قال لي: «أنا لا أفعل أيضاً، أعاني من معدة سيئة لتناول الخمر. إلى جانب

ذلك، تجعلني مرحاً، مفكراً ولكن بمرح».

«ماذا تقصد لي؟»

«لا يسعني إلا أن أعطيك مثلاً. في أيام شبابي كنت ألعب التنس. وأحببت

ذلك، وكان أيضًا أمرًا جيدًا ليفعله الخادم. يمكنه التقاط تقلبات سيده في الزوجي ولا يحظى بشكر بل ببضعة دولارات على ذلك. ذات مرة، أعتقد أنني كنت أعمل لدى شيري في ذلك الوقت، كنت مؤمنة بالنظرية القائلة بأن أسرع الحيوانات وأكثرها مراوغة في العالم هي الخفافيش وقررت إثباتها. تم القبض علي في منتصف الليل في برج جرس الكنيسة الميثودية في سان لياندرو. كان المضرب في يدي، ويبدو أنني أوضحت وقتها للضابط الذي قام باعتقالي أنني كنت أقوم بتحسين تسديداتي على الخفافيش».

ضحك كال بمرح غامر لدرجة أن لي تمنى لو أنه فعل ذلك.

قال كال: «لقد جلست خلف عمود وشربت مثل الخنزير».

«إنها الحيوانات دائمًا -»

قاطعته كال: «كنت خائفًا أن أطلق النار على نفسي إذا لم أسكر»

«لم تكن لتفعل ذلك أبدًا، أنت أكثر لؤمًا من أن تفعلها. بالمناسبة أين

آرون؟»

«لقد هرب. لا أعرف إلى أين ذهب».

قال لي بتوتر: «إنه ليس لئيماً للغاية».

«أعلم أنه ليس كذلك. هذا ما فكرت به. أنت لا تعتقد أنه سيفعل شيئًا كهذا،

أليس كذلك لي؟»

قال لي بحدّة: «تبا، كلما أراد أي شخص التوكيد طلب من صاحبه أن يفكر

فيما يريده ليصبح صحيحًا. إنها مثل سؤال النادل ما هو الطبق الجيد الليلة.

كيف بحق الجحيم لي أن أعرف؟»

بكي كال: «لماذا فعلت ذلك - لماذا فعلت ذلك؟»

قال لي: «لا تجعل الأمر يبدو معقدًا. أنت تعرف لماذا فعلت ذلك. كنت

غاضبًا منه لأن والدك جرح مشاعرك. ليس بالأمر الصعب. كنت لئيماً».



«أعتقد أن هذا ما أتساءل عنه - لماذا أنا هكذا يا لي، لا أريد أن أكون لثيمًا. ساعدني يا لي!»

قال لي: «لحظة. اعتقدت أنني سمعت والدك». اندفع خارج الباب. سمع كال أصواتًا للحظة ثم عاد لي إلى الغرفة «إنه ذاهب إلى مكتب البريد. نحن لا نتلقى أي بريد بعد الظهر. لا أحد يفعل. لكن كل رجل في ساليناس يذهب إلى مكتب البريد في فترة ما بعد الظهر».

قال كال: «البعض يذهب لتناول مشروب في طريقه. أعتقد أنها نوع من العادة والاستراحة. يلتقون أصدقاءهم».

«كال - مظهر والدك يقلقني. منذ الأمس ونظراته تبدو مذهولة. آه نسيت، أنت لا تعرف ما حدث؛ لقد انتحرت والدتك الليلة الماضية».

قال كال: «حقاً؟» ثم زمجر «آمل أنها تألمت كثيراً. لا، لا أريد أن أقول ذلك. لا أريد أن أفكر في ذلك. ها هو يياغتني مجدداً. اللعنة! لا أريد ذلك» كان لي يحك بقعة من رأسه، ثم تحول لبقعة أخرى، إلى أن حك رأسه بالكامل وأخذ وقته وهو يفعل ذلك مما أضفى عليه مظهر التفكير العميق. ثم قال: وهل أسعدك حرق المال؟

«ممم.. أعتقد ذلك».

«وهل تستمتع بجلد نفسك هكذا؟ هل تستمتع بياسك؟»

«لي!»

«أنت متخم بنفسك. مفتون بالمشهد المأساوي لكيلب تراسك - كيُلب الرائع والفريد من نوعه. كيُلب الذي يجب أن يكون كما هو ميروس في معاناته. هل فكرت يوماً في نفسك كطفل بأنف ممتلئ بالمخاط، لثيم أحياناً، كريم بشكل لا يصدق أحياناً؟ قدر في عاداته، ونقي العقل بشكل مثير للفضول. ربما لديك طاقة أكثر بقليل من معظم الناس، طاقة فقط، لكن بمعزل عن ذلك

فأنت مثل جميع الأطفال الآخرين الذين يملأ المخاط أنوفهم. هل تحاول أن تجتذب لنفسك الكرامة والشعور بالشفقة لأن والدتك كانت عاهرة؟ وإذا حدث أي شيء لأخيك، فهل ستكون قادرًا على الشعور بشرف نسب القتل لنفسك؟ يا ذا الأنف الممتلئ بالمخاط؟»

عاد كال ببطء إلى مكتبه. راقبه لي وهو يجلس أنفاسه كما يراقب الطيب رد الفعل تجاه الحقن تحت الجلد. تمكن من رؤية ردود فعله تتصاعد - الغضب من الإهانة، الشعور بالعداء والمشاعر المؤذية التي تتبع ذلك والخروج منها - وهي بداية الراحة.

تنهد لي. لقد عمل بجد وبحنان وبدا أن عمله قد نجح. قال بهدوء: «نحن شعب نتسم بالعنف يا كال. هل يبدو غريباً بالنسبة لك أن أشمل نفسي؟ ربما يكون صحيحاً أننا جميعاً منحدرون من القلق، والعصية، والإجرام، والنقاشات والمعارك، ولكن أيضاً الشجعان والمستقلون والكرماء. إذا لم يكن أسلافنا كذلك لكانوا قد بقوا في أراضيهم في الجزء الآخر من العالم وتضوروا جوعاً فوقها».

أدار كال رأسه نحو لي وابتسم، وعرف لي أنه لم يخدع الصبي تماماً. وعرف كال أيضاً أنه كان يقوم بواجبه تجاهه فحسب - كان عملاً جيد الأداء - وشعر بالامتنان.

وتابع لي: «لهذا السبب أشمل نفسي. لدينا جميعاً هذا التراث، بغض النظر عن الأرض القديمة التي تركها آباؤنا. وكل الألوان والأعراق هنا في أمريكا لها نفس الميول إلى حد ما وكأنها سلالة تم اختيارها بالصدفة. ولذا فنحن شجعان ومبالغون في الخوف، لطفاء وقاسون كأطفال، نفرط في إبداء الود وفي نفس الوقت نخاف من الغرباء، مفرطون في العواطف وواقعيون، بسطاء وماديون، ثم هل تعرف أي أمة أخرى تعمل من أجل المثل كهذه الأمة؟ نحن نأكل كثيراً. نفتقد الذوق والإحساس بالانسجام. نهدر طاقتنا مثل النفايات. في

أوطاننا يقولون عنا إننا ننتقل من البربرية إلى الانحطاط دون تدخل أية ثقافة. هل يمكن أن يكون السبب أن متقدينا لا يمتلكون مفتاح أو لغة ثقافتنا؟ هذا ما نحن عليه يا كال - كلنا. وأنت لست مختلفاً جداً».

قال كال مبتسماً: «استرسل، هيا استرسل»

قال لي: «لست بحاجة إلى قول أي شيء آخر. لقد انتهيت الآن. أتمنى أن يعود والدك. إنه يقلقني». وخرج لي بتوتر.

أمام الباب الأمامي من الداخل وجد آدم متكئاً على الحائط وقبعته منخفضة فوق عينيه وكتفاه منكشمان.

«آدم، ما خطبك؟»

«لا أعرف. أشعر بتعب. يبدو أنني متعب».

رفعه لي من ذراعه وشعر أنه كان عليه أن يرشده نحو غرفة المعيشة. سقط آدم بقوة على كرسيه ورفع لي القبعة من رأسه. بدأ آدم بفرك ظهر يده اليسرى بيمينه. كانت عيناه تبدوان غريبتين ومتسعيتين ولا تتحركان إلا قليلاً، وشفته جافتان وسميكتان، وكان صوته بطيئاً وكأنه قادم من بعيد. فرك يده بقسوة. قال: «حدث أمر غريب، يبدو أنني قد أغمي علي في مكتب البريد، أنا لا أصاب بالإغماء. ساعدني السيد بيودا، أعتقد أنه كان لثانية واحدة فقط، أنا لا أصاب بالإغماء».

سأله لي: «هل كان هناك أي بريد؟»

«نعم نعم - كان هناك بريد». وضع يده اليسرى في جيبه وفي لحظة أخرجها «يدي مخدرة»، قال باعتذار ومد يده اليمنى وأخرج بطاقة بريدية حكومية صفراء.

قال: «يبدو أنني قرأتها، لا بد أنني فعلت». رفعها أمام عينيه ثم ألقى البطاقة في حجره. «لي، أعتقد أنني يجب أن أستخدم نظارات للقراءة، لا يمكنني قراءتها. الأحرف تتقافز أمامي».

«هل أقرأها لك؟»

«هذا مضحك - حسناً، سأذهب في أقرب وقت لفحص نظري. نعم، ماذا

تقول البطاقة؟»

قرأ لي: «أبي العزيز، أنا انضممت للجيش. قلت لهم إنني أبلغ ثمانية عشر عاماً. سأكون على ما يرام. لا تقلق علي. آرون».

قال آدم وهو يفرك يده: «هذا مضحك. يبدو أنني قرأته، لكنني لا أظن أنني فعلت».



## الفصل 52

### 1

كان شتاء 1917 - 1918 فترة مظلمة ومخيفة. حطم الألمان كل شيء أمامهم. وفقد البريطانيون ثلاثمائة ألف ضحية خلال ثلاثة أشهر. كانت العديد من وحدات الجيش الفرنسي متمردة، وخرجت روسيا من الحرب. بدت الحرب ميؤوساً منها.

كان ذلك في مايو قبل أن يصبح لدينا ما يصل إلى اثني عشر فرقة في الميدان، الصيف قد حل قبل أن تبدأ قواتنا في التحرك عبر البحر بأعداد هائلة، وكان جنرالات الحلفاء يقاتلون بعضهم البعض، وقضت الغواصات على السفن العابرة.

علمنا حينها أن الحرب لم تكن لعبة بطولية سريعة بل مسألة بطيئة ومعقدة بشكل لا يصدق. غرقت معنوياتنا في أشهر الشتاء تلك. فقدنا وهج الإثارة قبل أن نتظاهر حتى بصلابتنا في الحرب الطويلة.

كان لودندورف<sup>(1)</sup> لا يقهر. لم يوقفه شيء. شن هجوماً بعد هجوم على جيوش فرنسا وإنجلترا المحطمة. وخطر ببالنا أنه ربما فات الأوان، وأنا قد نقف قريباً بمفردنا ضد الألمان الذين لا يقهرون.

من المألوف أن يهرب الناس من أجواء الحرب، البعض نحو الخيال،

---

(1) إريش فريدريش فيلهلم لودندورف جنرال ونائب رئيس الجيش الألماني.

والبعض الآخر إلى الرذائل، والبعض إلى الجنون. كان هناك طلب كبير على العرافين، وكانت الصالونات تقوم بعمل هائل. لكن الناس أيضًا تحولوا إلى أفراحهم ومآسيهم الخاصة هربًا من الخوف واليأس السائد. أليس من الغريب أننا اليوم نسينا كل هذا؟ نتذكر الحرب العالمية الأولى كنصر سريع، بالأعلام والفرق الموسيقية، ومسيرات الخيول والجنود العائدين، والقتال في الحانات مع البريطانيين اللعينين الذين اعتقدوا أنهم انتصروا في الحرب. ما مدى سرعة نسياننا أنه في ذلك الشتاء لم يكن من الممكن هزيمة لودندورف وأن الكثير من الناس كانوا يستعدون في أذهانهم وأرواحهم لخسارة الحرب.

## 2

كان آدم تراسك في حيرة من أمره أكثر من حزنه. لم يكن عليه أن يستقيل من مكتب التسجيل. حصل على إجازة بسبب اعتلال صحته. جلس طوال الوقت يفرك ظهر يده اليسرى. نظفها بفرشاة خشنة ونقعها في ماء ساخن.

قال: «إنها الدورة الدموية، بمجرد عودة النشاط للدورة الدموية سيكون كل شيء على ما يرام. عيني هي التي تزعجني. لم أواجه مشكلة في عيني أبدًا، أعتقد أنني سأضطر إلى فحص عيني للنظارات. أنا ألبس النظارات؟! سيكون من الصعب الاعتياد عليها. كنت أنوي الذهاب اليوم، لكنني أشعر بنوع من الدوار».

كان في الحقيقة يشعر بدوار أكثر مما اعترف به. لم يستطع التحرك في المنزل بدون الاستناد بيده على الحائط. غالبًا ما اضطر لي إلى مساعدته عند النهوض من كرسيه أو للخروج من السرير في الصباح وربط حذائه لأنه لم يستطع ربط العقده بيده اليسرى المخدرة.

عاد إلى موضوع آرون يومًا تقريبًا. قال: «أستطيع أن أفهم لماذا قد يرغب شاب في التجنيد. لو أنه فقط تحدث معي، لربما حاولت إقناعه، لكنني لم أكن لأمنعه بالقوة، أنت تعرف ذلك يا لي».

«أعلم ذلك».

«هذا ما لا أستطيع فهمه. لماذا هرب بهذا الشكل؟ لماذا لا يرسلنا على الأقل؟ اعتقدت أنني أعرفه أفضل من ذلك. هل كتب لأبرأ؟ أنا على يقين من أن يكتب لها».

«سأسألها».

«افعل ذلك على الفور».

«التدريب صعب. هذا ما سمعته. ربما لم يحصل على فرصة».

«لا يستغرق الأمر أي وقت لكتابة بطاقة».

«عندما دخلت الجيش هل كنت تكتب إلى والدك؟»

«تظن أنك تدينني بهذا، أليس كذلك؟ لا، لم أفعل، لكن كان لدي عذري. أنا لم أرغب في التجنيد بل أجبرني والدي. كنت مستاء. وكما ترى كان لدي سبب وجيه. لكن آرون - كان جيدًا في دراسته. لماذا أرسلوا من الجامعة يسألون عنه. اقرأ الرسالة. لم يأخذ معه أي ملابس. لم يأخذ حتى الساعة الذهبية».

«لن يحتاج إلى أي ملابس في الجيش، ولا ساعات ذهبية أيضًا. كل شيء هناك بني».

«أظن أنك محق. لكنني لا أفهم. عليّ أن أفعل شيئًا حيال عيني. لا أستطيع أن أطلب منك أن تقرأ لي كل شيء». لقد كانت مسألة عيونه تزعجه حقًا. قال: «يمكنني أن أرى الرسالة. لكن الكلمات تتقافز في كل مكان». كان يحدق عشرات المرات في اليوم في ورقة أو كتاب وفي النهاية يتركها.

كان لي يقرأ له الصحف حتى لا يشعر بالاستياء، وغالبًا ما كان آدم ينام في منتصف القراءة.

ثم يستيقظ ويقول: «لي؟ هل هذا أنت يا كال؟ أنت تعلم أنني لم أواجه أي مشكلة في عيني من قبل. سأذهب غدًا وأجري فحوصًا لعيني».



في منتصف شهر فبراير ذهب كال إلى المطبخ وقال: «لي، إنه يتحدث عن ذلك طوال الوقت. دعنا نفحص عينيه».

كان لي يطهو المشمش. أغلق باب المطبخ وعاد: «لا أريده أن يذهب».  
«ولم لا؟»

«لا أعتقد أنها عيناه. اكتشافه قد يضايقه، دعه لفترة من الوقت، لقد أصيب بصدمة شديدة، فلنعطه فرصة ليتحسن. سأقرأ له كل ما يريد».

«برأيك ما الأمر؟»

«لا أريد أن أقول. أقترح أن نطلب من الدكتور إدواردز المجيء في زيارة ودية».

قال كال: «ليكن الأمر بطريقتك الخاصة».

قال لي: «كال، هل رأيت أبراً؟»

«بالتأكيد أراها. دائماً ما تبتعد عني».

«هل يمكنك اللحاق بها؟»

«بالتأكيد - ويمكنني أن أرميها أرضاً وألجمها في وجهها وأجعلها تتحدث معي. لكنني لن أفعل».

«ربما لو كسرت الجليد. أحياناً يكون الحاجز ضعيفاً جداً لدرجة أنه يسقط بمجرد لمسه. الحق بها. أخبرها أنني أريد رؤيتها».

«لن أفعل ذلك».

«أنت تشعر بذنب فظيع، أليس كذلك؟»

لم يرد كال.

«ألا تحبها؟»

لم يرد كال.

مكتبة

t.me/soramnqraa

«إذا واصلت هذا، فسوف تشعر بحال أسوأ وليس أفضل. من الأفضل لك الانفتاح. أنا أحذرك، من الأفضل أن تفتح».

صرخ كال: «هل تريدني أن أخبر أبي بما فعلت؟ سأفعل ذلك إذا كان هذا ما تطلبه مني».

«لا كال. ليس الآن. لكن عندما يتعافى عليك ذلك. عليك أن تفعل ذلك بنفسك. لا يمكنك تحمل هذا بمفردك. سيقتلك الأمر».

«ربما أستحق أن أقتل».

«توقف عن هذا!» قال لي بيروود. يمكن أن يكون هذا أرخص أنواع التساهل مع الذات. توقف عن ذلك!»

«كيف يمكنني إيقافه؟» سأل كال.

«غير لي الموضوع».

«لا أفهم سبب عدم مجيء أبرا الى هنا - ولا مرة واحدة».

«لا يوجد سبب لمجيئها الآن».

«إنها ليست طباعها. هناك خطب ما. هل رأيتها؟»

عبس كال: «أخبرتك قبل قليل أنني فعلت. أنت أيضاً بدأت تقترب من الجنون. حاولت التحدث معها ثلاث مرات وابتعدت عني».

«هناك خطب ما. إنها امرأة جيدة - امرأة حقيقية».

قال كال: «إنها فتاة، من المضحك أن تلقبها بامرأة».

قال لي بهدوء «لا. قلة يكنّ نساء منذ لحظة ولادتهن. تمتلك أبرا جمال المرأة وشجاعته وقوتها وحكمتها. إنها تعرف الأشياء وتتقبلها. كنت أراهن أنها لا يمكن أن تكون صغيرة أو لثيمة أو حتى بلا جدوى إلا عندما يكون من الجميل أن تكون بلا جدوى».

«واضح أن لديك انطباعاً جيداً عنها».

«جيد بما يكفي للاعتقاد بأنها لن تتخلي عنا. أفتقدها. اطلب منها أن تأتي لرؤيتي».

«أخبرتكَ أنها تتهرب مني».

«حسنًا، قم بمطاردتها من الآن فصاعدًا. أخبرها أنني أريد رؤيتها. أنني أفتقدها».

سأل كال: «هل يمكننا العودة إلى عيني والذي الآن؟»

قال لي «لا».

«هل نتحدث عن آرون؟»

«لا».

### 3

حاول كال طوال اليوم التالي أن يجد أبرا بمفردها، وبعد المدرسة رآها أمامه وهي تسير إلى المنزل. استدار منعطفًا وركض على طول الشارع الموازي ثم قدّر الوقت والمسافة حتى أصبح أمامها.

قال: «مرحبًا».

«مرحبًا. ظننت أنني رأيتك ورائي».

«بالفعل، ثم ركضت حول الحيّ لأصبح أمامك. أريد أن أتحدث إليك».

نظرت إليه بجدية. «كان من الممكن أن تفعل ذلك بدون كل هذا الركض».

«حسنًا، حاولت التحدث معك في المدرسة لكنك تهربت».

«بدوتَ غاضبًا. لم أكن أريد أن أتحدث معك وأنت غاضب».

«كيف عرفتِ أنني كنت كذلك؟»

«رأيت ذلك في وجهك والطريقة التي تمشي بها. أنت لستَ غاضبًا الآن».

«لا أنا لست كذلك».

«هل تحمل عني كتبي؟» ابتسمت.

شعر بدفء مريح: «نعم نعم. وضع كتبها المدرسية تحت ذراعه ومشى بجانبها «لي يريد رؤيتك. طلب مني أن أخبرك».

كانت سعيدة: «حقاً؟ قل له سوف آتي. كيف حال والدك؟»

«ليس بخير. منزعج من عينيه».

سارا في صمت إلى أن قال كال «هل تعرفين شيئاً عن آرون؟»

«نعم. افتح هذا الملف وانظر بجوار الصفحة الأولى».

قام بتحريك الكتب. كانت هناك بطاقة بريدية: «عزيزتي أبراً، لا أشعر بأنني نظيف، ولا أليق بك. لا تأسفي. لقد التحقت بالجيش. لا تقتربي من والدي. وداعاً، آرون».

قام كال بإغلاق الكتاب قال بصوت خافت: «ابن العاهرة».

«ماذا؟»

«لا شيء».

«سمعت ما قلته».

«هل تعرفين لماذا ذهب؟»

«لا. أعتقد أنه يمكنني اكتشاف الأمر لكنني لا أريد، لست مستعدة لذلك، إلا

إذا كنت تريد إخباري».

فجأة قال كال، «أبراً، هل تكرهيني؟»

«لا كال، لكنك تكرهني بعض الشيء. لماذا؟»

«أنا - أنا أخاف منك».

«لا داعي لذلك».

«لقد آذيتك أكثر مما تتصورين. وأنت فتاة أخوي».

«كيف آذيتني؟ ثم أنا لست فتاة أخيك».

قال بمرارة: «حسنًا سأخبرك - ولا أريدك أن تنسي أنك طلبت مني ذلك. كانت والدتنا عاهرة. كانت تدير مبعي هنا في المدينة. لقد اكتشفت ذلك منذ وقت طويل. ليلة عيد الشكر أخذت آرون وأريتها له. أنا -»

انفجر حماس أبرأ: «ماذا فعل؟»

«جن جنونه - صرخ في وجهها. ثم في الخارج ضربني وابتعد. أمنا العزيزة قتلت نفسها. والدي - هناك خطب به. والآن بتّ تعرفين، وأصبح لديك سبب للهروب مني».

قالت بهدوء: «الآن أعرف عنه».

«أخي؟»

«نعم أخوك».

«كان جيدًا. لماذا أقول كان؟ إنه فتى جيد. ليس لثيمًا أو قدرًا مثلي».

كانا يمشيان ببطء شديد. توقفت أبرأ وتوقف كال وواجهته.

قالت «كال، كنت أعرف عن والدتك منذ وقت طويل جدًا».

«حقًا؟»

«سمعت والداي يتحدثان عن الأمر وكانا يظنان أنني نائمة. أريد أن أخبرك

بشيء، من الصعب لكن من الجيد قوله».

«هل تريدني أن تخبريني به؟»

«علي أن أفعل. لم يمض وقت طويل جدًا منذ أن كبرت ولم أعد فتاة

صغيرة. هل تعرف ما أعنيه؟»

«نعم» قال كال.

«هل أنت متأكد أنك تعرف؟»

«نعم».

«حسنًا إذا. من الصعب قول هذا الآن. أتمنى لو أنني قلت هذا من قبل. لم أعد أحب آرون».

«ولم لا؟»

«لقد حاولت معرفة ذلك. عندما كنا أطفالًا كنا نعيش قصة اختلقناها. لكن عندما كبرت لم تكن القصة كافية. كان لا بد أن يكون لدي شيء آخر، لأن القصة لم تعد حقيقية».

«حسنًا -»

«انتظر - دعني أفرغ كل ما بقلبي. آرون لم يكبر. ربما لن يفعل ذلك أبدًا. أراد القصة وأرادها أن تظهر حسب رغبته. لم يستطع تحمل إخراجها بأي طريقة أخرى».

«ماذا عنك؟»

«لا أريد أن أعرف كيف تظهر. أريد فقط أن أكون هناك أثناء حدوث ذلك. كال - لقد كنا في حقيقة الأمر أشبه بالغرباء، واصلنا ذلك فقط لأننا اعتدنا عليه. لكنني لم أعد أصدق القصة».

«ماذا عن آرون؟»

«كان يريد أن تظهر كما يريد لها أن تفعل حتى لو اضطر لتمزيق العالم من جذوره».

وقف كال وهو ينظر إلى الأرض قالت أبراهام: «هل تصدقني؟»

«أحاول فهم الأمر».

«عندما تكون طفلًا فأنت مركز كل شيء. كل شيء يحدث لأجلك».

والآخرون مجرد أشباح مؤتثة لك لتتحدث معهم. ولكن عندما تكبر تأخذ مكانك وستكون بحجمك وشكلك. تخرج الأشياء منك للآخرين وتأتي لك منهم. إنه أسوأ، لكنه أفضل بكثير أيضًا. أنا سعيدة لأنك أخبرتني عن آرون».

«لماذا؟»

«لأنني الآن أعرف أنني لم أكن واهمة. آرون لم يستطع تحمل معرفة والدته لأنه لم يكن يريد أن تسير القصة هكذا - وليست لديه أي قصة أخرى.

قال كال: «لذلك مزق العالم. إنها نفس الطريقة التي مزقني بها يا أبرا، عندما أراد أن يصبح كاهنًا».

قالت: «أعطني كتيبي وأخبر لي أنني سوف آتي. أشعر بالانعقاد الآن، وأعتقد أيضًا أنني أحبك يا كال».

«أنا لست جيدًا».

«لأنك لست جيدًا».

مشى كال بسرعة إلى المنزل وقال لـ لي «ستأتي غدًا».

قال لي «لماذا أنت متحمس».

#### 4

عندما وصلت إلى المنزل، بدأت تمشي على رؤوس أصابعها وتحركت بالقرب من الحائط حيث لا صرير للأرضية. وضعت قدمها على أولى درجات السلم المغطى بالسجاد ثم غيرت رأيها وذهبت إلى المطبخ.

قالت والدتها: «ها أنت ذا، لم تعودى إلى المنزل مباشرة».

«كان علي أن أبقى بعد انتهاء الدوام الدراسي. هل يشعر أبي بتحسن؟»

«أظن ذلك».

«ماذا يقول الطبيب؟»

«نفس الشيء الذي قاله في البداية - إرهاق. يحتاج فقط إلى راحة».

قالت أبراً: «لم يبد عليه التعب».

فتحت والدتها سلة وأخرجت ثلاث حبات بطاطا للخبز وحملتها إلى الحوض «والدك شجاع جداً يا عزيزتي. كان يجب أن أعرف. لقد كان يقوم بالكثير من الأعمال الحربية بالإضافة إلى عمله الخاص. يقول الطبيب أن الرجل أحياناً ينهار دفعة واحدة».

«هل يمكنني الدخول لرؤيته؟»

«تعرفين يا أبراً، أشعر بأنه لا يريد أن يرى أي شخص. حتى أن القاضي نودسن اتصل هاتفياً وطلب والدك أن أخبره أنه نائم».

«أيمكنني مساعدتك؟»

«اذهبي وغيري ثيابك يا عزيزي. لا تريدين لفستانك الجميل أن يتسخ».

تجاوزت أبراً باب والدها وذهبت إلى غرفتها. كانت غرفة مشرقة، بورق جدران زاه. هناك صور مؤطرة لوالديها على المكتب، قصائد مؤطرة على الجدران، وفي خزانة ملابسها كل شيء في مكانه، والأرض لامعة وأحذيتها مرتبة جنباً إلى جنب. كانت والدتها تفعل كل شيء وتصر على ذلك، كانت هي من تخطط لها وحتى تلبسها.

كانت أبراً قد تخلت منذ فترة طويلة عن الاحتفاظ بأية أشياء خاصة في غرفتها، كان هذا يحدث منذ فترة طويلة لدرجة أن أبراً لم تكن تعامل غرفتها كمكان خاص بها. كانت الرسائل القليلة التي تحتفظ بها مخفية في غرفة الجلوس. قامت بإخفائها بين صفحات كتاب يوليسيس غرانت الضخم والمكون من مجلدين. والذي حسب علمها لم يتم فتحه من قبل أي شخص سواها منذ خروجه من المطبعة.

شعرت أبراً بالسعادة ولم تعلم السبب. كانت تعرف أشياء معينة دون السؤال



عنها، ولم تكن تتحدث عن هذه الأشياء. على سبيل المثال كانت تعرف أن والدها ليس مريضاً. كان يختبئ من شيء ما. كما كانت تعرف جيداً أن آدم تراسك مريض، لأنها رأته يسير في الشارع. تساءلت عما إذا كانت والدتها تعلم أن والدها ليس مريضاً.

خلعت أبراً ثوبها وارتدت مريضة قطنية، والتي كان من المفهوم أنها للعمل في المنزل. مشطت شعرها ومضت بأطراف أصابعها إلى ما وراء غرفة والدها ونزلت إلى الطابق السفلي. عند الدرج فتحت غلاف حقيبتها المدرسية وأخرجت بطاقة آرون البريدية. في غرفة الجلوس أخرجت رسائل آرون من المجلد الثاني من المذكرات وطوتها بإحكام، ثم رفعت تنورتها ووضعتها تحت رباط سروالها الداخلي المطاطي. جعلت الحزمة تلك المنطقة تبدو متكئة قليلاً، فارتدت في المطبخ مئزراً كاملاً لإخفاء الانتفاخ.

قالت والدتها: «يمكنك كشط الجزر».

«هل هذا الماء ساخن؟»

«على وشك الغليان».

«هلا وضعت مكعب مرق في ذلك الكوب يا عزيزي؟ يقول الطبيب إن ذلك سيقوّي والدك».

عندما حملت والدتها الكوب الساخن إلى الطابق العلوي، فتحت أبراً موقد النفايات ووضعت الرسائل فيه وأشعلتها. عادت والدتها قائلة «أشم رائحة نار».

«أشعلت القمامة. كانت ممتلئة».

قالت والدتها: «أتمنى أن تسأليني عندما تريدان فعل شيء كهذا. كنت أحفظ القمامة لتدفئة المطبخ في الصباح».

قالت أبراً: «آسفة يا أمي، لم أفكر».

يجب أن تفكري في هذه الأشياء. يبدو لي أنك أصبحت طائشة جدًا مؤخرًا».

«أعتذري يا أمي».

رن جرس الهاتف في غرفة الطعام. ذهبت والدتها للإجابة عليه. سمعت أبرا والدتها تقول: «لا، لا يمكنك رؤيته. إنها أوامر الطبيب. لا يمكنه رؤية أي شخص - لا، لا أحد».

عادت إلى المطبخ. قالت «إنه القاضي مرة أخرى».



## الفصل 53

### 1

كانت أبرأ تشعر بالسرور طوال اليوم التالي في المدرسة لأنها كانت تنوي الذهاب لرؤية لي. صادفت كال في القاعة بين الحصص. هل أخبرته أنني قادم؟»

قال كال: «لقد بدأ بتحضير نوع من الفطائر». كان يرتدي زيه الرسمي - ياقة عالية خانقة وسترة غير مناسبة وسراويل ضيقة.

قالت أبرأ: «أنت لديك تمرين اليوم، سأصل إلى هناك قبلك. أي نوع من الفطائر؟»

«لا أعرف. هلا احتفظت لي بقطعتين؟ كانت تنبعث رائحة فراولة. اتركي لي قطعتين».

«هل تود أن ترى الهدية التي أحضرتها من أجل لي؟ أنظر!» فتحت صندوقاً صغيراً من الورق المقوى. إنه نوع جديد من مقشرات البطاطس. يزيل القشرة بسهولة».

قال كال «ها هي فطيرتي ذهبت. إذا تأخرت قليلاً لا تذهبي قبل أن أصل إلى هناك، هل يمكنك انتظاري؟»

«هل ستحمل كتبي إلى المنزل؟»

«نعم» قال كال.

نظرت إليه طويلاً إلى أن غض بصره، ثم ابتعدت عائدة إلى فصلها.

كان آدم ينام الى وقت متأخر، أو بالأحرى كان ينام كثيراً - كانت فترات نوم قصيرة أثناء الليل وأثناء النهار. كان لي يأتي لتفقدته عدة مرات قبل أن يجده مستيقظاً.

قال آدم: «أنا بخير هذا الصباح».

«إن كان ما زال بإمكاننا تسميته صباحاً؛ إنها الساعة الحادية عشرة تقريباً».

«يا إلهي! لا بد لي من النهوض».

«لماذا؟» سأل لي.

«لماذا؟ معك حق لماذا! لكنني أشعر أنني بحالة جيدة يا لي. قد أسير إلى

مكتب التسجيل. كيف هي الأجواء في الخارج؟»

قال لي «باردة».

ساعد آدم على النهوض. الأزرار وأربطة الحذاء، تفاصيل الأشياء الأمامية

كانت تسبب لآدم المتاعب.

بينما كان لي يساعده، قال آدم «حلمت بوالدي، كان حلماً حقيقياً جداً».

قال لي: «رجل عظيم حسب ما سمعته». قرأت ملف القصاصات الذي

أرسله محامي شقيقك. لا بد أنه كان رجلاً عظيماً».

نظر آدم بهدوء إلى لي «هل تعلم أنه كان لصاً؟»

قال لي «لقد دفن في أرلينغتون. تقول إحدى المقاطع إن نائب الرئيس كان

في جنازته ووزير الحرب. تعرف؟ مؤشر ساليانس قد يرغب في معرفة بعض

التفاصيل عنه - عن تفاصيل الحرب أقصد. هل تريد مراجعة المادة؟»

قال آدم: «كان لصاً. لم أتصور ذلك يوماً، لكنني أفعل ذلك الآن. لقد سرق

من الجيش»

قال لي: «لا أصدق ذلك».

تجمعت الدموع في عيني آدم. كثيراً ما كانت تنهمر الدموع فجأة من عيني آدم هذه الأيام، قال لي: «ابق أنت جالسا هنا وسأحضر لك بعض الفطور. هل تعلم من سيأتي لرؤيتنا بعد ظهر اليوم؟ أبرا».

قال آدم: «أبرا؟ أوه صحيح، أبرا. إنها فتاة لطيفة».

قال لي ببساطة «كم أحبها». لقد جعل آدم جالسا أمام طاولته في غرفة نومه. «هل ترغب في العمل على قطع اللغز بينما أحضر إفطارك؟»

«لا، شكراً، ليس هذا الصباح. أريد أن أسترجع اللحم قبل أن أنساه».

عندما أحضر لي صينية الإفطار كان آدم نائماً على كرسيه. أيقظه لي وقرأ له صحيفة ساليانس بينما كان يأكل ثم ساعده في الذهاب إلى المرحاض.

كانت رائحة المطبخ حلوة بسبب الفطائر، وبعض التوت كان قد سال الى الخارج واحترق على الفرن، مما جعل الرائحة الحادة والمرة لطيفة.

كانت فرحة لي غامرة وهادئة. كانت ببساطة فرحة التغيير. كان يقول لنفسه: الوقت ينفد من آدم. لا بد أنه ينحسر بالنسبة لي أيضاً، لكنني لا أشعر بذلك، أنا أشعر بالخلود. عندما كنت صغيراً شعرت أنني فانٍ لفترة - لكنني لم أعد كذلك. لقد انحسر الموت عني. تساءل عما إذا كانت هذه مشاعر طبيعية.

وتساءل عما يقصده آدم بقوله إن والده لص. ربما هو جزء من اللحم. ثم تلاعب عقل لي بالطريقة التي كان يفعلها في كثير من الأحيان. افترض أن هذا صحيح - أيعقل أن يكون آدم، أكثر رجل متحل بالصدق يمكنك مصادفته، يعيش كل حياته بأموال مسروقة. ضحك لي على نفسه - ثم هناك الثاني، آرون، الذي ركز بنقاوته على تجنب الانغماس في الملذات، يعيش طوال حياته على أرباح من مبعي. هل كان هذا نوعاً من المزاح أم أنه توازن الأشياء بحيث إذا شطح المرء في اتجاه واحد، تتحرك شريحة تلقائية على المقياس وتعيد توازنه؟

تذكر سام هاملتون. كان قد طرق الكثير من الأبواب. كانت لديه الكثير من المخططات والخطط، ولم يعطه أحد أية أموال. لكن بكل تأكيد - كان لديه الكثير، كان ثريًا جدًا بحيث لا يمكنك منحه أكثر من ذلك. فالثروات تأتي للفقراء بالروح، بالاهتمام، بالمتعة. لوضع كل هذا في نصابه الصحيح - يمكن القول إن الأغنياء ليسوا سوى مجموعة فقيرة من الأوغاد. تساءل عما إذا كان هذا صحيحًا.

كانوا يتصرفون بهذه الطريقة في بعض الأحيان.

كان يعتقد أن كال يحرق المال لمعاقبة نفسه. ولم يؤذ العقاب بشدة مثلما فعلت الجريمة. قال لي لنفسه، «لو منحت لي فرصة للالتقاء بسام هاملتون لمرّة أخيرة، فسيكون لدي الكثير من القصص الجيدة لأخبره بها» وواصل تفكيره: «وستكون لديه قصص أيضًا!»

ذهب لي إلى آدم ووجهه يحاول فتح الصندوق الذي يحتوي على قصاصات عن والده.

### 3

كانت الرياح باردة بعد ظهر ذلك اليوم. أضرب آدم على الذهاب للنظر في قوائم التجنيد. ألبسه لي ثياباً ثقيلة وقال له: «إذا شعرت بالدوار، فقط اجلس أينما كنت».

«سأفعل. لم أشعر بالدوار طوال اليوم. قد أمر على فيكتور لفحص عيني».

«انتظر حتى الغد. سأذهب معك».

قال آدم: «سنرى» ومشى وهو يهز ذراعيه بشكل استعراضي.

وصلت أبراً وأنفها أحمر من البرودة في الخارج وبريق يملأ عينيها، وجلبت معها المتعة التي جعلت لي يضحك بصوت خافت عندما رآها.

«أين الفطائر؟ هيا فلنخفها عن كال». جلست في المطبخ». أوه، أنا سعيدة جدًا بالعودة».

بدأ لي في الكلام وبدأ أنه يتمم فصمت للحظة، ثم بدأ مجددا ليقول بعناية ما أراد قوله وهو يحوم حولها: أتعلمين، لم أتمنى أشياء كثيرة في حياتي. تعلمت مبكرًا ألا أتمنى الأشياء. التمني لم يجلب لي سوى خيبة الأمل المكتسبة».

قالت أبراميرح: «لكنك الآن تتمنى شيئًا. ما هو؟»

قال: «أتمنى لو كنتِ ابنتي -» صدمته صراحته. ذهب إلى الموقد وأطفأ الغاز أسفل غلاية الشاي ثم أشعله مرة أخرى.

قالت بهدوء: «وأتمنى لو كنت أبي».

«حقًا؟»

«نعم أفعَل».

«لماذا؟»

«لأنني أحبك».

خرج لي بسرعة من المطبخ. جلس في غرفته ممسكًا بيديه بقوة حتى توقف عن الاختناق. نهض وأخذ صندوقًا صغيرًا من خشب الأبنوس المحفور من أعلى مكتبه. كانت الرسمة المحفورة عليه عبارة عن تنين يصعد نحو السماء. حمل الصندوق إلى المطبخ ووضع على الطاولة بين يدي أبراميرح. قال: «هذا من أجلك»، ولم تشي نبرته بأي تأثير.

فتحت الصندوق ونظرت بداخله، كان زر صغير أخضر غامق من اليشم، نحت على سطحه يدا بشرية يمينى جميلة، رفعت أبراميرح والزر ونظرت إليه ثم قامت بترطيبه بطرف لسانها وحركته برفق فوق شفيتها الممثلةتين، وضغطت الحجر البارد على خدها.

قال لي: «كانت هذه هي الحلبة الوحيدة التي امتلكتها والدتي».



نهضت أبراً ووضعت ذراعيها حوله وقبلته على خده، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي يحدث له فيها مثل هذا الشيء طوال حياته.

ضحك لي. قال: «يبدو أن هدوئي الشرقي قد هجرني. دعيني أحضر الشاي يا عزيزتي. سأتمالك نفسي بشكل أفضل هكذا». قال وهو يقرب الموقد: «لم أستخدم هذه الكلمة مطلقاً - لم أستخدمها أبداً لأي شخص في العالم». قالت أبراً: «استيقظت بفرح هذا الصباح».

قال لي «وأنا كذلك. وكنت أعرف ما الذي يجعلني أشعر بالسعادة. قدومك».

«كنت سعيدة بذلك أيضاً، ولكن -»

قال لي «لقد تغيرت، لم تعودتي تلك الفتاة الصغيرة بعد الآن. هل تودين التحدث عن الأمر؟»

«لقد أحرقت كل رسائل آرون».

«هل آذاك بشيء؟»

«لا. لا أظن ذلك. في الآونة الأخيرة لم أكن أشعر أبداً بالرضا. حاولت دائماً أن أوضح له أنني لست مناسبة له».

«والآن بما أنه ليس عليك أن تكوني مثالية، يمكنك أن تكوني جيدة. هل هذا هو الأمر؟»

«أظن ذلك. ربما هذا كل شيء».

«هل تعرفين والدة التوأم؟»

«نعم. هل تعلم أنني لم أتذوق أياً من الفطائر؟ فمي جاف».

«اشربي بعض الشاي. أبراً. هل تحبين كال؟»

«نعم».

قال لي «إنه ممتلئ بكل شيء جيد وكل شيء سيء. لقد اعتقدت أن هذا الكائن بالكاد يمكنه تحمل وزن إصبعه تقريبًا.»

حنت أبرا رأسها فوق الشاي. «طلب مني أن أذهب معه إلى أليسال عندما تتفتح أزهار الأزاليات البرية.»

وضع لي يديه على الطاولة وانحنى: «لا أريد أن أسألك عما إذا كنت ستذهبين.»

قالت أبرا: «ليس عليك ذلك، أنا ذاهبة.»

جلس لي على الطاولة: «لا تتبعدي عن هذا المنزل لفترة طويلة.»

«أبي وأمي لا يريداني هنا.»

قال لي ساخرًا: «لقد رأيتهما مرة واحدة فقط، بدوا طيبين. أحيانًا أغرب الأدوية يا أبرا هي أكثرها فعالية. أتساءل عما إذا كان من المفيد لو علموا أن آرون قد ورث للتو أكثر من مائة ألف دولار.»

أومأت أبرا برأسها بقوة «أعتقد أنه سيساعد. أتساءل كيف يمكنني توصيل هذا الخبر إليهما.»

قال لي: «عزيزتي، عندما أسمع مثل هذه الأخبار، أعتقد أن ردة فعلي الأولى ستكون الاتصال بشخص ما»

أومأت أبرا برأسها. «وهل ستخبره من أين أتى المال؟»

قال لي «هذا أمر لن أفعله.»

نظرت إلى ساعة الحائط المعلقة. قالت «إنها تقترب من الخامسة، أنا مضطرة للمغادرة. والدي ليس على ما يرام. اعتقدت أن كال قد يعود من التدريبات.»

قال لي: «تعالى بأقرب وقت ممكن.»

كان كال على الشرفة عندما خرجت.

قال: «انتظريني»، ودخل المنزل وألقى كتبه. قال لي من المطبخ: «اعتن بكتب أبراً جيداً».

كانت رياح تلك الليلة الشتوية باردة وقوية، دفن الرجال العائدون من العمل ذبّونهم في معاطفهم وهم مندفعون إلى منازلهم حيث الدفء. في الليل الساكن كان من الممكن سماع الموسيقى الرتيبة لحلبة التزلج من على بعد أحياء بعيدة.

قال كال «هل تحملين كتبك لدقيقة يا أبراً؟ أريد فك هذا الطوق. إنه يقطع رأسي». تنهد بارتياح بعد أن نزعها: «أنا مخدوش تماماً» وأخذ منها كتبها. كانت أغصان شجرة النخيل الكبيرة في الفناء الأمامي لبرج بيرغ تصدر قعقعة جافة، وكانت قطة تنحني مرارًا وتكرارًا أمام باب مطبخ مغلق ضدها.

قالت أبراً: «لا أعتقد أنك تصلح لأن تكون جندياً. أنت مستقل للغاية».

قال كال: «يمكنني أن أكون». هذا الحفر مع العجوز كراغ يبدو عملاً سخيلاً بالنسبة لي. عندما يحين الوقت سأكون جيداً».

قالت أبراً: «كانت الفطائر رائعة، تركت واحدة لك».

«شكراً. أراهن أن آرون يصلح لأن يكون جندياً جيداً».

«بالفعل - والجندي الأفضل مظهرًا في الجيش. متى سنذهب إلى الأزيلات؟»

«ليس حتى الربيع».

«لنذهب مبكرًا ونتناول الغداء».

«ربما كانت تمطر».

«دعنا نذهب على أي حال، سواء كانت تمطر أو لا».

أخذت كتبها ودخلت فناء منزلها. قالت: «أراك غداً».

لم يستدر للعودة نحو المنزل. سار في الليل المتوتر متجاوزاً المدرسة الثانوية وحلبة التزلج - أرضية واسعة تحيط بها خيمة كبيرة، وموسيقى أوركسترا مسجلة. لا أحد كان يتزلج. والرجل العجوز مالك المكان كان جالساً بيأس في كشكه، يقرب لفة التذاكر بسبابته.

كان الشارع الرئيسي مهجوراً، والأوراق كانت تنزلق على الرصيف بفعل الرياح. خرج توم ميك، الشرطي، من متجر بيل للحلوى وصادف كال. قال ملاطفاً: «من الأفضل ربط تلك الياقة».

«مرحبا توم. هذا الشيء اللعين ضيق للغاية».

«لم أعد أراك في المدينة في الليل مؤخراً».

«لا».

«لا تقل لي أنك تبت».

«ربما».

كان توم فخوراً بقدرته على خداع الناس وجعل الأمر يبدو جاداً. قال، «يبدو أنك حصلت لنفسك على فتاة».

لم يرد كال.

سمعت أن أخاك زور تاريخ ميلاده وانضم للجيش. هل أخذت فتاته؟»

قال كال: «أوه، بالتأكيد».

ازداد اهتمام توم. قال: «كدت أنسى؛ سمعت أن ويل هاملتون يقول للجميع

إنك كسبت خمسة عشر ألف دولار من بيع الفاصوليا. هل هذا صحيح؟»

قال كال: «أوه، بالتأكيد».

«أنت مجرد طفل. ماذا ستفعل بكل هذه الأموال؟» ابتسم كال في وجهه  
«لقد أحرقتها».

«كيف هذا؟»

«أشعلت عود ثقاب وأحرقتها».

نظر توم في وجهه «أه نعم! بالتأكيد. عمل جيد. يجب أن أذهب. طاب  
مساؤك». لم يحب توم ميك أن يخدعه الناس. قال لنفسه: «ابن العاهرة الصغير،  
يظن أنه أصبح ذكياً جداً».

تمشى كال ببطء على طول الشارع الرئيسي ناظراً في نوافذ المتجر. تساءل  
أين يا ترى دُفنت كيت. إذا تمكن من معرفة ذلك ربما يأخذ إليها مجموعة  
من الزهور، وسخر من نفسه. هل كان ذلك جيداً أم أنه كان يخدع نفسه؟ كان  
بإمكان رياح ساليناس تلك الليلة أن تزيل شاهدة قبر من قوتها، فما بالك  
بمجموعة من أزهار القرنفل. لسبب ما تذكر الاسم المكسيكي للقرنفل. لا بد  
أن أحدهم أخبره بذلك عندما كان طفلاً. كانت تسمى أظافر الحب - وأزهار  
القطيفة، وأظافر الموت. كانت كلمة تشبه المسامير. ربما كان من الأفضل أن  
يضع القطيفة على قبر أمه. قال لنفسه: «لقد بدأت أفكر مثل آرون».

## الفصل 54

### 1

بدا الشتاء مترددًا في التخلي عن لدغته. استمر البرد والرطوبة والرياح لفترة طويلة بعد فترتها المعتادة. وكرر الناس، «إنها تلك البنادق الكبيرة اللعينة التي يطلقونها في فرنسا - ويفسدون بها الطقس في العالم بأسره».

أصبحت الحبوب بطيئة في الظهور في وادي ساليناس، وظهرت الأزهار البرية متأخرة جدًا لدرجة أن بعض الناس اعتقدوا أنها لن تظهر على الإطلاق.

كنا نعلم - أو على الأقل كنا واثقين - أنه في يوم عيد العمال، حيث تكون نزاهات مدارس الأحد إلى أليسال، ستكون الأزاليات البرية التي نمت على أطراف الجدول مزدهرة. كانت هذه النزهة جزءًا من عيد العمال.

لكن عيد العمال هذا كان باردًا للغاية. ألغيت النزهة بسبب الأمطار الباردة، ولم تكن هناك أساساً أزهار متفتحة على أشجار الأزالية. بل لم تظهر حتى بعد أسبوعين من ذلك.

لم يكن كال يعرف أن الأمر سيكون هكذا عندما جعل الأزاليات إشارة للنزهة، ولكن بمجرد تعيين الرمز فلا يمكن انتهاكه.

كانت سيارة الفورد في مرآب ويندهام وتم ضخ إطاراتها وتجهيزها، كما طلب من لي إعداد الشطائر عندما يحل اليوم، وتعب لي من الانتظار وتوقف عن شراء خبز الشطائر كل يومين.

«لماذا لا تذهب على أي حال؟» قال لي لكال

«لا أستطيع. قلت لها عند تفتح الأليات».

«كيف لك أن تعرف؟»

«يعيش أولاد سيلاشي هناك ويأتون إلى المدرسة كل يوم. يقولون إنها قد تفتح خلال أسبوعاً أو عشرة أيام».

«يا إلهي!» قال لي. «لا تبالغ هكذا من أجل نزهة».

كانت صحة آدم تتحسن ببطء والخدر يغادر يده تدريجياً. ويمكنه أن يقرأ قليلاً - أكثر قليلاً كل يوم.

قال: «فقط عندما أتعب تتفاخر الحروف. أنا سعيد لأنني لم آت بنظارات لتدمير عيني. كنت أعرف أن عيني بخير».

أوماً لي برأسه وكان سعيداً. لقد ذهب إلى سان فرانسيسكو لإحضار الكتب التي يحتاجها. كان يعرف الكثير عن تشريح الدماغ وأعراض وشدة الجلطات. كان قد درس وطرح الأسئلة بشدة لا تتزعزع كما يحدث عندما يحاصر فعلاً عبرياً ويرشقه ويعالجه. كان الدكتور إتش سي مورفي قد تعرف على لي جيداً وانتقل من نفاذ صبره المهني مع خادم صيني إلى إعجاب حقيقي بأحد العلماء. حتى أن د. مورفي استعار منه بعض الأبحاث والتقارير عن التشخيص والممارسة. قال للدكتور إدواردز «ذاك الصيني يعرف أكثر مني عن أمراض النزف الدماغية، بل أراهن بقدر ما تعرفه أنت». كان يقولها بنوع من الغضب الرؤوف الذي لا بد أن يكون عليه من هم في مهمته، لطالما أزعجت المعرفة العامة مهنة الطب.

عندما أبلغ لي عن تحسن آدم قال «يبدو لي أن الاستيعاب مستمر»

قال الدكتور مورفي «كان لدي مريض» وروى قصة مليئة بالأمل.

قال لي: «التكرار هو ما يخيفني دائماً»

قال الدكتور مورفي: «هذا أمر لا بد من تركه بيد الرب، لا يمكننا ترقية

الشریان مثل الأنبوب الداخلي. بالمناسبة، كيف تجعله يسمح لك بقياس ضغط دمه؟»

«أراهن على ضغطه وهو يراهن على ضغطي. إنه أفضل من سباق الخيل». «من يفوز؟»

قال لي: «حسنًا، يمكنني أن أفوز، لكنني لا أفعل. من شأن هذا أن يفسد اللعبة - والرسم البياني».

«وكيف تمنعه من الحماس الزائد؟»

قال لي: «إنه اختراعي الخاص، أحب تسميته بالعلاج التخاطبي». «لا بد أنه يأخذ كل وقتك».

قال لي «إنه يفعل».

## 2

في 28 مايو 1918، نفذت القوات الأمريكية أول مهمة هامة لها في الحرب العالمية الأولى. أمرت الفرقة الأولى، بقيادة الجنرال بولارد<sup>(1)</sup>، بالاستيلاء على قرية كانتيني. كانت القرية الواقعة على أرض مرتفعة تسيطر على وادي نهر أفري. تم الدفاع عنها بالخنادق والمدافع الرشاشة الثقيلة والمدفعية. كانت الجبهة أكثر من ميل واحد بقليل.

في الساعة 6:45 صباحًا من 28 مايو 1918، بدأ الهجوم بعد ساعة من التحضير للمدفعية. القوات المشاركة كانت فرقة رقم 28 مشاة (بقيادة العقيد

---

(1) الجنرال روبرت لي بولارد خدم في الجيش الأمريكي من عام 1885 إلى عام 1925. وشارك في حملة جيرونيمو، الفلبين، كوبا، وعلى الحدود المكسيكية، وقاد الفرقة الأولى، الفيلق الثالث والجيش الثاني، خلال الحرب العالمية الأولى. تقاعد من الجيش ليصبح رئيسًا لاتحاد الأمن القومي من 1925 - 1947.



إيلي)، كتيبة رقم 18 مشاة (بقيادة باركر)، سرية من المهندسين الأوائل، مدفعية الفرقة (سمرال)، ودعم من الدبابات الفرنسية وقاذفات اللهب.

كان الهجوم ناجحًا. تحصنت القوات الأمريكية على الخط الجديد وصدت هجومين ألمانيين قويين.

تلقي القسم الأول تهنئة كليمنصو وفوش وبيتان.<sup>(1)</sup>

### 3

كانت نهاية شهر مايو/ أيار قبل أن ينقل أولاد سيلاتشي الأخبار التي تفيد بأن أزهار الأزاليات ذات لون السلمون الزهري بدأت بالتفتح. كان يوم الأربعاء، وجرس الساعة التاسعة يدق، عندما أخبروه بذلك.

هرع كال إلى فصل اللغة الإنجليزية، كانت الآنسة نوريس على مقعدها على المسرح الصغير، لوح بمنديله ونفخ بأنفه بصوت عالٍ. ثم ذهب إلى حمامات الأولاد وانتظر حتى يسمع من خلال الحائط صوت تدفق الماء من جانب الفتيات. خرج من باب القبو، ومشى بالقرب من جدار القرميد الأحمر، وبمجرد أن غادر المدرسة سار ببطء حتى أدركته أبرا.

«متى تفتحت؟» سأله.

«هذا الصباح».

---

(1) جورج بنجامين كليمنصو. رجل دولة فرنسي، وطبيب وصحفي. أنتخب مرتين لرئاسة الحكومة الفرنسية. وأصبح رئيس الوزراء الثاني والسبعين للمرة الأولى في الفترة بين 1906 - 1909، والرئيس الخامس والثمانين للمرة الثانية في الفترة الحرجة بين 1917 - 1920، وقاد فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

فرديناند فوش. جنرال وكاتب عسكري فرنسي. خدم في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى، واختير مارشالاً لفرنسا في 1918. كما اختير قائدًا أعلى لجيوش الحلفاء. فيليب بيتان. عسكري ورجل دولة فرنسي تم تكريمه بلقب مارشال فرنسا في 1918. كان في منصب رئيس الدولة الفرنسية ورئيس الوزراء ووزير الحربية.

«هل تنتظر حتى الغد؟»

نظر لأعلى إلى الشمس الصفراء، أول شمس دافئة في العام. هل تريدان الانتظار؟»

قالت «لا».

«ولا أنا أيضاً».

بدءاً بالجري - اشترى الخبز من مطعم رينو واستعجل لي إلى العمل. سمع آدم أصواتاً عالية ونظر في المطبخ. «ما سبب هذه الضجة؟» سأل. قال كال: «نحن ذاهبان في نزهة».

«أليس هذا يوم دراسي؟»

قالت أبراً: طبعاً. لكنها عطلة أيضاً».

ابتسم لها آدم. قال: «أنت وردية كما وردة».

صرخت أبراً: «لماذا لا تأتي معنا؟ نحن ذاهبون إلى أليسال لقطف الأزيلات».

قال آدم: «أحب ذلك. لا، لا أستطيع. لقد وعدت بالذهاب إلى مصنع الثلج. سننصب بعض الأنابيب الجديدة. إنه يوم جميل».

قالت أبراً: «سأحضر لك بعض الأزيلات».

«أحبها. حسناً استمتعا بوقتكما».

عندما رحل قال كال: «لي، لم لا تأتي معنا؟»

نظر لي بحدة إليه قال: «لم أكن أعتقد أنك أحمق».

«هيا!» صرخت أبراً.

قال لي «لا تكوني سخيفة».

مكتبة

t.me/soramnqraa

إنه جدول صغير لطيف يتنقل عبر جبال أليسال في شرق وادي ساليناس. يتلوى الماء فوق الأحجار المستديرة ويغسل الجذور المصقولة للأشجار التي تحتفظ بها.

ملأت رائحة الأزاليات والكلوروفيل الهواء. توقفت سيارة الفورد على الضفة، وكانت ما تزال تتنفس بهدوء بعد ارتفاع درجة حرارتها. المقعد الخلفي مكسب بفروع الأزالية.

جلس كال وأبرا على مقدمة السيارة بينما تتدلى أقدامهما في الماء.

قال كال: «إنها تذبذب دائماً قبل وصولها إلى المنزل».

قالت: «لكنه عذر جيد كال».

«إذا كنت لن تفعل أعتقد أنني سأضطر إلى -

«ماذا؟»

مدت يدها وأخذت يده وقالت «هذا».

«كنت خائفاً من ذلك».

«لماذا؟»

«لا أعرف».

«أنا لم أكن».

«أعتقد أن الفتيات لا يخفن من الاقتراب من الأشياء».

«لا أعتقد ذلك».

«ألا ينتابك الخوف أبداً؟»

قالت «بالتأكيد، كنت أخاف منك بعد أن قلت إنني بللت سروالي».

قال «كان ذلك فعلاً لثيماً بحق، أتساءل لماذا فعلت ذلك «وفجأة صمت».

ضغطت بيدها على يده. «أعرف ما تفكر فيه. لا أريدك أن تفكر في ذلك».

نظر كال إلى الماء المتعرج وحرّك حجراً بنياً مستديراً بإصبع قدمه.

قالت أبرا: «تعتقد أنك حصلت على كل شيء أليس كذلك؟ تعتقد أنك تجتذب الأشياء السيئة -»

«في الواقع -»

«حسناً، دعني أخبرك بشيء. والدي في ورطة.»

«ماذا تقصدين في ورطة؟»

«لم أسترق السمع عند الأبواب لكنني سمعت ما يكفي. إنه ليس مريضاً. هو خائف. لقد فعل شيئاً.»

أدار رأسه «ماذا؟»

«أعتقد أنه أخذ بعض المال من شركته. إنه لا يعرف ما إذا كان شركاؤه سيزجون به الى السجن أو سيسمحون له بمحاولة ردها.»

«كيف علمتِ بذلك؟»

سمعتهم يصرخون في غرفة نومه. وبدأت والدي في استخدام الفونوغراف لإغراق أصواتهم.»

قال، «أنت لا تخلقين هذا؟»

«لا. أنا لا أخلقه.»

اقترب منها ووضع رأسه على كتفها وزحفت ذراعه بخجل حول خصرها. «كما ترى، أنت لست الوحيد -» ثم نظرت بنظرة جانبية إلى وجهه وقالت بنبرة ضعف «الآن أنا خائفة.»

## 5

في الساعة الثالثة بعد الظهر، كان لي جالساً على مكتبه، يقلب صفحات كتالوج البذور. كانت صور البازلاء الحلوة ملونة.

«هذه ستبدو جميلة على السياج الخلفي. أتساءل عما إذا كان هناك ما يكفي من أشعة الشمس». تأمل وقع صوته في المكان وابتسم لنفسه. كان يتحدث بصوت عالٍ عندما كان المنزل فارغاً.

قال بصوت عالٍ: «إنه العمر، الأفكار المتباطئة و - » توقف وتصلب للحظة». هذا مضحك - سمعت شيئاً ما. أتساءل عما إذا كنت قد تركت غلاية الشاي على الغاز، لا». استمع مرة أخرى». الحمد لله أنني لست مؤمناً بالخرافات. لكان بإمكانني سماع الأشباح تمشي إذا كنت قد سمحت لنفسني. لاستطعت ذلك بحق - »

رن جرس الباب الأمامي.

«ها هو. هذا ما كنت أسمعه. دعه يرن. لن يتم توجيهي بالمشاعر. دعه يرن». لكنه لم يرن مرة أخرى.

راودني ضيق سوداوي، بأس ضغط كتفيه إلى الأسفل. ضحك على نفسه». يمكنني الذهاب للحظة لأجد أنه إعلان تحت الباب أو يمكنني الجلوس هنا والسماح لعقلي القديم السخيف بأن يخبرني أن الموت على عتبة الباب. حسناً، أنا أريد الإعلان».

جلس لي في غرفة المعيشة ونظر إلى المغلف في حجره وفجأة بصق عليه. قال: «حسناً. أنا قادم، تباً لك»، وقام بتمزيقه وفتحه في لحظة ووضع على الطاولة وقلب الرسالة.

حدق بين ركبتيه على الأرض قائلاً: «لا، هذا ليس من حقي. لا يحق لأي شخص إزالة أي تجربة من تجربة أخرى. الحياة والموت موعودان. من حقنا أن نتألم».

تقلصت معدته: «لا أمتلك الشجاعة. أنا جبان. لم يمكنني تحمل ذلك». ذهب إلى الحمام ووضع ثلاث ملاعق صغيرة من إكسير البرومايد في

كوب وأضاف الماء حتى أصبح الدواء الأحمر وردياً. حمل الكأس إلى غرفة المعيشة ووضعها على الطاولة. طوى البرقية ودفعها في جيبه. قال بصوت عال: أكره الجبان! يا الله كم أكره الجبان!» كانت يدها ترتعشان والعرق البارد يبلل جبهته.

في الساعة الرابعة سمع آدم يتحسس مقبض الباب. لعق لي شفثيه. وقف ومشى ببطء إلى القاعة. حمل كأس السائل الوردى إليه بيد ثابتة.



## الفصل 55

### 1

كانت جميع الأنوار مضاءة في منزل تراسك وكان الباب مفتوحًا جزئيًا والمنزل باردًا. في غرفة الجلوس جلس لي وهو ذابل مثل ورقة في الكرسي بجانب المصباح. كان باب غرفة آدم مفتوحًا وكانت الأصوات تخرج منها. دخل كال وسأل: «ماذا يحدث؟»

نظر إليه لي ثم نحو الطاولة حيث كانت البرقية: «أخوك مات. والدك أصيب بسكتة دماغية».

هرع كال للذهاب إلى والده.

قال لي: «تعال. الدكتور إدواردز والدكتور مورفي هناك. دعهما يقومان بعملهما».

وقف كال أمامه «ما مدى سوء حالته؟ ما مدى سوءها لي، ما مدى سوء حالة أبي؟»

«لا أعرف». تحدث لي كما لو كان يتذكر شيئًا قديمًا وليس أمرًا قد حدث قبل قليل «عاد إلى المنزل متعبًا. لكن كان علي أن أقرأ له البرقية. هذا من حقه. بقي لمدة خمس دقائق يكرر ما جاء في البرقية مرارًا. وبعد ذلك بدا أنه وصل إلى دماغه وانفجر هناك».

«هل هو واع؟»



قال لي بضجر: «اجلس وانتظر كال. اجلس وانتظر. استوعب ما يجري. أنا أحاول ذلك».

التقط كال البرقية وقرأ الاعلان الكئيب.

خرج الدكتور إدواردز حاملاً حقيبه. هز رأسه باقتضاب وغادر وأغلق الباب خلفه.

وضع الدكتور مورفي حقيبه على المنضدة وجلس وهو يتنهد «طلب مني الدكتور إدواردز أن أخبرك».

«كيف حاله؟» سأل كال.

«سأخبرك بكل ما نعرفه. أنت رب الأسرة الآن يا كال. هل تعرف ما هي السكتة الدماغية؟» لم ينتظر كال للرد «إنه تسرب الدم في الدماغ. تتأثر مناطق معينة من الدماغ. كان هناك تسرب أصغر في وقت سابق. لي يعرف ذلك».

قال لي «نعم».

نظر إليه الدكتور مورفي ثم عاد إلى كال «الجانب الأيسر مشلول، والجانب الأيمن بشكل جزئي. ربما لا يوجد بصر في العين اليسرى، لكننا لا نستطيع تحديد ذلك بعد. بعبارة أخرى، والدك أصبح شبه عاجز».

«هل يستطيع الكلام؟»

«قليلاً - وبصعوبة. لا تتعبه».

بصعوبة أيضاً كان كال يكافح من أجل النطق بالكلمات. هل من الممكن أن يتحسن؟»

«لقد سمعت عن حالات تعافت وكانت بهذا السوء ولكنني لم أر شخصياً واحدة من قبل».

«هل تقصد أنه سيموت؟»

«لا نعرف. قد يعيش أسبوعاً أو شهراً أو سنة أو حتى سنتين. وقد يموت الليلة.»

«هل سيتعرف عليّ؟»

«عليك أن تكتشف ذلك بنفسك. سأرسل ممرضة الليلة وبعد ذلك سيكون عليك الحصول على ممرضات دائمت». توقف وقال: «أنا آسف يا كال. تحمّل. عليك أن تتحمل! يفاجئني دائماً مدى مقدرة البشر على التحمل». دكتور إدواردز سيكون هنا في الغد. طاب مساؤكما». مد يده ليلمس كتف كال، لكن كال ابتعد وسار باتجاه غرفة أبيه.

كان رأس آدم مسنداً على وسائد. كان وجهه هادئاً وجلده شاحباً. كان فمه مستقيماً ليس بمبتسم ولا متجهم. كانت عيناه مفتوحتين بعمق ووضوح كبيرين، كما لو كان بإمكان المرء أن ينظر لأعماقهما وهما بدورهما يستطيعان رؤية ما حولهما بعمق. كانت عيناه هادئتين وواعيتين ولكنهما غير مباليتين. استدارا ببطء نحو كال عندما دخل الغرفة، وصلا لصدره، ثم وقفا حيث وجهه وبقياً هناك.

جلس كال على الكرسي المستقيم بجانب السرير، همس «أنا آسف يا أبي». رمشت العينان ببطء كما يومض الضفدع.

«هل تسمعني يا أبي؟ هل تفهمني؟» العيون لم تتغير أو تتحرك. بكى كال: أنا من فعل ذلك. أنا مسؤول عن موت آرون ومريضك. لقد أخذته إلى كيت. أريته والدته. لهذا السبب ذهب بعيداً. لا أريد أن أرتكب أفعالاً سيئة - لكني أفعل.»

وضع رأسه على جانب السرير هرباً من عينيه، لكن كان ما زال بإمكانه رؤيتهما. كان يعلم أنهما سيبقيان معه، وستكونان جزء منه طوال حياته. رن جرس الباب. بعد لحظات جاء لي إلى غرفة النوم تتبعه ممرضة - امرأة

قوية سمينة ذات حاجبين كثيفين. فتحت حقيبتها قائلة: «والآن أين مريضتي! ها هو! أنت تبدو بخير! إذاً ماذا أفعل أنا هنا؟ ربما من الأفضل أن تنهض أنت وتعتني بي، لأنك تبدو بخير. هل تود الاعتناء بي، أيها الوسيم؟» حشرت ذراعها القوية تحت كتف آدم ورفعته دون جهد نحو رأس السرير ثم رفعته بذراعها الأيمن بينما ترتب الوسائد خلف رأسه وأرجعته إلى الخلف.

قالت: «هذه وسائد رائعة، ألا تحب الوسائد الرائعة؟ والآن أين الحمام؟ هل لديك بطة وغطاء سرير؟ هل يمكنك وضع سرير هنا من أجلي؟» قال لي «ضعي قائمة بكل ما تحتاجينه، وإذا كنت بحاجة إلى أي مساعدة - معه -»

«لماذا أحتاج إلى المساعدة؟ سوف نكون على ما يرام، أليس كذلك يا عزيزي الوسيم؟»

خرج لي وكال إلى المطبخ. قال لي: «قبل أن تأتي الممرضة، كنت سأحثك على تناول العشاء - كما تعلم، مثل ذلك النوع من الأشخاص الذين يستخدمون الطعام لأي غرض سواء كان جيداً أم سيئاً؟ أراهن أنها من هذا الصنف. عموماً يمكنك أن تأكل أو لا تأكل، الأمر عائد لك.»

ابتسم كال في وجهه: «لو كنت أجبرتني لكنت الآن أشعر بالإعياء. ولكن بما أنك قلتها على هذا النحو، أعتقد أنني سأصنع شطيرة.»

«لا يمكنك تناول شطيرة.»

«أريد واحدة.»

قال لي: «أي شيء سيكون مقبولاً، هذا صحيح بشكل مهيّن.»

قال كال: «حسناً لا أريد شطيرة، هل هناك أية فطائر متبقية؟»

«الكثير - في حافظة الخبز. قد تكون رطبة قليلاً.»

قال كال: «أنا أحبها رطبة.» أحضر الصحن كله إلى الطاولة ووضع أمامه.

أت الممرضة إلى المطبخ: «هذه تبدو لذيذة»، وأخذت فطيرة وتحدثت وهي تمضغها». هل يمكنني الاتصال بصيدلية كروه للحصول على الأشياء التي أحتاجها؟ أين الهاتف؟ أين تحتفظ بالأغطية؟ وأين السرير النقال الذي قلت إنك ستحضره؟ هل انتهيت من هذه الصحيفة؟ أين الهاتف؟ أخذت فطيرة أخرى وخرجت.

سأل لي بهدوء «هل تحدث معك؟»

هز كال رأسه كما لو أنه لا يستطيع التوقف.

«سيكون الأمر مروعًا. لكن الطبيب على حق. يمكنك تحمل أي شيء. نحن حيوانات رائعة من هذه الناحية».

«أنا لست كذلك» كان صوت كال جافاً وبلدياً «لا أستطيع تحمل ذلك. لا،

لا يمكنني تحمل ذلك. لن أكون قادرًا على ذلك. سأضطر - سأضطر إلى -»

أمسك لي معصمه بشدة «لماذا أيها الفأر - أيها البغيض. مع كل هذا الخير الذي يحيط بك - لا تجرؤ حتى على التفكير بشيء من هذا القبيل! لماذا حزنتك أدق من حزني؟»

«إنه ليس حزناً. لقد قلت له ما فعلته. لقد قتلت أخي. أنا قاتل. وهو أصبح يعرف ذلك».

«هل قال ذلك؟ قل الحقيقة - هل قالها؟»

«لم يكن مضطراً إلى ذلك. كان جلياً في عينيه. قالها بعينه. لا يوجد مكان يمكنني أن أهرب إليه - ليس لدي مكان».

تنهد لي وأطلق معصمه «كال، استمع إلي. مراكز دماغ آدم تأثرت. قد يكون أي شيء تراه في عينيه ضغطاً على ذلك الجزء من دماغه الذي يتحكم في رؤيته. ألا تتذكر؟ - لم يستطع القراءة كما في السابق منذ فترة. لم تكن المشكلة في عينيه - كان ذلك ضغطاً. لا يمكنك الاعتقاد أنه يتهمك. أنت لا تعرف ذلك».

«اتهمني. أنا أعلم أنه فعل. قال إنني قاتل».

«إذاً سيغفر لك. أعدك».

المرمضة كانت واقفة في المدخل «بماذا تعده يا تشارلي؟ لقد وعدتني بفنجان من القهوة».

«سأفعل الآن. كيف حاله؟»

«نائم كما طفل. هل لديك أي شيء يمكنني قراءته في هذا المنزل؟»

«ماذا تحبين؟»

«شيء يجعلني استرخي».

«سأحضر القهوة لك. ولدي بعض القصص القذرة التي كتبتها ملكة فرنسية.

قد تكون نوعاً ما»..

قالت: «احضرها مع القهوة، لماذا لا تنام قليلاً يا بني؟ أنا وشارلي سنعتني

به. لا تنس الكتاب يا تشارلي».

قام لي بوضع الدورق على الغاز وعاد إلى الطاولة: «كال!»

«ماذا تريد؟»

«اذهب إلى أبرا».

## 2

وقف كال على الشرفة الأنيقة وأبقى إصبعه على الجرس حتى ومض الضوء

القاسي وفتحت السيدة بيكون الباب. قال كال: «أريد أن أرى أبرا».

انفتح فمها بدهشة «ماذا تريد؟»

«أريد أن أرى أبرا».

«لا يمكنك. أبرا في غرفتها. ابتعد عن هنا».

صرخ كال، «أقول لك إنني أريد أن أرى أبراً».

«غادر وإلا سأتصل بالشرطة».

صاح السيد بيكون: «ما هذا؟ من هذا؟»

«لا تهتم - عد إلى السرير. أنت لست بخير. سوف أتعامل معه».

عادت إلى كال «والآن انزل من الشرفة. وإذا قرعت الجرس مرة أخرى سأتصل بالشرطة. الآن!» انغلق الباب وانطفأ الضوء.

وقف كال مبتسماً في الظلام لأنه تذكر توم ميك وهو يتأرجح قائلاً «مرحباً كال. كيف حالك؟»

صرخت السيدة بيكون من الداخل «مازلت أراك. اذهب الآن! انزل من الشرفة!»

سار ببطء في الممشى واستدار للعودة الى المنزل، لم يكن قد قطع مسافة كبيرة قبل أن تلحقه أبراً. كانت تلهث بسبب ركضها: «تسللت من الباب الخلفي».

«سيكتشفون أنك خرجت».

«لا يهمني».

«لا؟»

«لا».

«أبراً، لقد قتلت أخي، وأبي مشلول بسببي».

أمسكت بذراعه وتشبثت بها بكلتا يديها. قال كال: «ألم تسمعيني؟»  
«لقد سمعتك».

«أبراً، أمي كانت عاهرة».

«أعرف. قلت لي. أبي سارق».

«لقد أورتني دمها، أبرأ. ألا تفهمين؟»

قالت: «وأنا ورثت عنه ذلك أيضاً».

سارا في صمت بينما كان يحاول إعادة التوازن إلى نفسه. كانت الرياح باردة، سارعا بخطواتهما للحصول على بعض الدفء. اجتازا آخر ضوء شارع على حافة ساليناس، وكان أمامهما سواد فقط، وطريق وعر ولزج ومكسوطين أسود.

سألته أبرأ «إلى أين نحن ذاهبان؟»

«أردت أن أهرب من عيني والدي. إنهما أمامي طوال الوقت. حتى عندما أغمض عيني أراهما. سأراهما دائماً. سيموت والدي، لكن عينيه ستنظران إليّ، وتخبراني أنني قتلت أخي».

«لم تفعل».

«نعم فعلت. وعيناه تقولان إنني فعلت».

«لا تتحدث هكذا. إلى أين نحن ذاهبان؟»

«أبعد قليلاً. هناك خندق ومضخة وشجرة صفصاف. هل تتذكرين شجرة الصفصاف؟»

«أتذكرها».

قال: أغصانها تنزل كخيمة وتلامس أطرافها الأرض.

«أعرف».

«في فترة بعد الظهر - بعد الظهر المشمس - كنت أنت وآرون تذهبان إلى الداخل - ولم يتمكن أحد من رؤيتكما».

«وأنت رأيت ذلك؟»

«بالطبع رأيت. أريدك أن تدخلني معي داخل شجرة الصفصاف. هذا ما أريد أن أفعله».

توقفت وشدت يدها حتى توقف. قالت «لا. هذا تصرف غير صحيح».

«ألا تريدان الدخول معي؟»

«ليس إذا كنت تهرب - لا، لا أريد».

قال كال: «إذن لا أعرف ماذا أفعل. ماذا أفعل؟ أخبريني، ماذا علي أن أفعل».

«هل ستسمعني؟»

«لا أعرف».

قالت: «سنعود».

«نعود إلى أين؟»

قالت أبراً: «إلى بيت أبيك».

### 3

أشعل لي الفرن لتدفئة المكان.

قال كال: «لقد جعلتني أعود».

«بالطبع. كنت أعلم أنها ستفعل ذلك».

قالت أبراً: «كان ليأتي وحده».

قال لي: «لن نعرف ذلك أبداً».

غادر المطبخ وفي لحظة عاد «ما زال نائماً». وضع لي زجاجة حجرية وثلاثة أكواب خزفية صغيرة شفافة على المنضدة.

قال كال: «أتذكر ذلك».

«يجب أن تفعل». سكب لي الخمر الأسود. «فقط ارتشفها واتركها تدور حول لسانك».

وضعت أبراً مرفقيها على طاولة المطبخ. قالت: «ساعده، أنت بإمكانك تقبل الأمور يا لي. ساعده».



قال لي: «لا أعرف ما إذا كان بإمكانني تقبل الأشياء أم لا، لم تسنح لي الفرصة أبدًا لتجربة الأمر. لقد وجدت نفسي دائمًا - ليس أقل شكًا ولكن أقل قدرة على التعامل مع عدم اليقين. كان علي أن أبكي - وحدي.»  
«البكاء؟ أنت؟»

قال: «عندما مات صموئيل هاملتون انطفأ العالم كما شمعة. أعدت إشعاله لأرى إبداعات هذا الرجل، ورأيت أبناءه مقذوفين وممزقين ومدمرين كما لو كان هناك نوع من الانتقام. دع هذا المشروب يجول مرة أخرى في فمك.»  
وتابع: «كان علي أن أكتشف حماقاتي. هذه كانت حماقاتي: اعتقدت دائمًا أن الخير يُدمر بينما ينجو الشر ويزدهر.

اعتقدت يوماً أن الرب سكب في خضم غضبه واشمئزازه نارًا منصهرة من بوتقة لتدمير أو تنقية كائناته الطينية الصغيرة.  
واعتقدت أنني ورثت كلاً من ندوب النار وشوائبها مما جعل النار ضرورية - وموروثة، على ما أعتقد. هل تشعر بهذا؟»

قال كال: «أعتقد ذلك.»

قالت أبراهام: «لا أعرف.»

هز لي رأسه. «هذا ليس جيدًا بما فيه الكفاية. هذا ليس تفكيرًا جيدًا بما يكفي. ربما.. وصمت.

شعر كال بحرارة الخمر في معدته. «ربما ماذا يا لي؟»

«ربما ستعرف أن كل رجل في كل جيل يُعاد إشعاله. هل يفقد الحرفي، حتى في شيخوخته، شغفه بصنع فنجان مثالي - فنجان رقيق وقوي وشفاف؟»  
رفع كأسه إلى الضوء «كل الشوائب احترقت وجاهزة للتدفق المجيد، ومن أجل ذلك - هناك حاجة للمزيد من النار. وبعد ذلك ستكون هناك إما كومة من الخبث أو، ربما ما لم يتنازل أحد في العالم عنه، الكمال.» أكمل فنجان

وقال بصوت عالٍ «كال، أصغ إلي. هل تعتقد أن من خلقنا - سيتوقف عن المحاولة؟»

قال كال: «لا يمكنني استيعاب الأمر، ليس الآن، لا أستطيع».

سمعوا خطوات الممرضة الثقيلة في غرفة المعيشة. أطلت من الباب ونظرت إلى أبرا وهي مسندة مرفقيها على الطاولة وممسكة بخديها بين راحتيها. قالت الممرضة: «هل لديك إبريق؟ المرضى يشعرون بالعطش. لذلك أحب الاحتفاظ بإبريق من الماء في متناول يدي. أوضحت، «كما تعلم، إنهم يتنفسون من أفواههم».

«هل هو مستيقظ؟» سألتها لي. «ها هو الإبريق».

«أوه، نعم، إنه مستيقظ ومسترخ. غسلت وجهه ومشطت شعره. إنه مريض جيد. حاول أن يتسم في وجهي».

وقف لي: «تعال معي يا كال. أريدك أن تأتي أيضًا يا أبرا. عليك أن تأتي».

ملأت الممرضة الإبريق في المغسلة واندفعت أمامهم.

عندما اقتحموا غرفة النوم، كان آدم مسترخياً على وسائده، يده الشاحبتان على جانبيه، بدا وجهه شمعيًا وشحذ ملامحه الحادة. كان يتنفس ببطء من بين شفتيه الشاحبتين، وعكست عيناه الزرقاوان ضوء مصباح الليل المركّز على رأسه.

وقف لي وكال وأبرا أسفل السرير، تحركت عيون آدم ببطء من وجه إلى آخر وشفته تتحركان قليلاً وكأنه يحييهم.

قالت الممرضة: «ها هو ذا. ألا يبدو جميلاً؟ إنه حبيبي. إنه فطيرتي الحلوة».

«صه!» قال لها لي.

«لن أسمح لك بأن تُتعب مريضتي».

قال لي: «اخرجي من الغرفة».

«سأقوم بإبلاغ الطبيب بذلك».

استدار لي نحوها». اخرجني من الغرفة وأغلقني الباب. اذهبي واكتبي تقريرك».

«لست معتادة على تلقي أوامر من الصينيين».

قال كال، «اخرجني فوراً وأغلقني الباب».

أغلقت الباب بصوت عالٍ بما يكفي لتأكيد غضبها. رمش آدم من قوة الصوت.

همس لي: «آدم!»

بحثت العيون الزرقاء الواسعة عن الصوت ووجدت أخيراً عيون لي البنية المشرقة.

قال لي: «آدم، لا أعرف ما الذي يمكنك سماعه أو فهمه. عندما شعرت بالخدر في يدك ورفضت عيناك القراءة، اكتشفت كل ما استطعته. لكن هناك بعض الأشياء التي لا يستطيع أحد أن يعرفها. قد تكون، خلف عينيك، متيقظاً، أو ربما تعيش في حلم مشوش. ربما تدرك، مثل الأطفال حديثي الولادة، الضوء والحركة فقط. حدث ضرر في دماغك، وقد يكون الأمر وكأنك أتيت للتو إلى العالم. قد يكون لطفك لؤماً الآن، وصدقك كئيباً ومزعجاً. لا أحد يعرف هذه الأمور الآن سواك يا آدم! أيمكنك سماعي؟»

تذبذبت العيون الزرقاء، أغمضت ببطء، ثم انفتحت.

قال لي: «شكراً لك يا آدم. أعلم مدى صعوبة الأمر. مع ذلك سأطلب منك أن تفعل شيئاً أصعب بكثير. ها هو ابنك - كيِّلب - ابنك الوحيد. انظر إليه يا آدم!»

بحثت العيون الشاحبة حتى استقرت على وجه كال. تحرك فم كال لكنه لم يصدر أي صوت.

عاد صوت لي: «لا أعرف كم ستعيش يا آدم. ربما لوقت طويل. وربما

ساعة. لكن ابنك سيعيش. سوف يتزوج وسيكون أولاده هم الباقين الوحيدين منك». مسح لي عينيه بأصابعه.

«لقد فعل شيئاً في خضم غضبه يا آدم، لأنه ظن أنك رفضته. وكانت نتيجة غضبه موت أخيه وابنك».

قال كال: «لي - لا يمكنك ..».

قال لي: «لا بد لي من ذلك يا كال. وأنا أملك الخيار» ابتسم بحزن وقال: «إذا كان هناك لوم، فأنا الملام». ثم قال بحدة: «ابنك يشعر بالذنب تجاه نفسه - من نفسه - بأكثر مما يستطيع تحمله. لا تسحقه بالرفض، لا تسحقه يا آدم، امنحه بركتك ولا تتركه وحده مع ذنبه. آدم، هل تسمعي؟ أمنحه بركتك!»  
لمع في عيني آدم بريق رهيب ثم أغمضهما وأبقاهما مغمضتين. وتشكلت تجاعيد بين حاجبيه.

قال لي: «ساعده يا آدم - ساعده. أعطه فرصته. دعه يكون حراً. هذا كل ما يتميز به الرجل عن الوحوش. حرره! امنحه بركتك!»  
أصبحت أنفاس آدم سريعة ومجهدة، ثم ببطء رفع يده اليمنى - رفعها شبرًا واحدًا ثم تراجع.

كان وجه لي منهكاً. تحرك إلى رأس السرير ومسح وجه الرجل المريض المبلل بحافة الملاعة. نظر إلى عينيه المغمضتين وهمس: «شكرًا لك يا آدم - شكرًا لك يا صديقي. هل تستطيع تحريك شفتيك؟».

نظر آدم بإرهاق. ارتعشت شفتاه وفشلتا وحاول مرة أخرى، ملأ رثتيه بالهواء وهمس:

«لك أن!»

أغمض عينيه ونام.

شرقي عدن.. ملحمة جون شتاينبك المُتخمة بتوليفة هائلة من المشاعر، والتي عبرها أعاد سرد القصص الأساسية لسفر التكوين من خلال بذرها في تفاصيل الحياة المتشابكة لعائلتين أمريكيتين. والنتيجة ملحمة أمريكية بحتة تقع أحداثها في موطن طفولة شتاينبك، وادي ساليناس في شمال كاليفورنيا. تفاصيل هذه الرواية تقع في عالم جديد، مثالي، وقاس على حد سواء، يصفه شتاينبك بحنين شخصي غامر يخيم عليه إيمان راسخ أن هذا الوادي - كما جميع المساكن البشرية - يحتضن الكثير من المآسي بجانب الأمور الأخرى. رواية ماهرة في تفسيرها للتجارب الأساسية للبشرية، الواقعية الوحشية - والقدرية في بعض الأحيان - ومدى قدرة البشر على إيذاء أنفسهم ومن حولهم. كما تستشعر احتفاءها بالمثابرة، الحب غير المشروط، والتوق النبيل إلى تحسين الذات.

بإيجاز، بين يديك عمل غني يتطرق لقدرة البشر على تحديد مصائرهم من مختلف الجوانب، برع فيه شتاينبك في إيصال القارئ إلى إدراك وتأمل مختلف لتقلبات الروح البشرية.

telegram  
@soramnqraa

المتريجة



إخراج وتصميم: دار الرفيدان

ISBN 978-9-9226714-2-0



789922

671420

- daralrafidain
- daralrafidain
- دار الرفيدان
- www.daralrafidain.com
- info@daralrafidain.com
- Dar ALRafidain دار الرفيدان